fb/mashro3pdf

وادي الرماد

رواية

fb/mashro3pdf

وادي الرماد

رواية

تأليف ورسوم:

أحمد صلاح سابق

مراجعة لغوية:

عزة أبو الأنوار

الغلاف تصميم ورسوم:

أحمد صلاح سابق

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢١٠٢٧

الترقيم الدولي: ٥-٣٣-٦٣٧٦-٩٧٧-٩٧٨

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: ٠٢٣٥٦٨٨٦٧٨ - ٠٢٣٥٦١١٧٧٢

هاتف محمول: ٠١٠٠١٨٧٢٢٩٠ - ٠١٠٠٠٤٠٥٤٥٠ - ٠١٠٠٥٢٤٨٧٩٤

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميع الحقوق محفوظة، وأيّ اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الرسوم الداخلية والخارجية وتصميماتها :

©أحمد صلاح سابق ٢٠١٥ . جميع الحقوق محفوظة.

fb/mashro3pdf

وادي الرماد

أحمد صلاح سابق

....

رواية

KAYAN PUBLISHING

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الحلقة الأولى

قتلت القيصر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

السادس عشر من مايو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

«واشنطن بوست

الشرق الأوسط

كتبت: آنا سوانسون*، ١٦ مايو، في الساعة ٢:٤٢ مساءً:

هولوكوست المصريين

في بداية هذا العام، اختُطفت المواطنة المصرية أميرة أحمد، التي تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، وكانت قد أنهت توصيل بعض الأدوية إلى إحدى العيادات الطبية الكائنة بحي الحساني، وفي طريق عودتها، تم توقيفها في حاجز يقع على مشارف العاصمة القاهرة. بفحص هويتها، تبين أنها ابنة رجل الدين المعروف، السيد أحمد السعيد، خطيب مسجد الفتح بحي الحساني، الواقع خارج نطاق سيطرة الإسلاميين. ذكر شهود عيان أن الحاجز يُدار من قبل قوات الأمن الوطني، وأنه محاط بمجموعة من العناصر الموالية للقوات الأمريكية، المسلحة بالبنادق الآلية.

ومنذ ذلك الحين، احتُجزت السيدة أميرة في أحد مقار الأمن الوطني في القاهرة، حيث تناوب ستة رجال الاعتداء الجنسي عليها يوميًا، ولمدة ستة أشهر كاملة، بالتوازي مع ضربها ضربًا مبرحًا، وتعذيبها نفسيًا وبدنيًا، وإيقاع ألوان من العنف الجنسي الشديد عليها. وعندما أفرج عن السيدة أميرة، كانت حاملًا في الشهر الخامس، ولم يكد يمضي على الإفراج عنها شهر واحد، حتى أرسلت عناصر الأمن الوطني إلى أبيها بملف فيديو رقمي على بريده الإلكتروني، جمع مقاطع لحفلات الاغتصاب الجماعي التي أقيمت على شرف ابنته في معسكر الاعتقال.

تحت ضغط المأساة وشيوع الفضيحة، امتنع السيد أحمد عن الظهور، وأقلع من ثم عن إلقاء خطبه التحريضية على جموع المصلين في مسجد الفتح. لم يمنع هذا عناصر الأمن الوطني من اقتحام منزله الأسبوع الفائت بأعداد كبيرة، واغتصاب ابنته أميرة مرة أخرى، وزوجته السيدة هند (٥٠ سنة)، وأختيها فاطمة (١٤ سنة) ورضوى (١٦ سنة)، قبل أن يتعرض السيد أحمد نفسه للاغتصاب ثلاث مرات، تحت سمع وبصر العائلة.

وثّقت الشبكة المصرية لحقوق الإنسان هذا الاعتداء، ضمن توثيقها لآلاف الاعتداءات

fb/mashro3pdf

والانتهاكات الأخرى، التي دأب النظام الموالي للولايات المتحدة على ممارستها بحق المواطنين المصريين، بدعم من قوات الاحتلال الأمريكية.

تأسست الشبكة المصرية لحقوق الإنسان بعد الغزو الأمريكي لمصر بخمس سنوات، وهي جهة حيادية مستقلة غير حكومية، تهدف إلى توثيق الانتهاكات التي تحدث في مصر، والكشف عن مرتكبيها، كخطوة أولى لمحاسبتهم وضمان حقوق ضحاياهم.

وفي ظل عدم وجود أي رادع للنظام المصري يمنعه عن ارتكاب جرائمه ضد الإنسانية، شهد هذا العام تصاعدًا في حملات المداهمة والاعتقال والاختفاء القسري، التي تنفذها قوات الأمن المصرية، بدعم مباشر من القوات الأمريكية المتمركزة في مصر، حيث أكدت الشبكة المصرية لحقوق الإنسان في تقرير أخير صدر عن موقعها، أن سجلات المحتجزين تضم ما لا يقل عن ٧٠٠٠ حالة اعتقال، منهم قرابة ٢٠٠٠ امرأة، و٨٠٠ طفل.

يقوم فريق الشبكة المصرية لحقوق الإنسان بتسجيل ما لا يقل عن ١٠ حالات موت تحت التعذيب داخل مراكز الاحتجاز النظامية وغير النظامية بصفة يومية، وهو الرقم ذاته الذي يُعبّر عن المعدل اليومي المتوسط للقتلى تحت التعذيب. لا تُميّز قوات الأمن في هذا الشأن بين طبيب أو مهندس أو رجل دين أو ناشط إغاثي، فالجميع يتعرض لمنهجية واحدة في التعذيب داخل مقار الأفرع الأمنية المختلفة.

وثّقت الشبكة المصرية لحقوق الإنسان مقتل ٤٠٠٠ شخص تحت التعذيب هذا العام وحده، الأمر الذي يشير إلى شيوع منهجية التعذيب واتخاذها سياسة عامة، وهو ما يعتبر -في ظل النزاع المسلّح الدائر حاليًا بين قوات التمرد من جهة، والقوات المصرية والأمريكية من جهة أخرى- جريمة حرب، وجريمة ضد الإنسانية. كما أشارت الشبكة المصرية لحقوق الإنسان إلى أن مقار المخابرات العسكرية والأمن الوطني هي الأسوأ سُمعة بين سائر الأفرع الأمنية الأخرى، التابعة للقوات الشُرطية والعسكرية المصرية.

ما يهمنا في هذه القصة تحديدًا، هو الدعم الذي تتلقاه قوات القمع المصرية من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين. إن القوات الأمريكية تدعم القوات النظامية المصرية دعمًا غير محدود، عن طريق شن غارات جوية مكثفة، لا تميز بين نقاط تمركز المتمردين والمتطرفين الفعلية، والمناطق السكنية، بما فيها من ساحات وأسواق ودور عبادة ونقاط طبية، بدعوى انتشار المسلحين في الأحياء المكتظة، واتخاذهم المدنيين دروعًا بشرية.

fb/mashro3pdf

أرقـام الضحايـا تـدل عـلى عشـوائية القصـف، وكـذب ادّعـاءات البنتاجـون وروايـاتـه عـن الغارات الجويـة الجراحيـة الدقيقـة، الـتي تتجنـب قـدر الإمكان إيقـاع ضحايـا مـن بـين صفوف المدنيـين. الدعـم الجـوي والـبري الأمريـكي المبـاشر سـاعد قـوات النظـام المـصري عـلى فـرض حصـار خانـق عـلى المناطـق الـتي تسـيطر عليهـا المعارضـة الإسـلامية المسـلحة المتشـددة، مثـل مناطـق عـين البقـرة، وبـني حسـين، وأولاد عبيـد، الـتي نزلت بسـاكنيها مـن المدنيـين غوائل القصـف والتجويـع وغيـاب الرعايـة الصحيـة، كمـا عاثـت فيهـم عصابـات الإسـلاميين وتجـار الحـروب. ووفقًـا لتقاريـر الشـبكة المصريـة لحقـوق الإنسـان، تحولـت المناطـق الواقعـة تحـت سـيطرة الإسـلاميين إلى حقـول تجـارب لمختلـف أنـواع القذائـف والصواريـخ، مثـل القنابـل العنقوديـة، وقذائـف الأبخـرة الحارقـة، وذخائـر اليورانيـوم المنضـب، وغيرهـا.

وعـلى صعيـد آخـر، أكـد السـيد أحمـد السـعيد، رئيـس الشـبكة المصريـة لحقـوق الإنسـان، أن المقاتلـين التابعـين للفصائـل الإسـلامية، يمارسـون مـن جهتهـم أبشـع أنـواع الانتهـاكات في جميـع أنحـاء القاهـرة، بخاصـة تلـك الواقعـة تحـت سـيطرتهم، حيـث تشـهد مناطـق مثـل عين البقـرة وبـني حسـين والدبابير مجـازر واسـعة ارتُكِبـت بحـق الأهـالي، فضـلًا عـن عمليـات إعدام خـارج نطـاق القانـون، وتجنيـد القُـصّر للخدمـة العسـكرية، وممارسـات العبوديـة الجنسـية والاتجـار في الأشـخاص، وكلهـا ممارسـات تـرق إلى مسـتوى جرائـم ضـد الإنسـانية. ولعـل مـن أبـرز مـا ارتكبـه الإسـلاميون مـن جرائـم، مجـزرة عزبـة أبي يوسـف، الـتي اقتحمتهـا منـذ شـهرين قـوات لـواء جنـد الرحمـن، الـتي يقودهـا الإرهـابي المطلـوب رمضـان النجـار، وأعدمـت ١٥٠ شـابًا مـن أبنـاء العزبـة، بعـد ارتـكاب أعمـال سـلب ونهـب وسـبي.

إن الحـرب المصريـة تشـهد تحـوّلًا داميًـا جديـدًا في الأحـداث، أدى إلى ارتفـاع أعـداد الضحايـا مـن المدنيـين في فـترة مـا بعـد النـصر، وتصاعـد العنـف عـلى نحـو لـم يسـبق لـه مثيـل منـذ سـنوات الانتفاضـة المصريـة الأولى. نتائـج هـذا الـصراع تتمثـل في كارثـة إنسـانية جديـدة في مـصر، لـن تهـدد الشـعب المـصري وحـده، بـل كل الشـعوب المجـاورة، وقـد تفاقـم حجـم التوتـرات في جميـع أنحـاء المنطقـة، وتهـدد دولًا مجـاورة تحـترق هـي أيضًـا بنـير الحـرب الأهليـة ونفـاد المـوارد الطبيعيـة. بـل قـد تـؤدي إلى حـرب أوسـع نطاقًـا، لـن تقـدر قواتنـا المسـلحة عـلى خوضهـا، وهـي مغروسـة إلى ركبهـا حـتى يومنـا هـذا في المسـتنقع المـصري، ومـا يجـاوره مـن مسـتنقعات، دون أمـل منظـور في تسـوية أو انسـحاب.

fb/mashro3pdf

محنة الشعب المصري كانت وما زالت تفرز عواقب وخيمة على الأمن والاستقرار العالميين، فماذا نحن فاعلون إزاء هذا التحدي؟

* آنا سوانسون هي مديرة مكتب واشنطن بوست في القاهرة. أمضت أكثر من خمسة عشر عامًا في تغطية أحداث الشرق الأوسط، بخاصة الحرب المصرية، كما عملت مراسلة صحفية في شمال إفريقيا وفي الهلال الخصيب وشمال إفريقيا، والصين وأفغانستان».

*****

بكثير من الاستياء، قرأت إيلينا مقال جريدة واشنطن بوست الإلكترونية على شاشة حاسوبها المحمول الرقيقة، واغتمّت مما رأته فيها من مغالطات وقحة، وأرقام مكذوبة، تهدف بها المُحققة إلى إثارة الرأي العام ضد الإدارة الأمريكية الجديدة، وتحريك مشاعر الجماهير ضد الجهود الحربية في مصر. شق عليها اعتماد المحققة الصحفية الرصينة، واسعة الخبرة والتأثير، على منظمة مصرية منحازة، مشكوك في توجهاتها وأهدافها، ورأت كذلك أن الخط العام للمقال تعوزه المهنية والموضوعية والوضوح.

لم تفكر إيلينا طويلًا، بل أزاحت صفحة المقال بلمسة من سبابتها، واستدعت صفحة بريدها الإلكتروني الشخصي. احتوت حاسوبها بين راحتيها، وحركت إبهاميها على لوحة الأزرار الافتراضية حثيثًا. عبّرت عن امتعاضها بكلمات متبرمة، متسرعة، ملأت متن رسالة خاصة إلى آنا سوانسون في دقائق معدودة. أضافت على بعض فقرات الرسالة مسحة ساخرة مستهينة، وأدرجت في فقرات أخرى وعيدًا واضحًا بالملاحقة والتضييق، «في الحدود التي يخوّلها لها القانون»، وختمت الرسالة بأن كتبت: «أظن يا عزيزتي آنا أنك ستندمين على دعمك لادّعاءات منظمة معادية، مساندة للإرهاب، ملطخ تمويلها بالشكوك، مثل الشبكة المصرية لحقوق الإنسان».

استعرضت إيلينا الرسالة بعين الرضا، واستلذت جزالة لفظها ومنطقها، والحماسة والحسم المُطلان من كل فقرة فيها، وأعادت كذلك صياغة بعض العبارات ونقّحتها وحسّنتها، كما حذفت جزء التوقيع الودود، الذي تذيل به كل رسائلها تلقائيًا، والذي

fb/mashro3pdf

يقول: «المخلصة: إيلينا دانيال فيكسلبرج»، وأبقت على اسمها فقط، على نحو يقطع أي أثر لتودد أو تحبب في الرسالة.

ولما حانت منها التفاتة إلى الوسط المحيط، رأت حقيبتها تنزلق ببطء مع انزلاق سير استلام الأمتعة. حذفت الرسالة بأسرها على عجل ودون تردد، ونهضت إلى السير لتجلب أمتعتها. لم تكن قد عقدت النية من البدء على إرسال مكتوبها المتهور إلى المحققة الصحفية الشهيرة بأي حال من الأحوال؛ لأنها تعلم أنها إن أرسلت نص الخطاب على صورته الحالية، فسيطفو غدًا أو بعد غد على صفحات الصحف الكبرى والقنوات الفضائية، وقد يؤدي إلى فضيحة مؤسفة، أو في أفضل الأحوال، ضجة مؤذية لا لزوم لها. سيُغمر البيت الأبيض بمئات الرسائل الإلكترونية الغاضبة، من النوع الواعظ المستنكر، وستوصم استجابة مستشارة الأمن القومي لمقال معارض في جريدة عريقة واسعة الانتشار بالإرهاب، وسيُنتقص من قدر نخب الإدارة الأمريكية الجديدة، ويُعاب عليهم رفض النقد والحوار، وتفضيل مواجهة الصحفيين بالتهديد والابتزاز.

رفعت إيلينا أمتعتها المدمجة عن السير المتحرك، وانطلقت لشأنها. على خلاف عادتها، هجرت السيدة المحافظة هندامها الرسمي الحسن، المتألف في أغلب الأحيان من حلة محكمة وتنورة، والمناسب دومًا لأجواء «كابيتول هيل». لم تلتزم اليوم بنهجها المنضبط في متابعة «موضة النسوة السلطويات»، البعيدة عن أي ابتكارات من شأنها زعزعة صورة الوقار والاتزان الملازمة للمنصب الحكومي.

اليوم، ارتدت السيدة إيلينا دانيال فيكسلبرج سترة قطنية خفيفة، رمادية اللون، واسعة ومريحة، قصيرة الكُمّين، وسروالًا ليّنًا مُترفًا، محكم الالتفاف حول ردفيها ورجليها، وانتعلت حذاءً رياضيًا أبيض اللون، بسيط التصميم، من بيت الأزياء الفرنسي «إيزابيل ماغاه»، كما عقصت شعرها الناعم، العسلي اللون، وأرسلته على شكل ذيل الفرس. خلا وجهها منمنم القسمات من أي مساحيق، فتجلّى جمالها برّاقًا دون رتوش اصطناعية، وظهرت كذلك العيوب الطفيفة على البشرة وبعض النمش، أما التجاعيد الدقيقة المحدقة بعينيها، فقد سترتها بمنظار شمسي بسيط من «إمبوريو أرماني».

بدت السيدة إيلينا، في ظاهر الأمر، كأي امرأة أربعينية ميسورة الحال، تطمح إلى قضاء إجازة استجمام صيفية سريعة، بلا ضجة ولا بهرجة، وعبّر ملبسها عن الانتعاش

fb/mashro3pdf

الصيفي وترف العيش، رغم أنها في حقيقة الأمر كانت قد كُلِّفت في مطلع هذا الأسبوع بإنجاز مهمة سرية عسيرة، قد تؤثر على مسار الإدارة الحالية، وقد تعزز من قدرتها على مواجهة أعبائها المحرقة في مصر، نهائيًا وعلى نحو حاسم. كانت تعلم بكل تأكيد أنه أمر يمكن إنهائه على نحو حاسم تمامًا، بيد أنها لم تُحجِم عن التمسك بالأمل.

*****

تقع مدينة «كوفس هاربر» على الساحل الشمالي لولاية «نيو ساوث ويلز» الأسترالية، وتبعد عن مدينة سيدني ما يقرب من خمسمائة وأربعين كيلومترًا من جهة الشمال. تعد هذه المدينة من أكثر مدن القارة الأسترالية اعتدالًا في المناخ، وفقًا لمنظمة الكومنويلث للبحوث العلمية والصناعية؛ لأنها محصورة بين خلفية جبلية شاهقة من جهة، وساحل ممتد مطل على بحر تمسان من جهة أخرى.

كانت إيلينا قد قرأت هذه المعلومات الموجزة عن المدينة على عجل، وغيرها الكثير عن الحكومة الأسترالية والمناخ واللكنة وحيوان الكنغر، في أثناء رحلة الطيران السريعة من واشنطن إلى سيدني. وفي غضون انتظارها الوجيز في مطار سيدني، من أجل أن تستقل الطائرة الداخلية من سيدني إلى كوفس هاربر، أدركت أنها لا تكاد تستحضر اسم رئيس الوزراء الأسترالي. عزت هذا الجهل بكل أسف إلى فتور اهتمامها بهذه المنطقة من العالم، مقارنة بمناطق أخرى أكثر سخونة. ويمكنها أن تدّعي بوعي كامل، أن مهارتها اللغوية العِبرية والعَربية، أعمق وأكثر أصالة من مهارتها في فهم الإنجليزية ذات اللكنة الأسترالية، رغم أن الإنجليزية هي لغتها الأم.

وفي أثناء رحلتها الداخلية على متن طائرة خطوط «فيرجن أستراليا» الجوية، فكرت إيلينا في أستراليا مزيدًا من التفكير، وانتهت إلى أن جهلها المعيب بالشؤون الأسترالية، يعود في جزء منه إلى أن الأستراليين، شعبًا وحكومة، لا يُسيؤون التصرف؛ لأنهم مستقرون نفسيًا، ولا يستهلكون المخدرات بكميات استفزازية، ولا يلقون بثِقَلِهم في أي مسألة دولية برعونة أو طيش، وقلما يقعون ضحية تفجيرات إرهابية أو أعمال عدائية داخلية مُكدِّرة للسلم والأمن العامين. وهم -فوق ما تقدم ذكره- يراعون إدارة مصالحهم على نحو

fb/mashro3pdf

لائق، وهكذا يصعب على المرء أن يسمع عنهم خيرا أو شرًا.

أمضت إيلينا فضلة الساعتين على الطائرة في القراءة عن كوفس هاربر ومطارها. علمت أن مطار كوفس هاربر هو الميناء الجوي الوحيد في المدينة، وأنه يعد من أهم المطارات الإقليمية وأكثرها ازدحامًا في ولاية «نيو ساوث ويلز»، ودهشت من ثَمَّ لخلوِّه من الآدميين تقريبًا. كانت تمشي وحدها في المطار، وذلك بعد أن أنهت إجراءات الوصول، ولم يكن ثمة شيء حولها أو فوقها سوى جدران مطلية وواجهات زجاجية كبيرة. أحصت في طريقها إلى الخارج سبعة أشخاص، تفرقوا بين صالة الإنترنت ومكاتب تدقيق الهويات والمطعم، إلى أن وصلت إلى بوابة الخروج.

انزلق مصراعا البوابة أمامها بنعومة، ولما خطت إلى الخارج، استقبلتها أشعة الشمس الباهرة، وغمرتها بالسعادة والراحة، كمن صادف مفاجأة سارة على حين غفلة. تبسمت، واسترجعت في ذهنها من تعرفهم من الأستراليين، وانتهت إلى أن الأستراليين البيض -على وجه العموم- بشوشون مُحِبون للبهجة والانبساط، وهم أيضًا كيّسون سريعو البديهة كريمو الأخلاق. ولا غرو، فهم يقطنون في مدن نظيفة، آمنة، تطل على البحر في أكثر الأماكن، ويؤلفون فيما بينهم، في قارتهم المشمسة المتوحدة، مجتمعات مزدهرة، منظمة، فيها من المساواة وتكافؤ الفرص ما ليس في غيرها من مجتمعات العالم المتحضر. تذكرت إيلينا أيضًا، بابتهاج وطيب نفس، أن الطعام هنا جيد، والجعة مُثلّجة.

لم يمضِ على وقوفها عدة ثوانٍ، حتى توقفت أمامها سيارة من طراز فولكس فاجن «توارج»، متوسطة الحجم، ذات لون بلّوطي غامق، وسطح مصقول لمّاع. خرج من السيارة شاب ثلاثيني نحيف، لطيف القسمات، خفيف شعر الرأس، واندفع نحو إيلينا وقد بدأ يعتذر من تأخره، وألقى باللوم كله على نفسه وتباطؤه، وطلب الصفح مخلصًا. لم تدهش إيلينا من اندفاعته العاطفية تلك، وهي خِصلة جرّبتها في كثير ممن عرفتهم من الشرقيين، بل اكتفت بأن رحبت به قائلة بلطافةٍ وطلاقةِ وجه: «ماجد.. كيف حالك؟»، وضمّته إليها باشتياق ظاهر، وتنشقت عطره الطازج الحاد. لم تكن قد رأته منذ عدة سنوات، وكان آنذاك في أواخر العشرينيات، وأقرب من جهة الشكل إلى المراهقين منه إلى الرجال. اليوم فوجئت به وقد استحال رجلًا أنيقًا، جميل الصورة، يشعّ ثقة في النفس، مُحلاة بالتكبُّر الفطري المصاحب للموسرين المترفين.

fb/mashro3pdf

وضع الشاب أمتعة ضيفته في حقيبة السيارة الخلفية، ثم دعاها بأدب للجلوس على الأريكة الخلفية، فأبت إلا أن تجلس إلى جواره. انطلق الشاب بالسيارة على وجه السرعة مغادرًا، فألقت إيلينا نظرة شاملة على واجهة المطار الخارجية، فألفته ضئيلًا كئيبًا متواضعًا.

- أخبرني.. منذ متى وأنت هنا؟

هكذا بادرته إيلينا بالسؤال، فيما تسير السيارة بمحاذاة منطقة المطار. أدار ماجد عجلة القيادة، وانحرف إلى الجهة الشمالية الغربية، قاصدًا طريق المطار المباشر، وقال:

- منذ شهر تقريبًا.

- أهي زيارة، أم استقرار؟

قال ماجد آسفًا، بإنجليزية طليقة:

- يبدو لي أنني سأضطر إلى البقاء؛ أبي يريد هذا، وزوجتي والأطفال يحبون المكان.

- وكيف ترى أنت الوضع؟

ابتسم ماجد بكآبة، وقال:

- لست معتادًا على الحياة هنا. عشت حياتي كلها بين لندن والقاهرة، وهما -كما قد تعلمين- حاضرتان متشابهتان.

قالت إيلينا متسائلة بكياسة:

- من أي جهة تقصد؟

بحث ماجد في ذهنه عن تعبير مناسب، ثم قال:

- من جهة أسلوب الحياة.. الضوضاء.. الزحام.. التنافس.. فرص العمل.. الترفيه.. والمصريون، لندن مكتظة بالمصريين والعرب، من كل الفئات والشرائح.

- نعم.

طافت السيارة مع الممر الدائري المفضي إلى طريق هوجين المباشر، المحفوف بأراضٍ واسعة ذات شجر كثير متكاثف. أراد ماجد أن يستأنف الكلام، وأن يوضح شكواه مزيدًا من الإيضاح، فقال:

- كنت أعمل في لندن ساعات عمل وحشية، من الثامنة صباحًا إلى العاشرة مساءً كل يوم تقريبًا، بما في ذلك عطلة نهاية الأسبوع. زينب زوجتي كانت تعمل هي الأخرى

fb/mashro3pdf

لساعات جنونية. العمل في القانون مثله مثل العمل المصرفي، لا يرحم، ولا يترك أي حيز من الوقت للحياة الشخصية. ولهذا أعجبها المقام هنا.

- نعم.

- قبل أن أغادر، كنت جزءًا من فريق عمل يبني قسمًا جديدًا للخدمات الاستثمارية المصرفية في شركة كبيرة. للأمانة، لم أرَ أحدًا في فريق العمل يستخدم منشطات الأمفيتامين. ربما تعاطى بعض الناس «ريتالين» أو «أديرال» في السر. أما أنا، فكنت مدمنًا على القهوة والصودا ومشروبات الطاقة، حتى هزل جسمي، وإذا بي أعجز عن النوم بصورة طبيعية.

عبّرت إيلينا عن اندماجها في الحديث بأن قالت ساخرة:

- وأنا التي كنت أظن أن أيام المصرفيين رعاة البقر المجانين، من مدمني الكوكايين، قد ولّت.

- ثم أجد نفسي فجأة، مضطرًا إلى أن أترك كل شيء.. كل ما بنيته.. ومطالبًا بأن ألتحق بالوالد في هذا المنتجع المُلقى على حافة الدنيا. بل أفاجأ، بعد أن أقطع المسافات الطويلة إلى هنا، بكلام يقال حول العودة إلى القاهرة، في تلك الظروف. هل تصدقين هذا؟!

انتبهت إيلينا إلى ما قاله الشاب حول العودة إلى القاهرة، وطفق دماغها المدرب يحلل المعلومة ويربطها بما تقدم من أحداث، وبجوهر مهمتها هنا، من دون أن يظهر على وجهها البارد أي أثر لالتفات أو يقظة استثنائية. قالت متسائلة بهدوء:

- وما رأيك أنت في شأن العودة إلى القاهرة؟

- أصدقك القول، لا أدري. أنا أرفض الأمر تمامًا من جهتي، وأُفضّل ألا أعود أبدًا. لكن القول النهائي ليس في يدي، وأنتِ تعلمين هذا. لو قرر والدي أن يعود، فسنعود جميعًا.

أومأت إيلينا دلالة الفهم، ولم تُدلِ بتعليق، في الوقت الذي اجتازت السيارة طريق «هوجين»، ثم اخترقت ضاحية سكنية ذات حدائق مدمجة بهيجة، ومنازل جميلة متقاربة. لحظ ماجد إلى إيلينا، ورآها تنظر إلى البيوت والأشجار. لم يسرع في قيادته؛ لأنه أراد أن يتيح للضيفة فرصة الانتفاع بجولتها في المدينة السياحية الشهيرة. وجد في نفسه رغبة في أن يُحدّثها عن معالم المكان، وعن أفضل مكان للتسوق وتناول العشاء، غير أن

fb/mashro3pdf

معلوماته عن المدينة كانت ما تزال منقوصة وغير دقيقة، لقِصَر مقامه فيها.

عوضًا عن هذا، استأنف حديثه في الموضوع ذاته الذي كان قد بدأ فيه من قبل، وقال مُفسرًا:

- لا أريدك أن تسيئي فهمي. أبي لن يجبرني على المجيء معه. هو لم يجبرني من البدء على المجيء إلى هنا. لكني بدأت أشعر بحاجته إلينا في عمره هذا. هل تفهمينني؟ ولن أستطيع بالطبع أن أتركه يذهب إلى مصر وحده.

ضحكت إيلينا، وقالت:

- يا عزيزي ماجد.. أبوك يتمتع بصحة ممتازة، ولم يتجاوز الستين بعد، وهو أشد قوة مني ومنك ومن أبنائك وزوجتك مجتمعين.

هز ماجد رأسه باستياء وهو يعبر بالسيارة فوق جدول كوفس هاربر المائي، ولم يعجبه ما سمع. امتد بهما المسير إلى أن انتهيا إلى ممر دائري آخر. هنا قال الشاب مُتمًّا حديثه:

- مصر دُمِّرت نهائيًا يا إيلينا. لم تعد صالحة لحياة الآدميين. لن أترك أبي وحده هناك أبدًا. وقد أضطر إلى اصطحاب الأطفال أيضًا.. من هنا تأتي المشكلة الحقيقية.

- نعم.

كانت قد مرت عليهما عشرون دقيقة منذ غادرا المطار، ولما بلغا طريق باسيفيك السريع، أطلق ماجد العنان لمحرك السيارة القوي، الموفر للطاقة. رأت إلينيا عن يمينها مطعم «ماكدونالدز» للوجبات السريعة، وبعده بمسافة قصيرة رأت مطعم «كنتاكي» للدجاج المقلي، ثم عن يسارها لحظت مطعم «ساب واي» للشطائر. بين هذا المطعم وذاك تتابعت المنشآت الصناعية والتِجارية على جانبي الطريق تترًا، وفصلت بينها مساحات واسعة من الشجر والعشب. قطعت فولكس فاجن تتوارج المسافات برشاقة وسكون، وحثت اهتزازاتها الرتيبة الخفيفة إيلينا على أن تريح ظهرها وترخي أوصالها على كرسيها الوثير، وعلى أن تسبل جفنيها كي تنال قسطًا يسيرًا من الراحة، قبل أن تلتقي بالرجل الكبير.

انتبهت إيلينا أثناء مرور السيارة إلى جانب محمية «كورورا» الطبيعية، ولم تكن تعلم ماهيتها على وجه التحديد، إنما رأت مساحة شاسعة تكتنفها الأشجار من كل جهة. قدّرت

fb/mashro3pdf

بالتخمين أنها مرتع لأنواع كثيرة من الحيوانات، فقالت متسائلة على حين بغتة:

- في طريقي إلى هنا، كنت قد قرأت أن أستراليا يعيش فيها ما يزيد عن مئة مليون كنغر.

- لم أكن أعلم هذا.

- نعم، مئة مليون، على وجه التقريب.

- لم أرَ لحد الآن أي كنغر، لا هنا ولا في أي مكان آخر.

- هل طُفت حول الولاية، أو أي مكان آخر؟

- لا.. أنا رجل حضري، لا طاقة لي على الاستجمام في الريف أو التمتع بالهدوء. يسهل أن تعثري عليّ في «شاستون آرمز»، ويستحيل أن تجديني في «هايد بارك».. وهذه لندن، فكيف الظن إذن بوسط اللا مكان هنا؟

- نعم.

هكذا قالت إيلينا بصوت لا عاطفة فيه، وهي تكاد لا تكترث بما يقال، وشغلت نفسها بالنظر إلى صفوف أشجار الحور المرتفعة. استلذت بمرور الهواء النقي على بشرتها، وتخلله ثنايا ملابسها، وخلوصه إلى نحرها وصدرها.

لزم ماجد الصمت لدقائق، ثم جدّ له في موضوع الحديث الأخير خاطر، فقال لضيفته متسائلًا:

- هل تظنين أن الكنغر يؤكل؟!

التفتت إليه وقد شاقها السؤال. بحثت في ذهنها عن إجابة، ثم قالت بعد برهة قصيرة، وكأنها مدهوشة:

- لا أدري.

- كنت أظن أن الكنغر مثل الأرنب مثلًا.

تصورت إيلينا الكنغر، وتمثلت الأرنب كذلك، ثم لما قارنت بين الصورتين، لم تجد بينهما تشابهًا ولو طفيفًا. حزرت أوجهًا أخرى للتشابه بين الكنغر والسنجاب، على ما بين حجميهما من تفاوت، ثم بين الكنغر والأبوسوم، فوجدت بينهما تجانسًا كبيرًا. كانت تعلم من واقع دراستها للتاريخ بعض الحقائق الطريفة عن أوبوسوم فرجينيا، وهو حيوان أمريكي صغير من ذوات الجراب، ينتمي إلى عائلة الشقبانيات، ويتظاهر بالموت

fb/mashro3pdf

عندما يحدق به الخطر. لم ينتمِ أوبوسوم فرجينيا إلى الولايات المتحدة في المقام الأول، بل تحدر من بقاع أخرى، إلى أن جلبه البشر إلى الغرب إبان فترة الكساد الكبير، وعَدُّوه مصدرًا للغذاء، حتى تكاثر وتوسع نطاق انتشاره توسعًا مطردًا إلى كندا في الشمال، وبات جزءًا من حياة القارة الأمريكية البرية.

ثم تداعت أفكارها إلى خاطرة أخرى تخص سؤال ماجد الأول، فقالت بحماسة:

- أتعلم؟ أظن أن لحم الكنغر يؤكل فعلًا. رأيته من قبل في أحد محال اللحوم في كاليفورنيا. كان يباع مع أنواع أخرى أغرب من اللحوم، مثل لحم التمساح، ولحم الظباء.

قال ماجد معلقًا، بلهجة من هو عليم خبير:

- لحم الظباء طيب جدًا.

مطت إيلينا شفتيها، وقالت:

- حاولت أن أستسيغه، فلم أستطع.

- ولِمَ؟

- لا أدري. لا أحب لحوم ذوات القرون على وجه العموم. لها نكهة، في رأيي، مريكة، بل تكاد أن تكون مقززة.

رفع ماجد حاجبيه مدهوشًا، ومطّ شفتيه هو أيضًا، غير أنه قال بتفهم:

- نعم، أفهم ما تقولين.

ضحكت إيلينا وقالت:

- وتظن أنني فلتة من فلتات الطبيعة؛ لأنني لا أحب لحم الغزلان والظباء، ذا السمعة الدولية الحسنة.

ضحك ماجد هو أيضًا لضحكها، وقال:

- أحلف بالله أن لا. المأكل والمشرب يخضعان للذائقة الشخصية دون غيرها، ولا مجال في هذا المضمار للمتحيزين.

- أحسنت القول.

جاء وقت انتصاف النهار، وكمل سطوع الشمس حتى صارت بيضاء ناصعة، في الوقت الذي انعطفت السيارة إلى طريق «كوتشمان»، المار بحي سكني ذي طبيعة ساحرة، فكأنه من أغنى بقاع أستراليا منظرًا وأوفرها جمالًا. شغفت إيلينا بالمكان، فأقبلت تسرح النظر

fb/mashro3pdf

في الخمائل والرياض والبساتين، والأشجار والثمار، والأزهار والطيور، إلى أن عبرت السيارة بوابة حديدية، لتدخل إلى حيز ملكية عقارية ذي أسوار مرتفعة مبطنة بالأشجار. انسابت السيارة على طريق مُعبَّد، يمر في حديقة إنجليزية الطراز، تتوسطها بحيرة صغيرة جميلة.

توقفت الفولكس فاجن أمام فيلا فاخرة، جاوزت الحد الاعتيادي في نواحي الفخامة والجمال. نزلت إيلينا من السيارة، وتركت لماجد مهمة جلب حقيبة السفر، واكتفت بحمل حقيبة الكتف الجلدية خاصتها، التي تحوي حاجياتها الشخصية وأوراقها. استنشقت دفعات من الهواء البحري المنعش، واستشرفت جدران الفيلا المبنية من الحجر الكلسي الخشن وألواح الزجاج اللامع.

وأمام مدخل الفيلا، استقبلها الرجل الكبير.

جاوز الخمسين ببنية قوية، وطلعة مهيبة، وشعر أشهب منحسر، وعينين باردتين. انفرجت أسارير إيلينا عن ضحكة خفيفة، وأقبلت على الرجل. استقبلها قائلًا ببشاشة وترحاب، وبما يشبه الهزأ: «عزيزتي إيلينا. ألست اليوم أسعد إنسان لأني رأيتك؟» ثم حرص على إبداء الظرف واللباقة وهو يبادلها العناق، ويربت على ظهرها برفق.

ولما باعدت عنقها عن عنقه، سألها:

- أخبريني.. كيف كانت رحلتك؟

نظرت إيلينا إليه بابتهاج، وسرّها النظر إلى عينيه المزهوّتين، وقالت تجيبه:

- مُرهِقة.

كانت تعده، على تقدمه في السن، رجلًا مميزًا، واسع الثقافة، مكتمل الرجولة، نافذ السلطان، مقاومًا للزمن وما يترادف على الرجال فيه من عوامل الحت والتشيخ. لم تفقده السنون جاذبيته الخشنة البريئة من المداراة أو اللباقة، المشابه لمذاق فاكهة لم تنضج بعد. أما وجهه، هذا الوجه المربع قاسي الزوايا، ففيه قوة لاذعة تبعث في الناظر حيوية ويقظة بعد فتور، وعليه غمامة تنمّ عن المكر والاحتيال، وفيه التماع يفضح عيوبه الشائقة ونواقصه الممتعة المثيرة للاهتمام. بإيجاز، ماثل أثر تجلّي هذا الرجل أمامها، على نحو ما، أثر تنشقها خمرًا معتقة، تُرِكَت زمانًا لتَقْدُم وتَطِيب.

- لا بأس الآن. جميل أن أراكِ اليوم في خير حال. لم يتقدم بك العمر يومًا واحدًا فيما يبدو.

fb/mashro3pdf

هكذا قال الرجل وهو يرمق ماجد بطرف عينيه، إذ يقبل عليهما حاملًا حقيبة السيدة.

وقالت إيلينا، وهي تتلفت حولها:

- جميل أن أراك أنا أيضًا يا عزيزي، في أتمّ صحة، في هذا المنزل الجميل، وهذه المدينة الجميلة.

ارتدى الرجل قميصًا ناصعًا مريحًا، قصير الكمين، منسوجًا من القطن الفاخر، وسروالًا أنيقًا كاكي اللون، محبوكًا من قماش إيطالي نفيس، وانتعل حذاءً قيّمًا، لمع بلون الكراميل، فتجانست فخامة مظهره مع فخامة فيلته وفخامة حديقته، واتسقت مع فخامة الأجواء المحيطة به إجمالًا.

قال مبتسمًا، ناظرًا إلى السماء:

- المكان جميل جدًا، نعم، والمنطقة هادئة وآمنة.. الطقس اليوم معتدل أيضًا، وهو معتدل على مدار العام، إنما في مايو بالخصوص.. السماء صافية، الرطوبة شبه معدومة، رغم أن الطقس في سيدني بارد اليوم، وفي ملبورن أيضًا، شديد البرودة.

تجوّلت إيلينا مع الرجل الكبير في أرجاء الحديقة الأمامية وهي تقول:

- أخبرني.. كيف وجدت هذا المكان؟

- الأرض مملوكة لماجد من عشر سنوات فيما أذكر. منزل رائع، مناسب للأسرة وللأطفال.

- أي أطفال؟

هكذا قالت إيلينا متسائلة، فقال الرجل مجيبًا، واضعًا يديه في جيبي سرواله:

- ماجد نكح امرأة اسمها زينب، وأنجبا ليلى وناجي وروبي.

- وأين هم هؤلاء الأطفال؟

- أرسلتهم إلى سيدني في رحلة استجمام لثلاثة أيام، والخدم أيضًا، أرسلتهم جميعًا. أبقيت على ماجد فقط، لخدمتنا، وهو يعرفك حق المعرفة.

استقل ماجد السيارة مجددًا، ولوّح لإيلينا وأبيه، قبل أن يسلك طريقًا جانبيًا يفضي إلى المرآب. لوّح له السيد برزانة، وشكرته السيدة بإشارة من يدها، ثم التفتت إلى مضيفها، وقالت له بجدية:

- حسنًا فعلت.

- اسمحي لي أن أريكِ المكان.

fb/mashro3pdf

وأخذها من ذراعها القوية النحيلة، فأوقفته بلمسة من يديها، وقالت متسائلة:

- أنت بنيته بنفسك؟

التفت الرجل إلى الفيلا، وقال:

- تعنين المنزل ذاته؟ نعم، بالتأكيد، الأرض كانت خالية عندما ظفرنا بها. لم أبنه بنفسي طبعًا. هناك مهندسون وبناؤون مأجورون للقيام بمثل هذه الأشياء.

- هل تطل الفيلا على البحر؟

- مباشرةً.. تعالي لأريكِ.. الموقع أكثر من ممتاز؛ يطل على بقعة خاصة من شاطئ «سافاير». وهناك حوض سباحة أيضًا كبير، يطل على المحيط مباشرة. هذه الضاحية تطل على منطقة شواطئ خاصة، لا يدخلها إلا من يسكن فيها.

أثلجت إيلينا صدرًا بخبر حوض السباحة المنزلي هذا، والشاطئ الخاص، وأملت في أن تمزج بين العمل والاستجمام، بعيدًا عن عدسات الصحفيين وضجيج المساعدين. وقالت من ثم برضا:

- ليس هناك الكثير من الناس إذن، ممن يمكنهم الادّعاء أنهم يسكنون في منزل يقارب منزلك هذا في فخامته وموقعه الاستثنائي. صحيح؟

مطّ الرجل شفتيه بغير اكتراث، وقال:

- ليس على وجه التحديد. أعلم أن هناك أماكن أكثر فخامة من هنا بكثير. هذه بقعة معزولة في مدينة صغيرة، قلما يسمع بها أحد من العالم الخارجي.

- أخبرني.. هل يقطن هنا مليونيرات أو مليارديرات؟

نظر الرجل حوله، وقال:

- لا أظن.. إنها منطقة سكنية جيدة جدًا، لكنها ليست مثل «ميدو ساوثهامبتون» مثلًا.

قالت متهكمة:

- أما آن لك أن تعترف لي يا جنرال؟ هل أنت ملياردير؟

أجابها الجنرال على الفور بهزأ:

- وهل هذا سؤال معقول يا إيلينا؟ أنتم يا حلوتي على علم محيط بكل شأني.

عارضته إيلينا قائلة بتحسر:

- ليس بكل شيء على ما يبدو. لم أكن أعلم مثلًا أنك تقيم في أستراليا.

fb/mashro3pdf

لوى الجنرال شفتيه، وقال باستياء:

- إن لم تكوني قد أحطت علمًا بهذا الأمر من قبل، فالأولاد في لانجلي يعلمون.. ادعاؤك الجهل سخيف في حد ذاته. بحق الله، كفّي عن اللعب، واطرحي سؤالك مباشرة.

طيرت الريح الطيبة الناعمة خصلات شعر إيلينا الأشقر، وموجتها أمام نظارتها الشمسية. نفذ سطوع عينيها نفاذًا جزئيًا من عدسة النظارة الداكنة، بينما تقول:

- طرحت السؤال يا جنرال، وأنت من بدأت اللعب. أسألك مرة أخرى.. هل أنت ملياردير؟

تنهد الجنرال، وقال بتسليم:

- لا، على الإطلاق. ربما بحساب الجنيه المصري.. لكن بالدولار؟! حاشا لله!

ضحكت إيلينا وقالت:

- أجد صعوبة في تصديقك أيها المخادع؛ أنت تعبد المال!

قال الجنرال على مضض:

- أنا لا أعبد المال. أملك منه مقدارًا معقولًا، لا يطاول مقدار ما يملكه زوجك مثلًا.

قالت وقد عبس وجهها عبوسًا مصطنعًا:

- من أجل المولى، أرجوك، إن كنت لا تعبد المال، فماذا تعبد إذن؟!

وجّه الجنرال إليها سبابته، وقال بصراحة:

- المال ربكم أنتم.

تجهمت إيلينا، وقالت بخشونة:

- أحمد إله العالمين؛ لأنه لم يجعلنا مثل سائر أمم الأرض الأخرى، بخاصة أنتم.. أنتم تسجدون للباطل والعدم، وتصلون لإله لن ينفعكم.

ضحك الجنرال، وقال بدماثة خلق ولباقة:

- سلمنا جدلًا بأن ربنا الذي نسجد له باطل ووهم.. الحكم بيننا وبينكم إذن هو يوم الملحمة، والنصر لمن يظل واقفًا حتى النهاية.

صدقت إيلينا على قوله بإيماءة من رأسها، وقالت:

- كلام سليم.

*****

fb/mashro3pdf

فوكس نيوز

تحذير: يحتوي هذا التقرير على محتوى عنف تصويري.

ينصح المشاهدون بالاحتراس.

«أنا لم أقتلها.. أنا لم أقتل أحدًا».

هكذا صرخت المرأة المسكينة، باللغة العربية، المرة تلو المرة، بينما يلحف الرجل رأسها بوشاح أسود. يرتدي الرجل جلبابًا أبيض، ويرفع سيفه مرددًا: «الله أكبر.. الله أكبر» ويضرب عنق المرأة، فتلهث وهي في النزع الأخير، ثم تصمت إلى الأبد. يضرب الجلاد عنقها مرة بعد مرة، حتى يفصل الرأس عن الجسد، ثم يخطو مبتعدًا عن الجثة، ويمسح نصل سيفه بعناية. المشهد دموي، عنيف، مأساوي.

يردد الرجال ما ارتكبته المرأة من جرم في مكبر صوت، بحيث تسمعه جماهير الحضور، المحتشدة لمشاهدة الإعدام الوحشي. المرأة مقطوعة الرأس، اتهمت باغتصاب ابنة لها، تبلغ من العمر سبع سنوات، بواسطة عصا مكنسة، وبضربها حتى الموت. وأصدرت جبهة المقاومة الإسلامية بيانًا، قالت فيه: «صدر مرسوم شرعي لتنفيذ الحكم الواجب، طبقًا للشريعة الإسلامية، ووفقًا لما هو حق وعدل».

هذه المشاهد تم التقاطها الأسبوع الماضي بواسطة كاميرا هاتف خلوي، وتسربت من قِبَل ناشطين، لترينا لمحة نادرة لما يحدث داخل المناطق الواقعة تحت سيطرة الفصائل الإسلامية المتشددة. منذ بسطت جبهة المقاومة الإسلامية سيطرتها على مناطق واسعة من القاهرة، مارست على نطاق واسع ممارسات وحشية، مثل قطع الرؤوس والأطراف، والرجم والصلب والحرق، كإجراءات عقابية تمثل جزءًا من نظامهم القضائي. وفقًا لمنظمة «هيومان رايتس ووتش»، تقوم الميليشيات الإسلامية بإعدام العشرات كل شهر بتهم مختلفة، دون تحقيقات جنائية كافية أو موثقة.

لكي نعرف أكثر، نتحدث مع السيد عبد العزيز منصور، من المنشقين عن الجبهة الإسلامية، والمُطّلِعين على أساليب عمل القضاة الشرعيين.

- سيد عبد العزيز.. كيف ينظر المصريون إلى هذا الفيديو وأمثاله؟

- هذه العقوبة، وغيرها من الانتهاكات التي ترتكب باسم الدين، هي جزء لا يتجزأ من

fb/mashro3pdf

الطريقة التي يدير بها المتشددون الحياة في المناطق المحاصرة. وأؤكد أن الراديكاليين سيتتبعون هذا التصوير غير القانوني، وسيطبقون تدابير متطرفة لمنع حدوثه مرة أخرى.

- ماذا تعني بقولك: التصوير غير القانوني؟

- أعني أن هناك خطرًا كبيرًا يحدق بالناشطين المسؤولين عن تصوير هذه الجريمة، وإذاعتها على الملأ؛ لأنهم انتهكوا الستار الحديدي الذي يضربه الإسلاميون على وسائل الاتصال داخل المناطق المحاصرة. سيعثرون عليهم، ويحاكمونهم محاكمات صورية، ولن يختلف مصيرهم كثيرًا عن تلك المرأة المقطوع رأسها في الفيديو.

- هل تظن أن هذه الأفعال، تحظى بمساندة شعبية من قِبَل المصريين القاطنين في المناطق الواقعة تحت سيطرة الجبهة الإسلامية؟

- هؤلاء يعيشون تحت الحصار منذ ما يزيد عن عامين، ولا شأن لهم بما يحدث. هم ليسوا إلا ضحايا، مثلهم مثل هذه المرأة المقتولة. لا أظن أن هناك إنسانًا عاقلًا يُقر مثل هذه العقوبات البربرية. المصريون في المناطق المحاصرة يعيشون في أجواء العصور الوسطى، وهم في أمسّ الحاجة إلى تضافر الجهود الدولية، من أجل فك هذا الحصار الثقافي الديني المسلح.

- أشكرك سيد عبد العزيز.

يأتي هذا الإعدام الوحشي، بعد موجة من الإعدامات العنيفة التي شهدتها القاهرة خلال الثمانية وأربعين الساعة الأخيرة، منها رجم خمس نسوة حتى الموت، وصلب ثلاثة وعشرين رجلًا حتى الموت، وإطلاق النار على رؤوس سبعة من جنود الشرطة المصرية، وتلك فقط هي الحوادث الموثّقة، التي قد تشكل نسبة ضئيلة -كما يقول الخبراء- من حجم الانتهاكات الحاصلة على الأرض، في ظل التعتيم الإعلامي شبه الكامل في مناطق نفوذ الإسلاميين.

يقول الخبراء إن الولايات المتحدة تعاني إخفاقًا إستراتيجيًا في مصر، وإن التداعيات المترتبة على أطول حرب خاضتها الولايات ضد الإرهاب تزداد تعقيدًا، يومًا بعد يوم. في كل يوم، تزداد ضربات الجبهة الإسلامية كمًّا ونوعًا، وتتحول الأراضي المصرية إلى ساحة حرب تُكلّف الأمة الأمريكية خسائر بشرية ومادية باهظة، بينما يعيش المصريون تحت حصار الإسلاميين حياة ضِيق وشِدة وعَوز، وفوق هذا كله، يذوقون طغيانًا وحشيًا لم

fb/mashro3pdf

يسبق له مثيل في العصر الحديث، على أيدي المتمردين المتشددين.

جانيت ماكفيل، فوكس نيوز. القاهرة.

*****

تابعت إيلينا التقرير التليفزيوني دونما اهتمام، ثم سألت الجنرال بنبرة مستخفة أن يغير القناة، أو أن يطفئ الجهاز كله إذا لزم الأمر؛ لأنها لا تطيق سماع «الهراء» و«الخراء». كانت قد رفضت رجاء مضيفها أن يريها المكان؛ وتحججت بالإرهاق الشديد، وعناء ساعات الطيران الطويلة؛ لم تكن في مزاج يتيح لها تحمّل مباهاة الجنرال بنفسه وبيته، وأرادت فقط أن تأكل، ثم أن تنام. رفضت الحديث في أمور العمل، وردت جميع أسئلة الجنرال، المباشرة منها والخفية، كما أقفلت في وجهه كل السبل التي حاول النفاذ من خلالها إلى أحاديث العمل. كانت قد قررت، منذ رأت هذه المدينة الجميلة وهذا المنزل الجميل، أن تخصص قسمًا من زيارتها للراحة، أو أن تسترق وقتًا للراحة، بتعبير أدق.

وهكذا قادها الجنرال إلى المطبخ على مضض، من دون أن يمر بها على أي من مرافق وغرف فيلته المترفة، سوى تلك التي تصادف وقوعها في الطريق إلى المطبخ. اتجهت على الفور إلى الحوض، فغسلت وجهها بالماء الفاتر، وعنت بتنظيف أنفها وما دون منخاريها؛ لأن بشرتها الدهنية يكسوها اللمعان الذميم في أقل وقت. وسرعان ما انتقت لنفسها بعد ذلك أحد الكراسي الوثيرة، المؤطرة لمائدة الطعام. أراحت ظهرها واسترخت، ريثما يعد الجنرال لهما وجبة الغداء، وذلك بعد أن وضع أمامها كوزًا مترعًا بشراب الجعة البارد، ولم ينس أن يبلغها بأن بيرة «ريدوك بيتر» هذه تُعد أفضل الأنواع السيدنية (نسبة إلى مدينة سيدني)، وأنها سهلة الشرب، قليلة الكحول، كثيرة الشعير.

سألته بدهشة عن سر إحاطته الجديدة تلك بالكحوليات، فأجابها ساخرًا بأنه لا يشرب والحمد لله، إنما هي توصيات ابنه ماجد. وفي غضون التجهيز الأوّلي للوجبة شغّل وحدة التلفاز الذكية لتسليتهما، فأضاءت الشاشة المسطحة الرقيقة على الفور بصور سريعة متلاحقة، ثم كان تقرير «فوكس نيوز».

fb/mashro3pdf

لـم تُـسرِف إيلينـا في الـشراب؛ لأنهـا لا تستسـيغ شرب المـزز الباهـت بـاردًا، بـل تفضلـه بدرجـة حـرارة «قبـو الخمـر»، إن صـح التعبـير. التزمـت الصمـت طـوال مـدة عـرض التقريـر، مراعـاة للجـنرال، الـذي تابـع الصـور العنيفـة عـن كثـب، إذ ينـثر بـذور السمسـم والفسـتق عـلى المقـلاة السـاخنة.

انزعجـت إيلينـا مـن أسـلوب مراسـلة «فوكـس نيـوز» الحمـاسي التحريـضي، المنـافي لبدائيـات الإعـلام المهـني المحـترم، في رأيهـا. وأخـيرًا، وبعـد أن حملـت إلى الجـنرال رجاءهـا بتبديـل هـذا «الهـراء» و«الخـراء»، قالـت لـه مردفـة عـلى كـره:

- إنـه ليؤسـفني يـا جـنرال، أن أراك تتابـع مثـل هـذه البرامـج التافهـة، وأنـت الرجـل المثقـف النابه.

نظـر الرجـل الرزيـن إلى التلفـاز، وقـال بنـبرة مرتفعـة «إس بي إس»، فتبدلـت القنـاة آنيًـا إلى قنـاة «إس بي إس» الأسـترالية، وجـرت صورهـا في الخلفيـة مـن دون أن تشـوش عـلى الضيفـة أو تكـدر مزاجهـا. وإن هـذه الضيفـة -كمـا يعرفهـا- امـرأة مزاجيـة، ذات أحـوال متقلبـة وطبائـع متغـيرة.

بيـد أنـه كان حريصًـا رغـم ذلـك عـلى أن يستفزها إن اسـتفزته، ولا يبـالي. لـذا رد عـلى عبارتهـا الآسـفة الأخـيرة قائـلًا بجفاء:

- سياسـتكم الحقـيرة يـا إيلينـا، حولـت مـصر إلى قبيلـة بدويـة، يسـفك أبناؤهـا دمـاء بعضهـم بعـض. التصحّـر الدينـي يحصـد رؤوس النـاس، كمـا رأيـت، والفضـل يرجـع إليكـم أنتم.

قالت إيلينا بتحدٍ:

- أرجـو أولًا أن تتجنـب رذيلـة التفكـير الأحـادي. مـا رأيتـه وتـراه يوميًـا، ليـس إلا أحاديـث باطلـة وأكاذيـب. فوكـس نيـوز قنـاة حقـيرة، تقـود حملـة تشـهير ممنهجـة ضـد الإدارة الجديـدة.

رجـرج الجـنرال المقـلاة عـلى النـار، بمـا فيهـا مـن سمسـم وفسـتق، وقـال لإيلينـا في أثنـاء ذلـك، مـن دون أن ينظـر إليهـا:

- تقولـين إذن إن كل شيء عـلى مـا يـرام، وإن القـول بتدهـور الوضـع في مـصر محـض افـتراء؟

- أقـول إن العالـم لا يوشـك عـلى الانهيـار، كمـا تصـوره لنـا وسـائل الإعـلام، ولا سـيما فوكـس نيـوز.

fb/mashro3pdf

فض الجنرال لفافة من الورق الأبيض، وكشف عن أربع سمكات من نوع الدنيس، نُزع عنها القشر والأحشاء. أخذ أولها وطرحها على لوح التقطيع الخشبي، وبنصل سكين حاد فصل الرأس عن الجذع وهو يقول لإيلينا محتجًا:

- اسمحي لي أن أسألك.. وسط هذه الأحداث الجسام، والمآسي المروّعة، التي تنزل ببلدي وبلدكم وبالعالم أجمع.. كيف يتفق لك أن تدّعين أن العالم لا يوشك على الانهيار؟

تبسمت إيلينا بغير ود، معبرة عن استقباحها السؤال، وقالت:

- ماذا أصابك يا جنرال؟ لم أعهدك متشائمًا قط.

- بل كيف يتفق لك ألا تشعرين أن العالم قد شرع في الانهيار فعلًا؟

- يا عزيزي، العالم كان قد شرع في الانهيار، منذ أتم الرب خلقه.

رسم الجنرال على جلد كل سمكة بحد السكين صلبانًا مائلة عميقة، وذلك كي ينضج اللحم بلطف وسرعة، ثم جعل فيها التابل من ملح وفلفل وما إلى ذلك، لتحسين اللحم وتطييبه وتعزيز نكهته، قبل أن يرش عليها من زيت الزيتون وهو يقول:

- هذه مبالغة شعرية. العالم لم يكن مكانًا أخطر مما هو عليه اليوم.

راقبته إيلينا وهو يدعك جسم السمك المفلطح بيمناه، كي يطمئن إلى تخلل التوابل والأبزار الجلد واللحم، قبل أن يطرحه على ذات المقلاة التي سبق أن حمص فيها السمسم والفستق. تصاعد على الفور من قعر المقلاة الساخن صوت محبب، أشبه بحفيف اللهب واتّقاده المتواصل في الهشيم، وتداخل مع صوت إيلينا إذ تقول:

- في رأيي.. هذا زعم تعوزه الدقة. ارجع بذاكرتك إلى طاعون جستنيان، والطاعون الأسود، والحملات الصليبية، ومجاعة الصين الكبرى، والمجاعة السوفيتية، والحربين العالميتين الأولى والثانية، والفيضان ومجاعة وادي النيل. مئات الملايين ممن ماتوا بأبشع السبل. قارن هذه العهود البائدة بأيامنا هذه، تجد أننا نعيش في زمن هدوء واستقرار.

ترك الجنرال السمك لينضج، ورمى السيدة بنظرة حادة. التزم الصمت للحظات قبل أن يقول لها بغلظة:

- تسمين تدمير السد والفيضان والمجاعة بالعهد البائد، وكان هذا بالأمس القريب؟! أنتم أمة مجرمة، وساستكم مجرمون، وقادتكم العسكريون مجرمو حرب، أنتم جلبتم

fb/mashro3pdf

إلينا نهاية العالم.

- يسعدني أن أبلغك أنني نبذت من ذهني كل الأفكار الأصولية، الخاصة بنهاية العالم. الجنس البشري دومًا يجد الوسيلة. الحياة تلتمس سبيلها وتهزم الموت. الحضارة الإنسانية تحرز إنجازات لم يسبق لها مثيل.

هكذا قالت إيلينا بفتور. وضع الجنرال قدرًا من الكسكسي في زبدية فخارية جميلة، وأفاض عليه من الماء المغلي حتى غمره، وقال متسائلًا:

- هل تتحدثين عن نفس العالم الذي أعيش أنا فيه؟

أجابت إيلينا قائلة بإصرار:

- أتحدث عن هذا العالم عينه. اسمع.. في طريقي إلى هنا، في الطائرة، قرأت مقالًا جميلًا، ذا فكرة أنيقة مبتكرة، فكرة طريفة، تمس ما قلته أنت قبل قليل. أنت ذكرتني به، وتلك مفارقة.. أن تذكرني بمقال، سأستعمله أنا الآن، لأنازعك بالحجة.. لأقنعك بالدليل والمنطق.

قال اللواء ضَجِرًا:

- انفذي إلى صلب الموضوع مباشرة يا إيلينا. أرجوك، لا طاقة لي بأسلوب السكارى هذا.

بسطت إيلينا كفيها، وقالت بتلطف حاسم كأنها تهدئ من روعه:

- لا مانع لديّ، موافقة.

وأزاحت قدح البيرة بقلق، ثم نهضت لتتجول في أرجاء المطبخ وحول طاولة إعداد الطعام. طفت على وجهها دلائل التململ والاضطراب، ودارت عيناها في المكان كأنها تبحث عن شيء ما، ثم قالت:

- يتساءل الكاتب: لماذا نظن أن عالمنا المعاصر أخطر من أي وقت مضى، في حين تعيش أعداد متزايدة من البشر في سلام؟

فتحت درج حفظ النبيذ في إحدى خزانات المطبخ، وفحصت الأنواع والماركات الفاخرة، التي جُلبت من أجلها خصوصًا، فلم تجد ما يرضيها. قصدت المبرد الكبير، والجنرال منشغل عنها بتحريك الكسكسي في الماء بملعقة صغيرة، جاعلًا أعلاه أسفله ويمينه شماله برفق وصبر. ولما عادت إيلينا إلى كرسيها، كانت قد أتت بزجاجة «تيركي فلات فاينيارد» من المبرد، وبكأس صغيرة، وكانت أهدأ نفسًا وأفضل حالًا.

fb/mashro3pdf

قالت بهدوء وهي تصب لنفسها من النبيذ الأبيض:

- التعليم في أيامنا هذه ممتاز.. النظام الصحي فعّال.. النظافة الشخصية باتت من ضرورات الحياة.. الملابس، الاتصالات، وسائل الترفيه، الطعام، العطور.. وغيرها من آيات الترف.. نحن، يا جنرالي العزيز، نعيش في أزهى عصور الإنسانية.

همّ الجنرال بالاعتراض على قولها، لكن فكرة أخرى طرأت على ذهنها، فسألته بحسم، وهي تشير إليه بسبابتها علامة أن انتظِر:

- هل تدرك كم كان يبلغ متوسط عمر الإنسان، في الأيام السعيدة البائدة؟ ثلاثين عامًا، وذلك أسمى الطموح.. باستثناء خلافة العصور الوسطى الإسلامية، التي تعدى فيها متوسط الأعمار خمسة وثلاثين عامًا. الآن يبلغ الناس الثمانين والتسعين بيسر.

صبّ الجنرال بعض الماء المغلي في قدح زجاجي، وقال ساخرًا:

- في عالمكم أنتم أيتها السيدة، وليس في عالمنا نحن.

قالت هي أيضًا بسخرية:

- أستراليا تتمتع بأعلى متوسط أعمار يا والدي.. أعلى من الولايات المتحدة.

أضاف قليلًا من الزعفران إلى الماء الساخن بحرص شديد؛ لأنه يُكنّ احترامًا وحبًا لهذا النبات الأحمر الرائع، الذي يعد أغلى التوابل ثمنًا في العالم، بل وأغلى مما يساوي وزنه ذهبًا. على الفور، استشرت النكهة الطيبة في الماء، الذي صار في لون الذهب.

هنا قال الجنرال لضيفته ببطء:

- لم تكن أستراليا يومًا عالمي. متوسط الأعمار في مصر، يا فطيرتي الحلوة، العام الفائت، قُدّر بستة وثلاثين عامًا، وفقًا لكتاب الحقائق العالمي، الذي تصدره «السي آي إيه» كل عام.

لاحقته إيلينا قائلة بإنكار:

- يدهشني أنك تستقي معلوماتك وتكوّن انطباعاتك عن العالم من تركيبة روايات صحفية مضللة، وأنت رجل الاستخبارات العتيد.

قال اللواء ضاحكًا:

- أنت لا تنصتين إليّ.. قلت لك التقرير الذي تصدره «السي آي إيه».. جهاز استخباراتكم أنتم.. يقول إن الناس في مصر تموت في عز الشباب.

fb/mashro3pdf

- اسمع.. لا تستسلم لإحساس العجز. العنف والحرب مكونان أساسيان من مكونات العالم، ضمن عناصر أخرى.. على سبيل المثال، في عالمنا الأول هذا، الذي تُعيّرني به، السفاحون المختلون عقليًا يجوبون الشوارع، والعصابات الإجرامية تعمل باندفاع كامل، كما تُختطف النساء والأطفال ويُغتصبن ويُقتلن ويُمثّل بجثثهن.. صح؟ هكذا ترى فوكس نيوز عالمنا.. تلقي على المشاهد كمًا من مشاهد العنف غير المبرر، كي يسلم نفسه لليأس، ومن ثم للتعصب البدائي.. هل تفهم ما أعنيه؟

هكذا تدفق منها الكلام وهي ترشف من النبيذ. تحقق الجنرال من تماسك الكسكسي، ومن تغضن جلد السمك الملامس للزيت الساخن، ثم قال:

- لا، لا أفهم ما تعنيه.

- أعني أن عليك أن تعي الحجم الحقيقي للأشياء من حولك.

لوى الجنرال شفتيه مبتسمًا ابتسامة غريبة، وهو يرتب في ذهنه خطوات إعداد الصلصة، وقال متسائلًا:

- وكيف يتحقق لي ذلك؟

قالت إيلينا على الفور، وهي تصب لنفسها المزيد من الشراب:

- الطريقة الأفضل لتقييم أحوال العالم، هي العد. قارن بين عدد أعمال العنف التي شهدها العالم، وعدد الفرص التي أتيحت. لو فعلت، لوجدت أن الاتجاه العام الذي تسير إليه البشرية أفضل بكثير من عناوين الصحف.

ألقى الجنرال في الخلاط بليمونة مخللة واحدة، وست ثمرات من نبات الفلفل الأحمر المخلل، ومقدار قبضة يد من الكزبرة، وفي أثناء ذلك قال:

- جيد جدًا.. تعالي نعد معًا، ونقيّم الوضع في مصر.. تعالي نتحدث في مسائل قد تثير اهتمامك، من حيث كونك امرأة.

- لا مانع لديّ، موافقة، هيا، ابدأ.

ضغط الجنرال زر تشغيل الخلاط. لم يحدث الجهاز ضجيجًا، بل هرس محتوياته بيسر وهدوء، لذا سمعته إيلينا بوضوح وهو يقول، وقد بدأ العد على أصابعه:

- جرائم العنف الجنسي، التطرف الديني، الزواج القسري، تشويه الأعضاء التناسلية، جرائم الشرف، المحاكم الدينية، الإعدام الجماعي...

fb/mashro3pdf

قاطعته إيلينا وهي تهتف بضجر:

- وصيد الحيتان، والعبودية، والقرصنة، والحرب الكيميائية، والفصل العنصري، و... و... و... العالم يكتظ بالممارسات الشريرة، أعترف بهذا.. ثم ماذا؟ نعم، المتوسطات تخفي فظائع مروّعة، تحدث في البقاع الأكثر تخلفًا.

شطر الجنرال ثمرة رمان بالسكين، وعصر بيمناه أحد نصفي الثمرة على المزيج المهروس في الخلاط، فيما ينظر إلى إيلينا باستخفاف وهي تواصل قائلة:

- لكن حتى هذه الأزمات.. في مناطق العالم الساخنة الميؤوس منها.. تدأب وسائل الإعلام على التضخيم من شأنها، من أجل تضليل الوعي.

قال الجنرال بسخرية، مراعيًا أن تخرج كلماته بعسر وتباطؤ:

- إننا نعتذر إليكم.. يا أهل العالم الأول المبجلين.. وإننا نأسف أشد الأسف، على اضطرارنا إلى مشاطرتكم نفس الكوكب الذي تعيشون عليه.. تلك المشاطرة، التي أودت بنا إلى ظروف مأساوية، قد تحاول وسائل الإعلام تغطيتها بين الحين والآخر، فتصلكم منا أخبار.. ماذا أقول؟ أخبار قد لا توافق أمزجتكم المرهفة؟!

أعادت إيلينا ملء كأسها، وقالت للرجل بلهجة حادة، تكاد أن تكون وعيدًا:

- لا تلعب معي يا حسام.. عمليات القتل الجارية في بلدك، تولدت من أسباب مختلفة تمامًا، وأنت أعلم مني بهذا.

امتنع الجنرال عن التعقيب. أضاف القليل من الملح إلى الصلصة، وتذوق المزيج، فتقلصت قسمات وجهه تلذذًا. عاد إلى المقلاة على الموقد، وشرع في تقليب السمكات الأربعة بحرص، فاكتسب جلد السمك حمرة، وهشّ وتقصفت أطرافه، وأطل من شقوقه بياض اللحم.

بعد أن اطمأن قلبه لسير أمر الغداء على ما يرام، رفع عينيه إلى إيلينا، وقال لها بازدراء:

- إن الفتن تجري بسببكم أنتم.

تكدر وجهها وغشيته غمامة، فوضعت كأسها على المنضدة وقالت بمقت:

- لا.. ارجع بذاكرتك، ولا تنسَ.. أنتم طلبتم الدمار لأنفسكم.. نحن كنا مجرد أداة.

في مواجهة هذا البغض المباغت، قال لها الجنرال باسمًا:

fb/mashro3pdf

- أرى أن مستوى احتمالك للكحول تدنى، فها أنت تهذرين كأنك ثملة، مع أنك لم تكثري من الشراب.

واصلت إيلينا خطابها قائلة بكدر، دون أن تعير ملاحظته اهتمامًا:

- أيها الرجل العسكري العتيد، أيها الاستخباراتي المتمرس، أريدك أن تنظر إلى الحروب التسعة الكبرى الأخيرة، التي اندلعت خلال العقدين الماضيين، وأن تحدد الطرف البادئ بالعدوان.

أضاف الجنرال إلى مقلاة السمك شرائح البصل الأخضر، ثم صب من ماء الزعفران الذهبي. خرخر الماء المتبل فور أن لامس اللحم والزيت الساخنين، وبقبقت المقلاة وتصاعد بخارها، فغطاها الرجل الماهر بعمله، وترك ما فيها ليمتزج وينضج ويلين.

حرص على أن يكسو وجهه بقناع جامد، غير مكترث البتة، وقال إذ هو على تلك الهيئة متسائلًا:

- ومن يكون هذا الطرف البادئ بالعدوان يا ترى؟

- أقولها لك بصراحة.. الأصولية الدينية هي مرجع الشر في بلادكم، بما تقتضيه من كراهية للآخر، والقول بالحتمية الدينية لمحو الآخر.. الأصولية الدينية هي أصل كل الأعمال الأكثر عدائية وفوضوية ودموية.. الأصولية الدينية تشن على سكان كوكب الأرض حربًا كونية شاملة.

سطعت عينا الجنرال، فكأنه ظفر أخيرًا بنقطة انطلاق صائبة، وثيقة الصلة بشؤون العمل. وهكذا قال على الفور:

- دعيني أوضح لك، من واقع الخبرة، أن هذه الجماعات تنجح في تكوين حاضنة شعبية في ظل الحكومات القمعية منعدمة الكفاءة والفاعلية.. كمثل الحكومة المصرية الحالية، التي مكّنتم لها بالتزوير، ودعمتم حماقاتها بقوة السلاح.

لم يفت على إيلينا مراده، فسكتت للحظات ولم تنطق. أتاح لها الجنرال فرصة التريث في التعقيب، وشغل نفسه بإعداد العنصر الرابع والأخير من وجبته المترفة. صب مقدارًا كبيرًا من الزبادي في إناء فخاري، وأضاف القليل من الهريسة المغربية وماء الورد. امتازت تحركاته بالمهارة والدقة، كأنه يتبع خطة مرسومة مسبقًا، أو يمارس عملًا جربه من قبل، واستعمل من أجل ذلك يدًا واحدة فاعلة، وأخرى استعاضية جامدة داعمة، لا

fb/mashro3pdf

تحرك أصبعًا ولا تقبض عضلة.

وأخيرًا رفع رأسه إلى ضيفته الجميلة، التي راحت تنظر إلى ما ترسب في قعر كأسها من نبيذ، وراحت تحرك لسانها كي تسترجع نكهة المشروب المتوازنة الغنية، ذات اللمسة الحمضية الخفيفة.

قال لها الجنرال مستحثًا:

- هه؟ ما رأيك فيما قلت أخيرًا؟

أجابته على الفور قائلة بإرهاق:

- يا جنرال، كم مرة يتحتم عليّ أن أُذكّرك؟ لا عمل اليوم؛ اليوم عطلة.. ألا يمنعك واجب الضيافة من أن تزج بي في أحاديث العمل، كلما سنحت الفرصة؟

- أردت فقط أن أثبت بالبرهان أننا موجودان في نفس الصفحة.

تبسمت إيلينا بود وكسل، وقالت:

- نحن على يقين بأنك معنا على نفس الصفحة منذ زمن بعيد. إنما أنا هنا لأسمعك، لكن ليس اليوم، أرجوك.

أفرغ الجنرال الكسكسي والصلصة إلى جوار السمكات الأربعة على لوح تقديم خشبي، وأمطر الخليط بوابل من السمسم والفستق وحبات الرمان. جهز للسيدة بعد ذلك طبقًا جمع فيه من عناصر الوجبة كلها، ثم منحها ابتسامة عريضة لمّا شكرته. بأناقة جمعت إيلينا بالشوكة بعضًا من الكسكسي المختلط بالصلصة والسمسم والفستق، وألحقت به قطعة من لحم السمك الأبيض الطري، ثم غمست ذلك كله في الزبادي.

سألها الجنرال منتبهًا:

- كيف تجدين الطعام؟

خرجت من إيلينا همهمة وهي تمضغ الطعام وتستلذه، ثم قالت بجدية:

- جيد جدًا. نكهات كثيرة جدًا، وكلها جيدة.

وجمعت لنفسها بالشوكة مقدارًا آخر، ثم أردفت تقول بكياسة:

- لحم السمك طُهِيَ إلى حد الكمال.. الكسكسي يضرب على كل الأوتار الصحيحة.

ورفعت عينيها إلى الجنرال، قائلة:

- طاغوت فعّال، وطباخ متميز، وأصولي متعصب.. هل نحتاج لأكثر من هذا، كي نبني

fb/mashro3pdf

شـخصية سـينمائية سـايكوباتية؟

وسّع الجنرال ابتسامته، وقال بحرص:

- لست إلا امرءًا يسعى لكسب رزقه إيلينا. لا أكثر ولا أقل.

*****

fb/mashro3pdf

السابع عشر من مايو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في ليلـة ربيعيـة قائظـة، اقتحمـت وحـدة مـن قيـادة العمليـات الخاصـة المشـتركة مـنزلًا في القاهـرة، يُشـتبه في وجـود أحـد أهـم قيـادات جبهـة المقاومـة الإسـلامية فيـه، وهـو المكـنى بـأبي عبـد الرحمـن الـورداني.

قُتـل الرجـل في الغـارة، واكتشـفت القـوات خبيئـة ضخمـة مـن السـلاح والعتـاد المتطـور، والخرائـط والوثائـق المهمـة. تلـك الغـارة الناجحـة كانـت تجريبيـة، وكانـت الأولى مـن نوعهـا؛ ذلـك أنهـا جـرت بعـد أن تلقـت السـيدة إيلينـا دانيـال فيكسـلبرج، مستشـارة الأمـن القومـي، رسـالة إلكترونيـة مشـفّرة عـلى بريـد العمـل المؤمّـن الخـاص بهـا. لـم تأتِهـا الرسـالة مـن قِبـل مديـر المخابـرات المركزيـة مثـلًا، ولـم تكـن إشـارة قادمـة مـن قِبـل محطـة المخابـرات المركزيـة في مـصر، ولا مـن أي مـن محطـات المخابـرات المركزيـة المتفرقـة بـين دويـلات الشرق الأوسـط، بـل جاءتهـا مـن حاسـوب كائـن في أسـتراليا.

«الطريـق إلى رومـا - عربـون صداقـة» كان عنـوان الرسـالة. قرأتـه إيلينـا باللغـة العربيـة، وحـزرت اسـم الراسـل فـورًا مـن قبـل أن تقـرأ متن الرسـالة ذاتهـا، وضحكت مـن قلبها بسـخرية؛ لأن الراسـل لـم يكـن يحتـاج لأن يدفـع العرابـين لإثبـات الصداقـة، فصداقتـه راسـخة قديمـة، وتـم تسـديد ثمنهـا كامـلًا قبـل عـدة سـنوات. وفي مكتبهـا بالجنـاح الغـربي للبيـت الأبيـض، رفعـت إيلينـا سـماعة الهاتـف، وأجـرت اتصـالًا رسـميًا بمديـر المخابـرات المركزيـة، لـكي تُبلغـه بشـأن الرسـالة المشـفّرة، ولـكي تسـتفسر عـن بيانـات الاتصـال الشـخصية لصاحـب الرسـالة. لسـنوات طـوال، جمعـت بينهـا وبـين الصديـق المـصري روابـط مـودة ومحبـة ومصلحـة، إلى أن انتهـى دوره في مـصر عـلى نحـو مأسـاوي، نقـل وأسرتـه عـلى أثـره إلى مـكان آمـن، وأتيحـت لـه حريـة التـصرف في مدخراتـه، وانقطـع بذلـك الاتصـال بينـه وصديقتـه الأمريكيـة. لـم تشـعر إيلينـا بالسـعادة بـادئ الأمـر، بـل استسـخفت الرسـالة، واسـتثقلت عـبء محادثتـه، وسـألت نفسـها بغيـظ: مـاذا عسـاه أن يريـد مـني، هـذا التمسـاح العجـوز؟

أجـرت إيلينـا اتصالهـا بالجـنرال، وذاقـت مـرارات التحيـات والمجامـلات والمعاتبـات، وتجرّعـت غصـص الغيـظ ممـا سـمته في نفسـها بـ«السـماجة والغروبـة القـذرة»؛ ذلـك أن الجـنرال، في غضـون خمـس دقائـق الأول، لـم يدخـل في صلـب الموضـوع مبـاشرة، بـل استنفد

fb/mashro3pdf

الوقت في ثرثرة متوددة خالية من الظرف. رفض الرجل التحدث في أي شأن جَدّي أو الإدلاء بأي معلومة موثوقة، ولم يعطِها شيئًا سوى تفصيلة عائلية دقيقة، منها علمت مفتاح شفرة رسالته على الفور، دون أن يضطر هو إلى التصريح. اقتضب الجنرال حديثه بعد ذلك على حين بغتة، وودعها بإيجاز وفتور، فعلمت إيلينا أن الرجل إنما استوفى غرضه من المكالمة، ولم يجد بعد ذلك في استمرارها أي جدوى. هنا أيقنت أن الموضوع جد دقيق، فأدخلت مفتاح السر كما فهمته، ونظرت في محتويات الملف الملحق بالرسالة.

على شاشة الحاسوب، طالعت إيلينا صفوف البيانات في الملف الرقمي، وقرأت عن كثب الأسماء المتراصة، وصور وثائق السفر والهويات الشخصية، ومقتطفات من تقارير تتبع وتفريغ لمكالمات مسجلة، وفواتير شراء معدات ومركبات، وشهادات تحويل نقدية، كلها تكشف الهويات الحقيقية لعشر شخصيات مهمة تنتمي إلى جبهة المقاومة الإسلامية.

طبعت إيلينا الوثيقة كما هي، وجمعت أشياءها وقصدت المكتب البيضاوي على الفور. اجتمعت بالرئيس لمدة نصف ساعة، أرسلت بعدها الملف بالبريد الإلكتروني المؤمّن إلى نائبها، ونائب الرئيس، ووزير الدفاع، ومدير الاستخبارات الوطنية، ومدير الاستخبارات المركزية، تمهيدًا لدراسة الملف، وطرحه على سائر أعضاء مجلس الأمن القومي المعنيين. وبعد مداولات استمرت أسبوعًا واحدًا، وافق مجلس الأمن القومي على العملية، فتم عرضها على مستشار الاستخبارات المركزية العام، من أجل البت في قانونيتها. وطبقًا للإجراءات الجديدة المخففة، ذيّل المستشار راسيل بيرمان ملف العملية بتوقيعه في أسرع وقت.

أحرزت الغارة التجريبية نجاحًا جليلًا، كاد أن يكون مثيرًا للعاطفة، بفضل الخرائط والوثائق الثمينة التي وُجدت في منزل القيادي الجهادي، فأصدر الرئيس بالنتيجة قرارين سريعين. الأول يقتضي تتبع واصطياد كل الأسماء الواردة في الملف الرقمي، الذي أرسله الصديق المصري، والثاني يقتضي إرسال مستشارة الأمن القومي إلى الصديق المصري على الفور، في رحلة خاصة، سريعة، سرية. وقع اختيار الرئيس على مستشارة الأمن القومي من أجل القيام بهذه المهمة؛ لأن الصديق المصري اختصّها بالتواصل، ولسابق علمه بعلاقة الصداقة الرابطة بينها وبينه، تلك التي يعدها الجنرال العجوز، كما أقرت له إيلينا من قبل، آصرة متينة أبدية، كالقرابة أو المصاهرة.

fb/mashro3pdf

استدعت إيلينا هذه الأحداث إلى ذهنها، وهي تقف فجرًا في شرفة غرفة النوم، التي خصصها لها الجنرال البارحة. ترامت أمامها الحديقة الخلفية الخصيبة، المطلة على الشاطئ الخاص والمحيط من بعده، واصطبغ الأفق بحمرة شروق الشمس الوشيك. لم يكن ذهنها أصفى مما كان هذا الصباح، ولم تكن قد اكتفت من النوم مثلما اكتفت من نوم الأمس، فعزمت على أن تطيل في مدة رياضتها الصباحية إلى ساعة كاملة.

كانت قد أبدلت منامتها الخفيفة بثوب السباحة، واتّقت لسعة برد الصباح ببُرْنس قطني ناعم، ثم جمعت شعرها إلى الوراء كي لا يعيق حركتها في الماء. اختار الجنرال لها هذه الغرفة تحديدًا لعمله بولعها بالسباحة، ذلك أن شرفتها موصولة بالحديقة عبر سلم رخامي يؤدي مباشرة إلى منطقة الاستحمام.

نظرت إيلينا إلى السماء، وتبسمت لقرص الشمس الصاعد في شفق الصباح، ثم خلعت البُرْنس وألقته على إحدى أرائك الشاطئ المحيطة بحوض السباحة. قامت ببعض حركات الإحماء المرنة لمدة خمس دقائق، كي تُهيّئ الجهاز العضلي والعصبي لأداء المجهود المطلوب بأفضل كفاءة ممكنة. جهم وجهها إذ تثني رقبتها وجذعها، وتحرك ذراعيها وتضغط مرفقيها، حتى أحست بالسخونة تسري في أنسجتها وتحت جلدها، وبالعرق يتفصد من إبطيها، فخطت إلى حافة الحوض. لم تلتفت البتّة إلى بذخ منطقة حوض السباحة، بل تحققت بالنظر فقط من أن أبعاده الطولية تصلح لممارسة رياضة جدية. انحنت حتى لامست بأطراف أصابعها الحافة، ثم دفعت جسمها إلى الأمام بقوة، وغاصت في الماء على نحو انسيابي، من دون أن تثير حولها رشاشًا كثيرًا. انساح الماء من حولها وهي تخوض فيه بذراعيها، وتشقه برأسها ويديها، وتضربه وتنثره بقدميها، وتتقدم فيه بسرعة وعزيمة.

اليوم، بينما تمخر هي في الماء الصافي، تشن قوات العمليات الخاصة التابعة للبحرية الأمريكية غارات متفرقة على كل الأشخاص المذكورة أسماؤهم في ملف الصديق المصري، في أهم عملية «بتر أوصال» لجبهة المقاومة الإسلامية منذ نشأتها. لم تكتفِ الإدارة الأمريكية بالنظر في البيانات واستهداف المذكورين فيها وحسب، بل وزّعت نسخًا منها على بعض الوكالات المدنية والعسكرية التابعة لمجتمع المخابرات الأمريكية، كي يتم تحليلها بواسطة تطبيقات ذكاء اصطناعي متخصصة، من أجل استخلاص الروابط

fb/mashro3pdf

واستنباط الدلالات وتحويل المعلومات والأخبار الجامدة إلى صور شاملة وعميقة. وبالتدريج، تقاربت هذه البيانات المحدودة المحتوى، التي جمعها الجنرال المصري بفضل علاقاته المُتشعّبة بعناصر كانت جزءًا من شبكات تجسس بشرية تقليدية، وكانت قيادات في جهات أمنية رفيعة المستوى عملت في العهد البائد، وتضامت لتكشف صلات خفية بين نقاط بعيدة مُهملة، قد تبدو للعين المجردة جزافية أو عرضية، أو غير ذات مضمون.

حملت إيلينا على نفسها إصراً ثقيلًا، وهي تضرب بذراعها اليمنى الماء إلى الأمام، وتدفع بذراعها اليسرى الماء إلى الخلف، في دورة حركية شاقة متصلة، وتذكرت أن عليها اليوم واجبًا شديد الوطأة، وهو التفاوض مع الجنرال، وإفراغ ما في جعبته وترضيته وترويضه. بالأمس بعد الغداء، لم يتركها في سلام، بل ألحّ عليها في السؤال، وشدد على رغبته في أن يريها المنزل، وكان في إلحاحه مزعجًا مضجرًا عصيًا على الإفلات، رافضًا لأي تذرع، حتى اضطرت إلى الإذعان.

لم يقُدها الجنرال إلى هذه الغرفة أو تلك بهدوء، بل أقحمها إقحامًا فيما يشبه التظاهرة الصاخبة. بَعُدَت تصرفاته ونظراته ولمساته الخاصة عن أساسيات اللياقة وقواعد السلوك السليم، ودنت كل الدنو من الفوضوية والوقاحة. ورغم كل هذا الإثقال وكل هذه المضايقة، لم ترَ إيلينا في سلوكه أذىً محضًا، بل على خلاف ذلك، أيقظها وحفّزها وأثار انتباهها على نحو خاص. كان يتسلل من خلفها بين الحين والحين، كاللصوص أو النشالين، ليمس بكفه ظهرها أو أكتافها أو ذراعها، أو ليدنو منها دنوًّا حميمًا، ملتمسًا عبقها الناعم خفيف الأثر. ذكّرتها مزاحمته إياها ببعض سلوكيات أهل «بورو بارك» أو «ساوث ويليامزبرج». ولما عبرت تلك الفكرة على ذهنها، تبسمت بتفكُّه من توافق سلوكيات الطوائف الشرقية التقليدية، وتلك الغربية الأرثوذكسية، وعزت ذلك -بشيء من الهزأ- إلى تدني جودة المواد العقلية التي يتعاطاها هؤلاء وهؤلاء، الأمر الذي يؤثر سلبًا -حتمًا ولا بد- على رهافة الذوق.

وسواءً شاقتها سخافات الجنرال، أو أضجرتها وضايقتها، لم تظهر حيالها حماسًا ولا قبولًا، ولا كرهًا ولا نفورًا، بل تسامحت وتساهلت، وأجازت له بعض هذه الأشياء بنعومة باردة، «لأجل عينيك يا صديقي العجوز الشرِه»، كما قالت لنفسها.

fb/mashro3pdf

تشبثت بطرف حوض السباحة، وقلّصت عضلات ذراعيها وكتفيها، ودفعت جسمها إلى خارج الماء بقوة، لتدير جذعها وتجلس. قطر الماء من سائر بدنها، وتردد النفس في حلقها وسُمع له صوت إذ تشهق وتزفر بقوة. وقفت بعد برهة قصيرة على قدميها برشاقة، والتفت جهة الأريكة التي تركت عليها البرنس، فإذا بالجنرال جالس على الأريكة عينها، محتويًا البُرنس بين ساعديه وفخذيه، وموسعًا ابتسامته قدر المستطاع. كان الانتعاش قد بيّض وجهها، وكساه إشراقًا وبشرًا، إلا أنها خلعت هالة البراءة والابتهاج الصادق، وارتدت تلقائيًا قناع الاصطناع والتحرُّز، فور أن أبصرت مضيفها في كسوة أنيقة، مشابهة لتلك التي ارتداها أمس.

ألقى عليها الجنرال تحية الصباح، واقتات بعينيه من مفاتنها، كما يتغذى المتضور جوعًا حتى يستقيم بدنه. لم يكن ثوب السباحة مثيرًا بصورة خاصة، ولم يُصمم من أجل تحريك الشهوة كغيره من أنواع أثواب الاستحمام النسائية، بل ستر جذعها كله عدا النحر، وتعلق بكتفها بواسطة حمالات رفيعة.

- كيف كان نومك؟

هكذا سألها الرجل، فأجابته وهي تخطو بثقة نحو الأريكة المجاورة لأريكته:

- عميق.. طويل.. مريح.

- أتدرين؟ عندما رأيتك أمس، بهذه الـ.. أثواب الرخيصة.. قلت في نفسي.. ماذا أصاب إيلينا الأنيقة الممتازة الراقية الذوق؟

إن إيلينا فيكسلبرج امرأة هيفاء، طويلة القامة، ضامرة البطن، دقيقة الخصر، ذات بنية عضلية صلبة، وأكتاف متباعدة قوية، وذراعين ناحلتين مفتولتين. لما تمشي، فبقوة وسرعة وخفة، بما يليق بوركيها الأنيقين وفخذيها المشدودين، وساقيها الممشوقتين، فكأنها لم تغادر غلواء الشباب قيد أنملة، رغم تخطيها الأربعين بعدة سنوات.

تستيقظ إيلينا في الخامسة صباحًا كل يوم، وتلقي بنفسها في حوض السباحة الأولمبي الدافئ في صالة ألعاب «مارتن فروست» الرياضية المتاخمة لمسكنها، لتسجل ساعة متصلة من السباحة المكثفة الفعّالة، وتلتزم بنظام غذائي مُفعم بالبروتين، لا يهجر المآخذ الضرورية من الكاربوهيدرات والسكريات والدهون في عين الوقت. وهي وإن كانت تدعي الانعتاق من الأرثوذكسية التقليدية المحافظة، لكنها لا تغادر نظام حياتها الإلزامي

fb/mashro3pdf

الشاق هذا، على نحو أرثوذكسي صارم، ولا تتراجع قط في معركتها المستديمة من أجل حرق الدهون وبناء العضلات وإبطاء أعراض التقدم في السن.

فلا غرو إذن في أن تتجلى آثار عزيمتها الماضية هذه وإرادتها النافذة تلك على بنائها الجسماني، إذ تستلقي على الأريكة إلى جانب الجنرال، لتنعم بدفء الشمس.

قالت مستجيبة لتعليقه على ملبسها، المفتقِد عندها لكل شأن واعتبار وقيمة:

- هل تعلم أن الاهتمام المُسلّط على مظهري وملابسي، بات من أسخف المُنغّصات في حياتي، المكتظة بالمنغصات؟ وإذا بك تنضم لقوافل التافهين والمشّائين بالنميمة، وتلقي بدلوك أنت أيضًا في شأن ملابس أمس. لأي سبب تظن أنني أبالي برأيك أو رأي غيرك في مظهري؟

حدج الجنرال فيها ببصره، وقال:

- أنا من أشد المعجبين.. حقًا أقول.. أنا من أشد المعجبين بما استطعتِ إنجازه في سبيل بلدك، لكني لست متحققًا من رضاي عن ملبسك البارحة، ولا اليوم.

أطلقت إيلينا ضحكة رجولية متقطعة، تأوهت أثنائها بخشونة، ثم قالت:

- أما البارحة، فقد ولت، وفاتت فرصة تغيير ما فيها. أما اليوم، فماذا كنت تحب أن ألبس لك يا ترى؟!

هز الرجل منكبه لسؤالها، وقال:

- لا أدري.. بيكيني؟

قالت ضاحكة بهزأ:

- ويكون هذا فصل الختام لمستقبلي، لما يراني أحد معك هنا، على شاطئك الخاص هذا، بالبكيني.

أشار الجنرال بيمناه إلى جهة المحيط، وكان قد اكتسى بزرقة زاهية منذ استوت الشمس في كبد السماء وابيضّ لونها، وقال:

- لا أحد هنا، كما ترين. المكان بأسره مصون لنا.

- وهل تصون لك البحرية الأسترالية مجالًا بحريًا خاصًا أيضًا؟ ما رأيك في ذاك اليخت البعيد هناك؟ هل أتطلع إلى أن يُقصف بالقنابل بين لحظة وأخرى، بحيث لا يتمكن أحد من مراقبتنا، أو التقاط صور لي وأنا أسبح لك بالبكيني؟ أو الأخطر، أن يسلط علينا جهاز

fb/mashro3pdf

استماع بعيد المدى، فيضيع مستقبلي ومستقبلك!

- هذه الملابس.. ثوب السباحة هذا، الذي يفتقد لأبسط مقومات الجمال...

همّت إيلينا بأن تعلّق على ما قال، لكنه لاحقها قائلًا وهو يوسع عينيه استنكارًا:

- سلمت جدلًا بأن الحشمة تقتضي ألا تقربين البيكيني.. على الأقل تخيري لنفسك ثوب سباحة من قطعة واحدة، ويكون أنيقًا بعض الشيء، ومثيرًا بعض الشيء، ولا يشابه زي رجال الإطفاء، مثل هذا. أحلف بالله، أن مصوري «الباباراتسي» لو رأوك على تلك الهيئة، لكتبوا بصورهم المشينة فصل الختام لمستقبلك السياسي، ومستقبل زوجك المالي، ومستقبل ابنك العسكري، في آن واحد.

رفعت إيلينا سبابتها، وقالت بضجر واستياء:

- حذارِ أيها العجوز.. هناك خيط رفيع يفصل بين الهزل والإساءة.

تنهد الجنرال، وقال باستسلام:

- على كل حال...

ثم أضاف مُغيّرًا مجرى الحديث:

- أخبريني.. كيف هي صحتك هذه الأيام؟ رأيتك تسبحين مثل سمكة القرش.. أعني، بخصوص الارتجاج وازدواج الرؤية والدوار. كنت قد قرأت عن الحادثة منذ عدة أشهر، ونسيت أن أسألك أمس.

- أنا في خير حال الآن، مئة في المئة. أشكرك على السؤال.

- وكتابك؟ أطيب التهاني لصدوره بالمناسبة.. كيف يُبلي في الأسواق؟ ما اسمه؟ أنسيتُه! لعنة الله على ذاكرة الشيوخ!

قالت إيلينا بنفاد صبر:

- اسمه «اثني عشر يومًا في فبراير».

- نعم.. هو ذاك.. أنهيت قراءته الأسبوع الفائت.. بالعادة، أنا أكره السير الذاتية.

- لم؟

- لأنها محقونة بالذات، ممتلئة بالنفس، فياضة بالغرور والأنا المثالية.

قالت إيلينا متسائلة بجفاء:

- لماذا تجشّمت عناء قراءتها إذن؟

fb/mashro3pdf

- كنت آمل في قراءة تفاصيل عن حياتك العاطفية.

رفعت حاجبها الأيمن، وقالت تتساءل:

- وهل تحقق لك ما كنت تتمناه؟

التمظ الجنرال بشفتيه، وقال:

- كلا البتة.. حياتك العائلية، كما جئتِ على ذكرها، لا علاقة لها بحياتك العاطفية التي أريد السماع عنها.

ثم أردف بغير رضا:

- في الإجمال، أسمح لنفسي بأن أقول، إن كتابك مضجر، خبيث.. ويظهر لي أيضًا أن المحرر أو المؤلف المشارك، جمهوريّ الهوى؛ لأن ثقل الظل واضح جدًا في فصول كثيرة.

صوّبت إيلينا إليه نظرة عتاب، فقال الرجل بصراحة:

- أنت متحدثة لبقة، أعترف بهذا، ومن أكثر النساء اللاتي يحصدن إعجاب الجماهير في بلدك، وأكثرهن تأثيراً على الإطلاق.. أنت تقفين في قلب مسرح هذه الأمة منذ سنوات.. لكنك رغم هذا كله، مؤلفة بائخة، مملة، متعبة.

ضحكت إيلينا بتعجب، وأدركت أن الجنرال سيواصل التضييق عليها وسومها السخافة والدناءة والفظاظة، إلى أن يجلسا إلى مائدة العمل. ولم يكن له بهذا حاجة في واقع الأمر؛ لأنها تعهّدت له البارحة بالبدء في العمل اليوم. لذا قالت وهي تنهض:

- يا جنرال، أنت تجرح مشاعري.

امتشقت بُرْنُسها من بين يديه عُنوة، ووضعته على بدنها وهي تغادر إلى غرفتها، بقدمين حافيتين قويّتي الخطو، فكأن شعورًا بالاشمئزاز اعتراها بعد طول صبر على المهاترة والهذر.

هتف الجنرال يسألها:

- كم حصلت على ربح بعد نشره؟

قالت بجفاء دون أن تلتفت إليه:

- الكتاب على قوائم الأفضل مبيعًا منذ ما يزيد عن شهرين أو ثلاثة. الربح مليوني أيها العجوز.

وأضافت تقول بلهجة آمرة، وهي ترتقي سلم غرفتها:

fb/mashro3pdf

- أعـدّ لي إفطـاراً جيـدًا، مُفعمًا بالبروتـين، وانتظـرني في غرفـة الطعـام، تلـك المطلـة عـلى المحيـط.

*****

في نهايـة شـهر يناير الفائـت، وبعـد عـشرة أيـام فقـط مـن حلـف اليمـين، اسـتدعى الرئيـس روبـرت ماكالـوم السـيدة إيلينـا فيكسـلبرج، وسـألها أن تضـع تقييمًـا وأن تجـري مراجعـة شـاملة للجهـود العسـكرية في مـصر، الأمـر الـذي عدّتـه الإدارة الجديـدة الأهـم بـين شـؤون السياسـة الخارجيـة الأمريكيـة. كانـت القاهـرة لسـنوات متصلـة، تُعـد المـكان الأكـثر خطـورة عـلى وجـه الأرض والأشـد عـداءً لوجـود الجنـود الأمريكيـين، وكانـت عـلى الجهـة المقابلـة المعقـل الأكـثر أمانًـا للمتطرفـين والغـلاة.

أعـدّت إيلينـا تقريـرًا وافيًـا، وفي اليـوم التـالي عرضتـه عـلى الرئيـس في المكتـب البيضـاوي. كلفهـا الرئيـس في نفـس الجلسـة بـأن تقـوم بزيـارة سريعـة للقاهـرة، وأن تُبلِـغ الرئيـس بانطباعاتها عـن الأجـواء هنـاك، وبأن تجسّ نبـض القـوات كذلـك، ثـم أجـرى اتصـالًا هاتفيًـا بالجـنرال جوزيـف بيرجـر، رئيـس هيئـة الأركان المشـتركة، وأحاطـه علمًـا بأمـر الزيـارة والهـدف منهـا، كي يقـوم باتخـاذ الخطـوات اللازمـة.

خلّفـت الزيـارة السريعـة لـدى إيلينـا انطباعًـا خاصًـا، بمقتضـاه قالـت للرئيـس، إنـه لـو ذهـب بنفسـه إلى مـصر، وسـأل عـشرة ضبـاط عـن طبيعـة مهمتهـم في هـذا البلـد، لمـا اسـتطاع معظمهـم الـرد عليـه وإفادتـه عمـا سـأل عـلى نحـو دقيـق، ولـو ألـحّ في السـؤال لأجـاب كل منهـم إجابـات متفاوتـة متباعـدة عـن الواقـع في أكـثر الأحيـان. منهـم مـن يقـول إنهـم هنـا لقتـال المتطرفـين الإسـلاميين، ومنهـم مـن يقـول بحمايـة المدنيـين أو إعـادة الإعمـار، أو الانتقـام لضحايـا «فبرايـر المـوت»، أو المسـاعدة في بنـاء ديموقراطيـة مصريـة، أو مـن أجـل «الطاقـة اللعينـة» كمـا صرح لهـا أحدهـم بغضـب، وضابـط واحـد فقـط قـال لهـا إن القـوات الأمريكيـة تؤمّـن اسـتثمارات الـشركات التعديـن الأمريكيـة في مـصر، الـتي تعمـل مـن أجـل اسـتخلاص العنـاصر الأرضيـة النـادرة مـن باطـن الأرض. وانتهـت إيلينـا إلى أن قالـت للرئيـس: «علينـا أن نحـدد لمـاذا نحـن هنـاك؟».

fb/mashro3pdf

حددت إيلينا في ذهنها بعض نقاط القصور، وطرحتها على الرئيس دون تزويق. لم تكن الحرب تجري في مصر على نحو مقبول. تشجعت الفصائل المتمردة وتوسعت في شن الغارات التخريبية والتفجيرات الانتحارية، واستولت على مساحات كبيرة من الأرض، وتوسعت الحكومة المصرية على صعيد آخر في ممارساتها القمعية، وانعدمت كفاءتها في إدارة شؤون البلاد تمامًا أو كادت، وتخاذلت فوق ما سبق عن واجباتها في مواجهة الإرهاب، وأخذ كل من وزرائها طريقه لأجل تحصيل الثروة والسعي وراء المكاسب الشخصية. وعندما سألها الرئيس عن أحوال القوات المصرية المسلحة، ووزارة الأمن الداخلي المصرية، أوضحت له إيلينا أنها أمضت ساعات عديدة في مطالعة الملفات المخابراتية لتلك القوات، وانتهت إلى أن الضباط العشرين الكبار، المسيطرين على المسار الأمني في مصر، تستعبدهم القوة الشخصية والثروة، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك وقالت بقسوة: «كنت أتبنى الرأي القائل بأن الحكومات يستحيل أن تكون شريرة إجمالًا، وأن الأمور لا تكون سيئة بنسبة مئة في المئة، وأن المصلحة يمكن تحقيقها مع أسوأ أنواع البشر، لو ضغطنا على الأزرار الصحيحة. لكني الآن أظن أن الحكومة في مصر، تتألف من طغمة من القتلة الفاسدين، وأنه ما من سبيل لأن تساعد الولايات المتحدة هؤلاء المجرمين، أو أن تأمل في التعاون معهم».

انتقلت إيلينا في سرد نقاطها إلى حال القوات الأمريكية ذاتها، فأقرّت بأنها مغلولة اليد ومتعثرة في سائر شؤونها وعملياتها القتالية، بسبب العوائق البيروقراطية والقانونية، و«دزينة التصريحات التي يتعين الحصول عليها من محامي البنتاجون، قبل أن يحركوا مدرعة أو يصلصلوا سلاحًا في وجوه الأشرار». وأضافت تقول للرئيس: «لا يسعني إلا أن أتعجب من إجراءات تنظم العمليات القتالية في ظاهر الأمر، وتعمل لصالح أعدائنا في حقيقة الأمر. المعادلة تفتقد التوازن، ففي حين يشنّ علينا الأعداء هجمات تخريبية بصفة شبه يومية، نلتزم نحن بإجراءات شكلية تعيق قدرتها على الرد والردع، وتتيح لخصومنا فرصة الهروب أو الاختباء أو إعادة تنظيم الصفوف. يحدث هذا بعد أن دمّرنا البلد بأسره، وقتلنا وشرّدنا السواد الأعظم من سكانها».

وبناءً على طلب الرئيس ماكالوم، أرسل إليه الرجال في البنتاجون بمقترحات وخيارات لم تكن في أفضل أحوالها مُرضية، كما رأتها إيلينا آنذاك، ودارت كلها في مدار إرسال بعض

fb/mashro3pdf

القـوات الإضافيـة، بأعـداد متفاوتـة. وبعـد اجتمـاع مُطـوّل مـع فريـق الأمـن القومـي، انتهـى الرئيـس إلى أن الخيـارات المُقدّمـة غـير ملائمـة، وفيهـا مـا فيهـا مـن الاسـتهانة والاسـتخفاف بالقيـادة المدنيـة، وعـزم عـلى إرسـال حشـود إضافيـة تصـل أعدادهـا إلى سـبعين ألفًـا مـن الجنـود، كتقديـر مبـدئي، مـن أجـل إحـكام السـيطرة عـلى البـلاد، وأقـر كذلـك جـواز مناقشـة إجـراء انتخابـات رئاسـة وزراء مبكـرة في مـصر، كمـا وضـع في خطتـه إمكانيـة زيـارة القاهـرة بنفسـه، لِبَـثّ الثقـة ورفـع معنويـات القـوات، والتحقـق مـن دوران دولاب العمـل في مسـاره الطبيعـي، وبوتـيرة مطـردة.

غـادرت إيلينـا إلى القاهـرة مـرة أخـرى، وهنـاك التقـت بـكل طاقـم القيـادة، وكانـوا جميعًـا شـعثًا مُغبريـن. رأت إيلينـا عـلى وجـوه القـادة والضبـاط والجنـود دلائـل الإرهـاق والانزعـاج والتوتـر العصـبي، واستشـعرت في نبراتهـم التشـاؤم والإحبـاط. وعـلى خـلاف عادتهـا، تلطفـت إيلينـا مـع الجميـع، وأحسـنت الإنصـات إليهـم، ودوّنـت آراءهـم ورؤاهـم وآمالهـم. حـددت القيـادة الأمريكيـة في القاهـرة حجـم القـوات الإضافيـة الـذي تـراه لازمًـا لتحقيـق نتائـج ملموسـة، وكان أكـبر بكثـير ممـا قَـدّره مجلـس الأمـن القومـي. تحـدث الجـنرال برايـن بويـن، قائـد قـوات الهجـوم البريـة والبحريـة والجويـة في مـصر، عـن حاجتـه إلى أعـداد هائلـة مـن القـوات البريـة وقـوات مشـاة البحريـة «الماريـنز»، بالإضافـة إلى سـت حامـلات طائـرات بـدلًا مـن الثلاثـة الحاليـين، وطلـب كذلـك فـرق مدرعـات ثقيلـة تكميليـة، وفـرق ميكانيكيـة، كي يسـتطيع وقواتـه الخـروج مـن معسـكراتهم المؤمّنـة بالألغـام والأسـلاك الشـائكة، وشـنّ حـرب شـاملة جديـدة عـلى المتمرديـن.

لـم تتحـرك إيلينـا في مـصر إلا في صحبـة الجـنرال بيرجـر، رئيـس الأركان، ولـم تسـمح للتعـب بـأن يهجعهـا، إلا قبيـل انصـداع الفجـر بقليـل، وفي نومـة نصـف النهـار، الـتي تفـر بهـا مـن شـدة حـر الظهـيرة. في أوقـات راحتهـا تلـك، يتحـرر الجـنرال بيرجـر مـن عـبء ملازمتهـا، ويسـتدعي كبـار الضبـاط، فيجـري معهـم نقاشـات مُطوّلـة، ويبادلهـم الآراء ووجهـات النظـر عـلى نحـو شـخصي، فيـه ود وصـبر وتحـرر مـن قيـود الهَرَميـة العسـكرية، محـاولًا بذلـك الاطّـلاع عـلى أي وقائـع مخبـوءة أو مشـكلات خفيـة. كان يعلـم أن الضبـاط، مهمـا أبـدوا ترحيبًـا بسياسـيي واشـنطن الزائريـن، ومهمـا تظاهـروا بالبحبحـة والانفتـاح، لا يفتـؤون يزوقـون الـكلام ويتحفّظـون في أقوالهـم وآرائهـم، ولكـون مستشـارة الأمـن القومـي امـرأة، يكـون الانغـلاقُ

fb/mashro3pdf

أرجح، وأكثر إحكامًا. دفعت الضرورة الجنرال بيرجر إلى أن يطمئن الضباط المرابطين في مصر، بعيدًا عن هراء الساسة، وأن يثبت ويقرر قدوم حشود الدعم، وأن يتعهد برسم سياسة مناوبة دورية أكثر عدلًا.

وفي آخر يوم لها في مصر، تحرت إيلينا الصراحة في خطابها، وقالت للضباط: «أعلم أنكم تريدون الحصول على إجابة لسؤالين مُلحَّيْن: ماذا نفعل هنا؟ ومتى نعود إلى الوطن؟ وأنا لا أستطيع في هذه المرحلة أن أجيب إجابة شافية؛ سنعطي قادتنا السياسيين الفرصة، وسنبذل أقصى جهدنا لإجابتكم إلى حاجاتكم، كي نخرج معًا من هذه الأزمة، برؤوس مرفوعة».

وفي طريق عودتها إلى واشنطن، قدّرت إيلينا أن القوات المتمركزة في مصر فهمت مراد الزيارة، وقبِلتها قَبولًا حسنًا، لكنها لم تكن مطمئنة إلى قدرتهم على الاحتمال لفترة طويلة قادمة. تعلم إيلينا أن القوات تقاتل للدفاع عن عناصرها وعن وجودها، وتقاتل باستماتة للدفاع عن قِيم جوهرية أصيلة، مثل الكرامة القومية والحفاظ على المصالح الأمريكية، وتعلم كذلك أن القوات قد تقاتل لأجل القادة العسكريين والسياسيين، لو توافرت مبررات واضحة ونزيهة. ما يعنى به هؤلاء الشباب المراهق، المحاصر بين جدران خرسانية وأسلاك شائكة، في بلد غريب ومناخ قاسٍ، ألا يكون القصد من وراء تضحياتهم هائمًا، خصوصًا أن البلد المراد تأديبه دُمِّر، والشعب المراد الانتقام منه قُتل وشُرد، والواقع على الأرض تغير.

في المحصلة، خلّفت تلك الزيارة في نفس إيلينا إدراكًا بدموية الموقف وكارثيته. وأثناء جلوسها إلى مكتبها في البيت الأبيض، وعكوفها على إعداد تقرير الزيارة، وفي خِضَم هذه الظروف العصيبة، استقبلت رسالة الجنرال المصري الإلكترونية، التي بدت وكأنها تحمل حلًا سحريًا لا يُصدّق للأزمة بأسرها.

وها هي ذي الآن، تجلس في آخر مكان يُحتمل أن توجد فيه، مع آخر شخص يُحتمل أن تلتفت إليه. تعلّقت عيناها بورف الشجر في حديقة مضيفها الأمامية، ولم تشعر بذات البهجة التي شعرت بها أمس. ولا غرو، فقد استهل الجنرال المصري الحوار على مائدة الإفطار بكلام كثير عن الاستثمارات الأمريكية المُجمَّدة في مجال التعدين، وما لبث أن أطنب في الحديث عن فشل الولايات المتحدة في تحويل مصر إلى قاعدة أمريكية دائمة،

fb/mashro3pdf

وعن الخطر الذي تتعرض له القوات الأمريكية في مصر، بحيث لم تعد تحظى بأي مكان آمن، حتى داخل أحرام المعسكرات العسكرية.

ثم قال الجنرال، وهو يلوك قطعة من اللحم:

- في رأيي، باتت قواتكم في وضع دقيق، أستطيع أن ألقي الضوء على ثلاث حوادث مهمة، وقعت خلال الفترة الأخيرة.. الأول: تدمير عشر طائرات حربية أمريكية، وتضرر خمس طائرات أخرى، في هجوم لجبهة المقاومة على قاعدة الوليلي الجوية، واعتراف مصدر أمريكي مسؤول بأنه لم يسبق أن تكبّدت القوات الجوية مثل هذه الخسائر الجسيمة في المعدات، منذ انتهت الحرب.

قالت إيلينا باتزان:

- لا أتذكر اعتراف أحد من متحدثينا بهذا. من أين جئت بهذا الكلام؟

واصل الجنرال حديثه دون التفات، قائلًا:

- الحادث الثاني: كان قيام عدد من ضباط الشرطة المصرية بإطلاق النار على أفراد قوة «دلتا» غدرًا، مما أدى إلى مقتل أربعة جنود. بهذا الهجوم يرتفع عدد قتلى القوات الأمريكية الساقطين برصاص عسكريين مصريين إلى مئة شخص، منذ بداية العام الحالي. يلقي هذا الهجوم الضوء على الاختراق الواسع، الحاصل داخل القوات المصرية المُدرّبة والمدعومة أمريكيًا، ويشير بوضوح إلى الحتمية الإستراتيجية لعملية تطهير وإعادة هيكلة شاملة لها.

فتح الجنرال شفتيه أثناء مضغ الطعام وضمهما بصورة مزعجة، وواصل قائلًا:

- الحادث الثالث: ذو المغزى المهم جدًا في رأيي، كان قيام طباخ مصري بتسميم الجنود الأمريكيين في معسكر النصر، الأمر الذي أدى إلى مقتل عشرة جنود فورًا، وإصابة آخرين. أهمية الحدث تأتي من أن توقيته جاء متزامنًا مع توقيت زيارتك الأخيرة لمصر، بصحبة الجنرال بيرجر، ويدل على أنك ورئيس الأركان كنتما مستهدفين طوال الوقت.

هزّت إيلينا رأسها يمنة ويسرة، وقالت نافية:

- لم يكن ثمة خطر حقيقي؛ لأن جدول الزيارة لم يتضمن معسكر النصر.

- وإن كان كذلك. الاختراق طال معسكراتكم الآمنة ذاتها، ومرتكب الجريمة ما زال طليقًا. هذه المرة طاشت الضربة، لحسن الحظ، المرة القادمة ستصيب.

fb/mashro3pdf

أومأت إيلينا موافقة، وقالت بوضوح، قاصدة الخلوص من الالتواء والدخول في الموضوع الأهم:

- أتفق معك، وأؤكد لك أننا بصدد تنفيذ خطة تطهير شاملة، واستبعاد كل الأجانب العاملين في قواعدنا.

بعناية فَصَلَ الجنرال بحافة شوكته الفضية قطعة من البيض المقلي، المخلوط بالبصل والفلفل والجبن، وجمع معها شريحة من لحم الفخذ المدخن، المُعالَج بالثوم والتوابل، وقال من دون أن ينظر إلى ضيفته:

- بالتوقف أمام هذه الحوادث الثلاثة، اسمحي لي أن أسجل الدلالات الآتية.

قالها ثم أتخم فمه بما جمعه من طبقه، ومضغ خليط البيض واللحم بسرعة، قبل أن يردف قائلًا:

- الدلالة الأولى: ضربات الجبهة الإسلامية لا تشير إلى تطور مستوى نشاطهم، على العكس من ذلك، كل الدلائل تشير إلى أن المقاومة مُختَرَقة هي الأخرى، مُهلهلة التنظيم، وتعاني أزمة عقائدية وصراعات من الداخل، وأنها تجاوزت فترة عنفوانها منذ زمن، ودخلت مرحلة الانحطاط والترهل. انظري إلى حجم خسائركم الحالي، الذي يعد محدودًا، إن قورن بفترات أخرى نشطت فيها فصائل مقاومة متعددة المعتقدات. الجبهة الإسلامية استنامت إلى السيطرة على أحياء كاملة، وانشغلت جزئيًا بأعباء إدراتها وسياسة سكانها. التقصير جاء من قِبَلِكم أنتم؛ فرص استنزافكم سانحة وكثيرة، والأهداف واضحة متوافرة، وأنتم بتراخيكم زوّدتم الإسلاميين بغطاء يضمن استمرارهم، وهو مقاومة الاحتلال.. بدلًا من ضربهم بقوة، وهم على ضعف وتفرق.

أرادت إيلينا أن تعقب على ما قيل، لكن الجنرال أشار إليها بسبابته بما يكاد أن يكون فظاظة، وقال:

- دعيني أكمل من فضلك.

ظهر أثر التساؤل وعدم الرضا على وجه إيلينا، لكنها سمحت له بأن يستأنف حديثه قائلًا:

- الدلالة الثانية: إعلان قيادة القوات الأمريكية عن وقف عملياتها المشتركة مع القوات المسلحة المصرية، نتيجة فقدان الثقة، يدل على فشلكم في تأهيل سلطة حكومة

fb/mashro3pdf

الألفي؛ لأن تكون رديفًا لكم في مواجهة المتمردين، رغم ما بذلتموه من أموال طائلة في شكل دعم وتدريب وتسليح. أتحدّث عن تريليونات الدولارات؟ في ظل أزمة بنيوية يمر بها الاقتصاد الأمريكي، وارتفاع غير مسبوق في حجم الديون وفوائدها؟

فور الجلوس إلى مائدة الإفطار، التي عَدّتها إيلينا طاولة اجتماع أيضًا، بدأت تتصرف مع الجنرال بحذر مضاعف وتباعُد وصرامة، كأنها تحادِث لصًا أو نشالًا أدنى منها منزلة، و»رمادي النوايا تمامًا»، كما قالت لنفسها. أحاطت رسغها الأيسر بحاسوبها الدقيق، وجلبت مفكرتها الورقية الصغيرة لتدوين الملاحظات، إن دعتها الحاجة إلى ذلك، وتناولت لُقيمات مدروسة من «إفطار الأبطال» هذا الذي مُد أمامها، بأصنافه من اللحم والبيض والجبن والمخبوزات الحلوة والمملحة.

رصدت عيناها حركات الجنرال، وتقلصات عضلات وجهه، ونظرات عينيه وغمزاتها المُتعمَّدة وغير المُتعمَّدة، وحِدّة نبرات صوته وعُلُوّها. على خلاف طريقة «التشحيم الاجتماعي» التي اتّبعها أمس، بما فيها من مُبالغة في اللياقة والكياسة وليونة الطرف، بدأ الجنرال خطابه اليوم بهجوم أراد به أولًا وقبل كل شيء، الترويج لسلعته، عن طريق استكشاف مساحات الألم لدى الخِصْم، والتشديد عليها، قبل استكشاف أجندته التفاوضية. لم تشعر إيليتا بالارتياح لأسلوبه التلاعبي، لا البارحة ولا اليوم، وعزمت على تسكينه وتمييع عزيمته، وخفض تدفق هرمونات التصارع في دمه.

استقبلت السيدة تحليل الجنرال الافتتاحي إلى تتمته، ولم تقاطعه أو تلاحقه بالأسئلة، ولم تترك نفسها فريسة لشهوة إطلاق الأحكام الاستباقية أيضًا، بل تحلت بالصبر والصمت، إلى أن أنهى الجنرال حديثه، «حتى آخر قطرة»، فسألته أن يضيف ما بدا له، إن كان في جعبته المزيد، فأقر الجنرال باكتفائه عند هذه النقطة.

افتتحت إيلينا خطابها على الفور بالحديث عن الغارة الأولى التجريبية، وعرضت بعض الصور الرقمية للسلاح والعتاد المُخزَّن في منزل القيادي القتيل أبي عبد الرحمن الورداني، ثم تحدثت باختصار عن غارة اليوم التي استهدفت بقية ما أرسله الجنرال من أسماء، وذكرت بإيجاز ما ترتب عليها من نتائج طيبة، من واقع المعلومات التي وصلتها على بريدها الإلكتروني، والتي صُرّح بكشفها للجنرال.

دام تلخيصها لمدة عشر دقائق سريعة، وكان ممتعًا، مفعمًا بالحيوية، وأنهت حديثها

fb/mashro3pdf

بأن أبلغت الجنرال شكر الإدارة الأمريكية الرسمي على مبادرته الإيجابية، وهي نقطة مضيئة أخرى تضاف إلى سِجلّه المُشرّف، كما نقلت إليه تقدير رئيس الولايات المتحدة شخصيًا.

قال الجنرال: يسعدني سماع ذلك.

لم تكتفِ إيلينا بهذا الشكر الجميل، بل سلمته رسالة مكتوبة بخط يد الرئيس، على بطاقة من بطاقات البيت الأبيض اللامعة، بعنوان: «إلى الجنرال العزيز»، وفيها حَمْد لَبِق مُوجَز، أسعد الجنرال وأثلج صدره.

لم تتركه إيلينا ينعم بالفرح طويلًا؛ لأنه ما أن وضع البطاقة جانبًا، وطفق يرفع الطعام بنفسه، حتى تحدثت بتوسع عن اعتزام الرئيس زيادة النفقات الدفاعية ورواتب الجنود، رغم الوضع الاقتصادي المتردّي، وعن الحشود الكبيرة المزمع إرسالها إلى مصر خلال الشهور المقبلة. لعشر دقائق كاملة، أوجزت إيلينا بعض نواحي خطة العمليات «٦٠٢٦»، وهي خارطة طريق لمستقبل الصراع، عكف على رسم ملامحها أكثر من خمس مئة مدني وعسكري في القيادة المركزية الأمريكية «سنتكوم».

قال الجنرال مفكرًا، بصوت خافت:

- إنها قوة هائلة.. ليست مجرد سرايا قتال تكتيكي.

- الأمر جد خطير.

هكذا قالت إيلينا بإصرار، وأفردت المزيد من الوقت لسرد تفاصيل فنية عن أعداد القوات ومعداتها وذخائرها، وسبل نقلها وخسائرها المتوقعة وكيفية التعامل معها، «وملايين الأشياء الأخرى التي يتناولها المخطط التفصيلي». لم تكشف له بطبيعة الحال إلا ما رُخّص لها وأُعِدّ من قِبَل فريق عمل خاص في المخابرات المركزية، يُلِم أفراده بأبعاد وزوايا تفاعلات الجنرال السلوكية، على نحو تحليلي شامل ودقيق، كما أجرت إيلينا على لسانها تعابير أُعِدَّت لهذا الاجتماع خصوصًا، من قبيل «إطلاق العنان للجحيم»، و«صب النار على الرؤوس بشكل مذهل»، و«تحقيق النصر بأي ثمن».

بدا الجنرال مستغرقًا في التفكير، ولما التفتت إليه إيلينا أثناء حركتها السريعة لتنظيف المائدة، رأته مهمومًا متغير اللون. أحضر الرجل من المطبخ سلطانية من الخزف امتلأت بالفواكه الاستوائية، وسألها متلطفًا أن تساعده بأن تجلب من المطبخ زجاجتي كوكتيل

fb/mashro3pdf

الفـودكا وعصـير البرتقـال، وأن تلحـق بـه. ولـم تمـضِ عـدة دقائـق حـتى حَوَتْهمـا وحـدة الجلـوس الوثـيرة، الملحقـة بغرفـة المكتـب.

أراحـت إيلينـا ظهرهـا بتلـذذ عـلى كرسـيها الوطـيء، وخلعـت حذاءهـا الخفيـف، ورفعـت قدميهـا الحافيتـين أمـام وجـه مضيفهـا، دون تحـرُّج. أعـد لهـا الجـنرال كوكتيـل الفـودكا بالبرتقـال كمـا يظـن أنهـا تحبـه، وأضـاف إليـه خليـط التـوت الـبري بالفانيليـا، فيمـا تنظـر هـي خـلال الجـدار الزجاجـي المـوازي لوحـدة الجلـوس. ثـم حانـت منهـا التفاتـة إلى غرفـة المكتـب ذاتهـا، فـرأت جدرانهـا مزينـة بمجموعـة مـن اللوحـات الفوتوغرافيـة، الـتي تُظهِـر معالـمَ مِصريـة مختلفـة. فُرِّقـت اللوحـات بنظـام دقيـق عـلى جـداريّ غرفـة المكتـب المتقابلتـين، وراحـت ألوانهـا تفـتر، إلى أن انتهـت إلى جدرايـة صخمـة، رماديـة الظـلال، احتلـت الجـدار المـشرف عـلى وحـدة المكتـب. أحسّـت إيلينـا بالراحـة والابتهـاج؛ لأن الجـنرال لـم يتوافـر عـلى وصـف هـذه اللوحـات، كمـا توافـر عـلى وصـف لوحـات أمـس المتفرقـة في سـائر أنحـاء الفيـلا. كان قـد أكـثر البارحـة مـن التغـني بمناظـر بـلاده الجميلـة، وعـبّر عـن كَلفـه بهـا بفخـر، فأحـرز قصـب السـبق عـلى أي تعليـق حاولـت أن تُـدلي إيلينـا بـه عـلى سـبيل المجاملـة.

هـا هـو الآن يصـب لنفسـه مـن عصـير البرتقـال في كـوب بلـوري طويـل، ويريـح ظهـره عـلى الأريكـة الوثـيرة الكائنـة إلى جـوار كرسـيها. نظـرت إليـه إيلينـا فَرِحَـة باسـمة، وكان عـلى وجهـه كَمَـد.

لـم يكـن قـد تجـاوز بعـد أثـر قـرْع الحديـث عـن الحشـود الجديـدة، وحـرص عـلى أن يظهـر عـلى وجهـهِ أمـارات الغضـب وعـدم الرضـا، وهـو يقـول:

- اسـمحي لي أن أقـول لـك، يـا إيلينـا.. أود أن أقـول.. إنـي أرى مـن الآن، مبكـرًا جـدًا.. مبكـرًا جـدًا جـدًا.. أرى مـن دلائـل سـوء التخطيـط في خطتكـم هـذه مـا يزعجـني، ويوقـف شـعر ذراعـي.

- وكيف هذا يا جنرال؟

- هـو كذلـك. هلـمّ إذن.. أرسـلوا مئـات الآلاف مـن القـوات: أرسـلوا المدرعـات والمجـنزرات والقاذفـات، ولنذهـب ولنقتـل جموعًـا كثـيرة مـن البـشر.. ليكـن.. لنقتـل مـن تبقـى مـن المصريـين، ونُريـح الأرض مـن عفنهـم.. هـذا ببسـاطة هـو فحـوى خارطـة الطريـق الجديـدة خاصتكـم. هـذا جنـون.. جنـون مطبـق.

fb/mashro3pdf

راقبته إيلينا بسكون وهو يردف، وقد بدأت نبرات صوته في العلو:

- أريدك أن تستعرضي الوضع في مصر، يا صاحبتي.. جيوشكم تحتل القُطر المصري في الشرق، والحشود الإسرائيلية تنتشر في سيناء، والمعركة هناك على أشدها أيضًا.. وإذا بكم تقصفون الأحياء كما يحلو لكم، وتمطرون المباني السكنية بأوبال القنابل، وإذا بجنود المارينز المدججين بالسلاح يمشّطون الشوارع ويطوّقون المنازل.. ثم إذا بالمتطرفين يخرجون إليكم من حُفَرِهم، ويقاتلونكم كالشياطين، فيرد المايرينز النار بمئة نار، وإذا بالجحيم «يطلق عنانه»، كما تفضلت أنت بالقول منذ قليل.

وتوقف عن الحديث برهة ليلتقط أنفاسه بصوت مسموع، ثم قال:

- ما تفعلونه سفيه.. مبتذل. أنتم من جهة والمتمردون من جهة أخرى، تجتهدون لتسوية خلافاتكم عن طريق قتل أكبر عدد من المصريين، كل حسب قدرته. هذا كل ما هنالك.

قالت إيلينا وهي تظهر انشغال الذهن:

- لا أرى الأمر كما تراه أنت. وعلى كل حال، التخاذُل في علاج مشكلة التمرد، قد يؤدي إلى مشكلات أكثر تدميرًا. الخسائر المدنية أمر وارد بلا شك، وسيقع قتلى من صفوفنا كذلك، لكننا لا نستطيع أن نزجّ بالآلاف من الشباب الأمريكي في أتون حرب بائسة متواصلة كل عام. هؤلاء الجنود هم في الحقيقة مجرد مراهقين، وهم لا يستحقون الموت.

قال الجنرال متسائلًا:

- ماذا عن الشباب المصري؟ هل يستحق الموت من وجهة نظرك؟

هزت إيلينا رأسها يمنة ويسرة رافضة، وقالت:

- نحاول أن نقلل من الخسائر المدنية قدر الإمكان، ولهذا نعكف على رسم خطة العمليات هذه. الزمن تغير، ولم يعد في الإمكان شن هجوم جوي على مناطق سكنية مكتظة، وتحمُّل مسؤولية خسائر مدنية جانبية فادحة؛ الرأي العام الأمريكي لن يقبل من الإدارة الجديدة حرق الآلاف، حادث الإسكندرية ليس عنا ببعيد. ليس هناك مبرر، والجماهير تُفضّل الانسحاب؛ الحاجة ماسة الآن إلى قوات برية شاملة، تجتاح المناطق الواقعة تحت سيطرة المتمردين، قوات مدربة على التفرقة بين المدني والمقاتل قدر الإمكان. ونحن لا نملك حاليًا حجم القوات اللازم للقيام بعملية كهذه، ولهذا نحشد

fb/mashro3pdf

لها.

قَتَمَ وجه الجنرال، ولم يقُل شيئًا. بالمقابل مال لون إيلينا إلى الاحمرار، وقالت باسمة:

- أنت اليوم عاطفي أكثر من اللازم، ومن أي وقت مضى. تتحدث عن أرواح المدنيين بجيّشان، كأنك تبالي بها فعلًا.

قال الجنرال بمرارة مدهشة:

- الدمار تعدَّى المادة يا إيلينا، والهزيمة والفساد استقرا في النفوس. الناس تعيش بين نير دولتين.. الأولى دينية، رجعية، همجية، باطشة، يسوسها جماعة من الملتحين الأشرار والمجانين، هؤلاء لا تحكمهم قواعد ولا توقفهم حدود. والثانية طائشة، فاشلة، عميلة. لا أقول إنها عميلة لكم، بل لمصالحها فقط. أنتم لا تحتاجون إلى حكومة عميلة بقدر ما تحتاجون إلى حكومة متعاونة، حليفة، فعّالة. الحكومة الحالية هذه التي تدعمونها بالمدرعات والمجنزرات، تترك الناس ينامون في الشوارع، وتترك الأطفال يموتون جوعًا، والعائلات تفنى بالمرض، تترك أنقاض المدن المصرية لتغرق وتنتهي. أخبرني، بحق الله، أين مصلحتكم في هذا؟

صوّبت إيلينا إلى الجنرال سبابتها، وقالت ترد ردًا سريعًا:

- ليس هذا من فعلنا يا جنرال. مواردكم البشرية نضبت مبكرًا جدًا، قبل الغزو بسنوات. دولتكم العفنة -وأنت كنت ركنًا من أركانها- كانت قد شاخت وانتهت وعجَزَت عن البقاء، قبل أن ندخل نحن مصر بزمن بعيد.

هتف الجنرال يقول بلهجة الاستهجان:

- أخبريني بحق الله، هل تأملون -بعد عمليتكم العسكرية المهولة المقبلة- أن يقلع الناس في مصر عن كرهكم وقتلكم؟ هل تأملون أن تدمروا الإرهاب، وأن يقلع الشباب عن الالتحاق بدولة المتشددين الجهولة، وهم يعيشون على الجانب الآخر دون أمل؟ شباب تقول له حكومته: هه، لا وظائف؟! إنه حقًا حظ تَعِس! لا رعاية صحية؟! سيعالج السوق نفسه بنفسه! لا أمان؟! سيفرز المجتمع كتائبه الخاصة! تعيش في فقر مدقع؟! اذهب وابحث عن طعامك في الزبالة!

نظرت إليه إيلينا بصمت للحظات، قبل أن تقول بإحباط وخيبة أمل:

- ليس هذا هو الجنرال حسام داوود الذي أعرفه.

fb/mashro3pdf

- بـات مـن العـار عـلى كل مـصري، أن يـترك تلـك العصابـة الـتي قلّدتموهـا المناصـب، لتفسـد وتسـفك الدمـاء، تحـت سـمعكم وبصركـم. كل مخلـوق في حكومـة الألفـي هـذه متعفـن، متفسّـخ. يسـتحيل أن يصـل إنسـان شريـف إلى منصـب واحـد في هـذا البلـد. كلهـم بـلا اسـتثناء، حثالـة قـذرة، ترتكـب الجرائـم وقـد أمِنـت العقـاب.

قالت إيلينا باستياء:

- يا جنرال.. هلا نرجع إلى موضوعنا؟ خلافنا الآن ليس سياسيًا.

- بل صلب المشكلة ينبع من هذه الحكومة، لو أردت رأيي.

سألته الصديقة الأمريكية بجدّية:

- هل أفهم من ذلك أنك تريد أن تتقدم، وتقدم حلولًا سياسية؟

قال الجنرال بجدية وإخلاص:

- يـا إيلينـا.. أريـد أن أصدقـك القـول.. أنـا أحلـم بمـصر أخـرى غـير الـتي كانـت، وغـير الـتي هـي كائنـة الآن. لا أتحـدث عـن إصـلاح، بـل عـن بنـاء الحيـاة مـرة أخـرى، عـن بنـاء الإنسـان المـصري ذاتـه، الـذي فقـد الإيمـان وفقـد القيمـة، وعـاد إلى الحالـة الحيوانيـة البدائيـة. هـل لاحظـتِ أنـني لا أقـول قـط بخروجكـم مـن المسـتنقع؟ بخـلاف ذلـك أقـول.. وجودكـم ضرورة، ودونـه تنهـار مـصر إلى غـير رجعـة.. أتحـدث عـن تجفيـف المسـتنقع المـصري، عـن تحويلـه إلى تربـة نافعـة، صالحـة للزراعـة والإعمـار.

- وأنت، هل تستطيع مساعدتنا؟

- مساعدتكم؟! يا صديقتي، أنا أطمح في إنهاء الصراع بأسره، خلال عدة أشهر.

أظهـر الجـنرال في حديثـه عاطفـة صادقـة، فـكأن الهـمّ يجيـش في صـدره، وكأن الغيـظ يغـلي في عروقـه، وكأنـه تـوّاق للقتـال في سـبيل وطنـه. فهمـت إيلينـا مـراده دون إبهـام، واسـتقبلت رسـالته باهتمـام في ظاهـر الأمـر، واسـتخفاف في حقيقتـه، وظنّـت أن الجـنرال إنمـا قفـل عائـدًا إلى أسـلوب التزلّـف والتوسـل كي يثبـت أنـه لـم يـزل كمـا هـو، الرجـل الحديـدي القاطـع كالسـكين، المفعـم رغـم ذلـك بالمشـاعر النبيلـة، والقـادر عـلى القتـال، والـذي لـم يـأن زمـن ركونـه إلى الخمـول والتعفـن في فيلتـه المترفـة هـذه.

رفعـت إيلينـا حاجبهـا الأيمـن مُظهِـرة العجـب. كانـت قـد عزمـت اليـوم عـلى أن تبعـد نفسـها عـن المهاتـرات والثرثـرة، وأن تـنزّه نفسـها عـن الدخـول في محـاورات الجـنرال السياسـية،

fb/mashro3pdf

التي تذوب فيها الحواجز بين ما هو شخصي وما هو عام. لكنها لم تملك إلا أن تقول بمكر متعمد:

- لا أظننا بحاجة إلى خدماتك لهذا الحد.

تبسّم الجنرال بهزأ، وقال:

- أي حد تقصدين؟

قالت إيلينا على الفور:

- إلى حد إيقاف حشد عسكري ضخم، تُخصص له اعتمادات ضخمة، وتُحرك له حاملات طائرات نووية، وعشرات الآلاف من الجنود. الرئيس وَقَّع الخطة، وهي خطة ذات مسار واحد، توجّه إلى مصر أقصى قوة عسكرية متاحة.

ارتشف الجنرال من عصير البرتقال، ثم قال وهو يميل إلى الأمام:

- اسمعيني يا إيلينا.. الانطباع السائد عن رئيسكم المعجزة هذا، مضلل. في بلدكم الرئيس لا يملك عصا سحرية يحركها، فيتحرك معه الكونجرس مثلًا. النواب والشيوخ سيمزقونه إربًا إن لم تُحرز الحشود الجديدة نجاحًا باهرًا. وبالنظر إلى الواقع على الأرض، أظن أن كلمة «النجاح الباهر» صعبة التحقيق. وما أن تبدأ التوابيت الملفوفة بالعلم في الوصول إلى أرض الوطن، حتى تنهار تآلفات الرئيس وتحالفاته، ويهجره كل من دعمه يومًا ما. تحقيق تقدم ملموس في مصر، لن يأتي إلا بضربة قاصمة دقيقة، تعتمد على العقل أكثر ما تعتمد على العضلات.. ضربة تهدئ الأوضاع، من دون أن تُلحِق بما تبقى من البلد الدمار.

قالت إيلينا، قاصدة استفزازه:

- أنت تلمّح إلى ما هو أكبر من التعاون المعلوماتي، فيما أرى. أراك تتكلم عن رفع غطاء السرية، وإفساد خطة تهريبك وتأمينك.. تتحدث عن إماطة اللثام عن تورط الإدارة الأمريكية في عملية تلفيق وفاتك، لأجل أن تعود وتتبوأ منصبًا سياسيًا في مصر. أو دعني أقول، لأجل أن تتبوأ كرسي الحكم في مصر؟! جيد جدًا.. هل تظن أن أحدًا سيقبل عودتك إلى المشهد مرة أخرى؟ رسميًا، أنت ميت.

أجاب الجنرال قائلًا باستياء:

- بما أنكم أمتموني، فلن يصعب عليكم إحيائي.

fb/mashro3pdf

وأردف ساخرًا:

- وأنا لا أشك مطلقًا في أن الولايات المتحدة، كانت وما تزال بلد الممكن.

قالت إيلينا باسمة:

- المولى وحده قادر على إحياء الموتى.

- نعم، نفخ الروح في الجثث، نعم، هذه فقط لله.. لكن في تلك اللحظة الفارقة.. أظن أن الخيار الأفضل هو الإنصات إلى ما أقول، ثم طرق كل السبل الممكنة لإيقاف نزيف الدم، لإنهاء هذا الفصل القبيح من القصة الأمريكية.. أتحدث عن إحياء الموتى؛ لأنه في الوقت الذي ظن الجميع أن السياسة في الولايات المتحدة قد ماتت، يفوز رئيسك الشاب، وهو -في رأيي- أحلى فوز شهدته الولايات المتحدة منذ أجيال.

مرة أخرى، يعود الجنرال إلى الإطناب والتشحيم، وهو انعطاف اعتادت عليه إيلينا وتكيفت معه، بل واستلذته وعدّته شيقًا؛ أن ترى الرجل الذي عرفته دومًا في الميدان كزًّا غليظ القلب، يتحدث في الأمل ويمتدح التجربة الديموقراطية التي أودت برئيسها إلى كرسي الحكم.

أنصتت إليه وعيناها على شاشة حاسوبها كي تتصفح آخر ما وصل إليها من رسائل، إذ يواصل قائلًا:

- أنا تابعت الانتخابات الجديدة، بانتباه وشغف.. رأيت جيلًا جديدًا من السياسيين الشبان، وأنتِ منهم، يتقدم الصفوف.. رأيت شبابًا يُعَبِّر عن حبه للوطن بلا خجل.. رأيت الشباب في ميدان هارفارد يسدون الشوارع، يوقفون المرور، يصدحون بالغناء: «فليبارك الرب أمريكا!». أنا أظن أن مجيء الإدارة الجديدة يمثل ثورة، وأنه قد يحدث تغييرًا شاملًا.

وجمع أطراف أصابعه، قائلًا بنبرة مشوبة بالانفعال:

- لديكم الآن فرصة حقيقية للتغيير.. لا تتركوها تذهب سُدى.. أنا الآن أتقدم إليكم بيد المساعدة، وأود أن أُدخِل نفسي في صدارة المشهد، لأتابع وأُشارك وأُشرِف.

تبسّمت إيلينا بقسوة متعمّدة، وقالت:

- أرنا ما في جعبتك، ودع لنا مهمة تحديد موقعك من الأحداث.

طرأت على وجه الجنرال يُبوسة غليظة لما سمع مقالتها، وقال:

fb/mashro3pdf

- لا.. أنا أطرح عرضي بكل جوانبه، ولكم حرية القبول أو الرفض.

قالت إيلينا على الفور بترفُّع:

- لا يسعني التعقيب على ما تقول، ولا حتى نقل عرضك إلى المسؤولين المعنيين، من قبل أن أُقيِّم جِدّيّة المعلومات، ومعقولية العرض.

تبسّم الجنرال بطرف شفتيه ساخرًا، وقال:

- أما جِدية المعلومات، فقد لمستموها بأنفسكم في الغارة الأولى، تلك التي تسمونها «التجريبية».. وليس وجودك ها هنا اليوم، إلا دليل على تصديقكم إياي.. وأما العرض...

ونهض عن مقعده بِهمّة، وقصد مكتبه بخطى واثقة، وهو يقول:

- فستجدين كل ما يخصه...

واستخرج من أحد أدراج مكتبه حافظة أوراق جلدية، وهو يردف قائلًا:

- في مذكرة تلخيصية، عكفت على إعدادها الأسبوع الماضي.

وعاد مسرعًا إلى مجلسها، وناولها الحافظة بما فيها قائلًا:

- تجدين هنا مخطط العرض، متضمنًا حقوقي والتزاماتي، وحقوقكم والتزاماتكم، ونقاط خطة العمل الرئيسية. يمكنك أن تقرئيه، ثم نناقشه على الغداء.

قالت إيلينا وقد فتحت الحافظة وبدأت تطالع محتواها بالفعل:

- لن أمكث هنا إلى الغداء. أطالعه الآن، وأناقشه معك على الفور.

- جيد جدًا.

قلبت إيلينا محتويات الحافظة الجلدية الفاخرة، واطّلعت عليها اطّلاعًا سريعًا في البداية، كي تتعرف على البنية التنظيمية لعرض الجنرال. استقرأت بعد ذلك المذكرة التلخيصية بعناية، وتفحّصت كل ورقة من أوراقها العشرة، ودرست نقاطها لمعرفة ما وراءها من مقاصد. كُتِبَت المذكرة بلغة قانونية محكمة، معقدة، الأمر الذي أثار حفيظة إيلينا وإعجابها في آن واحد. بتلك العين المستحسنة تعمّقت في موضوعها وتقصت دقائقها، وبالتدريج، تحول إعجابها إلى دهشة.

انتظر الجنرال في هدوء واطمئنان، ولم يتعجل، بل شغل نفسه بتأمل ضيفته من أعلاها إلى أسفلها. أمعن النظر في أصابع قدميها الطويلة، المطلية بعناية بطلاء أحمر لامع، وفي بشرتها البيضاء، التي شابها احمرار وزحف عليها ترهل طفيف بحكم التقدم في

fb/mashro3pdf

السن، ثم طفقت تراوده خيالات، تبعها تهويم ناعم.

استغلقت على إيلينا الكلمات المطبوعة، ولم تعرف كيف تستمر فيها، ولا كيف تنهيها. فيما يبدو لها، يتقدم الجنرال بحلول للمسألة المصرية، ذات طابع نهائي، خارق للعادة والطبيعة، وكأنه السحر. لم تستطع أن تحدد إن كان ما يدّعيه من أمور، وما يحيط به من علم، حقيقة خفيت أسبابها، أم خيال يخالف الواقع ويجري مجرى التمويه والخداع، ولم تستطع في هذه الدقائق القليلة أن تُبدِي رأيًا أو حتى انطباعًا فيما عُرض عليها. لم يبدُ على وجهها انفعال من أي نوع، بل قلّبت الأوراق بوجه جاد تمامًا، وبشيء من عدم الاكتراث، فكأنها لا تأبه بما فيها. وأخيرًا طوت الحافظة الجلدية، ووضعتها على المنضدة الخشبية المنخفضة قبالتها.

فركت كفيها، وتوجهت إلى الجنرال بالخطاب قائلة بإيجاز:

- المذكرة مكتوبة بشكل جيد جدًا.

*****

عندما جاوزت عقارب الساعة العاشرة صباحًا، كانت الحياة تدب بالفعل في أنحاء كوفس هاربر، بما يناسب هذه الفترة من العام. طوف الزوار والمحليون بالمحال التجارية والنوادي والمطاعم والمقاهي والمعارض الفنية، وأكثروا المشي حول نواحي المدينة التاريخية وحدائقها ومتنزهاتها الشاسعة.

ومن موقعه هذا في حديقة الفيلا الخلفية، لم يرَ ماجد على الشاطئ سوى بضعة أزواج ممن اختاروا البحر لنزهاتهم الصباحية، وأطلقوا كلابهم الأليفة لتركض على الرمال البيضاء. لم يدرج في خطة اليوم أي أنشطة استثنائية أو ترفيهية، خصوصًا مع غياب الأسرة في سيدني، وحلول السيدة الأمريكية ضيفة على السيد الوالد. اختار لنفسه بقعة ظليلة في الحديقة، افترش حشائشها، وشغل نفسه بقراءة رواية ورقية تافهة ذائعة الصيت، اسمها «كرنفال البندقية».

وعلى بعد أمتار كثيرة، وراء واجهة غرفة المكتب الزجاجية العاكسة، انبرى الجنرال على أريكته، واستحوذ على موضوع الحديث لنصف ساعة كاملة، تناول فيها بالشرح والتحليل

fb/mashro3pdf

مقترحاته وشروطه، ولم يدّخر جهدًا في تفسير كل نقطة ووضعها في أبسط صورة، وإبانة كل الشروط الملحقة بها وتبريرها. اعترف لإيلينا أن الخطة قد تبدو في الوهلة الأولى خطيرة وخيالية، ثم استطرد قائلًا: إن الغوص على التفاصيل الفنية يُبيِّن للناظر المحايد إحكامها التام، وبراءتها من الثغرات.

خلال الساعة التالية، تتابعت استفسارات إيلينا، واحدًا بعد واحد، ورويدًا رويدًا تحول استهجانها إلى تمعن وتمهل وتدبر، فإذا بالجنرال يبسط يدًا عُليا على الموقف بأسره، دون جهد أو تكلّف، وإذا به يبدأ في طرح الأسئلة على إيلينا، وتبدأ هي في الرد. وخلال نصف ساعة أخرى، استطاع الجنرال أن يقنع إيلينا بجدوى المشاركة المعلوماتية، «في حدود المسموح به».

تمثّل الجنرال لإيلينا مُحرِّك احتراق داخلي، يدور بكل قوة كي يبلغ هدفه. على نقيض كل القادة المصريين الذين رأتهم وعاملتهم قبل الحرب وبعدها، كان هو، الداهية المحنك، المتبصر واسع العلم.. بيد أنه، رغم ميزاته هذه، كان مندفعًا، توّاقًا إلى خوض المعركة القادمة بقوة، متشوقًا شوقًا مُرًّا، لحد تهافت الأعصاب، إلى أن يجد لنفسه مكانًا في العالم الجديد. وهو إلى ما تقدم، باذخ، متكبر، لا يطاق. استرجعت إيلينا في ذهنها أيام حمل الجنرال الصولجان، وتبوأ مقعد السلطة وانتفخ بهيلها وهيلمانها، وقارنت بين حاله آنئذ، وحاله اليوم. إنه اليوم في موضع متدنٍ، يتعين عليه فيه أن يتوالس على وطنه، وأن يتناصر مع أعدائه في خب وخديعة. هكذا صارحت نفسها دون مواراة، إذ تنظر إليه وهو جالس. كان في تدنيه هذا غير عابئ، وكان مالئًا أريكته، مضمخًا في عطره، مسلطًا عينيه الشرهتين عليها، قائلًا بلسان حاله في كل لحظة: سأفوز بالأمر كله.

أفلحت كذلك في أثناء تنقيبها في خصاله الظاهرة، في أن تستنبط ملاحظة أخرى شاقتها، وهي أن هذا الرجل، يناقض تمامًا من عرفتهم من ساسة بلدها الأفّاكين. إنه لا «يهتم بالآخرين»، ولا «يحب الحيوانات»، ولا «يتقدم من تلقاء نفسه لمساعدة السيدات العجائز في عبور الطريق». إنه عجوز خشن، طموح مفترس، لن يوقفه شيء عن بلوغ هدفه. لم يكن جذابًا ولا لبقًا ولا راقيًا ولا مصقولًا، مهما اضطرته الظروف إلى أن يتظاهر بالعكس. لكنه بدا لها كرجل قادر على إنجاز المهمات الموكلة إليه.

أخضعت إيلينا سلوك خصمها كله إلى عملية تحليلية تلقائية، تشبه في تجردها وذرائعيتها

fb/mashro3pdf

المعـادلات الرياضيـة البحتـة. تجـاوزت مشـاعرها تجـاه الجـنرال، وتجاهلـت تلـك الغمامـة المقبضـة الكريهـة الـتي تحيـط برأسـه، وركـزت قواهـا كي تصـل إلى أفضـل تسـوية وأكـبر منفعـة.

داولهـا الجـنرال مداولـة شـاقة، وبادلهـا الـرأي حـتى أنهكهـا، بغيـة الوصـول إلى اتفـاق آنٍ يتيـح لـه الاطـلاع عـلى بعـض المعلومـات المتعلقـة بالغـارات الـتي شُنَّت عـلى قيـادي الجبهـة الإسـلامية، وكأنـه يريـد أن يثمـن مـا في جعبتـه. كان قـد أدرك، بالنظـر إلى تصلـب موقفهـا، أنـه فقـد مكانتـه العُليـا السـابقة في الحـوار، وصـار طالبًـا لا مطلوبًـا، فاحمـرّ صـدره غيظًـا أن لـم يـنزع إلى ضبـط النفـس، وانحـاز بـدلًا مـن ذلـك إلى جانـب الإشـباع الـذاتي الاندفاعـي، حـتى خـسر مـا كان قـد أحـرزه بشِـقّ النفـس. رغبتـه في الإحاطـة بحجـم المعلومـات الـتي في حـوزة الأمريـكان عـن الجبهـة الإسـلامية، طغـت عـلى الحصافـة وحسـن التميـيز.

أبغـض إيلينـا كل البغـض، وحـط مـن شـأنها في نفسـه، وكال لهـا أقبـح الشـتائم في سره، مـن قبيـل «الفاجـرة» و«الفاحشـة» و«المتسـافحة عديمـة الـشرف». إنهـا، مـن حيـث كونهـا امـرأة غربيـة، لا تؤمـن بالواجبـات والتضحيـات والموانـع، ولا تتقيـد بـأي قيـود أخلاقيـة أو عُرفيـة، ولا تميـل إلا إلى كـنز المـال وتحصيـل المنافـع ومطارحـة الشـهوات، وهـي إلى مـا سـبق كلـه، تنخلـع تلقائيًـا عـن التقاليـد الأخلاقيـة الكابحـة الـتي يلـتزم بهـا هـو، الأصـولي، ابـن الـشرق البـار. وأمـا مـن حيـث إنهـا امـرأة يهوديـة، فلـم تـزد في نظـره عـن كونهـا كمًّـا قـذرًا مـن إفـرازات النـكاح الشـاذة، الحاصلـة بـين أسـلافها مـن القـردة والخنازيـر، وهـي إن لـم تكـن كذلـك عـلى الحقيقـة، فهـي مـن أخـوات القـردة والخنازيـر وعبـدة الطواغيـت عـلى كل حـال، لمسـوخها في العنـاد والتمـرد عليـه بغـير حـق، فاسـتحقت مـن ثـمّ ذلكـم التشـبيه.

وفيمـا يظـن الجـنرال أنـه أنهـك إيلينـا، ظنـت هـي في المقابـل أنهـا دوخـت دماغـه وسـوّته، فطرحـت المعلومـات محـل النقـاش عـلى الطاولـة بقـدر محسـوب، ولـم تتخـطَ المطلـوب لـكل نقطـة، ولـم تُلـقِ بمـا لديهـا دفعـة واحـدة. اسـتخرجت مـن حاسـوب اليـد بضعـة أسـماء مهمـة، وأسـقطتها هولوجراميًـا مـع مـا يجاورهـا مـن بيانـات عـلى سـطح الطاولـة الزجاجـي، كي يتيـسر للجـنرال النظـر إليهـا.

طالـع الرجـل البيانـات والصـور برويّـة، وكـرر قـراءة أجـزاء منهـا بإمعـان ودقـة، خصوصًـا تحريـات مكتـب التحقيقـات الفيـدرالي المخابراتيـة. وتلـك رآهـا -مـن واقـع خبرتـه- تحريـات فجّـة، تفتقـر إلى المعالجـة والتهذيـب، وتحتـاج إلى تدقيـق وتنقيـح وزيـادة، فطابـت نفسـه

fb/mashro3pdf

بهـذا النقـص المؤسـف، حـتى أن شـفتيه انفرجتـا عـن ثناياه ضاحـكًا، وسـطعت عيناه بالـسرور. صارحهـا مبـاشرة بـأن هـذه المعلومـات غـير دقيقـة، وأن كل الأسـماء غـير صحيحـة، وأرجـع السـبب في هـذا إلى فـوضى الهويـات وضيـاع السـجلات الرسـمية واحتراقهـا مـع انهيـار الدولـة المصريـة بعـد الغـزو.

ثم قال مبرزًا شفته السفلى:

- أنتـم تحتاجـون إلى مـا لـديّ باسـتماتة، إلا لـو أردتـم بالطبـع المُـضيّ قُدمًـا في حشـدكم العظيـم، وإهـدار تريليونـات الـدولارات الإضافيـة، وآلاف الأرواح الأخـرى.

لـم تُعقّـب إيلينـا، ولـم تُـرِد أن تـدور معـه في دوائـر مفرغـة؛ كانـا قـد تحدثـا في هـذا الموضـوع مـن قبـل، فأبـدت تململًا في جِلسـتها، وشـعرت أنها إنمـا أنهـت مهمتهـا كمـا ينبغـي، وليـس عليهـا الآن إلا المغـادرة، وطـرح العـرض عـلى الطاولـة أمـام الرئيـس فيمـا بعـد.

لاحـظ الجـنرال المـصري تململهـا هـذا، وكانـت قـد أخـذت ترشـف بتعجـل مـن كوكتيلهـا لأول مـرة منـذ انتقـلا إلى غرفـة المكتـب، فكأنهـا تخـط فصـل الختـام لاجتماعهمـا هـذا. قـال متسـائلًا:

- أود أن أسـألك.. سـلّمنا جـدلًا بـأن الإدارة قبلـت عـرضي.. هـل تسـتطيع قيـادة العمليـات الخاصـة المشـتركة عمـل شيء، لاقتفـاء آثـار الصفـين الأول والثـاني في قيـادة الجبهـة؟

ثم أردف قائلًا، وقد شعر بالحاجة لأن يسوغ السؤال:

- أقـول هـذا، لأنـني سـأضع تحـت تصرفكـم معلومـات دقيقـة وواقعيـة وثمينـة للغايـة، خاطَـر لأجلهـا أنـاس يعيشـون في الخنـادق، وبُذلـت لأجلهـا الأرواح. أود أن أتحقـق مـن حُسـن توظيفهـا.

نهضـت إيلينـا عـن كرسـيها، وبـدأت تقلـص عضلاتهـا بإرهـاق. لـم تـرد عليـه في البدايـة، ثـم التفتـت إلى الواجهـة الزجاجيـة، ونظـرت إلى الأفـق البعيـد قائلـة:

- بمقدورهـم تقديـم الدعـم الأسـاسي. رجـال العمليـات الخاصـة مزوديـن بقـوة نيرانيـة تكفـي لشـن معركـة كـبرى. إحـدى وحـدات مجموعـة تطويـر تكتيـكات مـا وراء خطـوط العـدو نفّـذت الغـارة التجريبيـة الأولى، ومـا تبعهـا مـن غـارات لتوقيـف القيـادات الأخـرى. وهـم قـادرون كمـا تعلـم عـلى التحـرك سرًا في جميـع البيئـات، خـارج الولايـات المتحـدة.. ومنهـم مـن يتحـدث العربيـة باللهجـة المصريـة بطلاقـة. هنـاك سرايـا ترابـط عـلى أهبـة للاسـتعداد،

fb/mashro3pdf

وجاهـزة للتحـرك فـورًا لـو اسـتدعت الظـروف؛ لا تقلـق.

- هل نما إلى علمك ما إن كانوا قد ألقوا القبض على أي منهم أحياء؟

التفتت إليه إيلينا متسائلة، وقالت:

- من تقصد؟

- أقصد الأسماء التي أرسلتها إليكِ يا إيلينا.

هكذا قال الجنرال معاتبًا، فأجابته دون اكتراث:

- لم تصلني معلومات في هذا الشأن بعد. كل ما أعلمه أن المداهمات انتهت بنجاح.

- لم تصلك معلومات، أم لم يصلك إذن بالتصريح إليّ بما جرى في الغارات؟

قالت إيلينا وقد بدأت تحتد، دلالة انعدام الصبر:

- الأمر سيّان، ولن يؤثر على مجرى الحديث الجاري الآن.

- لا أوافقـك البتـة، وأظـن أن ثمـة أزمـة ثقـة بيننـا، رغـم أن المعلومـات جـاءت مـن قِبَـلي ابتـداءً.

عـادت إيلينـا إلى كرسـيها وجلسـت. نظـرت إلى الجـنرال بانتبـاه، ولـم تسـتطع أن تحـدد مـراده مـن الاسـتطراد. هـل يريـد أن يجرهـا إلى مكيـدة مـا، أم يسـوق كلامًـا لمجـرد الإفاضـة؟ قالـت مخففـة مـن حِـدة لهجتهـا:

- لـم تصلـني معلومـة محـددة في هـذا الشـأن. ولـكي أكـون صادقـة معـك.. أظـن أن الأسـماء الـتي أرفقتهـا في رسـالتك الأولى ليسـت ذات أهميـة كـبرى. لـم نتوقـع أن تكشـف لنـا أخطـر أوراقـك دفعـة واحـدة.

- المكاشفة أمر مهم.

أرادت إيلينـا أن تحـدد أولويـات هـذه المحـاورة الجديـدة عـلى نحـو دقيـق، وأن تـزن كل نقطـة فيهـا وفقًـا لأهميتهـا، فقالـت بلهجـة حاسـمة:

- أنـا هنـا كي أوصـل طلباتـك إلى أصحـاب القـرار، عـلى أمـل أن نصـل إلى تسـوية مـن شـأنها السـماح لنـا بالمكاشـفة التامـة، مـن جهتـك ومـن جهتنـا. ألا يرضيـك هـذا؟

شبك الجنرال أصابع يديه، وقال:

- عـلى حـد علمـي، لديكـم عيـون مبثوثـة في المناطـق الواقعـة تحـت سـيطرة الإسـلاميين، لتعقـب آثـار القـادة وتحديـد دوائـر أنشـطتهم.

fb/mashro3pdf

- و...؟

- المعلومات المتوافرة لديّ، تحتاج إلى تحقيق على الأرض.

أشارت إيلينا بكفها، وقالت بسأم:

- لا تقلق. المعلومات يتم التحقق منها على كل حال، تحت غطاء استخباراتي وأمني من القوات المسلحة.

أشار الجنرال بكفيه هو أيضًا، وقال:

- لا أثق في كفاءتكم، كي أكون صادقًا معك؛ وحدات العمليات الخاصة الأمريكية تجوب القاهرة منذ أشهر طويلة، ولم تستطع العثور على أي من القيادات البارزة. حملات التفتيش لا تسفر عن أي نتائج مُرضية، وتقوم بها عناصر ذات كفاءة متدنية، فيسهل الانفلات من تشكيلاتهم وأطواقهم. الأدهى أن أعمال وكالات الاستخبارات المختلفة تتداخل أحيانًا، وتتضارب، وقد تؤذي بعضها بعضًا.

نزولًا إلى ديدنها في تجنّب أسلوب المغالطة وعدم الاعتراف بالخطأ، قالت إيلينا بوضوح:

- الإدارة الجديدة مستاءة مما يحدث، وهي تتابع مع هيئة الأركان المشتركة عن كثب، من أجل زيادة القدرات المخابراتية.

- قواتكم المسلحة تعاني متاعب خطيرة، وتدار من قِبل ضباط كبار تقليديين، متمردين على السلطة المدنية.

قالها الجنرال بجدية، مزايدًا عليها في الكلام مرة أخرى. لم ترد إيلينا أن تصطدم به على نحو سلبي، كي لا تؤثر على مستوى الأداء الحواري. لم ترَ المصلحة في التركيز على مسائل الخلاف، لكنها لم تكن سعيدة بأسلوبه من جهة مقابِلة، ورأته يدفع تجاه مباراة صِفرية، يستحوذ فيها على المكسب وحده، ويُكبّد خصمه الخسائر كلها، ولو من الناحية المعنوية، وهو النهج الشرقي الصبياني في التفاوض، في رأيها.

وهكذا قالت بلهجة جافة:

- اصغ إليّ جيدًا. لا تخاطبني وكأنك تستثمر في شركة خاسرة. الإدراة أرسلتني إليك شخصيًا؛ لأنني الأدرى بعاداتك وأساليبك، ولأنني أعلم أنك رجل مبيعات. أرجو ألا تنسى أنني أجيد فن البيع بأفضل مما تفعل أنت.. هذا أمر.. الأمر الآخر.. أنا أكثر اتساقًا مع

fb/mashro3pdf

نفسي، وأوسع خبرة وتدريبًا. لذا تجدني أطلب منك أن تُبدي قدرًا أكبر من الاحترام، وأنت تحدثني عن بلدي.

انتقى الجنرال ثمرة مانجو منتفخة، وأخذ يشق قشرها وهو صامت، ثم فصل لحمها بالسكين، بدقة وعناية وبطء. نظرت إيلينا إلى يده اليسرى الاستعاضية، وتمعّنت في حركاتها الآلية البطيئة. راقتها قدرته على مزاولة أعماله اليومية بمهارة وإتقان رغم إعاقته، وكان هذا، كما تعلم، ديدنه في شؤون حياته جميعًا.

وضع الجنرال أمامها طبقًا مسطحًا صغيرًا، تزاحمت عليه مكعبات المانجو الصغيرة، ووضع إلى جانبه شوكة فضية لامعة. دعاها لأن تتذوقها بود، ثم قال عائدًا إلى موضوع الحوار:

- المعلومات التي أقدمها ثمينة.

لم تلِن له إلينيا، بل قالت بجفاء:

- المعلومات التي تدّعي أنها ثمينة، سوف تُؤجر عليها، من قبل حتى أن نتحقق من قيمتها. وهذا وحده يدل على أنك تفتعل أزمة الثقة هذه. وغير ذلك -هكذا أقولها لك بصراحة- ليس لك به شأن.

- المعلومات ثمينة، ولا ينبغي أن تُهدر بسبب سوء الإدارة، وإلا تعرّضت مصادري للخطر.

- لم لا تحدثني عن مصادرك يا جنرال؟

هكذا سألته بتحدٍ، فتبسم الرجل ساخرًا. لم يُجب عن سؤالها، بل سحبها رويدًا رويدًا إلى المزيد من النقاش، محاولًا إضفاء قيمة مضاعفة على عرضه. دهشت إيلينا لإصراره على الخوض في هذا الطرح العقيم، ولم تعهده ملحاحًا متشددًا على هذا النحو. فكرت في المغادرة على الفور، ثم عادت وانحازت إلى مسالمته، وكسْب ودّه، وضمه من ثم إلى حظيرتها، وعزت ما به إلى التدهور النفسي المميز للوحدة والتقدم في السن.

أنصتت إيلينا إليه حتى أنهى خطابه، ثم تنهدت، وتناولت شكوكه هذه، التي تعلم أنها ابتزازية مصطنعة، وأوضحت له أنها، بناءً على تعليمات الرئيس، أصدرت توجيهًا إرشاديًا إلى الجنرال جوزيف بيرجر، رئيس هيئة الأركان المشتركة، والجنرال مايكل بوردو، قائد سلاح مشاة البحرية، وكارسون برونو، مدير الاستخبارات المركزية، لإنشاء خلية

fb/mashro3pdf

تخطيط صغيرة، تتألف من ضباط هيئة العمليات التابعة لقائد مشاة البحرية، ومن عناصر الاستخبارات المركزية، للتحقق من أن كل التفاصيل الخاصة بهذه العملية قد نوقشت ونُسّقت.

وقالت له بتلطف حاسم:

- كما قد تعلم، المخابرات تعمل منفصلة عن العمليات، لكننا سنضمهما معًا، كي نضمن أن القوات تُلم بكل ما يخص الأهداف التي تهاجمها. كل تفصيلة سيعكف المتخصصون على إعدادها ومتابعتها. من واقع مذكرتك التلخيصية، أتصور أن دفعة المعلومات القادمة لن تقل عن عشرين هدفًا، وآمل أن يكونوا أعلى في المنزلة من سابقيهم.

- وماذا عن الوثائق التي صادرتموها في منزل الورداني؟

هكذا سألها الجنرال وقد ابتسم. دهشت إيلينا لإحاطته علمًا بهذه الوثائق، التي لم تبرأ بعد من رائحة دخان الاقتحام. قالت بحذر، ووجه كدر:

- لا علم لي بهذه الوثائق. عن أي شيء تتحدث؟

يعرف الجنرال وظيفة الصمت في الحوار التفاوضي، فالتزم الصمت من ثم للحظات، وتبسم كأنه غضبان. ثم قال معاتبًا:

- من ميزات إيلينا التي أعرفها، تجنب الوقوع ضحية التفكير التآمري، والتصنيف المتعسف، وإبخاس الآخرين قيمتهم.

- ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول إنك تقللين من شأني، حين تظنين أنني أقضي أيامي هنا تحت الشمس، لأدفئ عظامي، في معزل عما يجري في العالم الخارجي.

قالت إيلينا على الفور:

- حاشا لله! أنا لا أقلل من شأنك، ولا أظن بك إلا ما يليق بقدرك. أريدك أن تأخذ بعين الاعتبار خطورة الأسئلة التي تطرحها. دعني أنا أسألك.. من أين جئت بخبر هذه الوثائق، التي تقول إننا عثرنا عليها في منزل الورداني؟

لم يجب الجنرال، بل شردت عيناه وهو يتشاغل بإشعال سيجار قصير. استأذن ضيفته بأدب، بعد أن نفث دفقة الدخان الأولى، وتمنى ألا يزعجها الدخان، فلوّحت بيدها أن لا

fb/mashro3pdf

عليك. بلل شفتيه بلسانه، وقال:

- لقد نما إلى علمي بالأمس القريب، أن كل الوثائق التي عثرتم عليها في منزل الورداني، والتي لا بد أنكم قتلتموها بحثًا.. هذه الوثائق، هي جزء من شبكة من الوثائق المزيفة المُضلِّلة، التي تفرقها خلية استخبارات جبهة المقاومة الإسلامية على صفوف قيادييها الأكثر عرضة للاعتقال.. والهدف من وراء ذلك مفهوم طبعًا.

كان هذا تغييرًا مدروسًا في منحى الحوار. صمتت إيلينا ولم تأتِ برد فعل فوري، كي تفكر فيما قيل. ثم سألته:

- ومتى نما إليك علم هذا الخبر؟

لم يجب الجنرال، فطرحت عليه إيلينا سؤالًا آخر، بحدة لم تستطع كبتها:

- أخبرني.. لماذا لم تتقدم بعرضك المذهل هذا من قبل؟ منذ متى وهذه المعلومات في حوزتك؟

- مؤخرًا.. وصلتني من أحد مصادري، على نحو مفاجئ تمامًا.

- مؤخرًا؟ منذ متى تحديدًا؟

هز الجنرال رأسه، وقال برزانة:

- لا أستطيع التحديد.

- من يكون هذا المصدر؟ ما طبيعة عمله؟

أجاب الجنرال مبتسمًا:

- لا أستطيع التحديد.

- أحد رجالك القدامى؟ أما يزال لديك عيون على الأرض؟

لم يجب الجنرال، فسألته إيلينا وهي ترشقه بنظرة فيها حِدة:

- من المؤكد أن لك رجالًا في جبهة المقاومة، أليس كذلك؟ وهؤلاء لم تقم بزرعهم بين يوم وليلة طبعًا. هم رجالك، وهم فاعلون على الأرض، وكنت تدير أعمالهم قبل تقاعدك اللعين، وأثناء تقاعدك فيما يبدو، وأخفيت ذلك عنا عمدًا؟

لم يتكلم الجنرال، فواصلت إيلينا القول باستياء:

- هل تعلم عدد الأرواح التي أزهقت، بسبب إخفائك معلومات، تدّعي أنها قد تنهي الصراع في مصر نهائيًا؟

fb/mashro3pdf

هنا أمال الجنرال رأسه، وقال بمزاج عكر:

- لعلك لا تدرين يا عزيزتي.. أن في حوزتكم أشخاصًا.. شخص واحد على وجه التحديد.. لعله يكون مفتاح حل القضية كلها.. وهو في حوزتكم بالفعل، لكنكم لا تحيطون علمًا بهويته الحقيقية.. وهي مشكلة عامة تعانيها أجهزتكم الاستخباراتية مع المحتجزين المصريين.. أنتم لا تدرون من هم بالضبط، وعمليًا لا يمكنكم إدارة استجواب فعّال لانتزاع معلومات مفيدة. المجال واسع جدًا، ولا يعرف المحققون من أين يبدؤون. أغلب الهويات المصرية هذه الأيام مزوّرة، والسجلات وقواعد البيانات ضائعة.

ثم نفخ شدقيه، وقال وكأنما بلغ به الاستياء مبلغه:

- وهكذا.. مع تدني الكفاءة المهنية إلى هذا الحد المخزي.. أجد نفسي غاضبًا حقًا.. و.. رجاءً.. لا تحدثيني عن الأرواح المُزهَقة؛ الكلام عن ضحاياكم يوتر أعصابي.. وأسئلتك كلها لا جدوى منها. هل تتوقعين فعلًا، أن أدلك على مصادري؟! ورغم ذلك، أقول لك يا إيلينا، أؤكد لك، إنني لم أخفِ أي معلومات. ما أرسلته إليكم وصلني مؤخرًا، وعلى نحو مفاجئ تمامًا.

- من هذا الشخص الذي تدّعي أنه في حوزتنا، وأنه مفتاح حل القضية؟ من أين تأتي بهذه المعلومات؟ ما هي مصادرك؟ وكيف تستطيع هذه المصادر الاتصال بك هنا؟ محل إقامتك، وتفاصيل الاتصال، محاطة بسرية فائقة.

انهالت الأسئلة على الجنرال تترى، فقال وقد عبس وجهه:

- اسمعي أيتها السيدة.. لست أجيرًا عندكم، ولست سجينًا هنا، ولا أعيش عالة عليكم، ولا أتقاضى -والحمد لله- راتبًا منكم.. هذه أملاكي وحياتي، أفعل بها ما أشاء.. أتصل بمن أشاء، وأفعل ما أشاء.. إنما بعثتُ إليكم ما نما إليه علمي، لأنني أريد أن أكون لكم عونًا على.. أن...

وارتجّ عليه من شدة الانفعال، ثم واصل هاتفًا:

- على أن تخفضوا من... على ألا تقتلوا المزيد من المصريين.

والتبس عليه الكلام، فكأن قدراته اللغوية تبخرت؛ أما إيلينا، فأخذت تتفرس في وجهه وقد خلا وجهها من الانفعال تمامًا.

سكت الجنرال عن الكلام برهة، ثم قال بلهجة آسفة، كأنه أدرك أنه إنما جاوز حد

fb/mashro3pdf

الضغـط المعقـول:

- لا تلومـين عـليّ انفعـالي.. إيلينـا.. أرجـوكِ.. لا تنقمـين عـليّ.. إنمـا أريـد أن أتحقـق مـن قدرتكم عـلى الانتفـاع بمـا أقدمـه مـن معلومات..أنـا أضـع بهـذا أرواح زمـلاء لي رهـن تصرفكـم، بعـد أن عملـوا معي لسنوات طـوال.. زمـلاء غرزتهـم بنفـسي في مهلكـة، يعلـم اللـه وحـده إلى أي مصـير تـؤدي بهـم.

تناولـت إيلينـا الشـوكة، وطفقـت تـأكل مـن المانجـو في سـكون وتـراخٍ. أعجبهـا لـون لحمهـا المصفـرّ، وتجانـس أنسـجتها وتماسـكها، واسـتطابت نكهتهـا الجامعـة بـين الحـلاوة واللذوعـة. بانـت عـلى وجهها دلائـل خمـول مفاجـئ، لكنهـا أصغـت رغـم ذلـك إلى الحديـث المسـتفيض المتدفـق، الـذي بـدا لهـا وكأن الجـنرال يسـتخرجه بمشـقة مـن صميـم قلبـه وعاطفتـه، ويضفي عليـه حِسًّـا شـخصيًّا، ويزينـه بتصاويـر نفسـية متكلفـة.

أتـت إيلينـا عـلى قطـع المانجـو جميعًـا، فسـألها الجـنرال إن كانـت تريـد المزيـد، وألـحّ في السـؤال وأحسَـن العـرض، إلى أن رفضـت عـلى نحـوٍ قاطـع، وهـي تبتسـم في وجهـه ابتسـامة عذبـة. وإزاء تراجُعـه الحميـد عـن الهجـوم والتشـكيك، تراجعـت هـي أيضًـا. شـكرته عـلى حسـن الضيافـة مـن كل قلبهـا، ثـم طمأنتـه بحسـم عـلى معلوماتـه، وقالـت إنهـا في «أيـد أمينـة». تعهـدت إليـه بـأن الإدارة لـن تتحـرك إلا بمشـورته؛ لأنـه «الأكـثر علمًـا عـلى كل حـال بأحـوال اللاعبـين عـلى الأرض»، وتعهـدت كذلـك بالسـعي لـدى الرئيـس والضغـط في اتجـاه أخـذ عرضـه بعـين الاعتبـار، ولـم تسـكت عـن الـكلام إلا بعـد أن لاح الارتيـاح والرضـا عـلى وجهـه.

رجاهـا الرجـل مخلصًـا أن تقـضي معـه يومًـا أو يومـين إضافيـين، كي يطـوف بهـا «نيوسـاوث ويلـز»، ويريهـا أهـم معالـم الولايـة، لكنهـا رفضـت بلباقـة، وتحججـت بمشـاغلها.

نهضـت عـن مقعدهـا برشـاقة، واسـتأذنت الجـنرال في أن تخـرج للنزهـة في الشـاطئ سـاعة، ورجتـه أن يسـأل ماجـد أن يُعِـد سـيارته كي يوصلهـا إلى المطـار؛ لأنهـا ترغـب في اللحـاق بطائـرة السـاعة السـابعة والنصـف مسـاءً. سـألها الجـنرال بحماسـة إن كانـت تريـد الصحبـة عـلى الشـاطئ، فاعتـذرت وتأبـت عـلى اقتراحـه، إنمـا فعلـت ذلـك بلباقـة وعذوبـة.

لـم تكـد تصـدق أنهـا نجحـت في إنهـاء النقـاش، وكانـت تعلـم أن الإفـلات مـن بـين براثـن الجـنرال ولسـانه يُعـد أمـرًا عسـيرًا. عـبرت غرفـة المكتـب بخطـوات سريعـة، وفي طريقهـا إلى المغـادرة، ثبتـت نظرهـا عـلى اللوحـة الجداريـة الرئيسـية. باتسـاع مثـير، تسـلطت لوحـة

fb/mashro3pdf

التصوير الزيتي باهتة الألوان على سائر عناصر الزينة الأخرى في الغرفة، وطفت في سديم وسط بين الواقعية والسريالية الفنتازية. أُطِّرَت اللوحة ببرواز خشبي ناصع، واحتمت بلوح زجاجي رقيق، فكانت على الحائط كمثل نافذة تفضي إلى مدينة رمادية اللون، مُترَعة بالألم والكره، مشحونة بالغضب والشر، معبأة بالدخان والغبار والركام والجماجم.

ببنط كبير، وخط خشن فيه خلط وشطب، كُتبت أعلى اللوحة العبارة التالية:

«القاهرة.. مدينة الرماد».

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

التاسع عشر من مايو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تلـك في واشـنطن، كانـت أيامًـا غريبـة، ماجـت فيهـا آراء النـاس، واضطـرب الساسـة، وارتفعـت أمـواج جماعـات الضغـط في هيجـان، وحفلـت أروقـة كابيتـول الولايـات المتحـدة وغـرف البيـت الأبيـض بالأنشـطة الغامضـة. قـد يُسـمع خـبر هنـا عـن نظـام الرعايـة الصحيـة، أو شـائعة هنـاك عـن الحـرب في مـصر، أو مزحـة ثقيلـة عـن كلـبم الرئيـس الجديـد، لكـن تظـل كل الأخبـار ملتبسـة، ويظـل مراسـلو البيـت الأبيـض تائهـين في الأرض، ضالـين متحيريـن، محاصريـن بالمواعيـد النهائيـة لإرسـال التقاريـر إلى صحفهـم ومحطاتهـم، دون فهـم واضـح لحقيقـة مـا يجـري في العلـن أو في الخفـاء. وبالنتيجـة، لـم تسـتطع الجماهـير الأمريكيـة تشـكيل صـورة واضحـة عـن الإدارة الجديـدة، ولـم تكـن عـلى يقـين مـن إمكانيـة نجاحهـا أو إخفاقهـا.

قَـدِم الرئيـس الجديـد عـلى اقتصـاد مترنـح، وعالـم مشـتد الغليـان، مـشرف عـلى التفـكك والانهيـار. لـم تكـن تلـك فيمـا يبـدو أيـام سـلام، ولا اسـتقرار ولا رخـاء، بـل تمايلـت الأقطـار كلهـا يُمنـة ويُسرة عـلى حافـة منحـدر شـاهق.

في تمـام السـاعة السـابعة والنصـف صباحًـا، يبـدأ يـوم العمـل في البيـت الأبيـض، عندمـا تجتمـع درزينـة مـن كبـار الموظفـين ومسـاعديهم في مكتـب أبراهـام باراتـز، رئيـس موظفـي البيـت الأبيـض. وبـين السـاعة الثامنـة والثامنـة والربـع صباحًـا، ينتقـل كبـار الموظفـين إلى غرفـة روزفلـت، وينضـم إليهـم زهـاء خمسـة وعـشرون شـخصًا آخريـن، وبعـد ربـع سـاعة يـرأس باراتـز اجتماعًـا اسـتراتيجيًا تشريعيًـا.

في هـذه الأثنـاء، يبـدأ روبـرت ماكالـوم يومـه في الصالـة الرياضيـة، حيـث يمـارس رياضتـي الركـض السريـع والملاكمـة، ثـم يطالـع أثنـاء تنـاول طعـام الإفطـار صحـف نيويـورك تايمـز، وواشـنطن بوسـت، وول سـتريت جورنـال، ويـؤدي بعـض الأعمـال الجانبيـة. وفي نحـو التاسـعة والربـع، يـنزل إلى المكتـب البيضـاوي في حُلّـة الرئاسـة وكامـل هيئتهـا، ليتبـوأ كرسـيه أمـام وحـدة المكتـب، المُرَكَّبـة مـن أخشـاب السـفينة الشراعيـة العتيقـة «إتـش إم إس ريزولـوت»، وهـي وحـدة المكتـب ذاتهـا، الـتي جلـس إليهـا الرئيـس جـون كينيـدي في صورتـه الشـهيرة مـع ابنـه.

قبـل نحـو خمسـة أشـهر، لـم يكـن روبـرت ماكالـوم رئيسًـا، بـل كان أصغـر سـناتور في مجلس

fb/mashro3pdf

الشيوخ الأمريكي، عن ولاية أركنساس. لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين من عمره، عندما أعلن ترشحه لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في حشد من أنصاره، أمام مبنى «أركنساس ستيت كابيتول»، في ليتل روك، عاصمة ولاية أركنساس. تحدث ماكالوم آنذاك عن آماله في إنهاء الحرب في مصر، وانتشال الاقتصاد الأمريكي من وهدته، وتحقيق الاستقلال في مجال الطاقة، مفتتحًا حملة انتخابية تاريخية، تأول فيها الناس الخير.

يسرد موقع البيت الأبيض الإلكتروني ترجمة حياة الرئيس ماكالوم باختصار، في عدة فقرات تتراص إلى جانب صورته. على النقيض من رؤساء الولايات المتحدة السابقين، لم يبدُ ماكالوم في الصورة قادرًا على الابتسام أو إبداء البهجة أو التفاؤل، مع كونه حسن الوجه، طويل العنق، متين البنية. كل ما هنالك أنه اكتفى بالنظر إلى الكاميرا بعينين تخلوان من أي انفعال أو تعبير، وشفتين أفقيتين منطبقتين دون تشديد، فتجلى فتور الحواس على هيئته في أتم صورة.

قصة روبرت ماكالوم أمريكية بامتياز. قيم وسطية، وتربية قويمة في عائلة تنتمي إلى الطبقة الوسطى، وعمل جاد وإقبال على التعلم كوسيلة للتقدم في الحياة، وتضحية وبسالة في أوقات الرخاء والسلام، وأوقات الشدة والحرب.

تزوج ماكالوم، الميثودي المؤمن، من فيرجينيا كيلي، الميثودية المؤمنة، وكان ما يزال في فتوّته، ولم تكن هي قد جاوزت السابعة عشر، وعُقِدَ القران بمباركة الأهل في مدينة ماجنوليا الصغيرة. قضت فيرجينيا نحبها في أحداث فبراير الموت، مع مئات الآلاف الآخرين ممن قضوا في أركنساس، وكانت حاملًا في الشهر الخامس، ودُفنت في مقبرة «هينز فيل» الجماعية. وفي غضون عدة أشهر، انضم ماكالوم إلى جيش الولايات المتحدة، والتحق بمدرسة الضباط، ليُكلَّف بعدها بالخدمة في الجيش الأمريكي كضابط برتبة ملازم ثانٍ، ثم خاض في مرحلة لاحقة تدريبات مكثفة في مدرسة المظلات، واجتاز دورات القيادة القتالية وتكتيكات الوحدات الصغيرة في مدرسة الحرّاس الجوّالين، المعروفة باسم «رينجرز».

وبعد أن تولى ضابط المشاة روبرت ماكالوم قيادة فصيلة في الفرقة ١٠١ المحمولة جوًا، تم إرساله إلى مصر ضمن خطة الانتشار الثالثة، المعروفة باسم «عملية مصر الحرة». ومع انتهاء جولته القتالية الأولى في مصر، كان قد أحرز وسام الجيش للتزكية، وشارة جنود المشاة المقاتلين، ووسام «حملة مصر»، وميداليات مختلفة أخرى، مجازاة له على

fb/mashro3pdf

حسن بلائه في الحرب.

بعد العودة إلى الوطن، كُلِّف ماكالوم بتولي قيادة فصيلة تنتمي إلى فوج المشاة الأمريكي الثالث، المعروف باسم الحرس القديم، وتمركز آنذاك في مقبرة أرلينجتون الوطنية، حيث كان مسؤولًا عن ترتيب جنازات الشرف العسكرية لقدامى المحاربين. ولم يكد يمضي عليه الوقت الطويل في هذا العمل، حتى تطوع للانخراط مرة أخرى في الواجب القتالي، وعاد إلى القاهرة برتبة نقيب، ليشارك في «عملية العدالة المطلقة»، التي شُنَّت على أنقاض ثلاث مدن في صعيد مصر، ثم استمر في تأدية واجبه هناك كضابط عمليات في فريق إعادة إعمار المحافظات.

بعد إتمام جولته القتالية الثانية، حصل ماكالوم على وسام النجمة البرونزية، قبل أن يتم تسريحه بشرف من الجيش الأمريكي، ليعود إلى العمل بالقانون في الحياة المدنية. لفترة قصيرة، شغل ماكالوم منصب كاتب في محكمة الولايات المتحدة للاستئناف، ثم اشتغل بالمحاماة في عدة مكاتب خاصة، وركز نشاطه على العمالة والتوظيف والقانون الدستوري.

رأى الرئيس ماكالوم فرصة أخرى لخدمة الولاية، عندما شغر مقعد السناتور نيك بومان، بعد تقاعده، فتقدم باسمه في انتخابات مجلس النواب الأمريكي للحصول على المقعد المتاح، ممثلًا للحزب الديموقراطي في ولاية أركنساس. استندت سنواته في الخدمة المدنية العامة على إيمانه بقدرته على توحيد الناس حول سياسة العزيمة والبصيرة والنظر إلى الأمام. وفي مجلس الشيوخ، نجح ماكالوم في تمرير العديد من الإصلاحات الأخلاقية، في مجالات التعليم والزراعة والرعاية الصحية وخفض الضرائب للأسر العاملة، وكوّن جبهات ضغط تهدف إلى تحقيق الشفافية وتشديد الرقابة على الإنفاق الفيدرالي وإصلاح البنتاجون.

يسرد موقع البيت الإبيض الإلكتروني بعد ذلك ظروف ترشحه للرئاسة، ويعرض جوانب من حملته الانتخابية التاريخية، وأجواء النصر وحلف اليمين الباهرة. بيد أن ما يذكره الموقع الإلكتروني عن مشوار كفاح رئيس الولايات المتحدة الجديد (المفروش في ظاهر الأمر بالأخلاقيات النبيلة والقيم الراسخة، والمحفوف بالمخاطر الداهمة والتضحيات الجسيمة) أمر، وواقع الرئاسة أمر آخر مغاير. أيامه الأولى في البيت الأبيض كانت عسيرة

fb/mashro3pdf

متقلبة، ولم تزل كذلك إلى يومه هذا.

لا تتردد مستشارة الأمن القومي في إعلان إيمانها بمكالوم، ولا تخفي إعجابها بجديته، وقلة كلامه، ولا تفتأ تشيد برؤيته الحقوقية الأقل عدوانية تجاه العالم، والأكثر ميلًا إلى نشر السلام وإعادة الإعمار. وقد تبالغ في تقديرها إياه، فتقارن بينه و«رئيسها المفضل»، أبراهام لينكولن، الذي مهّد لبناء الاتحاد الجديد من قلب الخراب، ووضع المصلحة الوطنية العليا نصب عينيه قبل الانتماءات الحزبية، وكان لا يتردد في مد يده إلى خصومه مهما تكون تحفظات أنصاره. وتقول كذلك على الملأ إن رئيسها يملك إرادة التغيير، وتتحدث عن عزم الإدارة الجديدة إنفاذ قرارات خطيرة، من شأنها إخراج البلاد من حالة الانكماش والبطالة وفقدان الثقة، بعد أن عجزت الإدارة السابقة، خلال مدتين رئاسيتين متتاليتين، عن علاج آلام الأمة.

لم يشارك ماكالوم مستشارته للأمن القومي رؤيتها المعلنة هذه؛ لأنه «رجل واقعي، خالٍ من الأوهام»، كما يقول عن نفسه. علم مبكرًا جدًا، قبل بدء حملته الانتخابية، أنه مُقبِل على مواجهة مجموعة من المشكلات والأزمات، تعد الأسوأ منذ الحرب العالمية الثانية. على رأس هذه المشكلات، كانت تداعيات «فبراير الموت»، الذي يعد الحدث الأهم والأفظع في التاريخ الأمريكي الحديث، والذي لا تكف توابعه عن التولد والتجدد، رغم مرور عقد كامل على وقوعه.

خلال حملته الانتخابية، ظهر على ماكالوم الضجر والضيق، خلافًا لعادته في وأد انفعالاته جميعًا. على مدار حياته السياسية، حرص على أن يسبح في مياه العاصمة عالية الكثافة بسمت رجل الدولة البارد الأعصاب، الصارم، الصموت، الراسخ القدم، القادر على إنفاذ حلول جِذرية وقاسية، إلى أن انخرط في سباق الترشح الجنوني. ازدرى آنذاك العملية الانتخابية بأسرها، ونعتها بالرثاثة والسفه. كان يقول للمقربين إليه: «أنا أعلم أنني الأفضل لهذه الوظيفة. أنا قادر على حل المشكلات المعقدة. أجد في ذلك لذة، وأسعد بإنفاذ القرارت. وأظن أن أداء وظيفة الرئاسة أسهل من الجري في الحملات الانتخابية بغير هدى». كانت إيلينا تسمع هذا الكلام، وينتابها القلق؛ لأنها تعلم أن الوظيفة الرئاسية في البيت الأبيض ليست إلا بلاء وشِدّة، وامتحانًا قاسيًا مؤلمًا، ولم تكن موقنة من قدرة ماكالوم، هذا الشاب الثلاثيني «المتشدد المتكبر قصير النظر»، على

fb/mashro3pdf

التصدي لأعباء المنصب، ولم تكن متحققة من إلمامه بعمق الأزمات الواجب التعامل معها، والصراعات الواجب خوضها، فقط من أجل البقاء.

عملت إيلينا مع ماكلوم لعدة سنوات، وكانت عضوًا فاعلًا في حملته الانتخابية، بل كانت العضو الأهم بإطلاق، ولا غرو، فزوجها ماكس فيكسلبرج، هو الملك غير المتوّج لمدينة لاس فيجاس، والرئيس التنفيذي لشركة «سباركلز لاس فيجاس» الهائلة، التي تملك عددًا من أكبر الكازينوهات وقصور المؤتمرات في العالم. وهو إلى هذا كله، أحد أهم موالي الحزب الديمواقراطي (وأحد أهم نقاط الحزب السوداء كذلك، التي يتّكأ عليها لإثبات خنوع الديموقراطيين لسلطان المال، مثلهم في ذلك مثل الجمهوريين تمامًا). تدفقت أموال فيكسلبرج الزوج في شرايين حملة ماكلوم الانتخابية، في مواجهة المرشح الجمهوري العنيف العنيد، جوش هيكس، ولما شارفت الحملة على الانتهاء، وبات الفائز معروفًا، بدت على المرشح الشاب دلائل الإدراك، ومن ذلك مثلًا أنه قال لجماعة من كبار معاونيه، وعلى رأسهم إيلينا: «الأخبار الجيدة هي أننا سنفوز. الأخبار السيئة هي أن العالم يتداعى».

بعد الفوز، لم تستطع إيلينا أن تُحزّر أسلوب إدارة الرئيس الجديد لشؤون البلاد، ولم تكن تملك أدنى فكرة عن كيفية تفاعله مع ضغوط البيت الأبيض. كان هذا منذ ما يزيد على خمسة أشهر. الآن تعترف إلى نفسها، أن الرئيس بدأ مدته على نحو مُرضٍ، ورتّب أولوياته مخاطبًا شؤون الداخل العاجلة، كما تمثّل لمرؤوسيه منذ أيامه الأولى أنموذجًا يُحتذى به في الالتزام والرصانة، وتمثّل للعالم الخارجي واجهة لدولة تنهض لاستعادة هيبتها. خلال الأشهر الأولى، أنفذ حزمة قرارات هائلة لإنقاذ النظام البنكي وتحريك الدورة الاقتصادية، وأصدر الأوامر التنفيذية الواحد تلو الآخر، وأنهك معاونيه في اجتماعات فريق الأمن القومي والفريق الاقتصادي اليومية، وأجرى المفاوضات مع الكونجرس، وعقد المؤتمرات الصحفية، بمتوسط وصل إلى خمسة مؤتمرات أسبوعية، وأدى واجباته المتكاثرة هذه بنشاط وثقة في النفس منقطعة النظير، وركّز جهوده على إتقان «ميكانيكا إنجاز الأشياء»، على حد قوله.

إن لإيلينا دراية واسعة بطبائع الأمور في البيت الأبيض، وذلك من قبل أن يتبوأ ماكالوم كرسي الرئاسة، وتستطيع أن تقول من ثم إن البيت الأبيض تحت قيادة الرئيس

fb/mashro3pdf

الشاب قد تغير، فاكتسب كفاءة مُرضية، وفقدت كواليسه بعضًا من تعطلها وتعفنها، بفضل اندماج ماكالوم وانضباطه، وميله لأن «يوسّخ يديه في العمل». التزم الرئيس الشاب بنصح مستشاريه، ووضع نصب عينيه أولوية استعادة الثقة الشعبية في الرئاسة، وفي السياسة، وأراد كذلك أن يراه مواطنوه كرئيس مُحبّ لعمله، متمرّس بمهام وظيفته، محافظ على ابتسامته، مهما حلكت الظروف واستحكمت الأزمات من حوله.

بخلاف ما يدعي خصومه، أولى ماكالوم الشأن المصري اهتمامًا لم يولّه إياه سلفه، الذي شارك وخطط لشن الحرب على القاهرة في المقام الأول. ظلت أنشطة جبهة المقاومة الإسلامية المصرية مهيمنة على اجتماعات مجلس الأمن القومي منذ تولى الرئيس الجديد منصبه، وتابع فيها الرئيس عن كثب مجرى عمليات اصطياد وقتل زعماء قوات التمرد المصرية. تظن إيلينا أن الجهد المبذول في هذا الشأن، خلال خمسة أشهر الأخيرة، فاق ما بذلته الإدارة السالفة خلال سنواتها الأربعة الأخيرة مجتمعة.

دوام الرئيس كل يوم ثلاثاء على الاجتماع بمستشاريه، لتمحيص «لائحة التهديد» ودراسة أساليب المطاردة بهدوء وعناية، وتطهيرها مما يعْلَق بها من عيوب وتقصير. غير أن مساعيهم، إلى الآن، لم تُكلل بالنجاح، بسبب العوار الذي ألّم بكل المعلومات الاستخباراتية الخاصة بهويات عناصر جبهة المقاومة الإسلامية، وأساليب عملها. كل قرار ينفذه الرئيس في هذا الشأن، يفضي إلى مقتل شباب القوات الأمريكية المسلحة، ومدنيين مصريين أبرياء، دون أن تنتج عنه حصيلة سارّة من أي نوع. وكان الرئيس يشير إلى الخسائر بألم وأسى قائلًا: «ذاك هو الجزء الأصعب من عملي». ورغم الخسائر والألم والأسى، أمر ماكالوم بالإكثار من كثافة الغارات الأرضية والجوية، وقد تحقق له ما أراد في غضون بضعة أشهر، إذ فاق عدد الغارات الجوية والمداهمات على الأرض مثيلاتها في عهد سلفه، الذي امتد لثماني سنوات.

يقولون في الصحف، إن ماكالوم يريد أن يكون عامه هذا هو عام «حرب الرئيس»، ويقولون إن عزمه إرسال عشرات الآلاف من الجند كتعزيزات إلى الحرب الدائرة في مصر، وإهدار مئات مليارات الدولارات الأخرى، ليس إلا انسياق جنوني وراء الرغبة في الانتقام. لهذا السبب، ساءت العلاقة بينه وبين البنتاجون فور أن انتقل إلى البيت الأبيض. اجتهد العسكريون الأمريكيون في التلاعب بالرئيس الديموقراطي الشاب، الذي كان منذ عدة

fb/mashro3pdf

سنوات «جنديًا تافهًا لا يُلتفت إليه»، وبذلوا ما في وسعهم للتشويش عليه وحصره في حيز ضيق، لا يمكنه فيه ممارسة مهامه الدستورية، كقائد أعلى للقوات المسلحة. نغّص العسكر الكبار عيش الرئيس، ورفضوا باستماتة محاولاته لفرض السيطرة عليهم، وقال بعضهم علنًا، إن الرئيس الجديد «صادق النوايا»، و«رجل صالح»، لكنه «أخرق تمامًا»، وقال آخرون في جلسات مغلقة، إن ماكالوم جاء إلى البيت الأبيض «مُحمَّلًا بمرارات وأحقاد فبراير الموت»، وتبجحوا بالقول إنه يفتقد الخبرة والمعرفة، وإن قصارى ما يصلح له، في سنه الصغيرة هذه، أن يتوشّح سلاحًا، وأن يلتحق بالقوات في مصر ليقاتل إلى جانب إخوانه من الشباب الأمريكي.

غير أن ماكالوم لم يهتز، ولم يكن الهدف أمامه أوضح مما كان عليه آنذاك، لما شُنّت ضده حملة علاقات عامة كبرى في وسائل الإعلام، استهدفت رئاسته بالتشويه والتحقير من قبل أن تبدأ. كان عازمًا على إنفاذ رؤيته بهدوء وصبر. أخفى ظاهره الهادئ الساكن لُبًّا جامدًا، وقلبًا كالحجر الأصم. رآه بعض الدهاقنة المستبصرين على حقيقته، وحزروا افتقاره للعواطف ورهافة الإحساس، وعدّوه خصمًا خطيرًا.

عجلة العمل العسكري في مصر كانت بطيئة، بليدة، وتقرير البنتاجون الأخير انتهى إلى استحالة نشر مئة ألف جندي إضافي في مصر، قبل مرور عام كامل. سأل ماكالوم البنتاجون عن العلة من وراء هذا المدى الزمني الطويل، فوصلته إجابات محيرة، تبعتها نقاشات مربكة حول اللوجستيات، والمشكلات الجديدة في نقل أعداد كبيرة من الجنود، يتعين نقل أسرهم معهم أيضًا، خصوصًا أولئك ممن أنهكتهم الخدمة في جولات قتالية متتالية. الشهر الفائت، أسفرت تقارير الاستخبارات المركزية «الدقيقة»، وجهود مخططي البنتاجون «المَهَرَة»، عن شن غارة بواسطة قاذفة ثقيلة، ألقت بقنبلة حارقة زنة ألفي رطل على مبنى سكني يقع في قلب حي سانتا مارتا، الحي الأكبر والأكثر اكتظاظًا في مدينة الإسكندرية، فهدمته وأحرقت فيه ما يزيد عن ثلاث مئة نفس، كلهم من المدنيين. احتالت الولايات المتحدة للتستر على أعداد الضحايا، ولم تنجح، وأيقن ماكالوم ساعتها بصحة رأيه. إن الغلبة في الحروب لا تكون بالقصف، إنما بأن تطأ الأحذية التراب والطين، وبأن ينتقل الجنود من منزل إلى منزل، ومن شارع إلى شارع، لتصفية الخصوم. لقد أدت القاذفات دورها منذ سنوات، فأفنت العدو المصري النظامي، وأعادت البلاد إلى ما كانت

fb/mashro3pdf

عليه قبل بدء التاريخ. أما غارات المروحيات، والطائرات القاذفة والمقاتلة، والطائرات الآلية، فلم تُسفِر بعد ذلك إلا عن فضائح حرق المدنيين وهدم المنازل، من دون أن تنال بالأذى أي قيادي عالي القيمة.

وهكذا عزم الرئيس، بموافقة فريق الأمن القومي، على المزج بين الغارات الجوية، وعمليات الاستخبارات الأرضية، لمساندة الحشود الزاحفة على الأرض، الأمر الذي رفضه البنتاجون من حيث المبدأ، كي لا يتحول احتشاد القوات الأمريكية الكثيف إلى هدف في حد ذاته. وفي سبيل هذا العزم، بدأ ماكالوم في حز الرؤوس المناوئة في البنتاجون. الإقالات التي أقرها الرئيس كانت الأشد وطأة منذ الحرب العالمية الثانية، وأوضحت للعسكريين -فيما يأمل الرئيس- أنه لن يلعب دور مشجعات مباريات الهوكي، وأن أي جنرال يجد في نفسه استعلاءً أو يصعب عليه أداء المهام المطلوبة منه، سيُطرد من الخدمة، دون مقدمات أو أعذار.

منذ لحظات، دخلت سكرتيرة رئيس الولايات المتحدة الخاصة إلى المكتب البيضاوي بملفها البنفسجي، فوجد ماكالوم متنفسًا للخروج من محنة قراءة تقرير السبعين صفحة، الذي أرسله إليه الجنرال براين بوين، قائد القوات الأمريكية في مصر. حذّر التقرير من «فشل المهمة» في مصر، ومن «الظروف السيئة والمتدهورة» التي تعيش فيها القوات، ومما قد يؤول إليه الوضع إن لم تصل إليهم الإمدادات المطلوبة في أسرع وقت، وحذّر كذلك من «تفشّي الفساد بين القوات الأمريكية، الأمر الذي لا يقل في خطره عن تمرد الجهاديين الإسلاميين».

بحق المسيح، إن قراره باستقدام حشد إضافي، لم يُتّخذ على نحو فردي، بل بعد عشرات الساعات من النقاشات المُضنية مع فريق الأمن القومي، والمستشارين العسكريين والاستخباراتيين المقربين إليه. قبل مجيئه، كان القرار العسكري يُنفذ في صمت، دون دراسات كافية أو مناقشات مستفيضة، وكانت تغلب عليه الأهواء والظنون. كان في وسعه أن يشتغل وفق المنهاج نفسه، الأسهل والأسرع، الذي يؤدي إلى موت الشباب الأمريكي بجرة قلم، لكنه قال لفريقه عِوضًا عن ذلك: «مهمتي الآن، أن أُهدّئ من سرعة عملية اتخاذ القرار»، وقال: «لكي نرسل المزيد من القوات، يتعين عليّ أن أطرح عليكم أسئلة صعبة؛ وأن أدفعكم إلى أن تسنّوا أقلامكم، من أجل الوصول إلى الحل الأمثل للأزمة»، وقال:

fb/mashro3pdf

«علينـا أن ننـشئ إسـتراتيجية جديـدة، وأن نخضعهـا للبحـث، لتحديـد مـا إن كان في مقدورنـا تحقيقهـا أم لا»، وقـال: «علينـا أن نبـني سلسـلة منطقيـة، وأن نُمحِّـص كل الاحتمـالات. علينـا أن نحفـر عميقًـا، كي نصـل إلى الجـذور».

استفهامات كثيرة طرحهـا الرئيـس حـول جـدوى التحالـف مـع الحكومـة المصريـة الحاليـة، ومعـنى النـصر والهزيمـة، واحتمـالات فشـل الحشـود الجديـدة، أو اكتمـال سـيطرة الجهاديـين عـلى العاصمـة. قـضى مئـات الخـبراء في البنتاجـون ووزارة الخارجيـة مئـات السـاعات في عمـل متصـل لتقديـم أجوبـة مدروسـة موجـزة عـن أسـئلة الرئيـس ومعاونيـه. هـل الحكومـة المصريـة قـادرة عـلى تحقيـق أمنهـا والبقـاء دون حمايـة القـوات الأمريكيـة؟ هـل مـن الممكـن أن نسـلك مـع الجهاديـين مسـلك المسـالمة في الاتفـاق، أم يتعـين علينـا قتالهـم وقتلهـم؟ هـل في إمكاننـا الحـد مـن فسـاد الحكومـة المصريـة؟ هـل في إمكاننـا الإطاحـة بهـا إذا لـزم الأمـر؟ لمـاذا تتكمـش القـوات المصريـة المسـلحة، بعـد أعـوام مـن التدريـب، وعـشرات البلايـين مـن الـدولارات المقدمـة عـلى هيئـة مسـاعدات وتسـليح؟

كان ماكالـوم في هـذه الاجتماعـات، عـلى عادتـه ودأبـه، متيقـظ العينـين، متوقـد الذهـن، متصلـب الـرأي، كثـير المطالـب، وكان يجـد نفسـه مضطـرًا لأن يُذكِّـر الحضـور بـأن وجـود القـوات المسـلحة الأمريكيـة في مـصر جـاوز عـشر سـنوات، الأمـر الـذي يجعلهـا أطـول حـرب خاضتهـا الولايـات المتحـدة في تاريخهـا. كان ينبههـم بإلحـاح إلى أنّ طـرح ذات الأفـكار الـتي طُرِحـت منـذ عِقـد كامـل لـن يجديهـم نفعًـا، وكان مـن ديدنـه أن يسـأل الحضـور، عندمـا يضجـون بأسـئلته وعندمـا يضـج بمبرراتهـم: «هـل سـنحصل عـلى نتائـج، تـكافئ حجـم الاسـتثمار الهائـل في القـوات؟» وكان مـن ديدنـه أن يقـول كابتًـا إحباطـه، مُصـدِّرًا سـمتًا هادئًـا، عندمـا يعجـز وزيـر الدفـاع عـن إعطـاء أرقـام دقيقـة عـن الميزانيـة رغـم اكتظـاظ البنتاجـون بالمئـات مـن مخططـي الميزانيـة: «أقـول وأكـرر. لـن أقـر خطـة عمـل في مـصر، تسـتمر لعـشر سـنوات قادمـة، وتتكلـف تريليونيـات الـدولارت. أحتـاج أرقامًـا أكـثر واقعيـة».

وهكذا يتعين على الجميع العودة إلى مكاتبهم، والقيام بالمزيد من العمل.

في جلسـات الأمـن القومـي هـذه، حرصـت إيلينـا فيكسـلبرج عـلى الـتزام الصمـت، ولـم تكـن تنطـق إلا لتـدلي بتعقيـب معتـبر، يليـق بخبرتهـا العميقـة بالإقليـم. وبقطـع النظـر عـن معقوليـة حكمهـا العسـكري وجودتـه، كان لتعليقاتهـا وزنًـا سياسـيًا قيمًـا، لكونهـا مـن رمـوز

fb/mashro3pdf

الحـزب الديموقراطـي القويـة في الغرفـة، كمـا كانـت تظهـر قـوة وتكـبرًا أثنـاء الطـرح، وكأنهـا الطـرف الأهـم في المعادلـة، كي تشـد مـن أزر الرئيـس الشـاب، الـذي جـاء إلى البيـت الأبيـض ولـم يتجـاوز عقـده الثالـث بعـد، ليواجـه جـنرالات مُحنّكِـين، راسـخي الأقـدام، دخـل كثـير منهـم بالفعـل العقـد السـادس مـن العمـر. إحسـاس إيلينـا بالمسـؤولية، وإدراكهـا لدقـة المهمـة، حرضاهـا عـلى التدخـل في أمـور لـم تكـن لتحـب أن تـدس فيهـا أنفهـا في الظـروف الطبيعيـة، فبـدت للناظـر وكأن مجالهـا الشـخصي يرسـل مـن الطاقـة مـا ليـس لـدى الرئيـس وأعوانـه الآخريـن، وبـدت وكأنهـا تعـم بحرارتهـا الجالسـين جميعًـا. وكانـت، زيـادة عـلى ذلـك، تحـرص عـلى إبـداء قـدر وسـط مـن الحساسـية والرحمـة تجـاه التكلفـة البشريـة والماليـة المتوقعـة لقمـع التمـرد بقـوات عسـكرية شـاملة.

استشـعرت سـكرتيرة المكتـب البيضـاوي بفطنتهـا تعكـر مـزاج الرئيـس اليـوم وهـو يكتـب ردودًا متعجلـة، جامـدة، عـلى خطابـات الصبـاح. لـم يكـن هـذا الشـهر خفيـف الوقـع عـلى نفسـه. بالأمـس القريـب قـام بزيـارة ليليـة خاطفـة لقاعـدة «دوفـر» لسـلاح الجـو الأمريـكي، واسـتقبل التوابيـت الخمسـة الملفوفـة بعلـم الولايـات المتحـدة، الـتي وصلـت تـوًا مـن مـصر في طائـرة شـحن عسـكرية. هـؤلاء الخمسـة هـم حصيلـة عمليـة اختطـاف انتقاميـة، شـنتها إحـدى فصائـل الجبهـة الإسـلامية عـلى دوريـة مدرعـة في الإسـكندرية. وكـرَدٍّ انتقامـي عـلى قتـل القـذف الأمريـكي الأخـير في الإسـكندرية، قـام المجرمـون بـإضرام النـار في الأسرى الخمسـة وهـم أحيـاء، بعـد حبسـهم في أقفـاص حديديـة كأنهـم قـرود، في موقـع القـذف الأمريـكي ذاتـه، وتركـوا مـع الجثـث المتفحمـة المنقبضـة حراريًـا مـن عـذاب الحريـق شريحـة مدمجـة، حُفِـظَ عليهـا فيديـو الحـرق. لـم يسـمح ماكالـوم لأخبـار الواقعـة بـأن تتـسرب إلى وسـائل الإعـلام، واكتفـى باسـتقبال التوابيـت، ومواسـاة الأسر المنكوبـة، ولـم ينـمُ إلى علـم آبـاء القتـلى وأمهاتهـم وزوجاتهـم وأطفالهـم خـبر الواقعـة، بـل أُخـبِروا بقصـة ملفقـة.

في هـذه الليلـة، اسـتقل الرئيـس سـيارته صامتًـا، ومـضى موكبـه إلى البيـت الأبيـض. أسـف عـلى امتنـاع الجبهـة الإسـلامية عـن إذاعـة فيديـو الحـرق عـلى المـلأ، ولـم يكـن رأيـه قـد اسـتقر بعـد عـلى إمـرار الفيديـو خِفيـة إلى وسـائل الإعـلام، بهـدف تحريـك شـهوة الانتقـام لـدى الجماهـير، وتحفيزهـم عـلى قبـول تعزيـزات ضخمـة جديـدة. الـرأي العـام الأمريـكي في الوقـت الحـالي لا يحبّـذ إرسـال المزيـد مـن الجنـود إلى حتفهـم في الصحـراء، ولا يـرى في هـذه الحشـود

fb/mashro3pdf

وما يترتب عليها من نفقات ميزة، ولا يدرجها في حساب المصلحة الوطنية؛ لأن الحرب في مصر حققت هدفها الانتقامي. وكانت الإدارة الجديدة في أمسّ الحاجة إلى تغيير وجهة النظر هذه، وبأسرع ما يمكن.

وفي اليوم التالي، تجرّع ماكالوم مرارة لقاء الجنرال جوزيف بيرجر، رئيس هيئة الأركان المشتركة، الذي اختاره بنفسه على عمد عينين، والذي اتضح من كلامه وقتذئذ أنه لا يقل في استخفافه بالقيادة المدنية عن غيره من شيوخ البنتاجون وجنرالاته المتكلسين. انتظر الرئيس من الجنرال أن يعرض عليه المخطط التمهيدي لعملية الانتشار، بيد أنه فوجئ بأن الخطة المعروضة أمامه، ترتكز على جدول زمني يقارب في مداه العامين. عالج الرئيس مزاجه الحرّيف أشد المعالجة، واجتهد في أن يكبت غيظه، وكان توّاقًا إلى الانفجار في وجه رئيس الأركان.

وقال للجنرال بيرجر متسائلًا بحدة:

- حقيقة لست أدري، كيف يمكن أن تسمي تحركًا عسكريًا يستمر الحشد له عامين كاملين، بالهجوم الصاعق؟!

ثم أتبع سؤاله هذا بسؤال آخر، قائلًا، دون أن ينتظر إجابة عن سؤاله الأول:

- هل أكون مخطئًا، عندما أقول إننا أرسلنا إلى مصر نصف مليون جندي في بداية الحرب، خلال ثلاثة أشهر فقط؟!

أجابه الجنرال بيرجر قائلًا، وقد بدا عليه التململ:

- لا، لست مخطئًا.

قال ماكالوم متسائلًا باستياء:

- لماذا إذن يستغرق نشر قوات أقل في الحجم بكثير، وقتًا أطول بكثير؟ خمسة وعشرون شهرًا؟!

- الانتشار الأول حدث منذ عشر سنوات مضت. الظروف تغيرت، وخطة الانتشار الحالية مُعدّة كي تتوائم مع الظروف المصرية المستجدة.

- هل أفهم من ذلك، أنكم تعدون مصر اليوم، بدون جيش أو بنية تحتية، وبتعداد سكاني أقل من عُشْر ما كانت عليه قبل الغزو.. أخطر مما كانت عليه قبل الغزو؟! وهكذا لا يكون ثمّة بأس في تمطيط خطة الانتشار الحالية؟

fb/mashro3pdf

هز بيرجر رأسه بغير رضا، وقال مفسرًا:

- الظروف على الأرض تغيرت. القوات الجديدة تحتاج إلى مدرجات إقلاع وهبوط جديدة، ومخازن للذخيرة، ومساكن لإيواء الجنود، وبُنًى عسكرية أخرى معقدة، لا بديل عن إنهائها قبل إرسال الجنود.

حول هذه النقطة دار نقاش مطول بين الرئيس والجنرال، وأشار الرئيس أكثر من مرة، دون أن يصرح، إلى ضيقه من تحايل العسكريين، ثم قال فيما يشبه السخط:

- بحق المسيح، لم يطلب العسكريون خلال عشر سنوات الأخيرة شيئًا إلا وحصلوا عليه.

ثم أنهى النقاش قائلًا على نحو قاطع:

- اسمع.. هذا الأمر سيتم، وخلال مدى زمني أقصر. واضح؟

- وكيف يتحقق لنا هذا، لو أن لي أن أسأل، يا سيدي الرئيس؟

- يتحقق يا جنرال، عندما تنصرف الآن، وتعود بجدول زمني يعجبني.

هكذا قال له ماكالوم بتشدد، بحيث لا يلتبس عليه الأمر، وقد تمثل أمامه بيرجر في موقعه الحسّاس خطًا كبيرًا سخيفًا، يصعب تصويبه. نعم، بيانات الإقالة كانت مهيأة دومًا في مكتبه، وقد اتفق لماكالوم أن يشعر بلذة وهو يملأ صيغة قبول الاستقالة بأسماء الجنرالات المغضوب عليهم. «إنني اليوم، أقبل استقالة الجنرال فلان، كقائد لقوات كذا، مع أشد الأسف، وإنني على يقين بأن هذا القرار هو الأفضل لمهمتنا في مصر ولجيشنا ولبلادنا». بيد أن جوزيف بيرجر ليس كأي جنرال، وإقالته لن تمر مرورًا يسيرًا كما مرت إقالات غيره، فهو رئيس هيئة الأركان المشتركة، أي صاحب المنصب العسكري الأعلى في القوات المسلحة الأمريكية، والمستشار العسكري الأول لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ولمجلسيْ الأمن القومي والداخلي، ولوزارة الدفاع الأمريكية، وهو اختيار ماكالوم نفسه، ولم يكن قد مضى على توليه منصبه عدة أشهر.

لم يجد ماكالوم أمامه بديلًا سوى استدعاء وزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان المشتركة إلى المكتب البيضاوي في اليوم التالي مباشرة، ومواجهتهما. قال لهما بوضوح، وبكلمات حادة متسارعة، إنه غير سعيد البتة بأداء البنتاجون، وإن الجنرالات لا يُظهرون احترامًا للبيت الأبيض، وحذرهما من الأثر المدمر المترتب على أفعال العسكر وتخاذلهم إزاء

fb/mashro3pdf

هؤلاء الرجال والنساء الذين يخدمون بلادهم في أزيائهم العسكرية، وينتشرون في القفار والبحار. وأضاف الرئيس قائلًا، وعيناه تشتعلان بالغضب: «أنا أريد أن أعرف، هنا والآن، إن كان البنتاجون على القدر المرتقب من المسؤولية، وإن كان العسكريون سيخضعون في وقت ما قريب لإرادة الرئيس المنتخب، أم لا!» وأشار إلى الجنرال بيرجر بسبابته، قائلًا بحرية وصراحة: «لو أنك تنوي يا جنرال بيرجر، أن تقود انقلابًا عسكريًا في القريب العاجل، فاعلم أن...».

لم يحتمل بيرجر سماع المزيد، فقاطع الرئيس قائلًا بحدة، وقد لمع في عينيه ما يشبه الفزع: «سيدي الرئيس.. أرجوك!»

انتهى الاجتماع سريعًا، ومَثَّل في حد ذاته حدثًا ينـدر أن يتكرر، إذ قلّما يواجه الرؤساء المدنيون مراوغات البنتاجون على هذا النحو الحاد المباشر، كمثل ما حدث يومئذ. أراد ماكالوم، من دافع الإحباط وشدة الغضب، أن يرسل إلى الرجلين رسالة واضحة، مُركزة، ألا يلعب معه أحد. إنه شاب، نعم، وكان منذ عدة سنوات ضابطًا صغيرًا «تافهًا»، نعم، غير أنه اليوم رئيس، ولن يتساهل في لعب أو مراوغة، ولن يتحمّل استصغارًا أو إساءة، ولن يغمض على تهميش أو تجاهل، ولن يقبل أن يُزج به في ركن مهمل.

خرج الرجلان من المكتب البيضاوي مغتمين، ونما إلى علم الرئيس بعدها أن الجنرال بيرجر التقى بأعضاء هيئة الأركان، وأبلغهم بطبيعة الإدارة الجديدة، وطلب إليهم بشكل رسمي الالتزام بتوجيهات الرئاسة. أما وزير الدفاع، فحَدَّث الرئيس هاتفيًا فيما بعد، وألزم نفسه بتصريف الأمور في البنتاجون كما يأمل الرئيس ويترقب، من الآن فصاعدًا.

الآن، بعد مُضيّ عدة أيام على اجتماعه بالرجلين، هل يجد ماكالوم في نفسه يقينًا بتحسن الأوضاع؟ هل يأخذ بعين الاعتبار الوعود والعهود؟ هل يأمل في أن ينصاع الجند لأوامره دون احتيال؟ هل وجد أخيرًا في أصحاب البزات العسكرية من يعتمد عليه ويؤتمن به؟ هل تحرر من الشك والقلق والخوف؟

لا، وما أصاب من راحة البال قِطميرًا.

*****

fb/mashro3pdf

قبـل أن يسـتطير فجـر اليـوم وينتـشر في الأفـق، كانـت إيلينـا تجلـس إلى مكتبهـا، الكائـن في الركـن الشـمالي الغـربي مـن الجنـاح الغـربي للبيـت الأبيـض. كانـت قـد قضـت سـاعتين كاملتـين في وضـع اللمسـات النهائيـة عـلى المذكـرة العاليـة السريـة، الـتي ألقـت الضـوء عـلى الشـأن المـصري، ونتائـج زيارتهـا لأسـتراليا. فـور أن اطمأنـت لاكتمالهـا طَبَعَتهـا، ونهضـت عـن وحـدة مكتبهـا المطمـورة بتـلال مـن الوثائـق والأوراق، وانتقلـت إلى وحـدة الجلـوس الواقعـة إلى يمينهـا، واختـارت كرسـيًا وثـيرًا للجلـوس.

أنهـت مراجعـة تقريرهـا عـلى جنـاح السرعـة، وأعـادت طباعـة عـدة نسـخ منـه. في تمـام السـاعة التاسـعة والنصـف، ستُلقي عـلى الرئيـس تقريـر الأمـن القومـي اليومـي، ولو اسـتطاعت أن تقتطـع مـن وقـت الملخـص الاقتصـادي نصـف سـاعة لفعلـت؛ لأن موضـوع اليـوم جـد مهـم. لـم تكـن الجلسـة الصباحيـة اجتماعًـا رسميًا بالمعـنى الدقيـق للكلمـة، بـل جلسـة عمـل تناقـش فيهـا التهديـدات الإرهابيـة والموضوعـات السياسـية اليوميـة، وكانـت إيلينـا تتمتـع بهـذه الجلسـات اليوميـة، وتتطلـع إلى حضورهـا والإجـادة فيهـا كل صبـاح. أمـا جلسـة اليـوم، فعدتهـا اسـتثنائية، وعـدت تقريـر اليـوم حرجًـا و«مصريًـا»، لـذا حثـت الخطـى بحميـة، ونبـض قلبهـا بقـوة مـن شـدة الترقـب والأمـل.

ارتـدت مستشـارة الأمـن القومـي اليـوم معطفًـا داكنًـا، تضـام عـلى جذعهـا بإحـكام بفضـل سـبعة أزرار ذهبيـة لماعـة، وتنـورة سـوداء، انتهـى ذيلهـا فـوق ركبتيهـا بقليـل، وزوج حـذاء جلـدي لامـع، نحيـل الكعـب إلى حـد غـير عمـلي. عندمـا تفحصـت نفسـها هـذا الصبـاح في المـرآة قبـل المغـادرة، تبسـمت بعجـب، وقالـت في نفسـها إن هـذا السـواد الناعـم اللامـع المنسـاب، يتملـق قوامهـا بفاعليـة، ويـبرز رشـاقة سـاقيها وطولهمـا، واعترفـت إلى نفسـها أن ثـوب اليـوم، ينقصـه بعـض الاحتشـام، أينعـم، لكنـه يثـير الخيـال، ويشـع بأسًـا وجـرأة وصَوْلَـة.

في طريقهـا إلى المكتـب البيضـاوي، مـرت عـلى مكتـب أبراهـام باراتـز، رئيـس موظفـي البيـت الأبيـض، وأحـد أهـم رجـال الرئيـس المقربـين، وأشـدهم تبصرًا ودهـاءً. هـو خبـير تكتيـكي سـليط اللسـان، رديء الطبـع، ومنـاور تشريعـي ماهـر وخطـير. رجـل طويـل، نحيـف، أشـيب، ذو عزيمـة وشراسـة، وخشـونة في الـكلام وسـوء خلـق وسـمعة، وقـدرة خارقـة عـلى إنجـاز مهـام يعجـز عـن إنجازهـا الآخـرون، وهـو السـياسي المُجمِعـة عـلى بغضـه كل الأطيـاف السياسـية في

fb/mashro3pdf

واشنطن، وهو صاحب ألقاب عدة، منها «سفاك الدماء المعتوه»، و«الطرول ناكح أمه»، و«وكيل وزارة اذهب وضاجع نفسك».

ليلة أمس، التقته إيلينا في مكتبه بعد عودتها من أستراليا، فحكى لها عن مشكلاته مع كلب الرئيس، ونبح هو نفسه متوعدًا الكلب اللعين بالقتل، ثم سألها عن زيارتها، ورفع عقيرته عليها هاتفًا: «أنا أفضل صديق لك، صديقك اللعين الوحيد في هذا العالم، وأقول لك، الأمر جد خطير، لا تفسديه».

لم تكرهه إيلينا قط، ولم تنفر منه وإن هاج وتلاطمت أمواجه. على النقيض من ذلك، أحبّت صحبته كما يحب المرء صحبة قرد مشاغب مؤذٍ. تمثل لها على الدوام كائنًا بشريًا غريبًا طريفًا، متحررًا من سمت التلاعب العدواني الخامد، الذي يتحلى به موظفو البيت الأبيض وشيوخ الكونجرس وأعضاء السلطة التنفيذية كافة، وتفهمت كذلك مبررات الرئيس ماكالوم «الين يانجية» للاستعانة به في منصب (نسبة إلى فلسفة الينج واليانج الصينية الشهيرة، التي تنادي بالجمع بين المتضادات). ولقد أتقن باراتز عمله على أكمل وجه، بين انتقاء موظفي البيت الأبيض الرئيسيين والإشراف عليهم، والسيطرة على تدفق الناس إلى المكتب البيضاوي، وإدارة ورود المعلومات إلى البيت الأبيض، بالإضافة إلى مهامه الاستشارية والتفاوضية الأخرى.

المحبة بين إيلينا وباراتز متبادلة، وحبال صداقتهما ممتدة لأكثر من عِقْد مضى، وقد توثقت على نحو أفضل أثناء الحرب المصرية، عندما ذهبا معًا إلى إسرائيل تحت نيران القصف المدفعي والجوي، وتطوعا للمساعدة في وحدة مدنية لإصلاح الشاحنات، بقاعدة يوسف بورج العسكرية.

وهكذا، لما مرت إيلينا إلى جوار مكتبه، ورأت بابه مواربًا، مالت لتختلس النظر إلى من في الغرفة، فأبصرت الرئيس واقفًا إلى جوار باراتز. لم يكن في ذلك ما يدهش؛ لأن الرئيس ماكالوم يتململ من البقاء حبيس مكتبه طويلًا، وكثيرًا ما يطوف بممر الجناح الغربي، فيدخل إلى هذه الغرفة أو تلك، وإلى غرفة رئيس موظفي البيت الأبيض بالخصوص لو علم أنه يستضيف عضوًا في الكونجرس، كي يلقي عليه التحية ويتجاذب معهما أطراف الحديث لدقائق معدودة.

وعندما طرقت إيلينا الباب طرقًا رفيقًا، دعاها باراتز إلى الدخول بحماسة، فدخلت

fb/mashro3pdf

باسمة، ثم ما لبث أن تبددت الابتسامة لما رأت طرف الحديث الثالث، السناتور جوردان وودز.

هكذا بأمانة، تعترف إيلينا أن السناتور وودز إنسان ذكي وقادر وعميق التأثير، ويمكنها من دون أن تشعر بوخز الضمير أن تضعه في أعلى مراتب مجلس الشيوخ قاطبة، على الصعيد الجمهوري بالطبع. لكنه شأنه شأن بقية الهائمين على وجوههم في حرم الكابيتول، مريض عقلي، ويمتاز عن سائر زملائه من المعاتيه بكونه كثير الضحك دون داعٍ، وخسيس ومؤارب ومنافق على نحو استثنائي، كما يلقي بثقلِهِ كله هذه الأيام وراء جهد إعلامي مجنون، يهدف إلى تشويه الإدارة الجديدة وتدمير شعبيتها الوليدة، فقط لتسجيل النقاط في حفلات الشاي التي تحضرها زواحف الجمهوريين.

وفضلًا عن كونه مُعاديًا للسامية، وهو الأمر الذي لا يخفى على أحد، فهو معادٍ أيضًا للمهاجرين والملونين والسود على وجه العموم، ولا يخفي عدائه هذا، بل ويتبجح به في وسائل الإعلام كل التبجح متى سنحت الفرصة. يستغل وودز الأزمة الاقتصادية في تأجيج مشاعر العنصرية الأكثر حقارة، وفي إحراز نقاط انتخابية إضافية، عن طريق استغلال قضية الهجرة غير الشرعية المُعقّدة والمؤلمة، ويُحرِّض كذلك عوام العنصريين ورعاعهم على طبقة المهاجرين العاطلين، ويدعو بلا مراوغة إلى منعهم من «اختطاف الولايات المتحدة» و«تدمير قيمها». السيد وودز وصل في سنة من السنين إلى قائمة المئة شخص الأكثر تأثيرًا في العالم، بعد أن دعى في الكونجرس إلى حملة لجمع الأمريكيين من أصول مصرية، والزج بهم في معسكرات تجميع، تمهيدًا لترحيلهم أو «إلقاؤهم في البحر، لا نبالي بهم قدر خراء»، هكذا قال بالحرف. تُوِّجت مساعيه الحميدة وقتئذ بالنجاح، فيما عرف بفضيحة «الخطر العربي»، وما صاحبها من ادّعاءات بأن الجنس العربي يمثل خطرًا مميتًا لسائر سكان العالم، وما تبع ذلك من ترحيلات واعتقالات جماعية وأعمال قتل وتنكيل، لطّخت وجه الولايات المتحدة بالعار الأبدي.

سِجِل السناتور متسخ بفظاعة، وهو ما لم تكن لتكترث له إيلينا كل هذا الاكتراث، لو لم تصادف إطلالته البهية ليلة أمس في برنامج «أكسيس واشنطن»، على شبكة «إن بي سي».

نحّت إيلينا عنه بصرها، وكادت أن تستدير وأن تغادر الغرفة مغاضبة على الفور، وقد

fb/mashro3pdf

ارتسمت على وجهها دلالات النفور، لكن السناتور وودز أقبل عليها مُرَحِّبًا، بوجهه الوردي المستدير العجوز، وشعره الناصع البياض، المصفف بعناية، وقامته الطويلة الجسيمة، وأناقته البالغة. صافحها بلباقة، فصافحته ببرود. لعدة دقائق، تحدث السناتور ضاحكًا مع ثلاثتهم، ماكالوم وباراتز وإيلينا، ثم استأذن في الانصراف قائلًا: «لا أريد أن أضيّع مزيدًا من وقتكم.. روبرت، سيادة الرئيس، سأنتظر منك مكالمة في القريب العاجل».

ما أن غادر الضيف، حتى التفتت إيلينا إلى ماكالوم باستياء، وسألته مباشرة:

- ابن العاهرة وودز هذا، ما الذي جاء به إلى هنا؟

تجاهل ماكالوم سؤالها، واستقبلها بسمت الرجل المتزن، المعتدل المزاج، بل وكاد أن يبتسم وهو يلقي عليها تحية الصباح، غير أن الإرهاق منعه فيما يبدو. حافظ على مسافة بينه وبينها إذ يدعوها للتَّمَشِّي معه.

تبعته إيلينا وهو يغادر مكتب رئيس موظفي البيت الأبيض، إلى أن التفت إليها قائلًا:

- ما لك والسيد وودز؟

قالت إيلينا بنفاد صبر:

- ليلة أمس، ظهر في برنامج «أكسيس واشنطن»، مع إيميلي ستيل، وقال كلامًا كثيرًا مقززًا.

- ماذا قال؟

قالت وهي تسير إلى جواره:

- قال إن الإدارة الجديدة في البيت الأبيض تفتقر إلى الكفاءة البشرية اللازمة لإدارة قواتنا العسكرية وقدراتنا التقنية. وقال إنك تكبح قدرات الجيش والاستخبارات وتغل أيديهم في مصر.

- وماذا أيضًا؟

- تساءل عن الأهداف الخفية من وراء تراخيك وإداراتك في محاربة الإرهاب. وعن الأسباب التي تمنع فِرق العمليات الخاصة عن تدريب أجهزة الأمن المحلية، ودفعهم من ثمّ لمواجهة عمليات تهريب السلاح والمخدرات، بدلًا من الدفع بشبابنا إلى أتون حرب لم يعد لها مبرر.

- هذا فقط؟

fb/mashro3pdf

- قال إن الولايات المتحدة يمكنها أن تفعل الكثير في الحرب على الإرهاب. وأضاف: «ليس هناك فيما يبدو قرار سياسي يدعم هذه الحرب. ليست هناك نية حقيقية للقضاء على الإرهاب».

تركها الرئيس تدخل إلى المكتب البيضاوي قبل أن يدخل، من باب التأدب والكياسة مع النساء، وقال متأملًا، وهو يغلق الباب خلفه:

- يا لها من ادّعاءات خطيرة! إنني أتساءل عن المصادر التي تزوده بمثل هذه الأخبار.

- السافل يتحدث بصفته رئيسًا سابقًا للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، أي أنه لا يتناول الموضوع عن جهل. قال بجهوزية كبار الضباط، وطعن في القيادة المدنية. قال: «لو توافرت الإرادة السياسية، تكون الأمور سهلة وواضحة، لكن الإدارة الجديدة لا ترى -فيما يبدو- سوى العقبات، وتتذرع بالأعذار».

انتقى ماكالوم الأريكة اليمنى، فجلس وأراح ظهره على وسادتي الركن اللينتين. مد ساقيه وأسند قدميه إلى المائدة المنخفضة أمامه، وقال بعد تفكير:

- إنني أتساءل عن النصيحة القيمة، التي ذيّل بها تصريحاته الكاشفة تلك.

قالت إيلينا وهي تجلس بدورها على الأريكة المقابلة:

- لم ينصح بشيء. تحدث عن أخلاقيات ومعنويات القوات في مصر، من واقع ما رآه في زيارته الأخيرة.

- وماذا قال في هذا الشأن يا ترى؟

أراحت إيلينا ظهرها هي أيضًا على وسائد الأريكة، وقالت:

- قال إن الجنود مرهقون جدًا في مصر. القوات تستهلك معظم طاقتها لمجرد قتل الوقت، وكل ما يتطلعون إلى تحقيقه، هو العودة إلى الوطن في إجازة. وقال إن قوات «المارينز» وقعت ضحية الجمود والملل. أما عن تدهور المعنويات، فقد أطلق لسانه في الحديث عن تعاسة الجنود، وعدم رضاهم عن الطريقة التي تسير بها الأمور هناك.

لوى ماكالوم شفتيه وكأنه يبتسم، وقال:

- من وجهة نظر محددة، تجدين أن الحق معه. لو استثنينا بالطبع موضوع الملل والجمود وقتل الوقت، وأبدلنا كل اتهام خص به الإدارة، باتهامات أخرى للجنرالات الكبار.

fb/mashro3pdf

قالت إيلينا بسخط:

- لم تُقدِّم المقابلة كلها شيئًا ذا بال، بل كانت رخصية وموجهة. كنت أحسب إيميلي ستيل إعلامية محترمة، لكنها هي أيضًا امرأة عاهرة.

شبّك ماكالوم أصابعه، وقال:

- سيبث التليفزيون الحرب الجديدة يا إيلينا. سيملؤون بيوت الناس هنا بأخبار المعارك والدم والموت. المراسلون والكاميرات ستنتقل إلى هناك لتسجل كل خطوة، ولو لم تحقق الخسائر آمالهم، سيفتعلون خسائر أخرى. سيكذبون على الناس، سيختلقون الوقائع، سيموّهون الكلام بالباطل. الحرب التليفزيونية ستصبح أمرًا مستحيلًا، والجولة أمامي ضائعة.

نظرت إليه إيلينا بتمعّن، وأحست بفور كل كلمة من كلماته بالحزن واليأس والعجز، فكأن جهوده آلت جميعًا إلى الفشل. إن كان ثمّة شيء اتفق عليه في ظاهر الأمر رؤساء الولايات المتحدة المتتابعين، وافتقده ماكالوم، فهو الأمل في الغد، والثقة في المستقبل. بدا لها وكأن الرئيس الشاب مُهيأ على الدوام لرؤية جانب الشر والشؤم في الأشياء، وإساءة الظن بسائر جوانب الحياة. إن هذا الرجل في ظنها مسبوك من الحزن والتأني والسكينة، على خلاف كل من عملت معهم وتحت إمرتهم من الساسة الآخرين، ممن تظهر عليهم أعراض عشق الذات، أو ممن يكابدون تشنّجات وآلام الجهاز الهضمي، تلك المصاحِبة للشعور بالتزعزع والتداعي، أو الفزع والقلق. أما ماكالوم، ففي أحلك الظروف، لم يكن سوى إنسان عادي، ذكي ساكن ثابت، وقور حليم كفء.

وإذا به يقول الآن بلا اكتراث، مُزيحًا هذا الموضوع كله جانبًا:

- لا بأس. كيف كانت الزيارة إلى أستراليا؟

أمالت إيلينا بصرها عنه، واستخرجت من حافظتها الورقية نسخة من تقريرها، وتلك لم تزد عن ورقتين اثنتين، ناولتهما للرئيس، وطفقت تقرأ عليه منهما. استهلت الحديث بعرض موجز لتاريخ علاقتها القديمة بالجنرال المصري، التي تعود جذورها إلى ثلاثة عشر عامًا مضت، وذكّرت الرئيس بسجله الناصع في مؤازرة الولايات المتحدة وحلفائها قبل الحرب وبعدها.استعانت في عرضها بملف مجلس الأمن القومي الخاص بالجنرال المصري، الذي يتضمن صورة استخباراتية شاملة عنه، بما في ذلك معلومات دقيقة للغاية تخص

fb/mashro3pdf

عمله وعلاقاته، وحالته الصحية وهواياته، وحجم ثروته ومصادرها.

أوجزت إيلينا في وصف ملابسات الزيارة، ثم توسعت في عرض جوانب الصفقة الذي تقدم بها الجنرال. بلا شك اندهش ماكالوم مما وصفه بـ«جرأة الشروط والمطالب»، وأعرب عن تشككه في نوايا الجنرال، وقال: «لقد اعتاد المسؤولون المصريون الكذب والخداع، وهم متعفنون كالبيض الفاسد». تحدث عن الجنرال باحتقار شديد، وقال إنه تاجر باهت الشخصية، متلون، كريه. لم تشاركه إيلينا رأيه، بل جمعت أفكارها وحصرتها في الحديث عن قيمة المعلومات المتوقع الحصول عليها من الجنرال، ومزايا استغلالها على النحو الأمثل، وقللت من حجم الخسائر المتوقعة، لو آلت المحاولة بأسرها إلى الفشل.

قال ماكالوم وهو يلقي بتقريرها جانبًا:

- القلق لا يساورني بخصوص فشل المحاولة فقط، إنما من نجاحها أيضًا، وما سيأتي بعدها. جنرالك المصري هذا به طمع شديد، وسوف يتعين عليّ بعد ذلك أن أفي بالتزامات الولايات المتحدة تجاهه، وأن أتعامل معه كصنو جشع سيئ السمعة لسنوات طويلة مرهقة.

تجاهلت إيلينا الطعن على صديقها الجنرال، وحددت نقاطًا رئيسية تدعم هدفها، واستخلصت كذلك من اللقاء انطباعات أساسية مهمة، نقلتها بأمانة إلى رئيسها، دون مبالغة أو تضخيم. وصفت صديقها المصري بأنه ليس بالفعل زعيمًا متطاول القامة، لكنه حليف صارم وصلب جدًا، و«مميت كالجحيم». كانت تعلم أن الرئيس لا يرغب في التراجع عن خطة الحشد التي أفرغ لأجلها أقصى طاقته، وأفسد لأجلها علاقته بالبنتاجون، لذا طمأنته وقالت إن ثمار التعاون لن تفضي بأي حال إلى إلغاء إرسال الحشود الجديدة، بل ستمهّد لها بضربات قاصمة لجبهة المقاومة، تقوض دعائمها، وتؤمّن القوات الإضافية.

وقالت له بوضوح:

- من المرجّح أن تقفز أرقام الاستطلاع إلى الأمام قفزة نوعية، لو أتى تعاوننا مع الجنرال بخمسين في المئة فقط من النتائج المرجوة، وقد يهيء لك اصطفافًا شعبيًا تفرض به إرادتك على البنتاجون. فرص العسكر في معارضتك ستخمد لفترة طويلة.

fb/mashro3pdf

أنذئـذ، يمكنـك أن ترسـل إلى الـشرق الأوسـط قـوة عظمـى، تقهـر أي شيء يقـف في طريقهـا.

واصـل الرئيـس مناقشـتها في أقسـام العـرض الرئيسـية، وأعـرب عـن اسـتنكاره مـن بعـض النقـاط الغربيـة، مثـل تعهـدات مـن قبلـه بالعفـو عـن قتلـة ومجرمـين، مقابـل التعـاون المعلومـاتي، وغيرهـا مـن الأمـور الرماديـة الـتي لـم يجـد في نفسـه ميـلًا إلى إقرارهـا. خَطَّـأت إيلينـا مخاوفـه بالحُجّـة والدليـل، وتحـرَّت غايـة الأدب والاحترافيـة إذ تطـرح أفكارهـا المدعومـة بتقاريـر اسـتخباراتية، تلقـي الضـوء عـلى تاريـخ الجـنرال الطويـل في التعـاون معهـم، وتحقيقـه لنتائـج ملموسـة، أحيانًـا تفـوق مـا يتعهـد هـو نفسـه بتحقيقـه.

نهـض ماكالـوم عـن مقعـده، وأخـذ يمـشي في مهلـة حـول وحـدة الجلـوس، وأنصـت إليهـا إذ تدفـع بالقـول إن الـرأي العـام لا يـرى حاليًـا أي نقـاط مضيئـة في الشـؤون الخارجيـة، وإن نسـب التأييـد للإدارة الجديـدة تتناقـص بسرعـة. ثـم قالـت وهـي تنهـض عـن الأريكـة لتواجهه:

- أنـت تحتـاج في الوقـت الراهـن إلى دفعـة قويـة، تدعـم مصداقيتـك كزعيـم، أمـام الديمقراطيـين والجمهوريـين. إننـا نـكاد في هـذه الأيـام أن نكـون منبوذيـن، بفضـل الحملـة الموجهـة ضدنـا. لـو تـم لـك هـذا الأمـر، ستسـير بقامـة أطـول، سـواء في الداخـل أو في الخارج.

اقتربـتْ منـه بخطـوات بطيئـة، حـتى تشـممت مـا علـق بـه مـن فضلـة سـيجارة الصبـاح، المختلطـة بعطـره الذكـوري الواخـر. مـا فـتئ الرئيـس يختلـس خمـس دقائـق عـدة مـرات خـلال اليـوم، كي يتمكـن مـن تدخـين سـيجارتين أو ثلاثـة يوميًـا، في غيضـة بسـتان صغـير قـرب ملعـب التنـس، رغـم أن التدخـين ممنـوع في أي مـن أرجـاء البيـت الأبيـض منعًـا باتًـا.

نظرت إيلينا إلى عينيه مباشرة، وقالت:

- في رأيي، الاتفـاق مـع الجـنرال ليـس سيئًا. إنـه ليـس شيطانًا في نهايـة المطـاف، والسـناتور جـوردان وودز في نظـري أسـوأ منـه، ومـع ذلـك نسـتقبله هنـا في البيـت الأبيـض، ونضاحكـه، ثـم نتركـه يطعننـا في ظهورنـا عـلى شاشـات الفضائيـات مسـاءً.

اتّشحت ملامح الرئيس بالانتباه على حين فجأة، وقال لإيلينا متسائلًا:

- كيف تنظرين إلى حسام داوود؟ أقصد من وجهة نظر شخصية.

كانـت إيلينـا ترتقـب هـذا السـؤال منـذ بـدء الجلسـة، وكانـت قـد أعملـت عقلهـا الاسـتدلالي أثنـاء مقامهـا القصـير في منـزل الصديـق المـصري، وفكـرت بعمـق في كل كلمـة ذات بـال خرجـت مـن فيـه. رتّبـت اسـتنتاجاتها وانطباعاتهـا الشـخصية في نقـاط متتاليـة، كي تنقلهـا إلى ماكالـوم

fb/mashro3pdf

مُطعّمة بتوصياتها بشأن التعامل معه وترويضه.

حرصت على أن تلزم الصمت بتفكر للحظة أو لحظتين، وهي تدير عينيها الزرقاوين في أنحاء الغرفة، ثم قالت:

- لو قُدِّر لك أن تحادثه هاتفيًا أو أن تلتقيه، لما ترددت في تقديم المعلومات المؤلفة عنه بواسطة الاستخبارات، كي تهتدي بها إلى السبيل الأمثل في التعامل معه.

- نعم.

قالت إيلينا تمازحه:

- لكنني شخصيًا، أظن أن الجنرال حسام، بصفته ضابط استخبارات ينتمي إلى دولة قمعية من دول العالم الثالث.. أظن أنه لا يحوز بين جنبيه روحًا، مثله في ذلك مثل الروس والجرذان.

- وكيف ترينه، كحاكم حليف لنا في مصر؟

زمّت إيلينا شفتيها، وتفكرت قليلًا في إجابة مناسبة، فقال ماكالوم موضحًا:

- طرحتُ عليكِ هذا السؤال؛ لأن نظرتي للساسة المصريين -كما تعلمين- سلبية للغاية. رئيس الوزراء المصري الحالي هذا، ما اسمه؟!

- الدكتور هاني الألفي.

- نعم. هو أكاديمي فيما أظن، وحاصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة ميتشجان هنا.

- نعم.

قال ماكالوم وقد رفع حاجبيه فكأنه مدهوش:

- هذا الرجل، تمتع في عهد ماكفرسون بحظوة لا يستحقها، وبمؤتمر مرئي يُعقد معه مرتين شهريًا على الأقل، كي يتلقى الأوامر والنواهي، هو ومن حوله من المتملقين الأذلاء. وكان مع ذلك يكذب طوال الوقت. وما زال يُعرِب لنا عن غضبه وإحساسه بالإهانة، بعد أن قمت بإلغاء الاتصالات نصف الشهرية به هذه مع البيت الأبيض، وأنطت بالنتاجون شؤون الاتصال به. وإذا به الآن يهاجمنا في الصحف، ويتحدث عن الوصاية الأمريكية، وسقوط ضحايا من المدنيين.

أومأت إيلينا، وقالت:

fb/mashro3pdf

- أمر طبيعي.

- هذا الإنسان، هاني الألفي هذا، لا يصلح، بل من العار أن يكون حليفًا إستراتيجيًا للولايات المتحدة. هذا الإنسان يدير نقابة إجرامية، وترتزق أسرته بالسمسرة وتجارة الأراضي وتهريب المخدرات، ويدير حكومة خربة لحد لا يجدي معه أي إصلاح. هذا الإنسان يرفع صوته الآن، ويدلي بأحاديث صحفية للواشنطن بوست وغيرها، كي يعلن عن رفضه استقبال حشود عسكرية جديدة. يتحدث باستياء عن تكريس الدور الأمريكي الأمني والإداري في مصر، وعن عجز الإدارة الأمريكية عن الوفاء بالتزاماتها في مصر، وعن صراع لا ينبغي أن يُحل بالوسائل العسكرية. هل تصدقين الهراء؟!

تبسمت إيلينا، وقالت:

- نعم، أتابع ما يقول، وأعده من دلائل سخرية القدر.

- لهذا تجدينني أسألك عن صديقك حسام هذا. ما رأيك فيه؟ هل يصلح لأن يتبوأ منصبًا بمثل هذه الأهمية؟ هل يكون حليفًا فعّالًا؟ عِوضًا عن هذا المهرج القابع في القاهرة.

غضّت إيلينا بصرها وما زالت تفكر، ولم يستعجلها ماكالوم؛ لأنه هو نفسه ذو سعة وتمهل. ظل نفس إيلينا متهدجًا، إلى أن قالت بلهجة قاطعة:

- كما تعلم، أنا أنحاز إلى حسام.. لكن لا أستطيع أن أقطع في شأن قدرته على التصدي لإدارة دولة؛ لأنه بلا تجربة. بوجه العموم، أنا لا أظن أن العسكريين البدائيين من أمثال الجنرال، هؤلاء المتخرجين في أنظمة قمعية فاسدة، يصلحون لتولي مسؤولية إدارية تنفيذية.

قال ماكالوم متسائلًا بانتباه:

- ولم؟

أشارت إيلينا بكفها قائلة:

- لأن معايير صنع القرار في هذه الدول، لا تقوم على الكفاءة بطبيعة الحال، والتعليم الأكاديمي العسكري ضعيف المستوى ومندثر، لو جاز لي أن أقول، ويعتمد على ما نقدمه نحن لهم من دعم وتدريب. تبقى لدينا الخبرات المكتسبة خلال العمل، وتلك لا تصلح وحدها لأن تخلق قائدًا قادرًا فعالًا.

fb/mashro3pdf

- نعم.

- يمكنني أن أتبجّح بخبرتي في التعامل مع حكومات الشرق الأوسط، وإجادتي للغة العربية، وبعض لكناتها كذلك. غير أنني لا أجرؤ على أن أقول بإلمامي التام بثقافات العرب، وميزاتهم، وما يمكن أن يفعله الفرد الواحد منهم، في ظل مركزية اتخاذ القرار، والقدرة على ممارسة السلطة المطلقة دون رقابة محلية من أي نوع.. لهذا أفضل أن أترك الباب مواربًا لكل الاحتمالات الأخرى.

- استرسلي في الكلام حول هذه الاحتمالات الأخرى.

قالت إيلينا وقد بدأت تتمشى هي أيضًا على البساط الدائري السميك:

- الجنرال حسام، في ذهني، رجل ذرائعي، واسع الاطلاع، حاضر الذهن، ساطع الذكاء على نحو استثنائي، مقارنة بغيره من عسكريي وسياسيي عالمه. وهو يذكرني بنفسي في أول شبابي، لما كنت متسرعة، استطرادية، محبة للخيال والأوهام، راغبة في التعمق في أشياء كثيرة.

- وكيف تجدين نفسك الآن مقارنة به؟

- أنا الآن هادئة، أميل إلى التركيز والعمل بلا ضجة. حسام داوود رجل نشيط، وهو قادر بلا شك على أن يقضم رؤوس الناس كافة، كي يحقق أهدافه. ليس مبدعًا، ولا عبقريًا فذًا، وليست لديه المبررات الكافية لإحراز النجاح الدراماتيكي المأمول في إدارة الدولة.

ميّل ماكالوم رأسه قليلًا، وقال مضيقًا عينيه:

- لا فائدة تُرجى منه إذن؟

أشارت إليه إيلينا بسبابتها، وقالت على الفور:

- لم أقل هذا. هو طاغية حديدي، متسلط وكفء، ويقدر بلا شك على الموازنة بين أركان ما تبقى من الدولة المصرية، ويستطيع أن يضغط على كل الأطراف اللاعبة في مصر، كي تستقر البلاد. لا أتحدث عن ملكات إدارية تنفيذية، لو تحريت الدقة في التعبير، بل سلوك بدائي قَبَلِي، ليس فيه كثير تفكير أو تخطيط، كمثل هذا الذي تدار به شؤون قطعان البهائم والضواري. لن يجهد نفسه مثلًا في الاشتغال بحسابات الموازنة المعقدة، بل سيختار فريق عمل مخلص وذكي، وسيقتطع من يومه ساعات نوم جيدة، وسيتبع نظام حياة رغد يحافظ على صحته، ثم يمارس عمله بوتيرة متماسكة ثابتة، بذهن

fb/mashro3pdf

صافٍ، ومزاج معتدل.

وجد مكالوم كلامها مستساغًا بل وممتعًا، فأصغى بانتباه إذ تضيف:

- لو تسألني عن أسلوب تعامله معنا، ، سوف أقول إن الرجل، بأسلوبه الحالي، لن يخرج عن النص قط.. قد تُغيّره السلطة.. قد يُبدِله النجاح.. وقد يخرج علينا.. لكن لا يمكنني القطع. عندما يلقي خطاباته على الجماهير، هذا إن اختار منصبًا يتيح له إلقاء الخطب، سيتحرى الإيجاز، وسيجيء بألفاظ جَزِلة، تصيب المغزى دون لف أو تطويل، ومع هذا ستكون مضجِرة لرجل الشارع العادي. ومهما تداعى عليه هموم المنصب، لن يأسف على ما فاته، ولن يندم على تولي المسؤولية الجسيمة، ولن يغتم من أعباء إدارة بلد مُدَمَّر. سوف ينفذ سياسات قاسية، وسوف يرتاب بكل أحد، ولن يتهاون مع أحد، ولن يتوانى في استعمال القوة المفرطة بأبشع صورها.

قال ماكالوم متسائلًا:

- ما هي أسوأ الاحتمالات، لو وافقنا ونجحنا وتبوأ هو المنصب؟

تفكرت إيلينا في الأمر، ثم قالت:

- لقد جلست أمام هذا الرجل لساعات متصلة، وأنصتُّ إليه.. وحدق هو فيّ النظر بعينين شرهتين. ولو استعدت صورته هذه إلى ذهني، ووضعت في اعتباري أسوأ الاحتمالات، لأمكنني القول بأنه ليس مفكرًا استقرائيًا، ولا يستطيع إجراء حوار مع فئات مجتمعية متباينة، ولا يفهم أغلب الظن معنى الخيارات السياسية، ولا يمكنه النظر إلى الصورة الشاملة من بعيد. لن يتمكن من وضع سياق معين لمقارباته السياسية، ولن يدني نفسه من الجماهير بالتدريج. ولا عجب، فقدراته الذكائية التواصلية منعدمة، واستبصاره القانوني بمسائل الحكم صِفري. عملية الرئاسة خاصته، في أسوأ الفروض، قد تكون فوضوية متقلبة، ممتصة للوقت والمجهود، ولن ينجُم عنها أي فائدة تُذكر، وقد تؤدي إلى احتراب أهلي. والاحتراب الأهلي، في حد ذاته، نتيجة جديرة بالاعتبار، في رأيي.

ابتعد ماكالوم بخطو ثقيل عن إيلينا، وتمشى إلى جهة المكتب حتى جاوزه. وقف قبالة نوافذ المكتب البيضاوي الثلاثة، المطلة على الرواق الغربي وحديقة الزهور. بين راية الولايات المتحدة وراية الرئاسة، انتصبت منضدة خشبية أنيقة، تزاحمت على سطحها أُطُر حوَت صورًا فوتوغرافية عائلية. تشاغل ماكالوم بالنظر إلى الصور، وأحس بأشعة

fb/mashro3pdf

شمس الصيف تمس وجهه مسًا خفيفًا، ورآها تلقي بمساحات جميلة من الظل والنور على سطح وحدة المكتب.

نظرت إيلينا إلى ماكالوم ولم تبس. لم تكن قد كونت بعد رأيًا عن الانطباع الذي تركه حديثها في نفسه. حافظ الرئيس على انضباطه المعتاد في كل لحظة، وكان بمنأى عن الحدث فيما يبدو، أو بدا وكأنه يتعالى على اللمسة الإنسانية، الأمر الذي دفع إيلينا لأن تشعر بأنها تكلم ماكينة مكسوّة بالشحم واللحم، ومُهيأة ببرنامج ذكاء اصطناعي محدود الخيارات.

وأخيرًا قال:

- الفكرة تبدو جيدة في رأيي. نعرضها على فريق الأمن القومي اليوم، ونستقر على رأي في هذا الشأن بأسرع وقت.

ثم التفت لينظر إلى إيلينا، وقال:

- حسنًا، أظن أن هذا آخر ما أقول.

جمعت إيلينا أوراقها، وقالت على عجل إنها ستُبلغ فريق الأمن القومي بمحادثتهما، وتطلعهم على حقائق الموقف، تمهيدًا لعقد اجتماع اليوم مساءً، أو غدًا صباحًا على أقصى تقدير، فوافقها الرئيس بهزة من رأسه.

غادرت إيلينا، واجتازت ممر الجناح الغربي الداخلي، وفي طريقها إلى غرفتها أحست بدفق من الطاقة يسري في عروقها ويتشعب إلى أوصالها، فخفت وهفت على نحو ما يحدث دائمًا عندما تُحرز نصرًا، كما انفرجت أساريرها عن ضحكة خفيفة.

*****

fb/mashro3pdf

الثالث عشر من يونيو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

علـم الشـاب بحواسـه أنهـا المـرة الأولى الـتي يدخلونـه فيهـا إلى هـذا المـكان، رغـم تغليـف رأسـه بكيـس قمـاشي ثقيـل الأنسـجة، لا يسـمح بتسـرب الضـوء، بـل لا يـكاد يسـمح بتسـرب الهـواء. لـم تكـن تغطيـة عينيـه معظـم الوقـت شرًا كلهـا، بـل سـاعدته عـلى أن يشـحذ بعـض حواسـه الأخـرى، وبخاصـة الشـم والسـمع. شـعوره الآني بالغربـة نبـع مـن الرائحـة خصوصًـا، وربمـا مـن إحسـاس طفيـف بتغـير في حركـة الهـواء، ممـا جعلـه يجـزم أن المـكان فسـيح، ومـن هنـا جـاء التبايـن بينـه وسـائر الأمـاكـن الأخـرى الـتي يُقتـاد إليهـا للاسـتجواب. لـم تتبـادر الراحـة إلى بالـه ولـو لوهلـة، ولـم تؤثـر فيـه السـعة المسـتجدة ولا حـراك الهـواء، ولـم يكـن قـد تخفـف بعـد مـن آلام الحبـس في حيّزه الضيـق المعتـاد، المنسـدة فيـه منافـذ التهويـة. عوضًـا عـن الشـعور بالراحـة، استوحشـت نفسـه وانقبضـت مزيـدًا مـن الانقبـاض، واسـتولت عليـه كآبـة مضاعفـة، مـع ترقـب نـزول ألـوان جديـدة مـن البـلاء. أحـس بحركـة مؤلمـة في أمعائـه، وبنبـض قـوي بـين أضلعـه، غـير أن أصـول اللعبـة تحتـم عليـه التماسـك، أو عـلى الأقـل، إظهـار التماسـك.

لـم يـزد محبسـه المألـوف عـن كونـه صندوقًـا خشـبيًا صغـيرًا، يحـشره فيـه سـجّانوه كأنـه كومـة مـن قمامـة، تُجمّـع فتلقـى في صفيحـة، بيـد أنـه، في ظلمـة الصنـدوق وضيقـه، يتمتـع بقـدر مـن السـكينة وراحـة البـال، ويأمـن سـوء العـذاب. يتلـو القـرآن ويناجـي ربـه، ويناضـل لاحتمـال آلامـه المفصليـة والعضليـة، ويصـارع أشـباحه وهواجسـه في قـبره الخشـبي المظلـم، الـذي لا يقـل في هولـه عـن سـائر أهـوال قبـور بـني آدم تحـت الـتراب.

أمّـا وقـد أبعـدوه اليـوم عـن صندوقـه، فـلا يعـني هـذا إلا المزيـد مـن الألـم. وإن الألـم يبـدأ فـور أن يسـتخرجه جنـود «المارينـز» مـن الفـراغ الضيـق، كالجنـين يسـتخرج مـن الرحـم بدمـه ونخطـه، فيباغتـه الضـوء ويخطـف بـصره. لا يجـد فرصـة لتبـيّن مـن حولـه؛ لأنهـم يغطـون رأسـه عـلى الفـور بكيـس قمـاشي سـميك، ثـم يطرحونـه أرضًـا، أو يصرعونـه أرضًـا بشـدة وغلظـة، فيرتكـز أحدهـم عـلى عمـوده الفقـري بركبتـه وكامـل ثقلـه، حـتى تـكاد فقراتـه القطَنيـة أن تتفـكك، وعضـلات عمـوده الفقـري أن تنفلـق، فيمـا يقـوم جنـود آخـرون بتكبيـل رسـغيه وكاحليـه بأغـلال حديديـة مؤلمـة، تصـل بينهـا سلاسـل قصـيرة تمنعـه مـن الحركـة.

fb/mashro3pdf

تجري الأمور بعد ذلك على نهج متكرر، فيُعلّق ويُضرَب ويُعذب بشتى الأساليب لساعات متصلة، حتى ينهكه الألم ويقع أسير المشقة البالغة.

الوضع مختلف في هذه المرة. لقد حملوه حملًا عبر ممرات تختلف فيها حركة الهواء عما اعتاده، حتى أدخلوه إلى هذه الغرفة ذات الرائحة المختلفة والخبيثة.. إنه يشم رائحة منتنة، ليست فوّاحة ولا نفّاذة، بل بالكاد محسوسة، كأنها رائحة لحم أو دم لم يمضِ على عفونته وقت طويل. ثم تناهى إلى سمعه وقع خطوات واثقة، تصدر عن حذاء مطاطي.. شعر لأول مرة بالألفة، وتراءت له هوية الزائر بفضل إصغائه إلى خشخشة الخطوات.. إنه المحقق، «صديقي كارتر».

لم يكن يعلم اسمه الحقيقي، ولن يعلمه قط، غير أن «الصديق كارتر» هو الشخص الوحيد الذي يرى وجهه ويعرفه، بل ويشعر نحوه بنوع من الألفة، رغم أنه هو نفسه سجّانه وجلاده. ولهذه الألفة بالذات، جعل له اسمًا ولقبًا بديلين، هما «صديقي كارتر»، تيمُّنًا بأنور السادات وصديقه جيمي كارتر.

عندما رفع الكيس عن وجهه، واعتادت عيناه الإضاءة الوحيدة الصادرة من مصباح ضعيف معلق فوق رأسه، رأى «صديقه كارتر»، ومعه الصحبة المعتادة، المؤلفة من أربعة رجال أشداء، ستروا وجوههم بأقنعة سوداء. هذه الكتل البشرية من العضل والقوة الخالصة، هي المسؤولة عن تعليقه وتهيئته لجلسات «الاستجواب المُحسَّنة»، وعن السيطرة عليه وإشباعه ضربًا عندما يستدعي الأمر، وكثيرًا ما يستدعي. نظر الشاب إلى المحقق الأمريكي جميل الطلعة، ذي اللحية الشقراء المغبرة، والقوام الطويل قليل اللحم. كان أنيقًا، وإن لم تخلُ هيئته من شيء من الإهمال أو التبسط، لكنه مع هذا التبسُّط، لم يتغافل عن الملائمة بين ألوان لباسه. ارتدى قميصًا فوقيًا محلول الأزرار، أسود اللون، توافق مع سرواله الجينز الكحلي، وفانلة تحتية حمراء، توافقت مع حذائه المطاطي الأحمر.

تعلقت عينا الشاب بالكيس الورقي الذي يحمله «الصديق كارتر». تلطخ باطن الكيس ببعض بقع زيت الطعام، فيما احتل مساحة الصدر منه شعار سلسلة مطاعم الوجبات السريعة «برجر كينج». لم تكن نفحات «صديقه كارتر» الغذائية بالأمر الغريب؛ ذلك أن تقديم الطعام كان ولم يزل من أساليب الضغط النفسي، سواء من ناحية الإغراء

fb/mashro3pdf

بالمكافـأة، أو التهديـد بالحرمـان، أو بمحـاولات الإطعـام القسريـة بإيـلاج قمـع في فمـه، وسـكب الطعـام السـائل مـع كبـس منخريـه. تحولـت أوقـات التغذيـة إلى عـذاب مسـتمر، يحفـظ حياتـه ليطيـل معاناتـه. لكـن حـتى في أوقـات اللـين، لـم تكـن نفحـات الجلاديـن بهـذا الكـرم مـن قبـل، فلـم تـزد عـن بعـض الفواكـه المجففـة، أو الأرز المغـلي، أو الطحينـة مـع الخبـز الشـامي، فيمـا عـدا بعـض الاسـتثناءات، الـتي تصـب بـلا شـك في صالـح الاسـتجواب. لكـن وجبـة كهـذه، في كيـس كهـذا، تفضـح ثنايـاه مـا أسـفله مـن اللحـوم والمقليـات.. لـم يـر الشـاب مثـل هـذا المنظـر بـأم عينيـه منـذ وقـع الاحتـلال، وتلـك سـنوات طـوال.

وضـع «كارتـر» الكيـس المنتفـخ عـلى المنضـدة أمـام الشـاب المُكبّـل، وأومـأ إلى أحـد الرجـال كي يحـل الأغـلال. جلسـة الشـاب هـذه المـرة كانـت اسـتثنائية أيضًـا؛ لأنـه معتـاد عـلى إدلائـه مـن السـقف بواسـطة السلاسـل، أو تكبيلـه في واحـدة مـن أوضـاع الإخضـاع غـير المحتملـة، حـين يضغـط وزنـه بالكامـل عـلى عضلـة أو عضلتـين، في بيئـة مظلمـة كئيبـة، وضجيـج متواصـل مـن موسـيقى «بـلاك ميتـال». أمـا الآن، فقـد أجلسـوه معـززًا مكرمًـا عـلى مقعـد معـدني، واكتفـوا بشـد وثـاق معصميـه مـن الخلـف معًـا، وربـط سـاقيه في قائمتـين مـن قوائـم المقعـد. ثـم إنهـم يحلـون أغلالـه الآن! لعلـه خـير!

جلس «كارتر» على الكرسي المقابل للشاب، وأشار إلى كيس الطعام قائلًا:

- يمكنك أن تأكل يا صاحبي.

نطقهـا بالأمريكيـة المميـزة لأهـل بوسـطن، المشـوبة بلكنـة أيرلنديـة لطيفـة، ازدادت لطفًـا بفضـل ملامحـه الـودودة، وعينيـه الزرقاويـن الباسـمتين. نظـر إليـه الشـاب بريبـة، وإن لـم تبـدُ عليـه الريبـة، بـل لـم يبـدُ عليـه أي تعبـير؛ لأن تقاطيـع وجهـه غابـت وسـط الإصابـات الرضّيّـة الجسـيمة في الـرأس، والكدمـات المتفحمـة أسـفل العينـين وحـول الشـفتين، والانتفاخـات الدمويـة والتهتـك في الجلـد عـلى الوجنتـين. اتخـذ رأس الشـاب عمومًـا شـكلًا منتفخًـا غريبًـا، كأنـه حـشر قـسرًا في قالـب بيضـاوي صُـبّ مـن فـولاذ.

تساءل الشاب بصوت خافت حَذِر، كأنه صادر من أسفل وسادة:

- ما هذا؟

اعتـدل «كارتـر» عـلى كرسـيه، وفسـخ الكيـس كاشـفًا عـن محتوياتـه، ولـم يكـن في حاجـة لمزيـد مـن بيـان. تعلقـت عينـا الشـاب، بـل تعلـق وجدانـه كلـه بالطعـام المتراكـم أمامـه،

fb/mashro3pdf

وعجـز لسـانه عـن النطـق. اسـتوت أمامـه الوجبـة بهيـة ثريـة، كقطعـة نحـت إغريقيـة، توافـرت فيهـا مقومـات الغوايـة والتكامـل، وجمـال الخامـة ودقـة الصنعـة. شـطيرة «دَبـل وابـر سـبايسي»، تضـم قطعـتي برجـر مشـويتين، بـين شريحـتي خـبز طريتـين، مـع شرائـح مـن الجبـن والطماطـم والبصـل المقـلي المقرمـش، ودهـان الصلصـة الحـارة والمايونـيز.

- هل هناك أي منتجات خنزير في أي من هذا؟

طـرح الشـاب سـؤاله بأمريكيـة ضليعـة، ولهجـة نيويوركيـة ممزوجـة بلكنـة عربيـة خفيفـة. لهـذا السـبب أُعجـب بـه «كارتـر».. للغتـه الإنجليزيـة الأمريكيـة الطليقـة، ثـم لثقتـه بنفسـه وعنـاده واسـتهانته بمحققيـه، وإمعانـه في التشـدد كلمـا أمعنـوا في التعذيـب. كانـت مسـاءلته تحديًـا، والحـوار معـه لعبـة عقليـة، وإيـذاؤه بدنيًـا متعـة لا مزيـد عليهـا. ولأن «كارتـر» يؤمـن بـأن كـسر الإرادة هـو الغايـة العليـا لأي محقـق، وجـد نفسـه في مبـاراة عويصـة كلمـا سـعى واحتـال لاسـتخلاص أي معلومـة ذات أهميـة مـن الشـاب، وأحـس بغصـة وألـم مضـنٍ كلمـا آلـت جهـوده إلى الفشـل.

خـبرة «كارتـر» في العمـل الاسـتخباراتي طويلـة، بـدأت منـذ التحـق بوكالـة الاسـتخبارات المركزيـة الأمريكيـة، قبـل نحـو خمسـة عـشر عامًـا، ومشـواره المهـني مُشرِّف، اسـتطاع خلالـه أن يكـسر إرادة أي معتقـل يُنـاط بـه اسـتجوابه. مـن هنـا دأب عـلى التبجـح بالقـول إن جميـع ضحايـاه كانـوا بهائـم عجمـاء، مـن حيـث إبدائهـم بـلادة وجهـلًا وقلـة فطنـة، وانقيادهـم الأعمـى لقيـادات ظلاميـة ناعقـة. هـؤلاء تنكـسر ثوابتهـم وتضعضـع عقائدهـم فـور أن يبـدأ الضغـط النفـسي والبـدني، أو أن هـذا مـا ظنـه، حـتى التقـى الشـاب، الـذي جمـع بـين القـدرة عـلى المراوغـة بـذكاء فطـري لمّـاع، والصلابـة في التمسـك بالعقيـدة، والاسـتعداد للتضحيـة النفسـية والبدنيـة في سـبيل مـا يؤمـن بـه. وتلـك متلازمـة -في تقديـره- ينـدر أن توجـد.

كانـت لـ«كارتـر» عـدة افتتاحيـات محفوظـة، يسـتهل بهـا حديثـه مـع المعتقلـين لإرهابهـم نفسـيًا، وقـد بـدأ تعارفـه عـلى الشـاب بـأن قـال ببـطء وتركـيز:

- سـأكون صريحًـا معـك يـا ياهيـا. لا حقـوق لـك هنـا. تلـك هـي المـرة الأخـيرة الـتي تسـمع فيهـا اسـمك؛ أنـت هنـا مجـرد رقـم؛ إن ذكـرت اسـمك، إن تفوهـت بحـرف منـه، سـوف نؤذيـك. ليسـت هنـاك حـدود تحكمنـا في التعامـل معـك. أنـت إرهـابي مقاتـل، ولنـا الحـق مـن ثـم في أن نفعـل بـك مـا يحلـو لنـا. لا حـق لـك في السـكن في زنزانـة متوافقـة مـع أدنى متطلبـات

fb/mashro3pdf

حقوق الإنسان. لا حق لك في الحصول على طعام أو شراب ملائم. لا حق لك في الاتصال بالعالم الخارجي. سوف نمنعك الطعام والماء والنوم. سوف نُذِلّك وننتهكك، لفظيًا وبدنيًا. سنطلق عليك الكلاب المتوحشة، ونغمرك بالماء الساخن، ونبول عليك متى شئنا.. أنت يا صاحبي، سقطت في حفرة مظلمة، ستعيش فيها إلى أن تموت. ما يمكنك الحصول عليه في هذه الحفرة، مرهون بتعاونك معي، ورضائي عن أدائك المعلوماتي.. أنت ملكي من الآن فصاعدًا.

ولم ينس «كارتر» رد الشاب يومئذ. رفع عينيه الخضراوين بتحدٍ، وتفرّس في ملامحه، ثم قال كلمات انطوت على حقد وعداوة:

- أصغ إليّ جيدًا.. لست الأول الذي أراه من جنسك، ولن تكون الأخير. خطابك الصغير لم يُثِر في نفسي أي خوف؛ أنت جاهل، لا يمكنك حتى أن تنطق اسمي بطريقة صحيحة، إنه يحي، يحيى، ليس ياهيا. أنت لا تتميز عن بقية بني جنسك في شيء. أنتم لا ترون الدنيا إلا بأعينكم أنتم، ولا تسمعونها إلا بآذانكم أنتم. لا بأس.. أنا هنا من أجل أن أعلمك، يا رجل السي آي إيه المخيف، سأعلمك كيف تنطق الكلمات بطريقة صحيحة، كما علمت أسلافك من رجال السي آي إيه المخيفين، سأعلمك أن كلمة «موزليم» هي «مسلم»، وأن «شيك» هي «شيخ»، وأن «جيهاد» هو «الجهاد»، إلى آخر ذلك من عبارات مبتذلة.. مرحبًا بك معي في الحفرة.

ومنذ ذلك الحين وهما بين شد وجذب. تعددت أساليب الضغط، بين الترهيب اللفظي والإيذاء البدني والإغراق في الماء والحرمان من النوم. لم يلن الشاب أو ينثنِ، بل كان يواجه الضغوط المتنوعة بمضاء وشدة عزم، وينظر إلى محققه باحتقار، ويقول:

- يمكنك أن تسب كما تريد.. فك قيدي، وسب أمي.. فك قيدي، وتعال لأريك، كيف تتحمل تبعات ما يصدر عن لسانك من وسخ.

ركز «كارتر» ذهنه، وجمع خبراته واستدعى مهاراته، وبذل غاية وسعه من أجل أن يوقظ مخاوف الشاب، وأن يخرم مقاومته، وأن يسقط روحه العالية، لكنه لم يستطع رغم ذلك أن يضع يده على نقاط ضعفه. كان الشاب يستجيب بعبارات تنطوي على تحدٍ سافر ومحيط، حتى في أشد حالاته ضعفًا. كان يقول: «سأجيب على السؤال التالي ما أن أنتهي من عبارتي هذه»، ويقول: «لن أغادر هذه النقطة حتى أوفّيها حقها»، ويقول:

fb/mashro3pdf

«أنت وشأنك، لكني لن أتحدث إليك ما دمت تسب أهلي»، ويقول: «أنا فعلًا أريد أن أساعدك، لكنك لا تريد أن تساعد نفسك». اتّسمت استجاباته بالتشدد والصرامة أحيانًا، والطمأنينة والفتور أحايين أخرى، إلى أن يفقد «كارتر» أعصابه، ويبدأ في الصراخ التهديدي والزجر العنيف، اللذين يتحولان دومًا إلى الإيذاء البدني. لا بد أن يعترف «كارتر» لنفسه أنه لم يستطع كسر إرادة الشاب، ولم ينجح في استخلاص أي حقائق مفيدة منه، حتى كاد يجزم أنه لا يعلم شيئًا عن المعلومة التي اعتُقل لأجلها تحديدًا.

- هل هناك أي منتجات خنزير في هذا الطعام؟

كرر الشاب سؤاله بتصميم، لما لم يتلقَّ إجابة في المرة الأولى، سوى ابتسامة متشفية من «صديقه كارتر». لم تكن تلك لعبة مبتدعة، أن يمدوا أمامه ما لذ من الطعام، فإن أكل صارحوه بأن هذه البطاطا قليت بدهن الخنزير، أو أن شريحة اللحم تلك طهيت في النبيذ، حتى أضحت نفحات الطعام النادرة فِخاخًا وألغامًا من الحرام البيّن، عليه أن يتحرّى فيها الحذر، أو أن يرفضها جملة. والرفض في موقفه هذا ليس سهلًا؛ لأن البدائل ليست دائمًا مستساغة، وتأتي سائلة عن طريق قُمع.

لذا تساءل «كارتر» براحة بال:

- هل يهمك حقًّا أن تعرف؟

ثبت الشاب عينيه في تقاطيع وجه خصمه، ثم قال بحسم:

- لا، ليس لهذه الدرجة؛ لا يهمني طعامكم، ولا أريده.

قال «كارتر» ضاحكًا:

- لا، ليس فيه خنزير أو أي شيء مما يناقض شريعتك.

ركز الشاب النظر إليه بارتياب، فقال «كارتر» يطمئنه بصراحة:

- أعطيك عهدًا وموثقًا.. ليس ثمة شيء في الطعام يمنعك دينك من أكله. أقسم لك.

علم الشاب أن خصمه صادق، ربما من طول مخالطته، أو من نغمة صوته، أو من رغبة مخفية في نفسه في أن يكون الطعام بريئًا من الحرام. قبل تلك العطية السماوية من الله شاكرًا؛ لأن التنطع ليس من خصاله، وبسمل. مد يديه ببطء كي يحتوي الشطيرة بين أصابعه، وطفق يأكل. لم يبد عليه الاستمتاع ولا التهافت، بل أكل في أناة كأنه شبعان. وليس مردّ ذلك إلى تمنّع من قِبَله أو عِزة نفس، بل إلى بطء أصاب حركته .دلى

fb/mashro3pdf

العموم، بسبب الآلام العضلية والمفصلية الدائمة، الناجمة عن الضرب والإدلاء. بيد أنه تغذى بعزيمة وتركيز، وتناول من المياه الغازية جرعات كبيرة. تعلّم ألا يأكل ببطء؛ لأن الوجبة قد تُرفع من أمامه فجأة، دون أن يأخذ منها كفايته.

راقبه «كارتر» بصبر، ولم يتحدث إليه أو يقطع عليه طعامه، حتى امتلأ الشاب، ولم يستطِع ازدراد المزيد. تباطأ تنفسه، وسال عرقه، وبدت عليه المعاناة في كل قضمة، فاضطر إلى وضع اللقمة، وزفر حامدًا الله. استطاع أن يأكل أقل من ثلث الوجبة فحسب؛ لأن معدته انكمشت مع طول الحرمان.

مد «كارتر» يديه، وأخذ ما تبقى من الشطيرة. أكل منها دون تقزز، وسمع الشاب يسأله بفتور:

- ما السر وراء هذه الوجبة يا ترى؟

- اعتبِرها هدية وداع.

- هل ستطلقون سراحي أخيرًا؟

قهقه «كارتر» مغالبًا مضغة الخبز واللحم في فمه، وقال مستهزئًا:

- لا تبالغ في التفاؤل يا صاحبي. أنت لن تخرج من هنا على الأرجح. أنت تواجه تُهمًا تمس الأمن القومي، ومتورط في التخطيط لعمليات إرهابية ضد مصالح أمريكية، والمشاركة في قتل مواطنين أمريكيين.

لم ينبس الشاب، إنما أحس بحبل من قنوط ينعقد حول عنقه. زفر «كارتر»، وقال بأسف:

- أسميها هدية وداع، لأني سأتركك لمحقق غيري. أظن أني أنهيت مهمتي معك.

- وفشلْت؟

- كونك تظن أني فشلت، يدل على أنك تعلم شيئًا ما وتُصِرّ على إخفائه. لا بد أن أعترف أنك متين وذكي، أنا أحترمك لهذا، ولهذا أهديتك هذه الوجبة، علامة على تقديري وتعاطفًا معك أيضًا؛ لأن القادم أسوأ فيما أظن. لا تنسَ يا ياهيا أننا نتصرف في إطار القانون، ولو أسأنا معاملتك، حتى عندما نضغط عليك بدنيًا أو نفسيًّا، يكون هذا في حدود قانون استثنائي، قد نضطر إلى مخالفته في بعض الأحيان، لكننا ندور في فلكه على الإجمال. لهذا أنت هنا، بكامل أطرافك وقواك العقلية. شيء لا تستطيع أن تدعيه

fb/mashro3pdf

لمعتقلاتكم وسجونكم. نحن أولًا وأخيرًا، أمة متمدينة.

أحس الشاب بشيء من الوحشة، وبكثير من الكرب، فتساءل في نفسه مستغربًا: لم تغتم؟ ألأن هذا الجلاد يهجرك؟ هل تناسيت ما فعله بك، وما كان ليفعله بك لو بقي؟ إنك لم ترَ منه إلا كل بلاء وسوء. ألا لعنة الله على الخوف من المجهول! ما يدريك كيف يكون المحقق التالي؟ لعله أشد غلظة وأكثر شرًا. بل هو حتمًا أشد غلظة وأكثر شرًا. إن الحياة الدنيا ليست إلا أيام متتالية، كل قادم منها أشرّ مما سبق. يا رب.. متى تفرج الهم، وترفع هذا البلاء المستديم؟!

غشي الشاب تأثر شديد، وملأت الدموع عينيه، فحاول جاهدًا أن يحبسها، بل ود لو تمتصها مقلتاه فتدفعها إلى جوف دماغه، لئلا تنساب وتفضح ضعفه أمام هذا الكافر ابن الكافر.

وبأي حال، لم يبالِ «كارتر»، بل نهض ولملم بقايا الطعام في الكيس كأن مهمته انتهت فعلًا، وأشار إلى أحد الرجال كي يشد وثاق أسيره. تابعت عينا الشاب «صديقه كارتر» وهو يمضي في طريقه إلى الخارج، ثم سأله بتثاقل وتردد، بصوت منخفض، كأنه يتمنى ألا يسمعه:

- هل ستخبرني باسمك الحقيقي على الأقل؟

توقف «كارتر»، والتفت مدهوشًا، ثم قال بهزء لاذع:

- لفتة طيبة يا صاحبي، لكن دعنا لا نأخذ علاقتنا للمستوى التالي؛ لأنها انتهت. ثم أنني أحببت دائمًا هذا الاسم: «صديقي كارتر»، وأحب أن تذكرني به.

ثم تابع مشيه في اتجاه الخروج على مهل، بخطوات خفيفة، مطمئنة. سمعه الشاب يقول بصوت عديم العاطفة، إذ تخفيه العتمة قليلًا قليلًا:

- لقد فعلت ما بوسعي لأجلك. أنت وحدك الآن. حظ سعيد.

*****

طالت الجلسة بالشاب وهو مُكبّل في مقعده. زالت نكهة الطعام الطيبة من فمه وأنفه، لتحل محلها رائحة منتنة خفيفة. وكلما يمر به المزيد من الوقت، يستفحل قلقه.

fb/mashro3pdf

وتستأسد عليه هواجسه وأوجاعه. حاول تهدئة نفسه بتلاوة القرآن، وسبّح لله في سره، وجعل يردد دعاء يونس ابن متّى عليه السلام في بطن الحوت، أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. ذكّر نفسه على سبيل السلوى بأن غيره قد نزل به من ألوان البلاء ما هو أعظم، فدفعها الله عنه برحمته وكرمه. نعم، هدّأت هذه التسالي من روعه إلى حد ما، لوقت ما، ثم ما لبث أن تشعّب الخوف مما هو قادم في أحشائه، ودفع قلبه للانقباض والانبساط في ضربات مضطربة موجعة.

ثم سمع وقع خطوات مختلفة عما عهده من قبل. خطوات قوية، واثقة، ذات إيقاع مزعج، صادرة عن حذاء سميك الكعب. أرهف الشاب سمعه لخشخشة الحذاء على الأرضية، وأحس من الوهلة الأولى بالطابع الرشيق المسيطر للخطوات، البطيء الرزين في الوقت ذاته، فكأن صاحبها قائد من القادة، أدرك الشيخوخة في قوة ومنعة. اختلطت ضجة الخطو هذه بضوضاء من أحذية أخرى، فصدحت قعقعة جماعية في المكان، اقتربت رويدًا رويدًا من مجلس الشاب.

ظهر من بين طبقات العتمة رجل، اكتملت فيه أوصاف الكمال الشكلي، من حيث تنعُّمه بصحة كاملة، وبسطة تامة انتفع بها جسمه طولًا وعرضًا. اجتاز الخمسين من العمر في فتوة وبأس على ما يبدو، كما اجتاز الغرفة مختالًا في مشيته، كأنه فخم مفخم، منيع قادر، لا يعجزه في الأرض شيء. فور أن وقع نظر الشاب عليه، وقعت في قلبه الرهبة.

ولما جذب الرجل المقعد المقابل لمقعد الشاب جذبةً متمكّنٍ وجلس، بانت ملامحه وملبسه على وجه الكفاية، إذ يدخل دائرة الضوء مباشرة. إن في رأسه ضخامة، وفي صلعته لمعان أخّاذ، وفي ملامحه استبداد وقسوة، دون استرخاء أو تهدُّل. لعل ارتداء البدل الفاخرة من ضرورات السلطة، بل وآدابها، بيد أن هذا الرجل أخلص لفكرة التأنق إخلاص الذئب لقطيعه. ارتدى طقمًا كحلي اللون، نُسج من صوف باشمينا الفاخر، وشُدَّ بإحكام على بدنه. فُصِّل الطقم حسب الطلب من «بريوني»، بصديري وقميص حريري ناصع البياض، انعقدت على ياقته ربطة عنق حريرية مقلمة. كل عنصر في ملبسه ضُبط ضبطًا قياسيًا دقيقًا، ياقتا القميص والبدلة، وطول الأكمام، ولمعان الأزرار، وطيّة منديل الجيب، وربطة العنق المعقودة على طريقة «ويندسور» الرصينة.

fb/mashro3pdf

فـور اسـتوائه جالسًـا، دخـل دائـرة الضـوء رجـلان متأنقـان، وقفـا خلفه عـلى أهبة الاسـتعداد. حمـل أحدهمـا حقيبـة أوراق جلديـة، وحمـل الآخـر كيسًـا أسـود اللـون مـن البلاسـتيك. ولقـد عرفهمـا الشـاب بسـيماهما. قـد تختلـف المسـميات، لكـن يظـل الجوهـر واحـد: أمـن دولـة، أمـن وطـني، مخابـرات، كلهـم واحـد.. شـخصيات سـايكوباتية مؤلفـة مـن عنصريـن متلازمـين: حـب السـيطرة والعدوانيـة.. مـن النظـرة.. مـن الوقفـة.. مـن الملبـس.. يسـتطيع المـرء أن يتعـرف عليهـم بأقـل قـدر مـن الفراسـة.

وكمـا تشـم الفرائـس رائحـة الضـواري مـن بعيـد، استشـعر الشـاب مأزقـه مـن واقـع خبرتـه السـابقة مـع أمثـال هـؤلاء. إنـه يـكاد أن يشـم نـتن روح هـذا المتأنـق العجـوز الجالـس أمامـه. يـكاد أن يـرى عـلى سـحنته عـكارة تـآكل الأخـلاق، وفي عينيـه غشـاوة ضمـور الضمـير، وفي انطبـاق شـفتيه دلائـل انعـدام الرحمـة.

ثم تحركت هاتان الشفتان. وسمعه الشاب يقول بلهجة مصرية صميمة:

- السلام عليكم يا شيخ يحيي.

تفـرّس الشـاب في وجـه الرجـل، وظـن أنـه رآه مـن قبـل، أو أنـه يعرفـه مـن مـكان مـا. رد السـلام ببـطء وحـذر:

- وعليك السلام.

- اسـمي حسـام داوود، مـن جهـاز مباحـث أمـن الدولـة. أنـا هكـون المسـؤول عنـك مـن اللحظـة دي.

قالهـا بصـوت جهـوري لا مشـاعر فيـه، وبنـبرة مهنيـة محضـة لا وعيـد فيهـا، رغـم مـا تحملـه العبـارة مـن معـانٍ فادحـة الأثـر، أدركهـا الشـاب فـورًا. فهـم فجـأة لِمَ ودّعـه «صديقـه كارتـر»، وفهـم سر وجبـة «برجـر كينـج» الأخـيرة، وفهـم سر الحديـث عـن القانـون الـذي يتحـرك في فلكـه المحققـون الأمريـكان، مقابـل فـوضى التعذيـب الـتي قـد تمارسـها السـلطة المحليـة بـلا رادع، وفهـم أنـه عـلى وشـك الدخـول في مرحلـة جديـدة، قـد تكـون الأخـيرة مـن حياتـه. زُلـزِل مـن داخلـه زلـزالًا شـديدًا، لكنـه حـاول إظهـار الجَلَـد، فاكتفـى ببلـع ريقـه بعـسر. لقـد سَـلَّمه الأمريكيـون للمصريـين. تخلـوا عنـه الكفـرة أولاد الكفـرة. الآن وقـع في قبضـة مـن لـن يرحـم. إنـا للـه وإنـا إليـه راجعـون.

ثـم إنـه أمعـن التفكـير في اسـم الرجـل. أثـار انتباهـه، قبـل أن يثـير ذعـره في اللحظـة التاليـة

fb/mashro3pdf

مباشرة. قال إن اسمه حسام داوود! أحس بجفاف في حلقه، وتشنّج لا إرادي في جفن عينه اليمنى. اللواء حسام الدين داوود! «الثعبان الأقرع»! لكنهم أخبروه... كيف عاد؟!

لم يسمح الشاب لأفكاره أن تنفرد به، بل طرحها على لسانه نَدِيَّة طرية إذ يتساءل كالمذهول:

- بس إنت المفروض... أنا كنت سمعت...

حك الرجل سبابته في شاربه الأشيب الرفيع، وقال بقليل من السأم:

- أنا سمعت نفس القصص زي زيك. فيه اللي قالوا أزمة قلبية في «كليفلاند كلينيك»، وفيه اللي قالوا انفجار في ابن الشاطر.

ووجّه نظرة شديدة إلى الشاب، قائلًا كسيد ضبط عبده متلبسًا بخطيئة:

- تفجير ابن الشاطر كان ضربة دقيقة، استهدفت كل الكوادر الأمنية المهمة في البلد. اللواء صفوت النقيب، اللواء خالد الدسوقي، العميد وليد نور، وغيرهم. المعلومات أكدت أن خلية أبو زكريا كانت وراء الحادث.. أيام ما كانت لسه خلية.

ثم نقر بأصابعه على المنضدة، وهو يردف قائلًا بتؤدة:

- أنا أعرف إنك كنت عنصر أساسي في العملية دي.

لاحظ الشاب لأول مرة أن الرجل ارتدى قفازين سوداوين من الجلد. وككل شأنه وملبسه، لم يكن قفازيه من جلد عادي، بل من جلد الأيل الفاخر، المحدد بخيوط من صوف الكشمير. نعم، أضفى القفازان على مظهره شيئًا من العظمة والتجبّر، لكنهما أبعداه كذلك عن ما هو مألوف في البيئة المصرية.. ثم لاحظ الشاب كذلك، بفراسته الفطرية، أن الرجل يحرك يدًا واحدة فقط، بينما رقدت الأخرى بثبات على المنضدة، دون حركة عرَضية واحدة منذ جلس.

ولأن الفراسة وقوة الملاحظة من صميم عمل اللواء، فقد رمى الشاب بنظرة ذات معنى، وقال مفسرًا:

- معلوماتكم كانت دقيقة. أنا كنت فعلًا موجود في اجتماع مقر أمن الدولة في شارع ابن الشاطر. التفجير تم أسفل المقر بواسطة سيارة ملغمة. ده كان التفجير رقم خمسمية وسبعين منذ دخول الأمريكان، باستخدام سيارات ملغمة. نصف هذه التفجيرات على الأقل مسؤول عنها تنظيم أبو زكريا، وده كان التفجير الأكبر، غالبًا لأن الهدف هو الأكبر.

fb/mashro3pdf

التفجير تم بعربية نقل طراز شيفروليه الجامبو، بحمولة متفجرات وزنها فوق الأربعة طن من السماد الآزوتي وزيت الوقود. الانفجار قتل فوق التلتميت بني آدم، وجرح فوق الألف بني آدم.

وولى للفراغ نظرة عابسة، ثم قال بقلة اهتمام:

- الاجتماع حضره ستة وعشرين ظابط، أنا كنت واحد منهم، فيهم تسع لواءات، وأربع عمداء، ورتب أخرى. مات منهم خمسة.

وارتسمت على شفتيه الرفيعتين ابتسامة ساخرة وهو ينطق الرقم «خمسة»، ثم رفع الطرف الاستعاضي الأيسر الجامد بيده اليمنى قائلًا:

- أنا فقدت الساعد الشمال كله، غير بعض الحروق مختلفة الدرجات. مش ده المهم. أنا رجل عسكري منضبط، ومستعد دائمًا للتضحية في سبيل قضيتي. خسارة ذراع أو قدم مش قضية كبيرة بالنسبة لي.

ومال مشيرًا للشاب بسبابة من يده السليمة، قائلًا:

- المهم فيكم أنتم يا رجال الدين. هل المصلحة الحاصلة من تفجير زي ده، وغيره من التفجيرات، مقدمة على الضرر الجانبي؟! إراقة الدم الحرام، وتخريب الأموال والممتلكات، والإفساد في الأرض.

بلع الشاب ريقه، وقال:

- أنا لا علاقة لي بالموضوع ده.

- مفهوم طبعًا.

قالها اللواء بفتور، فبدا للشاب تحت تأثير توتره وضيقه أن يبين استعداده لتوضيح الأمور على نحو أكثر دقة، فقال متصنعًا الثبات:

- أنا سمعت بالتفجير زي أي حد. وسمعت شائعة مقتلك، باعتبارك أكبر رأس في المجموعة المستهدفة، والمكروه عمومًا من كل المصريين. بعدها سمعت خبر وفاتك الرسمي بأزمة قلبية، في «كليفلند كلينيك». غير كده أنا لا علاقة لي بهذا التفجير أو أي تفجير آخر. أنا متعاطف مع المقاومة الإسلامية كأي مصري، لكن ده لا يعني انضمامي لـ..

أصغى اللواء إليه بانتباه، ورفع في نهاية القول سبابته. ظن الشاب أنه إنما رفع سبابته لإسكاته، فسكت فجأة، ورغمًا عنه. لم يدرِ لمَ سكت، لكنه حنق على نفسه

fb/mashro3pdf

أشد الحنق؛ لأن إشارة واحدة أسكتته، وأدرك أن هذا الرجل يكاد يغلبه، بل يسحقه بالنظرة والإشارة. إنها المهابة. ألا لعنة الله على تلك المهابة! لكن أحد الرجلين بالخلف فهم الإشارة، ووضع بين سبابة اللواء ووسطاه سيجارًا فاخرًا من ماركة «مونت كريستو»، وانشغل بإشعالها لسيده في عدة ومضات من القداحة، وعدة أنفاس خبيرة من السيد، إلى أن تصاعدت غمامة كثيفة من الدخان خانق الرائحة. وأثناء ذلك أومأ اللواء إلى الشاب كدلالة على أن لا يبالي بالمقاطعة، وأن يُتِم حديثه بشكل طبيعي، لكن المسالك كلها كانت قد اندست أمام الشاب لغير رجعة. انعقد لسانه في حلقه، ولم يدرِ ما يتعين عليه أن يقول.

ولقد أحس اللواء بمعاناة الأسير، خصوصًا مع السُمْعة السيئة التي تسبقه أينما حل. لذا وجب عليه توضيح الموقف، للوصول إلى نتيجة إيجابية في أسرع وقت، فقال بوضوح:

- عمومًا مش دي القضية. أنا هنا بخصوص جميع الأنشطة التخريبية لجماعة أبو زكريا. الحكومتين، الأمريكية والمصرية، وضعت على جدول أولوياتها تحييد تنظيم أبو زكريا، المسمى بالجبهة الإسلامية. وبناءً عليه قامت بحملة اعتقالات واسعة لكل من يشتبه في علاقته بالتنظيم، اعتمادًا على معلومات استخباراتية موثوق فيها، من مصادر مختلفة. وأنت يا شيخ يحيى جئت على رأس هذه القائمة، بقرائن قوية تفيد علاقتك المباشرة بالشيخ، ودورك التنظيمي في أعمال جماعته الإرهابية. فاهم كلامي كويس؟

أومأ الشاب برأسه إيجابًا، فنفخ اللواء في السيجار نفختين، وتابع:

- السبب في وجودي شخصيًا في هذا المكان، هو استجوابك. المحققين الأمريكان حاولوا معاك ومع زملائك لمدد طويلة، واستخدموا أساليب ضغط بدنية ونفسية قاسية، بالنسبة لمقاييسهم. لكن إنت واتنين من الإخوة زملائك أظهرتم صلابة، وقدرتم تحافظوا على موضع متقدم. أنا تم استدعائي خصيصًا عشان أبتّ برأيي في شأنكم، لتحديد ما إن كنتم صادقين فعلًا في إنكاركم معرفة أي معلومة عن الشيخ، ولا في حقائق تصرون على إخفائها؟ أنا قرأت ملفك إنت بالذات، وقررت إني أحسم موضوعك بنفسي، لعدة أسباب، بعضها لأجل الصالح العام، وبعضها الآخر أسباب شخصية.

وأشار إلى الطرف الاستعاضي مكان ساعده ويده المقطوعين، وقال:

- زي ما أنت أكيد فاهم.. باختصار، أنا دوري ينحصر في تغيير أسلوب التحقيق،

fb/mashro3pdf

ومحاولـة اسـتخلاص أي معلومـة مفيـدة منـك، كخطـوة أخـيرة لتحديـد موقفـك.

أحـس الشـاب بضغـط جسـيم يتراكـم عـلى كيانـه، وتتابعـت في ذهنـه معلومـات ومشـاهد مما عَلِمَـه وسـمعه عـن اللـواء داوود، بعضهـا مـن مدونـات الناشـطين عـلى شـبكة المعلومـات الدوليـة، وبعضهـا مـن حكايـات تناقلهـا الإخـوان وذووهـم. يتعـذر عليـه تذكـر أعـداد الضحايـا مـن الحكايـات، لكـن شـيخه أخـبره عـن أكـثر مـن ألـف حالـة تعذيـب حـتى المـوت يعلـم بهـا شـخصيًا، منهـم عـشرات النسـاء والمسـنين بـل والأطفـال، كلهـم قضـوا تحـت إشراف هـذا الطاغـوت. سـمع ورأى صـورًا بشـعة عـن ممارسـات أجهـزة الأمـن تحـت قيـادة هـذا الرجـل: الصعـق واقتـلاع الأظافـر ونتـف الشـعر وانـتزاع اللحـم بملاقـط معدنيـة. تقطيـع الأعضـاء وحـرق الجلـد بالأحمـاض. الاغتصـاب، وإجبـار المعتقلـين عـلى اغتصـاب بعضهـم بعـض، واغتصـاب الأمهـات والأخـوات والزوجـات، بـل والأطفـال. قتـل وذبـح واختفـاءات بالجملـة، أوقعـت البـلاد والعبـاد في نـير أيـام نحـس مسـتمر، بهـا اسـتحق الرجـل اسـم «الثعبـان الأقـرع». تشـير إحصـاءات بعـض منظمـات حقـوق الإنسـان إلى اختفـاء أكـثر مـن أربـع مئـة ألـف شـخص مـن مختلـف محافظـات الجمهوريـة، خـلال فـترة ثـلاث سـنوات تـولى فيهـا هـذا الرجـل ملـف أمـن الدولـة، الأمـر الـذي وضعـه عـلى قمـة قائمـة المطلوبـين مـن قِبَـل تنظيمـات المقاومـة الإسـلامية. كان اسـتهدافه جهـادًا، والمـوت في سـبيل قتلـه شـهادة، ومقتلـه نـصر مـن اللـه وفتـح قريـب.

دارت رحـى هـذه الأفـكار السـود وأكـثر في رأس الشـاب. إن أسـاليب الأمريـكان في الضغـط والتعذيـب لا تزيـد عـن كونهـا ألعابًـا خشـنة، أو مزاحًـا ثقيـلًا، بالمقارنـة بأسـاليب تعذيـب الأجهـزة الأمنيـة المحليـة. لكـن لا.. ليـس هـذا وقـت السـقوط.. إن هـي إلا أيـام ابتـلاء تكـون لـك طهـورًا، بعدهـا شـهادة ونعيـم مقيـم بـإذن اللـه.. إنـه الحـق مـن ربـك فـلا تكـن مـن الممتريـن.. فلتهُـن عليـك نفسـك في سـبيل اللـه.. هـو قـدر اختـاره لـك خالقـك، وبلـوى ينجـلي بهـا معدنـك، فاثبـت للبـلاء، واصـبر.. اصـبر.. اصـبر.. ثـم اغضـب.. واغضـب.. اغضـب لدينـك، لربـك، لوطنـك، للضحايـا.. اغضـب للقتـلى والمعذبـين والثـكالى والمجانـين، ممـن ذهبـت عقولهـم وسُـفكت دماؤهـم وانتُهكـت أعراضهـم واسـتُبيحت أموالهـم عـلى أيـدي السـفاح وزبانيتـه. هـا هـو ذا جالـس في أبهتـه وحُلّتـه الغاليـة، يلقـي بالتهديـد والوعيـد مـن طـرف خفـي. لسـت الأول ولا الآخـر، ولا الظاهـر ولا الباطـن. فوقـك مـن هـو أقـوى منـك وأقـدر،

fb/mashro3pdf

وسيأخذك أخذ عزيز مقتدر.

لعل من شمائل هذا الشاب، قدرته على شحن نفسه بالغضب في أحلك المواقف، عندما تُمَس كرامته أو يُهدد وجوده، ربما ليتغلب بالغضب على ضعف أو تخاذُل مُركّب في صفاته. أو هو يظن ذلك على كل حال. لذا، مع كل نظرة خاملة وجّهها إليه «الثعبان الأقرع»، وكل كلمة خرجت من بين شفتيه الرفيعتين، تداعت على وجدانه ردات فعل عاطفية قوية، فأخذته حالة استثارة اختلطت فيها باقة من المشاعر الملتهبة: الاستياء والكدر، والغيظ والسخط، والنقمة والحقد.

تصاعدت فورة الغضب في نفسه، وأجّجت جسده بلفحات سريعة ارتفع بها ضغط دمه، فوجد نفسه يقاطع اللواء أمامه بعينين مزمهرتين، ونبرة مرتعشة:

- متهددنيش يا باشا؛ أنا مبتهددش...

قطع اللواء حديثه، ونظر إليه باستياء، لكن الشاب كان قد استجمع بقية شجاعته، وعزم على الانزلاق مع غضبه أنّى يوجهه، فقال بانفعال:

- أسيادك يا باشا الأمريكان، حاولوا معايا بكل طريقة وفشلوا. إنتم فاكرين إنكم كسرتوني بشوية الهبل بتاعكم؟ اقعد كده، اتكتف كده، شُخّ في الجردل، متكلمش زميلك، حاذي عالخط، ممنوع تقرأ قرآن، ممنوع تصلي. فِكرك لما تسلسلوني معرفش أصلي؟ برضه هصلي، ولو بطرف صباعي. إنت عارف إيه مشكلتكم معايا؟

هنا أسند اللواء ذقنه على قبضته مصغيًا منتبهًا، فيما يتابع الشاب:

- إنتم خايفين مني. عارفين إني مبخافش، عشان كده بتخافوا مني. نفر المارينز الهِلف اللي بيكتفني ويعلقني، ونفر الحراسة الهلف اللي واقف وراك ده...

وأشار إلى أحد الرجلين بالخلف بسبابة مرتعشة من شدة التأثر، وأضاف قائلًا:

- كل مرة بيقرب فيها مني، بيكون خايف يموت. فاكر إنه لما يرمي المصحف على الرمل، ويشوطه ببيادته، ويتف ويطرطر عليه، هخاف أنا وأكش.. وأنكسر.. دي اللعبة.. الخوف.. وأنا مبخافش.

تحدث الشاب بلهوجة واضطراب، فكأن كلماته تلاحق بعضها بعضًا مخافة التعثر أو الانسداد، فجاء حديثه غريب الوقع، كأنه مُفتعل. قال مردفًا:

- كل مرة بيجوا يضربوني، كل مرة يعروني، كل مرة دمي يسيل، بتألم وأعيط.. وبكرهكم

fb/mashro3pdf

أكتر، وبحلف ميت مرة، إني هخرج من هنا وهرجعلكم.. إنت فاكر إن أساليب المحققين هتجيب معايا ومع أمثالي؟ أنا عايز أكون صريح معاك يا باشا.. قبل ما تبدأ معايا، عشان وقتك ميضيعش.. إنت أكيد جاي بفكر جديد وأساليب جديدة.. هتأثر بيها في أول يومين.. هتدمرني بعد أول أسبوع.. هعيط وأجيب دموع ودم بعد أسبوعين.. الأسبوع التالت، جتتي هتنحّس وهبقى تمام.

وسكت وقد بلغ به التأثر مبلغه، فكأنه على وشك البكاء، فيما ثبّت اللواء داوود نظره عليه بحِدَّة ثاقبة، كالذئب إن رأى جِنيًا أو عِفريتًا من العفاريت. تحركت قزحيتاه في كل جهة لتسبرا أغوار الشاب، بل لتعريه وهو جالس تعرية كاشفة.

انتظر حتى أنهى الأسير خطابه القصير، ثم قال دون اكتراث:

- طيب يا شيخ يحيى، خلينا نبدأ الشغل. أنا متأكد بنسبة مية في المية إن لك علاقة مباشرة مش بس بالجبهة الإسلامية، لكن بالشيخ زكريا ذاته. سلوكياتك العامة متوترة ومنكرة، وتُدينك أكثر من الحقائق أو المعلومات الاستخباراتية. أنا مراهن إني هعرف مكان الشيخ في جلستنا دي قبل ما نفضها. أنا متخيل إن في دماغك أفكار مخيفة عن اللي هنبدأ نعمله فيك.

ورفع كفه السليمة مطمئنًا الشاب:

- قبل ما نبدأ أحب أطمئنك. أنا مش هعمل فيك حاجة من اللي في بالك. التعذيب مش هو الحل في أحوال كتيرة. بالعكس، ممكن وغالبًا تنتج عنه معلومات غير دقيقة. أنا النهارده عايز منك حقائق دقيقة، فيا ريت تسترخي، وتركز مجهودك في الإجابة عن أسئلتي. في البداية هستعرض قدامك مجموعة حقائق، وهحطك قدام مجموعة خيارات. فقط لا غير.

والتفت آمرًا رجله بالخلف:

- هات الملف يا ابني.

فتح رجله الحقيبة الجلدية، واستخرج منها شريحة بيضاء ناعمة الزوايا، انطبعت عليها العلامة التجارية لشركة «أبل» الأمريكية، وانطبع أسفلها العلامة التجارية لـ«آي هولو ميني». وضعها الرجل أمام اللواء، وضغط جانبها، فانبعثت منها واجهة هولوجرامية مضيئة، تفاعل معها الرجل بلمسات سريعة، واستخرج بها وثيقة رقمية استوت أمام

fb/mashro3pdf

اللـواء ككتـاب مفتـوح.

نظـر اللـواء إلى النَّـص والصـور وهـو يدخـن سـيجاره بـذوق وخـلاء بـال. حـاول الشـاب أن يشرَئِـب إلى الشاشـة بعنقـه لـيرى مـا فيهـا، فمـيز شـعار جهـاز مباحـث أمـن الدولـة، تحتـه اسـم الإدارة المختصـة: «الإدارة العامـة للنشـاط المتطـرف/ مجموعـة التنظيمـات المتطرفـة/ قسـم جبهـة المقاومـة الإسـلامية»، ثـم سـطور وصـور لـم يسـتطع تمييزهـا، في حـين بـدأ اللـواء في القـراءة بصـوت عـالٍ:

- الاسـم: يحـيى حسـن عبـد الرحيـم الديـب. ثمانيـة وعشريـن سـنة. مواليـد أبـو زعبـل، مركـز الخانكـة. حاصـل عـلى دبلـوم تجـارة. حاليًـا عاطـل وأعـزب. يملـك قطعـة أرض زراعيـة بناحيـة العكرشـة بـ...

واسـتمر في سرد بعـض التفاصيـل الشـخصية، ثـم انتقـل إلى دلائـل العلاقـة بجبهـة المقاومـة الإسـلامية وأميرهـا الحـالي. اسـتمع إليـه الشـاب بفـؤاد خـاوٍ، وكان قـد سـمع هـذه التفاصيـل مـن قبـل مـرارًا.

بدأ الخمول يساوره رويدًا رويدًا، إلى أن رفع اللواء عينيه إليه قائلًا:

- دي كل المعلومات اللي لك عندنا.

وبحركة رفيقة من أنامله أزاح هذا الملف، وفتح آخر بنقرة واحدة مردفًا:

- وكلها معلومات مزيفة.

تولـدت مجموعـة أخـرى مـن الصـور الضوئيـة نبّهـت الشـاب، ثـم وقعـت في روعـه كالجمـرة تسـقط في مـاء بـارد. أدار اللـواء داوود الصـور الهولوجراميـة ناحيـة الشـاب، كي يلقـي عليهـا نظـرة وافيـة، فألقـى الشـاب عليهـا النظـرة الوافيـة.. ورأى.

أصاب فؤاده جزع عميق وهو يسمع اللواء يقول بنبرة من هو عليم خبير:

- اسمك الحقيقـي هـو عمـر أحمـد عبـد العليـم. إنـت لـك ملـف في أمـن الدولـة مـن زمـان. مـن أيـام نشـاطك الأول في دروس الشـيخ أبـو زكريـا، في مسـجد مصعـب بـن عمـير. بعـد دخـول الأمريـكان، جـزء كبـير مـن البيانـات ضاعـت، وجماعتـك اسـتغلت الظـرف ده في إصـدار هويـات مزيفـة، وانتحـال شـخصيات أمـوات، حمايـة لهوياتكـم الحقيقيـة، وحمايـة لأهاليكـم. عشـان كـده الأمريـكان اسـتعانوا بيّ يـا شـيخ عمـر. أنـا عنـدي قاعـدة بيانـات ضخمـة عـن أغلـب أعضـاء التنظيمـات السياسـية والدينيـة في مـصر، رجـالي قـدروا ينقذوهـا مـن أكـثر مـن عـدوان

fb/mashro3pdf

على مقرات مباحث أمن الدولة.

غزت الحمرة أذني عمر، وشعر بسخونة تنتشر منهما إلى وجنتيه، ثم إلى رأسه. تلك بداية السقوط، والطامة الكبرى التي ليس فوقها طامة. تتابعت المعلومات أمام عينيه، وانعكست بضوئها الخامل على تقاطيع وجهه المتورّم. شاهد صورًا من العهد البائد، أيام الترف والوفرة والصبا، في المسجد، وفي الكلية، ومع الإخوة والأصحاب، في مخيمات الرواحل وحمراء الأسد والبناء والأندلس. جلسات العصف الذهني والسمر ومقارئ القرآن بعد صلاة الفجر، والمسابقات الثقافية ومباريات كرة القدم وحلبات المصارعة، وجلسات التعارف وحلقات الطعام وشوي البطاطا. ثم توالت صور تجمعه بالشيخ أبو زكريا في المحاضرات والندوات ولقاءات الفضائيات في حشود من الملتحين، فكأنه ذراع يمنى له في كل حاله وحياته، يستند إليه ويهمس في أذنه ويضحك في وجهه. تواترت الصور وأبانت عن تحركات الشاب ما يواريها، منذ تخرج في جامعة القاهرة إلى وقوع الاحتلال، بالإضافة إلى معلومات مفصلة عن علاقاته وعائلته وما إلى ذلك. ملف متكامل غطى أغلب أوجه حياته منذ بدأت علاقته بالشيخ أبي زكريا.

ولما انتهى العرض، مال اللواء داوود جهة الشاب، وقال له بجلاء:

- المعلومات دي المفروض تغير فكرتك عن التعاون معانا.

لدقيقة كاملة لم يتفوّه عمر بكلمة، ولم يبدُ على اللواء أنه ينتظر منه أي تعليق. لم يستعجله، لا بكلمة ولا بنظرة، بل حدّق إليه بثبات انفعالي لا استحثاث فيه ولا تعصب.

ثم قال عمر أخيرًا، ببحة ثقيلة:

- مش شايف سبب واحد يخليني أغيّر فكرتي. عرفت اسمي الحقيقي؟ الأمريكان جايبين حسام داوود، عشان يعَرَّفني اسمي الحقيقي؟!

أشار اللواء إلى رجله الآخر، وقال:

- لا يا شيخ عمر. فيه أسباب كتيرة تخليك تغيّر فكرتك عن التعاون معانا.

لاحظ عمر لأول مرة أن هذا الرجل، على خلاف زميله، يرتدي قفازًا طبيًا من المطاط. وفور تلقيه الإشارة من سيده، مد يده لقعر الكيس البلاستيكي الذي يحمله، وتناول منه شيئًا رخوًا، طرحه على المنضدة أمام اللواء وأسيره، مثلما تُطرَح شريحة اللحم الطازج على قرمة الجزار.

fb/mashro3pdf

في البداية لم يفهم عمر ماهية الكتلة اللزجة المستوية أمامه على المنضدة. تبدّت له كجسمٍ ملتوٍ من الجلد أو ما شابه، تمدد وتمطط ولمع تحت الضوء كأن فيه دسم، وعلق به شعر أو فرو من كل جانب. دقق الشاب النظر في هذا الشيء، وتحركت عيناه بسرعة وجِدّة للإحاطة به.. ثم أدرك ماهيته على حين فجأة.. ولما أدرك، شعر بضيق شديد، وبانزعاج في المعدة، مع تحفيز للتقيؤ، فكأن الأحماض تثور من جوفه وتتصاعد فائرة إلى حلقه، حتى سال اللعاب من بين شفتيه.

أمامه على المنضدة، استوى وجهان خاويان، لا دماغ فيهما ولا مخ ولا عظم. مجرد كتلة من الجلد المسلوخ، قُشّرت بسكين صارم خلص إلى العصب واللحم، ثم نُزِعَت بدقة جراحية كي لا تتمزق. لم يفقد الوجهان قوامهما وكفاية قسماتهما، إلى حد الحفاظ على الحواجب وبعض الرموش، غير أنهما لم يزيدا في خوائهما وجمودهما من جهة الشكل عن أقنعة المطاط المتقنة المستخدمة في صناعة السينما.

تبددت أفكار الشاب، وأصابه خواء مفاجئ. حدق إلى الوجهين الخاليين من الحياة تحديقًا، وبالكاد سمع اللواء يقول بهزء:

- ده أخوك في الله تامر علوان، المعروف بأبو المنذر، وده أخوك في الله سامح فرج، المعروف بأبو إسلام. بفضل تعاونهم معانا، قدرنا ننقذ حياة مئات المواطنين، من بعد إدلائهم بمعلومات عن أماكن ثلاثة من أهم المطلوبين.

وتفاعل مع الواجهة الهولوجرامية ليفتح عدة ملفات ضوئية لثلاثة رجال كثيفي اللحى، انتبه لها الشاب بعينين زائغتين، وسمع اللواء يضيف قائلًا:

- الدكتور مصطفى عبود، المعروف بأبو أيوب، مسؤول لجنة الأموال، والشيخ طلعت هاشم الرفاعي، مسؤول اللجنة العسكرية وشؤون الجهاد.

اتسعت عينا الشاب فور أن سمع اسم الشيخ طلعت؛ لأن سقوطه مصيبة، فإذا باللواء حسام يقول أيضًا:

- وأخيرًا.. الشيخ صفوت عبد الماجد، رئيس مجلس شورى الجماعة، ونائب رئيس العمليات.

اغرورقت عينا عمر لما رأى صورة الشيخ صفوت، أسد الجبهة ورئيس أركانها. سقوط الشيخ طلعت مصيبة، أما سقوط الشيخ صفوت فكارثة عظمى، تهدد كيان الجبهة ككل.

fb/mashro3pdf

ثـم إن القـادم أدهـى وأمـرّ. نقـر اللـواء ملفًـا آخـر، فانكشـفت بنقرتـه مجموعـة مـن الصـور الضوئيـة لمنـازل مدمـرة ومحترقـة، ثـم صـور مقربـة لجثـث ممزقـة ومتفحمـة لأنـاس عرفهـم الشـاب جيـدًا، كانـوا يومًـا شـيوخه وقادتـه وأوليـاء أمـره.

ثم إذا به يتلقّى المزيد من القُبح والخطل، و«الثعبان الأقرع» يقول:

- أول مـا تأكدنـا مـن المعلومـات، شـنت القـوات الأمريكيـة مجموعـة غـارات دقيقـة عـلى منـازل قـادة التنظيـم الثلاثـة، بمركبـات قتـال جـوي بـدون طيـار، قضـت عليهـم فـورًا، بخسـائر جانبيـة محـدودة جـدًا. ده الشـيخ طلعـت، الجثـة في حالـة جيـدة نسـبيًا؛ لأنـه مـات بإصابـات الزجـاج مـن موجـة الانفجـار. ده الدكتـور مصطفـى، الانفجـار أصابـه إصابـة مبـاشرة، وقدرنـا نتعـرف عليـه مـن إصابـة قديمـة في إيـده. وده الشـيخ صفـوت، أصيـب ببـتر في رجليـه مـن أعـلى الفخـذ، ومـات متأثـرًا بالصدمـة والنزيـف.

والتفت إلى الشاب قائلًا كمن وصل إلى خاتمة المطاف:

- أقـدر أقولـك إن الجبهـة الإسـلامية انتهـت إكلينكيـًا. المشـكلة حاليـًا هـي قدرتهـا عـلى التعـافي. عـدد الأفـراد المنتمـين للتنظيـم غـير معـروف. الاتصـالات بـين الأفـراد محـدودة لضمـان عـدم انكشـافهم بشـكل عنقـودي. الأمريـكان عندهـم شـك في مسـألة انتشـار التنظيـم. هـل هـو قـادر عـلى الاختفـاء في خلايـا نائمـة؟ قـادر عـلى التعـافي مـن ضرباتنـا؟ مسـائل كتـيرة مـا زالـت محـل خـلاف. أنـا هـدفي ألضـم الخيـوط المقطوعـة. هـذا لـن يكـون إلا بالقضـاء عـلى المؤسـس ورئيـس هيئـة العمليـات.

وأشار إلى الوجهين المسلوخين مُردفًا:

- الإخـوة معندهمـش إلا فكـرة عامـة عـن المربـع السـكني الـلي احتمـال مقـر أبـو زكريـا يكـون فيـه. إنمـا معلومـات دقيقـة يمكـن البنـاء عليهـا، مفيـش. وأنـا مصدقهـم. ومـن هنـا الـدور بيجـي عليـك.

قال الشاب بعد برهة، بذهن مشوّش:

- أنا معرفش حاجة عن الشيخ أبو زكريا. تقدر تسلخ وشي أو تولّع فيَّ بجاز.

- همّ برضو قالوا كده.

قالهـا اللـواء دافعًـا بكتلـة ثقيلـة مـن الدخـان مـن منخريـه، ثـم أشـار بيـده إشـارة ذات معـنى، في إثرهـا ضغـط أحـد الرجـال أزرار الإضـاءة. تتابعـت ومضـات المصابيـح الحثيـة

fb/mashro3pdf

القوية، قبل أن تتنشر غلالة من الضياء الأبيض الساطع من السقف على المكان بأسره.

كانوا في حظيرة طائرات قديمة، مقوّسة السقف، تألفت من هياكل الصلب وصفائح الفولاذ المموجة. إلى جانبي الحظيرة تراصت نوافذ متلاصقة ذات إطارات من سبائك الألومينيوم، فيما اكتست الأرضية الخرسانية بطبقات متوالية من طلاء الإيبوكسي المقاوم للكيماويات. وفي أرجاء الحظيرة تفرقت مجموعات من جنود وضباط شرطة العمليات الخاصة، المعروفين بين العامة باسم «الفِرَق»، بملابسهم السوداء ومعداتهم الحصينة وكامل تسليحهم.

لم ينتبه عمر إلى أي من هذا. في البداية ظن أنه في مجزر أو مسلخ؛ لأنه رأى أول ما رأى بعض الذبائح المُدلاة رأسًا على عقب من سيقانها الخلفية، على خطاطيف امتدت بسلاسل معدنية إلى السقف. غلب على الأجسام المعلقة اللون العاجي المشوب بحمرة، المميز للدهن وأنسجة اللحم. قد يُخدع العقل للحظات بالانطباعات الأولى، لكنه لا بد أن يدرك بعد وهلة حقيقة الصورة بلا رتوش أو أوهام. سيدرك العقل أن الحيوانات التي يعلقها ابن آدم، ثم يذبحها وينزع جلدها ويفرغ ما في جوف بطونها من كبد وطحال وكرش وغيرها، ليست لها تلك الرؤوس المستديرة، ولا تلك الأعناق الجيداء، ولا تلك الأرجل المستقيمة، ولا تلك الأذرع النحيلة، ولا تلك الأصابع الكيسة الرشيقة، ولا ذلك البناء الطويل المتناسق.

وعندما يدرك الدماغ ماهية الصورة التي أُرسلت إليه عبر عصب البصر، يرسل بدوره إشاراته إلى سائر أعضاء الجسم كي تستجيب بالشكل المناسب. وكانت الاستجابة العضوية لجسم عمر سريعة وثورية، بدأت بالتعرق وانخفاض ضغط الدم وزيادة إفراز اللعاب، وانتهت بالغثيان. ارتفعت محتويات معدته قسرًا عبر المريء، بالتزامن مع الانقباضات القوية لعضلات البطن.

فوجئ اللواء داوود برد فعل لا إرادي من جسد الشاب، إذ يندفع رأسه بحركة موجية من الخلف للأمام، مصحوبًا بانفجار من القيء خبيث الرائحة، اندفع من أنفه وفمه بطرطشة غامرة ورذاذ قوي، وتناثر على المنضدة بما عليها، ونال بدلة اللواء بلطخ من العجين الحامضي.

قفز اللواء إلى الخلف فأسقط كرسيه بدوّيٍ ورنين، وصاح غاضبًا:

fb/mashro3pdf

- إيه القرف ده؟!

استمر الشاب في التقيؤ المصحوب بعواء خشن وتشنجات قوية، حتى أفرغ وجبة الهامبرجر من معدته تمامًا. ولولا قيوده التي ثبتته في الكرسي، ولولا المسامير التي ثبتت الكرسي في الأرض، لتهدّم بنيانه.

أما اللواء داوود، فقد فار الغضب في دماغه، وصاح مجددًا بصخب وسخط:

- إف! امسك أعصابك شوية. إنت طفل صغير؟!

إن هذا باطل لا يمكن وقوعه قطعًا. ما يراه الشاب الآن هو ضرب من الخبل أو فساد العقل الممتنع التحقق قطعًا. إنه يكاد يميز أجساد ذكور وإناث، بل وأجسادًا أخرى ضئيلة ذات غضاضة واستدارة، علقت جميعًا من أقدامها الدامية بخطاطيف حادة.

تحرك رجلا اللواء لمسح المنضدة والاهتمام بسيدهما الغاضب، لكن السيد أشار إليهما أن يسكنا ويعودا إلى موقفيهما، وسرعان ما كبل غضبه تقديرًا لهول المصيبة وبشاعة المشهد. رفع مقعده بنفسه، وجلس على بعد يسير من المنضدة، كي ينأى بنفسه عن شم أو رؤية القيء، ولم ينسَ أن يبعد حاسبه الأبيض الرقيق عن موضع القذر. لم يجد صعوبة في التحكم في اضطرابه الانفعالي ونفوره من هذا الفعل غير الملائم، والتزم بقالب القائد القوي الشخصية، المتمتع بصحة نفسية سليمة، المحافظ على الضوابط السلوكية، المبتعد عن هوى النفس.

انتظر بصبر حتى تمر روعة المصيبة وصدمتها الأولى، ثم قال للشاب بوجه جامد:

- دي الميزة اللي ليّ على الأمريكان. أنا أعرف إنتم مين، وأهاليكم مين، ومتجوزين مين، وأولادكم فين. اللي إنت شايفه، هو تشكيلة من مختلف الأجيال، أكبرها عدّى الخمسة وسبعين، وأصغرها هناك ده، مكملش السبع سنين. المعلومات اللي أدلى بيها إخوانك في الله، تامر علوان وسامح فرج، واللي أصروا عليها مع كل نفر من أهلهم علقناه في السلخانة، بتقول إن أبو زكريا مختبئ حاليًا في مجمع سكني خصوصي في عزبة عين البقرة، وإنك الوحيد اللي تقدر تحدد المكان بدقة؛ لأنك أقرب الناس له.. شيخ عمر، سامعني؟

ولما لم يتلقَّ استجابة هتف به بخشونة: «إنت يا ابني!»، ثم ألقى بسيجاره على وجه الشاب بقوة. ارتطم السيجار بجانب وجه عمر، وارتد عنه باعثًا لفحة من التبغ الملتهب والرماد. صرخ عمر بألم ولوعة، وهز رأسه بقوة محاولًا نفض ما علق بعينيه ووجه من

fb/mashro3pdf

القـذى، ثـم رفـع إلى غريمـه عينـين محمرتـين جاحظتـين.

هنا عاد اللواء إلى الواجهة الهولوجرامية، واستخرج ملفًا جديدًا وهو يقول:

- الخيـارات الـلي هحطّهـا قدامـك بسـيطة. إنـت لـك أربـع إخـوة في أمريـكا، كلهـم أطبـاء، وكلهـم أمريـكان. أحمـد، وناجـي، وهيثـم، وكريـم، وكلهـم متزوجـين مـن مصريـات، وكلهـم عندهـم أطفـال. مجموعكـم واحـد وعشريـن تقريبًـا. الأمريـكان اقترحـوا إني أهـددك بـإني أرحلهـم عـلى مـصر، وكلـه بالقانـون؛ لأنهـم عـلى علاقـة بخلايـا أو منظمـات إرهابيـة. الحكومـة الأمريكيـة أصـدرت قانـون، يعطـي الحـق لـوزارة الأمـن الداخـلي في ترحيـل أي عائلـة يشـتبه في تـورط أي فـرد منهـا في أنشـطة إرهابيـة. الترحيـل ده مجـرد شـق زور بالنسـبة ليّ. أنـا هسـتلمهم مـن قاعـدة «جـون ديكينسـون»، وأشـحنهم وأشـحنك عـلى السـلخانة. كلامـي واضـح؟

تحركـت نفـس عمـر وأجهشـت، وتمنـى لـو يغشـيه اللـه بالنعـاس أمنـة منـه حـتى ينجـو ممـا هـو فيـه، لكـن لـم يبـدُ ممـا هـو فيـه منجـاة ولا سـلوى.

وتابع اللواء قائلًا:

- الخيـار الثـاني هـو إنـك تـصر عـلى موقفـك، بعـد مـا أهلـك كلهـم يتعلقـوا في السـلخانة. أنـا بتكلـم عـن إخوانـك وزوجاتهـم وبناتهـم، الـلي أعراضهـم هتنتهـك قدامـك، منهـم الـلي هيمـوت مـن الـنزف، ومنهـم الـلي هيمـوت مـن النفـخ. بعـد كـده مـش هيكـون قدامنـا خيـار إلا قصـف عزبـة عـين البقـرة كلهـا.

نالـت الكلمـات مـن عمـر كأمشـاط مـن حديـد تنـشر مـا دون لحمـه وعظمـه، إذ يتمثـل المعـاني ويتخيـل المشـاهد. ليـلى، وأنـس، وأمـيرة، ونـدا، وغيرهـم مـن أبنـاء إخوتـه الصغـار الأبريـاء، سـيُجلبون إلى هنـا، وستُفعل بهـم الأفاعيـل أمـام عينيـه. أهـون عليـه أن يُقـذف في النـار، وأن يُنضـج جلـده شـبرًا شـبرًا، عـلى أن يـرى هـذا البـلاء. قـد رآه إخوانـه مـن قبـل، وهـا هـم وأهلوهـم ونسـاؤهم وأولادهـم متدلـين كمـا تـدلى العجـول في المسـالخ، بعـد أن هُتكـوا ووقـع عليهـم مـا يعلمـه اللـه وحـده مـن صنـوف العـذاب.

لطالمـا ظـن أنـه صلـب متـين.. لكنـه علـم الآن أنـه ليـس عـلى شيء، وأن صلابتـه تلـك لـم تكـن إلا غشـاء طرحـه عـلى نفسـه لمـا توهـم أنـه وعرضـه وأهلـه آمنـون. أمـا وقـد سـقط الآن في حبائـل وحـوش الإنـس، فقـد تمـزق غشـاء القـوة.. غشـاء؟! بـل لـم تكـن إلا غشـاوة ضربـت عـلى عينيـه، فخيلـت إليـه مـكارم هـو عـارم عنهـا.. الصـبر عـلى القضـاء والقـدر.. الاحتسـاب

fb/mashro3pdf

عنـد الصدمـة.. هـوان النفـس في اللـه.. حبـس الجـوارح عنـد الجـزع.. إن المصيبـة لـم تقـع بحذافيرهـا عليـه بعـد -وإن كانـت متحققـة الوقـوع قطعًـا- وهـا هـو قلبـه يهـتز روعًـا، وعقلـه يـكاد أن يذهـب، بـل إن كيانـه كلـه يـكاد أن يتضعضـع، ويخضـع ويـذل.

ثـم إنـه، في خضـم خواطـره، سـمع تلـك العبـارة: «مـش هيكـون قدامنـا خيـار إلا قصـف عزبـة عـيْن البقـرة كلهـا».

قصـف عزبـة عـين البقـرة كلهـا. رفـع عمـر عينيـه إلى اللـواء داوود، ثـم أغمـض جفنيـه برعـدة وعصبيـة، ونظـر إلى المنضـدة أمامـه. سـطح خشـبي مشـقق، عليـه تتناثر لطخـات لبنيـة المظهر ورشـاش مـن قيء. اعـترت جسـمه رجفـة كمثـل المصـاب بسـعال أو حمـى. لحظـة سـكون تـام. لحظـة ارتبـاك شـامل واختـلاط وتشـوش. الجملـة لـم تبـد واقعيـة أو معقولـة. كلمـة «قصـف» أُقحِمـت في سـياق الـكلام بـلا مسـوّغ معقـول، بـل بـشيء مـن الامتهـان. أهـذا صـدق أم احتيـال؟ إنهـم يحتالـون ويحتالـون. إن «الثعبـان الأقـرع» يسـلك معـه مسـلك الحـذق بـلا ريـب، ليبلـغ منـه مأربـه.

لكن «الثعبان الأقرع» تابع بجدية:

- المعلومـات مؤكـدة عـن وجـود أبـو زكريـا في عزبـة عـين البقـرة. ولـو مضيّقنـاش دائـرة البحـث، الحـل الوحيـد لاسـتئصال الجبهـة هـو غـارة شـاملة عـلى المنطقـة. عـين البقـرة عزبـة مسـاحتها خمسـتاشر فـدان، عايـش فيهـا أكـثر مـن ربـع مليـون مواطـن. متخيـل كـم الخسـائر البشريـة الناتجـة عـن غـارة جويـة بالقنابـل الارتجاجيـة؟

اختلـط عـلى عمـر هـذا الـذي يسـمعه واسـتغلق. يـا ويـل نفسـه! أيكـون جـادًا فيمـا يقـول؟ اشـتملته سـخونة لافحـة مـن رأسـه، ونفـذت حـتى خلصـت إلى جوفـه، فكأنهـا تذيـب أمعـاءه ومـا حـوت بطنـه. أحـس بمقاومتـه تنضـج وتـرق قبـل أن تتمعـج وتنسـال مصهـورة.

ثم إنه هز رأسه، وقال مرتجًا ملتبسًا:

- إنت بتقول إيه؟ هتضربوا منطقة سكنية بالقنابل، عشان راجل واحد؟!

رمـاه اللـواء بنظـرة مـن لسـان حـال يقـول: «لكأنـك لا تعـرف!»، ثـم قـال بلسـان فمـه، بوجـه قـاسٍ:

- قـول لنفسـك يـا شـيخ. تضحـي بمنطقـة سـكنية، لأجـل راجـل واحـد؟! اتقـي اللـه يـا شـيخ عمر !

fb/mashro3pdf

بدل عمر النظر بتشوش بين «الثعبان الأقرع» وزبانيته المنتشرين في الحظيرة، وضحاياه المتدلين بالسلاسل رأسًا على عقب. أحاط به العسر من كل جهة، وعجز عن الاستجابة، بل عجز عن التفكير. أحس بنفسه يسقط سقوطًا مريعًا، ولم يدر إلا وخيط من الدمع يسيل من عينه اليسرى. كانت تلك في نظر اللواء علامة إيجابية مريحة، لكنه لم يكن قد أخرج كل ما في جعبته بعد. إنه منتقم غاشم، لكنه عفوٌّ كريم أيضًا، وقد جاء نزول خيط الدمع في توقيت مثالي، فعزم على أن ينتقل من الشدة إلى بعض اللين، وإن هذا اللين سيفوق أشد توقعات الشاب جموحًا، بل سيكون بمثابة الماء البارد المصبوب على لوح من الزجاج الساخن. صدمة حرارية تصيب هذا الجسم قليل المتانة، تؤدي إلى تغير مفاجئ في درجة الحرارة، تتولد في إثره تمددات تقضي على مقاومته، وبالتالي يحدث الكسر.

قال اللواء بصوت أراده مُطمْئنًا، لكنه جاء جافًا جامدًا كالمعتاد:

- من ناحية تانية، زي ما أنا أساليبي مختلفة عن الأمريكان في الضغط والعقاب، هي مختلفة أيضًا بالنسبة للثواب. أنا مش بتكلم عن وجبة محترمة، ولا عن بطانية أو مرتبة مريحة. أنا بعرض عليك عفو رئاسي لتعاونك مع السلطات، بالإضافة لمكافأة مالية. هخرجك من الحبس، وأوطّنك وكأنك مواطن عادي، وأغطيك بمبلغ تعيش منه بشكل محترم بقية عمرك.

وتلى ذلك نقرة على ملف جديد، تشكلت بها صورة تجسيمية لوثيقة رسمية.

رفع عمر عينيه ليتبين البلوى الجديدة. جذبت انتباهه لسببين: الأول أنها مكتوبة باللغة الإنجليزية، والثاني أنها مختومة بالنقش الدائري لرئيس الولايات المتحدة.

احتل العنوان المساحة العلوية من الوثيقة، وجاء فيه ما يلي ببنط سميك:

«منح العفو لـ عمر أحمد عبد العليم. من قبل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. منشور رسمي».

دهش عمر لكون العفو المزعوم صادر عن رئيس الولايات المتحدة ذاته، فكان لهذا أثر نفسي عميق، فإذا به يرتاب بالوثيقة، وإذا بها تفقد عنده كل مصداقية وثقل، ثم إذا به رغم ذلك يأمل منها العون. بدأ بقراءة الديباجة التمهيدية الطويلة، ولم يستطع أن يحصر انتباهه في محتواها، بل جرت عيناه على الكلمات دون تمييز. كلام مزوق عن

fb/mashro3pdf

التعاون الإيجابي مع السلطات المختصة، والإدلاء بمعلومات أنقذت حياة مئات المواطنين الأمريكيين، والأخلاق والضمير وما إلى ذلك.

ثم جاءت الفقرة الأهم:

«وعليه، أقر أنا، روبرت ماكالوم، رئيس الولايات المتحدة، أنني بموجب سلطة العفو التي يمنحها إياي القسم الثاني من المادة الثانية من الدستور، قد منحت عفوًا كاملًا مطلقًا لـ عمر أحمد عبد العليم، عن جميع الجرائم التي قد يكون ارتكبها أو شارك في ارتكابها ضد الولايات المتحدة».

راقب اللواء داوود انفعالات الشاب بتمعّن. بدا له مهزوزًا مدحورًا، مرهقًا مقهورًا، لا حول له ولا قوة. جسم مترنح على الحافة، لا تلزمه أكثر من نفخة كي يسقط سقوطًا لا قيام بعده.

ثم إن اللواء قال برزانة وتأنٍ:

- قدامك على الشاشة عفو رئاسي شامل وغير مشروط، يعفيك من جميع تهمك، وأي عقوبة تقع عليك نتيجة تهمك، لتعاونك معنا، وإدلائك بمعلومات أدت لحماية المواطنين الأمريكان والمصريين، وتفكيك جبهة أبو زكريا وإيقاف عملياتها الإرهابية ضد المنشآت المدنية والعسكرية الأمريكية والمصرية. تهمك مش بسيطة يا شيخ عمر.. إنت متهم بالتخطيط والمشاركة في اختطاف وقتل حوالي تلات آلاف شخص، والتخطيط والمشاركة في عمليات إرهابية استهدفت منشآت مدنية، ودي في حد ذاتها تعتبر جريمة حرب. مجموع التهم الموجهة إليك يزيد عن المية وسبعين، والحكومة الأمريكية تسعى لإيقاع عقوبة الإعدام.

وعندما رأى ما يشبه الابتسامة البائسة تتولد على شفتي الشاب، وبالكاد تظهر مع التورمات والكدمات التي تملأ وجهه، أردف:

- لكن مش دي القضية. أنا عارف. غالبًا إنت ترحب بالإعدام كطريق مضمون للجنة. لكن لازم تفهم إن الجنة طريقها طويل وتمنها غالي، لازم تكون مستعد تدفعه، وتكون مستعد إن أهلك يدفعوه معاك، ولو حتى غصب عنهم، وبغض النظر عن إيمانهم بقضيتك من عدمه. أنا شايف الخيار واضح وبسيط، وحاسس إنك هتختار الصح في النهاية.

fb/mashro3pdf

وهز رأسه متصنعًا التقدير، وقال بنبرة رتيبة، سلسة:

- أنا مقدر تمامًا موقفك، ومتفهم مقدار حبك وإخلاصك لشيخك. اللي إنت بتعمله مش خيانة. هتدل على الشيخ مش عشان مبتحبوش، مش عشان ولاءك له مش خالص، لكن عشان بتحب بلدك وأهل بلدك أكتر. اعتبر المسألة درء مفسدة. مش مفسدة واحدة، لكن مفاسد هتطول أهلك وعرضك ونفسك، وبعدها هتطول آلاف المواطنين. الغارة على عين البقرة أمر مفروغ منه. الأمر يعود إليك لتحديد عدد الضحايا. ضحية أو اتنين في عملية اغتيال دقيقة، أو آلاف المسلمين في غارات عشوائية.

طأطأ عمر رأسه، وانقبضت عضلات وجهه فكأنه مقبل على البكاء. نفذت كل كلمة قالها اللواء إلى دماغه، وسرت في تلافيفها سريان السم الزعاف في الدم. شعر بطبقات من العفن تزحف على جسمه، وبغمامات من النتن تنبعث من ثنايا بدنه. أحس بزحف الظلمة رويدًا رويدًا على كيانه، وبزحف العمى على بصيرته، والوهن على جوارحه. ثم رفع عينيه إلى اللواء داوود. عينان خضراوان فيهما مقت وحقد وقهر.

ولقد بارزه اللواء النظرة بالنظرة، من عينين عركهما الزمن، وتغشتهما عكارة الهِرَم، ثم قال بصوت جهوري:

- أنا وقتي محدود يا شيخ عمر.

في هذه اللحظة بذاتها غلب على القاعة شعور جمعي واحد، إذ تتعلق الأعين باللواء حسام الدين داوود، بقامته الشامخة وهيئته السلطوية الصلبة، كأنه إله خارق، ذو طبيعة فوق بشرية. خالد لا يموت، يُسَيِّر أمور العباد كيفما يتراءى له، بالعدل أو بالظلم، بالرحمة أو بالنقمة. خضعت له القلوب إكرامًا وتعظيمًا، وذلًا وخضوعًا، وخوفًا ورجاءً. بجبروته كسر المقاومة ودمر هيكلها، وعما قريب سينسف رأسها، الشيخ الأسطورة، والإمام العَلَم، والعالِم الجبل، الديِّن الصلب، والزاهد الورع، والقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه. إمام العصر بلا مدافعة، الشيخ أبا زكريا عبد القادر بن عواد.

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الأول من يوليو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

يقولـون إن الولايـات المتحـدة لـم تتمكـن مـن تمويـل حربهـا الأخـيرة مـن خـلال الضرائـب، بـل مـن خـلال العجـز، عـلى عكـس الحـروب الـتي خاضتهـا سـابقًا، بسـبب ضغـوط الكسـاد والإعفـاءات الضريبيـة الـتي أقرهـا الرئيـس الأسـبق بهـدف تشـجيع النشـاط الاقتصـادي الخاص.

يقولـون إن الواقـع العمـلي أثبـت أن التزامـات الولايـات المتحـدة في الحـرب تتزايـد باسـتمرار، حـتى علـت التكلفـة التقديريـة للغـزو عـلى الثمانيـة تريليونـات دولار، وذلـك رغـم ادعـاءات مستشـاري الرئيـس الأمريـكي الأسـبق أن الحـرب عـلى مـصر «عمليـة جراحيـة دقيقـة محسـوبة النتائـج والتكاليـف».

يقولـون إن النظـام المـالي الأمريـكي يتجـه إلى مسـار الـلا عـودة، وإن ميزانيـة الحـرب تـأكل في أسـاس الدولـة، وإن محـاولات التربـح مـن الغـزو تبـوء بالفشـل، في ظـل تزايـد الأعمـال التخريبيـة للجماعـات المسـلحة، وتزايـد أعـداد الضحايـا مـن العسـكريين والمدنيـين، واسـتهداف مواقـع التعديـن والمنشـآت الصناعيـة، وغيرهـا مـن الاسـتثمارات الأمريكيـة عـلى الأراضي المصريـة.

يقولـون إن السياسـيين يحاولـون التخفيـف مـن وقـع الأزمـة عـلى الـرأي العـام، لكـن المواطنـين يشـعرون بالقلـق بشـأن مسـتقبلهم، ويتسـاءلون: عـلى الرغـم مـن كل هـذه التضحيـات، كيـف سـقط اقتصادنـا في تلـك الهـوّة؟ ومـاذا يعـني هـذا لحياتنـا وحيـاة أطفالنـا؟

يقولـون إن الحكومـة الفيدراليـة عاجـزة عـن الحـد مـن خطـر تفاقـم الديـن العـام، وإن أسـواق الأسـهم تسـقط، والمؤسسـات الماليـة الكـبرى تتأرجـح عـلى الحافـة، وقطاعـات رئيسـية في النظـام المـالي الأمريـكي تتعـرض لخطـر الإغـلاق، وإن ملايـين الأمريكيـين سـيفقدون وظائفهـم في القريـب العاجـل.

يقولـون إن خطـة الإنقـاذ الـتي قدمتهـا الإدارة الجديـدة لـن تحـل المشـكلة، بـل سـتؤدي عوضًـا عـن ذلـك إلى تبديـد تريليونـات الـدولارات مـن أمـوال دافعـي الضرائـب في مغامـرة -أو مؤامـرة- تهـدف إلى شراء الأصـول المتعـثرة، الـتي تتسـبب حاليًـا في انسـداد النظـام المـالي.

يقولـون كل مـا تقـدم وزيـادة، بيـد أنهـم يقولـون أيضًـا إن عـدد ضيـوف حفـلات أحـواض السـباحة في منتجـع «سيليسـتيال» بـلاس فيجـاس يجـاوز أربعـة آلاف في بعـض الأيـام، وإن

fb/mashro3pdf

حصيلة إيرادات حمامات السباحة وحدها -في واحدة من أسوأ فترات الاقتصاد الأمريكي- زادت بنسبة عشرين في المئة عن العام الماضي.

يقع منتجع وكازينو «سيليستيال» على امتداد جادة لاس فيجاس في مدينة بارادايس. خلال عشر سنوات الماضية، احتل منتجع «سيليستيال» موقع الصدارة بين فنادق ومنتجعات لاس فيجاس الأخرى، وتحوّل إلى معلم من معالم مدينة الخطيئة الأمريكية الأكثر شهرة، وأحد أهم مصادر دخلها. وفّر المنتجع آلاف الوظائف للشباب الأمريكي الباحث عن عمل، واستطاع مع فنادق وكازينوهات فيجاس الأخرى الانفصال بالمدينة عن الأحداث الجسام المحيقة بالدولة، والحفاظ على منزلتها العالية كقبلة مقدسة للسياحة والفن والترفيه.

برج «سيليستيال» ذهبي اللون، يرتفع لأكثر من سبعين طابقًا في سماء فيجاس المزدحمة بالفنادق، ويبز ما حوله بضراوة في الفخامة والسمو. يضم ناديًا للقمار ومركزًا للمؤتمرات، وصالة عرض تسع خمسة عشر ألف مقعد، وتحيط بمنشآته حدائق استوائية شاسعة، في قلبها يقع «سارافيم بيتش»، المرفق الأهم في المنتجع.

مجمع أحواض سباحة «سارافيم بيتش» تبلغ مساحته أحد عشر فدانًا، ويتألف من ثلاثة أحواض سباحة دافئة لكل الأعمار، وبحيرة ضخمة مجهزة بأمواج صناعية، وشبكة من الجداول والشلالات الصغيرة، ويضم كذلك حوض السباحة الأشهر، المُسمى «ديفاين جاردنز»، والذي ينفصل عن سائر أحواض المجمع ومرافقه بألواح زجاجية مسنفرة، تحجب الرؤية داخله.

في هذا اليوم الصحو من شهر يوليو، لم تزدحم منطقة «ديفاين جاردنز» بالضيوف كما هو مألوف في مثل هذا الوقت من العام، ربما لأن الوقت ما يزال ضُحى. هذا ما خطر على قلوب أفراد أطقم التخديم بشيء من القلق. مؤخرًا أصبح القلق شعورًا ملازمًا لعموم العاملين في فيجاس؛ لأن فقدان الوظائف صار سمة عامة، ومعدلات البطالة صارت في ارتفاع مستمر، والبنوك والشركات تفلس كل يوم، والمدخرات تتقلص وتتبخر، وعجز الميزانية يبلغ أرقامًا تقترب في خبلها من الهرطقة. ورغم ذلك، لم يسمح أفراد أطقم الخدمة للقلق بأن يظهر على وجوههم، ولم يبدُ على الضيوف على الصعيد المقابل أي إحساس بالقلق، فمن جهة هم هنا للاستجمام، ومن جهة ثانية هم ينتمون

إلى طبقات لا تؤثر تداعيات الأزمات المالية عليها بأي حال.

مر الوقت بسرعة، وتزايد توافد الحاضرين ونشاطهم، وتجمهروا وانتشروا في حوض السباحة، وحول المطعم والبار، وعند منصة مقدم الأغاني. وفي تمام الواحدة ظهرًا، ثارت ثائرة الضيوف، عندما اعتلى منصة الـ«دي جي» المغني الجامايكي الشهير فريدي هنتر، فأحدث الشباب ضجة، وارتفعت الأيادي لتصوير وتسجيل الحدث المهم. استهل هنتر فقرته بكلمة مرحة صخبت لها الجماهير، ثم شرع في غناء قصيدته الأيقونية «مزرعة ريتشموند».

وبعيدًا، بالأعلى، بين الأعمدة التوسكانية البيضاء، والستائر الرقيقة الشفافة، وأحواض الزهور الزاهية، كادت تلك الفيلا الاستثنائية أن تختفي عن الأنظار. لم تكن الفيلا الوحيدة، فالمكان يمتلئ بشاليهات «الكابانا» والأكواخ والفيلات الأخرى، لكن تلك كانت الأفخم بلا شك.

شغلت الفيلا مجموعة من الشبان والشابات، الذين شذوا عن التركيبة الديموجرافية للمكان. بإمكان الناظر المدقق أن يرى الندوب على هذه الأجسام الذكورية، منها البارز ومنها الغاطس، منها القديم الخشن ومنها الحديث الطري. أما الأجسام الأنثوية، فكانت أفضل حالًا، من جهة خلوها من الإصابات. اتسم البعض منها بالتناسق والفتوة، وعانى البعض الآخر من الإرهاق والترهل. كنّ جميعًا إما عاملات مجتهدات، أو ربات بيوت قائمات على شؤون منازلهن وأبنائهن.

دار بين النسوة حوار باسم، فيه ضحك واختلاط في الكلام، وكنّ في حال من الوئام والالتفاف، في ظاهر الأمر، فيما تحدّث الرجال حديثًا خفيفًا في أمور شتّى، وقد شكلوا فيما بينهم دائرة، انفصلت بهم وبحديثهم عن مجلس النساء.

لا يعد القول بجودة العلاقة بين هؤلاء النسوة ضربًا من المبالغة، بيد أنها لم تقم بذاتها، بل تمددت كفرع على العلاقة بين هؤلاء الرجال، الذين يقضون من الوقت معًا أضعاف ما يقضونه مع نسوتهم وأسرهم. هؤلاء الرجال هم نخبة العسكرية الأمريكية، ونتاج قرون متوالية من الحروب العالمية والتوسعية، وحصيلة مليارات الدولارات المبذولة في البحث والتجنيد والتدريب. هؤلاء الرجال ينتمون إلى فِرَق الإبرار البري والبحري والجوي، والتي تشكل قوة العمليات الخاصة الرئيسية للبحرية الأمريكية.

fb/mashro3pdf

اعتـاد أولئـك الرجـال عـلى كتمـان الأسرار والهويـات وكل مـا لـه صلـة بـأي شيء تقريبًـا، الأمـر الـذي انعكـس عـلى حيواتهـم بوشـائج متينـة مـن الصداقـة والأخـوة داخـل الفريـق مـن ناحيـة، وبحواجـز كثيفـة مـن الحـذر والانغـلاق خـارج الفريـق مـن ناحيـة أخـرى. يشـمل مـسرح عملياتهـم اليومـي العالـم أجمـع، غـير أن حيواتهـم الشـخصية تنكمـش عـلى النقيـض مـن ذلـك لأبعـد حـدود الانكمـاش، كالسـبيكة تنضغـط وتنصهـر عـلى أنـواع متباينـة مـن الفلـزات. وهكـذا، رغـم وجودهـم في مـكان عـام، بالقـرب مـن زحـام كثيـف، بـدوا للناظـر البسـيط ككتلـة متوحـدة بذاتهـا، لا شـأن لهـا بمـا يحـدث خـارج دائـرة مجلسـهم الضيقـة.

لـم يخـرج عـن سربهـم سـوى قائدهـم: ضابـط صـف بحـري، «ماسـتر تشـيف»، جايكـوب «جايـك» بينجامـين. شـابٌ عشريـني متـين البنيـة، طويـل الجسـم، كثيـف اللحيـة، شـديد بيـاض البـشرة. لـو ضـم اليـوم وغـدًا وبعـد غـد إلى حسـاب أيامـه، لقـال بمـرور عـشرة أعـوام عليـه في القـوات الخاصـة، صعـد خلالهـا السـلم الوظيفـي صعـودًا اسـتثنائيًا سريعًـا.

لـم يكـن قـد مـضى عـلى عـودة جايكـوب ورفاقـه إلى الوطـن أكـثر مـن أسـبوعين، وكانـت تلـك إحـدى عطلاتهـم القصـيرة خـلال العـشر السـنوات الفائتـة، الـتي أقامـوا الـردح الأكـبر منهـا في مـصر. هنـاك، في ديـار الغربـة، بـين القاهـرة والإسـكندرية وسـيناء، يطـول مقامهـم لأشـهر ثلاثـة أو أربعـة، يخرجـون فيهـا إلى القتـال كل ليلـة، أحيانًـا مرتـين أو ثلاثـة في الليلـة الواحـدة. وفي غـير سـاعات القتـال، يعيـش هـؤلاء الشـباب في معـزل عـن الوحـدات التقليديـة، في قسـم مُقفـل مُخصـص لهـم دون غيرهـم في قاعـدة جـون ديكنسـون العسـكرية. وداخـل ثكناتهـم، وفي غالـب الأحيـان، يفتقـدون وسـائل الرفاهيـة المتاحـة للجنـد الآخريـن، كمـا يتسـم جـدول حياتهـم اليومـي بالصرامـة والانضبـاط، لحـد يجـاوز أي وحـدة أخـرى مـن وحـدات القـوات المسـلحة.

مـرت سـاعات هـذا النهـار اللطيـف عـلى جايكـوب وهـو بمعـزل عـن رفاقـه، عـلى الرغـم مـن أنـه هـو نفسـه مـن وجّـه الدعـوة إلى رجالـه اليـوم لحضـور هـذا الحفـل، وأنـه هـو نفسـه مـن تكفّـل بنفقـات هـذه الدعـوة، جريًـا عـلى عادتـه في رعايـة رجالـه وأسرهـم والترفيـه عنهـم في العطـلات وأوقـات الراحـة. بـدا اليـوم وكأنـه يعـاني مشـكلة مـا كبحـت مزاجـه المنطلـق، فقـضى يومـه متسـكعًا عـلى الشرفـة. نعـم، تقلّـب مـع مرافقيـه في مغانـم برجهـم العاجـي، لكنـه كان قلبًـا وقالبًـا مـع هـؤلاء العـوام بالأسـفل.

fb/mashro3pdf

جال جايكوب ببصره متفحصًا الجموع، واستطاع تمييز عدد لا بأس به من العارضات المحترفات، منهن مثلًا أشلي كلاركسون، وماريون كوهين، وأودرينا كوبر. لكن باربي نيكول هي من لفتت نظره؛ لأنها اكتسبت شهرتها من كونها عشيقة سابقة لرئيس تحرير مجلة «آنجل هاوس»، وصاحبة القضية الشهيرة ضد موقع «وايكيكي»، بشأن تداول فيديو ظهرت فيه وعشيقها وهما يمارسان الجنس في أحد شواطئ إسبانيا. استلقت باربي على أحد الأسرّة النهارية، واحمرت بشرتها بسبب أشعة الشمس المنصبة عليها. لم يكن المنظر محببًا، بل لم تبدُ في عيني جايكوب أكثر من فخذ خنزير تتحمص تحت لهيب الشمس ببطء. إن جسمها هذا الذي تباهي به الجماهير، شمعيٌّ عجيب الزوايا، ومُعزَّز جراحيًا ليحقق نسبًا قد تكون مستساغة في دنيا السيلوليت الهزلية، لكنها لا توائم دنيا الواقع.

تساءل جايكوب في نفسه: كيف يكون شكل هذه الدمية الشقراء عندما تبلغ الأربعين؟ وكيف يكون شكل هؤلاء العارضات الأخريات، اللاتي تفنن في الإقدام على أفعال جريئة لتهييج الحاضرين؟ من شقراوات إلى شمطاوات خلال سنوات قلائل.. هذا هو المصير الوحيد المتوقع.

يعلم جايكوب من واقع خبرته بهذه المنتجعات، أن حفلات أحواض السباحة الموسمية تلك وغيرها تدار بذات العقلية التسويقية التقليدية، التي تعمد إلى استضافة المشاهير كطُعم لاستدراج الجمهور. بطبيعة الحال، تُقبِل الكثير من النجمات على رعاية هذه الحفلات مقابل مبالغ مالية كبيرة، وذلك من دون أن يفعلن شيئًا في الواقع سوى التمطط حول أحواض السباحة، واستعراض إنجازات الجراحات البلاستيكية، التي تحتال لإصلاح ما يفسده الزمن وسوء التغذية والعادات الليلية القبيحة. هن ممثلات ومغنيات وعارضات أزياء، يرقصن في أحدث تقاليع البيكيني، ويحتفلن بأعياد ميلادهن وسط الجمهور، ويقدمن مادة دسمة للصحف الصفراء ومجلات الفضائح، وهو المطلوب.

لم يدرِ جايكوب إن كان عليه أن يتفاءل بالخير في هذه الأمسية أم لا. إن به غلمة ضاغطة منذ عاد من مصر، لم يفلح في إرضائها أو وأدِها لأيام متتالية. يأمل اليوم في أن يجد ضالته، لكن إلى الآن لم تبدُ الخيارات المتاحة مبشرة. إنه يبحث دومًا عن عينات يحسبها نادرة، ترضي مزاجه الانتقائي المرهف. تلك العينات قد لا تتوافر بالضرورة في

fb/mashro3pdf

عالمه المتحضر المكبّل بالقوانين، مع الأخذ في عين الاعتبار وضعه الاجتماعي الدقيق، الذي يفرض عليه الحرص ومراقبة النفس. لذا، على الرغم من مشاق الحياة في الشرق الأوسط، لم يكن يجد لذته إلا هناك، وسط البؤس والحر والتراب. أمّا وقد أُجبر على الوجود ها هنا في عطلة، فعليه أن يقبل بما يجد، أو أن يضطر إلى قضاء ليلة أخرى أمام بعض المواد الفيلمية المكدسة في حاسوبه الشخصي الصغير، والمُجَرَّمة قانونًا.

مسح المنطقة بصريًا، محاولًا الاهتداء إلى فريسة بعينها، مستخدمًا نظارته الشمسية كمنظار مقرب. لم يكن هناك ما يميز نظارته من جهة الشكل أو الطراز، سوى كمون حاسوب دقيق متعدد الوظائف داخل إطارها الرياضي الأنيق. لا تسمح له اللوائح باستخدام هذه النظارة في الأماكن العامة، لكن جايكوب لا يمكن اعتباره مثالًا يُحتذى به في الانضباط العسكري أو التزام الأوامر، فضلًا عن أن الاستقامة والنزاهة ليستا من مزاياه. بعض المناظر التي رآها سرّته، وأخرى آذت عينيه. ومهما يكن من أمر، لم يعدّ جايكوب ما يجري أمامه مُشوِّقًا أو مثيرًا، بل بالأحرى مضجِرًا ومثيرًا للشفقة. لا بد أن تدرك المرأة الرشيدة متى تكشف صدرها ومتى تخفيه، وإن ثُلّة من هؤلاء النسوة المتحررات ينبغي أن يخفين أثداءهن رحمة بالناظرين، وإلا لأفسدن الذوق العام، ونزلن بمواصفات الجمال القياسية إلى منازل دنيئة.

ظل على حاله في التلصص الممل، إلى أن رأى في عدستي نظارته مشهدًا مقربًا لشابتين تتبادلان أطراف الحديث في ظل نخلة من نخيل الكناري. كانتا في تشابه الملامح والقالب البدني كأنهما أختان، إذ حازت كل منهما على وجه ذي معالم طفولية متوازنة، وجمال أخّاذ. البشرة نضرة مُسلّمة، والشعر أشقر منساب، يكاد بنور الشمس أن يسطع. الأطراف عضلية نحيفة، تدعم جسمًا مشيقًا مضبوط الزوايا موفور العافية، يزينه صدر برعمي رياضي، لا بروز فيه ولا رخاوة. توافرت فيهما المقاييس المعيارية المطلوبة لعارضات الأزياء، من جهة النحافة والطول، وسلامة التكوين العضلي والعظمي.

فارت نفس جايكوب بِشْرًا وهو يتفرس في جسدي الفتاتين. العينة جيدة. قد لا توفي على المواصفات المثالية، لكنها تفي بالغرض مؤقتًا. تغيرت مجريات الكيمياء في جسده بسرعة، فأحس بانشداد في جلده، وارتعاش في جفنيه، واضطراب في أمعائه. لم يشعر بهذا التوتر والانحباس منذ عدة أيام، لذا لزمته الحركة فورًا.

fb/mashro3pdf

لـم يلتفـت إليـه أحـد مـن رجالـه إذ يغـادر الفيـلا عـلى عجـل، وينحـدر عـلى السـلالم الرخاميـة المؤديـة إلى حـوض السـباحة. شـق الجمـوع اللاهيـة متجهًـا إلى الحانـة المفتوحـة، فحيّـاه مديـر المشروبـات بحـرارة مـا أن رآه، وسـأله منتبهًـا إن كان يحتـاج إلى مسـاعدة.

سأله جايكوب عن أغلى كوكتيل في قائمة البار، فأجاب الرجل دون تردد:

- جوزيفين دي بوارنيه.

- أهذا اسم كوكتيل؟

أومأ مدير المشروبات دلالة الإيجاب، فسأله ماثو مدهوشًا:

- ما هذا الاسم؟

- إنـه أرق شراب لدينـا. لا نقدمـه هنـا بطبيعـة الحـال. سـآتي بـه إليـك مـن حانـة البحـيرة. خليـط مـن شـمبانيا «دوم بيريجنـو»، وعنـبري «تشـامبورد رويـال دو فرانـس»، مـع بعـض رذاذ مـن عصـيري الليمـون والتـوت الـبري، وشريحـة برتقـال واحـدة. لهـذا السـبب اخترنـا لـه اسـم الإمبراطـورة جوزفـين، زوجـة نابليـون بونابـرت.

- لا أستطيع حتى أن أتهجاه. رجاءً قُلْه مرة أخرى.

أعاد الرجل قوله، فأومأ جايكوب، وقال مشيرًا إلى جهة بعيدة:

- أريـدك أن تأخـذ كأسـين منـه إلى هـذه المنضـدة هنـاك. عـلى صينيـة التقديـم ضـع ورقـة مكتوبًـا عليهـا: «مـن جايـك.. مـع حـبي». أريـدك أن توصـل الطلـب إليهمـا بنفسـك، وأن تشـير إلى مـكاني عـلى البـار. فهمـت؟

أومأ الرجل دلالة الإيجاب، وانطلق من فوره لتحقيق طلب السيد.

اتجـه جايكـوب إلى الحانـة، وطلـب مشروبًـا، وأثنـاء انتظـاره لـم يحـول عينيـه عـن الشـابتين. استلقت كل منهمـا عـلى ظهرهـا في «مونوكيـني» سـفلي رقيـق، وأسـلمت جسـدها القـوي النحيل إلى أشـعة الشـمس عـلى الأريكـة الشـاطئية. أولمـت عينـا جايكـوب مـن بشرتيهمـا المكسـوتين بالكريـم الـواقي مـن الحـروق الشمسـية، إلى أن دخـل مديـر المشروبـات المشـهد. بـدا بزيـه الرسـمي المحكـم وحذائـه اللامـع وغلالـة العـرق المتألقـة عـلى وجهـه، وكأنـه قـادم مـن عالـم آخـر. توازنـت عـلى يـده اليمـني صينيـة فضيـة، اسـتوت عليهـا كأسـين مـن الكريسـتال، أترعتـا بالمشروبـين الفاخريـن، وبينهمـا طويـت بطاقـة سـميكة. اعتدلـت الشـابتان لمّـا حدثهمـا الرجـل بـأدب، ونظرتـا إلى البطاقـة، ثـم إلى جايكـوب. رفـع الشـاب مشروبـه عـلى الفـور، ورسـم عـلى

fb/mashro3pdf

شفتيه ابتسامة ظنها جذابة، لكنها امتلأت بحب الذات والاغترار بالنفس، كأنه تحت تأثير شعور دائم بعِظَم الأهمية وعلو المكانة. وفي بيئة تقدس المال والجاه والشهوة، أدت الابتسامة المطلوب، فأخذت الشابتان بكأسيها، ورفعتاهما ردًا لنخبه، ثم شربتا شربة واحدة على سبيل الاختبار.

بانت على وجهيهما علامات الاستحسان، فيما استمر مدير المشروبات في الحديث المتودد إليهما حتى ضجر جايكوب، وقال في نفسه متأففًا: «يمكنك أن تصرف الآن، يا بليد العقل».

أراد الرجل أن يؤدي رسالته كاملة، فشرح أوجه الجودة الحصرية في الكوكتيل المقدم، ثم لم ينصرف إلا وقد كتبت إحدى الفتاتين شيئًا ما على ظهر البطاقة. هنا أثلج جايكوب صدرًا، وامتنّ لهذا المأفون.

ولما أتاه الرجل مسرعًا، وسلّمه البطاقة، وجد مكتوبًا عليها: «تعالَ إلينا، أيها الغلام الكبير».

لم يخالج الشك قلب جايكوب لحظة في أن الشابتين ستستقبلان مبادرته بالإيجاب؛ لأن من مواهبه الفذة القدرة على استشعار نوعيات من الإناث تجتذبهن «الكاريزمات إجرامية الطابع». وإنه منذ اشتد عوده، حسب أنه أقرب بحدة ملامحه وصلابة بنيته في الشكل إلى بطلجية القوقاز المنتمين إلى تنظيمات المافيا الروسية السينمائية (وهو تصور طالما أسعده).

وهكذا، كَوَّر البطاقة ظافرًا، واتجه إلى الشابتين على الفور. ولقد أعجبهما في الثواني التي استوعبها للوصول إلى موقعيهما، بخطوه الواثق، ووجهه الجميل، وقوامه الأبيض المزين بأوشام «زينومورفية» متقنة، غطت صدره الصلب وذراعيه المفتولتين. هذا بالإضافة إلى كمالياته التي لا تغفلها الأعين الخبيرة، مثل ساعته «رولكس دايتونا» المصنوعة من الصلب والذهب الأبيض، وقلادته الذهبية التي يزيد وزنها عن السبع مئة جرام. ثم إنه ارتدى «مايوهًا» لصيقًا موجزًا، راكم أعضائه ونفخها بين فخذيه، بفضل وسادة تحتية مخبوءة، فبدا في عز عنفوانه وفحولته، كجواد فتي في حومة فترته النزوية.

وعندما وصل إليهما، تفحصتاه الشابتان من أعلاه إلى أسفله، بأعين ملونة واسعة، فيها التماع ودهاء.

fb/mashro3pdf

حام بصرهما حول أوشامه الملونة وعضلات بطنه الستة البارزات، ثم بادرته إحداهما بذكر المشروب والإثناء عليه، وأعربت له بشيء من السخرية عن شكرها على لفتته الكريمة تلك. ثم قالت:

- لقد رأيناك هذا الصباح.. قبل أن يمتلئ المكان بالناس.. إلى أن صعدت إلى فيلتك الخاصة تلك بالأعلى، مع أصدقائك هؤلاء.. ونسائهم.

تكلمت بإنجليزية غليظة اللحن، ذات لكنة أوربية. تأمّل جايكوب جسديهما عن قرب، فامتلأت نفسه سرورًا وهو يسمع الأخرى تقول باستخفاف، وهي تضيّق عينيها، وتميل برأسها:

- أود أن أصرح لك.. يا جايك.. هذا هو اسمك.. جايك؟ أود أن أقول لك، إن هؤلاء النسوة بالأعلى، اللاتي تضيعون عليهن وقتكم ونقودكم.. أفضل التكهنات تقول إنهن ربات بيوت مملات.. وليتهن كذلك فحسب...

وأكملت الأولى القول وهي تبتسم:

- أحب أن أقول لك أنا أيضًا.. إنني يمكنني بسهولة أن أحدد اثنتين منهن على وجه التحديد.. بل اثنتين على أقل تقدير.. ولعلهن ثلاثة.. ينمن مع رجال آخرين.. هه؟ ما رأيك؟ أنا راقبت مجموعتكم عن قرب منذ الصباح الباكر، ويمكنني أن أشم رائحة المرأة التي تفجر برجل غير رجلها.. هه؟ ماذا تقول في ذلك؟

هز جايكوب كتفيه مظهرًا اللا مبالاة، ولم يكن قد شعر في واقع الأمر بأي ضيق مما قيل؛ لأنه لم يكن يحب أيًا من زوجات رجاله، ولو أن الأمر بيده لاشترط على رجاله قبل مجيئهم أن يتركوهن خلفهم. لكنها باقة واحدة بكل أسف، وهو ملزم أخلاقيًا برعاية رجاله وأسرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. «إن جايك يحسن العناية برجاله!» هكذا ذكّر نفسه. هذا أمر. الأمر الآخر أنه كان يعلم، من واقع خبرته، أن حديث الفتاتين التافه هذا، لا يُعد حدسًا نسائيًا جديرًا بالاعتبار مثلًا، بل لا يعدو كونه شد ساق، على سبيل المشاكسة، والتعرف على مزاجه ومعدنه. وكان على حق في ظنه هذا؛ لأن الشابتين كانتا على دأبهما في استفزاز من يعرض نفسه عليهما من الرجال، من أجل التسلي والاستلذاذ بإهانة الذكور ابتداءً، ثم اختبار جدية الرجل وقوة شهوته تجاههما، وهو المعيار الأهم في تحديد خطوتهما المقبلة.

fb/mashro3pdf

ولقد نجح جايكوب في الاختبار. تجاهل التعليق، ونحّى الموضوع كله جانبًا ليسألهما بجدية:

- ما ظنكما بهذا المكان؟

- لماذا تسأل؟

- هل أنت مسؤول مراقبة الجودة هنا، أو شيء من هذا القبيل؟

- لأنك لو فعلًا تعمل هنا.. أقول لك من الآن إنك فقدت فرصتك معنا. نحن لا نواعد رجالًا من الطبقة العاملة.

قالتها الأولى بنبرة منذرة، فقال جايكوب بسرعة:

- أسألكما كزبون مخلص للمكان، وكمنفق كبير للمال هنا، وصاحب نفوذ.

تبادلت الشابتان النظر بتفكير، ثم قالت إحداهما:

- خدمة خلط وتقديم الشراب سريعة وجيدة.

- الـ«دي جي» رائع.

- الأسعار تتراوح بين الغلاء المعقول، والغلاء المبالغ فيه.

- يعتمد على ما تطلب، لكنها التزمت الإطار العام للأسعار في فيجاس.

- لكن بالمقارنة بهذا الكوكتيل الذي أتحفتنا به.. لا أذكر أني رأيت مثل هذا في قائمة المشروبات.

قالتها الأخرى بتدلل، فقال الشاب باسمًا:

- هذا الكوكتيل لا يتوافر للضيوف العاديين، وسعره لا يقدر عليه إلا أمثالي.

رفعت الشابة أحد حاجبيها بعجب ساخر، لكن جايكوب تواضع إليهما فورًا مادًا يده ليصافحهما مصافحة دمثة، وقدم نفسه متلطفًا، فقدمت الفتاتان نفسيهما تحت اسمي «بترا» و«فيليبا». بعد ذلك مباشرة انخرط الثلاثة في حوار ودود، علم منه جايكوب أنهما عارضتا أزياء من السويد، وأنهما أنهتا أمس أربعة أيام تصوير في فيجاس، وأنهما هنا اليوم للاحتفال حتى شروق الشمس، قبل عودتهما غدًا إلى أوروبا.

- الوتيرة الطبيعية بعد العمل.. نهار عند حوض السباحة، وأمسية مع عشاء جيد، وصحبة لطيفة.

قالتها بترا بسلاسة، ثم استلمت منها فيليبا الزمام، فتحدثت باستخفاف عن صعوبة

fb/mashro3pdf

العثور على ذَكَر لائق لتمضية ليلة لطيفة، وصارحته بأن اختيارها وزميلتها وقعا عليه منذ الصباح؛ لأنه -بحاله وهيئته- يمثل إرهاصًا من إرهاصات الخيال الجامح التي تراودهما مع الثمالة. أخبرته بترا أنه «يشبه رئيس عصابة ثري، من شرق أوروبا»، ثم صارحته فيليبا بأنه إن كان يظن أنه هو من استهدفهما، فهو واهم؛ لأنهما استدرجتاه في واقع الأمر إلى موقعيهما، بواسطة «التلباثي»، وأسهبت الشابة في تبيان قدرتهما على توجيه أفكار أشخاص معينين بواسطة التخاطر العقلي.

لم تخفِ الشابتان خفة عقليهما، دون افتعال أو سابق تحضير فيما يبدو، ولم يدهش جايكوب لهذا السلوك الرقيع البتة. إنه خبير بهذا المكان وأمثاله، ويعلم أن «ديفاين جاردنز» يعطي لمرتاديه جرعة منشطة، تيسِّر لهم نبذ أي كوابح أخلاقية أو موانع عرفية، ويعلم كذلك أن المتعة هنا قيمة جوهرية تسعى إلى أن تتحقق إلى حد التشبع، إضافة إلى أنه معتاد على مخالطة مختلف أنواع المترفين، من المجتهدين والموهوبين والكسالى، والمدللين والفاسدين والتائهين، والأذكياء والأغبياء والمعاتيه.

- وبالتالي.. هل ستأخذنا، أيها الفتى الكبير، إلى مكان ما لطيف ومكيف، كي نرتاح قليلًا من الحر والزحام؟

دحرجت بترا سؤالها وهي تتثاءب، فسألهما جايكوب مباشرة إن كانتا تريدان رؤية فيلته بالفندق.

قالت فيليبا باستهزاء:

- الغلام يتفاخر بـ«فيلته» في الفندق.

- إنه جناح فاخر يجاوز أحلامكما. أظن أنكما لا تريدان أن تفوّتا رؤيته.

- لعلك لا تريد أن تفوّت رؤية هذا أيضًا.

قالتها بترا بثقة، ثم فتحت حقيبتها الشاطئية، وأرته بضعة أقراص من مخدر «إكستاسي»، وكيس بلاستيكي شفاف يمتلئ بالكوكايين. علم جايكوب من النظرة الأولى أن الكوكايين سيء الخلط، من لونه العَكِر، لكنه تظاهر بالدهشة والإعجاب. لم يأبه كثيرًا لهذا المخدر أو ذاك على أي حال، ليس عن تعفف أو تأفف. إنه لم يترك صنفًا في السوق إلا وجربه في صدر شبابه، لكنه الآن إنسان مختلف. مرت عليه سنوات طوال لم يقرب فيها ما يُقبِّح بدنه أو يؤذي صحته. ربما تتوق نفسه إلى تجربة هذا الصنف أو

fb/mashro3pdf

ذاك مع صحبة السوء، لكنه يعلم أن مرة واحدة، مع الشخص الخطأ، والصنف الخطأ، كفيلة بأخذه إلى منعطف خطير، قد ينهي حياته المهنية إجمالًا. لكن إن رأت الشابتان أن المخدرات ستساعدهما على قضاء أمسية طيبة، فليكن. لتستنشقا ما تشتهيان من مخدرات، ولو كانت مغشوشة، أو حتى مسمومة.

انتهى الثلاثة بعد برهة إلى بهو مُجمَّع حمامات السباحة، ووقفوا ينتظرون هبوط المصعد. ارتدى جايكوب قميصًا رماديًا من القطن، وسروالًا أبيض قصيرًا، وسترت الشابتان نفسيهما بفستاني شاطئ فضفاضين قصيرين؛ لأن إدارة الفندق لا تسمح للضيوف بالتجول في ألبسة البحر خارج منطقة أحواض السباحة. ولم تمضِ دقائق خمسة حتى فتح جايكوب باب فيلته الفندقية، ودلف الثلاثة إلى الداخل.

لا ينكر زائر أو نزيل أن «سيليستيال» من أفخم فنادق لاس فيجاس قاطبة، بل إن الغلو في الفخامة من الصفات الملازمة لكل ركن فيه. لكن ما أن جاوزت الشابتان عتب الباب حتى أحستا بنقلة نوعية، من فخامة عامة إلى فخامة حصرية، متناهية الكمال والضبط، في مساحة واسعة جميلة التنسيق، مجهزة بأثاث من خشب الماهوجاني، وأرضيات من رخام كرارا الإيطالي، وتحف من الخزف الفاخر.

سألت بترا عن موقع غرفة النوم، وأخذت بيد صاحبتها إلى هناك. صعدت الشابتان الدرج الرخامي بخطوات رشيقة وثابة، انتهت بهما إلى غرفة النوم الرئيسية. دخل نور الشمس ساطعًا من نافذة الطابق السبعين الكبيرة، وأضاء غرفة النوم الباذخة، ذات اللون الذهبي الملوكي والحوائط المبهرجة والفراش الدائري المنمّق. وعندما وصل جايكوب إلى الغرفة، نما إلى سمعه خرير الماء المنهمر من الدُّش. حكّ لحيته مفكرًا، وحدّثته نفسه أن يدخل إليهما، لكن الشابتين خرجتا إليه في اللحظة التالية مباشرة، بوجهين نظيفين نضرين، وبشرتين تفوح منهما رائحة عَطِرَة، وقد لفّت كل منهما حول بدنها بشكيرًا.

إن من شأن سباع البراري التقديم لأنفسهم بالملاطفة والمداعبة، قبل أن ينزو بعضها بعضًا. أما هاتان المذؤوبتان -كما تصورهما جايكوب في تلك اللحظة- فقد تداعتا عليه من كل جانب كما يقع الوحش في الغنم، دون مقدمات متزامنة أو تعقيدات إجرائية.

لعقت بترا شفتي جايكوب، وهمست له: «مرحبًا بالغلام الكبير»، وخلعت فيليبا عنه قميصه عُنوة، وأنشبت أظافرها في جذعه قائلة بخشونة: «أنا أحب أوشامك» ثم انفتلتا

fb/mashro3pdf

عنه، واتجهتا إلى منضدة رخامية تقع إلى جانب الفراش. أفرغت عليها فيليبا مسحوق الكوكايين من كيسه الشفاف، وقامت بخرطه وتسويته وتجزئته إلى خطوط متوازية. أشارتا إلى جايكوب بحماسة كي ينضم إليهما، ثم لم تباليا باستنكافه، بل كأنهما نسيتا وجوده تمامًا، فتداعتا على المخدر بالاستنشاق المتبادل، في استغراق وتركيز.

في الدقائق التالية لم يحدث شيء، حتى جزم جايكوب أن الفتاتين إنما استدرجتاه لكونهما في حاجة إلى غرفة مغلقة، يمكنهما فيها معاقرة المخدر. وبعد خمس دقائق أدرك من طريقة سفّهما للكوكايين أنهما مختلتان عقليًا. ثم إنهما انطلقتا في الحديث بهذيان متتابع عن حياتهما الشخصية والمهنية، وأخبرتا جايكوب أن حلمهما الأول كان المثول أمام كاميرات «إيربان كاندي»، تمهيدًا لأن ينضما لقائمة عارضات «إيربان كاندي» الرسميات.

قال لهما جايكوب بسأم، وقد وضع كفيه في جيبي بنطلونه القصير:

- أنتما فعلًا لطيفتان، لكنكما لستا مادة صالحة لإيربان كاندي.

- وما السبب في ذلك، أيها السيد الخبير؟

هكذا سألته فيليبا بتحدٍ، فرد جايكوب ببساطة، كمن يذكر أمرًا مُسلّمًا به بداهة، ولا يحتاج إلى دليل:

- لأنكما تبلغان من النحافة أنكما تبدوان مثل البنات المراهقات. لا أعد ذلك مشكلة. في حقيقة الأمر، وقع اختياري عليكما لهذا السبب بالذات.

- وقع اختيارك علينا، لأننا نبدو مثل البنات المراهقات؟

- هل لديك مشكلة في هذا؟

- لا، الظاهر أن المشكلة عندك أنت.

أدرك جايكوب ما تقصد، فقال مفسرًا:

- أنا فقط لديّ ذوق خاص فيما يخص للنساء. ولكي أصدقكما القول، أنتما لا ترقيان إلى عُشر معشار ما أصبو إليه في أي أنثى.

- هذا الذي تقوله كلام تافه وفيه رسالة سلبية. كأننا مخلوقات ممسوخة. لكن لأن لديك ميولًا فيتيشية، اخترتنا لصحبتك.

- ولمعلوماتك.. القواعد التي تضعها إيربان كاندي، اللازم توافرها في العارضات، سخيفة وظالمة وغير واقعية. أنواع أجسام الإناث تختلف، وكل نوع فيه جمال.

fb/mashro3pdf

- الرجال أذواقهم تختلف يا حلوتي. السواد الأعظم من الرجال، يحب قوام الساعة الرملية المدور.

- هذا محض هراء! مصورو المجلات إنما يلبّون أحلامهم المريضة في عارضاتهم، لا أكثر.

- لا أريد أن أكون متحاملًا.. لكن أغلب الرجال من جمهور هذه المجلات، يحبون هذه المقاييس الظالمة.

- لأنكم جميعًا شيفونيون متعفنون.

- لست شوفينيًا متعفنًا. أظن أنكما في غاية الجمال، وتثيران في رأسي أفكارًا جامحة.

- تعالَ إذن أدِّ واجب الإعجاب والتقدير، أيها الغلام الجامح.

قالتها فيليبا بنبرة هجومية، وقرنت القول بالعمل، إذ تشد الشاب من سرواله القصير بقوة، كأنها تريد تمزيقه. رفع جايكوب يديها عنه، وقال مدهوشًا:

- هوّني عليكِ يا فتاة. لا اعتراض لديّ على العنف، لكن دون تمزيق الملابس.

نزعت فيليبا يديها من يده، وأطبقتهما مرة أخرى على بنطاله، وفتقته بقوة، فطار زره وانفتح زمامه وانقطعت خياطته، ثم إنها قبضت على أعضائه بخشونة. جاء رد فعل جايكوب سريعًا إذ يدفعها بعيدًا عنه قبل أن تبدأ في إيلامه أو إيذائه.

تقدّمت بترا نحوه، وحاولت أن تدفع قرص «إكستاسي» في فمه، فأبعد جايكوب وجهه بنفور وتمنّع، وهتف بها محتدًا:

- أنا لا أتعاطى مثل هذه الأشياء.

- استرخِ أيها الوحش. لسنا في معركة.

- ليس لديّ مانع في أن تتعاطيا ما تريدان، لكن لا تفرضا عليّ شيئًا.

قالها وهو يتقهقر. أحس لحظتها بالضيق، وبأن الموقف يخرج عن سيطرته، وفكر جديًا في طردهما، لكن الشابتين كانتا قد دخلتا فيما يبدو في طور من الثمالة، إذ تحلان عن جسديهما البشكيرين، وتدفعان نفسيهما تجاهه، وتُقبّلان بطنه وتدعكان فخذيه وتحاولان تعريته.

- تعالَ، دعنا نخلع عنك هذا المايوه.

هكذا همست بترا في أذنه، بينما تقوم فيليبا بشد المايوه لأسفل قائلة:

fb/mashro3pdf

- هيا يا بطل، أرنا ما لديك.

مأخوذًا بشعوره الانفعالي، أعرض عنهما وابتعد هاتفًا بغلظة:

- انتظرا، توقفا.

نظرت إليه الشابتان باستغراب، وكانتا فيما يبدو على وشك الوصول إلى ذروة تأثير المخدر. لمعت بشرتاهما بالعرق، وارتفع صدراهما وانخفضا من شدة اللهاث، لكن رد فعل جايكوب النافر أعاد إليهما شيئًا من الرشد والإدراك في ظاهر الأمر.

تساءلت فيليبا مُحتجّة:

- ماذا دهاك، أيها المعتوه؟

- لا تدعي هذا الحثالة يفسد يومنا.

قالتها بترا بلغة غريبة، لم تكن الإنجليزية، ولم تبدُ جرمانية كذلك، بل دخلت أذني جايكوب بوقع سُلافي، كأنها الروسية أو البولندية. لم يجد جايكوب وقتًا للتفكر في ماهية اللغة؛ لأن بترا احتوت وجه فيليبا بكفيها، ولامسته بقبلات متتابعة من شفتيها، فما لبثتا أن انعطفتا معًا إلى الفراش.

أمعن جايكوب النظر في هذا التحابك المُصطنع، واقترب من الفراش ببطء. لم يُرِد اقتحام تلك الكتلة المتشابكة على حين فجاءة، ثم إنه شيئًا ما لفت انتباهه، فانتهزها فرصة، وقال مفتتحًا الحوار:

- لا تؤاخذاني.

لم تلتفت إليه أي منهما، فكرر عبارته بصوت أعلى. رفعت بترا رأسها، والتفتت إليه فيليبا، ومسحت شفتيها مما علق بهما من رضاب، ثم سألته بخشونة:

- ماذا تريد؟

تقدم جايكوب، ومال برأسه ناظرًا بزاوية دقيقة. ثم أشار بسبابته إلى نقطة بعينها، وقال متسائلًا:

- اعذراني لجهلي. لكني أظن أن حياتكما تخلو من الأصدقاء.

- ولمَ؟

- أعني، لو أن في حياتكما صديقًا، أو شخصًا يهتم لأمركما.. لحاول على الأقل منعكما من وضع هذا الوشم الغبي.

fb/mashro3pdf

لمع تساؤل في وجهيّ الشابتين، ثم أدركتا ما يقصد. على يمين عانة كل منهما، رُسِم وشمان هزليان متطابقان لقط صغير ضاحك واسع العينين.

طبطبت بترا على موضع الوشم، وقالت بتهكم:

- أنا صديقتها الوحيدة.. وعندما قالت لي إنها ستضع وشمًا للقط فيليكس، قلت لها: «اخرجي من هنا أيتها المعتوهة! ألم تجدي فكرة أسوأ من هذه؟!» ثم انتهيت إلى أن وشمت نفسي ذات الوشم.

قال جايكوب متسائلًا:

- ما هذا القط فيليكس؟

- بحق الجحيم، اخرج من هنا! ألا تعرف القط فيليكس؟

هز جايكوب رأسه يمنة ويسرة دلالة النفي، فقالت فيليبا بلغتها الأم، وهي تزفر بسأم:

- الأمريكيون الجهلة الملاعين!

سألته بترا بجدية، وهي تنظر في عينيه مباشرة، وتضم فخذيها وتفرجهما بحركة رتيبة كالمقص:

- اسمح لي أن أسألك.. هل يؤثر الوشم في جودة الفرج، أو سلامته، أو نظافته مثلًا؟!

رد جايكوب بهمة:

- على الإطلاق، لا.

- هيا إذن أيها الولد الشقي، فيليكس هنا، وفيليكس هناك، يحتاجان إلى بعض الملامسة، وبعض الملاطفة.

*****

لم يكن ثَمّ مفاجآت أو تشوق فوق الطبيعي. لم يضيع جايكوب وقتًا، بل أخرج من خزانة الأدراج المجاورة للفراش شريطًا من الرقائق الفلزية المفضضة، المطبوع عليها شعار ماركة «أوريجامي». فصل منها مظروفًا، وفتحه من حافته المتعرجة على عجل، لكن بحرص، لئلا يمزق محتواه. أخرج العازل السيليكوني الرقيق بطرفي إبهامه وسبابته،

fb/mashro3pdf

ويبسطه على ذكره الصغير، تاركًا من طرفه غيضًا كافيًا لمراكمة مائه بعد القذف. يحرص جايكوب على اتّباع احتياطات الأمان قدر الإمكان؛ لأن فرصه في التقاط الهربس التناسلية مثلًا أو فيروس الورم الحليمي ليست ضئيلة، مهما اتُّبع من إجراءات احترازية. غني عن البيان القول بأن لقاءاته الجنسية تتسم في الغالب بالعشوائية، وتتم مع شركاء مجاهيل. إن الإصابة بعدوى أو فيروس أمر يؤسف له من دون شك، لكن حريّ به إذن أن يعتزل الدنيا، أو أن يترهبن في الكنيسة الكاثوليكية، إن أراد جنسًا عشوائيًا خاليًا من المخاطر.

عزم على البدء في السفاد مباشرة، والانتهاء منه سريعًا؛ لأنه أحس بارتباك وتراكم للغازات في أمعائه. مر عليه مئة واثنان وسبعون يومًا بالتمام، ألزم نفسه فيهم بنظام غذائي نظيف وصارم، لم يحِد عنه ساعة، إلا في أضيق الظروف، من أجل الوصول بجسمه إلى حال الانفتال العضلي الممتازة تلك. اليوم أعطى نفسه راحة قصيرة، أو ما يسمى في عالم اللياقة البدنية بـ«يوم الغش»، وذلك لإنعاش معدل حرق الدهون في جسمه.

التهم على مدى ساعات النهار كميات كبيرة من الفطائر المُحلاه، وبيتزا الببروني مزدوجة العجين، وكعكعات البراوني الغنية بالشوكولاتة، ولم يغنِ عنه الكرنب المخمر الذي أكله نيئًا قبل كل وجبة، على أمل أن يساعده على الهضم. إنه يشعر الآن ببقبقة في أمعائه وضغط غازي يكاد يفلق إسته. من دون شك فكر في اللجوء إلى دورة المياه في التو، لقضاء حاجته وإراحة بطنه، وبالتالي مباشرة الجماع ببدن مسترخٍ ونفس طليقة، لكنه صرف نظره عن هذا الأمر في اللحظة التالية مباشرة؛ لأنه لم يكن يأمن على أغراضه في الفيلا من أن تطالها أيدي الشابتين بالنبش أو السرقة، والأغراض كثيرة وثمينة.

أخذت منه فيليبا زمام المبادرة إذ تنزع عنه العازل بحركة سريعة مفاجئة. أراد أن يعترض، لكنها فحت في أذنه قائلة:

- لم يحن وقت المطاط بعد.

ودندنت بترا في أذنه الأخرى، وهي تعض شحمة أذنه عضًا رفيقًا لطيفًا:

- لا تقلق. سوف نلبسك إياه، عند الحاجة إليه.

وأكملت فيليبا:

- استرخِ الآن، واتركنا نؤدي عملنا.

fb/mashro3pdf

«نـؤدي عملنـا!» عبـارة قصـيرة، جـاءت عفويـة، وحملـت في أحرفهـا القليلـة دلالات لـم يتوقـف جايكـوب عندهـا. ضـم كفيـه تحـت رأسـه، وأغمـض عينيـه محـاولًا التركـيز في التلـذذ الحـسي قـدر المسـتطاع. ثـم أفلتـت مـن بطنـه عـلى حـين بغتـة بقبقـة مسـموعة، كأن ثـم فقاعـة ازدردتهـا أمعـاؤه ودفعتهـا إلى أعـلى، وتلـك كانـت بدايـة مغـص مفاجـئ وشـديد. نبـأه وجـع بطنـه بنوبـة كآبـة سـتصيبه حتمًـا بعـد الجمـاع -إن تـم بنجـاح- ينخفـض معهـا الدافـع الجنـسي عمومًـا، والرغبـة في عمـل أي شيء. لـن يكـون اكتئابًـا بالمعـنى السريـري للكلمـة، بـل مجـرد تغـير في المـزاج أو رغبـة في الانعـزال بالـذات.

انتبـه جايكـوب لمـا اعتلتـه فيليبـا أخـيرًا، فعلـم أن سـاعة الملاعبـة مضـت، وأن سـاعة الجـد آنـت، فخـفّ للحركـة وعـزم عـلى خـوض مطامـير الهـوى. بذلـت الشـابتان مـا في وسـعهما لمواءمـة تراخـي الزبـون وفتـوره، وتنافسـتا عـلى إثارتـه وإرضائـه بتصنّـع واضـح، كاد أن يئـد اسـتثارته الباهتـة أكـثر مـن مـرة، لـولا مثابـرة الشـابتين ومواءمتهـا الفوريـة لأي تغـيرات ظاهـرة تطـرأ عـلى بدنـه. قبـض عـلى أعصابـه قبضًـا شـديدًا، وحـاول الاسـتمتاع قـدر المسـتطاع، فـإذا بـه يجـد نفسـه وقـد اسـتبدت بهـا الغضـب، دون سـبب. هاجـت هائجتـه مـن غـير شيء يُوجِـب ذلـك، وسـخط عـلى شريكـتي فراشـه أشـد السـخط. تملكتـه رغبـة جارفـة في أن يشـبعهما ضربًـا بقبضتيـه، أو أن يلقيهمـا عـن جسـده وينهـال عليهمـا ركلًا ورفسًـا، هـا هنـا، والآن.

ولقـد هـمّ بإزاحـة بـترا عـن حوضـه، لكـن فيليبـا أخذتـه مـن رقبتـه، وأعادتـه بحنكـة إلى الفـراش معتمـدة عـلى وزنهـا ضـد عضـلات رقبتـه، فمـال جذعـه وغاصـت رأسـه في الوسـادة. أخذتـه المفاجـأة إذ تُبـدِل إحداهمـا مـكان الأخـرى، فغلبـه شـعور محفـز، كأنـه يبـدأ المعـاشرة مـن جديـد. بـلا ريـب، تلـك مهـارات لا مندوحـة لـه عنهـا.

وفيمـا ينشـغل شريـكا الجمـاع في جِماعهمـا، مالـت بـترا بخفـة تجـاه خزانـة الأدراج المجـاورة للفـراش، الـتي كانـت قـد وضعـت عليهـا عمـدًا حقيبتهـا الشـاطئية الكبـيرة. دسـت إصبعهـا البنـصر في علبـة مرهـم مفتوحـة في حقيبتهـا، وأخرجتـه مغلفًـا بهـلام هـو في حقيقتـه مخـدر موضعـي آني المفعـول، ثـم نتشـت بأصابعهـا الأخـرى محقنـة دقيقـة، لـم يـزد حجمهـا عـن حجـم عقلـة الإصبـع. أخفـت المِحقنـة في قبضتهـا، وعـادت إلى شريـكي الفـراش، متخـذة موقعًـا وسـطًا بينهمـا، ومنتظـرة لحظـة بعينهـا.

ركـز جايكـوب كل قـواه البدنيـة والعقليـة في تدابـير اللحظـة الحرجـة. سـارع مـن حركتـه،

fb/mashro3pdf

وأطبق جفنيه بقوة، وبذل ما في وسعه لاستيعاب الاحتكاك وامتصاص متعته. تمر الثواني بطيئة وشاقة، إلى أن تنقبض عضلات حوضه أولًا، ثم يتبعها انقباض وانفراج في جميع أنحاء جسده. ارتفع ماؤه، فأنّ أنينًا طويلًا متقطعًا متوجعًا، وقبض على صدر فيليبا بقوة مؤلمة وسمّرها في مكانها تحت ثِقله. تضام بعضه على بعضها كأنه يحضنها، ولم يكن يحضنها، بل لم يخرج فعله عن الاستجابة العضلية اللا إرادية. وقد احتملت فيليبا الألم الشديد، وكتمت صرخة كادت أن تنفلت من جوفها بإرادة صلبة، كي لا تكدّر على الزبون صفو متعته.

أدت بترا دورها على خير وجه أيضًا. نشرت بيسراها هلام المخدر الموضعي على مساحة صغيرة من ردفه. لم تحتج لأكثر من لمسة واحدة من بنصرها المغلف بالهلام، أتبعتها بطعنة بيمناها من إبرة المِحقنة الدقيقة اخترقت بها الجلد بزاوية ضحلة، ثم اعتصرت أنبوب المحقنة بين إبهامها وسبابتها، لتُقحِم المكونات الكيميائية في جسد جايكوب. حركة خاطفة لم يشعر بعدها الشاب بأي ألم.

أفرغ جايكوب ما كان قد فضل في جسده من طاقة، وتخلى عن فيليبا. أحس بنفسه تتهاوى، وبحاله تتسع وتسهل بعد شدة وضيق، فتمدد على الفراش وانغمس في بطانته اللينة. في حبة قلبه اختلط التقزز والاحتقار والكُرْه المعتادون، بالحبور والانتشاء والطفو اللذيذ. نفخ فيه المخدر راحة في النفس وصفاءً في الذهن وخفة ورخاءً، انتشرت آثارهم من أحشائه إلى أوصاله حتى أطراف أصابعه، فنسي صداع رأسه وأوجاع أمعائه، وترك نفسه تنعم بالاطمئنان وهدوء الضمير. لم ينَم مع هذا، ولم يرِد أن ينام، بل أرخى أجفانه ونظر إلى السقف الناصع بصمت. أحس في تلك اللحظات الماتعة بأنه إنسان خفيف لطيف، وأحس بدفق من ليونة يغمره، حتى أنه تثنّى ببطء على الفراش، ولم يهتم بشريكتي الفراش وما تفعلانه حوله، ولم ير أي شيء حوله إلا نفسه.

*****

fb/mashro3pdf

اندفـع المهلـوس الكيميـائي مـن طـرف إبـرة المحقنـة الصغـيرة، وسرى في نسـيج مـا تحـت الجلـد الواقـع تحـت الأدمـة والبـشرة. امتصتـه الأوعيـة الدمويـة وسـلّمته إلى الجهـاز القلـبي الوعـائي، الـذي طـوف بـه الجسـم، وأوصلـه إلى هدفـه النهـائي: نواقـل الإرسـال العصبيـة في المخ. وبينمـا يفقـد الشـاب وعيـه بالتدريـج وتخـور قـواه، جلسـت بـترا وفيليبـا عـلى الفـراش إلى جانبـه متوركتـين، تنظـران إليـه بتمعّـن، بوجهـين جامديـن لا عاطفـة فيهمـا إلا بعضًـا مـن فضـول. ثبتـت الشـابتان عـلى وضعيهمـا كتمثالـين مـن عقيـق مصقـول، حـتى همـد جايكـوب في مرقـده همـود الأمـوات، إلا مـن أنفـاس منتظمـة عميقـة، وهمهمـات أقـرب إلى الهذيـان.

وعندمـا اطمئنتـا لحسـن تأديـة المخـدر وظيفتـه، نهضـت كلتاهمـا لتأديـة وظيفتيهمـا. بـادئ ذي بـدء، اتجهتـا إلى الحمـام، واغتسـلتا جيـدًا تحـت منضحـة المـاء السـاخن لإزالـة آثـار الجمـاع وعلائقـه عـن جسـديهما، ثـم خرجتـا بتمهّـل وقـد اتشـحت كل منهمـا ببشـكير كبـير. اتجهـت بـترا إلى الفـراش، وهـزت جايكـوب مـن كتفـه برقـة، داعيـة إيـاه لأن ينهـض، ثـم سـألته إن كان يريـد شـيئًا. ولمـا كان الشـاب في عالـم آخـر مـن الأخيلـة والاختـلاق الذهـني المقـترن بفقـدان شـبه تـام للوعـي، لـم يُبـدِ اسـتجابة.

تحفّـزت فيليبـا في وقفتهـا، وبانـت عـلى أطرافهـا دلائـل التوتـر إذ تذبـذب سـاقيها ذبذبـات دقيقـة متسـارعة، وتقبـض أصابـع قدميهـا وتفردهمـا، وتضفـر إحـدى خصـل شـعرها الذهـبي عـلى سبابتها. يتكـرر هـذا الموقـف مـرارًا، ولـم يخـف وقعـه عـلى نفسـها قـط. تتسـاءل دومًـا بـشيء مـن الهلـع عمـا يمكـن أن يحـدث لـو أفاقـت الضحيـة أثنـاء تأديتهمـا عملهمـا، أو لـو نسـيتا متعلقـات هنـا أو هنـاك تـدل عـلى هويتهمـا، أو لـو اقتحـم أحـد المـكان فجـأة. لـم تـأتِ مخاوفهـا مـن فـراغ؛ فقـد رأت بـأم عينهـا كيـف تتحـول جريمـة سرقـة عاديـة إلى جريمـة قتـل مكتملـة الأركان، بسـهولة وسرعـة، كمثـل الريـح تمـر عـلى خفـق الجنـاح.

راقبـت أختهـا وهـي تحـاول إيقـاظ جايكـوب بيـد، وبيـد أخـرى تقبـض عـلى محقنـة صغـيرة أخـرى تمتـلئ أنبوبتهـا بمركـب «بروميـد البانكورونيـوم» الشـفاف. حـوت الأنبوبـة ضعـف الكميـة الكافيـة لإدخـال رجـل بالـغ في غيبوبـة نهائيـة تفـضي إلى مـوت محقـق. هـذا هـو إجراؤهمـا الاحـترازي الوحيـد، وهـو مـن تدبـير بـترا وتنفيذهـا. لـم تفضـل بـترا الاعتمـاد في الدفـاع عـن النفـس عـلى سـلاح نـاري أو أبيـض؛ لصعوبـة إدخالـه سرًا إلى الأماكـن الراقيـة الـتي تـترددان عليهـا، ولمـا ينتـج عنهمـا مـن ضوضـاء وفـوضى دمويـة يصعـب إخفاؤهمـا.

fb/mashro3pdf

استعاضت عن هذا المسلك بحقنة من البلاستيك، بريئة المظهر سامة المخبر، تحوي جرعة تكفي لقتل بغل مكتمل النمو. وإن بترا خبيرة في الحقن والتسديد، ولها سنوات في هذا المجال لم تخفق فيها مرة.

حاولت بترا جاهدة إفاقة الشاب، بتمهّل وملاطفة ومناغاة، وتحرت في هذا كل تدابير الحرص، مخافة أن يستيقظ على حين غرة. الأفضل آنئذ أن يستيقظ على نحو طبيعي، وألا يرتاب في شيء، وإلا ستضطر إلى طعنه بمحقنة السم، الأمر الذي لا تريده من دون شك. لكن جايكوب كان طافيًا في عالم آخر، فلم تبدُ عليه أي علامة لحركة أو إدراك. هنا نهضت بترا ورفعت إبهامها لأختها دلالة النجاح، فأحست فيليبا بانفراجة نسبية، وأرخت عضلاتها قليلًا.

على وجه السرعة ارتدت الأختان ملابسهما. لم تكن ملابس الشاطئ الفاضحة، بل وضعت كل منهما على بدنها فانلة بيضاء خفيفة بدون أكمام، وبنطلون جينز قصير، وحذاء رياضي خفيف من قماش الدنيم القطني المتين، لزوم سرعة الحركة. ثم انفصلت كل منهما عن الأخرى لإنجاز مهمة محددة.

يتعين على فيليبا أن تمحو كل أثر لوجودهما في المكان، فجمعت من ثمّ أثوابهما وأشياءهما، وما تبقى من مسحوق المخدرات وأقراص «إكستاسي» الزائفة، وألقتها جميعًا في حقيبتها. فتّشت خلف المقاعد وأسفلها وتحت الفراش، ورفعت الوسائد وباعدت بين طيات الملاءة، ثم اعتلت الفراش بتأنٍ ورهبة. دفعت بيديها أسفل ظهر جايكوب، اليمنى أسفل رقبته واليسرى أعلى ردفيه، ونظرت بقلق إلى جفنيه المُطبقين. لا بد أنها تخيلت للحظة أنه سيفتح عينيه فجأة مُبرّقًا، ثم يقفز من على الفراش ويبطش بها. لكنها برغم أي خواطر استنفرت عضلاتها النحيفة القوية، ودحرجت جسده لتنظر إلى ما تحته، وتتأكد من أنها أو أختها لم تنسيا شيئًا. ولما اطمأنت، طافت بالفراش، وأزاحت جسد الشاب إلى موضعه السابق.

أخذت بترا بعروتي حقيبتها الشاطئية، وطافت بالفيلا الفندقية وفتشتها من أقصاها إلى أدناها، ومن أعلاها إلى أسفلها. في أحد أدراج وحدة المكتب الملحقة بغرفة النوم، عثرت على ساعة الشاب الثمينة، وتلك في حد ذاتها غنيمة باردة تستحق عَنَت اليوم كله. لكنها لم تكن الوحيدة، لحسن الحظ. على سطح المكتب الزجاجي استوى حاسوبه المحمول

fb/mashro3pdf

بكامل ملحقاته، ونظارته الذكية، ومفتاح سيارة محفورة عليه علامة «بورشه» التجارية. جمعت بترا كل ما هو كائن على سطح المكتب، وما له قيمة في أدراج المكتب، سواءٌ كان قرطاسية أو أدوات شخصية، ما دام فيها معدن يلمع. حشرت الأشياء جميعها في الحقيبة، وضمتها بعضها إلى بعض مع التدقيق والتضييق، لتوفير مساحة إضافية لما ستعثر عليه لاحقًا.

على منضدة الشرفة المطلة على منظر بانورامي لجادة لاس فيجاس، وجدت بترا قداحة مذهبة وعلبة سجائر لامعة أنيقة. لم تلقِ نظرة واحدة على المدينة الباذخة، بل دخلت فورًا. كانت تبحث عن حافظة نقود الزبون. فتشت كل زوايا غرفة النوم، وبحثت بدقة في الحمام (ووجدت هناك عدة أقراط ذكورية ذهبية، وقلائد ثمينة دقيقة الصنعة)، ثم خرجت إلى غرفة المعيشة المُطعّمة أرضياتها بالرخام، فنقّبت وقلبت أثاثها، ولم تجد شيئًا ذا قيمة. عادت إلى غرفة النوم، ومنها اقتحمت غرفة الملابس الملحقة بها. لم تلقِ بالًا لأناقة الغرفة وسعتها ونظامها، ولا لأصناف الملابس والأحذية المعلقة والمطبقة والمرصوصة في كل مقصورة وتخت وركن فيها.

مسحت بترا شفتيها بتوتر، وقدرت بالظن أن العثور على أي شيء في غرفة الملابس المكتظة هذه تحدٍ كبير. لذا بدأت عملها فورًا، بمنهجية ودقة، دون امتهان أو تحقير لأي من محتويات الغرفة. بحثت في الأركان والأدراج والخزائن، فوجدت طاقمًا متكاملًا من النظارات الشمسية مختلفة الألوان والطرز، منها ما طُعّم بالذهب والفضة، وعثرت كذلك على عدة خواتم وقلائد ذهبية متباينة الأحجام، بعضها رُصّع بالأحجار الكريمة. لم تكد تصدق حجم الموجودات وبذخها، وأحست أنها في إيوان لأحد فناني «الهيب هوب» الأثرياء الطائشين. لم تكن قد عثرت على محفظة نقوده بعد، فسخطت أشد السخط، ثم وقع سخطها في نفسها موقع العجب؛ لأن ما جمعته من نوافل ونهبات، لم يسبق لها أن رأته من قبل في مكان واحد.

ثقلت حقيبتها الكبيرة رويدًا رويدًا، وانتفخت بمحتواياتها الثمينة، فرفعتها على كتفها وغادرت الغرفة كاسفة البال، كأن محفظة النقود هي الغاية العليا والجائزة الكبرى، التي بدونها لا طعم للفوز. وفي غرفة النوم التقت فيليبا. لم يدُر بينهما حتى هذه اللحظة أي حوار، بل انصبّ تركيزهما على إنهاء العمل بأقصى سرعة، وعلى أتمّ وجه. هكذا

fb/mashro3pdf

علمتهما المهنة. الإهمال له دومًا تبعات جسام، والثرثرة أثناء العمل مضيعة للوقت وتشتيت للفكر ومدعاة للوقوع في الزلل.

كانت فيليبا تفتش ملابس جايكوب الملقاة أرضًا. ولما التمعت الفكرة في عقل بترا، في نفس اللحظة تقريبًا، وجدت فيليبا حافظة النقود في الجيب الخلفي لسروال جايكوب الأبيض القصير. تألق وجه فيليبا بالظفر، كأنها تعلم ما تبحث عنه أختها. زمت بترا شفتيها، وتجعد وجهها إذ تلعن نفسها بغيظ؛ لأنها لم تفكر في البحث في أبسط الأماكن وأكثرها بداهة. أيًا ما كان، عثرت عليها إحداهما، لحسن الحظ. بطائق الدين والائتمان الذكية في حافظات النقود قد تكون -مع بعض الحظ- منبعًا للنقد لا يُعوّض. ولقد رأت بترا بعض الأغبياء ممن يضعون في حافظات نقودهم أرقام التعريف الشخصية مع بطائق الائتمان والسحب المباشر، لعجزهم عن حفظها.

نكشت فيليبا الحافظة بسرعة، ووجدت فيها مبلغًا كبيرًا من المال، مع تشكيلة متنوعة من بطائق الدفع والشراء الإلكترونية، وكل مستندات التعريف الشخصية لجايكوب، ورخصة قيادته أيضًا. لم يكن هناك وقت للتدقيق، إذ كان قد مر عليهما في هذا المكان قرب الساعة، ووجبت عليهما المغادرة في أسرع وقت. جلست الشابتان أرضًا، وقسمتا المسروقات بين حقيبتيهما لتوزيع الثِقَل وتقليل الانتفاخ المريب. تحرّتا الدقة والعناية في صف الأشياء، كي لا تتكوم بالأسفل أو يحطم بعضها بعضًا، ولما انتهتا نهضتا، وألقتا نظرة أخيرة على المكان.

ثم تساءلت فيليبا بقلق، بلغتها الأم:

- ألا يحسن بنا أن نجمع ملابسه؟

- لا، كمية الملابس التي يحتفظ بها هنا كبيرة جدًا. الظاهر أنه يقيم هنا على الدوام.

نظرت فيليبا بتربّص إلى الشاب على الفراش الدائري الكبير، ولاحظت شيئًا، فتركت حقيبتها واتجهت إلى الفراش بجرأة اكتسبتها من وجود أختها معها. اعتلت جسد جايكوب، وخلعت سلسلته الذهبية عن عنقه العضلي الثخين.

ولما رفعتها بين يديها، التفتت لأختها قائلة بدهشة:

- إنها ثقيلة!

- كل ما يملكه ثقيل.

fb/mashro3pdf

هكـذا قالـت بـترا وهـي ترفـع حقيبتهـا المكتظـة بمشـقة، ثـم أشـارت إلى أختهـا أن هيـا بنـا. قفـزت فيليبـا عـن الفـراش بخفـة، ثـم كبشـت حقيبتهـا في طريقهـا إلى مدخـل غرفـة النـوم. ألقـت نظـرة قلقـة أخـيرة عـلى الغرفـة المترفـة، مثـل مـن يتوجـس الـشر ويتخـوف مـن وقوعـه، وتمنـت مخلصـة ألا ينجـم عـن هـذه العمليـة الناجعـة أي متاعـب في المسـتقبل، لهـا ولأختهـا، أو لهـذا الشـاب اللطيـف. إنـه لـم يضربهمـا أو يشـتمهما، ولـم يأتيهمـا في الدبـر، بـل تلطّـف معهمـا وأظهـر سـماحة ورفقًـا، وتلـك مـيزة نـادرة بـين الرجـال، تعلّمـت بـترا أن تقدرهـا حـق قدرهـا. ومـن ناحيتهمـا، هـي وأختهـا، حرصتـا عـلى إرضائـه في الفـراش قـدر المسـتطاع (وكان في مقـدور بـترا تخديـره قبـل الـذروة بكثـير، بـل قبـل الإيـلاج، عـلى مـا في هـذا مـن خطـورة). أيضًـا تحرّتـا الحـرص في السرقـة، فلـم تجمحـا أو تُسرفـا أو تنبشـا نبشًـا مبالغًـا فيـه، بـل جمعتـا مـا ينفعهمـا بتعقُّـل، وتركتـا لـه جـل مـا يمكـن تركـه، بمـا في ذلـك أوراقـه الشـخصية. وعـلى كل حـال، إنـه شـاب ثـري منعـم، لـن يضـيره فقـد هـذا الـشيء أو ذاك. حتمًـا يسـتطيع «بابـا» أن يعوضـه عـن كل مـا سُرق منـه اليـوم، كي يعـود مطمئنًـا إلى حيـاة الإتـراف والإسراف المعتـادة.

وفي اللحظـة الـتي أحـدث مـزلاج بـاب الغرفـة طقطقـة خافتـة، لمـا أغلقتـه بـترا وراءهـا بحـرص، تحركـت أوصـال جايكـوب بكسـل. فتـح فمـه وأطبقـه، ومـط جسـده فانقبضـت عضلاتـه جملـة كاشـفة تكوينًـا صلبًـا بديعًـا. همهـم راحـةً وتنهّـد رغـدًا كمثـل مـن هـو عـلى وشـك الإفاقـة مـن حلـم لذيـذ.

*****

- ستيف.. أخبرنا على نحو مختصر بما وقع اليوم في القاهرة؟

- تدّعـي بعـض المصـادر، أن تنظيـم جبهـة المقاومـة الإسـلامية اسـتهدف موكبًـا أمريكيًـا، مؤلفًـا مـن عـشر آليـات. حسـب هـذه المصـادر، قـام مقاتلـو الجبهـة الإسـلامية برصـد الموكـب، واسـتهدفوه بعـدد مـن صواريـخ كورنيـت الروسـية المضـادة للـدروع.

- سـتيف.. كيـف تـرى الوضـع في القاهـرة الآن؟ هـل مـن الطبيعـي في رأيـك، أن تقـوم الولايـات المتحـدة بتسـيير هـذا العـدد مـن الآليـات، بالقـرب مـن مناطـق غـير مؤمّنـة وعاليـة الخطـورة؟

fb/mashro3pdf

- كنت قد تحدثت منذ قليل مع بعض المصادر المطلعة في القيادة المركزية الأمريكية. هؤلاء أكدوا لي أن الجيش في حالة تأهُّب كاملة، وأنهم كانوا يترقبون وقوع ضربة إما على طريق وصلة دهشور، أو على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي، وهي مناطق متاخمة لدائرة سيطرة المتمردين، ويضعف فيها الوجود الأمريكي. وقالوا إن هذه الضربة على وجه الخصوص لم...

- دعني أعرض عليك ملخصًا لأحداث هذا الصباح، ستيف. أعلنت جبهة المقاومة الإسلامية في بيان، أنه في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة من صباح الخميس، قامت مجموعة اسمها شهداء المنصورية الأبرار، باستهداف موكب عسكري أمريكي في منطقة مزارع الكوادي. وقع الهجوم باستخدام الأسلحة الصاروخية، وأدّى إلى تدمير عدد من الآليات ووقوع إصابات عدة في صفوف الجنود.

- نعم برايان، قرأت البيان. حسب ما قالته لي المصادر في القيادة المركزية الأمريكية، وقع الهجوم بالفعل، إنما على دورية أخرى تابعة للقوات المصرية، ولم يكن في صحبتها جنود أمريكيين في ذلك الوقت. أوقع الهجوم قتيلين على الأقل، وأصاب سبعة آخرين. مصادري في وزارة الدفاع المصرية تقول إن حصيلة القتلى أعلى من ذلك بكثير، ومن المتوقع أن يعلن الجيش المصري عنها تدريجيًا.

- إذن، لم يصب الجنود الأمريكيون بسوء؟

- لا أستطيع أن أقطع في القول على نحو واضح؛ لأن الهجوم يكتنفه الغموض. فيما أظن، تجري عملية قنص كبرى لقيادي التمرد الإسلامي، بالتنسيق بين القوات الأمريكية والمصرية. وأظن أن عدم الإعلان عن أعداد القتلى بوضوح يشير إلى رغبة مصرية أمريكية في التهدئة، والحد من خروج رد فعل الرأي العام عن إطار محدود.

- ستيف.. جرت العادة بالإدارة الحالية على إعماء الرأي العام، والتستر على أعداد الضحايا. أليس هذا هو الحال في هذه المرة أيضًا؟

- كما قلت من قبل، لا أستطيع أن أقطع بالقول، ولا أستطيع أن أدلي بتعليق على ما قلته. كل ما هنالك أن رئيس الوزراء المصري، الدكتور هاني الألفي، أكد أن الجيش المصري مستعد للرد بقوة على أي اعتداء. وفي إثر العملية، قام الجيش المصري بالفعل بقصف عدد من الأحياء السكنية، بحجة استهداف مواقع إرهابية، وما زال القصف

fb/mashro3pdf

مستمرًا.. أقول لك هذا، بعد أن نما إلى علمي أن القصف الجوي أدى إلى مقتل تومر هانوكا، وهو صحفي أمريكي إسرائيلي يعمل لحساب مجلة التايم وجريدة جروزاليم بوست.. وكان في صحبة العامل الإغاثي الإنجليزي الجنسية رايموند ميدوز.. الذي قُتل أيضًا في القصف.

- إني آسف كل الأسف على سماع ذلك. أقدم تعازيّ إلى أهالي الضحايا. ستيف.. أخبرنا عن رد فعل الإدارة الأمريكية.

- نقلت وسائل إعلام مصرية عن مصادر أمريكية، القول بأن واشنطن ترى أن هجوم الجبهة الإسلامية خطير، لكنها لا ترى موجبًا لرد واسع. لكن السفارة الأمريكية نفت هذا الكلام، ثم قال المتحدث باسم الخارجية الأمريكية، برنارد ستون، إن المسؤولين في واشنطن لا يريدون أن يروا تصعيدًا للوضع، وإن الأطراف كافة يتعين عليها أن تتجنب تصعيد العنف.

- نعم ستيف. ألا ترى معي أن الإدارة الأمريكية قد تمادت هذه المرة فعلًا، بعد أن اعتبرت الكيان المسمى جبهة المقاومة، طرفًا يُناشد، عوضًا عن معاملته كمنظمة إرهابية إجرامية، أراقت الدماء الأمريكية؟

- نعم برايان، أتفق معك. هناك حالة ارتباك رسمي إزاء ما يحدث، كأن الإدارة تسعى جاهدة لأن تخفي شيئًا ما. الأمر الذي يتوافق مع أقوال شهود العيان بأن ثمة عملية أرضية شاملة تجري الآن، ربما بواسطة قوات العمليات الخاصة، في محاولة لاصطياد قادة التمرد.

- بقطع النظر عن قولك بأن ثمّة عملية تجري الآن، ستيف، وهي معلومات غير موثقة ولا يمكن البناء عليها. رغم هذه العملية المزعومة، جاء هجوم جبهة التمرد متوازنًا. أرضى جمهوره من المتشددين، وأعاد رفع المعنويات.

- اسمح لي بأن أختلف معك، برايان. هجوم الجبهة الأخير استهدف دورية مصرية، والدوريات العسكرية المصرية تعد هدفًا سهلًا، يمر الهجوم عليه دومًا بلا ضجة أو اهتمام إعلامي. يبدو لي أن هذا الهجوم بالذات يُعدّ تراجعًا من قِبَل الجبهة، أو لنقل.. يعد ضعيف الوقع.. أو لنقل، فاشلًا.. هذا إن قارنته بهجمات سابقة. ويبدو لي أيضًا أن الضربة مدروسة، وحذرة، وفيها شيء من الخوف الذي لم نعهده في عمليات الجبهة،

fb/mashro3pdf

ذات الطابع الوحشي الانتحاري في أحيان كثيرة.

- وما الذي يعينه هذا؟

- يعني أن القائمين على تنظيم الجبهة -فيما يبدو لي- لا يريدون التصعيد في الظروف الحالية، لسبب لا أستطيع القطع بالقول فيه الآن.

هكذا تواصل الحوار المتلفز بين الإعلامي الأمريكي الشهير برايان ستيلتر، والمراسل الصحفي ستيف هيبارد، في برنامج «يحدث في أمريكا الآن، مع برايان ستيلتر». كان لوح التلفاز المجسم قد أضاء من تلقاء نفسه قبل منتصف الليل بقليل، وفقًا لمؤقته، وعرض من ثمّ أخبار المساء، التي تبعتها إعادة لبرنامج برايان ستيلتر الأكثر شهرة، على قناة «فوكس نيوز» الإعلامية الإخبارية.

نبّه التلفاز جايكوب من غيبوبته الطويلة، ففرج أجفانه بعد برهة، وأحس على الفور بألم شديد يشبه الحريق في عينيه، وبصداع صاحبه إعياء ثقيل، بحيث لم يقدر على تحريك أي من أطرافه لدقائق طويلة. انزعج من الأصوات والأضواء الصادرة عن التلفاز، ومنعه شلله المؤقت من أن يتحرك أو أن يتعرف على البيئة التي استيقظ فيها. لم يكن ثم ما يفعله سوى أن يسلّم عقله إلى إغماء جديد، عميق.

في إغمائه هذا، فقد الحس بالأشياء المحيطة به، ورأى نفسه في دنيا الرؤى صغيرًا، ربما في الثامنة من عمره أو أقل. شرد وحيدًا، أو ذهب مطرودًا لحماقة ارتكبها أو مقلب دبّره، فضرب في الأرض حتى غاب عن أنظار أولياء أمره. وقرب دغل ظليل، رأى طائرًا كاسرًا من جنس الحداء، يجثم ببراثنه على طائر آخر قتيل. نتف ريشه بسرعة، ونزع قطع اللحم من عنق طريدته بمنقاره المعقوف. مزعة تلو المزعة يخلصها من عنق فريسته، ثم يرفعها ليزدردها.

مشهد التصق به جايكوب التصاقًا، فجثا على ركبتيه خلف شجرة، وقبع متخفيًا يراقب الاقتيات بصبر وافتتان. ثم غلبته رغبته في رؤية أقرب وأوضح، فاقترب أكثر، لكن بحذر. استمرت الحدأة في الاقتيات، وهي ترقب الطفل بعينيها الحادتين، حتى لكأنها أدركت أن في البقاء خطر، فأقلعت فجأة تاركة فريستها. لحظتها جفل جايكوب؛ لأن الفريسة انتفضت فور أن فارقتها براثن الحدأة، وكانت ما تزال فيها حياة. كانت حمامة صغيرة، رمادية الريش، طفرت طفرات بائسة وسريعة على غير هدى، بريش ممزق وعنق مثقوب. لم

fb/mashro3pdf

تكن لها طاقة بالطيران، فوثبت إلى أقرب ظلة، وقبعت تحتها تنتظر الموت بلا صوت.

لم يدرِ الصبي ما يتعين عليه أن يفعل. أراد أن ينقذ الحمامة، وفكر في أخذها معه كي يداويها، وفي حشو عنقها المثقوب بالقطن كي يوقف النزيف، وتمنى أيضًا لو تراها هرة ضالة فتأخذها بين أنيابها وتريحها من العذاب جملة. طاف بالمكان عدة مرات، واقترب من الحمامة العاجزة وهو يرجو أن تستجمع قوتها وتُحلّق مبتعدة. ولما لم يتحقق له ما تمنى، تلفت يمنة ويسرة، وأمسك بها بغتة. قبض بأصابعه الصغيرة على جسدها النحيف المنهك، وشعر بعظامها الخفيفة تحت الريش والجلد واللحم. تقلص وجهه واصطكت أسنانه إذ يغرس أصابعه في جسدها بقوة، وسمع هديلًا مختنقًا متقطعًا يخرج من منقارها. طوفان عارم عصف بكيانه، فرفع الطائر عاليًا، ثم ألقاه أرضًا بجبروت، وهبده بقدميه هبدًا. ركلات عنيفة متتابعة، ناقمة ماقتة، صبّها على الطائر صبًا، وثار بها حوله غبار خفيف. ثم لم تمضِ ثوانٍ حتى انقشع الغبار عن جسد هامد مغبر، غابت معالمه وتكسرت عظامه والتوى جناحاه واختلط ريشه بالطين وورق الشجر الجاف.

لا يفتأ هذا المشهد يفرض نفسه على مخيلته المرة بعد المرة، في مواقف منقطعة الصلة بالحدأة والحمامة. تساءل في نفسه بسكون، إن كانت هذه المواقف منقطة الصلة فعلًا بالحدأة والحمامة، أم هي وثيقة الصلة لكنه لا يعلم؟ أثناء غفقته تلك، وفي لحظة استبصار أو تأمل، قال لنفسه إن موقفه اليوم -بلا ريب- وثيق الصلة، وإن لم يرَ ما يدل على ذلك بعد. وإلا فلِمَ طرأ على ذهنه؟ ثم عاد وقال لنفسه بهمس داخلي متأنٍ، إنه لم يكن يحلم، بل استحضر المشهد عن عمد، فكأنه يراجعه ويجترّه ويحفظه عن ظهر قلب، وكأنه ينعزل به عما حوله انعزالًا عنيدًا.

رويدًا رويدًا دبّت في أطرافه الحيوية، فاستطاع أن يقوم نصف قومة، وأن ينظر حواليه بعينين حائرتين. ذهب بين الصحوة والسكرة، إلى أن لفت انتباهه وميض وحدة الاتصال المرئية، الكائنة على خزينة الأدراج المجاورة لفراشه. كان قد تلقى أثناء نومه فيما يبدو ستة عشر اتصالًا، وخمس رسائل قصيرة، وصلته جميعًا من زملائه. لم يستطع أن يفهم محصول الرسائل على وجه التحديد، إنما جرت عيناه على كلماتها بتشوش وارتباك. ثم تساءل وقد ومضت في ذهنه فكرة بدائية صغيرة: لِمَ أرسل إليه الرجال برسائل على هاتف الغرفة، ولم يجروا اتصالهم به على حاسوبه المحمول، كما جرت بهم العادة؟

fb/mashro3pdf

حكّ شيء ما في صدره، فألقى على ما حوله نظرة ساهمة، مضطربة، مترددة. لم يجد في نفسه قدرة على النهوض، ولا رغبة في أن يفارق فراشه، فمال بجذعه إلى جهة وحدة الاتصال، وأجرى أنامله على شاشتها، محاولًا الاتصال بحاسوبه النقال. لم تسفر محاولته عن أي نجاح، فكأن الحاسوب مقفل تمامًا.

وقعت في خلده احتمالات فظيعة، وتأويلات لا تُطاق، فتكلف القيام على مشقة وتعب، وبدأ في الطواف بنواحي فيلته الفندقية. كان يرتعش، وكان يوجس شرًا، وكانت الفكرة تعرض له الآن في صورة مفزعة. نقل قدميه ببطء من موضع إلى آخر، ودفع جسده إلى الأمام بثقل كأنه جثة تحركها قوة اصطناعية، إلى أن وقف في منتصف غرفة النوم. لم يكن قد ثاب إلى رشده وتمام يقظته بعد، عندما أبصر سطح وحدة المكتب وقد خلا من حاسوبه ونظارته ومفتاح سيارته. ارتفعت درجة حرارة رأسه، وغزت الحمرة وجنتيه من شدة الاستثارة. عبر غرف فيلته الفندقية، وفحص أرجاءها وأركانها طولًا وعرضًا، وهو يقول لنفسه ضارعًا، بهمهمة هامسة متقطعة في ارتعاش: «لا يا رب.. لا تفعل بي هذا». تفطّر قلبه عندما لم يعثر على حاسوبه في أي مكان، وتشققت نفسه عندما لم يعثر على مقتنياته كافة. دقق النظر في كل ركن، وبالغ في فحص كل درج وغرفة من أدناها إلى أقصاها. جسّ الوسائد والطنافس، وفتّش الحمام، إلى أن انتهى واقفًا أمام مرآته، وقد أدرك أن قلادته الذهبية هي أيضًا قد اختفت.

عاد جايكوب إلى غرفة النوم ذاهلًا، وقد أخذ منه الإعياء مأخذًا. جلس على طرف الفراش مطأطئًا، وجمد في مكانه هذا طويلًا. نظر مليًا إلى رجليه المنغمستين في بساط الأرضية الأزرق، وإلى وشم العقرب الأصفر، المنغرز في جلد كعبه الأيمن. ارتفع صدره وانخفض، وانقبضت عضلات بطنه وتراخت، وتيبست قسمات وجهه قليلًا قليلًا. دعك وجهه، فإذا به مكسوًّا بالدهن ومضمخًا برائحة الجلد والمني والشعر والعطر. لا بد أنه قضى وقتًا طويلًا على هيئته تلك؛ لأن البرامج جاءت تترى على «فوكس نيوز»، أو هكذا هُيّئ إليه، ولعله في لحظات فتور الحواس هذه نعس.

رفع رأسه أخيرًا، وقد اخضلّت لحيته وتبلل شعره بالعرق. حدق إلى التلفاز، فإذا بمشاهد غريبة لفيلم درامي للبالغين تجري على الشاشة الكبيرة، فلم يفهم كيف تبدلت القناة ومتى. نظر حواليه، ثم نهض ببطء وعناء إلى خزانة الملابس الغاطسة في الحائط،

fb/mashro3pdf

وأخـذ منهـا بُرنسًـا قطنيًا مريحًـا، ارتـداه واتجـه إلى الحمـام رأسًـا، حيـث قـضى حاجتـه. شـطف يديـه ووجهـه بالمـاء الـدافئ، ثـم غسـل أسـنانه بعنايـة.

عـلى أرضيـة الحمـام الرخاميـة، أدى تمرينـات قبـض وبسـط العضـلات والأوتـار، وقوفًـا وجلوسًـا واسـتلقاءً، كي يفيـق نفسـه، وذلـك قبـل أن يقصـد كابينـة الاسـتحمام الواسـعة، الـتي حملـت كل أداة فيهـا علامـة «كاسـبر دايفيـد فريدريـك» الألمانيـة الفاخـرة. غلّفـه وابـل مـن المـاء الـدافئ، وأحـدق بـه بخـار ناعـم معتـدل الحـرارة، في الوقـت الـذي بـاشر تنظيـف شـعر رأسـه ولحيتـه بمسـتحضر تجميـلي خـاص. اسـتغرق في حمامـه كليًـا، فكأنـه انشـغف بـه، رغـم عبـوس وجهـه وشرود عينيـه. لـم يلزمـه مـن الوقـت الكثـير، بـل لـم يتجـاوز في ترتيباتـه تلـك خمـس دقائـق إجمـالًا كعادتـه، لمـس بعدهـا بأناملـه شاشـة الكابينـة، وقطـع فيـض المـاء.

ارتـدى الشـاب سروالًا تحتيًا موجـزًا مريحًـا، وخـرج إلى غرفـة النـوم. رغـم أنـه كان قـد فـرغ للتـو مـن غسـل أسـنانه، شـعر بمـذاق مُـر في جـوف فمـه، وبمـا يشـبه البخـر. كان يعالـج منـذ أفـاق آلام تقلصاتـه المعديـة المركبـة، وشـعورًا بالغثيـان، فـإذا بـه الآن يعالـج شـعورًا آخـر مغايـرًا، هـو الجـوع الشـديد الغالـب، فكأنـه لـم يـأكل منـذ أسـبوع. وهكـذا عـد ليلتـه هـذه، بيـسر ودون تفكـير، امتـدادًا لـ«يـوم الغـش»، فرفـع سـماعة وحـدة الاتصـال المجـاورة لفراشـه كي يطلـب عشـاءً كامـلًا مـن مطعـم «تيكسـان سـتيك رانـش» المُلحـق بالفنـدق.

جلـس جامـدًا يتابـع المشـاهد المتحركـة عـلى قنـاة «فوكـس» الخامسـة لمـدة لـم يعلـم مداهـا، إلى أن سـمع طرقًـا عـلى بـاب غرفتـه. التفـت يسـتطلع مصـدر الطـرق عـلى شاشـة وحـدة الاتصـال، وضغـط بسـبابته أيقونـة الموافقـة، فانفتـح البـاب أمـام فـرد الخدمـة عـن بُعـد. لـم يعـر جايكـوب الداخـل انتباهًـا، ولا نظـر إليـه، ولـم يعـرف إن كان رجـلًا أو امـرأة. كالسـائر نائمًـا، قصـد وحـدة الجلـوس، وجلـس إلى طعامـه. أكل مـا وجـد عـلى الصحـون، وكان خليطًـا مـن سـجق لحـم الغـزال والخنزيـر الـبري، وسـلاطة جـبن الماعـز والتفّـاح المتبلـة، المصحوبـة بتفـاح محـشي، وبطاطـا محمصـة. أتبـع طعامـه هـذا بغُرَيّبـة الفراولـة والقشـدة المخفوقـة، مـع جرعـات متتاليـة مـن النبيـذ الإيطـالي الأحمـر.

لـم يرفـع يديـه عـن طعامـه إلا وقـد أحـس بامتـلاء مؤلـم في معدتـه، فجلـس ينظـر إلى فيجـاس النابضـة بالأضـواء والألـوان، إلى أن امتـد في الأفـق الجبـلي بيـاض الفجـر. في طريقـه إلى الفـراش، أطفـأ التلفـاز، ثـم التجـأ إلى الأغطيـة البيضـاء اللينـة، واختبـأ تحتهـا وبينهـا. تكـور على

fb/mashro3pdf

نفسـه، وأحـاط صـدره بذراعيـه، ثـم إذا بنشـيج خافـت يصـدر منـه، فكأنـه يجهـش بالبـكاء.

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الخامس من يوليو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

عبر نافذة الطائرة المروحية، من على ارتفاع مائتي متر، ركزت عيناه الرماديتان على منطقة سكن العائلات بقاعدة «ماكديل» الجوية. لم يجد أي تشابه بين ما يراه الآن، وثكنات قاعدة «كفر عبيان» العسكرية القبيحة بمحافظة القليوبية، التي عرفها ونشأ فيها في شرخ شبابه، تحت شمس حارقة وحرارة لا تحتمل. أقل ما يقال عن ثكنات قاعدة «ماكديل»، إن منشآتها بيضاء نظيفة، وأسقفها مائلة جميلة، ومساحاتها شاسعة تريح الأعين، وأرضها طيبة تضيؤها شمس مدينة «تامبا» الرحيمة، ويحفها خليج المكسيك الساحر، وتعلوها سماء فلوريدا الصافية.

نظر اللواء حسام داوود إلى ساعته، وعلم أنه سيصل بحمد الله قبل ميعاد الاجتماع بتوقيت مناسب، الأمر الذي أراحه نفسيًا ولا ريب؛ لأنه لم يكن يكره شيئًا قدر كراهته للتأخر عن مواعيده، خصوصًا في حضرة الأجانب. لم تكن تلك الزيارة هي الأولى لقاعدة «ماكديل»، لكنه لم يملك في كل مرة إلا أن يعقد مقارنة سريعة بين تلك الثكنات هنا، في العالم المتقدم، والأخرى هناك، في العالم المتأخر. مرت عليه عقود طويلة، لم يذق فيها من الحياة خشونة أو نصب، بل الرغد والسّعة وحسن الحال، وتلك من التبعات الطبيعية للتربع على قمة السلطة، لكنه ما فتئ يعجب للرفاهة النسبية التي يرتع فيها الجنود الأمريكيون، بالموازنة بما يحدث في مصر.

باشرت «الوايت هوك إكس ٢٠» مناورة الهبوط، وبدّلت سرعتها ووضعيتها للنزول عموديًا على مهبطها، إلى أن لامست عجلاتها السطح الخرساني للمهبط بلطف، واستقرت وسط الدائرة المرسومة لها على نحو دقيق. أبطأت حركة مروحيتها، وهدأ تدفق الهواء الدوامي حول جسمها الانسيابي الطويل، ثم انزاح باب الكابينة المنزلق، ونزل الجنرال على السلم المعدني في كامل أبهته الرسمية. على بُعد أمتار لاحت السيدة إيلينا، وقد تفتق حسنها في لباس رسمي ضيّق. كانت قد حشرت بدنها الرياضي في طقم أنيق، تألف من جاكيت وسروال حالكيّ السواد، نُسجا من الكتان والقطن والحرير، وحشرت قدميها في زوج حذاء مُدبب لمّاع، عالي الكعب، الأمر الذي زاد من طول قامتها إلى حد أزعج من حولها من عسكر ومدنيين. رسمت على وجهها نصف ابتسامة تألقت بالثقة والبأس،

fb/mashro3pdf

خصّت بها الجنرال العزيز. أقبلت عليه بترحاب حار، وحيّته بلغة عربية فصحى، فردّ اللواء تحيتها بمودة، وأجرى على وجهه ابتسامة متكلفة كبيرة، وهو يقول بالإنجليزية: صديقتي العزيزة!

السيدة إيلينا فيكسلبرج لا تحتل منصب مستشار رئيس الولايات المتحدة للأمن القومي فحسب، بل منصب مساعد الرئيس لشؤون الأمن الداخلي ومكافحة الإرهاب أيضًا. عملت لسنوات كمحللة مختصة بشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في وكالة الاستخبارات المركزية، ثم كمسؤولة سياسية في السفارة الأمريكية في مصر، ثم كمساعدة تنفيذية لرئيس وكالة الاستخبارات، إلى أن تولت رئاسة محطة المخابرات المركزية في مصر، ومن هنا نشأت الصداقة المتينة بينها وبين الجنرال حسام داوود. سحب الرئيس روبرت ماكالوم ترشيح إيلينا لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية بسبب الانتقادات التي وُجِّهَت إليها، لدعمها العلني لتطبيق تقنيات الاستجواب المُحسَّنة، ودعوتها إلى التعاون مع الخبراء والمقاولين الأجانب في شأن استخلاص المعلومات من الموقوفين والمحتجزين، المُشتَبَه في تورُّطهم في أنشطة إرهابية. عوضًا عن ذلك المنصب، خصّها الرئيس ماكالوم بمنصبين مرموقين، وضمها إلى فريق العمل المُقرّب إليه في البيت الأبيض.

دور إيلينا يتجاوز المسميات الوظيفية؛ لأنها ترأس في واقع الأمر مجموعة عمل في الإدارة الأمريكية الجديدة، تشتغل بجد كي تعود أنشطة الاغتيالات السياسية إلى سياسة الأمن القومي الأمريكي كمُكوّن رئيسي. يقول عنها خصومها إنها لا تبالي إذ هي تفعل ما تفعل في البيت الأبيض إن أساءت استغلال امتيازاتها التنفيذية، بل وإن أفشت أسرار الدولة، بيد أنها لا تكترث للقيل والقال في معظم الأحيان، وتركز جهودها، في ظل عداء البيت الأبيض البَيِّن مع البنتاجون، على دور الوحدات القتالية الراقية، التي تدين بالولاء فقط للبيت الأبيض.

تضع إيلينا يدها في يد رئيس موظفي البيت الأبيض، أبراهام باراتز، الرجل الثاني في واشنطن، وظهير الرئيس ماكالوم الحديدي، من أجل الضغط على الكونجرس كي يعطي للإدارة التنفيذية سلطات شاملة، تتيح لها ملاحقة من يهدد أمن الولايات المتحدة القومي ومصالحها، والقضاء عليهم دون تعقيدات بيروقراطية. هذا أمر. الأمر الآخر هو منع الكونجرس من أن يراقب العمليات أو أن يشرف على الحروب، مع ضمان تدفق

fb/mashro3pdf

التمويـل الـكافي. وفي سـبيل ذلـك، يسـعى الثـاني إلى الإخـلال بنظـام الضوابـط والتوازنـات الرقابيـة، الـذي يقـوم عليـه نظـام الولايـات المتحـدة الديموقراطـي، ومـن ثـم إلى زيـادة سـلطات البيـت الأبيـض.

لا تخفى جهـود إيلينـا عـلى كثـير مـن المراقبـين، ويطلـق عليهـا الصحفيـون ألقابًـا مخيفـة، مضخَّمـة للـذات، مـن قبيـل «قيـصرة البيـت الأبيـض»، و«إيلينـا الرهيبـة». ومـن جهتهـا، تحـرص إيلينـا عـلى تغذيـة صورتهـا الشـعبية كصقـر متشـدد بتصريحـات عنيفـة اللهجـة، تقـول بالحتميـة القدريـة للتصـادم بعـد أحـداث فبرايـر المـوت، كمـا تطعـن عـلى الإدارات الأمريكيـة السـالفة كافـة، لاتّباعهـا سياسـات رخـوة. تدعـم إيلينـا في الوقـت ذاتـه ردود الأفعـال الأمريكيـة الغاشـمة عـلى أحـداث فبرايـر المـوت، وتهاجـم بشراسـة كل مـن يفتـح ملفـات جرائـم الحـرب «في هـذا الوقـت الحَـرِج مـن تاريـخ الأمـة»، رغـم أن حجـم القتـل كان وقتئـذٍ عصيًّـا عـلى التصديـق، ولـم يكـن قـد شـوهد لهـذا الدمـار مثيـل منـذ انتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، حـتى شـق عـلى المجتمـع الأمريـكي ذاتـه قبـول تبريـرات الإبـادة الشـاملة.

سـطع نجـم إيلينـا جماهيريًـا، عندمـا كتبـت سلسـة مقـالات ناريـة في صحيفـة «نيويـورك تايمـز»، تحـت عنـوان: «نحتـاج لأن نذهـب إلى مـصر.. نحتـاج لأن نذهـب إلى مـصر الآن»، وذلـك في أوجّ تداعيـات فبرايـر المـوت، ولـم تكـن الأدلـة قـد تضافـرت بعـد عـلى تـورط النظـام المـصري في أحـداث الشـتاء الأسـود، ولا حـتى بفرضيـة تصـل في ضآلتهـا إلى نسـبة عـشرة في المئـة. وفي خضـم الفـوضى والانهيـار، صعـب عـلى الإدراة الأمريكيـة آنذئـذ بنـاء المسـوغات اللازمـة للهجـوم عـلى أي دولـة بعينهـا، باعتبارهـا تُشـكّل تهديـدًا مميتًـا، ولـم يتوافـر لديهـا سـوى نتائـج تحريـات أوليـة، وتكهنـات اسـتخباراتية.

موقـع إيلينـا الاسـتثنائي في الإدارة، وجمعهـا بـين منصبـين خطيريـن، لـم يكـن أمـرًا مسـتحبًا بـكل تأكيـد، إنمـا كان منطقيًـا تمامًـا في إدارة جديـدة، قالـت عنهـا وسـائل الإعـلام إنهـا عزمـت عـلى تبـني تكتيـكات عسـكرية واسـتخباراتية، كانـت تُعـد فيمـا سـبق جرائـم يعاقِـب عليهـا القانـون، وخرقًـا لأبسـط مبـادئ الديموقراطيـة. نسـب الكثـير مـن المحللـين عـلى صفحـات الجرائـد وشاشـات المحطـات الفضائيـة إلى إيلينـا أقـوالًا متشـددة، فيهـا بعـض الحُمْـق والاندفـاع، مـن قبيـل: «سـوف نشـن عمليـات قتاليـة خفيفـة عـلى نطـاق واسـع، قـد تـؤدي إلى عواقـب جانبيـة فوضويـة»، و«الحـرب الشـاملة الجديـدة قـد تخـرج في بعـض الأحيـان عـن

fb/mashro3pdf

التحكم، لكنك إن بدأت الركل بقوة، عليك أن تترقب طرطشة الطين»، و«يتعين علينا تفكيك البيروقراطية، وتبني تكتيكات جديدة على مقياس غير مسبوق.» أتحدث عن عمليات خفية، سجون سرية، استجوابات قاسية. نحن في حرب، وكل الأساليب قيد الدراسة»، هذا بالإضافة إلى كلام آخر أشد وقعًا يُنسب إليها، حول تقليص دور المستشار العمومي لوكالة الاستخبارات المركزية في الحكم على قانونية عمليات القوات الخاصة الخفية، وكذا دور لجنتي تخطيط ومراجعة العمل السري التابعتي لوكالة الاستخبارات المركزية.

لم تألُ إيلينا من جهتها جهدًا من أجل تكذيب هذه الادعاءات، ولا ادّخرت وسعًا في الهجوم على المدعين والكذابين ومروجي الشائعات، وسلكت طريقها وعملت بجد لأجل تحقيق أهدافها في الوقت ذاته من دون أن تلوي على أحد، ومن دون أن تبالي بقول تافه أو تهمة طائشة.

تبادل الصديقان حديثًا وديًا حول شؤون عامة وعائلية وهما يمشيان جنبًا إلى جنب في اتجاه مبنى قريب. حرص الجنرال حسام على كسر جمود قسماته، هذا الذي يحيل وجهه لأرض يبوسة لم تُزرع ولم تُعمر ولا جرى عليها ملك أحد. اليوم خف سلوكه، ولطفت أخلاقه، وطابت دعاباته. رقرق حديثه بكلمات صافية من أمثال «صديقتي» و«عزيزتي»، ورقرق سلوكياته باستجابات منبسطة رحراحة، كما يُرقرق الثريد بالدسم فيطيب للآكلين. وفوق ميله الغريزي إلى التبسط في حضرة الأجانب، وإظهار جانب اللين من شخصيته، أو تطريزه وتركيبه على ذاته كأنه الحقيقة، كانت لديه من الأسباب الأخرى التي تختص بعلاقته المهنية والشخصية بإيلينا الكثير. كان قد عزم في لفتة وفاء عميقة على أن لا ينسى فضلها، وهي التي عملت على إخراجه من كهف التقاعد الكئيب، ووضعه على قمة أكبر عملية مطاردة منذ بدء الحرب في مصر. لكنه كان يقول لنفسه أيضًا، إن فعل إيلينا لم يكن أبدًا منحة أو منة تَمنُّ بها عليه، بل إيمانًا راسخًا بقدرته على الأداء والإنجاز، وكان عازمًا على أن لا يُخيِّب حسن ظنها به.

من جهة أخرى، لم يكن صعبًا على السيدة الأمريكية إخراج صديقها المقرب من ظلمات التهميش والنسيان، فالجنرال حسام يتمتع بسمعة طيبة في أوساط المخابرات والدفاع الأمريكية، كما أن له «لوبي» من المؤيدين المتحمسين في لانجلي، والمشجعين المناصرين في واشنطن. يرجع هذا إلى تاريخ طويل من التعاون مع الإدارات الأمريكية

fb/mashro3pdf

المتعاقبة، نجح خلاله في بناء علاقات استخباراتية مستديمة، ثم عمله مع كبار مسؤولي إدارة الرئيس الأسبق جون ماكفرسون، الذي واجهت الولايات المتحدة في عهده تحديات أمنية أكثر تعقيدًا، مع انتهاء العمليات العسكرية التقليدية في مصر، وتصاعد أعمال الإرهاب والتمرد.

الجنرال أيضًا شخصية مُفضّلة لدولة إسرائيل، ويرتبط بوشائج صداقة متينة مع شخصيات حكومية بارزة في دوائر المخابرات والخارجية والدفاع، ودوره في إدارة الملف الإسرائيلي قبل الاحتلال لا يقدر على إنكاره أحد، علاوة على جهوده المستمرة في هدم الأنفاق وقطع سبل التهريب والاتصال على الحدود بين مصر وقطاع غزة. ولا يخفي الجنرال في لقاءاته مع الساسة الغربيين اهتمامه بدور الدولة اليهودية المتاخمة في دعم استقرار مصر والمنطقة، وإعجابه بالابتكارات الإسرائيلية في مجالات مثل الأمن الداخلي والأمن الغذائي والزراعة ذات التكنولوجيا الفائقة والطاقة المتجددة وغير ذلك، وما فتئ يعرب عن أمله في أن تتاح لإسرائيل الفرصة الكاملة لمساعدة مصر على حل العديد من قضايا الأمن اللينة، وتحقيق القدرة الاقتصادية التنافسية في المستقبل.

مكارم الجنرال حسام داوود تفوق الحصر، وثمار جهوده تظهر الآن في مجالات عدة، لذا لم يكن غريبًا أن يتبارى المسؤولون الأمريكيون في خلع أوصاف عليه من قبيل «جنرالنا الحديدي»، و«بطلنا الخارق»، و«رجل السي آي إيه الأول في مصر».

عَبَرَ الصديقان الحديقة الأمامية لمبنى زجاجي حديث المعمار، انتصبت أمام بوابته الأمامية لافتة جرانيتية مصقولة، نُحت عليها ببنط سميك العبارة الآتية: «قيادة الولايات المتحدة للعمليات الخاصة». حرصت إيلينا على تسلية صديقها المصري أثناء خضوعه لفحص استثنائي دقيق، بصفته زائرًا أجنبيًا. اضطر حسام إلى خلع حذائه، وتسليم هاتفه وساعته وحزامه، وحافظ على وجه متفهم متجهم، مقدرًا حساسية المكان والموقف، ومعزيًا نفسه باعتذارات إيلينا الصادقة المتتالية، وبالأدب الجم الذي تجلى به طاقم الأمن.

لم ينتبه الجنرال بطبيعة الحال إلى ضابط البحرية الأشقر، الذي تجاوز حاجز الأمن جانبه بسلاسة دون أن يلوي على أحد، إنما أبصره بعد ذلك بنظر خفيف وعرفه. لمحت إيلينا الشاب هي أيضًا بطرف عينيها، فالتفت إليه دون أن تقطع حديثها مع الصديق

fb/mashro3pdf

المصري، ورمته بنظرة متفحصة. وقف الضابط الشاب بقامة مشدودة في انتظار نزول المصعد، ولما انزاح مصراعاه المنزلقان، خطا إلى الداخل، والتفت، فرأى إيلينا.

أومأ الضابط إليها برأسه، وابتسم لها. جرت الابتسامة على وجهه باضطراب، ولم تكتمل، فكأن وجهه بها تعكر. لم يقصد في حقيقة الأمر إلا أن يرسل التحية إلى السيدة، لكن ضعف ذكائه العاطفي في هذه اللحظات أعجزه عن إظهار هذا الشعور الطيب. جاء التعبير على وجهه مفتعلًا، قلقًا، مُشوّشًا، فكأن وجهه الرجولي الجميل ابتلي بفالج مُفقِد للإحساس. استقبلت إيلينا نظرته وتحيته، ولم تُبدِ أول الأمر استجابة حسية أو حركية من أي نوع، بل اكتفت بأن أمعنت النظر في وجهه. وقبل أن يلتقي مصراعا المصعد، أومأت إيلينا إلى الضابط الشاب كدلالة على رد التحية، إنما لاح في عينيها الكدر.

*****

أسفل المستوى الأرضي بأربعة طوابق، افترق مصراعا المصعد، وخرج جايكوب. ارتدى اليوم زي الخدمة الأنيق: القبعة العسكرية المدمجة، والبدلة السوداء المُزدانة بالأزرار المذهبة. تألقت على الجانب الأيمن من جاكيت البدلة شارة البحرية الأمريكية للحرب الخاصة، برموزها الذهبية المتداخلة: المرساة والرمح والمسدس والعقاب النسري. أسفل منها تراصت خمسة صفوف من الأوسمة الملونة، أحرزها الضابط الشاب خلال سنوات عمله بالبحرية، أهمها صليب البحرية، والنجمة الفضية، والقلب الأرجواني، وميدالية خدمة الدفاع الوطنية.

تقدم جايكوب بخطوات قوية ثقيلة، واجتاز بهو الطابق التحتيّ الحصين إلى ممرات رمادية اللون باهتة الإضاءة. نظر إلى موضع ساعته من معصمه، ثم تمعّر وجهه إذ لم يجد شيئًا، وتذكّر أنهم صادروا حاسوبه المحمول الجديد بالأعلى، فلم يعد معه ما يدل على الوقت. تجاوز عدة أبواب فولاذية، حتى وصل إلى بوابة من الزجاج المقاوم للرصاص. هنا خضع لفحص أمني جديد، ثم دُعي إلى دخول غرفة اجتماعات واسعة، رأى فيها جمعًا من العسكريين والمدنيين. اتجه فورًا إلى الأدميرال ديتوماس وصافحه، ثم إلى الكابتن أودونيل، الذي صافحه بقبضة قوية شديدة المسك. بحث عن كرسيه على مائدة

fb/mashro3pdf

الاجتماعـات، وحـال جلوسـه، طأطأ رأسـه، وتـلافى أي اتصـال بـصري مـع أي مـن الحاضريـن.

لـم تكـد تمـضِ خمـس دقائـق إضافيـة حـتى وصـل المصعـد بالسـيدة الأمريكيـة وضيفهـا المـصري، ليخضعـا بصـبر للفحـص والتفتيـش مجـددًا عنـد البوابـة الزجاجيـة. وعندمـا خطـا الجـنرال المـصري إلى الداخـل، تنقلـت عينـاه بـين عنـاصر غرفـة الاجتماعات وشـخوصها، ومسـح الأشـياء والأحيـاء مسـحًا بصريًـا سريعًـا، انتقلـت حصيلتـه إلى تلافيـف دماغـه في لمـح البـصر، كي تخضـع للمعالجـة والتحليـل، ثـم التوثيـق والتخزيـن في خريطـة ذهنيـة مركـزة ومنظمـة. لـم يكـن منهجـه في ملاحظـة الأشـياء التأمـل أو التحديـق، بـل الـدوران بالبـصر بعُجَالـة وعفويـة، دون تلبـث أو تدقيـق لافـت للانتبـاه. لـم يـدُم ذاك الفعـل لأكـثر مـن عـدة ثـوانٍ، علـم فيهـا أنـه في غرفـة الاجتماعـات المعروفـة كوديًـا باسـم «كهـف الوطـواط»، الكائنـة في الطابـق الرابـع التحـتي مـن مبـنى قيـادة العمليـات الخاصـة بقاعـدة «ماكديـل» الجويـة. هـي غرفـة فسـيحة حصينـة، ذات جـدران رماديـة، وإضـاءة خافتـة معـدة للعـروض التقديميـة، ومؤمّنـة إلكترونيًـا وعازلـة للصـوت، ممـا يعـني أن أي وسـائل اتصـال أو أجهـزة إلكترونيـة شـخصية لا يُسـمَح بدخولهـا. ليسـت الأكـثر سِريـة أو عمقًـا في المبـنى، لكنهـا الأقـرب إلى مكتـب الأدمـيرال البحـري جوزيـف ديتومـاس، قائـد قيـادة العمليـات الخاصـة.

عَرَّفـت إيلينـا الحضـور للجـنرال فـردًا فـردًا، فكأنهـم في حفـل اسـتقبال دبلومـاسي. لـم يُضِـف إليـه التقديـم جديـدًا عـلى كل حـال؛ لأنـه يعرفهـم جميعًـا بالاسـم والسـن وسـابقة الأعمـال، بمـن فيهـم موظفـي وكالـة الاسـتخبارات المركزيـة، وهـؤلاء ثلاثـة. الأولى هـي عليـاء سـمير: امـرأة ممتلئـة البـدن بشوشـة الوجـه، في منتصـف الثلاثينيـات. سـخُّرت العقـد السـابق مـن عمرهـا في العمـل في الوكالـة مسـتهدِفًا يتتبـع العمليـات الماليـة والميدانيـة لتنظيـم جبهـة المقاومـة الإسـلامية في مـصر. الثـاني هـو جـورج عـدلي: رجـل نحيـف أنيـق، في أوائـل العِقـد الرابـع مـن العمـر. هـو المـشرف عـلى عمليـات الوكالـة الميدانيـة ضـد تنظيـم جبهـة المقاومـة الإسـلامية. الثالثـة هـي وينـدي فريـد: شـابة لطيفـة القسـمات في أواخـر العشرينيـات، تعمـل محللـة بمكتـب مـصر للفحـوص التحليليـة بالوكالـة، المختـص بتقديـم مناهـج متعـددة لتحليـل المعلومـات الاسـتخباراتية حـول مـصر إلى الرئيـس الأمريـكي وكبـار مستشـاريه. هـؤلاء الثلاثـة هـم ضبـاط العمليـات المسـؤولون عـن تنظيـم جبهـة المقاومـة الإسـلامية، مـن جهـة تحليـل المعلومـات وتحديـد الهويـات وتقديـر النوايـا ورصـد الأنشـطة.

fb/mashro3pdf

وإن كان حسام قد عرف موظفي وكالة الاستخبارات المركزية على نحو قد يُعدّ لمن هم في مثل مهنته سطحيًا، فقد عرف الأدميرال جوزيف ديتوماس على نحوٍ أكثر دقة وتفصيلًا، بحكم منصبه الخطير، ودوره الرئيسي في تحويل مجرى الأحداث في مصر وسائر ساحات الصراع في المدن والصحارى العربية. لم يكتفِ حسام بمعارفه الاستخباراتية الجامدة عن الرجل، بل كان قبل أن يأتي إلى هنا قد توسّع في القراءة عن حياته الشخصية وميوله وصفاته، وحرص على أن لا يغفل كلمة واحدة كُتِبت عن الرجل في دورية أو كتاب.

نشأ جوزيف ديتوماس في بلدة سان أنتونيو بولاية تكساس، وأحب الحياة العسكرية في سن مبكرة، كما كن لها إجلالًا خاصًا؛ ذلك أن والده كان طيارًا مقاتلًا، وشارك في غارات على العراق وليبيا وأفغانستان. تخرّج ديتوماس في جامعة تكساس، وحصل على شهادة البكالوريوس في الصحافة، وكان قد التحق قبلها بفيلق تدريب ضباط احتياط البحرية الأمريكية في الحرم الجامعي. فور تخرجه اجتاز اختبارات الإبرار الجوي والبحري، والتحق بالفريق السادس للإبرار الجوي والبحري، المعروف إعلاميًا باسم «فريق سيلز رقم ستة»، وبدأ أولى جولاته القتالية في أفغانستان. لم يمض عليه هناك الوقت الطويل، حتى تولى قيادة إحدى فرق «سيلز»، وكان، كما وصفه زملاؤه ورجاله، جادًا، متفانيًا، مُفسدًا للبهجة.

أفردت مجلة «تايم» لدينكسون عددًا كاملًا، ورغم هذا، تظل التفاصيل المتاحة للجمهور عن حياته قليلة للغاية. يعلم الجنرال حسام الكثير عن سجل خدمته الملوث بالدم في مصر، ويعلم كذلك أنه ليس جنديًا عاديًا؛ ذلك أنه رأس كلية الدراسات العليا البحرية، وساهم في إنشاء برامج تعليمية وتدريبية لعناصر العمليات الخاصة، وحصل على درجات أكاديمية راقية في شؤون الأمن القومي والعمليات الخاصة والصراعات منخفضة الكثافة، كما قام بتأليف العديد من الكتب الأكاديمية المهمة، وأطروحات الدراسات العليا التي تُقرأ وتُدرّس على نطاق واسع، وقام كذلك بتطوير نظرية العمليات الخاصة، وبوضع مؤلفات أخرى تُعد الآن من الكتب التأسيسية في دراسة حروب العمليات الخاصة.

لهذه الأسباب كلها، خصّ حسام الأدميرال ديتوماس باهتمام خاص ما أن عرّفته إيلينا. مد يده ليصافحه بقوة، وقال له باسمًا:

- إنه لشرف لي أن ألقاك اليوم يا أدميرال. قرأت الكثير من أعمالك، وأَعُدُّك -بلا شك-

fb/mashro3pdf

أذكى مقاتل عمليات خاصة في تاريخ الحرب الأمريكي.

خلال الحرب في مصر، أصيب ديتوماس إصابات بالغة في هجوم صاروخي استهدف قاعدة جون ديكنسون العسكرية، واضطر إلى أن يطلب إعفاءهُ من مهامه، بعد أن علم أنه لا قتال له بعد ذاك اليوم، هذا إن استطاع أن يمشي على قدميه مرة أخرى. وكان في هذا مخطئًا؛ لأن مسيرته المهنية لم تكن قد انتهت بعد، بل كانت على وشك الانطلاق.

لم يدخل ديكنسون ساحات المعارك بحذائه العسكري مرة أخرى، إنما أصبح لاعبًا أساسيًا في إستراتيجية الولايات المتحدة الجديدة لمكافحة الإرهاب، وذلك بعد أن عرض عليه الدكتور نواه فيلدمان، نائب مستشار الأمن القومي في الإدراة السابقة لشؤون مكافحة الإرهاب، أن ينضم إلى فريق موظفيه في البيت الأبيض. وهناك، بينما يتعافى من إصاباته، ولمدة ثلاثة أعوام كاملة، خط ديكنسون الإستراتيجية الوطنية الجديدة لمكافحة الإرهاب، التي تمشي على هُداها العسكرية الأمريكية الآن. خلال تلك الفترة، وما بعدها، ساهم ديتوماس في إعادة هيكلة قيادة العمليات الخاصة المشتركة، وتحسين مهارات وقدرات عناصر فرق العمليات الخاصة المختلفة، كي تشارك بفاعلية أكبر في قمع حركات التمرد المتعاقبة في مصر، وفي خوض حرب لا تناسقية عصابية مفتوحة، تدور رحاها ضد تنظيمات وميلشيات وشراذم، تولدت كنتيجة حتمية لتدمير الجيش المصري وتفكيكه وهدم هياكله وتسريح عناصره.

وأخيرًا، وبإشراف من إيلينا فيكسلبرج وأبراهام باراتز، قام ديتوماس بتأسيس أرق وحدة قتال في صفوف قوات الإبرار البري والبحري والجوي التابعة للبحرية الأمريكية، من جهة القدرة والمهارة والقوة النيرانية والتطور التقني، ورصد لها ميزانية تدريب وتسليح ضخمة، وسماها اختصارًا بـ«بيلت»، وسماها تفصيلًا بـ«مجموعة تطوير تكتيكات ما وراء خطوط العدو»، ثم كَناها بعد ذلك بـ«ديث ستوكرز». صمم الأدميرال ديتوماس شعار وحدة القتال الجديدة بنفسه، جاعلًا فيه ترس نبالة، منقوش أعلاه عقرب ذهبي مضلع مخيف، من نوع «ديث ستوكر»، أو «مُطارِد الموت».

ولأن ديكنسون هو الشخصية الرئيسية النافذة في مجلس الأمن القومي، والمسؤول بإطلاق عن قيادة العمليات الخاصة المشتركة، والمُنسِّق الأساسي في مكتب مكافحة الإرهاب، وهو أيضًا اليد الفاعلة في عسكرة السياسة الأمريكية، وإضفاء الطابع المؤسسي

fb/mashro3pdf

على عمليات الاغتيال كمكون رئيسي من مكونات سياسة الأمن القومي الأمريكية، لهذه الأسباب كلها، كان من أوائل من أرسلت إليهم معلومات الجنرال حسام داوود. فور أن وصلته البيانات من إيلينا فيكسلبرج، قام بفحصها وتقسيمها إلى قوائم أهداف عالية القيمة، وأخرى متوسطة القيمة، وضمها إلى البنية التحتية المعلوماتية الخاصة به، للمقارنة والمراجعة والتصحيح. وهكذا أضفى على العملية كلها طابعًا مؤسسيًا، وهو الفن الذي يبرْع فيه ويجيده لأبعد حدود الإجادة. اعترف ديكنسون أن المعلومات مدهشة، ولم يكد يُحزِّر الكيفية التي جمع بها الجنرال المصري مثل هذه البيانات، ولم تكن تحت يديه آليات تُمكّنه من تقييم جودتها.

لم يصافح الأدميرال ديكنسون الضيف المصري بالحرارة نفسها، إنما شد على يده وتبسم في وجهه برزانة، ثم جرى بينهما حوار هادئ، سلس، باسم، استغرق دقيقتين أو ثلاثة، وتخللته لمسات ودودة تكرّم بها الجنرال المصري على الأدميرال الأمريكي، مرة على ذراعه، وأخرى على كتفه، وثالثة أخيرة على ظهره، بعد أن دعاه ديكنسون بأدب إلى أن يتبوأ كرسيه. فارق حسام الرجل، وطوفت عيناه بالغرفة وهو يتجه إلى كرسيه.

وكما أن للجنرال المصري عينين خبيرتين، فإن للحضور أيضًا أعينهم العليمة المجربة، التي عركتها خطوب الحرب وتقلبات الزمن. لم يكن وجود المدنيين في مثل هذه الاجتماعات العسكرية بالأمر المستغرب، فبشكل دوري يحضر أعضاء من مجلس الشيوخ، ورؤساء أو نائبو رؤساء المخابرات المركزية، وموظفو مكتب التحقيقات الفيدرالي أو وزارة الخارجية. أما أن يحضر أجنبي، فهو الأمر الشاذ بلا ريب، لذا حدجه الحاضرون بشيء من الغرابة وانشغال البال، حتى استشعر الجنرال المصري رفضًا وإنكارًا من قِبَل الحاضرين، ظهر على استحياء في أعينهم. إنكار باهت، كهذا المتولد من عيني موظف روتيني جامد الفكر، يعاين ما يظنه مخالفًا للأصول المستقرة ولوائح العمل السليم. ورغم المصافحة المهذبة، ودلائل الكياسة البادية على وجهه، رأى الحضور ما وراء قسمات الجنرال المصري الدمثة من حدة وقسوة، وما وراء عينيه البشوشتين من تهديد ثاقب، وما وراء بسمته الرفيعة من تعجرف وتعاظم.

أما ضابط صف بحري، جايكوب «جايك» بينجامين، فاستوحش من الحاضرين جميعًا. كانت لديه أسبابه للنفور من قائده، الكابتن جوزيف أودونيل، وهي أسباب مهنية

fb/mashro3pdf

محضة. لم يكد يطيق الأدميرال ديتوماس كذلك؛ لأنه بدا في نظره، في هذا الموقف بذاته، أقرب إلى سياسي مراوغ منه إلى عسكري محنك. ثم كانت لديه أسبابه للنفور من موظفي المخابرات المركزية الثلاثة. إنه عمومًا يكره ثلاثة أصناف من الآدميين أشد الكُره: السياسيين، وموظفي مكتب التحقيقات الفيدرالي، وموظفي المخابرات المركزية. كل معلومة تأتيه من أيٍّ من هؤلاء الثلاثة تقع من نفسه محل شك عميق، وإن أغلب المعلومات التي تُبنى عليها مهامه تأتي منهم، بكل أسف.

الحقائق المطلقة في حياة جايكوب معدومة، لكن ثمة بعض الحقائق العلمية المتوازنة، والمُجْمَع عليها باتفاق الآراء في العالم المادي المحسوس، كما اعتاد أن يقول لنفسه دومًا، مثل الجاذبية وتأثيرها على المادة، والكهرومغناطيسية وتأثيرها على الجسيمات المشحونة، والطبيعة البيروقراطية الرجعية لمكتب التحقيقات الفيدرالية ووكالة الاستخبارات المركزية، هاتان المنظمتان الفاشلتان الفاشيتان، اللتان تتسمان بالبطء في التنفيذ والقدرة التلقائية على عرقلة السير الطبيعي للمهام الخطيرة. تغص مكاتبهما بجحافل من الموظفين الذين لا يختلفون في تدني مهاراتهم وانعدام كفاءتهم الكارثي عن موظفي وزارة الأمن الداخلي. المخابرات المركزية بذاتها يعدها جايكوب حقلًا خصبًا للغباوة والوساطة والمحسوبية السياسية، التي تتسلق إلى الإدارة العليا، بل إلى رئاسة المنظمة ذاتها. إنه يؤمن أنهم جميعًا ، المديرين ورؤساء الأقسام والمفتشين العموميين ومساعديهم ، ليسوا إلا طغمة من الموظفين المحبين للكراسي والوظائف المملة، ممن يقاتلون أيامهم بالسلبية والسأم من أجل الوصول بأمان إلى مرحلة التقاعد. ومن يهتم بالبحث عن الدليل على هذه الادّعاءات الخطيرة، يتحتم عليه إذن أن ينظر في تاريخ رئيسي المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية الحاليين. كلاهما لا خبرة له في العمل الميداني، ولا في مكافحة التجسس أو تطبيق القانون. قصارى ما وصلا إليه، هو كونهما مساعدين لعضو سابق في مجلس شيوخ، صار فيما بعد رئيسًا للولايات المتحدة.

ويزيد على ما تقدم، تلك المهزلة الجارية أمام عينيّ جايكوب الآن، بوجود هذا الأجنبي في اجتماع سري، في قاعة اجتماعات مؤمّنة، تقع في قبو قيادة العمليات الخاصة الحصين. لذا، عندما جاء دوره لتحية الجنرال الضيف، صافحه بجفوة.

انتهى التعارف في دقائق معدودة، واتخذ كلٌّ مجلسه المخصص له. وعندما أُغْلِق باب

fb/mashro3pdf

غرفة الاجتماعات الفولاذي، ومضت أعلاه من الخارج لوحة رقمية، تألقت عليها بنور أحمر أخّاذ عبارة: «اجتماع لتلقي معلومات»، ووقف أمامه جنديان مسلحان من مشاة البحرية.

على الفور بدأت إيلينا كلمتها التمهيدية، قبل الخوض في الجانب العملياتي من الموضوع. قالت بلهجة قاطعة مباشرة:

- اسم الهدف لهذه المهمة هو: محمد عبد القادر عواد، المعروف بأبي زكريا. يقولون عنه في مصر إنه رجل الإسلاميين الصعب، ونَصِفه نحن في واشنطن بأنه «الفرعون الأزلي». هو صاحب القبضة الحديدية والسلطة المطلقة على كل التنظيمات المتطرفة العاملة في مصر. هو المتهم بالتآمر لقتل موظفين ومواطنين أمريكيين، والتآمر لاستخدام أسلحة دمار شامل ضد مواطنين أمريكيين، والتآمر لتدمير منشآت تعود ملكيتها للولايات المتحدة، والتآمر لمهاجمة مرافق الدفاع الوطنية، وغيرها من جرائم العنف والإرهاب. عشر سنوات كاملة، ظل فيها هذا الرجل مختبئًا في الظلمة. لم نرَ وجهه أو صورة له ولو مرة، لكننا كنا نرى نتائج جرائمه كل يوم.

استمرت إيلينا في التقديم، قائلة بوجه جاد قاسٍ:

- مليارات الدولارات أنفقتها الولايات المتحدة في حربها على الإرهاب، ويظل هذا الرجل قادرًا على الاختباء والمراوغة. خمس سنوات مرت، عملت فيها جماعته تحت الأرض، بأقل الإمكانيات الممكنة، دون استخدام هواتف أو حواسيب، ودون الانخراط في أي عمليات مؤسسية منظمة يمكن من خلالها تتبّعهم وتحديد مكامنهم. فقط اعتمدوا على عناصرهم البشرية في التواصل والتخطيط وإرسال التعليمات. خمس سنوات مرت، لم نستطع فيها تحقيق نتائج إيجابية تُذكَر، إلى أن قرر الرئيس تخصيص ميزانية أكبر وموارد أكبر لمعالجة تلك المشكلة.

وأشارت إلى الجنرال حسام، الجالس إلى جوارها، وقالت:

- وكانت الموارد البشرية هي أفضل ما استطعنا الحصول عليه. ومن هنا أتى دور الجنرال حسام داوود، الذي تقدم مشكورًا لمساعدتنا، وشاركنا بخبراته ومعلوماته في التعامل مع التنظيمات الإسلامية المتطرفة. وبقاعدة معلوماته الواسعة، وبتقنيات استجواب مختلفة، استطاع أن يكشف لنا واحدًا من أهم عناصر التنظيم المسمى بجبهة

fb/mashro3pdf

المقاومة الإسلامية. هو واحد من تلاميذ أبي زكريا المقربين، ومن أهم مبعوثيه، الذين يستخدمهم في الاتصال والربط بين خلايا التنظيم.

لم يكن اللواء بالرجل الذي يسكت، ويدع أحدًا غيره يتولى شرح ما يعتبره هو نصرًا بُذلت في سبيله الأنفس والدماء. لذا ما أن جاء ذكره وذكر سجينه، حتى اعتدل في كرسيه، وقال بوقار ويسر، كأنه جزء لا يتجزأ من التمهيد الذي بدأته إيلينا:

- هذا الشخص يُعد عنصرًا أساسيًا ومُطّلعًا على عمليات الجبهة وأساليب تشغيلها. ويعد أيضًا من الشخصيات القريبة للغاية من أبي زكريا وعائلته. «الابن الذي لم ينجبه»، على حد تعبيره هو نفسه.

لم تجد إيلينا في هذا التدخل غضاضة، بل عَدّته فرعًا على حديثها وحاشية له؛ لأن الجنرال المصري مهما علت منزلته، لم يكن هنا إلا «تابعًا» أو «مستخدمًا»، ولن يعدو مهما فعل كونه كذلك.

أردف حسام قائلًا دون تعثّر، بإنجليزية طليقة، جزلة الألفاظ، محكمة التركيب، ذات لكنة عربية مميزة:

- هذا الشاب لم يكن فقط متعاونًا ومفيدًا من جهة دقة المعلومات التي قدمها. بل إن قربه الشخصي من أبي زكريا، مع خلفيته كمهندس معماري، أعطته قَدَم سَبْق على كل المعتقلين الآخرين، مهما بلغت منزلتهم في التنظيم. بجانب تحديده محل إقامة أبي زكريا، استطاع بضغط بسيط أن يعطينا أيضًا -فقط من نتاج ذاكرة تصويرية قوية- مخططات تفصيلية للمكان، داخلية وخارجية، وأعداد ساكنيه، ونمط حياتهم اليومي.

هكذا قال حسام وصمت، وكان يعلم بالفطنة والخبرة متى يُقدِم ومتى يُحجِم. قالت إيلينا تتابع على الفور، في إثر سكوت صديقها المصري عن الكلام:

- أثبتت صور الأقمار الصناعية جودة معلومات هذا العنصر، فوضعت المخابرات المركزية المكان تحت عملية «مراقبة لنمط الحياة»، استخدمت فيها كل الوسائل الممكنة لجمع المعلومات، بما في ذلك صور الأقمار الصناعية، والمركبات الجوية بدون طيار، وصور العدسات المقربة، وأجهزة التنصت. وخلال الأسابيع الماضية، استطعنا أخيرًا حصره في دائرة ضيقة، واتخذ الرئيس قرارًا بقتله.

ثم أشارت بيدها إلى ديتوماس كي يتقدم، وقالت بما يشبه الاعتذار:

fb/mashro3pdf

- أدميرال، من فضلك.

نهض الأدميرال ديتوماس، واحتل رأس الغرفة، واستحوذ على انتباه الحضور بوجهه المحمر هادئ القسمات، وبنيته القوية، وبدلته العسكرية الأنيقة. كان جادًا بشوشًا كعادته، والتمعت عيناه الزرقاوان بالنشاط والذكاء، ونمّ فكه العريض عن الوقار والمهابة.

بلل شفتيه بلسانه، وقال بصوت عميق النبرة:

- من واقع صور الأقمار الصناعية، والتفاصيل التي أدلى بها المعتقل، نظن أن أبا زكريا يختبئ في منزل حصين بحي فقير بالقاهرة يسمى «عين البقرة».

بدأت فاعليات عرض المعلومات في تلك اللحظة، فومضت الشاشات ثلاثية الأبعاد بالخرائط وصور الأقمار الصناعية، وتتابعت المعلومات السمعية والبصرية حول مائدة الاجتماعات.

تابع ديتوماس كلامه قائلًا، وهو يوجه سبابته إلى نقاط عدة على الشاشة الرئيسية:

- جزء كبير من الفناء الأمامي للمنزل مغطى بألواح من الخشب والصفيح، كما ترون. هذه التغطية تقف حائلًا دون التقاط صور واضحة من أعلى. إننا نظن أيضًا أن السكان يستخدمون أجهزة استشعار لكشف آلات التجسس الدقيقة، فعزمنا من ثم على ألا نستخدمها؛ أي خطأ كفيل بإخافتهم، ودفعهم إلى الهروب والاختفاء.

وأشار إلى صورة متحركة ثلاثية الأبعاد لمنزل كبير، مولّدة بالحاسب الآلي، وقال:

- مساحة المنزل بما فيه من أفنية ومبانٍ تبلغ الفدان ونصف الفدان تقريبًا. موقع المنزل اختير بذكاء؛ لأنه يتيح لساكنيه نقاط دخول وخروج متعددة. كما ترون، بُني المنزل بتشطيب خارجي سيئ الجودة، عليه طبقات غير منتظمة من الخشب والقماش القديم، كنوع من التمويه والتخفّي في النسيج العمراني الكثيف المحيط. لهذا لم يلفت انتباه المراقبين من قبل، بل لم يلفت انتباه الجيران أنفسهم، حسب المعلومات المتوافرة من عناصرنا على الأرض.

دقق الحاضرون النظر إلى الصور، واعترف البعض منهم في قرارة أنفسهم بدقة البناء. لولا الإطار المتألق المطوق لمحيط المنزل، الذي رسمه المحللون على الحاسب الآلي، لما استطاع أحدهم تمييز المنزل عما حوله من أعشاش وخرائب.

fb/mashro3pdf

تابع الأدميرال ديتوماس قائلًا، وهو يشير إلى عدة نقاط أخرى على الخريطة:

- نتوقع أن المكان محاط بعناصر مسلحة، ومجهز بدفاعات قوية عند هذا النقاط. لم نرَ إلى الآن رجالًا مسلحين في داخل المنزل، لأننا لم نستطِع رصد أي أحد في الداخل، لا مسلحين ولا غيرهم، سوى بعض النساء والأطفال في المناطق المكشوفة من الفناء. لكن هذا لا يعني أنهم في الداخل بلا سلاح. علينا أن نتوقع أن المكان يموج بالمسلحين الخطرين. هناك على الأقل عشرة ذكور من أفراد عائلة أبي زكريا المقربين في سن القتال. نظن أن هناك تسليحًا ثقيلًا بالداخل أيضًا. المعلومات التي لدينا تؤكد أن هناك عدة رشاشات صينية ثقيلة، مُعدّلة بآليات تستجيب لمستشعِرات صوت وحركة.

- هذا أمر جد خطير. كم عددهم على وجه التحديد؟

هكذا قال الكابتن أودونيل متسائلًا بوجه مقطب، فأجابه ديتوماس قائلًا:

- سبعة.. على أقل تقدير.

- هل تحققتم من هذه المعلومات؟ أعني العدد، ومواقع المدافع.

- ربما يكون هناك أيضًا، في هاتين النقطتين أعلى المبنى، محطتان تصلحان لنشر معدات مضادة للطائرات. تشير تقارير المخابرات أننا قد نواجه قوة نيرانية ضاربة من صواريخ أرض-جو المحمولة.

قالها الأدميرال وهو يشير إلى نقاط أخرى على سطح أنموذج المنزل ثلاثي الأبعاد، موضحًا المدى الخَطِر لدفاعات المبنى المحتملة. ثم وجّه كلامه للكابتن أودونيل مرة أخرى قائلًا:

- لقد تحدثت إلى مدير المخابرات المركزية، وقد طلب مني أن نفتح ملفًا، وأن نبدأ دورة التخطيط. سنحتاج عددًا من رجالك، لتأسيس خلية تخطيط، وسيتكفل الفنيون من جهتهم بالبحث عن وسائل لتأكيد مواقع الدفاعات الثقيلة، إن وجدت، وتعطيلها عن بُعد.

تدخّل جايكوب في الحديث فجأة، وقال بتوتر:

- قبل أن ندخل في مرحلة التخطيط، لديّ بضعة أسئلة أود طرحها.

التفت إليه أودونيل، وبدا على قسماته بعض الاحتداد، كأنه على وشك إسكاته، أو الاقدام على أي فعل آخر ينم على التحفز وعدم الرضا. لكن ديتوماس قال بسعة

fb/mashro3pdf

صدر:

- اسأل ما بدا لك، وسأجيبك قدر استطاعتي، أو يجيبك أي من الحاضرين ممن لديهم معلومات أكثر تفصيلًا.

ولأن جايكوب بطبعه إنسان شكاك سيئ الظنون؛ ولأنه كان في هذه اللحظات العصيبة يُمتحن بمصيبة لا يعلم أبعادها إلا هو، استحوذ من تلك اللحظة فصاعدًا على موضوع الاجتماع بأسئلة دقيقة مرتابة، تدور كلها في فلك: «كيف علمتم؟» و«كيف تحققتم؟» و«من أين لكم بتلك المعلومة؟».

رغم تاريخه المُلوَّن وسمعته الأخلاقية العكرة، احتمل الحضور أسئلته، وتجاوبوا معها قدر المستطاع؛ وذلك لعلمهم بسابقة أعماله العملياتية المشرفة، وقدراته التكتيكية المتجددة، وتجاربه الجامعة، المستقاة من مئات المهام المشابهة. الأدميرال ديتوماس على وجه التحديد أبدى صبرًا يندر أن يتحلى به القادة مع جنودهم، بل ويندر أن يتحلى به هو نفسه مع جنوده، إلا أنه أمام الإعلاميين والساسة يحرص على أن يكون في ظاهر الأمر مثالًا يُقتدى به في الثبات والحلم والعقلانية وضبط النفس. لهذا لا يجد الصحفيون حرجًا في أن يقولوا عن الأدميرال الفولاذي إنه طويل الباع في التخطيط لعمليات ضروس، وتنفيذ تطبيقات عنف متطرفة لإهلاك الخصوم، لكن باعه في اللباقة وحسن معاملة الآخر أطول وأرحب.

ثم إن ويندي، محللة المخابرات، ردت على مسألة استفسر عنها الشاب قائلة:

- لقد استطعنا الحصول على عينات صوتية لعدد من سكان المنزل، ومن ثم استطعنا فصلها وتنقيتها وتحليلها. واستطاع خبراؤنا التحقق من أن أحد هذه البصمات الصوتية توافق بصمة صوت أبي زكريا، بنسبة ثمانين في المئة. تحليلي الشخصي، الذي يوافقني عليه زملائي هنا، أنه بفضل المعلومات التي أدلى بها معتقلون من الجبهة الإسلامية، وآخرها ذلك العنصر المهم المقرب لأبي زكريا ذاته، أستطيع أن أجزم بنسبة مئة في المئة أن أبا زكريا هناك.

هز جايكوب رأسه يمنة ويسرة، وقال بعدم اقتناع:

- نسبة مئة في المئة غير واقعية، إلا لو كان لديك تأكيد مرئي.

قالت ونيدي بإصرار:

fb/mashro3pdf

- المعلومات التي توافرت مؤخرًا من هذا العنصر تجُبّ أي تأكيد مرئي.

تدخلت إيلينا لتقطع تلك المجادلة، وقالت بلهجة قاطعة، وهي تصوّب إلى جايكوب نظرة ثاقبة:

- عملية جمع المعلومات لم تتوقف على كل حال. مكتب الاستطلاع القومي قام بتقييد قمر صناعي فوق المنطقة، بأمر من السيد الرئيس. هذه خطوة كبيرة، تدل على جدية المعلومات المتوافرة.

وشبكت أصابع يديها على الطاولة، وقالت مستطردة:

- أعلم أن العملية تبدو على قدر كبير من الخطورة، والوقت المتاح لا يكفي للتدقيق أو التدريب. لكن ينبغي أن تفهموا أهمية هذه الضربة، وعمق تأثيراتها إن نجحت. القضاء على أبي زكريا هو مقدمة، قد تضع نهاية لحرب العصابات الجنونية الدائرة الآن، وبداية حقيقية لمرحلة إعادة الإعمار، المُعطّلة منذ عشر سنوات.

سكت الحضور عن الكلام لحظة، إلى أن قال ديتوماس عائدًا إلى الجانب المعلوماتي من الاجتماع:

- العدد المتوقع لساكني المنزل قد يربو على الثلاثين. لا توجد أي اتصالات سلكية أو لا سلكية في المكان، ولا يفتح السكان الأبواب قط، ولا يستعينون بأي خدمات من الخارج، لا طعام ولا نفايات ولا كهرباء ولا أطباء. هناك أيضًا أطفال، الكثير منهم، كما أفادت عناصرنا على الأرض.

- كم طفلًا على وجه التحديد؟

هكذا تساءل أودونيل منتبهًا، فأجاب الأدميرال:

- ربما اثني عشر طفلًا أو أكثر. عائلة أبي زكريا كبيرة، وتضم عدة أُسَر، لكل منها أطفال في أعمار مختلفة. لا يخرج الأطفال خارج المنزل، بل يعيشون حياتهم بالداخل. يلعبون ويتعلمون في الفناء.

رفع جايكوب عينيه إلى الأدميرال باستياء، وهمّ أودونيل بأن يقول شيئًا ما، لكن جايكوب سبقه، وسأل الأدميرال مباشرة وبأدب، عن قواعد الاشتباك.

أجابه الأدميرال باستفاضة، وعضدت إيلينا استفاضة الأدميرال بإطناب من عندها، وحاول حسام كذلك المساعدة بجملة أو جملتين. في الظروف العادية، لم يكن جايكوب

fb/mashro3pdf

ليطرح أيًا من هذه الأسئلة التفصيلية عن كيفية التعامل مع الهدف، لكنه كان تحت تأثير الظن بأن ظروف اليوم أبعد ما تكون عن الاعتيادية، وأن مستقبله موضوعٌ على المحك.

ارتاب جايكوب في كل ما قيل، ولم يستطِب نغمة الطمأنة تلك، ولم يكن بتوقع رغم ذلك أن يفيده الحضور عما سأل بغير هذه النغمة وبغير هذا الكلام. إن هؤلاء الساسة الرواقيين ومن يَلُّف لَفَّهُم من المحللين الاستخباراتيين، يضغطون بكل قوة من أجل أن تدخل خططهم في طور التنفيذ، ولا بد من ثم أن يدافعوا عن أفكارهم إلى حد التعصب والتعامي وإخفاء الحقائق. وإن هذه التكهنات النطاسية، القائمة فيما يبدو على بينة معرفية، وهذه الخطط المثالية، المبنية في ظاهر الأمر على إلمام تام بكل أبعاد الموقف، لا تعمل على الأرض في أغلب الأحوال، وتخرمها مئات التفاصيل الكبيرة والصغيرة، وتصدعها مئات الانعطافات المباغتة التي لم تكن قد وضعت في الحسبان. وإن أزمة جايكوب الآنية تحضه كل الحض على أن يشك في مصداقية كل كلمة تقال، وأن يتوقف عند كل تفصيلة تُطرح، وأن يمضي الساعات القادمة في مراجعة العملية بإمعان وتدقيق.

أتبع الضابط الشاب المتحدثين بصره بقلق وكدر، وأحس أن النقاش يدور على الطاولة على نحو نمطي متحيز، يفتقر إلى التأمل والتمحيص، فكأنما أعد الحاضرون تخطيطًا مسبقًا له، وجرّبوه المرة بعد المرة قبل عرضه على الجمهور. انزعج كذلك من تلك الثقة المُهلِكة التي يتدرعون بها، ومن وقوف الأدميرال ديتوماس في صف الساسة فيما يبدو، هكذا دون بيّنة. لم يعجبه أي شيء، فعزم من ثم على أن يخطو خطواتٍ ثلاثة، من أجل فرملة النقاش وتنظيمه. الأولى هي البُعد عن التصورات المتفائلة، وتقليص التوقعات. والثانية هي التنقيب عن التفاصيل، والتحقق من قدرة الفريق على تحقيق أهداف المهمة الرئيسية. والثالثة هي طرح المزيد من الأسئلة، ثم طرح أسئلة أخرى فوق ما سبق طرحه، من أجل استدراج هؤلاء الطموحين إلى حافة الشك.

استمر النقاش بين أودونيل وجايكوب من جهة، وديتوماس وإيلينا والاستخباراتيين الثلاثة من جهة أخرى، إلى أن فهم جايكوب، بما لا يدع مجالًا للشك، أنها مهمة قتل مباشرة، في مسرح عمليات هو أقرب إلى مدرسة ابتدائية منه إلى منزل. لن يكون في استطاعته اليوم التسليم بالمعنى السطحي للألفاظ والعبارات. بذل قصارى جهده

fb/mashro3pdf

مـن أجـل أن يفهـم مرادهـم تحديـدًا، وتمـادى في اللجاجـة وألـحَّ في السـؤال: مـا هـي رغبـة البيـت الأبيـض؟ هـل يريدهـم الرئيـس أن يلقـوا القبـض عـلى الهـدف، أم أن يقتلـوه؟ لا بـد أن يعلـم هـذه المـرة إن كانـت الأوامـر متوافقـة مـع قواعـد الاشـتباك المكتوبـة، أو اتفاقيـة جنيـف، أو قانـون البلـد المضيـف للعمليـة. لـم يكـن يهتـم بهـذه الأشـياء مـن قبـل، بـل كان يعدهـا مـن قبيـل التفاصيـل الزائـدة التافهـة؛ لأنـه كان قويًـا. أقـوى مـن أن تمسّـه عمليـة أو أن يزعجـه إنسـان، ولـو كانـوا قادتـه أنفسـهم. ومهمـا «يصيـب الخـراء المروحـة وينتضـح في كل اتجـاه» كمـا يقولـون، لا يصيبـه مـن الخـراء شيء. الحقيقـة أنـه حرفيًـا كان «لا يعطـي تلـك المواضيـع أدنى اهتمـام»، لكنـه منـذ فقـد حاسـوبه وتأكـد يقينًـا مـن ضيـاع مـا عليـه مـن مـواد مرئيـة وفيلميـة، سـقط تحـت تأثـير شـعور قاهـر بالضيـاع والاضطـراب، وأيقـن أنـه عـلى وشـك أن يواجـه تبعـات «أرجاسـه وفظائـع أعمالـه». هـذا هـو التعبـير الـذي تـردد في دماغـه في تلـك اللحظـة: الأرجـاس وفظائـع الأعمـال.

جلـس جايكـوب محصـورًا بـين كرسـيه والطاولـة، وحافـظ قـدر المسـتطاع عـلى سـمت مهـني أثنـاء إلقائـه السـؤال تلـو السـؤال، لكـن نفسـه الـتي بـين جنبيـه كانـت تركـض في مضامـير تصوُّريـة، تضطـرم حولهـا شـواظ مـن نـار ونحـاس. شـعر في جلسـته هـذه بأنـه يجـري في سـباق متصـل مـع الزمـن للحـاق بـشيء مـا، أو منـع شيء مـا مـن اللحـاق بـه. انقبـض صـدره، وتصاعـدت آلام مـن معدتـه إلى رأسـه، ثـم لمـا جـاء ذكـر الأطفـال عـلى نحـو أكـثر تفصيـلًا، خرجـت مشـاعره مـن نطـاق السـيطرة المعهـود.

ازدرد ريقه، وقال موجهًا حديثه إلى الأدميرال ديتوماس:

- سيدي، هل يمكنني أن أتحدث بحرية؟

أومأ ديتوماس دلالة القبول، فقال له جايكوب بوجه متأزم:

- أنتـم تطلبـون منـا أن نقتحـم منشـأة تشـبه المدرسـة، بقواعـد اشـتباك متراخيـة. نحـن نُحاكَـم في هـذه الأيـام، ونُفصَـل مـن الخدمـة، بـل ونُسـجَن، فقـط لـو قيّدنـا المشـتبه فيهـم بخشـونة. كل يـوم يمـر يـزداد موقفنـا القانـوني تعقيـدًا، وتنكمـش فرصنـا في أداء واجبنـا. الإرهابيـون يدّعـون أي شيء الآن، ويمكنهـم رفـع قضيـة أو تسريـب فيديـو لـ«قسـوة مفرطـة في التعامـل». وهكـذا نجـد أنفسـنا في حاجـة لأن نرافـق جنـودًا غـير مُدربـين كمراقبـين، كي نتمكـن مـن دحـض أي اتهامـات باطلـة توجّـه إلينـا. صانعـو السياسـة يريـدون منـا في هـذه الأيـام

fb/mashro3pdf

أن نتجاهل كل ما تعلمناه بالدم في ساحات المعارك، ويتبجحون بحلولهم السياسية، مقابل نسيان حقوقنا الأصلية في الدفاع عن النفس. صارت الأيام التي كنا نستطيع فيها التسلل إلى مواقع العدو واصطياد المقاتلين على حين غرة من الأيام الغابرة السعيدة.

عقد ديتوماس ذراعيه أمام صدره، وحدق إلى الشاب بعينين ضيقتين، فيهما حدة. ظن جايكوب في بادئ الأمر أن القائد العسكري الكبير إنما يتوعده بالنظر والصمت، غير أن ديتوماس هز رأسه بجد وهو يقطب جبينه، داعيًا الشاب لأن يتم شكايته، إن كان لديه ما يضيفه.

أكمل جايكوب حديثه قائلًا، وهو ينظر إلى الأدميرال دون غيره من الحضور:

- في هذه الأيام، يتعين علينا أن نحاصر مخابئ الإرهابيين، وأن نرسل إليهم مترجمين بميكروفونات قبل اقتحام أوكارهم، لكي يهتفون بهم أن اخرجوا رافعين أيديكم. وعندما يخرج المسلحون نقوم نحن بتفتيش المكان. إن وجدنا سلاحًا، نلقي القبض على الجميع، ليتم الإفراج عنهم بعد عدة أسابيع؛ لأن تهم حيازة السلاح باتت مخففة العقوبة على كل حال. لذا ليس غريبًا أن تجدنا نلقي القبض على المتهمين أنفسهم مرات متعددة خلال انتشار واحد.

وبسط الشاب كفيه، وقال متسائلًا بما يشبه الانزعاج، وقد بدأ يلحظ إيلينا لحظًا سريعًا متذبذبًا، على نحو لا إرداي:

- لا أريد أن يُحمل كلامي على محمل أكبر من معناه، لكني أتساءل.. هل تغير الوضع على الأرض في مصر؟ كنا منذ عدة سنوات، إن عثرنا على سلاح في منزل، نهدم المنزل بأسره بالمتفجرات. كانت تهمة حيازة السلاح تقابل بعقوبة الإعدام. كانت المحاكمات سريعة ونافذة. ما الذي حدث؟ هل صرنا نأمن على أنفسنا في مصر؟ هل كفّ السكان المحليون عن اصطيادنا وقتلنا، فتراخينا نحن في المقابل؟!

حدّقت إيلينا إلى الضابط الشاب بقلق لم يكد يُلاحظ، وعجبت لفقدانه الاتزان في التعبير عن همومه إلى هذا الحد أمام قواده الكبار، بل وأمام هذا الأجنبي الجالس إلى جوارها، وعجبت في الوقت ذاته لسعة صدر ديتوماس وصبره على الفتى. ضجرت وضاقت نفسها، وأرادت أن تنهر الشاب، لكنها، بالنظر إلى حساسية الموضوع، التزمت الصمت، واكتفت بالمراقبة. تساءلت في نفسها بتشكك إن كان قد أكثر من معاقرة الكحوليات، ثم

fb/mashro3pdf

استبعدت هذه الفرضية؛ لأنه بدا لها مفيقًا متوقد الذهن، وبدت أطروحته ذاتها على قدر من المنطقية والعدالة، وجديرة بالاعتبار، إنما ليس هنا، في هذا المقام، بين هؤلاء الحضور. قدرت بالظن الصائب، استنادًا إلى تجربتها الطويلة مع هذا الشاب، أنه واقع في مشكلة جسيمة؛ ذلك أنه يتصرف بهذا الاضطراب الاندفاعي، فقط عندما يتعرض إلى ضغوط تفوق قدرته على الاحتمال. أدى هذا بها إلى أن تطرح على نفسها سؤالًا مهمًا. ما طبيعة هذه البلية الشديدة، التي أخرجت الشاب عن طوره، وأفضت به إلى هذا السلوك الاندفاعي الأهوج، وهو الجندي الذي حنّكته تجارب القتال؟

استغرقت في أفكارها كلية، بخاصة لما بدأ الشاب ينظر إليها بمؤخرة العين باضطراب شديد، فكأنه يقصدها هي بالخطاب، حتى أنها بالكاد سمعت حسام وهو يقحم نفسه في الحديث، ويقول لجايكوب بهدوء:

- لا تقلق يا بني. الهدف من المهمة واضح.. القضاء على أبي زكريا بالاغتيال المباشر، ومصادرة كل ما قد تعثرون عليه من وثائق في مسرح العمليات. أنا هنا من أجل تقديم الغطاء السياسي لهذه العملية، بصفتي مبعوث الحكومة المصرية. هذه العملية تتم بطلب من الحكومة المصرية، وتتحمل مسؤوليتها وتبعاتها الحكومة المصرية.

تجاهل جايكوب مداخلة الرجل الأجنبي كأنها لم تكن، وقال باستثارة موجهًا حديثه إلى ديتوماس، وما زال يلحظ إيلينا بين حين وآخر:

- صرنا نشعر بأننا نقاتل عدوين، أحدهما يمسك بسلاح ناري في الخارج، والآخر يمسك بسلاح قانوني في الداخل، وهو الأخطر. من في الداخل يسجنوننا، ويحرموننا من رتبنا، ويسحبون منا مكاسبنا الوظيفية الضرورية، بعد أن ننفذ أوامرهم. يتغابون عن كلمتنا، ويرجحون كلمة عدونا. نحن لا نُسأل، إنما يُسأل المعتقلون.. هل تعرضتم للتعذيب؟ هل أسيء إليكم لفظيًا؟ لو أجاب المعتقل بالإيجاب، وهو ما يحدث غالبًا، إلا لو كان أبلهَ أو معتوهًا. يلتفت إلينا المحققون، ويسن لنا السياسيون أسنانهم. وهكذا يتعين علينا أن نثبت أننا لم نصفع هذا، ولم نشتم ذاك. العدو فهم اللعبة جيدًا، واستفاد منها، واستغلها للتلاعب بنا وهزيمتنا.

وجعل يدق بسبابته سطح الطاولة، وهو يقول وقد بدأت بعض حبات العرق تتكون على جبهته:

fb/mashro3pdf

- وهكـذا، بـدل الإرهابيـون تكتيكاتهـم. في أيامنـا هـذه، يخفـون سـلاحهم، ويستسـلمون؛ لأنهـم يعلمـون أننـا لا نسـتطيع إطـلاق النـار عـلى العُـزّل. فهـم هـؤلاء البدائيـون قواعـد الاشـتباك أكـثر ممـا فهمناهـا نحـن، واسـتغلوها لصالحهـم. أحسـنوا العمـل داخـل أنظمتنـا؛ فتمكنـوا مـن الرجـوع إلى مزابلهـم ونسـائهم وأولادهـم بعـد أسـابيع قليلـة مـن الاعتقـال، ليسـتمروا في نصـب الكمائـن وتفجـير المنشـآت وقتـل الجنـود الأمريكيـين.

هكـذا قـال، ثـم سـكت لحظـة. جاهـد نفسـه لئـلا ينظـر إلى إيلينـا، ومشّـط لحيتـه بتوتـر واضـح، ونـدم أشـد النـدم عـلى تكاسـله عـن حلاقتهـا قبـل المجـيء. ثـم أردف قائـلًا بضيـق شـديد:

- الوضـع بـات جـد متبّـط. نحـن نضحـي بحياتنـا، والسياسـيون يفرضـون علينـا مزيـدًا مـن التعقيـدات الإجرائيـة. صرنـا في مهامنـا نبحـث عـن وسـيلة كي لا نمـوت أو نـؤسر في الخـارج، ولا ندخـل السـجون في الداخـل.

لـم يقـل أحـد شـيئًا، وخيـم صمـت قصـير غـير مريـح، لكـن سرعـان مـا بـدت عـلى جايكـوب الرغبـة في قـول المزيـد؛ لأنـه مـال قليـلًا إلى الأمـام، وفـرج شـفتيه قليـلًا قليـلًا، فقـال الكابـتن أودونيـل بنـبرة آمـرة لا مـراء فيهـا:

- أظن أن ما قلته يكفي؛ فكرتك وصلت إلى الجميع فيما أظن.

كان جايكـوب قـد بـدأ بالفعـل في السـيطرة عـلى أعصابـه. لـم يسـتطع أن يمنـع نفسـه مـن أن يلحـظ إيلينـا مـرة أخـرى، وكانـت كمـا توقـع، تتفـرس في ملامحـه دون أن ينـم وجههـا عـن عاطفـة بعينهـا. لـم تكـن حانقـة عليـه فيمـا يظـن، بـل ثبتـت نظرهـا في وجهـه باسـتطلاع، وكأنهـا تحـاول أن تغـوص فيمـا في حديثـه مـن معـانٍ.

لـم يبـالِ جايكـوب بقـول رئيسـه المبـاشر، الكابـتن أودونيـل. كان قـد شـعر للتـو بالارتيـاح، ثـم مـا لبـث أن كـدّر عليـه التفكـير في عواقـب مـا قالـه صفـو ارتياحـه. إضافـة إلى التوبيـخ الـذي سـيتلقاه مـن قادتـه -حتمًـا ولا بـد- بعـد الاجتمـاع، والعقوبـة التأديبيـة الـتي قـد تـنزل بـه بسـبب سـوء تصرفـه، كان يعلـم أنـه سيشـعر فـوق مـا تقـدم بالنـدم، وسـيأخذ مـن ثـم في تأنيـب نفسـه وتعييرهـا وتعنيفهـا. وهكـذا سـيجد نفسـه داخـلًا مـرة أخـرى إلى الدائـرة المفرغـة المعتـادة، الـتي يدخـل إليهـا دومًـا عندمـا يقـع في بليـة أو يقـع بـه شر. تبـدأ الدائـرة باضطرابـات الآلام الانفعاليـة، وتنتهـي بـه إلى تبـنّي سـلوكيات اندفاعيـة، يحـاول بهـا أن يتخلـص مـن الألـم،

fb/mashro3pdf

فيعقبها عوضًا عن ذلك الذل والقهر والندم. تتولد في نفسه من بعد رغبة مُلحّة قاهرة، في أن يتخلص من آلامه الانفعالية الجديدة، وذلك بأن يسيء التصرف مجددًا، وهكذا دواليك.

مسح جايكوب على لحيته، وقال بلهجة هادئة بطيئة، متوجهًا بالخطاب إلى الأدميرال ديتوماس:

- الغرض من هذا كله، أن نحدد في هذه المرة قواعد الاشتباك ونلتزم بها، وأن يتحمل صانعو القرار مسؤوليتهم، كي نتم المهمة على النحو الأمثل، خصوصًا مع هدف عالي القيمة، مثل هذا الهدف الذي اجتمعنا لأجله اليوم.

شزر أودونيل إلى جايكوب، وكان غاضبًا معرضًا، آسفًا على تأخره عن التدخل في الوقت الملائم. لم يكن يريد في البدء أن يسكت جايكوب، ليس من دافع تخاذل أو تخابث، أو هكذا حدثته نفسه؛ بل لأن الشاب ركز الانتباه بالفعل على مشكلة واقعية عويصة، لم يجرؤ هو نفسه على طرحها أو مناقشتها مع قادته؛ لأسباب تتعلق على نحو أو آخر برغبته في تجنب أي منغصات غير ضرورية قدر المستطاع. إنها أيام غريبة بلا شك، تلك التي أمسى فيها الرجال يمسكون سلاحهم بيد، وبالأخرى يملؤون أكوامًا من القمامة الرسمية، التي لا تجديهم نفعًا إن عزم أحد أعضاء الكونجرس على أن يبلغ مقام الشهرة صعودًا على أكتافهم ورؤوسهم. هي مشكلة نافذة مزمنة، تحتاج بلا شك إلى حل ومعالجة، لكن ليس في هذا المكان، وسط هذا الحضور، بهذا الطيش الذي لم يخلُ من فظاظة.

أراد أودونيل أيضًا بسكوته أن يفسح للضابط الشاب المجال لتوريط نفسه في زلة محرجة، تضاف إلى مجموع زلاته. ولأن الشيء بالشيء يُذكّر، اعترف أودونيل لنفسه من دون مواراة، بأنه يبغض جايكوب أشد البُغض. إن الكره الذي يضمره لهذا الإنسان يرجع في جزء منه إلى كُرْهٍ فطري طبقي، يضمره أودونيل، ابن العامل البنسلفيني الكادح، لكل ما يمثله جايكوب من قِيَم الثراء المصاحب للفساد والسفه والانحلال. أما الحديث عن احتقار أودونيل لحصانة جايكوب العائلية، التي تحميه من كل أنواع الحماقات والتجاوزات المهنية والأخلاقية، فذي شجون.

رفع أودونيل رأسه إلى الأدميرال ديتوماس، وقال له بوجه بانت عليه دلائل عدم

fb/mashro3pdf

الرضا:

- وجود أطفال في المنزل يُعقِّد الأمور يا أدميرال، ويجعل العملية أشبه بغارة على مدرسة ابتدائية، ويُعرِّض حياة الأطفال وحياة فريق الاقتحام للخطر. يتعين عليهم إذن أن يتوخوا الحذر، من حيث توجيه نيرانهم وتبين الخصوم وما إلى ذلك. أنت تعلم أن عدونا لا يتورع عن استخدام الأطفال والنساء في عمليات انتحارية وكدروع بشرية. موت الأطفال والنساء، مهما كان مُبررًا، يصنع صورًا إعلامية سيئة. اللوم وقتئذ يقع علينا نحن في النهاية، ولو لم يأتِ الخطأ من قبلنا.

أومأ ديتوماس دلالة التفهُّم، وقال وهو يشير إلى جايكوب:

- الكلام الذي أثاره جايك، وثيق الصلة بترتيبات العملية. لهذا السبب أردت أن أسمع منه.

كانت إيلينا قد أسندت ظهرها إلى ظهر كرسيها، وركزت انتباهها على جايكوب، لكن ما أن سمعت مقالة ديتوماس، حتى مالت بجذعها إلى الأمام، وقالت على الفور بتوكيد:

- نعم.. لهذا السبب أيضًا استعنا بخدمات الجنرال داوود. كان الجنرال قد تقدم مشكورًا بخطة تمويه، تعالج هذه المشكلة التي أثارها جايك، مبكرًا من قبل البدء في التخطيط.

التقط حسام خيط الحديث، وقال فورًا:

- معلوماتنا تشير إلى أن منزل أبي زكريا قائم على قبو تتكوم فيه كميات ضخمة من الأسلحة والمتفجرات، الأمر الذي قد يسبل على العملية غطاءً محبوكًا، ويخفي أي أثر لوجودكم، لو أحسنّا استغلاله. لائمة الخسائر البشرية الجانبية ستنحى على جبهة المقاومة، والتنظيمات الإسلامية والنشاط المسلح عمومًا.

وأردف مفصلًا مزيدًا من التفصيل، وهو يطوف بصره بسائر الحضور:

- ما أعنيه أن حوادث مخازن المتفجرات ليست أمرًا نادر الحدوث، بخاصة في ظروف تخزين غير احترافية وسيئة، كالتي عليها الحال حتمًا في منزل أبي زكريا. إنه خطأه في المقام الأول، أن راكم هذا الكم من المتفجرات في منطقة آهلة بالسكان. الباقي من بعد ذلك لا يعدو كونه حملة علاقات عامة، يقع عبء إنجازها علينا نحن الساسة.

وأخيرًا، وضع يدًا على يد، وقال يختم خطابه:

fb/mashro3pdf

- خلاصة القول.. المخاطرة في هذه المهمة منخفضة، والخسائر الجانبية مقبولة. استخدموا ما بدا لكم من قوة. افعلوا ما بدا لكم من أفعال. فقط أحضروا لنا رأس أبي زكريا، ولا يخيفنّكم شيء آخر.

مرت لحظتان من الصمت، لم يرفع فيهما أحد عينيه عن حسام. رمقته إيلينا بشيء من الدهشة؛ لأنها لم تكن قد وضعت في حسبانها أرجحية إفضائه بمراده وتصريحه بهذا الجانب من خطته، على هذا النحو البدائي الأجدب، الذي كاد أن يكون وقاحة، وكان بكل تأكيد تجاوزًا لا يليق أن يأتي من قِبَل رجل مسؤول. رجل مسؤول؟! وهل عدته قبلًا رجلًا مسؤولًا؟ إن كانت قد فعلت، فقد ارتكبت بلا شك ذنبًا فاحشًا. إن هذا الرجل الجلف، لا تلائمه المناصب التنفيذية المحترمة، ولا تناسبه الاجتماعات التوجيهية المدروسة، ولا يصلح هو نفسه إلا لأن يكون زعيم عصابة إجرامية، تستوعب طاقاته الهدّامة ومواهبه الخشنة. في ذهن إيلينا، لم يكن حسام في تلك اللحظات العصيبة إلا رجلًا ضاريًا كريهًا، اندفاعيًا مهووسًا مثيرًا للاحتقار. وهو فوق ذلك عديم الشرف، شمولي الفكر، مُتيَّمًا بنفسه، مُسخَّرًا لهدف البقاء. لم يكن في نظرها إلا مخلوقًا متأخرًا، مكبلًا في درجة أولية على سلم الارتقاء، مسجونًا في الطور الأول من أطوار النشوء.

سألت إيلينا نفسها بجدية وبقلق، إن كانت قد أخطأت في التقدير، بقبول التعاون مع هذا الإنسان، في هذا التوقيت الحرج من مخاض الإدارة الجديدة. من دون شك، فات أوان هذا السؤال، ولم يعد الاستدراك ممكنًا. حسام داوود يجلس ها هنا بينهم، في سابقة استثنائية، ولن يخرج من اللعبة إلا وقد حظي بالنوال.

كان الحديث قد انتقل بالمتحاورين إلى حساب درجة عدائية مسرح الأحداث. رغم وقوع القُطر المصري تحت الاحتلال، خرجت العديد من بقاعه من تحت السيطرة الأمريكية جُملةً، الأمر الذي جعل أي انتشار للجيش الأمريكي على الأرض عملًا محفوفًا بمخاطر جمة. وقد جاءت إفادة ديتوماس النهائية في هذا الشأن لتؤكد أن مسرح العمليات يقع في بيئة عدائية عالية الخطورة، وقال من ثم إن الإبرار سيجري بواسطة المركبة الجوية «جوست كوبرا»، التي تُعد دُرّة المركبات العمودية الأمريكية، من جهة السرعة والتصفيح والتسليح وهدوء التحليق.

وأردف ديتوماس قائلًا، وهو يتوجه إلى أودونيل بالخطاب:

fb/mashro3pdf

- الوقت المتاح للتخطيط والتدريب ضيق. أريد منك ومن جايكوب اليوم ملفًا تجريبيًا للمهمة، فيه خطة اقتحام مبدئية. الهدف من هذه المهمة شديد السرية، لا ينبغي أن يعلم به الرجال قبل أن أصرح لك بنفسي.

ولم ينتظر إجابة من أودونيل، بل نظر إلى جايكوب مباشرة، وقال بلهجة جافة:

- أخبرني عن «العيون الحمراء».

رفع جايكوب سبابته قائلًا:

- اسمح لي يا سيدي أن أطرح سؤالًا أخيرًا.

أومأ ديتوماس، وقال على الفور:

- لا تجعله الأخير، إن كان لديك أفكار أخرى تريد أن تشركنا فيها.

هز جايكوب رأسه يمنة ويسرة، وقال ملتفتًا إلى الضيف المصري، وموجهًا إليه سبابته:

- لا سيدي.. هو سؤال واحد فقط، أتوجه به إلى هذا السيد.

وحدج حسام بنظرة متحدية، وقال يسأله:

- كنت قد قلت منذ قليل، إنك هنا بوصفك مبعوثًا من قِبَل الحكومة المصرية. وقلت أيضًا إنك ستوفر الغطاء السياسي، وإن المنزل موضوع النقاش يحتوي على كميات ضخمة من المتفجرات. صحيح؟

أومأ حسام دلالة الموافقة، ولم ينبس، فقال الضابط الشاب متسائلًا:

- هل أفهم من ذلك، أنك تلمّح لنا بقدرتك على التستر على قتل المدنيين، وتحضنا على أن نخالف قواعد الاشتباك المعتادة، وأن نستعمل القوة القصوى من أجل إنجاز المهمة، بقطع النظر عن أي خسائر بشرية جانبية؟

أومأ حسام دلالة الموافقة، فواصل الشاب قائلًا، وهو ينظر إليه بإمعان:

- وهكذا تقول أنت، بإمكانية تفجير المنزل بمن فيه عمدًا، فور أن نتأكد يقينًا من القضاء على الهدف؟ بل وتحثنا على هذا الفعل بقوة، على أن تتكفل أنت بالتغطية على هذا الخرق الواضح لقواعد الاشتباك المتعارف عليها في هذه الأحوال؟ أخبرني من فضلك لو جانبي الصواب فيما أقول.

أسند حسام مرفقيه إلى الطاولة، ورفع كتفيه ومال برأسه إلى الأمام. تبسم في وجه جايكوب، وقال وعيناه تلتمعان:

fb/mashro3pdf

- كل ما قلته يا بني صحيح بإطلاق. بل لكي أكون صادقًا معك، أقول إنني لم أكن أستطيع أن أوضّح القصد من وراء كلامي بأفضل مما فعلت أنت الآن. هل أبدو لك واضحًا، أم أحتاج لأن أوضح لك نفسي أكثر؟!

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الأول من أغسطس

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تـردد صـوت لهاثـه في صـدره بغلظـة وشـهوة، بنغمـات صوتيـة قصـيرة وحـادة. قـد يظـن ظـان أن نحافتـه الظاهـرة تلـك، الـتي تصـل إلى حـد الهـزال، تـدل عـلى الضعـف أو سـوء التغذيـة، لكنهـا أخفـت في واقـع الأمـر دونهـا منظومـة متصافـة مـن العضـلات السـميكة، المصممـة للاحتمـال والبقـاء، في عالـم تحكمـه شريعـة الغـاب. كل عضلـة في جسـمه المنيـع رُكبـت تركيبًـا محكمًـا، وأُعـدت إعـدادًا دقيقًـا للركـض الفجـائي السريـع.

انتصبـت أذنـاه بتأهـب ويقظـة في اتجاهـين متضاديـن، وارتفعـت درجـة حـرارة جسـده مـع الحركـة السريعـة، وتطايـر الزبـد مـن فمـه المنفـرج. تـدلى مـن شـدقه لسـان سـميك وردي اللـون، تطـوح ذات اليمـين وذات الشـمال بـين أنيـاب مدببـة، معـدة للإمسـاك بالطرائـد وإخضاعهـا، وطواحـن قاطعـة، معـدة لتمزيـق اللحـم وفسـخ أنسـجته، وأضراس طاحنـة، معـدة لـدق العظـام وسـحق قشـورها. تحركـت قوائمـه في دورة ركـض متتابعـة خاطفـة، دفعـت جسـمه الانسـيابي إلى الأمـام بسرعـة قاربـت خمسـين كيلومـترًا في السـاعة، في وضعيـة هجـوم كانـت في حـد ذاتهـا آيـة في التناسـق وجمـال الحركـة. انخفضـت الـرأس لمسـتوى العمـود الفقـري، وانفرجـت القوائـم وتضامـت، وانقبضـت العضـلات وانبسـطت، وتأرجـح الذيـل لتحقيـق التـوازن المطلـوب.

مـن واقـع خبرتـه ومعاشـه في هـذه المنطقـة المزدحمـة بالبـشر، لـم يتبـع هذا الوحـش نمطـه السـلوكي الطبيعـي في المطـاردة، بـل ركـض وركـض معـه سـبعة مـن أتباعـه خلـف فريسـتهم مـن دون أن ينبحـوا؛ لأنهـم يعلمـون بالتجربـة أن أي ضجـة يحدثونهـا، كفيلـة بإخـراج السـكان جماعـات لمواجهتهـم بالمشـاعل والعـصي والسـكاكين، وأحيانًـا بالسـلاح النـاري. صـار قتلهـم وحرقهـم مشـهدًا عاديًـا يجـري في وضـح النهـار. ولـم يكتـف البـشر بهـذا، بـل سـمموا أيضًـا مصـادر الغـذاء في مقالـب القمامـة، حـتى فـنى معظمهـم فنـاءً بطيئًـا مؤلمًـا، فلـم يعـد ثـم مهـرب مـن المـوت جوعًـا إلا مهاجمـة المـارة ممـن تدفعهـم الصدفـة إلى الـنزول فـرادى في ظلمـة الليـل. ومـن هـؤلاء كان بـلال.

بـين الجـدران المتقاربـة المتداعيـة، المبنيـة مـن الخشـب والصفيـح والطـوب الأحمـر، وعـلى الأرضيـة الطينيـة اللزجـة، ركـض بـلال ذو الأعـوام العـشرة، وخلفـه ركضـت سـبعة كلاب

fb/mashro3pdf

مسعورة، تقدمهم الذكر المسيطر. ارتدى الصبي حذاءً مطاطيًا قديمًا، اهترأ في أكثر من موضع، ومع الجري في الطين المختلط بالقمامة والزلط تفسخت خياطة الحذاء، واخترق نعله الرقيق في أكثر من موضع.

أراد بلال الركض بخطى أسرع، لكنه لم يستطع. كان قد أصيب بالمرض الخبيث الذي تفشى مؤخرًا بين أطفال الحي، والذي يسبب تورمًا شديدًا في الخدين، وسخونة في الجسم، والتهابًا في الخصيتين يولّد مع كل حركة ألمًا لا يُحتمل. ولم يكن ذاك هو العطب الوحيد الذي أصاب خصيتيه. عندما وطأ بلال عن غير عمد ذيل أحد الكلاب أثناء عودته إلى منزله، كان رد فعل الكلب وزملائه عدوانيًا. توضحوا الدخيل، وعلموا أنه طريدة صغيرة لا حول لها ولا قوة، فتغيرت طبيعة هجومهم من دفاع مناطقي إلى عملية صيد منظمة، بدأتها الكلاب بمحاولة شل حركة الطريدة عن طريق عض وتمزيق وركها وخصيتيها وعِجانها. لم يستطع بلال الصغير أن يجري على نحو فعّال، بل كان يثب في جريه وثبات بائسة على قدم ثم على أخرى، وأفرغ أقصى طاقته لمغالبة الجروح العميقة بين فخذيه. فقد كمية كبيرة من الدماء، لكنه لم يستسلم، ولم ينظر خلفه أو يصرخ، بل قبض بأصابعه الصغيرة على اللفافة التي جلبها من العم شوقي في يد، وفي اليد الأخرى قبض على مصباح كهربائي صغير، اهتدى إلى الطريق على نوره الشاحب. ولّد الرعب في نفسه قوة دافعة مُركّزة، بها حاول التقدم بسرعة معقولة للإفلات من مطارديه.

قد يسأل سائل، لم ترك بلال منزله في هذه الساعة؟ والإجابة هي: «الشديد القوي»، كما قالها لنفسه قبل أن يغادر المنزل. لقد استدعته جدته الليلة إلى غرفتها بهتاف متقطع متأوّه. قالت له بغرغرة في حلقها: «مش قادرة يا بلال» تابعت بصوت لاهث: «وغلاوة سيدنا النبي، تنزل لعمك شوقي الغول، وتقوله ستي تعبانة أوي، ومحتاجة المسكن ضروري»، وأردفت تقول بعينين ضارعتين: «هو عارف يعمل إيه. أبوس إيدك يا بُلْبُل، ما تتأخرش عليّ، عشان مش قادرة. الوجع هيفرتكني وهموت». وضعت في كفه الصغيرة بعضًا من عملاتها النقدية القليلة، ثم قبضت أصابعها على كفه بقوة، كأنها تأتمنه على شيء لا قِبَل له به.

بطبيعة الحال، لا يحب بلال الذهاب إلى عم شوقي الغول؛ لأنه يقطن منطقة خطرة،

fb/mashro3pdf

تمتلئ بالأشرار والمجرمين. هذا بالإضافة إلى أنه غادر البيت في ظلمة دامسة مخيفة، لم يُجدِ معها مصباحه الكهربي الصغير نفعًا. لكن قلب بلال الطيب تفطّر حزنًا على حال جدته، فلم يتحمل أن يعصي أمرها، أو التماسها بتعبير أدق، وهي على تلك الحال. إنه منهك، بل محموم، وغاية الخطورة أن يتحرك أو يغادر الفراش بحالته الصحية هذه، لكن الحيل أعيته. «أبوس إيدك تشهّل؛ هموت يا بلال ومش قادرة أستحمل»، هكذا ودّعته جدته بنظرة غريق هالك، فقد كل أمل في النجاة. بلال يحب جدته؛ هي من ربّته، وأنفقت عليه. لم تضربه قط أو تسئ إليه، على عكس أمه، ولم تستول يومًا على الدريهمات القليلة التي يُحصّلها من العمل مع الشيخ وليد في شفط المجاري وجمع القمامة والخردة.

كان الصبي مرعوبًا، بل إن وعيه ونفسه وقواه الباطنية تخبطوا في نوبة من الهلع المركب، لكن لم يدُر في خلده قط فكرة الموت، بل لم يدرك فداحة إصابته ودقة مأزقه على وجه الكفاية. إنها مجرد كلاب، يراها كل يوم متسكعة في الطرقات ومتكومة في الظلال، ولا تلزمها إلا زعقة أو رمية بحجر كي تتفرق. سيعود إلى جدته سالمًا، وسيعطيها الدواء، وسيحكي لها عن شجاعته في الإفلات من خمسة أو ستة كلاب مسعورة. سيستلذ بارتياعها، وسيقبل اعتذارها وندمها على وضعه في هذا الموقف الرهيب، وسيغفر لها. لكن جدته ليست الأهم، بل أصحابه. إن جراح هذه الليلة تعد ولا ريب من محاسن الصدف. إنه يشعر بسيلان الدم على فخذيه وتلطيخه لسرواله الوحيد. رب ضارة نافعة. إن الجروح الخطيرة والندبات القبيحة مما يُفاخر به بين الصبيان. سيريهم جرحه، ويعلمهم كيف تكون مقاومة الكلاب المسعورة، وكيف تبدو الإصابات الحقيقية.

على بعد عدة مئات من الأمتار، انتصب المنزل الذي يقطنه بلال. كلمة «انتصب» ليست صحيحة بإطلاق؛ لأن البناية مالت ميلًا مؤسفًا، وبدت وكأنها على وشك الانهدام. وفي شقة ضيقة في الطابق الثالث سكنت أسرة بلال. في غرفة المعيشة، التي هي بهو المدخل أيضًا، والمطبخ والحمام، كل في آن واحد، رقدت جدته العجوز على حصيرة غامقة خشنة، والتحفت ببطانية صوفية متعفنة رغم اشتداد الحر. هي سيدة نحيلة، جاوزت السبعين بعدة سنوات. بعينين جاحظتين نظرت إلى السقف. لم تكن قد حركت إصبعًا ولا وصلًا من أوصالها منذ عدة ساعات، بل صلبت في مكانها كجثة محنطة. ثباتها

fb/mashro3pdf

ظاهري مزيف؛ لأن باطنها يفور فوران الصهارة في قعر بركان. انبعثت في جسدها آلام مزمنة مشقية، فركتها بين أسنانها فركًا. رقدت صامتة في الظلمة، بيد أن وعيها تلوّى في جحيم مصغر أحاط بها من كل جانب. ربما أرادت الحركة، للتبول أو لشرب الماء، لكنها لم تستطع. تبلل جسدها الذابل بالعرق كإسفنجة مغمورة في سائل غليظ، وسالت من مآقيها دموع القهر وانعدام الأمل، وارتفعت درجة حرارة جسدها لحد لا يطاق. سألت ربها الرحمة، بأن يُعجّل بعودة الصبي، أو بأن يعجل بالموت.

وفي الغرفة المجاورة سمعت أم بلال طرقًا خفيفًا على شباك غرفتها. نبض قلبها نبض القلق المشتاق، ووثبت إلى النافذة تسبقها روح توّاقة. هي امرأة غليظة البدن في أواخر الثلاثينيات من عمرها، تحمل عيناها الواسعتان لمعة حدة الفهم وسرعة التصرف، وتطفو على وجهها الأسمر أمارات جمال قديم، جففته النوائب وسممه الفقر والذل. مات عنها زوجها منذ سنوات، وتركها في العراء بابن صغير عليل لا نفع منه، وحماة قعيدة لعينة، لا يبرأ جسمها من الأسقام أو الآلام قط، ولا تريحها إلا أبخرة المخدرات، التي تجتهد في شرائها من مواطن الشبهات وأصحاب السوابق والأشرار. يعلم الرب وحده من أين تأتي بالنقود لزوم «دوائها»، وهي كسيحة مقطوعة الساعدين والساقين.

بيدين مرتعشتين حلت أم بلال شنكل الشيش، وفتحت ضلفتيه، فمرق من النافذة ظل ضخم، قفز من إفريزها واستقر أرضًا كغوريلا كبيرة. ثبت مكانه لاهثًا بينما تغلق أم بلال الشيش وتحكم إغلاق شنكله. التفتت إلى الرجل الواقف أمامها، لكنه أزاحها عن طريقه بغلظة، واتجه إلى الشيش، حيث لبث دقائق يسترق النظر من خلال عوارضه الخشبية، للتحقق من أن أحدًا لم يرصد دخوله.

هذا هو صابر، شاب قبيح الخلقة في الرابعة والعشرين من عمره، وابن ضال خرج عن طاعة أهله قبل بلوغه الحلم، فصار شاطرًا من الشطار، وداهية ذو حنكة وهو بعد في سن المراهقة. يعلم القاصي والداني أن خُلُقَه الدعارة والشراسة، والفسوق والتمرد، وأن البعد عن مسالكه وتجنب النظر إلى وجهه غنيمة. يدير وحده مصنعًا للخمور في قبو أحد المنازل القريبة، ويستأجر عددًا من المراهقين والأطفال كعمال لتوصيل الطلبات. حياة صابر خطيرة لأبعد حدود الخطورة، لكن الطلب على بضاعته كبير، والرزق المتحصّل منها كثير، وكل ما يحتاجه لإنتاج براندي «عسل» أو ويسكي «مفتخر»، هو عدة برطمانات

fb/mashro3pdf

من الألوان الاصطناعية، والكثير من الكحول الأبيض والأحمر، وماكينة كبس، وفلتر مياه. يتبدل عماله على الدوام؛ لأن الخوارج الملاعين يترصدونهم في كل منعطف ويوقعون بهم العذاب لو أدركوهم، بخاصة من بلغ منهم الحلم. عاملان عنده كانا قد تجاوزا للتو الخامسة عشر من العمر، جُلِدَ كل منهما حتى تقطّع لحم ظهره، وثالث طُبِّق عليه حد الحرابة على مرأى ومسمع من الناس، وذلك بعد أن فشل في إفادة سجّانيه عما سألوا، بخصوص محل إنتاج الخمور ومصادرها.

لا يُعِد صابر نفسه ديّنًا ورعًا بطبيعة الحال، لكن مسألة إقامة الحد على بائعي الخمر أشكلت عليه، وأثارت انتباهه، بالنظر إلى أنها تشكل خطرًا مباشرًا على حياته، فسأل عنها إمام المسجد القريب على استحياء، وذلك بعد أن خرج من مخبئه يومًا، وشهد صلاة الظهر في جماعة خلافًا لعادته. إمام المسجد كان شابًا عشرينيًا مهذبًا. قال لصابر إن تحريم الخمر ليس مقصورًا على شربها، بل على من باعها أو ابتاعها أو سعى في تهيئتها. وقال كذلك إن الشرع لم يصرّح بحد بعينه لبائعها، لكن للسلطان أو نائبه إذا اطّلع عليه أن يؤدبه ويعزره حسبما يرى، وأن يريق الخمر أيضًا. من هنا أدرك صابر أن حياته مهددة ما دام في هذه المهنة، ولعن في سره إمام المسجد هذا والخوارج أجمعين، ولعن اليوم الذي سيطروا فيه بقوة السلاح على حيّه والأحياء المجاورة لحيه، وأحالوا حياته وحياة الناس جميعًا إلى جحيم مقيم. لكن الحيل كانت قد أعيته، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يشتغل به لكسب الرزق، سوى تلك المهنة.

ما أن اطمأن صابر، حتى التفت إلى المرأة الجسيمة أمامه، وعلى ضوء مصباح الكيروسين تملّى النظر وطول التحديق في مفاتنها المتفشية والمتدلية من الـ«بيبي دول» شبه الشفاف، الذي حشرت فيه شحمها ولحمها بشق النفس. شملتهما عوارض استثارة مشتركة إذ تتمثل له آية في الجمال وحسن الاستواء، ويتمثل لها آية في الفتوة وشدة الفحولة. لم يتكلما كلمة، ولم يبدآ بمقدمات اللقاء السويّة، بل تكونت بينهما قوة ضغط جافة، فاتبعا ترتيبات خشنة وعشوائية في ظاهرها، ومكررة ومجربة في جوهرها، أودت بهما إلى ركن الغرفة، حيث تخلصا من ثيابهما. فجرّ العاشقان كل منهما بالآخر، بغلظة وعنفوان، فاهتزت بهما قوائم الفراش المعدني الضعيف، وصرت الأرضية الخشبية المهترئة تحت وطأة الحركة وشدة الثقل، وآذنت بالانهيار أو كادت.

fb/mashro3pdf

وأسفل البناية، على بعد أمتار قليلة من البوابة الخشبية المتصدعة، ضاضأ الطفل بلال، وأراد أن يصيح فلم يقدر. فقط خرجت من بين شفتيه غرغرة مكبوتة، وتحشرجت روحه في صدره. تكالبت الكلاب على جسده الصغير، ولزم كل واحد منها مكانه. اقتات كبيرهم أولًا، فملأ بطنه، وعزز مركزه الاجتماعي بين قطيعه، واستحوذ بطبيعة الحال على أفضل أقسام الطريدة. حاول أفراد القطيع الآخرون العبث في الجثة من أطرافها، لكن لأن منازلهم دنيئة، لم يجرؤوا على التنافس الصريح مع كبيرهم الشَرِه، الذي لم يكتف بالأجزاء الريعانة، كالقلب والرئتين والكبد، بل انتقل حفرًا بالأسنان إلى ألياف الذراعين والفخذين.

وفي لحظة ما، توقف الكبير عن الاقتيات. رفع رأسه، ونظر إلى السماء القاتمة بتحفز. ضيّق عينيه، ونصب ذيله، ثم لصق بالأرض استعدادًا للهروب. استشعر الآخرون توتره المفاجئ، فتوقفوا بدورهم عن الاقتيات، مع حاجاتهم الماسّة لكل قطعة لحم أو مسحة دهن أو حتى شظية عظم. استدعى ما تلقته حواسهم المتطورة الانتباه. جثموا، وتصاعدت من بعضهم زمجرات عدائية، ثم تراجعوا بخطوات بطيئة، فيما يقوّس كبيرهم ظهره ويظهر أنيابه وقواطعه ناظرًا إلى جهة بعينها في السماء. لم يستطع تمييز هذه الكتلة اللا مرئية المحلقة بضجيج مكبوت لا يكاد يُسمع، لكنه أدرك أن الوضع لم يعد آمنًا، ومن ثم قبض بأسنانه على ما تيسر له خطفه من الجثة، ومزع في ركضه مبتعدًا، وكذلك فعل قطيعه، فتبعوه بخفة في العدو.

وبالأعلى، على ارتفاع أربعين مترًا، حلقت الطائرة العمودية السوداء «جوست كوبرا» في خط مستقيم تجاه نقطة بعينها. لم تُحدِث أي ضوضاء تقريبًا أثناء تحليقها، ولم تنبعث منها أي إشعاعات إلكترومغناطيسية، بل إن الانبعاثات الحرارية لمحركاتها لم تكد تزيد عن تلك المنبعثة من دراجة نارية صغيرة من طراز «فيسبا».

هي كتلة ضخمة جميلة التصميم من تكنولوجيا الطيران المتطورة، تزن أكثر من أربعة أطنان. لونها أسود، وهيكلها ديناميكي مفلطح يشبه في الشكل رأس أفعى الكوبرا، وجُنَيحاتها متحركة وحادة الزوايا. حوّت مقصورتها حمولة بشرية متألفة من ستة وعشرين رجلًا، رأسهم جايكوب.

تفرّس ضابط البحرية الشاب في ملامح رجاله بحميمية، كأنه يتفرس في وجوه أشقائه

fb/mashro3pdf

الأصغر سنًا. كان مهمومًا مكدودًا، وكان قد أرهق نفسه طوال الأيام الفائتة في الاجترار السلبي. شغل ذهنه بالتفكير المستمر في مصيبته الخاصة، وفي التهديدات المستقبلية الناشئة عنها، والسبل الممكنة لمعالجتها. تعاقبت الفكرة تلو الأخرى، وكانت لكل فكرة سكرتها، فاغتم وساءت حاله، وتغيرت نفسه وتوترت من شدة الحزن. لم يجد منذ اليوم الذي سُرق فيه حاسوبه الراحة، ولم ينعم بهدأة، بل أحدقت به الأعراض الضائقة، وأحاطت به أحاسيس مزمنة بالفراغ الذاتي، والوحدة والعزلة. لم يكن قد أفضى ببلواه إلى أحد، لا تلميحًا ولا تصريحًا، وعقد النية على أن يتعهد الأمر بالكتمان ما استطاع لذلك سبيلًا. لهذا وجد نفسه وقد جأشت إلى رجاله، فكأنهم الأهل والملاذ. استحضر في ذهنه أيامهم، واسترجع الأشياء بعد نسيان، فإذا به يرى نفسه بينهم وقد افترشوا طين الغابات ورمال الفيافي، وتحمصوا في حمر الظهائر، وتضوروا جوعًا، ولهثوا من شدة الظمأ، وقضوا الساعات المضجرة بين الحصى والصخور. كان سلاحهم الأقوى خلال تلك المِحَن، آصرة الحرب التي هي أوثق من أواصر الدم.

هؤلاء الرجال المتدرعون بالحديد والنحاس، المتوشحون بأحمال إضافية من الذخائر الخارقة والمتفجرة، هم التجسيد الحي لبأس العسكرية الأمريكية ومنعتها. لم تنقطع جهوزيتهم للقتال والقتل ولو لساعة، اليوم بعد اليوم، والشهر تلو الشهر، والسنة وراء السنة. الحرب هي البوتقة التي تنقي معدنهم، وتزيل شوائبهم، من دون أن تغير جوهرهم أو تنتقص منه. ثلة منهم كانوا من الأذكياء، المفرطين في التحصيل، وآخرون كانوا من الطائشين المقحامين، وجماعة ثالثة منهم تألفت من الضائعين، الطافين على سطح الحياة من غير مرساة ولا دليل. بقطع النظر عن منشأهم، وتباين تجاربهم السالفة، تلاءموا في حاضرهم هذا مع قسوة الحياة العسكرية، وتقبلوا احتمالات الموت المفاجئ كبلية لا مفر منها، واحتموا من غوائل الحياة بغلاف خارجي مقسى، ساعدهم على تخطي الفشل والألم. هؤلاء الشباب، ذوو الحيوات المضطربة، كانوا في جوهرهم، وخلف دروعهم الفولاذية المصلدة، مقاتلين أشداء، انخرطوا في الجندية بأرواحهم قبل أبدانهم، واعتنقوا فكرتها الرئيسية، التي تقول: «كن أقصى ما يمكنك أن تكون».

كانوا قد قضوا الأسبوعين الفائتين في التدريب على قطعة أرض منعزلة، مخبوؤة في منطقة غابات تقع داخل حدود قاعدة «فورت براج» العسكرية الضخمة. هناك، أنشأ

fb/mashro3pdf

المهندسون العسكريون أنموذجًا بالحجم الطبيعي للمنزل المزمع على اقتحامه. حضر التدريبات رئيس هيئة الأركان المشتركة، ووكيل وزارة الدفاع لشؤون الاستخبارات، ضمن مجموعة منتقاة من المراقبين العسكريين والاستخباراتيين، بالإضافة إلى وحدة الدعم العسكري والطاقم الإداري والفريق اللوجستي الخاص بفريق «العيون الحمراء»، وهؤلاء شاهدوا العرض التدريبي من مصر، عبر دارة المؤتمر المرئي. استمر مقاتلو «ديث ستوكرز» الأشداء في التدريب على مرأى ومسمع من الحضور المهمين، وكرروا عملية اقتحام الأنموذج مرات عديدة إلى حد الإتقان التام. أيقن المراقبون من واقع مشاهدتهم للتدريبات المتواصلة، أن مقاتلي «العيون الحمراء»، المنتمين إلى السَرِيَّة الحمراء التابعة لفريق «ديث ستوكرز»، يُعدون بلا شك صفوة مقاتلي القوات الخاصة في القوات المسلحة. كان المقاتلون قد أظهروا أمام النظارة قدرًا من البأس والحذق، على نحو مسرحي يفوق المعتاد، بناءً على أوامر الأدميرال ديتوماس. أبهروا الحضور باستعدادهم العقلي والبدني، فضلًا عن تهيُّئهم التام لاتخاذ قرارت سريعة وذكية، وقدرتهم الاستثنائية على التكيُّف.

يفخر جايكوب بأن أعضاء فريقه من أكثر عناصر العسكرية الأمريكية تقلدًا للأوسمة، وبأن البعض منهم تجاوزت مدة خدمته القتالية سبع سنوات. أجال فيهم بصره، وحدثته نفسه أنه لولا تعكّر مزاجه، لراقته مناظرهم الليلة. ارتدى كل منهم سترة واقية من طراز «شيلد»، من «لوكهيد مارتن»، أحاطت جسده بالكامل. تألفت السترة من خوذة تكتيكية، مُجهّزة بمنظومة استشعار لتتبع الأهداف المتحركة والثابتة، ولكشف المتفجرات والشراك الملغومة، ورصد المقذوفات وتحديد سرعتها واتجاهها. تلقي الخوذة على شبكية العينين إسقاطًا مباشرًا لكل المدخلات والمخرجات البيانية، كما تغطّي زاوية رؤية تصل إلى ثلاث مئة وعشرين درجة. تركبت سترة «شيلد» ذاتها من شرائح مصفوفة من مادة «سيليكون كاربايد»، في غلاف من ألياف الأراميد المقاومة للحرارة، المصممة لحماية الجسم من أخطار النوع الخامس البالغة، مثل الطلقات عالية العيار، والموجات الصدمية متوسطة الشدة. أحاط بالسترة هيكل هيدروليكي من التايتينيوم، يستمد طاقته من حركة الجسم ذاتها، ويتحكم فيه وفي السترة كلها حاسوب متعدد المهام، يضمن تناغم حركة المعدن مع حركة الجسم ذاته، ويهيئ المجال للمقاتل كي يراقب، ويوجه

fb/mashro3pdf

ويقرر، ثم يتصرف بسرعة وكفاءة، وبهامش خطأ ضئيل. زيادة على ما تقدم، يتيح الهيكل المعدني للمستخدم إمكانية تنفيذ مهام قتالية ولوجستية شديدة الصعوبة، من خلال تحسين الخصائص البدنية والقدرة على التحمّل، بدءًا من القفز فائق الارتفاع والعَدْو فائق السرعة، مرورًا برفع أثقال فوق القدرة البشرية، وصولًا إلى وضعيات المرونة العضلية، كالقرفصة العميقة والزحف المتواصل. وعلى ما يبدو على السترة «شيلد» من ثقل ودقة تركيب، إلا أنها في حقيقتها خفيفة، سهلة الاستخدام، نادرة الأعطال، ومصممة لحماية المقاتل وإعطائه قدرة لا محدودة على المناورة التكتيكية في ميادين القتال ومهام الاستكشاف والاستطلاع والاقتحامات الخطيرة.

تراص الرجال كتفًا إلى كتف في دروعهم ومعداتهم على جانبي المقصورة، ولم يظهر منهم في الظلام إلا صور ظلية مصمتة. بينهم جلس جايكوب في كامل عتاده وسلاحه، وأطلق لأفكاره العنان. أثارت هذه المهمة بذاتها في نفسه مذاقًا حامضًا، رغم خوضه ورجاله ما لا يُحصى عدده من الاقتحامات المماثلة على مدار السنوات الخمس الماضية. خلال الأيام الأخيرة، تحولت مشاعره تجاه مهنته من النقيض إلى النقيض. فقد عمله رونقه القديم وتشويقه، وصار موطنًا لذكريات سيئة توشك أن تنقلب عليه. ما كان يجد فيه قبلًا من لذة وسطوة وتحدٍ، تحوّل في حلقه الآن إلى نفور وغصة ومرارة.

من دون شك ملأ هذا العمل فراغًا كبيرًا في حياته. نمط عيش قاسٍ خطير بلا ريب، لكنه مُشبِع. كان قد ظن أنه عثر على ضالته في ميدان العمل العسكري العنيف بعد سنوات من التيه، وعزم على أن يلتصق بهذه المهنة قدر الاستطاعة، وذلك بعد أن تكيف مع ظروفها الضاغطة. لم يكن يتصور إمكانية اتخاذ مهنة أخرى غير تلك المهنة، ولم يكن يتخيل لون آخر من العمل يسع قدراته على النحو الذي تسع الجندية قدراته. أعوام طويلة، قضاها متقافزًا من بلد إلى بلد، ومقتحمًا مسارح قتال عنيفة، ومتمًا مهام أدرينالينية متفجرة، مفعمة بالخطر والإثارة وقتل البشر من كل الأعمار، من دون أن يخشى سوء العاقبة. كان يعلم أن الحصول على وظيفة أخرى تناطح بمزاياها وظيفته تلك، أمر في حكم الاستحالة. أتاحت له العسكرية فرصة مزاملة هذه الثُلة من الرجال المتخصصين الأشداء، الجالسين حوله، ومتّعته بسطوة الانتماء إلى أرق وحدات القوات الخاصة الأمريكية.

fb/mashro3pdf

لما انخرط جايكوب في الجندية، كان هيابًا من الحرب في بادئ الأمر، شأنه شأن زملائه أجمعين، إلى أن اضمحلت الهيبة في نفسه إلى نكات سوداء دقيقة، تنحّت عن حبة القلب إلى حوافه، وصارت تبث السم فقط إن أحدق الموت به إحداقًا لا يُرجِّح الفكاك منه. أما الليلة، فقد تراكم في نفسه يأس شبه تام، كمن يتوقع الموت يقينًا. لم يكن إحساسه هذا محصورًا به لا غير، بل كان شعورًا جمعيًا أظله وكل نفر من فريقه. كانوا قد اجتازوا اختبارات الكشف على الصحة النفسية والعقلية، الواجبة قبل الخروج لأي مهمة، ثم تلوا صلواتهم، وخطّوا بأيديهم خطابات وداع ووصايا لأحبائهم، باستثنائه هو، الذي لم يجد من بين معارفه من يستحق رسالة وداع. إنهم رجال أشداء لا ريب، لكنهم بشر أيضًا، يبغضون الموت، ويخافون فراق الأحبة. لم يمثل أبو زكريا وجماعته في أنفسهم مجرد هدف، بل كابوسًا مخيفًا، فعلموا أن مصيرهم سينتهي الليلة على الأرجح إلى أحد القبيحين: موت أو أسر، والموت عند ذاك رحمة؛ لأن ما تفعله المقاومة في الأسرى الأمريكيين، لا يختلف كثيرًا عما يفعله الأمريكيون في الأسرى من المقاومة.

منذ طفى اسم أبي زكريا على السطح، تسببت جماعته في مقتل أكثر من خمسة عشر ألف جندي أمريكي، وجرح أكثر من خمسين ألفًا. أرقام مخيفة، تستدعي انسحابًا فوريًا، لولا جهود أجهزة الإعلام الأمريكية في تقليصها إلى العُشر تقريبًا أو أقل. أما الخسائر البشرية المصرية ففاقت الحصر، وإن تشير بعض تقارير منظمات حقوق الإنسان إلى تجاوزها الثلاثة ملايين قتيل مدني، والعشرين مليون مُشرد، وهي أرقام تنكرها أجهزة الإعلام جملة.

سنوات من الاحتلال مرت، توافد فيها على المقاومة آلاف المجاهدين من كل أنحاء العالم، طلبًا للموت. لم تواجه القوات الأمريكية قوات نظامية عدائية يمكن التعامل معها على أسس منهجية، بل عصابات مدربة على تكتيكات الوحدات الصغيرة، وحروب التخريب العشوائي والقتال الانتحاري. كل شيء في مصر يزداد سوءًا. كل دورة تزداد فيها الأمور صعوبة، وتزداد الإجراءات والقيود تعقيدًا، وتحتاج المهمة الواحدة إلى صفحات لا نهائية من الوثائق، كي يتم تمريرها من قِبَل صُنّاع القرار والمحامين العسكريين وضباط الأركان. ورغم ذلك، لو ساءت الأمور، يُحَمَّل جنود القوات الخاصة المسؤولية، ويُضحى بهم ببساطة فرقعة الأصابع. آنئذ يتم إلقاء فرد القوات الخاصة هذا وأسرته في الشارع،

fb/mashro3pdf

بلا مصدر دخل ولا تأمين صحي ولا معاش ولا غطاء مالي من أي نوع يحميهم من غوائل الأيام، هذا إن لم يُزَجّ به في السجن.

تأكد الرجال من حُسن إقفال خوذاتهم على الرؤوس، وفحصوا أجهزة الاتصال، وتحققوا من جهوزية الأسلحة. ارتدى كل منهم ما يربو عن الثلاثين كيلوجرامًا من المعدات، كل جرام منها اختير بدقة معيارية لغرض محدد. سلاحهم الرئيسي هو البندقية الهجومية «إتش كاي ٨٠٠»، بمشط ذخيرة دائري يحمل مئة طلقة من طراز «سكار» الخارق للدروع. هذا السلاح الألماني الأنيق، هو جواد كل «ديث ستوكر» أمريكي. يمكن تزويده بمجموعة من الكماليات المناسبة لكل مهمة، كمضيئات الليزر، ومناظير الرؤية المقربة، وقاذفات القنابل عيار ٤٠ ملم، وهي الميزة التي تحيله إلى سلاح مدفعية أوتوماتيكي مُصغَّر، مجهز بتنويعة من الذخيرة القاتلة ذات مدى يتجاوز ألفي متر.

أما جايكوب، فحمل سلاحًا مختلفًا في وزنه ومداه وقوته التدميرية: «إم جي يو ٧٦ / إيه»، من «جنرال داينمكس»، والمعروف باسم «بانيشر». مدفع رشاش متعدد المواسير، كهرومغناطيسي الدفع، ذو معدل إطلاق نار يصل إلى خمس مئة طلقة في الثانية الواحدة، ووزن لا يزيد عن خمسة كيلوجرامات بدون ذخيرة. يحمل له الشاب حقيبة ظهر ضخمة، يلتوي فيها حزام طويل من الذخيرة، مُلحق به نظام تعبئة هيدروليكي. لا يلقمه جايكوب بطلقات عادية، بل بطلقات من طراز «بريداتور» الخارقة للدروع، تنطلق في دفعات من عشر طلقات لكل دفقة، فتصنع حاجزًا نيرانيًا مدمرًا يغطي مساحة واسعة.

رفع جايكوب عدسات خوذته عن وجهه، كي يحدق في صفحة السماء من نافذة الطائرة المجاورة له دون حائل. صفحة سوداء تتزاحم عليها النجوم وتتلألأ بومضات متفاوتة الشدة. منذ سنوات، كانت رؤية النجوم في سماء القاهرة من الصعوبة بمكان، حتى في أحلك ساعات الليل، بسبب التلوث الضوئي الكثيف. الآن تغرق العاصمة في ظلام موحش بعد غروب الشمس، يزداد سواده كلما تمادى الليل في التقادم، بسبب الانقطاع الدائم للكهرباء. دقق جايكوب النظر، محاولًا رصد أي نجم استثنائي الوميض، سريع الحركة. إنه يعلم أن الرجال في مكتب الاستطلاع القومي يتحكمون في بعض هذه النقاط المضيئة، التي هي في حقيقتها أقمار اصطناعية استطلاعية. واحد منها هو الأهم، وهو ما يحاول جايكوب رصده، لمجرد تمضية الوقت أو كسر التوتر، ولم يتوقع بالتأكيد

fb/mashro3pdf

أن يحـدد موقعـه بالعـين المجـردة. «بيـج بـيرد ١٢»، الـذي تتسـلط كاميرتـه الليلـة عـلى عزبـة عـين البقـرة. تحفـة فنيـة في حجـم كـرة القـدم، تسـتطيع التقـاط صـور عاليـة الجـودة، سـواء تلـك الواقعـة في الطيـف المـرئي، أو بالأشـعة فـوق البنفسـجية أو تحـت الحمـراء، كمـا يحـوي وظائـف اتصـالات متقدمـة، وأجهـزة استشـعار لفحـص الطقـس. يتحكـم في «بيـج بـيرد» ثلاثـة خـبراء اسـتخباراتيون، يقومـون بدعـم فريـق جايكـوب مـن مركـز العمليـات المشـتركة في قاعـدة ديكينسـون العسـكرية.

نعـم، أكـدوا لجايكـوب أن هـذه العمليـة مُعَـدَّة عـلى الوجـه الأمثـل، وأن كل مُعِـدَّة اختـيرت للدعـم والمشـاركة ستـؤدي وظيفتهـا بأعـلى مستوى مـن الكفـاءة، وسـتنقل البيانـات بمختلـف الوسـائط السـمعية والبصريـة إلى الرجـال في مركـز العمليـات المشـتركة بقاعـدة ديكينسـون، وغرفـة عمليـات البيـت الأبيـض بواشـنطن، ومقـر الاسـتخبارات المركزيـة بلانجـلي. هـؤلاء سيسـهرون الليـل لضمـان رجـوع كل فـرد مـن أفـراد الفريـق آمنًـا لأسرتـه بعـد انتهـاء العمليـة. كان جايكـوب واضحًـا معهـم هـذه المـرة. لـم يكـن يومًـا حريصًـا عـلى مراعـاة «آداب المائـدة» الـتي يطالبـه بهـا الضبـاط الأعـلى رتبـة، ولـم يكـن يـتردد في أن يـدلي بـأي كلمـة جاحـدة أو تعليـق غـير لائـق في حضـور الكبـار. كان يُعِـد نفسـه مسـتهترًا مـع الرتـب العليـا المتكـبرة، بـل وحـاول إسـباغ هـذا الخُلُـق الذميـم عـلى عنـاصر فصيلتـه، ناسـيًا أن هـذا الاسـتثناء قـد يسـوّغ لـه وحـده، بالنظـر إلى صولـة عائلتـه ونفوذهـا القـوي في واشـنطن، لكـن لـن يسـوغ لرجالـه، ولـو عمـل لذلـك مـا اسـتطاع. لكنـه عـلى كل حـال كان أقـل حرصًـا في هـذه المـرة عـلى الـتزام الأدب مـع أي أحـد، طالمـا لـم يطمـئن لحسـن سـير العمليـة. أمـا قادتـه، فقـد أمّنـوه وطمأنـوه، وزودوه ورجالـه بتلقـين معلومـاتي غطـى كل جوانـب العمليـة. نعـم، علـم كل رجـل مـن رجالـه مـا ينبغـي عليـه أن يفعلـه تحديـدًا، لـو انقطعـت الاتصـالات أو انحـدرت الأمـور للفـوضى. نعـم، كانـوا جميعًـا عـلى اسـتعداد للمـوت في سـبيل المهمـة، لكـن جايكـوب لـم يكـن واثقًـا مـن أي شيء.

دارت هـذه الأفـكار وغيرهـا في ذهنـه، وهـو يعيـد وضـع العدسـات عـلى عينيـه، ويُحكِـم إغـلاق الخـوذة. تابعـت عينـاه رئيـس طاقـم الطائـرة وهـو يفتـح بـاب الإنـزال الجانـبي المنزلـق، ثـم يرفـع يـده بعلامـة التأهـب. رفـع جايكـوب يديـه بـدوره بنفـس الإشـارة، الـتي تناقلهـا أعضـاء فريقـه الواحـد تلـو الآخـر حـتى وصلـت إلى كل فـرد منهـم. ضغـط الطيـار عـلى زر

fb/mashro3pdf

الاستقرار الاتجاهي، فدارت الكوبرا بنسق ثابت حول المكان في دائرة ضيقة، يغطي منها القناصة وراصدوهم المنطقة بأكملها من أبواب «الجوست كوبرا» المفتوحة.

نهض أعضاء الفريق على أقدامهم، بأحمالهم من الدروع والسلاح والمعدات وأجهزة الاتصال والمتفجرات، وتمسكوا بالقضبان المثبتة في الجدران لئلا يسقطون مع حركة الطائرة. حرّك أعضاء خلية القناصة أجسامهم أمام الميمنة والميسرة من الطائرة، وأعدوا أسلحتهم، وقام «المخترق» بتأمين عبواته الناسفة، المعدة لاختراق تحصينات البيت، إما بقطع فتحات جزئية في الأبواب والنوافذ، وإما بهدم الجدران كلية. إنهم مجهزون الليلة لشن هجوم ضجيجي مدمر، أو لتنفيذ تسلل دقيق صامت. إنهم مجهزون لأخذ الهدف وحده، أو لتدمير المربع السكني كله لو اقتضى الأمر. «الجوست كوبرا» ذاتها ستوفر غطاءً نيرانيًا لحماية الرجال، بواسطة الرشاش «إم ٦٠٠ ميني جن» ذي ستة مواسير، المثبت في مقدمة الطائرة، والمجهز بمنظار للأشعة تحت الحمراء، وقدرة على تتبع واصطياد الأجساد الحية والمركبات الأرضية أوتوماتيكيًا.

في الأحوال العادية، فور أن يفتح باب الطائرة، يمتلئ فراغ الكابينة الضيق بضجيج المحركات وهدير المراوح، لكن مع محركات «الجوست كوبرا» الخافتة، لم يُسمع سوى هزيز الرياح وأزيز مكتوم ثقيل الوقع. هبت تيارات هواء عاتية على المسلحين داخل الطائرة، مصحوبة برائحة عطن، فيما بدت المدينة المظلمة دون أحذيتهم الغليظة. قبض جايكوب على حبل النايلون المضفر، المتدلي من حلقة مخصوصة أعلى باب الطائرة، وألقى نظرة وافية على الأجواء أسفل منه. لم يبدُ على الهدف أي اختلاف عن مئات الصور الأرضية والجوية التي درسوها للمكان.

احتل المجمع السكني مساحة تقارب ستة آلاف متر مربع، وأحيط بجدران خرسانية جيدة البناء، يصل ارتفاعها إلى نحو خمسة أمتار، علتها تشكيلات من الأسلاك الشائكة، المموهة بكتل من النباتات وألواح الخشب. لسور المجمع مدخلين، تسدهما بوابتان حديديتان، مسلحتان بقضبان من الفولاذ. شغلت أغلب مساحة الفناء حديقة خضراوات موفورة، وزريبة تُؤوى فيها عدة أبقار، وما يربو على مائتي دجاجة وأرنب. الناظر من أسفل لا يمكنه تمييز هذا المنزل عما يجاوره من مبان؛ ذلك أن بنّاؤوه حرصوا على إحاطته بكتل كثيفة من الأعشاش والغرف المبنية من الطوب والخشب والصفيح، أخفت

fb/mashro3pdf

سعته وحصانته.

يتوسط الحديقة بناء من ثلاثة طوابق، قليل النوافذ، سيئ الطلاء، ليس له طابع معماري محدد، ولا تُستطاع رؤيته من وراء الأسوار. البناء من الداخل تم تقسيمه إلى أجنحة منفصلة، أغلقت جميعها بأبواب من الحديد. يحزر رجال «ديث ستوكرز» وجود قرابة ثلاثين شخصًا في المكان، منهم النساء والأطفال والأبناء الكبار. يحزرون أيضًا احتواء البناية على الكثير من المتاهات المُعدة لتعطيل أي هجوم اختراقي، والعديد من الأبواب الشراكية التي تؤدي إلى غرف ضيقة فارغة، والعديد من الممرات الخداعية التي تؤدي إلى نهايات مسدودة. كانت تلك التفصيلة لتشكل مشكلة ضخمة للمخترقين، لولا أن زودهم الأسير بخارطة تفصيلية من الذاكرة للمكان؛ وذلك بفضل خلفيته المهنية المعمارية، ولكونه صمم البناية وأشرف على إنشائها. تلك كانت تركيبة نادرة المثال، أن يقع بين أيديهم عنصر على هذا القدر من الأهمية والاحترافية والقرب من الهدف.

يعلم الرجال الآن كل التفاصيل عن حياة الشيخ وأسرته. في الطابق الثالث تقع غرفة نوم الرجل الكبير، المُلحق بها مكتبه. نوافذ هذه الغرفة سُدت جميعها بالطوب، سوى تلك المطلة على فناء تهوية داخلي. عائلة الشيخ وعياله يسكنون الطابقين العلويين، فيما يحتل باقي مساحة المنزل أخوي الشيخ وعائلتيهما. موطن الخطورة يكمن في شباب هاتين العائلتين، الذين شبوا على القتال والقتل، في حضن أبي زكريا وزبانيته. يقوم هؤلاء الشباب، بالإضافة إلى مهمة الحراسة، بتوفير الحاجيات الأساسية للعائلة الكبيرة من خام الطعام مما لا يستطاع تحصيله من الحديقة والزريبة، ولم تكن تلك مهمة بسيطة بحال، خصوصًا مع شُحّ الزاد وارتفاع الأسعار. رغم ذلك، عاشت هذه الثلة من البشر في رغد وسلام، مقارنة بمن حولهم من بشر، وأكلوا الخبز والبيض والدجاج والأرز. أما الأطفال، فأقيمت لهم مدرسة بيتية في فناء منفصل مظلل، فيها تعلموا القراءة والكتابة، وحفظوا القرآن، وتعرفوا على بعض العلوم الدنيوية البسيطة من حساب وجغرافيا وغيرهما. ولأن الأطفال لا يغادرون المجمع إلا فيما ندر، جُهِّز الفناء بملعب أطفال جميل، فيه أراجيح من حبال، ونواسة من خشب، ومزلاق من صفيح، ومسبح كبير قابل للنفخ، تقترب سعته من ألف لتر.

مسلحون بتلك المعلومات وزيادة، اصطف جنود «ديث ستوكرز» خلف قائدهم،

fb/mashro3pdf

استعداداً للانزلاق من بعده. قفز جايكوب بلا تردد، وتبعه أحد عشر رجلًا، الواحد تلو الآخر، منزلقين بنعومة وسرعة إلى أسفل، حتى استقروا على سطح البناية بطقطقات مكتومة من أحذيتهم ذات النعال المطاطية السميكة. لم يكن نزولهم سهل الوقع، بل كان عنيفًا بسبب ثقل معداتهم. رأوا بمؤخر العين «الجوست كوبرا» تترك موقعها لتُنزل بقية الرجال في الفناء الخارجي، ثم تحركوا بخفة على السطح الخرساني المُترّب. عاينوا مدفعي الدفاع الجوي العتيقين، اللذين تم التشويش عليهما وعلى كل أجهزة الاستشعار الأخرى وإبطال قدرتهم على الرصد، بواسطة جهاز تشويش رُكّب في باطن «الجوست كوبرا» من أجل هذه المهمة. وصلوا إلى حافة السطح، فقفزوا إلى فناء الطابق الثالث.

ولم تمضِ عدة دقائق أخرى، حتى حط اثنا عشر رجلًا آخر نعالهم على الفناء الخارجي للمجمع السكني الكبير، ثم تحركوا إلى جهة مدخل البناية الرئيسية. فوقهم غطت «الجوست كوبرا» منافذ البناية جميعها، لمنع أي فرد من الدخول أو الخروج. اعتمدت العملية على قدرة القناصين على حماية الطائرة، ومنع أي عنصر معادٍ من إطلاق النار عليها من سطح المبنى، أو من الأسطح المجاورة. لتأمين الطائرة أولوية قد تفوق أولوية تنفيذ المهمة ذاتها؛ لأن قذيفة صاروخية واحدة تنال «الجوست كوبرا» بالأذى، كفيلة بأن يجد المقاتلون أنفسهم دون غطاء جوي، ودون قدرة على الانسحاب من مسرح العمليات. نعم، إن «الجوست كوبرا» طائرة هادئة، لكنها ليست صامتة بإطلاق. في لحظة معينة من الهجوم سيرصدها أحد العناصر المعادية من داخل المجمع أو خارجه، حتمًا ولا بد، وعندئذ سيبدأ إطلاق النار.

*****

fb/mashro3pdf

في تلك الساعة المتأخرة من الليل، حلّ السكون. قبل ساعة واحدة، كانت ما تزال أصوات البشر تُسمع في الشوارع الترابية؛ إذ بقيت بعض المقاهي والمطاعم الصغيرة تستقبل روادها من العمال والحرفيين أصحاب الورديات المتأخرة. ببطء انكسرت حرارة النهار المتراكمة، وحلت محلها رطوبة خانقة. استلقت عشرات الأجساد على الأسقف فرارًا من قيظ الغرف الضيقة، وانفتحت النوافذ على مصاريعها رغم كثافة الهوام والباعوض وقوارص الليل؛ إذ لم يكن ثمة منافذ أخرى للتهوية. ثم شيئًا فشيئًا تفاقم سواد الليل، وانحسرت الضوضاء، وخفّت الثرثرة، ووئد صياح الصبيان هنا وهناك، حتى هبط صمت شبه تام، لم يعكر صفوه إلا أزيز الحشرات ونباح الكلاب.

تمثلت المدينة لهاتين العينين المنهكتين كحطام نابض بالسخط والحنق والفاقة. خلف نافذة زجاجية استترت من الداخل بخدر من القماش السميك، وقفت السيدة هُدَى تختلس النظر إلى كتل المباني والأعشاش المحيطة بمنزلها من كل جهة. سنوات مرت عليها منذ انتقلت وأهلها إلى هذا البيت، انحصرت فيها صلتها بالخارج في تلك النظرات المُختَلَسَة من فروج الستائر وخلال مصبعات الحديد. نعم، لم يختلف البيت الجديد في قبح بنائه عما يحوطه من أبنية وأعشاش، لكنه تميز عنها بالرحابة. قد يتسم أثاثه بالرداءة وسوء الخامة، وفرشه برقة الحال وجمود الحاشية، وطلاؤه بالخشونة ووضاعة الصنعة، لكنها لا تستطيع التذمر. الحياة في هذا البيت الفسيح أفضل من الحياة تحت الأرض، في غرف تفتيش شبكات المجاري ومرافق أنقاض مترو الأنفاق.

هُدَى هي آخر زوجات الشيخ أبي زكريا وأحبهم إلى قلبه. سيدة منتقبة مصون، ابتليت في العهد القديم بزوج سفيه سيئ الخُلُق، ضيّع أموالها وأولادها، فدخلت بسببه سجن النساء بالقناطر في دَيْن أحوجها المرض إليه. لم يزد الدين عن عشرة آلاف جنيه، قضت به في الحبس ثلاث سنوات، كانت في طولها وعرضها وبؤسها كثلاثين سنة، حتى دل أهل الخير الشيخ أبا زكريا عليها، فقضى عنها دينها، وأخرجها من السجن، وأخذها وأولادها في كنفه؛ لله دره!

الآن وقد قضت تحت عصمة أبي زكريا عقدين من الزمان، بلغت أربعين سنة على أسوأ حال، والحمد لله على كل حال. مات بين سحرها ونحرها ثلاثة من أبنائها، وقُتل أمام

fb/mashro3pdf

عينيها طفلان آخران من زيجة سابقة. فنت زوجات الشيخ الواحدة تلو الأخرى، ولم يفتأ الرجل الجليل يتزوج متى سنحت الفرصة، لأسباب عدة، تتعلق غالبًا «بالستر على» نساء رجاله الأقربين ممن يُستشهدون في ميادين القتال. هذا ما يقوله الشيخ دومًا، ولم تكن قد علمت عنه للأمانة زواجه ببكر قط، بل إن بعضًا ممن نكحهن كن ممن يعاب عليهن القبح أو تشوّه الخلقة من حريق أو شظايا، وهي صفة صارت غالبة على كثير من أهل مصر تحت الاحتلال. عمومًا، لم تبقَ من نسوته إلاها. قتل منهن من قتل ومات منهن من مات من جوع أو مرض أو شيخوخة. هدى نفسها لم يسلم جسدها من ويلات الحرب وسوء الأحوال المعيشية، فبالإضافة إلى مرض القلب وارتفاع ضغط الدم والشلل الجزئي في اليد اليسرى، فقدت أيضًا ساقها اليمنى وإحدى عينيها في حادث تفجير مؤسف.

بعد أن انتقلت مع الشيخ إلى هذا البيت، لم يعد لها في الحياة الدنيا فسحة إلا اختلاس النظر من النافذة، والاستئناس بالراحين والغادين، وسماع الأذان وصياح الباعة وهدير المجنزرات العسكرية. لم تستطع الخروج والمشي في الشوارع كسائر بني آدم سوى ساعة أو ساعتين في اليوم، تخرج فيهما إلى الفناء الترابي، بتعليمات صارمة بألا ترفع رأسها إلى السماء قط؛ لأنها على قائمة المستهدفين من قِبَل القوات الأمريكية. إنها تعلم أن رفع الرأس مرة واحدة إلى السماء، كفيل بإنهاء حياتها وحياة أهل البيت جميعًا في طرفة عين، إن صادفت نظرتها قمرًا صناعيًا في مداره حول الكوكب. لا بأس. «اللهم أدِمها من نعمة واحفظها من الزوال». إنها من مكمنها هذا يمكنها الاستمتاع بالنظر إلى حياة نابضة بالنشاط، تختلف تمام الاختلاف عن حياتها السابقة، التي عاشتها في الظلمة والرطوبة، بين المعدن الصدئ والماء العكر والفئران والحشرات.

في بعولة الشيخ رأت هدى من الأهوال ما رقت له بالمقارنة أهوال الفقر والسجن والمرض. موقعها القريب من المقاومة وضعها دومًا في قلب أحداث عنف دامية، ومآسٍ تجعل الولدان شيبًا. رأت أحياءً سكنية تتحول بين طرفة عين وانتباهتها إلى حطام ورماد ودخان. رأت أسرًا كاملة، منهم ذوي الرحم والجيران والأحبة، تدفن تحت الأنقاض. رأت أطفالًا بين الركام، يستنجدون بآباء وأمهات حصدتهم رصاصات القناصة، أو مزقتهم الصواريخ والراجمات وقذائف الهاون. رأت الكلاب الضالة وهي تنهش لحوم الناس

fb/mashro3pdf

والأمـوات وقـد صـارت أحشـاؤهـم طعامًـا سـائغًا للضـواري ودود الأرض. رأت سـنوات عجـاف، شـحت فيهـا المدافـن، وهُجـرت المسـاجد، وطـاب المـوت، وقـل الاسـتغفار، واسـتفحلت الفـتن، وتتابعـت المحـن.

نظـرت إلى السـماء، وحمـدت ربهـا أن مـد في عمرهـا، وأنقذهـا مـن الأهـوال والغوائـل. إنهـا تعلـم أن للمـوت سـكرات، وأن هـول المطلـع أمـر فظيـع. مـرت عليهـا أيـام تمنـت فيهـا المـوت كل سـاعة.. لكنهـا تعلـم الآن معـنى المـوت علـم اليقـين، وتعلـم كذلـك أن الحيـاة نعمـة ومحنـة ومنحـة، كل في آن واحـد، وأن سـاعة تعيـش فيهـا تسـتغفر الله، خـير لهـا مـن مـوت الدهـر. وإن زبـدة الحديـث كلـه في قـول رسـول الله، صـلى الله عليـه وسـلم: «إن مـن السـعادة أن يطـول عمـر العبـد ويرزقـه الله الإنابـة».

جالـت تلـك الخواطـر الشـاردة في فؤادهـا، مـع غيرهـا مـن غرائـب الأمـور ونـوادر الأحـداث ممـا قـد رأت في السـنوات السـالفة، واجترّتهـا مـرارًا وتكـرارًا كعادتهـا كل مسـاء، إلى أن شـعرت بحركـة مريبـة مـن خلفهـا، أو ربمـا هـو حـدس داخـلي؛ التفتـت، وقطعـت غرفـة المعيشـة عـلى عكازيهـا ببـطء وصعوبـة، إلى أن وصلـت إلى النافـذة المطلـة عـلى الفنـاء الداخـلي بعـد عنـت. دققـت النظـر، ورأت مـن خـلال قمـاش السـتار شـبه الشـفاف ظـلالًا بشريـة تقفـز مـن سـطح البيـت إلى الفنـاء الداخـلي. وفي ذات اللحظـة، رصدتهـا أجهـزة الاستشـعار في خـوذات الرجـال، فالتفـت أحدهـم ورأى ظـلًا حراريًـا لإنسـان. اعتـبره تهديـدًا، وفي ظـل رخـاوة قواعـد الاشـتباك، رفـع سـلاحه فـورًا، وأطلـق رصاصـة صامتـة اخترقـت النافـذة المضـادة للرصـاص كأنهـا خيـط مـن ضـوء، ومرقـت مـن رأس السـيدة في لحظـة واحـدة فارقـة. ومـع الإصابـة المهلكـة في المـخ، فقـد جسـد هـدى تماسـكه فـورًا، فتهـاوت أرضًـا كثـوب بـالٍ دون أن تنبـس، وإلى جانبيهـا سـقط العكازيـن الخشـبيين بضجيـج مكتـوم.

*****

انقسـمت مجموعـة الاقتحـام إلى مجموعتـين، تألفـت كل منهمـا مـن اثـني عـشر مقاتـلًا، الأولى أُنزلـت عـلى سـطح البنايـة، والثانيـة أُنزلـت عـلى الفنـاء. وفي اللحظـة الـتي لامسـت فيهـا أحذيـة رجـال المجموعـة الثانيـة تـراب الفنـاء، رصـد أحـد القناصـين في «الجوسـت كوبـرا»

fb/mashro3pdf

رجلين يتجولان في الظلام، على الجهة المقابلة من موقع إبرار الرجال، وعلى بعد خطوات منهم. همس القناص لزملائه كي يطلعهم على موضع الخطر، ثم شد جسمه، وحدد النظر في تلسكوب التسديد. على عكس المتوقع، لم يرتدِ الرجلان الهندام السلفي التقليدي القصير، أو كما يعرفه الأمريكان بـ«الزي الباكستاني»، بل ارتديا زي قوات الصاعقة والدوريات بعيدة المدى، بكامل تجهيزاته التسليحية والاقتحامية: خوذة واقية متعددة الطبقات من مادة «كفلار ٢٩»، ونظارة زوابع، مع سترة مضادة للرصاص تحمل داخل أليافها المنضدة صفيحتين من السيراميك. قبض كل منهما على بندقية هجومية من نوع كلاشنكوف «إيه كي ١٢»، مزودة بنظام بصري متقدم، وقاذف قنابل. واستطاع القناص أيضًا تمييز مسدس مستقر في جراب مثبت على فخذ كل منهما.

في دورية الحراسة الليلية، تحرك الرجلان بخطوات بطيئة متزنة، وخط سير منضبط، مستتر، غطى مساحة الفناء بأسره، لكنهما خالفا الليلة -كليالٍ كثيرة سابقة- القواعد المتفق عليها، من حيث التحرك فرادى لتغطية مجال أكبر، مع البقاء على اتصال دائم. لم تجرِ بهما العادة على التراخي أو مخالفة الأوامر، لكنهما اتفقا سرًا على قضاء قسم يسير من الليل في صحبة بعضيهما بعض، لقتل الوقت، وقهر الملل، ومغالبة النعاس. وعلى عكس المعاناة اليومية مع سماء النهار الصافية وشمسها الساطعة القاسية، مَثَّل الليل فسحة للراحة والاستجمام الذهني، تحت قبة سماوية رائعة، لم يعكر صفوها إلا عدة مصابيح سهّارية، على ضوئها الخافت اهتديا.

حتى هذه اللحظة، لم يلحظ الرجلان الجسم الأسود الضخم الحائم حولهما في دائرة ثابتة. إن «الجوست كوبرا» في صبغتها الشبحية تقاوم الجاذبية الأرضية بالحد الأدنى من قدرة محركاتها، وبلا إضاءة على الإطلاق. لم يكن من السهل التعرف على ضوضائها؛ لأنها لا تُحدِث ضجيجًا مميزًا لأي مركبة برية أو جوية، بل فحيحًا باهتًا ثقيلًا في حالة الاستقرار الاتجاهي، أو طنينًا عميقًا خافتًا في حالة الطيران الأمامي بأقصى سرعة. لم يكن فحيحها هذا مخفيًا تمامًا، لكنه لم يكن مرتفعًا إلى الحد التي يتيح للشخص العادي ربطه بأي ضجيج معروف، فكأنه وش رمادي لا معالم له ولا يمكن تمييزه أو الانتباه إليه.

بهمس لا يكاد يُسمع، أصدر القناص تعليماته إلى الطيار، كي يدير جانب الطائرة بزاوية تتيح له رؤية الرجلين واصطيادهما في آن واحد. عدل القناص وضعه، مرتكزًا بإحدى

fb/mashro3pdf

ركبتيه على أرضية الطائرة، وبالأخرى على مخلاة قماشية مكتظة، وأسند سبطانة سلاحه إلى إفريز فتحة القناصة. لا شك أن القنص من طائرة في حالة حركة أو حتى حالة حوم، أمر في غاية الصعوبة، من جهة ضمان دقة الإصابة، ثم مراعاة مسار الرصاصة ونقطة الارتطام، اللذين يتأثران سلبًا إن أُطلقت النار من أعلى مستوى الهدف. لم يكن أمام القناص متسع من الوقت لإحكام التصويب، لذا ما أن ظن أنه قدر على الهدف، حتى ضغط الزناد. انطلقت خرطوشة خارقة للدروع من سبطانة بندقية القناصة «باريت زي إم ٢» المتطورة، ومرت خلال كاتم الصوت المزدوج الطبقات، ومرقت في الهواء بسرعة تزيد عن ألف ومئة متر في الثانية.

اتسعت عينا أحد الرجلين فجأة إذ يسمع إزيزًا مؤلمًا خاطفًا يمر إلى جانب أذنه عن قرب، أحس به من فرطه حدته وسرعته يكاد يخرق مخه، وذلك قبل أن يرتطم الخرطوش الطائش بأرضية الفناء الترابية، ويطق مثيرًا زوبعة غبارية محدودة وعنيفة. التفت الرجل إلى موضع الارتطام بفزع، لكن الخرطوش الثاني داهمه قبل أن يتم التفاتته، ودخل عظم الجمجمة الجداري من أعلى، وخرج من الجانب الأيمن من الوجه مدمرًا مساحة كبيرة منه، وطاردًا قسمًا من الدماغ إلى الخارج. استغرق الموت جزءًا من الثانية، سقط فيه الرجل بلا حراك، والأرجح أنه لم يشعر بشيء. الحصيلة العاطفية ذهبت بأسرها إلى الرجل الآخر. بوغت بسقوط زميله دون أن يدرك ما حدث، وذلك إلى أن فاجأه الخرطوش الثالث، الذي أصاب كتفه إصابة مباشرة، وهتك الغضروف والتجويف المفصليان. فقد الرجل السيطرة على سلاحه على حين غرة، فمال السلاح بين يديه بزاوية حادة، وكاد أن يسقط مع قرب انفصال الذراع المصابة عن الجسد. لم تكسر الإصابة عزيمة الرجل. ألقى الكلاشنكوف أرضًا لاستيئاسه من السيطرة عليه بيد واحدة، واستل مسدسه الألماني، ورفعه إلى السماء. لم يعرف على وجه التحديد جهة التصويب الأصح، لكنه عزم على استنفاد ذخيرته على كل حال، فمن جهة قد يصيب عدوه مصادفة، ومن جهة أخرى قد يحذّر أهل البيت، فلا يذهب موته الوشيك سُدى. لكن القناص أطلق ثلاثة خراطيش متتابعة للقضاء على هذا التهديد الخطير، ووأد أي احتمال لإفساد عنصر المفاجأة.. وقد كان.

تقدمت عناصر الاقتحام الأرضي تجاه الجثتين بسرعة، ونزعوا الأسلحة من بين الأصابع

fb/mashro3pdf

المتصلبة. جرّوا الجثتين إلى طرف الفناء، وتعاون ثلاثة منهم على طرحهما في صندوق النفايات الخشبي الكبير، وتغطيتهما بأكوام من القمامة العضوية المتعفنة، تلك التي تنتظر الحرق في الصباح. أنجزوا مهمتهم، ثم تقدموا صوب بوابة المنزل الحديدية بمحاذاة الجدار صفًا واحدًا، متخذين وضعيات إطلاق النار. تجمع ثلاثة مقاتلين حول البوابة الفولاذية الرئيسية لتأمينها، وقام «المخترق» بمواجهة البوابة ببندقيته الهجومية، إلى أن ضرب زميل له على كتفه ضربتين خفيفتين. استخرج من حقيبة ظهره قرص صهر مدمج في حجم كف اليد، وثبّته على رِتاج الباب، وضغط زره الوحيد.

سرى في فولاذ البوابة تيار كهربائي ذو جهد فائق، ارتفعت به حرارة الدائرة المحيطة بالقرص الكهربي تدريجيًا، حتى جاوزت ثلاثة آلاف درجة مئوية خلال عدة ثوانٍ، فتوهج السطح الرمادي واخشوشن، وصار صهارة مذابة. هنا مد «المخترق» يده اليسرى، وجذب البوابة الفولاذية للخارج، مصوبًا السلاح بيده اليمنى إلى خلل المدخل. شرعت البوابة على مصراعيها بنعومة لا مزيد عليها، وتساقطت قطرات المعدن المصهور بلزوجة كالعسل.

على جانبي البوابة، وقف مقاتلان في وضعية إطلاق النار المتحفزة: الجذع مائل إلى الأمام، والكتفان مرفوعتان ومشدودتان للخلف، والساقان منفرجتان، والبندقية الهجومية مسددة إلى الأمام، بسبابة تلامس الزناد. مالا لإلقاء نظرة شاملة على بهو المدخل، للتأكد من خلوّه من الخطر، وذلك قبل أن يتدفق الرجال إلى الداخل. وبالأعلى، استطاع الفريق الآخر الدخول من إحدى نوافذ الطابق الثالث المضادة للرصاص كما هو مخطط، وذلك بعد أن خلعوا إطارها كاملًا من الجدار الخرساني. ثم انقسم الفريقان العلوي والسفلي داخل البيت إلى تشكيلات أصغر من أربعة رجال. تقتضي الخطة تأمين كل موطئ قدم بدءًا من الطابقين الأرضي والثاني في توقيت متزامن، والالتقاء في الطابق الأول لسد منافذ الهروب على ساكني البناية، ثم تغطية وتأمين جميع المسارات المؤدية إلى غرفة الشيخ وحبسه فيها، تمهيدًا لاقتحامها.

تقدمت مجموعات التطهير الرباعية في ممرات المنزل الضيقة بتشكيل الاعوجاج التكتيكي الآمن، في أوضاع استعداد هجومية. مشوا مشيًا بطيئًا متأنيًا، بخطوات وئيدة مدروسة، إلا أن كل نقلة قدم انطوت على تحفز نفسي وانقباض عضلي يضمن القفز من السكون

fb/mashro3pdf

إلى الحركة الخاطفة في لمح البصر. تقدمهم «المراقب» ببندقيته الهجومية مصوبة إلى الأمام، لإسقاط أي عدو قد يظهر في نهاية الممر، أو يخرج من أي من الأبواب القريبة من نهاية الممر، فيما يغطي الرجلان الثاني والثالث الميمنة والميسرة لتأمين الأبواب القريبة. أما الرابع والأخير، فقام بتأمين المؤخرة ضد أي ظهور عدائي من الخلف. وجّه هؤلاء الصيادون فوهات أسلحتهم دومًا إلى جهة النظر، ووضعوا أعقاب بنادقهم في جيوب أكتافهم، مع خفض فوهاتها إلى الأسفل قليلًا كي لا تعوق الرؤية. أبقى الرجال أسلحتهم على وضع الأمان -كما تنص التعليمات- إلى أن يظهر هدف معادٍ. حينئذ تُجذب إبرة الأمان، ويُتعامل مع الهدف، ثم يُعاد السلاح لوضع الأمان مرة أخرى.

بحذر وصمت فتحوا الأبواب، وتسللوا إلى الداخل محتلين مواقع تضمن لهم سيطرة كاملة على الغرف، وتتيح لهم مجالات مفتوحة لا عوائق فيها لإطلاق النار. غرف المعيشة بالطابق الأرضي كانت خالية بطبيعة الحال؛ لأن أهل البيت أووا جميعًا إلى فُرُشهم. لم يمنعهم هذا من تأمينها على النحو القياسي الذي تدربوا عليه لسنوات طوال. وإذ هم على هذه الحال، عاينوا على الطبيعة دقة المعلومات التي توفرت لهم مسبقًا، بدءًا من المخططات الرئيسية للبيت، والمساحات التقريبية لغرفه، وصولًا إلى نوعيات الأثاث والمفروشات. صُنعت جميع عناصر الفُرُش محليًا من الخشب والإسفنج وفراء الخرفان وجلود الماشية، ولم يجمعها نظام أو لون، بل بدت كتشكيلة طائشة مفتقدة لأساسيات الذوق السليم، جُمعت على عجل من الخرائب والأنقاض، ووُضعت لتأدية خدمة وظيفية بحتة، لا علاقة لها بجماليات التنسيق الداخلي. رأى الرجال في صبغة مناظير الرؤية الليلية الخضراء بعض أجهزة التلفاز القديمة، وركامًا من لعب الأطفال السليمة والمحطمة الملقاة في الأركان وتحت قطع الأثاث، وأكوامًا من الملابس والأوراق على المناضد والمقاعد.

في الطابق العلوي قام الرجال بتغيير تشكيلهم القتالي ديناميكيًا عند كل تقاطع في الممرات أو مفترق في المسارات، على نحو يغطي الاتجاهات الأربعة ضد أي هجوم مفاجئ. مهمة هؤلاء الرجال أصعب من مهمة زملائهم في الطابق الأرضي؛ لأنهم يتحركون في مكان مأهول يمتلئ بالغرف والمتاهات، لكنهم مع هذا تقدموا بدراية تامة، تحققت بعد ساعات طويلة من التدريب الشاق والمستمر.

fb/mashro3pdf

الغرفة الأولى اجتمع فيها عدد من النسوة والأطفال، تكوموا جميعًا على ثلاث حشايا إسفنجية رديئة. راح معظمهم في سبات، إلا امرأتين، جلستا القرفصاء، وعلى ضوء شمعة ذابلة تسامرتا همسًا، خشية إيقاظ النائمين. دار السمر حول مشقة العناية اليومية بالدجاج في الفناء الخارجي، خصوصًا أن هناك فأرًا أو عدة فئران احترفوا اختطاف الكتاكيت، ولم تفلح الأساليب التقليدية في القضاء عليها، بدءًا بسم الفئران، مرورًا بسكب الماء الساخن في الأنفاق التي منها يتسللون إلى حظيرة الدواجن، وصولًا إلى محاولات الخنق بالدخان. ثم انقطع خيط الحديث بطقطقة مزلاج الباب. رفعت المرأتان عينيهما بتساؤل، وقدرتا أن أحدًا من رجالهما أو أبنائهما الكبار له حاجة، أو أن الشيخ يعسعس كعادته كل ليلة، للاطمئنان على النسوة والأطفال.. لله در أبيه، من معدن حر أصيل قُدَّ الشيخ الجليل! لكنهما لم تريا رجالًا ولا شيوخًا، بل تدحرج من خلل الباب إلى موقعهما جسم كروي صغير في حجم كرة التنس. في الظلمة تألق مصباح أحمر دقيق على سطح الكرة، وتذبذب بمعدل متسارع، قبل أن تومض الكرة كلها ومضة مفاجئة، أضاءت الغرفة بأسرها وخبت في لحظة، كالتماعة برق خاطف.

منذ عامين تقريبًا، أدرجت اللجنة الدولية للصليب الأحمر القنبلة اليدوية الهجومية «إم/٩٥» ضمن الأسلحة التي يحظر القانون الدولي الإنساني استعمالها وتخزينها وإنتاجها ونقلها، بموجب البروتوكول الثالث الخاص بالأسلحة الحارقة، من اتفاقية عام ألف وتسع مئة وثمانين، المتعلقة بالأسلحة التقليدية. عند انفجارها، تطلق «إم/٩٥» ومضة حرارية صامتة، ترفع درجة الحرارة الوسط المحيط لأكثر من ألف ومائتي درجة مئوية، في دائرة ضيقة لا يزيد قطرها عن ثلاثة أمتار. تسبب القنبلة حروقًا تفحمية لمن يقعون في دائرة تأثيرها المباشر، وتؤدي إلى الموت الفوري. وخلاف ذلك، تقتل القنبلة من يوجد خارج محيط تأثيرها المباشر بالسكتة الدماغية الحرارية والجفاف والاختناق. وقد سرّبت منظمة «هيومن رايتس ووتش» دراسة أعدها جهاز المخابرات العسكري الأمريكي تقول ما نصه: «الآلية التي تقتل بها إم/٩٥ فريدة من نوعها، وغير سارة على الإطلاق، فمن لا يحترق بالتأثير المباشر إلى حد التفحم، يموت نتيجة الخلخلة الفراغية اللاحقة التي تمزق الرئتين، وذلك في حالة نجاح القنبلة في تأدية مهمتها. أما لو فشل التفجير، وهو ما يحدث كثيرًا لحداثة تقنيتها، تكون النتائج على الضحايا أسوأ، وتتضمن ارتجاجات

fb/mashro3pdf

قويـة، وإصابـات عميقـة وبالغـة في الأعضـاء الداخليـة، وفقـدان مؤكـد للبـصر، وحـروق مـن مختلـف الدرجـات».

ولأن قواعـد الاشـتباك متراخيـة في هـذه العمليـة -كمـا نصـت التعليمـات- لـم يكـن ثـمّ تـصرف أيـسر مـن دحرجـة تلـك الوحـوش الحراريـة الصغـيرة مـن أعتـاب الأبـواب، لضمـان تحييـد أي عنـاصر معاديـة، وتأمـين المـكان بأقـل قـدر مـن الضوضـاء والخسـائر. أحـس الرجـال بسـخونة متقـدة تنبعـث مـن جـدران الغرفـة، وتـكاد أن تلهـب جلودهـم، بالرغـم مـن أزيائهـم الواقيـة. فتـح «المقتحـم» بـاب الغرفـة إلى أقصـاه، ومـال برأسـه مسـتطلعًا الأدخنـة المتصاعـدة بنعومـة في الظلمـة. انتظـر حـتى ضرب زميلـه عـلى كتفـه، فاقتحـم الغرفـة وخلفـه زمـلاؤه بنظـام، الواحـد تلـو الآخـر، كأنهـم آليـات مبرمجـة. الرؤيـة ضبابيـة، والحـرارة لا تُطـاق، لكـن لـم يكـن ثمـة حركـة أو صـوت بالداخـل، سـوى صـوت قرقشـة مباغـت، خـرج مـن أسـفل نعـل أحدهـم، كأنـه وطء كتلـة مـن قـشر البيـض. رفـع الرجـل حـذاءه، وتقهقـر مصوبًـا سـلاحه إلى مصـدر الصـوت. وهنالـك عـلى الأرض اسـتطاع تمييـز جثـة متفحمـة لإنسـان بالـغ في وضـع الانقبـاض الحـراري، بسـاق مرفوعـة لأعـلى، ورأس مُنكبّـة لوجههـا.

وتلـك كانـت مقدمـة لإحصـاء عـدة جثـث متفحمـة مختلفـة الأحجـام، إلى أن سـمع المقاتلـون صوتًـا آخـر. لـم يكـن صـوت قرقشـة أو نشنشـة، بـل أنينًـا مكبوتًـا متوجعًـا، خشـنًا عسـيرًا في الزفـير والشـهيق، أقـرب إلى صريـر الفـئران منـه إلى أنـين بـني آدم. ثـم رؤوا صـورة ظليـة لجسـم صغـير يحـرك قدميـه باتئـاد وتمهـل كالسـكران، ويتخبـط في طبقـات الدخـان تخبـط العميـان في طبقـات الظلمـة. لـم يعرفـوا تحديـدًا إن كان صبيًـا أو صبيـة؛ لأن النـار محشـت جلـده وأذابـت دهنـه وأتلفـت وجهـه، بـل وفحمـت بعضًـا مـن عضلاتـه وكشـفت مـا دونهـا مـن عظـام. لـم يكـن أنينـه نابعًـا مـن ألـم الحريـق؛ لأن الأعصـاب الجلديـة كانـت قـد دُمـرت بالكامـل، وإلا فـإن الأنـين لا يكفـي، بـل صيـاح وصريـخ واسـتغاثة بـلا أمـل. نبـع الألـم المحسـوس مـن مشـقة المـشي، بسـبب تهتـك العضـلات وتفسـخها، وانعـدام الرؤيـة.

لـم يخـطُ الجسـد الصغـير أكـثر مـن عـدة خطـوات متثاقلـة، حـتى تهاطلـت عليـه الطلقـات الصامتـة مـن بنـادق الرجـال الهجوميـة مـن زوايـا متقاربـة، فاخترقـت دماغـه وصـدره، وألقتـه أرضًـا كدميـة مـن قمـاش وقطـن. اقـترب أحـد الرجـال مـن الجثـة بخطـوات سريعـة وحـذرة، وجسـها بحذائـه كي يتيقـن مـن الوفـاة، ثـم التفـت إلى بـاقي الجثـث. انتهـى الرجـال مـن تأمـين

fb/mashro3pdf

الغرفة على عجل، ثم انتقلوا إلى غرفة أخرى فأخرى، حتى أتمّوا تأمين معظم الغرف في مدة لا تزيد عن عشر دقائق. إلى الآن تسير الأمور طبقًا للخطة المرسومة، لكن ثمة ملاحظتين مقلقتين، نقلهما جايكوب إلى رجاله كي يلزموا الحيطة: الأولى أنهم لم يقابلوا رجلًا واحدًا حتى الآن. رأوا عدة قطع من السلاح الخفيف هنا وهناك، ملقاة بإهمال أو موضوعة أعلى خزانة ملابس أو مخبأة في صوان، لكن دون رجال. الثانية أن الأبواب الحديدية الفاصلة بين أجنحة البيت لم تكن موصدة. ربما عن إهمال وقلة حرص.

تصاعد القلق في نفس جايكوب، وتناقش مع فريقه باختصار حول هاتين النقطتين عندما التقوا جميعًا في الطابق الثاني، وقدّر بعضهم أن الرجال مجتمعون في مكان ما داخل البيت أو خارجه، للأمر الذي يعني أنهم لم ينجزوا إلى الآن شيئًا، وأن عامل المفاجأة لم يحقق أي فائدة. ثم ختم جايكوب الحوار بأن قال بسخط: «أرسلونا لنحرق بعض النساء والأطفال؟!»، ورد عليه أحد رجاله قائلًا: «إنها فوضى لعينة».

لم يبقَ أمامهم إلا الغرفة الرئيسية في الطابق الثاني، التي تعلق بها رجاؤهم، واحتدمت مخاوفهم. أعطى جايكوب إشارة إلى «الجوست كوبرا» بالخارج، بموجبها ارتفع الطيار إلى موقع محدد، منه يستطيع عزل الغرفة المقصودة عن سائر أنحاء المبنى بالنيران، كإجراء احترازي في حالة ما إن اقتحمت عناصر معادية المجمع السكني من أسفل. دارت الطائرة حول المبنى تبعًا لمخطط تفصيلي عكف عليه الطيار تدريبًا في الأيام الماضية، محافظًا على حركة سريعة قليلة الارتفاع، وواضعًا في الاعتبار عقبات المناطق الحَضَرية الشديدة الخطورة، مثل خطوط الكهرباء والهاتف، وأبراج كوابل الطاقة وأعمدة الإنارة وهوائيات الأسطح، وغيرها مما قد يمنع المناورات الرأسية السريعة.

دقق الطيار النظر إلى الصورة الافتراضية المسقطة أمام عينيه من داخل خوذته، وأحصى اثني عشر ظلًا حراريًا أو أكثر داخل الغرفة المستهدفة، نقلتهم إليه كاميرا الأشعة تحت الحمراء الدقيقة، المثبتة في مقدمة الطائرة.

نقل تلك المعلومة إلى الرجال داخل المجمع السكني قائلًا:

- من «جولييت ٥-١» إلى فريق «ألفا» وفريق «برافو».. تم رصد اثني عشر رجلًا في غرفة المكتب الرئيسية. أكرر، تم رصد اثني عشر رجلًا في غرفة المكتب الرئيسية.

قالها ونقل الرؤية إلى خوذات المقاتلين بالداخل، فرأوها كما رآها هو بمنظور عين

fb/mashro3pdf

الطائر من كاميرا الطائرة. أمعن الرجال النظر في الصور المتحركة المسقطة أمام أعينهم، وعندما بدل الطيار نسق الرؤية وخلفيتها وألوانها لإيضاح الصورة، وضحت الأسلحة على أكتاف من بالداخل.

لم يكن المقاتلون في حاجة إلى سماع تنبيه الطيار إذ يقول:

- من «جوليت ٥-١» إلى فريق «ألفا» وفريق «برافو».. أستطيع تمييز أسلحة هجومية. أكرر، أستطيع تمييز أسلحة هجومية مع شاغلي الغرفة.

اقترب الرجال من باب الغرفة بسرعة وهدوء، وقد أيقنوا بما لا يدع مجالًا للشك أن دخول هذه الغرفة سيختلف عما عداها من غرف البيت. التعليمات المشددة تمنعهم من إلقاء قنبلة حرارية لتطهيرها؛ إذ سيتعذر عليهم آنئذ تمييز الجثث والتثبت من مقتل المستهدفين. تمثلت لهم سمعة أبي زكريا ومن حوله شبحًا مخيفًا يحمل نذر الموت الوشيك. يتحتم عليهم استعمال نيران سريعة ودقيقة للقضاء على التهديد الذي ينتظرهم بالداخل.

استعملوا علامات تعريفية بسيطة وواضحة كي يأخذ كل منهم موقعه حول الباب الفولاذي الثقيل. تكأكؤوا عند نقطة الدخول الخطيرة، بأسلحتهم في أوضاع عالية ومنخفضة لتغطية كل المجالات الممكنة، مع مراعاة عدم التصويب على بعضهم بعض.

*****

fb/mashro3pdf

بالأشعة تحت الحمراء، لم يكن مخططه الحراري أكثر من ظل برتقالي مخيف، توهج فيه وجهه كجمرة متقدة، أو كمنحوتة من معدن ملتهب. لكن علامات وجهه الحقيقية وأوصافه اختلفوا تمام الاختلاف عما بدا لأعين المقتحمين في خوذاتهم. مرت عليه ثلاثة عقود قضاها جميعًا في الدعوة إلى دين الله، ثم عقد كامل قاد فيه المقاومة. وكما تركت الأعوام الثلاثون الدعوية أثرها البليغ على قسماته، تركت الأعوام العشرة الأخيرة أثرها الفادح على هيئته ووجهه ولونه.

إنه اليوم شيخ جاوز الخامسة والستين. ظهرت عليه دلائل السأم والانقطاع، وعلامات رذالة العمر، فكأنه خلق من ضعف وهشاشة. هزل بدنه، وابيضّ اليسير المتبقي من شعر رأسه، وكل لحيته. أما وجهه، فغادرته إشراقة الحيوية، وحلت محلها غشاوة العجز وهوان المرض.

هو الشيخ العليم، والبحر الزاخر. السيل الهادر، والنور الزاهر. القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، إمام العصر بلا مدافعة، الشيخ أبو زكريا عبد القادر بن عواد.

تدلت يده اليسرى وسرت فيها رجفة رعاشية منتظمة، كمن يعاني ضمورًا في العضلات واضطرابًا في النظام الحركي. أرهقته أعراض شتى صاحبت كِبَر السن، مثل صعوبة الابتلاع والمضغ، والإمساك والمشكلات البولية، وتقطع النوم وآلام العضلات وصعوبة الحركة. ومع هذه الأعراض العسيرة، لم ينجذب اهتمام الشيخ قدر حبة إلى صلاح جسده، بل دومًا إلى صفاء روحه التي بين جنبيه، والتي هي مادة حياته. أما ما دون ذلك، فمنحة من الله وليس محنة، وقضاء سلم به تسليمًا، واعتبر ما فيه من الفوائد العظيمة، مثل اختبار الإيمان، واحتساب الأجر، وتحصيل درجة الصابرين.

بين يدي الشيخ تفرقت أوراق تقرير مؤرق، كان قد وُضع على مكتبه منذ عدة ساعات، بناءً على طلبه. امتُحِنت جبهة المقاومة الإسلامية في الآونة الأخيرة بحلقات متتالية من المصائب، ولدت معطيات جديدة في ساحة الصراع، ومشكلات داخلية، لم تكن منتظرة، ولا خطرت على قلب الشيخ ولا مستشاريه ووزرائه المقربين. وقد جاءه التقرير بما يكره. حديث طويل عن تغييرات حتمية، لا بد أن تجري في هيكلية التنظيم، بخاصة في الهيئتين

fb/mashro3pdf

الشرعيـة والعسـكرية ومجلـس الشـورى. زيـادة عـلى ذلـك، سـمى التقريـر جميـع مسـاعدي الشيخ الكبـار، وأوصى بعـزل مـن بقـي منهـم حيًـا بعـد الضربـات القاصمـة الأخـيرة، الـتي مُـني بهـا التنظيـم، وأوصى كذلـك بإيقـاف اسـتقبال المجنديـن الجـدد، سـواء كانـوا مـن المصريـين المقيمـين، أو مـن مهاجـري العـرب والعجـم، ولـو جـاؤوا مـن قِبَـل دوائـر الثقـة ووكلاء التجنيـد المتـكل عليهـم، وذلـك بعـد أن اسـتفحل خطـر الاخـتراق الاسـتخباراتي. أفـرد التقريـر فقرتـين للتحـدث كذلـك عـن حتميـة التخلـص مـن جميـع المجنديـن الجـدد، الذيـن يفتقـرون إلى خـبرة حمـل السـلاح والمواجهـات؛ لأن القاهـرة في ظـل العمليـات الجاريـة عـلى الأرض حاليًـا، والمواجهـات المسـتمرة والهزائـم المتتاليـة أمـام الاحتـلال الأمريـكي، ليسـت سـاحة تدريـب، إنمـا سـاحة قتـال.

بـدا وكأن الشـيخ قـد فـرغ للتـو مـن قـراءة التقريـر؛ لأنـه لـم يكـن ينظـر في تلـك اللحظـة إلى شيء معـين. تعلّـق بـصره بالنافـذة، وبالسـماء القاتمـة مـن خلفهـا، كمـن ينتظـر أمـرًا حتميًـا، مجهـول الميقـات. ثـم إنـه، عـلى غـير عادتـه، جلـس مسـتكينًا. ليـس اسـتكانة الأعضـاء فحسـب، بـل كأن روحـه خضعـت وذلـت. شردت نظـرة عينيـه، وعمـق تنفسـه وثقـل، واعـترت وجهـه ولحيتـه رجفـة واضطـراب، إذ يلهـج لسـانه بذكـر أو تـلاوة، بمثابـرة وسلاسـة المواظـب المـداوم. أمـا مقلتـاه، فهـل حـلّ بهمـا مـا يشـبه الغمامـة، أم هـي كسـوة لامعـة مـن الدمـع؟ يصعـب القطـع في المسـألة، في هـذه الإضـاءة الخافتـة، لكـن جلسـة الشـيخ عمومًـا، مـع الظلمـة الغاشـية وسـيادة السـكون، كونـت تصـورًا صامتًـا لصـورة الاسـتضعاف، أو المـوت الوشـيك.

تقتـضي الأمانـة القـول بـأن سـتة ممـن امتـلأت بهـم غرفـة المكتـب في هـذه الليلـة العصيبـة التزمـوا أدب المثـول بـين يـدي الشـيخ، فخفضـوا أطرافهـم بتبجيـل وإعظـام، ولـم يتسرعـوا في الأشـياء، بـل كانـوا تبعًـا لـه في جميـع الأمـور. شـاب أهـوج واحـد، لـم يلـتزم بمـا الـتزم بـه الكبـار السـتة. احتـدم هـؤلاء الكبـار مـن سـوء معاملـة الشـاب لهـم، واشـتد حنقهـم مـن جرأتـه عـلى الشـيخ، لكـن لـم يبـدُ عـلى الشـيخ نفسـه أي اكـتراث. بـل لعـل مـا ظهـر عليـه مـن دلائـل الـشرود والسـأم، ضاعـف مـن جهالـة هـذا الشـاب وغيظـه.

أمـام مكتـب الشـيخ جلـس كهـلان ملتحيـان نحيفـان، حسـنا الصـورة مهذبـا الهيئـة. الأول هـو حمـدي هاشـم، رئيـس اللجنـة القضائيـة، الـتي تتـولى شـؤون القضـاء والإفتـاء وإصـدار

fb/mashro3pdf

قـرارات الإعـدام لـلأسرى والرهائـن، وإيقـاع العقوبـات الداخليـة الانضباطية لعنـاصر التنظيم. الثـاني هـو فـؤاد طايـل، رئيـس اللجنـة السياسـية والعلاقـات الخارجيـة، الـتي تتـولى دراسـة مقترحـات السياسـات العامـة، والإشراف عـلى إنفـاق المسـاعدات الخارجيـة وتمويـل مبيعـات الأسـلحة والتجنيـد. احتـل صـدر الغرفـة أربعـة رجـال آخـرون، اثنـان منهـم جلسـا عـلى أريكـة متهالكـة، بوجهـين مقطبـين وأصابـع متوتـرة. تـراوح عمراهمـا بـين الخمسـين والسـتين، ولـم يختلفـا في حسـن الهنـدام وحشـمة الصـورة عـن سـائر الحضـور. الأول هـو محمـد مهـدي، قائـد كتيبـة «الفرقـان» المتمركـزة في جنـوب القاهـرة، والآخـر ذو الـذراع الواحـدة، هـو عبـد الله الأمـين، عضـو مجلـس شـورى الجماعـة، ورئيـس حـزب «التحريـر» المحظـور، الـذراع السياسـية للجبهـة.

في دائـرة صغـيرة دار معـتز عبـد الإلـه، القائـم بأعمـال رئيـس اللجنـة العسـكرية، معـبرًا عـن حنقـه مـن المهزلـة الحاصلـة حواليـه، ولـم تفـارق أصابعـه بندقيتـه الآليـة، ولـم تفـارق عينـه الوحيـدة المبـصرة وجـه الشـاب الغاضـب أمامـه. أمـا السـادس فجلـس بيبوسـة عـلى كرسـيه المتحـرك. هـو محمـود ونيـس، رئيـس اللجنـة الطبيـة، ومسـؤول فـرع التخطيـط والدراسـات العسـكرية في الوقـت ذاتـه. أسـند ذقنـه إلى قبضتيـه المضمومتـين، وخفـض عينيـه ناظـرًا إلى موضـع بـتر سـاقيه أعـلى الركـب بقليـل. نظرتـه سـارحة، وخواطـره هائمـة، وصـبره متسـكع عـلى وشـك النفـاد، ووجهـه مكفهـر عَبـوس، ولسـان حالـه يـكاد أن يقـول: «فـلا تذهـب نفسـك عليهـم حـسرات».

امتـلأت بـاقي مسـاحة الغرفـة بشـباب مـن مختلـف الأعمـار، بـين الخامسـة عـشر والخامسـة والعشريـن، وقفـوا جميعًـا بمحـاذاة الجـدران، وتنقلـت أعينهـم بقلـق بـين الحضـور مـن الكبـار. اكتملـت قوتهـم، واسـتقامت أبدانهـم، ووشـت قسـماتهم بالنشـاط وعلـو الهمـة، وبالثقـة الزائـدة الملازمـة للفتـاء والحداثـة، فكأنهـم أشـبال ضاريـة. توتـرت أعصابهـم مـع الجـدل الدائـر، واشـتدت أصابعهـم في القبـض عـلى بنادقهـم الهجوميـة الروسـية الحديثـة. صـار حمـل السـلاح عـادة ملازمـة لـكل رجـل منهـم منـذ لبونـة أسـنانه، وصـار السـلاح أقـرب إلى قلـب أحدهـم مـن أمـه وأبيـه، وأسـهل في الاسـتعمال مـن بنطالـه ونعلـه.

مـلأ الغيـظ نفوسـهم إذ يـرون هـذا الشـاب الثائـر، الـذي هـو في حداثـة سـنهم وسـفاهة أحلامهـم، يتطـاول عـلى أسـيادهم مـن الشـيوخ الكبـار كأنـه منهـم، أو أجـلّ شـأنًا. وكان

fb/mashro3pdf

لحظتها يقطع الطريق على حركة الشيخ معتز عبد الإله الدائرية العصبية، ويقول بصوت جهوري غليظ:

- إنت بتجري مني ليه يا شيخ معتز؟

- عشان لو وقفتلك، هناولك كف، يضيع بصرك.

قالها معتز بوجه أعور صلب، تزاحمت عليه ندوب الحروق الانكماشية الخشنة، فكأنه ينفث من فمه حريقًا. يعرف القاصي والداني أن غضب الشيخ معتز لا ترياق منه إن خرج عن السيطرة. وهي خصلة لا يفخر بها الرجل، بل يعتبرها داءً عضالًا يدفعه أحيانًا إلى الزلل في القول والعمل. نعم، حرص على التوبة والاستكثار من الطاعات ومعالجة ما يقع منه من خلل، حتى صارت الحرب بينه وبين سوء طباعه سجالًا. بل إنه لما كثرت عليه ديونه وزادت أعذاره، داوم على الرقية الشرعية آملًا في أن تقيله من عثرته، لكن ما رآه وسمعه اليوم من سوء الأدب وقلة الحياء والاجتراء على القبائح لا سبيل لاحتماله أو الصبر عليه. ومع هذا جاهد نفسه وآثر كظم غيظه قدر المستطاع، وإلا لأطبق يديه على عنق هذا الغلام الطائش أمامه، ولم يتركه إلا وقد انخرس لسانه أو خرجت روحه.

لكن سمعة الشيخ معتز لم تكن ذات جدوى عند هذا «الغلام الطائش»، وبالتالي لم تؤثر فيه نظرات الشيخ الجاحظة، ولا الرذاذ المندفع من بين شفتيه. لأن يُعرف عن الشيخ معتز أنه شرس غضوب، فهذا الشاب أفظ وأغلظ. لذا رد عليه بجرأة ووحشية:

- متمثلش عليّ يا عم الشيخ.. قسمًا بربك، إيدك لو اتمدت علي، هتوحشك.

رمقه الحضور جميعًا بإنكار ودهشة، بمن فيهم الشيخ معتز ذاته، الذي سبقت دهشته غضبه. نعم، إن تلقي الإهانة من الأنداد مدعاة للغضب، أما تلقيها ممن هم أدنى وأصغر، فتلك القارعة الخارجة عن حد التصور أو حسن التصرف. غير أن هذا الفتى لم يكن ممن ترهبهم الكلمة أو يساقون سَوْق البقر. إنه عمّار، ابن الشيخ الشهيد صفوت عبد الماجد، رئيس مجلس شورى الجماعة، ونائب رئيس العمليات. هو نسخة أصغر سنًا وأكبر حجمًا وأثقل وزنًا من أبيه الراحل. شاب طويل جسيم، في الثامنة والعشرين من عمره، ليس في وجهه جمال، بل غلظة في الملامح وحدة في الزوايا، وتوافق في التقاطيع مع هذا.

زيّنت وجهه العريض عينان صغيرتان براقتان، فيهما كبر وعجرفة وثقة زائدة في

fb/mashro3pdf

النفس. عينان تصبوان إلى السيادة والهيمنة، وتضفيان على سائر وجوده طابعًا هجوميًا خطيرًا. لم ينجح قميصه المزركش الفضفاض ولا سرواله الجينز المُقصر في ستر قوته البدنية الهائلة. يستطيع الناظر أن يميز بسهولة من وراء كسوته حِزمًا ملفوفة من العضلات المدمجة، كالحبال المحكمة الفتل. تناسقت أطرافه الراسخة مع رأسه الكبير وعنقه المكتنز، وانتظمت سائر أعضائه بعضها إلى بعض كمدماك مصفوف. ثم إن طوله السامق وعرضه البيّن تحالفا مع صوته الأجش، وخلّفا لدى الحضور انطباعًا بقوة النفوذ واشتداد القسوة. غير أن لحيته المرسلة وعلامة الصلاة في جبهته خففتا من طابع البلطجة الغالب عليه، وألقتا عليه نوعًا من حسن السمت.

لذا، عندما ثبّت قدميه وباعد ما بين ساقيه، ونطق بالتهديد التالي: «إيدك لو اتمدت عليّ هتوحشك»، كان يعني كل حرف فيه. عندها تكلم الشيخ مهدي، وقال ساخطًا:

- ما تحترم نفسك شوية يا ابني. إحنا صابرين عليك، حبًا وكرامة لأبوك، لكن لكل شيء حدود. كلنا خسرنا أهالينا. ده مش مبرر للتطاول وقلة الأدب. أبوك قُتِل زيه زي آلاف غيره، ومقتله مصيبة علينا كلنا، ونحسبه عند الله...

- إنت رجل صاحب موهبة وعزيمة. أنا بقى إيماني ضعيف، وقلبي متعلق بزهرة الحياة الدنيا.

قالها عمار بصوت غليظ تردد في جوفه، فخرج من بين شفتيه كأنه زمجرة، ثم أتبعها بأخرى إذ يقول:

- للي ميعرفش منكم يا أفاضل.. الشيخ صفوت كان لسه داخل بيته، عشان يشوف أهله، بعد غياب أسبوعين تلاتة. توّ ما غيّر هدومه، نزل عليهم صاروخ من فوق. البيت كان فيه أمي وإخواتي البنات وولادهم، ومراتي وولادي، ودول كلهم راحوا فطيس. اللي شفته كان في فيديو خده واحد من أهل الشارع على تليفونه. حاجة كده نازلة خطف من السما، وفرقعة ودخان، وجسم بني آدم بيترمي من البلكونة للشارع. بعد دقايق الأهالي اتلمّوا عشان يطفوا الحريق، لقوا أبويا وسط كوم زبالة من غير رجلين. قالولي إنه كان حي، بس منطقش. ولاد الحلال حاولوا ينقلوه عشان يعملوا أي حاجة.. بس ده من حلاوة روحهم؛ لأن مفيش حاجة كانت ممكن تتعمل. وعمومًا الفِرَق وصلت بعدها بدقايق، وفضّوا الخلق. خدوا عينات دم وصوروا جثة الوالد وموقع القصف ومشيوا. كتر

fb/mashro3pdf

خيرهم والله! سابوا الجثة زي ما هي في الزبالة. لو كانوا خدوها كان زماني معكوك دلوقت في محاولة الوصول للجثة ودفنها.

وضرب كفًا بكف، وقال ضاحكًا:

- أنا أساسًا مكنتش أعرف أسعى في موضوع الدفنة، ولا حضرت الجنازة ولا غسّلت أهلي. أصلي مطلوب زي زيكم، وعشان أنا أعبأ بالدماء، ودمي أنا على وجه الخصوص، خشعت وانبطيت تحت الأرض، وقلت في بالي: «الحي أبقى من الميت»! قاتلنا الله جميعًا! عمومًا الحمد لله، أهل الخير اتصرفوا في موضوع الدفن، وأنا تابعت كده من بعيد لبعيد، من خلال كام وسيط، ودي كانت مخاطرة في حد ذاتها، بس ده كان أضعف الإيمان.

أنهى فقرته وسكت عن الكلام، فخيّم الصمت على الغرفة. لم يكن هناك ما يقال. انسدت الحلوق بالغصة، وتجرعت الأفئدة من الغم، لكن لم يبدُ على عمار ما يشبه الحزن أو التأثر. دارت عيناه في الحضور بما يشبه الفرح بالبلوى، وقال:

- عمومًا يا مشايخ، أنا مش جاي هنا عشان أبكي على اللبن المسكوب. أنا هنا عشان الدين النصيحة، وأنا نصيحتي لكم، إننا نقفل الدكانة ونروّح بيوتنا.

شددوا جميعًا النظر إلى الشاب بدهشة، وعَبَّر الشيخ حمدي عن خواطر الحاضرين بسؤال مستنكر:

- نروح بيوتنا؟!

أجابه الشاب قائلًا بجدية:

- كلامي مش هيعجب، وأنا عارف. إنتم الجهاد تحول بالنسبة لكم لأسلوب حياة، أو سبوبة تعتاشوا منها. يعني من غيرها الحياة تكون مجوّفة وبلا هدف، زي الحياة من غير مشاكل. جاثوم سخيف يكبس على الأوقات الفارغة والحيوات الفارغة والأفهام الفارغة.

وشبك أصابعه خلف ظهره موضحًا وجهة نظره، والشيوخ يتبعونه أبصارهم كأنهم ينظرون إلى مجنون:

- إحنا حاليًا مكروهين من الكل، وغالبية خلق الله ضدنا. أنا انضميت لشريحة من العوام بقت تعتبرنا مثال للظلامية والهمجية. بسمع بيتقال علينا إيه في الأسواق والشوارع. أنا عايز أنقلكم بأمانة الناس مشحونة إزاي ضدنا.

fb/mashro3pdf

وأشار إليهم بسبابته قائلًا:

- «لازم نعترف، أحبتي في الله، إن المقاومة الإسلامية تمر بأزمة عصيبة. تظالُم وتقاتُل وقطيعة وتنابُذ، واختلاف وافتراق عن خصام وعداوة». أبويا كان بيقولي كده بالحرف كل ما أقابله. بس هو مسكين. فضل مُخْلِص للفكرة، إلى أن أهلكته.

واستمر في الحديث غير عابئ بفحوى ما يقوله أو الهدف منه، وقد انتهت به حركته إلى الجلوس هادئًا على كرسي قصيّ في زاوية الغرفة. لم يبدُ عليه أي غضب، بل جاء حديثه مسترسلًا سلسًا، ضرب فيه الأمثلة وقشر الجروح المتورمة، وساق حُججًا بعضها حقائق وبعضها الآخر مجرد فخفخة في القول وتهافت على نبش العيوب. كل هذا بوجه سمح ومحيا طيب وجأش متزن. هذا ما بدا منه على السطح، لكن ما خفي كان أعظم. غلب المقت والقهر على قلبه واستوليا عليه استيلاءً لم يستطع معه ضبط أفكاره أو توجيه تصوراته، بل صار كالمُرغم على أمر لا يدري كنهه. لكنه مع هذا لم يفقد شعوره أو عقله مطلقًا، بدليل سكونه الظاهر، وتوجيهه لطاقاته ببطء وعناية جهة المخاصمة والنزاع ضد من كانوا أحبابه في الماضي.

وكان قد وصل الآن إلى وهدة جديدة من وهاد سوء أدبه في هذا المجلس، عندما قال:

- خلونا نعترف يا فضائل الشيوخ، إن الشيخ أبو زكريا جنح بعيدًا عن حسن سياسة الأمور في الفترة الأخيرة.

ونظر متشفيًا في الوجوه العابسة، التي لا تكاد تصدق أن سيرة الشيخ تجري على الألسنة الآن بانتقاص واستعياء وهم صامتون. لكن عمّار عزم الليلة على «تحطيم أصنامهم».. تلك كانت الخاطرة الرئيسية، التي ومضت في دماغه بنسق تلقيني مستمر ومتكرر في الساعات الماضية.

وأردف قائلًا باستهانة:

- الشيخ مش مقدس، وبيغلط، ولو على سلوكه مآخذ لا بد أن ننتقده، ونقوّمه لو لزم الأمر. الأخطاء تتابعت، ونتج عنها إراقة دم غزير. أهم كوادر الجماعة، أغلب قيادات الصف الأول، قُتلوا في الأسابيع الأخيرة. ضربة قاصمة، لم يتم رسم أي خطة للمستقبل القريب أو البعيد للوقاية منها أو الحماية من تبعاتها. أنا بتكلم بصراحة.. المفروض مجلس الشورى -إن كان تبقّى منه أحد- يشوف حد تاني. مش ياما وعظتونا بقصة عزل

fb/mashro3pdf

عمر لسعد عن ولاية الكوفة، عشان كلمة طلعت عليه؟ وسعد من العشرة المبشرين بالجنة.

توتر أغلب الحضور إذ يبث الشاب خواطره كيفما اتُّفِق، وأمسك بعضهم عن الانفجار بصعوبة، وإن ظلت وجوههم مسودة كظيمة. لم يرِد أحد منهم أن يكون أول الخارجين عن الطور، كي لا يحدث بلبلة، أو يسمع ما لا يرضيه من هذا المسعور. وحده الشيخ زكريا لم يبدُ عليه الإلمام بما يجري من حوله. ربما لأن أحدًا من الحاضرين لم يدقق النظر إليه، لكن ثمة تغيرًا طفيفًا حل على الوجه المنهك العجوز. زمٌّ خفيف في الفم، والتماعة غير ملاحظة في العين.

على كل حال، كان الجميع في شغل عنه إذ ينصتون إلى عمار وهو يقول:

- بدون تغيير تكتيك العمل السري، والبدء من الصفر، إحنا مجرد خرفان. قاعدين هنا، لا حول لنا ولا قوة، في انتظار الذبح. التقديرات المبدئية بتقول إن حركة الاعتقالات والاغتيالات الأخيرة طالت قرب الألف شخص، منهم خمسين من الناس المهمة. أكيد فيه حد منهم هيتكلم تحت الضغط، وفي الحالة دي توقعوا حملة اغتيالات دقيقة تأتي على الجماعة من القواعد. لكن المضحك إننا كلنا هنا، في مكان واحد، الشيخ موجود فيه من سنتين كاملتين، في انتظار قنبلة تنزل علينا من السماء، أو اقتحام أرضي يحصدنا جميعًا.

*****

دقائق طوال لم يصدر فيها عن المقاتلين خارج الغرفة أي صوت. قبعوا خلف الباب كتماثيل من حجارة لا جوف لها. ثبت أحدهم ميكروفونًا دقيقًا على الباب الفولاذي، لنقل الحديث الدائر بالداخل إلى مركز العمليات المشتركة بقاعدة ديكينسون، وغرفة عمليات البيت الأبيض بواشنطن، ومقر المخابرات المركزية بلانجلي، حيث قامت برامج التعرف على الأصوات بتحليل النبرات والطبقات وتسجيلها بذبذبات ترددية، ومقارنتها بما هو مُخزّن في قواعد البيانات.

لم يفهم أي من أعضاء فريق الأمن القومي المجتمعين في غرفة عمليات البيت الأبيض

fb/mashro3pdf

كلمة واحدة من الجدل الدائر في الغرفة، لكنهم جميعًا حدوا البصر بيقظة وتشوق إلى شاشة العرض الرئيسية، التي أظهرت نتائج تحليل البصمات الصوتية. اختلف الموقف في مركز العمليات المشتركة بقاعدة ديكينسون، ففي الوقت الذي عجز أغلب الحضور عن تمييز المعاني، أطرقت إيلينا فيكسلبرج وحسام داوود، وخفضا عينيهما بسكون وتركيز، وأصاخا إلى الحديث كلمة كلمة. دَوَّن اللواء داوود بعض الملاحظات في مفكرته الشخصية، حتى لحظ إيلينا إلى جانبه وهي ترميه بنظرة متسائلة. هز اللواء رأسه يمنة ويسرة، فنقلت إيلينا انطباعها إلى الأدميرال ديتوماس والكابتن أودونيل قائلًا:

- لا أهمية لما يحدث؛ يمكنكم اقتحام الغرفة الآن.

وعندما تلقت عناصر «ديث ستوكرز» أمر الاقتحام، بدؤوا في الحركة فورًا. تقدم «المخترق» وفحص الباب الفولاذي بأصابعه، وقدر أن الاقتحام بإذابة الترباس سينتج عنه توهج سطحي وأبخرة قد تنبّه من بالداخل، لذا عزم على اللجوء إلى خيار الاختراق الأسرع والأكثر فاعلية، وهو المتفجرات. أخرج من حقيبة ظهره شحنات لدائنية سابقة التجهيز، مقطعة ومغلفة، ثم قام بلصق كميات دقيقة منها على نقاط اتصال الباب الضعيفة بالجدار وعند مفصلاته، بما يكفي فقط لخلع الباب، من دون هدم الجدران أو إسقاط السقف فوق الرؤوس.

*****

تسارعت وتيرة النقاش، وتدخل الشيوخ الواحد تلو الآخر مستمدين الشجاعة من اتحادهم ضد الشاب سليط اللسان، الذي لم تثبط عزيمته أو تهن قواه قيد شعرة، بل استمر في هجومه محافظًا على موضع متقدم من الجميع.

وفي تلك اللحظة خرج الشيخ معتز عن البقية الباقية من ثباته، وصاح متغيظًا:

- أقسم بالله إنت متربتش كفاية.

لم يلتفت عمار إلى الإهانة الشخصية، بل قال باستهانة:

- أنا بتاع تخطيط يا عم الشيخ، مش زي العربجية هؤلاء، اللي الشيخ لاممهم حواليه. وبقولك إن العملية اللي إنتم عاملين عليها بُلّيكة فشلت وانتهت. مش قصدي عملية

fb/mashro3pdf

بعينها. قصدي العملية كلها. الـ«operation» بتاعة مهدينا المنتظر أبو زكريا.

بهت الشيخ معتز، ثم تقفعت أصابعه وتقلصت عضلات وجهه واعوجت. عجز عن الرد، فكأن حلقه اختنق برد فعل غاشم امتنع عن الخروج في الوقت المناسب. لكن الشيخ عبد الله صاح صيحة شديدة:

- عربجية؟!

- عذرًا يا شيوخ. مش عربجية بالمعنى المهني؛ لأن العربجي راجل صاحب صنعة، وبيفهم فيها. أقصد إنكم شوية مهاطيل. الاغتيالات الأخيرة أثّرت بشكل مباشر على ترابط الجماعة على الأرض، وأربكت أو شلّت قدراتها التنظيمية. شيخنا أبو زكريا لجأ للحل الأكثر سهولة، وهو تسليم الراية لقيادات الصف الثاني الأقل خبرة، المشكوك في ولائها، والاستمرار في العمل كأن شيئًا لم يكن. إحنا معندناش إحصائيات عامة أو تفصيلية عن الاعتقالات. مش عارفين من قُتِل ومن تم إلقاء القبض عليه، وإيه ممكن تكون تبعات استنطاق المعتقلين.

ثم هبّ واقفًا عن مقعده، وخاطب أبا زكريا مباشرة للمرة الأولى، صائحًا بتحدٍ:

- يا عم الشيخ زكريا.. إنت معانا ولا نمت؟! أنا عايز أقولك إن اللي ماتوا مصيبتهم أهون؛ لأن الأموات لا يتكلمون. الخطر الأكبر مصدره الأحياء. حد يقولي إحنا نعرف إيه عن تامر علوان أو سامح فرج أو فكري عبد الرازق، أو غيرهم. أنا بلغني إن أهاليهم اختفوا باختفائهم. مش ده مؤشر على إن اختفاء الأهل معناه اعتقالهم للضغط على المعتقلين؟ طيب، أنا عايز.. يعني.. ممكن أسأل سؤال؟ والله سؤال مهم جدًا خطر على بالي، الله ألقاه عليّ.. الشيخ عمر فين يا شيخ زكريا؟ ابنك اللي مش من صلبك، اللي اخترته من بين الشباب كلهم، وفضّلته على الشباب كلهم.. راح فين دلوقت؟ من إمتى مختفي؟ طيب ده كم المعلومات اللي يعرفها عمر بالذات، بحكم الموقع اللي إنت حطيته فيه، يكفي للقضاء على التنظيم كله، لو مخدناش خطوات وقائية فورًا.

قالها وسكت عن الكلام، وانتظر. لكن الشيخ لم يتحرك. لم يرفع حتى عينيه إليه. حصر نفسه في طور سكون محير ومريب، أصاب الحضور كافة بالإحباط، وأصاب عمار شخصيًا بخيبة أمل، وبشعور آخر قاهر أقرب إلى الفشل والتدني.

زفرَ عمار، وبانت عليه لأول مرة دلائل التداعي، فكأن الشقوق تدب في نفسه على نحو

fb/mashro3pdf

عميق ومفاجئ. دعك جفنيه واعتصر منبت أنفه بين الحاجبين، وقال بما يشبه الإرهاق والكبت:

- أنا مش عايز أثور أكتر من كده. أنا متضايق.. متضايق بجد.

ثم رمى الشيخ بنظرة ملتهبة، وقال بدمدمة وزفير خشن:

- إنت دخلت في ميدان لست من فرسانه ولا من أهله يا شيخ. أنا بسمع إيه، وبشوف إيه، وبفهم إيه؟ هو إيه ده؟!

وارتفع صوته إذ يهتف بغضب هادر:

- خسئتم كلكم.. ضيعتم المقاومة.. ضيعتم العَرَق والدم وتعب السنين.. الناس شربت المر سنين عشانكم.. استحملوا العرق والضنك والدم.. إنت قاعد هنا يا شيخ، على كرسيك الدوّار المفخفخ، والناس بتموت في الشوارع.. من يوم ما انتقلت لجنة الله في أرضه هنا، وسبت النوم على الحصيرة.. تمرغت في الوفر والكنز والذخر، وتركت البذل.. العيشة الناعمة هتكت عزيمتك.

وضرب كفًا بكف بفرقعة مدوية، وصاح على الحضور ناهرًا، بوجه حل عليه الألم والنكال:

- خلاص، المقاومة انتهت، والقيادات انتهت. كلكم ضيعتم مصر. مفاضلش غير نش شوية الغلابة اللي شايلين سلاحهم، ولسه مصدقين إنك إمام العصر. والحقيقة إنك لست على شيء. كلكم لستم على شيء. إنتم قيادات عليلة. نعال القتلى والمكلومين أفضل من تنظيراتكم وعلمكم العقيم.

عَلا السواد وجه الشيخ معتز، وتقدم من عمار مجترئًا والسلاح في يده، كأنه يهم بضربه. وتلبد جو الغرفة عندما واجهه عمار بغضبة هائلة، كأنه كان ينتظر منه الخطوة الأولى. أما الشباب المسلح، فقد سرى فيهم ما يشبه التيار الكهربائي، لما رؤوا انزلاق الأزمة جهة اللا رجعة.

انقبضت عضلات الشيخ معتز، وانضم جلده بعضه إلى بعض، فقبُح منظره قبحًا كاد أن يكون شنيعًا وهو يصرخ:

- ما دام الأمر وصل للجرأة دي، أنا هربيك.

- شيخ معتز.. الزم مكانك.

fb/mashro3pdf

في ذات اللحظة التي تخطت فيها كتل الصهير درجة الغليان، وتراكم ضغط الانفجار تمهيدًا لثوران أهوج، دوى صوت الشيخ أبي زكريا الجهوري بالأمر القاطع، فكأن خضمًا باردًا صب على النار صبًّا فأخمدها. تجمد الخصمان مكانيهما، وأحجما عن الاشتباك الوشيك، أو حتى التقدم خطوة واحدة تجاه أحدهما الآخر.

التفت الحضور جميعًا إلى الشيخ، الذي أتبع صيحته بهتاف آخر غاضب ارتعدت كلماته من شدة الغضب:

- إذا كنتم هتضربوا بعض، فالأولى تخرجوا من بيتي. أنا لا طاقة لي برؤية مساخر وقلة أدب من رجال في أجسام البغال.

تناقض صوت الشيخ ذو التردد الرادع مع هيئته المتداعية المهمومة، التي صورت لخواطر الحاضرين أنه فقد النطق والعصب. بل إن الشيخ تعمّد إضفاء غلظة مضاعفة على صوته لم يعرفها عليه أحد من قبل، كي يكف تلك الأنفس المشتاقة إلى الصِدّام عن التمادي في الغيّ والطيش. لم ينهض عن كرسيه مع هذا، ولو استطاع لقام، لكن ساقيه في تلك اللحظات كانتا في ثِقَل أكياس الرمل، فكأنهما تجذبان جسده جذبًا إلى الأسفل.

قبض الشيخ عضلات وجهه بمضاء لتأكيد حضوره، وأظهر علامات الانفعال، بل والميل إلى الاعتداء. تألقت عيناه بالحيوية والتحدي وهو يلتفت إلى الشاب الثائر، ويقول في جَلَد:

- الله يرحم والديك يا عمار. اهدى بالله، وقولنا نريّحك إزاي.

- ويرحم والديك إنت كمان. أنا مليش راحة إلا في قبري.

هكذا رد عمار فورًا، ضامًّا كفيه على بطنه الكبير. هنا زفر معتز، وقال مستغيثًا:

- يا شيخنا، الفتنة طمت، حتى تجرأ السفلة على أهل الفضل والديانة. الخيانات كثرت، والنكوص نخر في قلوب أقرب الناس لينا.

قالها معتز قاصدًا عمار بطبيعة الحال، فارتسمت على شفتي عمار بسمة خاملة ساخرة. أما الشيخ، فقد أجاب على استغاثة معتز قائلًا بلا انفعال:

- وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل، فأمكن منهم والله عليم حكيم.

- والناس اللي بتموت كل يوم دي يا شيخ؟!

fb/mashro3pdf

زفر الشيخ زفرة من نفد حلمه، وقال:

- وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء.

- لكن العوام انقلبوا علينا. زمان كنا نواجه قمع النظام والاحتلال، لكن النهارده نواجه الناس. شبابنا يتعرض كل يوم للشتم والضرب في الشوارع من السفهاء والرعاع، والتعاون بين العوام والأجهزة الأمنية وصل مستويات غير مسبوقة. اعتقالات كثيرة بتحصل دلوقت لأن الناس تدل الفِرَق على شبابنا.

- وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة، قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون.

- تضحياتنا ودماؤنا بتروح هدر، والخيانات الداخلية والتخاذل تأكل أصل البيت من الداخل.

هنا لم يحتمل عمار كلمة زائدة، بل ضجّ بضحك سريع متصنع، ثم قال بشراسة:

- لا معلش، الطقطوقة دي تكملوها وقت تاني.

صوّب أبو زكريا إليه نظرة طويلة نافذة. ما زال الشاب ينفث من منخريه الهواء الساخن. نعم، نطقت عيناه بالاستخفاف والازدراء، لكن شدة الانفعال نضحت من كل جارحة من جوارحه، إلى أن قال له الشيخ أخيرًا:

- اسمع يا عمار، وحاول أن تفهم القصد من وراء القول. إحنا منفعناش. الموضوع انتهى.

- يعني إيه الموضوع انتهى؟

- يعني زي ما إنت قلت. عمليتنا انتهت. محاولة إنقاذها أو اتخاذ احتياطات لإنقاذ الباقي المتبقي منها، والبدء من جديد، مجرد تضييع وقت ومجهود بلا طائل.

لم يحرك أي من الحضور لسانه بالاحتجاج أو الممانعة، من دافع الحرج والأدب، لكن الاستنكار من مقالة الشيخ هذه طفا على أعينهم، كما طفا على عيني عمار وغلب على وجهه العابس. لذا هز الشيخ رأسه آسفًا وقال:

- كلامي ليس مبنيًا على الانفعال، وليس مبنيًا على الظن المرجوح، إنما هو مبني على جانب يقيني، وجانب آخر قائم على الظن الراجح، الذي قامت الدلائل على نصره.

- يعني إيه؟ كلمنا عربي نفهمه.

هكذا قال عمار وعيناه تدوران بزيغ، فرد عليه الشيخ بتماسك:

fb/mashro3pdf

- دورنا هنا انتهى. تجربتنا أخذت وقتها المُقدّر لها، ومرت بما لها وما عليها، وآن أوان استبدالنا. وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم. ده اللي إنت قلته في بداية الغارة اللي شنتها عليّ، وأنا أوافقك عليه. إحنا جيل عاصر الاحتلال من أول يوم، ورأينا من الأهوال ما لا يخطر على قلب بشر، ورأينا من بلاء الله ولطفه ما تخرّ له الجبال، والحمد لله تبارك وتعالى، فقدنا كل شيء، ولما ظننا أننا فقدنا كل شيء، فقدنا أكثر وأكثر. خلاص، تقدر تقول إننا تعبنا. قول إننا أصبحنا نستثقل تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة، وإن عزائمنا وهنت دونه، لو إن ده يريحك.

وصمت لحظة مرطبًا شفتيه بلسانه، ثم زفر زفرة ألم كالمتنهد عن كبد حرّى، وواصل كلامه قائلًا بهدوء شامل:

- عايز تقول إننا رغبنا في السِلْم والمهادنة، كي نستريح من مشقة الحرب، لا مانع. البركة فيك إنت يا بني، رضي الله عنك، وبارك فيك، وعلًّا كعبك، وكَثَّر ثوابك. استِلِم التركة كلها، لو شايف في نفسك قدرة، ولك الأجر. أنا عن نفسي، متقبل لقضاء الله النافذ في الاستبدال.

خيّم على الغرفة وجوم وسكون، بعد أن أنهى الشيخ عبارته. حتى عمار، أحس بجسده يرتعد. نعم، إنها مقالته من بداية الغارة على الشيخ، لكنها مقالة من أعماه غضبه عن تمييز الحقائق. بمقتضى مصيبته في أهله أعطى لنفسه الحق في شن هجوم غشوم على الشيوخ بلا حرج، وإخراج ما في صدره من حرقة وألم، لكنه في قرارة نفسه كان مطمئنًا لوجود ولي أمر قادر على ردعه، وانتشاله من شِبّاك أزمته في آخر المطاف، مهما تمادى في طيشه. لكن أن يسقط الحاجز المنيع والركن المتين الذي يأوون إليه جميعًا، فهذا ما لا يعقل ولا يحتمل. الشيخ الجبل، ومفتي الأمة، والمصباح الزاهر في الظلمة، ينزل عن الإمامة، ويهرط في الكلام عن تَركه الجهاد واعتزاله الأمر كله؟ إن هذا هو المحال. والله الذي خلق السماء بغير عمد، إن هذا هو المحال. نعم، شن على الشيخ الغارة، لكنه توقع أو أراد أن يعارضه الشيخ بضراوة، وأن يلزمه حدوده، وأن يضعه في مقامه الحق. نعم، شن على الشيخ الغارة، لكنه توقع، أو أراد من صميم فؤاده، أن يُسكته الشيخ، ثم أن يُفهِمه أن الحرب لم تنتهِ بعد، فالموتى يذهبون، لكن الجهاد باقٍ. نعم، شن على الشيخ الغارة، لكنه توقع أو أراد أن يزجره الشيخ زجرًا، بل أن يطرده من

fb/mashro3pdf

مجلسه صائحًا به مُحتَقِرًا، ثم أن يدعوه بعد أن تسكن نفسه ليطيّب خاطره، ويناغيه بكلام يوافقه، ويواسيه في مصيبته بما يصبره ويحمله على الرضا، إلى أن تهدأ حرارة مصابه وتخمد نار قلبه. كان الشيخ خليقًا بهذا الفعل، وهو من هو في العلم والمكانة، كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس. أمّا وقد أفلت الشيخ من هذا الفضل، ولم يقم بتكاليف هذه المكانة.. أمّا وقد فعل ذلك.. فكيف تكون الدنيا؟! لأي شيء يبقى فيها إذن؟ بل لأي شيء يبقى فيها أي أحد؟ إن هذا لهو الشؤم وسوء العاقبة.. بل هي الداهية الكبرى والمصيبة العظمى.

اعترى عمار شيء من الذهول، فوقف بأطراف متدلية وملامح متهدلة. حيرة شديدة ودهش سحيق وتبدد في الفكر غريب. لم يتهيأ عقله للتكيف مع هذه الملابسات الطارئة، الأشد في وقعها وطأة من مقتل الأهل. لم يعد فقد الأهل بالأمر الغريب، بل إن الموت أصبح وأمسى طيرًا جارحًا كثير الزيارة، يخطف بمخالبه من يخطف، ويقلع فيدور دورة وجيزة في السماء، ثم يعود فينقضّ مرة أخرى. لكن المقاومة وشيخها هما الحقيقة الوحيدة التي لا تتغير، والثابت في المعادلة الذي لا يتبدل. المقاومة أسلوب الحياة، وهدف الحياة، والمقوّم الرئيسي للحياة، كل في آن واحد. إن نُقضت المقاومة أو انتفى دوامها، نُقض أصل الحياة وانتهى وجودها. تبعات الموقف أكبر من أن يستطيع التركيز فيها الآن، وأفدح أثرًا من أن تُستساغ. لذا عزم عمار على ألا يقبل أي شيء من هذا الهراء، وأن يرميه وراء ظهره جملة وتفصيلًا، ثم أن يعود روحًا وجسدًا إلى حصنه الحصين وملاذه الأمين، ألا وهو الغضب ورفض الواقع.

وهكذا هز رأسه بجِد وتصميم، وقال بلهجة هجومية عنيفة:

- يعني فضيلتك هتعتزل الناس، وتتولى عن الجهاد، وتتثاقل عن النفير؟ ثم تؤلف الكتب مثلًا؟! أو تنكح النساء لتكثير سواد المسلمين، تأهبًا بقى للمعركة القادمة، اللي هتنعقد رايتها على القوم اللي هم «ليسوا أمثالنا»؟ أما إحنا، ففي شدة الحر وحمارة القيظ، نشوفلنا مكان رطب ظليل نركن فيه، ونميل إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار.. ناكل عيش يعني.. فهمتك صح أنا كده؟

رد عليه الشيخ بصبر:

- النذارة وتحقق بيان الاستغناء، لا يكونا باعتزال الدنيا يا عمار، ولا بالعيش في دعة

fb/mashro3pdf

وخفض وطيب الثمار. التبديل يكون بالاستئصال.

أُخِذَ عمار بتلك المقالة الجديدة، وتساءل بتلقائية:

- تقصد إيه استئصال؟

قال الشيخ بتسليم وبساطة:

- أقصد إن عملية استئصالنا -في ظني الراجح- قائمة على قدم وساق، ونحن اللقمة السائغة المنتظرة. أرجو منكم جميعًا ألا تأمنوا كثيرًا، وألا يستمر إهمالكم طويلًا. أنا أرى إهمالًا جسيمًا، وأرى ارتدادًا عن الأخلاق الحميدة، ولم يبقَ لنا في هذه الدنيا الكثير. هذا ما ألقاه الله في قلبي، وما أراه في منامي.

انعقدت على رؤوس القوم غمامات ركامية قاتمة، تألفت وتجمعت بعضها إلى بعض لتنذر بعاصفة رعدية مدمرة. حالة من الفزع البرزخي أطبقت على الحضور، وأحاطت بكل عرق وعضو ومفصل وشعرة منهم. بقطع النظر عن أي مثلبة قد ينقم بها الناقمون من الشيخ أبي زكريا، لا يختلف اثنان على صدقه وصلاحه وتقواه، والأهم، سداد رؤاه. لا يعرف القريبون من الشيخ رؤيا رآها في منامه إلا وتحققت كما هي على صفة ما رآها في المنام، كأنها وحي النبوة في صدق مدلولها. وبطبيعة الحال، دأب الشيخ على الحديث برؤاه الطيبة لمن يحب، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يصل الناس منه إلا كل خير وبركة. أما وقد ألقى إليهم الآن برؤيا جديدة، تُنذِر بـ«استئصالهم» الوشيك، وكأن فناءهم من الأمور الطيبة المستحب إبلاغ الخلق بها، فذاك هو العجب العجاب.

فتح الشيخ فؤاد فمه لأول مرة في المجلس، وقال بصوت باهت ووجه دخلت عليه الدكانة والكآبة، كأنه اختلط بالرماد:

- يا شيخنا، استعذ بالله من الشيطان. ما تقوله إفزاع من الشيطان، وليس رؤيا. إنما النجوى من الشيطان، ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله. وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثًا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه».

نظر الشيخ إلى بشرة الشيخ فؤاد المتغيرة اللون، وإلى جسمه المهزول من أثر المرض والغم، وقال له مشفقًا:

fb/mashro3pdf

- من قال إنها رؤيا مكروهة؟ يا شيخ فؤاد، كبرت سني، وضعفت قوتي، وخُفت من التقصير، وإني دعوت الله أن يقبضني إليه، وأن يمن عليّ بالشهادة في بلد رسول الله. وقد جاءتني البشارة المشرقة في المنام بالشهادة، لكن في غير بلد النبي صلى الله عليه وسلم. وأنا رضيت بقضاء الله وقدره، وحمدته على فضله ومنّته. يمكن البشارة تأخرت بعض الوقت. ربما لأني لم أخلص النية. الله أعلم. لكن أمر الله نافذ، اليوم أو غدًا، أو بعد غد. وعد الله لا يخلف الله وعده.

بخلاف رائحة القِدَم المتضوعة في كل ركن في الغرفة، فاحت رائحة أخرى خانقة، غطت كل الأشياء، وعلقت بالأنوف ولزقت بأطراف الأصابع. تالله إنها رائحة الموت. لم يُشعَر لها أثر في المراكز الحسية بالتجاويف الأنفية، بل في القلوب والبطون.

علت الصدمة وجه عمار، وأحس بقوته وجبروته يتبددان ويتفرقان كالهشيم. تضامت قسمات وجهه وهو ينظر إلى الوجوه الضائعة بحيرة أو ذهول. إن ما يقوله أبو زكريا هو الخطل بعينه. منطق فاسد وزلل عظيم رَكِبا الرجل العجوز، ودفعاه إلى التفوّه بحماقات مضطربة وسفاهات لا مثيل لها. وإن لم تصده نفسه عن الوقوع في الخطأ وإفساد الهمم والآراء، وفتنة الأنفس الصابرة المؤمنة، فلا بد من تقويمه، أو عزله عن منصبه.

تصاعد الغضب في نفس عمار مرة أخرى وتلوّى في جوفه، فإذا به يقول لأبي زكريا بجرأة وفظاظة:

- إنت بتضيعنا كلنا عشان تهويماتك. إرهاصة أخرى من إرهاصات سوء التقدير والتماوت. إنت عشان شايف إننا فشلنا، وعشان عجزت عن إدارة الحرب، هتأمرنا جميعًا نلزم بيوتنا، ونغلق علينا أبوابنا، ونعبد ربنا حتى يأتينا اليقين. واليقين قادم، للمحظوظين منا؟ أما الآخرين، الأمريكان هيجمعوهم كالكلاب الضالة، وتستباح دماؤهم وأعراضهم؟!

وتحرك بعصبية في دوائر وهو يضم أصابعه الغليظة ويبسطها من فرط الغضب، ويواصل صياحه:

- يا شيخ.. إنت تغلف ضعفك بلباس التقوى والتسليم بقدر الله. لكن الحقيقة إنك إنت الضعيف، وإنت الهلوع، وإنت الجزوع. فقدت الجَلَد والقدرة على الاحتمال. قواك خارت أمام التهديد الحالي، وعايزنا كلنا نمشي وراك. عايزنا نولع في نفسنا، ونبقى نموذج

fb/mashro3pdf

جديـد مـن ثقافـة الانتحـار. الحاجـات دي جائـز تشـوفها مـع الطوائـف الكفريـة الشـاذة، لكـن لا تجـوز علينـا.

واعجبًا لهـذا الشـاب في غضبتـه! مـا أن يهـم الحـاضرون بالتعاطـف معـه، أو أخـذ قضيتـه عـلى محمـل الجـد، حـتى يُنفِّرهـم ويفضهـم مـن حولـه بفظاظتـه وسـوء أدبـه. إن مـا يقولـه عـلى الشـيخ لا يطـاق. مهمـا أخطـأ الشـيخ أو زلـت قدمـاه، مـا يقولـه عنـه لا يطـاق. بهـذا وشـت الأعـين الحائـرة، المتنقلـة بغـير تصديـق بـين الشـاب وشـيخه.

كزّ عمار على أسنانه، ووجّه سبابته إلى أبي زكريا بقوة وغيظ، وقال:

- إنـت تلـزم بيتـك كمـا تريـد، لكـن لا طاعـة لـك عـلى أحـد بعـد اليـوم. أنـا بـريء منـك يـا شيخ، وبـريء منكـم جميعًـا إن سـلمتم عقولكـم لهـذا الخطـل. خـلاص فـاض الكيـل. عايـز تحقـن الدمـاء، حـر أنـت، بـس كلمتـك تمشـيها عـلى نفسـك وعـلى أهـل بيتـك، مـش عـلى الشـباب الـلي واقـف مسـتني كلمـة منـك عشـان يمـوت. هـم بيموتـوا في الشـوارع، وإنـت هنـا بتشـوف مشـاكل الفـيران الـلي بتخطـف الكتاكيـت.

وتوجه بالخطاب إلى الحضور كافة، قائلًا وهو يتخبط من شدة الغضب:

- أنـا سـمعت شـيخنا الفاضـل بيكلـم الحريـم في مشـكلة الفـار والفـراخ، ورب الكعبـة سـمعتها بـوداني. مـصر بتخـرب.. مـصر أبناؤهـا يقتلـون كل يـوم، وحرائرهـا يغتصـبن كل يـوم.. حـرام عليكـم اتقـوا اللـه! أعصابنـا تعبـت يـا مراهقـين! أنـا كنـت أظـن إن هيكـون في وعـي.. حـس عـام بالمسـؤولية.. خافـوا ربكـم في مـصر.. كفايـة بقـى، كفايـة.. فليغضـب مـن يغضـب.. وليفهـم مـن يفهـم.. عَـلَيَّ نحـت القـوافي مـن أماكنهـا، وليـس عـليّ ألا يفهـم البقـر!

ثـم طـوف سـبابته بالحضـور جميعًـا، وقـال متوعـدًا مـن بـين أنيابـه وقواطعـه، بعينـين ضيقتـين:

- حاسـبوا أنفسـكم قبـل أن تُحاسـبوا، وزِنـوا أعمالكـم قبـل أن تُـوزَن عليكـم، واعلمـوا أن مَلَـك المـوت قـد تخطانـا إلى غيرنـا، وسـيتخطى غيرنـا إلينـا، فلنتخـذ حذرنـا.. الكيّـس مـن دان نفسـه وعمـل لمـا بعـد المـوت، والعاجـز مـن أتبـع نفسـه هواهـا، وتمـنى عـلى اللـه الأمـاني.. والحمـد للـه رب العالمـين.

قالهـا، ثـم دار عـلى عقبيـه، وقطـع المسـافة الفاصلـة بينـه وبـين بـاب الغرفـة الفـولاذي بخطـوات قويـة وثقيلـة. لـم ينكـر عليـه أحـد المغـادرة، بـل حمـدوا اللـه في سرهـم أن انزاحـت

fb/mashro3pdf

الغمة بانزياحه الوشيك عن المشهد، وتطلعت الأنفس وتهيأت لاغتياله معنويًا بعد خروجه. ومع كل خطوة التقى فيها نعله المطاطي بالأرضية الخشبية، لاحت في الأذهان وتكونت في الخواطر مسودات تمهيدية لما ينبغي عليهم الاحتجاج به لدى الشيخ. نعم، إنهم يعلمون أن الشيخ سينكر عليهم، ولن يسمع لهم، وسيحذرهم من الظن؛ لأن الظن أكذب الحديث، ثم سينهاهم عن التحاسد والتنافس والتباغض والتدابر، ولما ييأس من نصحهم سيغضب، وسيشبههم بأقوام لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم ولحومهم، أولئك الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم. لكنهم لن ينزجروا حتى يطردهم الشيخ من مجلسه؛ لأنه -لله دره- لا يغتاب أحدًا، ولا يدع أحدًا يغتاب عنده أحدًا.

مهما يكن من أمر، لم يُقدَّر لأي من الحضور اغتياب عمار، ولم يُقدَّر للشيخ نهيهم عن اغتياب عمار، بل لم يُقدَّر لعمار الخروج، ففي اللحظة التي امتدت يده إلى مقبض الباب كي يفتحه، ومض الباب، أو هكذا توهّم. لم تكن في البداية أكثر من التماعة ضوئية ساطعة تولدت فجأة بصمت، ثم خبت إذ يخرج الباب كله عن إطاره بضجة طاغية وغلالة غزيرة من النار والدخان والغبار.

وجد عمار نفسه في مواجهة انفجار مفاجئ، وباب فولاذي يطير جهته بطاقة دفع عاتية. أدرك مخه هذا الواقع إدراكًا آنيًا يليق بسرعة التوصيل العصبي، فناله رعب خاطف، استثار لوزة المخيخ في دماغه، ودفعها إلى تخزين كم أكبر وأكثر كثافة وثراءً من ذاكرة المدى القريب. تدافعت الصور واستُرجِعَت في كسور يسيرة من الثانية، وبدسامتها واكتنازها خُيِّلت إلى حواس عمار أن الوقت يمر بطيئًا، وشيدت حوله واقعًا وهميًا معوجًا، تحركت فيه الأشياء بثقل واتئاد.

بلغَتْه الموجة الصدمية أولًا، ورفعته عن الأرض فكأنه لا وزن له. أحس بقميصه يتمزق من على جسده، وببشرته تحترق وتتقشر، وبعينيه تغوران داخل تجويفهما في الجمجمة. ثم لم يدم العذاب طويلًا؛ لأن الباب الفولاذي المندفع إلى داخل الغرفة بطاقة الانفجار بلغ جسده. ألحقت به الموجة الصدمية أذى جسيمًا، إلا أن ارتطام الباب به كان في أثره عليه كأثر ضربة مرزبة على ثمرة ناضجة. وأمام الأعين الذاهلة عبر جسده فراغ الغرفة في لمح البصر، ودهم عمودًا خرسانيًا بارزًا من أحد الجدران بقوة مفزعة،ثم انهار

fb/mashro3pdf

أرضًا كأنه كتلة من عجين لا هيكل فيها، مع حطام الجدار والباب الفولاذي الملتوي.

زُلزل الحضور جميعًا وفقدوا توازنهم. كادت طبول آذانهم أن تتفسخ بدوي الانفجار، وغابت مداركهم في أجواء سوريالية؛ ربما لأن أدمغتهم لم تستوعب بعد حقيقة الحركة الحادثة حولهم، فيما تتأثر بها أعضاؤهم. رجت الموجة الصدمية الجدران رجًا، ونفضت عنها طبقات الطلاء والسخام كالغبار يُنفض عن القماش، ثم يتساقط على هيئة سميد خشن. تلك كانت البداية التي أربكت الحضور وأخذتهم أخذًا، حتى أطلّ الموت من مدخل الغرفة، وانتشر فيها كالنار ترتع في الهشيم الجاف.

تدفق مقاتلو «ديث ستوكرز» إلى داخل الغرفة بسرعة وسلاسة، وفور دخولهم رصدت كاميرات خوذاتهم وجوه الحاضرين. إنها ضربة لازب. الكل هنا من المُستَهدفين الكبار. تفرق المقتحمون فور تجاوزهم عتب المدخل، وذلك لتفادي السقوط في منطقة «القُمع القاتل» المحيطة بالمدخل، التي يكون فيها فريق الاقتحام عرضة لتلقي نيران العدو على نحو مباشر.

توجه أولهم إلى أبعد ركن في الغرفة، حيث يقع مكتب الشيخ. قدّر عمق الحركة وسرعتها من خلال رصد سريع لمساحة المكان والعقبات في الطريق، وساعدته أنظمة خوذته على فصل الأهداف وتحليل حركتها، ورصد مصدر الإضاءة الوحيد في الغرفة. ذاك أول هدف وَجّه نحوه بندقيته الهجومية، وأطلق النار، فانفجر مصباح السقف بدوي مكتوم، وهبط على الغرفة ظلام دامس.

وبينما يتخبط خصومهم بين هول المفاجأة وشدة السواد، تقدموا هم بانسياب سهل إلى مواقعهم، من دون أن يؤثر الظلام عليهم البتّة، بفضل الأجيال المتقدمة من معدات الرؤية الليلة، فكان عنصر المفاجأة تامًا غير منقوص.

خلف «المقتحم» دخل الرجل الثاني، وتحرك بمحاذاة الجدار المقابل متجهًا نحو ركن الغرفة البعيد، وفي طريقه غطى بسلاحه مجالًا واسعًا بحركة التفافية. أما الثالث، وهو جايكوب، فما أن دخل حتى ابتعد عن الباب بمقدار متر واحد تقريبًا، وسيطر على منطقة الوسط من الغرفة بمدفعه الأوتوماتيكي، وفي إثره دخل الرجل الرابع، المنوط به تأمين نقطة الاختراق. جرت هذه التحركات التكتيكية في أقل من لمع البرق، بتنسيق أنموذجي بين أفراد الفريق، لتحقيق سيطرة مكانية على الغرفة واتخاذ أفضل المواقع

fb/mashro3pdf

لإطلاق النار. ثم بدؤوا في اقتراف مقتلة سريعة لم يكن لشاغلي الغرفة فيها أي فرصة للنجاة، مع البون الشاسع في التسليح الإعداد والتدريب بين مقاتلي شوارع حفاة، ومقاتلي قوات خاصة مدربين.

استحوذ كل من المقتحمين على قطاع محدد في الغرفة، وسيطر عليه بدفعات متوالية ومكتومة من طلقات «سكار» الخارقة للدروع، انطلقت من بنادقهم الآلية المتطورة، واستهدفت أولًا المسلحين، وأي شخص آخر قريبًا منهم بمقدار ذراع أو أقل، مسلحًا كان أم لا. أوغلوا في عمق الغرفة بهرولة حذرة؛ لأنهم يتحركون ويطلقون النار في آن واحد، لئلا يتعثرون في أي عائق. الحركة خاطفة والعضلات منقبضة والأنفس مشدودة. تحركوا تجاه نقاط الهيمنة في مسرح القتال، وبتطبيق تقنية التصويب للقتل السريع نشروا مظلات نيرانية خاطفة بعيدة المدى، وهو الأسلوب الأسرع والأكثر دقة لاصطياد المسلحين المعادين. عملية القتل الجماعي من منظورهم العملياتي تتم الآن بسرعة ومنهجية، وبلا خسائر.

بالنسبة إلى الطرف الآخر، عملية القتل النظيفة هذه كانت مذبحة مُروِّعة ومحنة قصيرة وفظيعة، بدأت وانتهت قبل أن يستوعبوا أبعادها على وجه الكفاية. في اللحظات الأولى من الهجوم سقط خمسة شباب بالتتابع، بلا رد فعل واحد، ثم توالت الطلقات بلا انقطاع، فلم يرَ بقية الشباب المتخبط في الظلمة سوى شرر مركز وسريع يلفظ من فوهات البنادق، ويغرس في الجماجم سهامًا من نار.

لا يصح القول بأن الخصوم سقطوا جميعًا دون مقاومة، بل حاولوا الدفاع عن أنفسهم بدفقات نيرانية متوالية من بنادقهم الآلية، لكن لأن الرؤية انعدمت، لم يكن لمقذوفاتهم النارية أثر كبير. أصابوا بعض المهاجمين، لكن سترات «شيلد» الواقية حمت أجسادهم بأن أزاغت بعض الطلقات، واستوعبت طلقات أخرى بلا تأثير يُذكَر على أدائهم أو سرعتهم. القسم الأكبر من المقاومة انصبّ على المقاومين أنفسهم؛ لأنهم بإطلاق النار العشوائي إنما أسقطوا بعضهم بعضًا.

القسم الأخير من المقاومين استطاعوا الاستعانة ببعض كشّافات الجيب الكهربائية في خضم المعركة، وألقى البعض منهم بأجسادهم أمام مكتب الشيخ لحمايته، وهؤلاء حصدهم المهاجمون حصدًا، والبعض الآخر حاول اتخاذ مواقع للحماية، فألقوا

fb/mashro3pdf

بأنفسهم خلف قطع الموبيليا. لكن بسبب ضحالة خبراتهم القتالية، وضعف إلمامهم بطبيعة تسليح عدوهم وذخيرته، لم يُجزِهم تحركهم المتسرع هذا؛ لأن الطلقات الخارقة للدروع لم يوقفها الأثاث الخشبي البالي.

حدث كل هذا في ثوانٍ معدودة، مرت ببطء ومشقة بالغة على الشيخ أبي زكريا. لم يحرك ساكنًا، بل اتسعت عيناه وانفغر فاهه بذهول. رأى على ضوء المصابيح اليدوية وومضات النار مصارع رفاقه وأبنائه. رأى رأس الشيخ معتز تتلقى ما يبدو ضربة هائلة من مطرقة لا مرئية، عوجت عنقه بزاوية بشعة ومستحيلة. رأى الشيخ عبد الله يتخبط في جنبات الغرفة، ضاغطًا بيده الوحيدة على بطنه، قبل أن يستقبل وجهه وابلًا من الرصاص ضيع ملامحه كلية. رأى الشيخ ونيس يسقط من على كرسيه المتحرك بتجويف عميق في رأسه. رأى أولاده الثلاثة، يوسف وعبد الرحمن وعلي، يلقون بأجسامهم على مكتبه للحيلولة دون إصابته بالمقذوفات النارية المتطايرة، وهم يطلقون الرصاص في الوقت ذاته على عدو مجهول. رأى رؤوسهم تنتفض ويتطاير منها ما يشبه الشظايا ورشش الدم، ثم رآهم يتساقطون بعضهم على بعض من على سطح المكتب إلى الأرض.

ثم أحس الشيخ بالدم يشخب من ودج عنقه كاللبن يخرج من الضرع مسموعًا صوته، فعلم أن ثمة رصاصة اخترقت جانب عنقه. ورأى أمامه مباشرة أحد المهاجمين وهو يوجه إلى جهته مدفعًا رشاشًا ضخمًا. ربما فكر الشيخ في أن ينحني فيقبض على سلاحه الموضوع بصفة مستديمة أسفل مكتبه، ليدفع عن نفسه أو يموت مُقبِلًا غير مدبر كما أمل دومًا. ربما أراد أن ينطق بالشهادتين، لكنه لم يفعل. ربما منعته لجلجة في اللسان أو نقص في التوفيق، أو ربما لم يجد الوقت الكافي للفعل، لكن الوقت مر عليه بطيئًا متمهّلًا كمثل ما مر على كل من كان حيًا في هذه الغرفة. لم يجرِ على لسان الشيخ إلا جملة واحدة، لما رأى الموت على فوهات المدافع يقينًا، قالها بعينين هائمتين وشفتين ذاهلتين: «إنا لله».

*****

fb/mashro3pdf

لـم يكـد جايكـوب يصـدق أنـه أمـام أبي زكريـا حقًـا، رغـم ناقـوس الإنـذار الـذي دوى في أذنيـه، فـور أن تعـرف حاسـوب خوذتـه عـلى الرجـل. . لـم يكـد يصـدق أنـه يقـف عـلى بعـد أمتـار قليلـة مـن هـذا الـذي أذاقهـم المـر عـلى مـدار سـنوات طـوال. اسـتغرب جايكـوب مـن غثاثتـه وبـؤس هيئتـه. لطالمـا تخيلـه «دنجـلًا» سـيئ المـزاج عظيـمَ الجثـة، كـث الحاجبـين ثقيـل الشـارب واللحيـة، كبـير البطـن كثيـف الشـعر، تطـق عينـاه شرر الـشر والشـهوة، وتقطـر شـفتاه ريـق البـذاء والازدراء. لطالمـا ارتبـط اسـم أبي زكريـا في مخيلتـه بـ«بـلاك بيـت»، قـط «ديـزني» السـمين الشريـر، المتآمـر اللـص، المخـادع المتوحـش الـذي لا قلـب لـه، ذي القـوة الغاشـمة الغبيـة، والهيبـة البدائيـة الفظـة.

تسـارع خفقـان قلـب جايكـوب، وأحـس بحاجـة مُلحّـة لارتـكاب حماقـة أو للإقـدام عـلى فعـل متـسرع مـن فـرط التحفـز والاسـتثارة. أراد أن يفتـك بـه، بـل تلهـف إلى تقطيعـه إربًـا إربًـا، ليـس بدافـع إجرامـي شـائن، بـل بدافـع غريـزي بحـت. نزعـة سـلوكية كادت أن تهيمـن عليـه وتأخـذ بزمـام آلياتـه الفسـيولوجية، تمهيـدًا لدفـع أعضائـه للاسـتجابة بـرد فعـل منعكـس قـد يفسـد كل شيء، أو قـد يـؤذي رفاقـه مـن حولـه، خصوصًـا مـع تلـك الماكينـة المدمـرة المسـتقرة بـين قبضتيـه. لكنـه ربـط عـلى جأشـه ربطًـا متينًـا، وعالـج اضطرابـه بالشـدة والثبـات، وسـيطر عـلى قدراتـه الحسـية في ثـوانٍ معـدودة توضـح فيهـا الشـيخ وحـدده كمرمـى لنيرانـه.

لـم تسـتغرق الهنيهـة الفاصلـة بـين رؤيـة الشـيخ واسـتهدافه أكـثر مـن طرفـة عـين، بعدهـا رفـع جايكـوب مدفعـه الرشـاش الثقيـل، وضغـط زر التشـغيل بعلبـة المعايـرة، ثـم اعتـصر الزنـاد. لـم يُطلـق عـلى مدفـع «إم جـي يـو ٧٦ / إيـه» اسـم «بانيـشر» (أي الجـلاد) مـن فـراغ، ففـور أن ضغـط جايكـوب الزنـاد، نشـطت آليـة الدفـع الكهرومغناطيـسي لتولـد مـا يشـبه الرعشـة المفاجئـة في سـطح سـبيكة التيتانيـوم خفيفـة الكثافـة، المصنـوع منهـا المدفـع. دارت السـبطانات بقـوة أمـام وحـدة المسـتقبل، فتلقـى نظـام التغذيـة الخراطيـش مـن حـزام الذخـيرة، وألقـم بهـا مجـاري التغذيـة، الـتي لفظتهـا بتتابـع خاطـف.

ثبـت جايكـوب في موضعـه، وشـد عـلى عضلاتـه للسـيطرة عـلى قـوة الارتـداد، وصـب النـار مـن مدفعـه صبًـا جهـة الشـيخ. في المعتـاد يسـتهدف جايكـوب المنطقـة المركزيـة مـن وجـه الخصـم، لكـن لإلمامـه بقـدرة سـلاحه التخريبيـة مـن جهـة، ورغبتـه في الحفـاظ عـلى ملامـح الخصـم مسـلمة لا عيـب فيهـا مـن جهـة أخـرى، اسـتهدف القسـم السـفلي مـن جسـمه.

fb/mashro3pdf

دفقات متوالية من طلقات «بريداتور» الخارقة انطلقت من فوهة المدفع في إعصار من اللهب والشرر، بأزيز ميكانيكي حاد كأزيز المثاقب الكهربية. شكلت مئات الطلقات حائطًا نيرانيًا مدمرًا اخترق الهواء بسرعة تزيد عن ألف متر في الثانية، وبلغت الهدف قبل أن يبلغه ضجيج إطلاق النار.

تلقى الشيخ قسمًا كبيرًا من الطلقات عالية السرعة في الجزء السفلي من بطنه. تقاطعت مسارات الطلقات وتصادمت وانحرفت في الأنسجة اللينة، وتفجرت العشرات منها في جوفه على هيئة شظايا نتج عنها تحول سريع للطاقة. لم يدرك جايكوب أيًا من هذا. فقط رأى جسد أبي زكريا ينشق إلى جزأين في انفجار عضوي مرعب، صحبته انطلاقة فجائية لكمية كبيرة من الأشلاء والرشاش الدموي لطخت الجدران والمكتب.

رفع جايكوب إصبعه عن الزناد، ولثوانٍ لم يسمع سوى صوت أنفاسه المضطربة، ولم يرَ سوى مواسير مدفعه المتوهجة من شدة الحرارة. حوّل بصره عن موضع المكتب، فرأى رجاله وقد طفقوا يتحققون من الخسائر في صفوف العدو. ضرب سمعه دوي عدة طلقات مكتومة، أجهز بها رجاله على المصابين. أراد أن يقول شيئًا، لكن لسانه تلتل في حلقه. خطا بحذائه إلى الأمام مخترقًا غيم الغبار والدخان، فأنّت الأرضية الخشبية بصرير تحت نعله السميك. خفض سلاحه بزاوية خمس وأربعين درجة متخذًا وضعية الاستعداد التسليحي، ومتأهبًا لإطلاق النار. لم يضطر إلى الدوران حول وحدة المكتب؛ لأن الوحدة تداعت تمامًا وتحولت إلى كتلة مفتتة من الشظايا الخشبية. تخطى الحطام بحرص، ووطأ ما تجمع من بقايا الأوراق ومزيق الكتب وفلقات الزجاج، ثم رأى العدو ممددًا على الأرضيه بقسميه المنفصلين. القسم السفلي بدأ من الحوض وانتهى بالقدمين، والقسم العلوى بدأ من الصدر وانتهى بالرأس، وبين القسمين تمددت بركة موحلة من الدم والأشلاء، ميز منها جايكوب لفائف من الأمعاء وجزءًا من الكبد. تصاعدت إلى أنفه زخمة منتنة من جراء اختلاط فضلات الأمعاء الغليظة بالغبار والدم، وراودته رغبة ملحة في أن يسد أنفه أو أن يحكها، لكن خوذته منعته.

أطفأ جايكوب طور الرؤية الليلية، وشغل المصباح الدقيق ساطع الإضاءة، المركب داخليًا في خوذته، كي يلقي نظرة وافية على وجه أبي زكريا. ولقد وجد الرجل حيًا. عيناه جاحظتان، ولسانه خارج من فمه، وشخير خافت يصدر من جوفه كشخير خنزير فرفر

fb/mashro3pdf

حلقه سكين حاذق. لاق أبو زكريا كربات الاحتضار وغمراته على أشد وجه، لكنها لم تعرض بينه وعقله إذ ينظر من سفول إلى وجه قاتله وفوهة سلاحه المتوهجة. تمعج وجهه من وجع الإصابة المميتة، وغشيت سكرة الموت كيانه واحتوته كموج البحر إذ يغشي الغريق ويحتويه. انفتح فمه وانغلق بحركة مضطربة دؤوبة، وكافح لالتقاط أنفاس معبأة بالأدخنة والغبار، بمشقة وعزم كأنه يتنفس من سم إبرة، فيما تتلوى أعضاء جسده كأن غصن شوك يُجذب من قدميه إلى هامته. كل نفس دخل صدر الشيخ ظنه جايكوب الأخير، حتى ارتسمت على الوجه المحتَضَر ابتسامة.

ارتفع صدر جايكوب العريض وانخفض على غير انتظام، وأحس بنبضات قلبه تضرب بعضها بعضًا. هل شعر بقلق أو حيرة؟ بتردد أو ارتباك؟ ألفى نفسه تأخذ تلك اللحظة على محمل شخصي، كأن بينه وقتيله قرابة. ثبت مكانه، وأطلق مشاعره على سجاياها، عالمًا أن المعركة انتهت، وأن الخطر حوله زال. أراد فقط مهلة من الراحة والسكون كي يستلذ بالنصر، لكن ابتسامة المقتول كدرت عليه صفو نصره. لم يدر إن كانت ابتسامة الشامت أم المتحدي، أم مجرد انقباض لا إرادي في عضلات الوجه. ترك مدفعه يتدلى من حزام التعليق، واستل مسدسه من جرابه. تردد لحظة، كأنه أراد أن يعطي المحتضر فرصته كي يموت من تلقاء نفسه، لكن لما طال الوقت، لم يكن من إطلاق النار بد.

اتسعت بركة الدم تحت جسد الشيخ المنفلق، وسالت بنعومة بين شقوق الأرضية. وبينما يصوب جايكوب فوهة مسدسه إلى رأس الشيخ، انهار الجدار خلف المكتب بغتة من وطأة الثقوب وشدة الدمار الحادث فيه. جفل جايكوب ونفر، وتراجع خطوتين برد فعل انعكاسي خاطف مصوبًا سلاحه إلى مصدر الضجة المفاجئة، وكذلك فعل رجاله بالتزامن. لم يطلق أي منهم طلقة واحدة مع هذا، بل أمعنوا النظر في عاصفة الغبار الناشئة، التي ما لبثت أن سكنت وانسدلت على كوم من الركام. دخل نسيم ليلي خفيف من الفناء، وتسرب شيء من حر الغرفة ورطوبتها إلى الخارج، فشعر الرجال بانفراجة بسيطة. كسا العرق وجوههم بغلالة سميكة، وغمر ملابسهم وسال على مفارق ظهورهم وأفخاذهم، فكان النسيم عليهم بردًا وسلامًا. ولما هدأت نفس جايكوب، وعاد ينظر إلى ضحيته بين قدميه، علم أنها فارقت الحياة.

يبس وجه أبي زكريا على تعبير باسم، وتوجهت قزحيتاه الرماديتان إلى وجهة افتراضية

fb/mashro3pdf

في الفـراغ. تجمـع حولـه رجالـه، ونـزل عليهـم سـكون خاشـع ودهشـة. شـكلوا دائـرة حـول القتيـل، وعاينـوه كمـن يعايـن مخلوقًـا غريبًـا أو فلتـة طارئـة مـن فلتـات الطبيعـة.

تساءل أولهم قائلًا بصوت مضطرب:

- أهذا هو؟

أومأ جايكـوب إيجابًـا، فاتـكأ أحـد رجالـه عـلى باطـني قدميـه، وخفـض جذعـه كي يلقـي نظـرة أقـرب عـلى الجثـة. اقـترب بوجهـه منهـا، وعـلى ضـوء الكشـاف دقـق في ملامحهـا، ثـم تسـاءل:

- لم يبتسم؟

أجابه جايكوب قائلًا بإيجاز:

- الفاشست الملاعين. معظمهم يبتسمون قبل الموت.

وقال آخر:

- مـاذا تترقـب مـن رجـل يظـن أن رصاصتـك هـي بوابتـه إلى فـردوس، يحلـق فيهـا مـع مئـة عـذراء، يكافئـه بهـا ربـه اللـه الأكـبر، الـذي يوافـق بحمـاس عـلى القتـل الجماعـي للغربـاء دون سـبب واضـح؟

رماه جايكوب بنظرة جانبية سريعة، ثم قال مصححًا:

- اثنان وسبعون.

- عفوًا؟!

- اثنان وسبعون عذراء. هذا هو العدد الذي يكافأ به الشهيد في الجنة، وليس مئة.

- كنـت أظـن أن لهـم فيهـا مـا يشـتهون. إنهـا حيـاة أبديـة طويلـة. هـب أنـه أفقدهـم عذريتهـم في يـوم أو يومـين. ألا يحـق لـه طلـب المزيـد؟

تجاهـل جايكـوب التعليـق الأخـير، وشـغل نفسـه بالتقـاط عـدة صـور عاليـة الجـودة لوجـه القتيـل مـن كل الزوايـا، وقـام بتحميلهـا عـلى وحـدة الإدخـال المثبتـة حـول سـاعده الأيـسر، تمهيـدًا لإرسـالها إلى غـرف العمليـات. وأثنـاء ذلـك، تحـدث مـع كل رجالـه في دائـرة الاتصـال المغلقـة وألقـى بكلمـة السـر:

- «جورجيا».

- «ريدز». من أنت؟

- أنا الرُّبان. الأباتشي جيدون؟

fb/mashro3pdf

جاءته الإجابة بأنه لم يُقتل أو يُجرح منهم أحد. تابعت عيناه شريط تحميل الصور، وتلقت أذناه تقرير رجاله بالأسفل:

- إنه يوم سهل أيها الربان. قابلنا اثنين منهم فقط على الدرج، وتعاملنا معهما. حتى الآن استطعنا التعرف على «أليس» و«أبولو» و«بامبي» و«كانجا». أخذنا عينات حمض نووي من الجميع. ماذا عنكم؟

- الجائزة الكبرى على الأعتاب. ما زلت أنتظر تأكيدًا بصريًا من مركز العمليات. أطلعوني على التطورات.

هكذا قال جايكوب، وأنهى الاتصال، ثم انتقل إلى قناة أخرى مؤمنة، في الوقت الذي أخذ أحد رجاله ثلاث عينات حمض نووي من جثة أبي زكريا. الأولى بكشط اللعاب من على جدار الخد الداخلي، والثانية بأخذ عينة من الدم مباشرة، والثالثة بأخذ عينة نخاع من عظم الفخذ بواسطة محقنة مخصوصة. أفضى جايكوب بما لديه إلى الكابتن أودونيل مستخدمًا رموز اتصال شفرية معدة لتلك العملية على وجه الخصوص، ففتح الكابتن خط الاتصال مع الأدميرال ديتوماس، الذي يقع عليه عبء إبلاغ واشنطن بالتطورات.

من الآن فصاعدًا، لن ينسى الأدميرال ديتوماس وقع كلمات أودونيل في أذنيه: «جوفي، الجائزة الكبرى محتملة». خلال العامين السابقين، قام المحللون الاستخباراتيون لفريق «سيل ٦» ثم لفريق «ديث ستوكرز» بإطلاق اسم «جوليوس» على أبي زكريا، وهو الاسم الكودي الرسمي له كهدف، ثم كدأبهم في إطلاق أسماء هزلية على خصومهم، خلعوا على الشيخ اسمًا إضافيًا، وهو «جوفي». سبب التسمية يرجع إلى التشابه بين أبي زكريا، في ظنهم، وشخصية والت ديزني الشهيرة «جوفي». تتأرجح أفعال «جوفي» على الدوام بين قلة الذكاء والخرق من ناحية، والألمعية وغرابة الأطوار من ناحية أخرى. وكما نال أبو زكريا شرف التسمية، نال أفراد عائلته ورجاله المقربون أسماءً مشابهة، نبعت من ذات المعين الهزلي، من قبيل: «بامبي» و«بومبا» و«كانجا».

نقل جايكوب إلى قائديه تقريرًا عن الجثث، وقال إنه يقدر بالظن أن أبا زكريا قتل، لكن الحاجة إلى التأكيد البصري قبل رفع الأخبار إلى واشنطن ماسة. لم تكن هناك أي رقابة على اتصالاتهم من أي جهة، وبالتالي وقعت مسؤولية تحديد الخطوة المقبلة على كاهل ديتوماس كاملة. نظر إلى الصور بتمعن، وأخذته الدهشة وشيء من الرهبة.

fb/mashro3pdf

بكفه اليمنى أخفى النصف السفلي من الجثة كي يطالعها على هيئتها الطبيعية، دون أن تكدر صفوها فظاعة الإصابة. تلك أول مرة يرى فيها صورة واضحة حديثة لوجه الرجل الذي دوخهم وأنزل عليهم البلايا والمنايا. أعجبته ملامح الشيخ الرائقة، ووجهه الأريحي منبسط الأسارير، وبدا له حيًا مكتمل الحياة، يحدجه مباشرة بنظرة فيها بر وحُنوّ وعطف. إن كانت الحياة قد فارقت أعضاءه، فإنها لم تفارق عينيه بعد.

غير ذلك، لم يكن في مخيلة ديتوماس انطباع عاطفي أو نمطي عن هذا الرجل، بل انطباع مهني بحت من باب أولى. رآه أحيانًا كمدير تنفيذي لشركة متعددة الأنشطة، تعمل على إنزال خسائر مادية مستديمة بالقوات الأمريكية، ورفع كلفة بقائها في مصر إلى حد يستحيل معه الاستمرار في الاحتلال. ورآه في أحايين أخرى كشبح باهت لا قيمة له ولا تأثير. مجرد رجل هَرِم مهدم، أفنى حياته في معركة يائسة مع عدو لا قِبَل له به، ثم في رحلة فرار شاقة لم تترك له الوقت ولا الطاقة لتشغيل تنظيمه المزعوم. ربما مَثَّل أبو زكريا للجماهير رمزًا صوريًا للإرهاب في مصر -وهي الصورة التي حرص السياسيون على تأكيدها- فكأنه زعيم خيالي لتنظيم غاشم يسعى إلى السيطرة على العالم، وأب روحي لعصابة مافياوية في الوقت ذاته، وهي الفكرة التي يحسبها ديتوماس تليق بعالم تعيش فيه شخصيات سينمائية هزلية، بأكثر مما تليق بالواقع.

ظن ديتوماس دومًا، رغم كل المعلومات الاستخباراتية التي جاءت تترى بخلاف ظنونه تلك، ومن واقع خبراته المباشرة على الأرض، أن تنظيم جبهة المقاومة الإسلامية فضفاض، ليس له تسلسل هرمي واضح ولا قيادة مركزية محددة، بل يعمل في ظل الاحتلال على نحو عشوائي، كيفما تجري به المقادير. وإن تنظيم ضعيف كمثل هذا، لم يكن يكفي لتبرير فشل الغزو في تحقيق النتائج المرجوة منه، لذا أصبح لزامًا على السياسيين خلق عدو مبجل ومرعب يبرر الخسارة والفشل، ويخاطب الوعي الجماهيري بما يستطيع فهمه والبناء عليه. ومن هنا جاءت صورة أبي زكريا الكلاسيكية الشريرة، وصورة تنظيمه الدقيق المخيف، الذي سرعان ما تداعى وتفتت، ما أن توافرت معلومات استخباراتية حقيقية، قفزت فوق الفشل المخابراتي والعسكري. ثم إذا باقتحام الليلة في يسره وسرعته، يأتي على بنيان التنظيم ذاته من القواعد، خلال ما يقل عن الساعة الواحدة، ومن دون خسائر إلى هذه اللحظة. ذاك هو الحظ العظيم بلا ريب، وذاك هو

fb/mashro3pdf

النصيب الوافر من الفلاح والتوفيق.

ثم قطع صوت جايكوب خواطر ديتوماس، إذ يقول متمًا تقريره:

- لم نعثر بعد على «دايزي».

فهم الأدميرال أنهم لم يعثروا بعد على المتفجرات المتوقع وجودها بكميات ضخمة في المنزل. تلك مشكلة تبعث على القلق، وتهدد غطاء العملية.

واصل جايكوب قائلًا:

- وجدنا الكثير من الأسلحة الهجومية الخفيفة والمتوسطة. غرفة «جوفي» ذاتها تعد مخزنًا صغيرًا للسلاح، كما تسلح الأولاد بـ «إيه كي ١٢».

انتبه ديتوماس لهذه النقطة، وتكلم لأول مرة في جهاز الاتصال الموضوع أمامه على مكتبه، متسائلًا باهتمام:

- ماذا عن «سكيركرو»؟

تبسم بعض الرجال ممن وفدوا على الغرفة للفرجة على جثة الرجل المهم، وأجاب جايكوب بلهجة جاهد كي تخرج مهنية لا انفعال فيها:

- لم نجده، بعد.

قالها ملوحًا لرجاله بالـ«سكيركرو» بحركة اهتزازية هازئة. «سكيركرو» -أي الفزاعة- هو الاسم الرمزي الذي يطلقه مقاتلو «ديث ستوكرز» على بندقية أبي زكريا الهجومية السوداء الشهيرة «إي كي ٧٤»، المجهزة بمخزن طبلة يحمل مئة خرطوشة سوفييت، وناظور ليزر، وقاذف قنابل، وكشاف ضوئي تكتيكي. يعرف هذه البندقية الهجومية الجميلة كل من له اهتمام بالعينات الاستثنائية من الأسلحة النارية المملوكة للمشاهير. اكتسبت تلك البندقية شهرتها من أفلام المقاومة الدعائية، التي حرص فيها الشيخ على الظهور أمام ستار أسود، بوجه ضبابي مغشى، وصوت متغير، وقبضة محكمة تحيط بسبطانة السلاح الآلي. اقترن الـ«سكيركرو» بالشيخ وبالمقاومة، واكتسب دورًا تسويقيًا، حتى صار جزءًا من شخصية أبي زكريا، وعلامة عليه.

نظر جايكوب إلى السلاح مدققًا، وعاين حالته العامة باحثًا بالخصوص عن علامات الصدأ والتنقير على السطح المعدني، وفاحصًا سلامة المسامير ومدى اندماج الأجزاء المتحركة في الهيكل الكلي. رفع السلاح إلى مستوى العين، وتأكد من استقامة السبطانة

fb/mashro3pdf

رأسيًا وأفقيًا من دون انتفاخ أو اعوجاج أو أي عيوب ظاهرية أخرى، ثم سلّط اهتمامه على القبضة المسدسية باحثًا عن أي شقوق أو خدوش، وفاحصًا البراغي التي تثبتها في جسم السلاح المعدني. فك خزان الرصاص وضغط الزناد عدة مرات في تجربة إطلاق نار جافة، للوقوف على سلامة الزناد ووزن السحب، ثم خلص إلى أن السلاح في حالة ممتازة، كأنه خرج من مصنعه للتو، الأمر الذي دعاه إلى التساؤل: هل أطلق منه أبو زكريا النار قط؟

يعلم جايكوب ولع الأدميرال ديتوماس بجمع تذكارات وعينات أسلحة خصومه وأشيائهم من مسارح العمليات، التي يبذل فيها الرجال العرق والدم، الأمر الذي يستفز الرجال ويزعجهم، بل يستثيرهم إلى حد الغليان، بخاصة إن سقط منهم أحد، ووجد ديتوماس في نفسه وقاحة كافية لأن يطلب إليهم جمع قطعة السلاح هذه، أو المصحف نصف المحترق ذاك.

لذا، لم يجد جايكوب في نفسه ميلًا إلى تسليمه هذا السلاح النادر المثال، فرفع الرشاش السوفيتي القشيب، وقال للرجال بصوت قوي:

- هذا للعيون الحمراء.

«العيون الحمراء» هو الاسم الرمزي لفريق «ديث ستوكرز»، الذي يقوده جايكوب. فهم الرجال أن قطعة السلاح تلك، التي يفترض ذهابها إلى الفريق كتذكار للنصر، سيحتفظ بها جايكوب لنفسه، وقد يبيح لهم النظر إليها إن دعاهم إلى صحبته في خارج أوقات العمل، بل قد يسمح لهم بلمسها إن لعبت الخمر برأسه وعدلت مزاجه. لم تكن تلك فكرتهم المفضلة عن روح الفريق وتوزيع الغنيمة بالعدل، لكنها كانت أفضل كيفما كان من أن يستحوذ عليها الأدميرال، فيما يذوقون هم الموت في ميادين القتال. مهما يكن من أمر، يقاتل جايكوب إلى جانبهم، ويألم كما يألمون. تستهوي الرجال أيضًا جرأة جايكوب، ولا مبالاته بقادته في أمور مهمة كتلك أو أكثر أهمية.

وهكذا تعلقت أعين الرجال بالسلاح الذي يساوي وزنه ذهبًا، وهتفوا بظفر:

- هووو يااا، أيها الربان!

*****

fb/mashro3pdf

جلس حسام وإيلينا متجاورين إلى أحد وحدات مكتب مركز القيادة، الكائن في قاعدة ديكينسون العسكرية بالقاهرة، وإلى جانبهما جلس أحد الفنيين العسكريين. انشغلت عينا حسام بمتابعة الشاشات الضخمة، المثبتة على الجدار الأمامي والجدارين الجانبيين، واستراق السمع لأي مكالمة تتلقاها إيلينا، ولأي حديث جانبي تتجاذبه مع أي من الفنيين الحاضرين. من بين العشرين شخصًا الجالسين إلى شاشاتهم، لم يكن ثَمّ مسؤول ذو شأن، إلا هو وصديقته الأمريكية، ولم يكن ثَم سبيل لمتابعة العملية سوى صور الأقمار الصناعية وطائرات التجسس بدون طيار التي يرسلها إليهم مكتب الأدميرال ديتوماس، والتقرير الصوتي الذي يلقيه مدير وكالة الاستخبارات المركزية على متابعي العملية في القاهرة وواشنطن، بمن فيهم الرئيس الأمريكي وفريق الأمن القومي.

ثلاثة مشاعر متضاربة استولت على الجنرال داوود.

الشعور الأول هو السخط؛ لأنه من مكمنه هذا أحس بالعمى والعزلة، وعجز عن متابعة العملية على النحو الذي يرضيه. لم يكن يعلم إن كانت تلك المشاهد المتقطعة، المعروضة أمامه على الشاشات، تصل إليه كما هي من مسرح العمليات، أم تدخل في مصفاة تغربل وتمرر فقط شوائب الأحداث وخسالتها مما ليس له قيمة. لم يرضَ بالمخرجات المقدمة، بل توسعت عيناه واشرأبت عنقه وتهيأت أذناه لاستقبال أي كلمة تمر من هنا أو هناك، من هذا أو ذاك. راقب إيلينا وتعهد أحوالها وكاد أن يحصي أنفاسها. رآها تنهض لتتلقى عدة مكالمات في أبعد ركن في القاعة وهي توليه ظهرها أو تغطي فمها بكفها، هكذا علنًا وبوقاحة، كي تعطل أي محاولة منه أو من غيره لقراءة حركات الشفاة، وهي تقنية يجيدها حسام كما يجيد الاستماع لأبسط الكلمات المنطوقة. علم أنهم يخفون عنه كل شيء تقريبًا، اللهم إن طرأت الحاجة إلى خبراته، كمثل ما حدث عندما رجوه أن يستمع إلى البث الحي من داخل غرفة الشيخ، للوقوف على أهمية الحوار الدائر بالداخل.

لم يكن حسام راضيًا عن جلوسه ها هنا مع إيلينا، وأحس بأنه ضلل. كان قد وضع نصب عينيه غرفة عمليات البيت الأبيض، الكائنة في طابق الجناح الغربي التحتي، وكان قد تخايل له موقعه المهم من طاولة الاجتماعات، إلى جانب إيلينا، والرئيس ماكالوم ونائبه، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، وغيرهم. ومن حول هؤلاء الكبار المتقدم ذكرهم، يتحلق

fb/mashro3pdf

نائبـون ومسـاعدون ومصـورون يلتقطـون صـورًا عاليـة الجـودة، يظهـر فيهـا الجـنرال المـصري وهـو يُصدّر وجهًـا متجهمًـا، ويـدلي ببعـض التعليقـات المهمـة إلى مستشـارة الأمـن القومـي، أو يمسـك بتقريـر مطبـوع يـشرح منـه للسـيد الرئيـس نقطـة ملغـزة. لكـن الريـاح لـم تـأتِ بمـا كان يأمـل. لقـد خدعـوه واسـتصغروه واسـتهزؤوا بـه ونبـذوه إلى تلـك الغرفـة الكئيبـة، في صحبـة هـؤلاء التقنيـين النكِـرات.

الشـعور الثـاني هـو الفخـر والتطـاول. حـرص منـذ وطـأت قدمـاه الغرفـة عـلى نفـخ شـدقيه، وإظهـار التكـبر والوجاهـة، بـل والتأفـف، كأنـه داخـل إلى مزبلـة تغـص بخنافـس تدهـده بأنوفهـا الخـرء. نبـع هـذا الاسـتعظام مـن شـعور دفـين بالغربـة وقلـة الانتمـاء، حـاول تغطيتـه بعينـين ناعسـتين، وقسـمات مشـمئزة، وانفصـال معنـوي عـن الوسـط المحيـط. لكـن زاحمـت تلـك التركيبـة مـن المشـاعر الهدامـة شـعورًا آخـر بالنجـاح والقـدرة عـلى إنجـاز مـا يعجـز عنـه مـن يظنـون أنفسـهم أسـيادًا. الآن، أتـاح لـه هـؤلاء الأسـياد دخـول معاقلهـم ومصالحهـم، والاطـلاع عـلى معلومـات لا تخـرج في العـادة مـن دوائـر صنـع القـرار الضيقـة. حـدث هـذا كلـه بعـد أن قـضى سـنوات عجـاف عـلى الـرف، في طـرف قـصي مـن كل شيء في الحيـاة. نسـيه النـاس، ونسـيه ضحايـاه، وخـرج مـن حسـابات أعدائـه قبـل أصدقائـه، وظنـه الجهـلاء رمـة متعفنـة يـأكل الـدود أحشـاءها تحـت الـتراب. لـم تكـن تلـك الصـورة مختلفـة في جوهرهـا الذهـني عـن الحقيقـة الماديـة، حـتى وإن قـضى حيـاة العزلـة في تابـوت مـن ذهـب. لكـن هـا هـو الآن، جالـس في مقعـده، منتفـش كالطـاووس، معجـب بنفسـه ومزهـو برياشـه، يـكاد في نفسـه أن يخـرق الأرض وأن يبلـغ الجبـال طـولًا.

الشـعور الثالـث غشـيه عـلى حـين فجـأة، لمـا طلبـوا إليـه أن يطالـع صـور القتيـل، وأن يؤكـد هويتـه، باعتبـاره الوحيـد الـذي التقـى الشـيخ وجهًـا لوجـه. لا ينكـر اللـواء أن رعشـة سرت في أصابـع يـده وهـو يفتـح ملـف الصـور، ويلقـي نظـرة أولى عـلى وجـه خصمـه. الصـورة بشـعة، وملطخـة بالـدم، لكـن الـرأس سـليمة في الإجمـال، والوجـه لـم يشُـبه عيـب أو تشـويه. تعابـير وجـه القتيـل لـم تكـن غريبـة عـلى عيـني الرجـل البصـير بالأمـور، فقـد اعتـاد عـلى رؤيـة الوجـوه المسـتبشرة للأمـوات مـن المتعسـفين والمتعصبـين، أصحـاب الأجنـدات الغيبيـة، الـتي تخاطـب المـوت أكـثر ممـا تخاطـب الحيـاة. تلـك النظـرة الحالمـة المريحـة، والأسـارير النديـة الهنيئـة، والبسـمة الراضيـة المطمئنـة، لا تـدل عـلى شيء سـوى أن صاحبهـا فاسـد العقـل أو

fb/mashro3pdf

صاحب ميول انتحارية. وقد آل اللواء حسام داوود على نفسه أن يحقق لهؤلاء المخابيل مرادهم في الوصول إلى السعادة الأبدية.

صورة وراء صورة تتابعت أمام ناظريه، وشيدت نصب نجاحه الجديد لبنة لبنة، حتى صار صرحًا منيعًا ذاهبًا في السماء. شعر الضابط المصري الكبير باللذة تسري في جميع جسده، فلم يكد يصدق عينيه. خارطة النجاح كانت مترامية ومعقدة وبعيدة المنال، والمقامرة على سمعته كانت خطيرة. فُرَصه في الفوز كانت ضئيلة، تقف دونها موانع لئام وعواقب وخيمة. لكنه جاهد النفس وتابع المسير، متحديًا صدأ التقاعد، ووهن الكبر، وشهوات النفس الأمّارة بالدعة والاستسلام. ثم جاء الظفر وإدراك الغاية. انفضّ الخاتم المقفل، وسقط أبو زكريا وحواريوه سقطة جامعة. لأول مرة منذ بدأت العملية تعجز عضلاته عن مواصلة الانقباض للحفاظ على جلسة صلبة مستقيمة، فتراخى في كرسيه شاعرًا بالراحة بعد كبد، وبالغضارة بعد عناء، وبالرضا بعد سخط. لكن المهمة لم تنتهِ بعد. بل بدأت الآن. لقد مهّد لنفسه السبيل، وعليه مواصلة العمل الجاد.

مهما يكن من أمر، تسلط اللواء على عواطفه في تلك اللحظات الحرجة، ولجمها كما تلجم الدواب العجماء، ثم ضبطها كما تضبط تروس الساعة، فلم يبدُ على جسده أو وجهه للناظر غير المدقق أي تغيير، سوى بعضٍ من رخاوة لم تمتد لأكثر من ثوانٍ معدودة. بل إنه في تلك الساعة من النصر والتمكين تخلّى عن تعبير التزلف والمحبة المخصص لصديقته الأمريكية، وكسا وجهه بتكشيرة جامدة سميكة، مهنية لا مبالية. نظرت إليه إيلينا بتلهف، ونطق جسمها كله برسالة استحثاثية توّاقة، تدعو الصديق المصري إلى النطق بالتأكيد الفاصل.

ولم يخيب حسام ظن إيلينا إذ يقول بصوت قوي:

- إنه هو.

سطع وجه إيلينا بالبشر، وعلت شفتيها ابتسامة مشرقة إذ تهم بنقل الرسالة إلى القيادة العليا، وجمع غنيمة التبليغ، لكن حسام قبض على معصمها، وقال بنبرة تلقينية منذرة:

- إيلينا، مقتل أبي زكريا لا يعني انتهاء المهمة. على الرجال العثور على مخزن المتفجرات. والأهم من ذلك، جمع أي وثائق أو أقراص صلبة أو مضغوطة أو رقمية أو حاسبات ثابتة أو محمولة.

fb/mashro3pdf

لم تستجب إيلينا له، بل زمّت عضلات وجهها ظفرًا، ورفعت سماعة الهاتف وقالت:

- هنا «إكو زيرو ٣».. للرب والوطن.. جوليوس.. للرب والوطن.. جوليوس، العدو قُتِل في المعركة.

*****

أشرف جايكوب على رجاله وهم يغلفون القتيل في كيس من البلاستيك. لم يكن تكليفًا سهلًا، نظرًا لحالة الجثة السيئة. اجتهد الرجال في محاولة وضع النصفين المبتورين في كيس واحد، ولما أدركوا صعوبة حمل الكيس بعد ذلك، قرروا تحميل نصفي الجثة في كيسين منفصلين. عبؤوا الأشلاء في كيس ثالث أصغر حجمًا، فيما يقوم آخرون بالتقاط الصور لسائر القتلى في الغرفة، وأخذ عينات الحمض النووي.

خرج جايكوب من الغرفة بناءً على إشارة وصلته بالراديو من رجاله بالأسفل. وطأ تربيعات السيراميك بخطوات قوية ثقيلة، ترددت معها طقطقة حذائه العسكري، وخشخشة أسلحته المدلاة من صدره وكتفه. انحدر على الدّرَج، وانعطف إلى ممر جانبي تغبرت فيه الرؤية بأبخرة خانقة كثيفة. نمت إلى أنفه روائح الجلد والشعر واللحم المحترق، المختلطة بأبخرة الحديد المذاب والمتفجرات اللا دخانية والخشب المتفحم.

تتبع الشاب مصدر الإضاءة والضوضاء، ثم انحرف إلى نهاية الممر، فإذا به يقف أمام فتحة كبيرة في الجدار، يتزاحم أسفلها ركام كثيف. تخطى كومة الطوب الأحمر المفتت، المختلطة بالغبار والطلاء والملاط، ووقف وسط خمسة من رجاله في غرفة فسيحة، مضاءة بمصباح كهربائي بسيط. بمحاذاة أضلاع الغرفة الأربعة، تراصت مناضد معدنية، استوى على كل منها حاسوب شخصي أو دفتري عتيق. فصلت بين كل منضدة وأخرى خزائن حفظ الملفات والأقراص المضغوطة، فيما عُلّقت على الحوائط أصونة خشبية، وكُومت في الأركان سلال بلاستيكية وصناديق من الورق المقوى ممتلئة حتى حوافها وإلى أقصى سعة لها برزم من الأوراق والكشاكيل السميكة، المجموعة والمشدودة معًا بحبال من النايلون. على خلاف سائر حجرات البيت، اتسمت هذه الغرفة بالترتيب والاتساق، وتوزعت في أرجائها مراوح كهربية للتهوية، وجُهزت بحمام خاص.

fb/mashro3pdf

دار جايكوب بعينيه في المكان مدهوشًا. رأى على بعد ذراع منه كاميرا فيديو احترافية من طراز «كانون»، تقف على حامل أنيق، ومن خلفها انسدل الستار الأسود الشهير، المطبوع عليه خاتم النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يكاتب به الملوك، كما يتخيله العوام. من أمام هذا الستار الأسود، خرجت كل بيانات جبهة المقاومة الإسلامية، وإعلاناتها الرسمية. رؤية هذا الستار بذاته ترك في فم جايكوب مذاقًا غريبًا ومشوّقًا، كمن يطلع لأول مرة على كواليس مسرح دأب على زيارته أعوامًا طويلة، اكتفى فيها بمقعد قصي في صالة المتفرجين.

وهكذا التفت إلى أحد رجاله، وقال متسائلًا:

- كيف دخلتم إلى هذا المكان؟

- لم نجد بابًا ندخل منه. أوسبراي اكتشف الغرفة بالصدفة، وقمنا بهدمها يدويًا.

قالها الرجل مشيرًا إلى أحد زملائه المنهمكين في فحص الغرفة ومحاولة فتح الأدراج، فقال جايكوب:

- كيف كانوا يدخلون الغرفة إذن، طالما لم تجدوا لها بابًا؟

أشار الرجل إلى سقف الغرفة، موجهًا سبابته إلى ركنها الشرقي البعيد، وأجاب:

- من فتحة في السقف. تصعب رؤيتها في الظلام؛ لأنها مطلية بنفس لون الجدران والسقف. يمكنك أن ترى أيها الربان، من العلامات على الجدار والأرضية الخشبية، أنهم استخدموا سلمًا نقالًا للطلوع والنزول، أو الدخول والخروج.

اجتاز جايكوب الغرفة، وعاين ما أرشده إليه رجله، ولما اطمأن إلى صحة الاستنتاج، ضرب على كتف الرجل مُشجّعًا، ورفع إبهامه لرجله الآخر المكنى «أوسبراي» مهنئًا، ثم فتح قناة الاتصال المؤمّنة، وأبلغ قياداته قائلًا بصوت بارد:

- «إكو صفر اثنان»، هنا «روميو صفر واحد». وجدنا غرفة الحاسوب. أكرر، وجدنا غرفة الحاسوب. سنبدأ عملية استكشاف الموقع.

قال جملته الأخيرة بالاختزال للأحرف الأولى من كل كلمة كما تقتضي القواعد، ولم ينتظر ردًا، بل أنهى الاتصال، وخاطب رجاله بصوت جهوري آمر:

- اسمعوا. يتعين علينا شحن كل ما في هذه الغرفة إلى الطائرة. كل ورقة وكراسة. لا تتركوا شيئًا. صناديق الحواسيب، والأقراص الصلبة. الإسطوانات المضغوطة والرقمية. بطاقات

fb/mashro3pdf

الذاكـرة، وأجهـزة الذاكـرة الوميضيـة، والحاسـبات الدفتريـة. الهواتـف الذكيـة والحاسـبات اللوحيـة وأجهـزة النسـخ الاحتياطـي. كل شيء في الغرفـة يتـم تجميعـه، ووضعـه في الحقائـب، ونقلـه أولًا بـأول إلى الطائـرة. أمامكـم عـشر دقائـق.

عـلى جنـاح السرعـة بـدأ الرجـال العمـل. أخرجـوا مـن جيوبهـم حقائـب شـبكية مطويـة، بسـطوها لتأخـذ سـعتها الطبيعيـة، وشرعـوا في حشـوها بسرعـة. أكـوام مـن معـدات تخزيـن المعلومـات. وأجهـزة العـرض والأوراق والكراسـات المثقلـة بكتابـات باللغتـين العربيـة والإنجليزيـة، ودفاتـر حسـابات وخرائـط ومخططـات تفصيليـة لمبـانٍ ومنشـآت متعـددة، ومئـات الملصقـات المطبوعـة لمواقـع مدنيـة وعسـكرية وشـخصيات شـهيرة ومجهولـة، وعقـود زواج وبطاقـات تحقيـق شـخصية، وجـوازات سـفر مصريـة وأمريكيـة وبريطانيـة. لـم يبـالِ الرجـال بفحـوى مـا تتداولـه أيديهـم، لكنهـم علمـوا أنهـم، أغلـب الظـن، قـد وضعـوا أيديهـم عـلى كنـوز مـن المعلومـات، سـتمهد -إن أُحسِـن اسـتغلالها- لأكـبر حملـة اعتقـالات واغتيـالات منـذ بـدء الغـزو.

تركهـم جايكـوب لمهمتهـم، وغـادر الغرفـة. عَـبَرَ ممـرات الطابـق الثـاني حـتى انتهـى إلى الـدرج، فـنزل فيـه بخطـوات سريعـة متبـادلًا الحديـث في الراديـو مـع رجالـه في القبـو. وفي الطابـق الأرضي مـر عـلى رجالـه إذ يقسـمون أنفسـهم إلى مجموعـات عمـل مـن ثلاثـة أفـراد، كل منهـا شـنت غـارة تفتيشـية دقيقـة عـلى قسـم محـدد مـن المـنزل، مـن أقصـاه إلى أدنـاه، ومـن أعـلاه إلى أسـفله. امتـدت أيديهـم إلى كل الأركان والتخـوت، واسـتباحت كل الأغـراض والملابـس، ومزقـت جميـع المراتـب والوسـائد والأرائـك والكـراسي المحشـوّة، وفحصـت كل الجـدران وهدمـت جميـع المخـازن السريـة والجيـوب المخفيـة، وحطمـت الأحـواض والمراحيـض وصهاريجهـا، والتقطـت مئـات الصـور الثابتـة والمتحركـة للجثـث والغـرف وبقـع الـدم وقطـع السـلاح والذخـيرة. اختصـت مجموعـة منهـم بأخـذ قياسـات غـرف البيـت الواحـدة بعـد الأخـرى بواسـطة ماسـحات لـيزر محمولـة، أرسـلت مسـتخلصاتها الرقميـة إلى مقـر وكالـة الاسـتخبارات المركزيـة في لانجـلي، حيـث يتـم دمـج الملفـات عـلى أحـد برامـج التصميـم والنمذجـة، لإخـراج مجسـم تخيـلي ثـلاثي الأبعـاد للمجمـع السـكني بمقاييـس دقيقـة. فيمـا بعـد، سـيقوم الخـبراء الاسـتخباراتيين بدراسـة البنـاء، سـواء كهيـكل متحـرك يمكـن الإيغـال فيـه بحريـة، أو كمسـاقط أفقيـة ورأسـية ثنائيـة البُعـد.

fb/mashro3pdf

لـم يكـن بالقبـو سـوى عـدة غـرف صغـيرة ذات حوائـط لا طـلاء لهـا، مبنيـة بالطـوب الأحمـر، يشـغل بعضهـا أكـوام مـن الغبـار والطـوب والزلـط وأشـولة الجـير والأسـمنت، ويمتلئ البعـض الآخـر حـتى الأسـقف بكراكيـب متنوعـة مـن أثـاث وأدوات صحيـة وأدوات مطبـخ وأجهـزة كهربائيـة خربـة. لـم تتناسـب المسـاحة الكليـة المنظـورة للطابـق التحتـاني مـع مسـاحة الطوابـق العلويـة، بـل كانـت أقـل بقيمـة النصـف تقريبًـا.

هذا ما أفضى به جايكوب إلى رجاله الأربعة بالأسفل، فقال له أحدهم موافقًا:

- المساحة التقريبية للغرف تقل في الواقع عن ربع مساحة الأدوار العليا.

ألهـب الحـر أجسـاد الرجـال، وأنهكتهـم الرطوبـة واسـتنزفت قواهـم، فـإذا بصدورهـم تضيـق وكأنهـم في قـبر. لـم يكـن هنـاك مصبـاح واحـد في القبـو، ولا توصيـلات كهربائيـة ولا مرافـق مـن أي نـوع. مجـرد فراغـات متقوقعـة، تسـتتر بظلمـة دامسـة وزهومـة ثقيلـة، كأن مـدادات الـصرف تصـب هـا هنـا بـولًا وغائطًـا بـلا انقطـاع.

أحـس جايكـوب بثقـل شـديد يـكاد أن يطـم روحـه، وقـدر أن الهـواء في هـذا المـكان لا يجـد لـه منفـذًا، ومـن ثـم نظـر إلى وجـه رجلـه عـلى ضـوء كشـاف الضـوء القـوي في خوذتـه، وقـال لـه بأنفـاس مكبوتـة:

- إذن فقد خبؤوا ضالتنا هنا.

- نعـم. خلـف هـذا الجـدار. لـم نتمكـن بعـد مـن العثـور عـلى أي مداخـل أو ممـرات. فقـط تلـك النهايـة المسـدودة، وهـذا الجـدار.

انتبـه جايكـوب في تلـك اللحظـة إلى أنـه ورجالـه يقفـون فيمـا يشـبه الممـر الضيـق. عـن أيمانهـم تـتراص الغـرف الضيقـة، وعـن شـمائلهم ينتصـب هـذا الجـدار المصمـت. تحسسـه ضابـط البحريـة الشـاب بقفـازه التكتيـكي، وأدهشـته طبقـات الطـلاء السـميكة المتقنـة، الـتي كادت أن تخفـي شـقوق التقـاء مداميـك الطـوب بالأعمـدة الخرسـانية.

هز رأسه، وقال ساخرًا:

- هـؤلاء المعاتيـه. كان يمكنهـم كذلـك وضـع لافتـة «خطـر/ متفجـرات»، كي يتكامـل عنـصر لفـت الانتبـاه.

- المشـكلة ليسـت في لفـت الانتبـاه مـن عدمـه. حجـم المتفجـرات الـذي أخبرونـا عنـه يصعـب إخفـاؤه، خصوصًـا مـع إمكانياتهـم البدائيـة. المشـكلة في الدخـول.

fb/mashro3pdf

هكذا قال «المخترق» وهو يتحسس الجدار بدوره، فقال جايكوب متسائلًا:

- ألا يمكننا تفجير الجدار؟

- بأي حال من الأحوال لا يمكننا تفجير هذا الشيء. لو أن خلفه الكمية التي أخبرونا عنها من المتفجرات، لا يمكننا المخاطرة بأي تفجير، مهما كان محدودًا.

أومأ جايكوب برأسه موافقًا، وسأله:

- ماذا نفعل إذن؟

- لا بد أن نهدم الجدار يدويًا.

تلفت جايكوب حوله، ثم أشار إلى السقف قائلًا:

- الرجال بالأعلى عثروا على مدخل غرفة الحاسوب في السقف. أظن أن نفس نمط التفكير سينطبق على هذا المكان أيضًا.

تصبب وجه «المخترق» عرقًا، وقال لاهثًا من خلف خوذته، وهو يدق الجدار دقًا خفيفًا:

- لكن هدمه يدويًا أسرع وأكثر أمانًا. لا ندري كم من الوقت سننفق كي نعثر على المدخل بالأعلى، وإن كان هناك شراك خداعية أم لا. نحن نتعامل هنا مع مخزن للمتفجرات، وليس غرفة حاسوب. الجدار خفيف وسينهار بسهولة.

«المخترق» هو ضابط صف بحري من الدرجة الأولى، كريستيان «كريس» أورنر. هو شاب أمريكي من أصل نرويجي، جميل الخلقة، مكتمل التكوين، وصاحب رفق وأدب في المعاملة. بلغ أواخر العقد الثاني من العمر وقد حاز خبرة في المتفجرات لا يُعلى عليها، وكان يعمل قبل التحاقه بالقوات المسلحة طباخًا في أحد مطاعم الوجبات السريعة، في مدينة ممفيس بولاية تينيسي. ينشد كريستيان الكمال في عمله، سواء كان هذا العمل تحضير وصفات طبخاته المميزة، أو وصفات متفجراته الفتاكة، وهو يقوم بإنجاز مهامه في جميع الأحوال على النحو الأمثل. يقول جايكوب عن كريستيان، إنه لو رسم خطة، ينفذها بدقة وعلى أدق وجه، ويقول عنه كذلك إنه واحد من أهم عناصر فريق «العيون الحمراء»، وذلك لمضاء عزيمته، وذكائه اللماع، وسعة حيلته، وقوته البدنية الاستثنائية. في غير دوام العمل، يقضي كريستيان أوقاته وحده أو مع جايكوب في صالة الألعاب الرياضية، وفي الركض وركوب الدراجات. لذا، لا يجد جايكوب في نفسه غضاضة

fb/mashro3pdf

إن عـده صديقًـا مقربًـا صـادق الـود.

وهكـذا، لمـا قَـدَّم كريسـتيان رأيـه في أسـلوب الاقتحـام الأمثـل، وافقـه جايكـوب بـلا تحفّظ، وأشـار إليـه كي يحـضِّر لهـدم الجـدار، ثـم نبـه رجالـه بالأعـلى إلى أن ثمـة ضجيـج قـد يصـدر عـن العمـل الـذي هـم عـلى وشـك البـدء فيـه الآن. ولـم تمـض لحظـات حـتى انحطـت مـرازب الاقتحـام عـلى الجـدار. ارتطمـت رؤوس المـرازب الأسـطوانية المصنوعـة مـن سـبيكة الفـولاذ والكـروم والموليبدنـوم المنيعـة بسـطح الطـلاء النـاعـم، فتشـقق وتسـاقط فـورًا. وفي اللحظات التاليـة جـاء نفـير مـن الرجـال بعـدة مطـارق أخـرى للمسـاندة والتضافـر، وبسـط جايكـوب يـد المسـاعدة كي ينهـوا العمـل في أسرع وقـت. لـم يسـتغرق مجهودهـم أكـثر مـن دقائـق ثلاثـة، تتابعـت فيهـا ضربـات المطـارق الثقيلـة، المعضـدة بقـوة مقاتـلي القـوات الخاصـة العضليـة الباطشـة، وقـوة هيـاكل سـترات «شـيلد» المعدنيـة المنيعـة، إلى أن نسـف قسـم كبـير مـن الجـدار نسـفًا، كالريـح تنسـف الـتراب وتفرقـه.

اتسـع الخـرق في الجـدار اتسـاعًا يسـمح بعبـور رجلـين في آن واحـد، ولمـا تثاقـل الغبـار وترسـب عـلى الأرض، أطـل خضـم مـن الظـلام الدامـس لـم تفلـح مخاريـط الإضـاءة في سبر أغـواره. أطفـأ الرجـال مصابيـح خوذاتهـم، واسـتعانوا عـلى الرؤيـة بعدسـات الرؤيـة الليلـة، ثـم تتابعـوا في الدخـول بحـرص وهـم يُشـهِرون أسـلحتهم، الواحـد تلـو الآخـر، خـلال الثغـر الكبـير في الجـدار. تبعهـم جايكـوب رافعًـا سـلاحه هـو الآخـر، ووطـأ بحـذر أكـوام الطـوب المحطـم، حـتى تجـاوز منطقـة المدخـل الخطيرة.ثـم سـمع أحـد رجالـه يقـول مندهشًـا:

- يا للخرء المقدس!

جـول جايكـوب بناظريـه في أرجـاء المـكان، وأحـس بلذوعـة غريبـة في حلقـه. نـزل عليـه وعـلى رجالـه سـكون ورهبـة، وشـعور بالتصاغـر والحـيرة، فكأنهـم يقفـون في مفـازة ذات غـول، تحيطهـم فيهـا المنيـة مـن كل جانـب. ثـم فتـح قنـاة الاتصـال بقياداتـه، وقـال بخفـوت:

- «إكـو صفـر اثنـان»، هنـا «روميـو صفـر واحـد».. عثرنـا عـلى «دايـزي».. أكـرر، عثرنـا عـلى «دايـزي».

وقال أحد رجاله مأخوذًا، متمًّا قول قائده من خارج قناة الاتصال:

- وهي عاهرة كبيرة سمينة.

رمـاه جايكـوب بنظـرة سريعـة، ثـم ازدرد ريقـه، وتقـدم بحـرص بـين أكـوام الأشـياء الخطـيرة

fb/mashro3pdf

المتراصة على مدى البصر. لم تكن غرفة كما تصوروا، بل مساحة شاسعة تمتد تحت الأرض، تحدها حوائط خرسانية مكسوّة ببلاط السيراميك من جانبين، ويظلها سقف صُبّ من الخرسانة المسلحة، تراصت عليه صفوف من المصابيح الثنائية المطفأة.

هاجت أنفس الرجال، ولم يدلِ أي منهم بتعليق. لم تكفهم الكلمات للتعبير عما يعتمل في نفوسهم. شكوك غائرة ثارت واضطربت، مع مخاوف عميقة من وجودهم في فوهة البركان هذه، التي تكفي حركة واحدة خاطئة فيها لإفنائهم أجمعين. نظر أحدهم إلى أعلى، محاولًا تصور نتائج خطوتهم القادمة على تلك الأنفس البدائية التعسة، الغافلة النائمة فوق الأرض، المتزاحمة بالآلاف في أوكارها وجحورها.

أمام نواظر عناصر «ديث ستوكرز»، تراصت مئات الصناديق من مختلف الأحجام، إلى جانب بعضها البعض، وفوق بعضها البعض. تركب أغلبها من الورق المقوّى، وبعضها من الألومنيوم والبلاستيك. أكوام لم تنقطع من المتفجرات، ملأت المكان أفقيًا ورأسيًا حتى وصلت إلى السقف عند الأركان. صناديق ذخيرة لا حصر لها، تكدست فيها آلاف الطلقات العادية والخارقة والحارقة والمتفجرة، بل وانسكبت أكوام منها على الأرضية المغبرة، وتزاحمت في الفراغات الضيقة بين العلب الكبيرة وأكوام القذائف الصاروخية المضادة للآليات والمدرعات والطائرات. عشرات التوابيت الخشبية، تراصت فيها مئات القنابل اليدوية وذخائر قواذف القنابل الدخانية والمتفجرة والخارقة للمتاريس، عيار ٣٧ و٣٨ و٤٠ مليمترًا. عبوات متقنة الصنع من مواد «ترايلايت» و«سيمتيكس» و«سي-٤» الشديدة الخطورة، مركومة على هيئة مكعبات مستطيلة وأسطوانات مغلفة ومربوطة بقصاصات من قماش. مئات الألغام الأرضية المضادة للأفراد والدروع، مجمعة في أعمدة رأسية وأكوام أفقية فتّاكة، تبدو وكأنها على وشك الانهيار، لتنطلق إبرها وتشتعل فتائلها وتنفجر حشواتها من البارود السريع الاشتعال والخرادق السامة. وكأن ما سبق لم يكف، احتلت أسطوانات الغاز المضغوط وبراميل الجازولين البلاستيكية مساحة كبيرة، بالإضافة إلى أجولة حمض البكريك، التي أُلقي بعضُها فوق بعض بإهمال بشع، حتى تمزقت وانفتقت وانسكب منها المسحوق البلوري الأصفر بكميات كبيرة.

نظر كريستيان أورنر إلى الأكداس المكدسة من المواد المميتة، وأعجزته الرهبة عن النطق. إن القاهرة كلها امتدت منصاعة تحت قدمي أبي زكريا، يعيث فيها أتباعه كيفما

fb/mashro3pdf

شاؤوا، ووقتما شاؤوا. لم يعد من المستغرب إذن أن يبرز الجهاديون من قلب الأرض فجأة، في نطاقات ثقيلة التأمين، ليفجروا المنشآت والكمائن، ويقتلوا الرجال بالصهاريج والآليات المحملة بعشرات الأطنان من المتفجرات. تساءل كريستيان في نفسه، عما إذا كان هذا المخزن هو الوحيد من نوعه، أم أن القاهرة تعج بعشرات من مثله. وإذا بالأفكار والأسئلة تتداعى على ذهنه من بعد تساؤله الأول هذا، عن الجهات المتورطة في تمويل منشأة بهذا الحجم، والإشراف على إدارتها وصيانتها. إن إعداد أطنان من المتفجرات يستلزم ترتيبات دقيقة ومعقدة، ذات مقياس صناعي، يختلف تمام الاختلاف عما يقتضيه التعامل مع بضعة كيلوجرامات، ويتطلب من دون شك مهارات وخبرات عناصر متخصصة في تصنيع وإعداد المتفجرات والألغام والمركبات المفخخة. لم يعد من المستغرب إذن أن تفشل جهود أجهزة الاستخبارات في إيقاف الهجمات الإرهابية على القواعد ومراكز العمليات والكتائب، في الوقت الذي ينعم الإرهابيون بالأمان هنا، تحت الأرض، وينجزون أعمالهم الخطيرة بمعزل عن الاشتباكات والمواجهات الجارية في الأعلى، وبعيدًا عن نقاط الاشتباه.

كانوا قد استغنوا جميعًا عن نسق الرؤية الليلة، وأشعلوا مصابيح خوذاتهم القوية، واستغنوا كذلك عن حرصهم، بعد أن تحققوا من خلوّ المكان من البشر. انشغلوا بالطواف حول كتل الذخائر والمتفجرات، وفحص كل مجموعة منها على حدة. ثم وصل إلى جايكوب تقرير من رجاله بالأعلى عن سير العملية. علم أنهم نقلوا جثة أبي زكريا ومتعلقاته المهمة إلى الطائرة، وأنهم الآن بصدد نقل محتويات غرفة الحاسب الآلي، وأن أمامهم عشر دقائق على الأكثر لإنجاز مهمتهم.

دق ذلك ناقوسًا في دماغ جايكوب، وعلم أنهم على وشك تجاوز وقت المهمة المحدد لهم، فالتفت إلى رجاله نافضًا عنه غشاوة الصدمة وأخْذَتها، وصاح بهم آمرًا:

- أريد مسحًا ثلاثي الأبعاد للمكان كله، وصورًا قريبة لكل مجموعة من الذخائر والمتفجرات. توخوا الحذر في كل خطوة، ولا يمس أحدكم شيئًا. أمامنا عشر دقائق.

مضى الرجال لتنفيذ المهمة كما أمر رُبانهم، إلا كريستيان، الذي خلع حقيبة ظهره، وفحص ما فيها، ثم رمق المكان كله من أعلاه إلى أسفله، وأطال النظر في كل كومة وكتلة وتلة من الأشياء. لم ينتبه إلا وجايكوب يقف إلى جانبه، ويسأله:

fb/mashro3pdf

_ما رأيك؟

قال كريستيان بجدية وقلق:

- جحيم ملعون!

- ما تقديرك لهذه الكمية؟

- لا أستطيع إعطاء رقم دقيق. لكن كتقدير مبدئي، فقط من نظرة عامة، هذه الكمية تحتاج على الأقل لست حاويات شحن مكافئة لعشرين قدمًا. ربما تتجاوز الزنة الكلية عشرة أطنان مِترية، لا أدري. قد أكون مبالغًا.

- ما تقديريك لتأثير تفجير كمية كهذه؟

نظر كريستيان إلى جايكوب وقد اشتد به الانزعاج، وقال:

- لا أريد أن أكون في دائرة نصف قطرها خمسة عشر ميلًا على الأقل.

ازدرد جايكوب ريقه، وسأله:

- هل لدينا ما يكفي لإضرام كل شيء هنا؟

قال كريستيان ببسمة هازئة مضطربة:

- جايك.. لو ألقيت عود ثقاب على تلك الأجولة هناك، سيشتعل مسحوق حمض البكريك، ثم تتكفل قوانين الكيمياء بالباقي في لحظة واحدة.

- هذا أكبر مما توقعنا. عليّ أن أبلغ القيادة بحجم هذا الشيء.

هكذا قال جايكوب، وقرن القول بالعمل إذ ينتحي ركنًا بعيدًا، وينقل تقريرًا مفصلًا إلى القيادة، مُعضدًا بصور ثابتة ومتحركة التقطها بنفسه، وختمه بتقديره لتأثير تفجير كمية كهذه على المنطقة السكنية الواقع فيها المنزل، وتوصيته بشأن إرسال حملة شُرَطية ضخمة من قِبَل الحكومة المصرية لمصادرة المتفجرات، عِوضًا عن إضرامها. لم يتبادل أي أحاديث ذات طابع شخصي مع الكابتن أودونيل أو الأدميرال ديتوماس، ولم يسألاه بدورهما عن أي تفاصيل أخرى غير التي أورد. أحس جايكوب بالصدمة تنتقل عبر الأثير، في طبقات الصمت المطبق التي جُوبِهَ بها تقريره، ثم في الاستجابة المقتضبة التي تلقاها من أودونيل: «سوف أعود إليك بقرار نهائي في غضون دقائق. عليكم بالاستعداد لإخلاء المكان فورًا».

انقطع الاتصال في اللحظة التالية، فأحس جايكوب بحمل ثقيل يضغط على كاهله،

fb/mashro3pdf

وبإجهاد شامل يعم أطرافه ومفاصله. أشرف على عمل رجاله بأناة وصبر، من دون أن يستعجلهم، لعلمه أنه لن يبرح المكان حتى يأتيه قرار القيادة. طوف برجاله، ثم عاد إلى كريستيان، وأخذ يرقب إعداده الدقيق لعبواته الناسفة. جثا إلى جانبه، ونظر إلى عبوات «سي-٤» المستطيلة التي بسطها أمامه على الأرضية، وشرع في تثبيت أجهزة الاستقبال الأسطوانية فيها، بواسطة أشرطة لاصقة.

لم ينبس جايكوب بكلمة؛ لأنه أحصف من أن يشتت تركيز رجل تباشر أصابعه مادة خطيرة. فحص كريستيان جهاز الإرسال الصغير، الذي لم يتجاوز حجمه حجم كف اليد. تحقق من خلو الجهاز من بطاريته، وقام بتجربة مفتاحه عدة مرات، كي لا يفاجأ بأي عطل بعد مغادرة مسرح العمليات. أخرج من حقيبته بطارية كهربائية دقيقة، ودفعها إلى مكانها المخصص في كعب الجهاز، ثم أضفى اللمسات الأخيرة على عمله المتقن، وذلك بأن تمم التوصيلات وتثبت من فاعليتها.

لم يتبادل الشابان كلمة واحدة بعد ذلك، بل تابعا زملائهما وهم يفرغون من أخذ الأبعاد الإجمالية للمكان والتقاط الصور. وعندما كوّن المقاتلون حول ربانهم حلقة تامة، وصلت رسالة من بقية الرجال بالأعلى، تفيدهم بأن مهتهم قد انتهت، وأنهم جاهزون للمغادرة، ثم جاءت رسالة أخرى من الطيار، تفيد بحتمية المغادرة خلال عشر دقائق على الأكثر، وإلا لن يكفي وقود «الجوست كوبرا» للعودة إلى القاعدة. لذا أمر جايكوب رجاله جميعًا بالعودة إلى الطائرة، إلا كريستيان، فانطلقوا عَدْوًا بنظام وسرعة. ثم ما أن هم جايكوب بالاتصال بقياداته، حتى انتهت إليه منهم الرسالة بالقرار الفاصل.

تلقى جايكوب الرسالة مطأطئ الرأس، ثم قال في الراديو بهدوء: «تلقيت هذا الإرسال. جاهزون للتنفيذ». وعندما رفع عينيه وأومأ، فهم كريستيان الأمر، ونهض فورًا ململمًا معداته وعبواته الناسفة. تعاون الرجلان على زرع العبوات في نقاط محددة، حول المواد اللهوية سريعة الاحتراق، وعلى الألغام وأسطوانات الغاز المضغوط وبراميل الجازولين.

في غضون خمس دقائق انتهى الرجلان من العمل، وتراجع جايكوب ليتيح لرجله فرصة الاستوثاق من جودة الصنعة وتمامها، وملابستها المواصفات القياسية ومعايير الأمان. ثم لم تمض دقائق أخرى حتى هجر الرجلان محطة المترو، وتسابقا الصعود على الدرج، من القبو إلى الطابق الأرضي. ولجا غرفة أبي زكريا، وخاضا بحذائيهما في بحيرات الدم

fb/mashro3pdf

البادئة في التجفف، فعلقت قطرات الدم وبضعاته المتخثرة بالنعال كأنها بقع صمغ لازق. قفز الرجلان من نافذة الغرفة إلى فناء الطابق الثالث، الذي احتلت جل مساحته عدة أجولة منتفخة، منسوجة من مادة البولي إثيلين السميكة. جُمعت الأجولة بعضها إلى بعض، وربطت فواهتها بإحكام، واتصلت حلقات الرفع أعلاها بباطن طائرة «الجوست كوبرا»، بواسطة كابل سميك. نظر جايكوب إلى الطائرة الحائمة بالأعلى كعقاب هائل، واندهش من ضخامة الأجولة وكثرة أعدادها.

قبض كريستيان على السلم الحبلي، المُدلّى من باب الطائرة المنزلق، وشرع في تسلقه بهمة، في الوقت الذي ألقى جايكوب نظرة أخيرة على مسرح العمليات. أمسك هو أيضًا بالسلم، ورفع نفسه درجة درجة بشدة وبأس، ولما بلغ باب الطائرة، نمت إلى أنفه رائحة احتراق الوقود النفّاث. دفع نفسه إلى مقصورة الطائرة، وانحشر في مقعد وسط بين رجاله، ثم انشغل فورًا بإحصائهم، للتحقق من تمام أعدادهم.

من حالة التحويم الخطيرة غيرت «الجوست كوبرا» وضعها، وسمح طيارها لأسطح توجيه الطيران بالتناغم مع اتجاه الريح، من خلال التحكم في عصا القيادة والدواسات المضادة لعزم الدوران. انحرفت مقدمة الطائرة إلى أسفل، ثم انطلقت إلى الأمام مبتعدة عن المنزل بنعومة ورونق يليقان بجسمها النحيف وخطوطها الرشيقة. وخلفها، انجذب الكابل المتصل بحلقة مخصوصة بباطنها، فارتفعت الأجولة بأحمالها الثمينة.

خيم على الركاب وجوم غريب، كأنهم فشلوا في إنجاز مهمتهم. دقائق طوال مرت، شقت فيها الطائرة الهواء بسرعة عالية، ولم يتبادل أي من مقاتلي «ديث ستوكرز» مع زميله كلمة واحدة، وتحاشوا النظر كذلك إلى كيسي الجثث المتكومين على أرضية الطائرة. وحده جايكوب لاحظ أن بقعة من الدم تتكون أسفل أحدهما، فنهض من مكانه، وأحكم إقفال زمام الكيس. علم من شكل الانبعاج أن رأس القتيل تقع في هذا الكيس الملامس لحذائه الأيمن، وأن نصف الجثة الآخر يقع في الكيس الآخر. ترك الجثة، وترك مقعده ليحتل مكانًا مميزًا إلى جانب الباب المفتوح، بجوار المخترق والقناص.

خلع خوذته، وأحس لحظتها براحة غامرة، كأنه أخرج دماغه من فرن مضطرم إلى مغطس رغيد. لف هواء الليل البارد رأسه وغلفها، فأغلق عينيه مستلذًا بنفخ الريح لشعره الناعم المبلل، ولحيته الشقراء القصيرة، وسلم جسده لاهتزازات الطائرة

fb/mashro3pdf

المتواصلة. نظر إلى الأفق، فرأى ظلامًا زينته في السماء تشكيلات نجمية كثيفة، وزينته في الأرض بعض بقع الإضاءة الباهتة البعيدة.

غلب على الأفق القاهري سواد شديد. لم يكن ثَمّ مبانٍ عالية وسط أحراش الصفيح والقصدير وجذاذات الخشب، ولا حتى المآذن، إنما انتصبت بعض الهياكل الخرسانية وبقايا جدران انتمت إلى حضارة ما قبل الحرب. وفي القلب من هذا الامتداد الخرب، افترشت عزبة عين البقرة الأرض، وأطلت على السماء بوجهها الدميم المجدور، فكأنها مدينة أُلقي كل ما فيها إلى الجحيم. لهذا السبب يسميها جايكوب «عاصمة جهنم». تلالها قمامة، وعمرانها أطلال، ومنازلها خرائب، وسكانها أموات، وماؤها صديد، وريحها زهم، وكل ما له قيمة فيها، روحية كانت أو مادية، سُلِب منذ أمد بعيد.

أسلم جايكوب ذهنه لذكريات وصور مبهمة، ثم قال لنفسه إن هذه الأرض المتمدِّدة من تحته، تعج بمخلوقات ساهية، لم تتح لها فرصة للاستمتاع بالحياة أو إدراك قيمتها الأصيلة، لكنه عاد وقال لنفسه بتأمل باطني، إن الموت قد يكون لهؤلاء البؤساء خير من حياة ليس فيها إلا الشقاء والجوع والقذارة والمرض. إنه رغم طول مخالطته لهؤلاء الناس ومقامه فيهم، لم يكن يعلم عن حياتهم الكثير، وإن كان ثَمَّ ما يعلمه، فلم يكن إلا قشورًا وانطباعات سطحية تافهة، لا ترق بأي حال إلى العلم المتبصر العميق. ربما يخصص وقتًا قادمًا للتعرف على حياة هؤلاء الناس ومخالطتهم.. وذلك بعد أن يحاول لملمة خيوط وتداعيات ما حدث له في فيجاس. وما أن استحضر فيجاس في ذهنه، واسترجع ما حدث له فيها بعد نسيان، خرق أمعاءه مغص حاد، وعلم أن الدوائر على وشك أن تدور عليه، وأن ما ينتظره وراء المحيط أسوأ وأضل من ألف أبي زكريا، ومن مليون من مجاهدي أبي زكريا.

ثم أفاق من تأملاته على لمسة يد من كريستيان. رفع إليه عينيه، ورآه يقبض بيديه على جهازي الإرسال. أخرج جايكوب من صميم صدره زفرة ساخنة، ثم أخرج جهازي إرسال آخرين. كان كريستيان قد أعد أربعة أجهزة إرسال، لضمان وصول إشارات التفجير إلى العبوات الناسفة، وذلك في حالة تعطل أحد أجهزة الاستقبال أو بعضها. ولأن أجهزة الإرسال تعمل بالأقمار الصناعية، استطاع الشاب الانتظار إلى أن تبتعد الطائرة إلى حد يتيح لهم ميزة التأكيد البصري، دون أن تبلغهم الموجة الصدمية، أو على أسوأ الفروض،

fb/mashro3pdf

دون أن تبلغهم في شدتها المؤذية.

تسارعت ضربات قلب جايكوب إثارة وتشوقًا، وأحس بعضلاته تشتد وتنقبض. رأى أعين الرجال تحدق إليه بتعبيرات متباينة، بعضها فاتر، وبعضها قلق، وبعضها مستثار. وما أن سمع كريستيان يقول «نفّذ»، حتى اعتصر بإبهاميه مفتاحي التفجير.

في البداية لم يكن شيء. ثم بزغت التماعة مباغتة في الأفق الجنوبي. مجرد ومضة صامتة هتكت ستار الظلمة، وأضاءت الكتلة العمرانية في لحظة واحدة، وانعكست على وجه جايكوب الأبيض النضر.

*****

fb/mashro3pdf

«يو إس إيه توداي»

النيران تأكل القاهرة من جديد

شادي محمد ومايكل إبراهيم، يو إس إيه توداي*

القاهرة، مصر (أ.ب.) - في نحو الساعة الثالثة والنصف صباحًا، انفجر قبو منزل أحد الإرهابيين المطلوبين، المُرجح انتماؤه إلى مجلس شورى تنظيم جبهة المقاومة الإسلامية، في عزبة عين البقرة. المنازل الكائنة حول مركز الانفجار، في دائرة قطرها نصف كيلومتر، لم يبقَ منها شيء، إلا شظايا مفتتة زمى بها الانفجار لارتفاع ثلاث مئة متر أو يزيد في الهواء، وأمطرها على هيئة شهب نارية غطت مساحة واسعة. تحركت حمولة الانفجار بسرعة ألف متر في الثانية، لترفع درجة حرارة الهواء إلى ما يزيد عن خمسة آلاف درجة مئوية، ولتضاعف ضغط الهواء آلاف المرات، فيما يضيء الانفجار سماء القاهرة لثانية أو ثانيتين، بوهج في قوة ضوء الهاجرة، كما أفاد شهود عيان.

قطع دوي الانفجار مسافة تزيد عن أربع مئة كيلومتر، وبلغ علوّ سحابته أربعة كيلومترات تقريبًا، وتمددت موجته الصدمية أفقيًا بسرعة جاوزت ضِعف سرعة الصوت بخمسة وعشرين مرة، مدمرة مساحة تقارب خمس مئة فدان تدميرًا شاملًا. تضاربت الإحصاءات عن أعداد الضحايا، ففيما أعلنت وزارة الصحة المصرية في بيان رسمي عن سقوط نحو ثلاثة آلاف قتيل وسبعة آلاف جريح، أكدت مصادر أخرى، منها مصادر من داخل المستشفيات الميدانية، ووحدة الإدارة المركزية للرعاية الحرجة والعاجلة بوزارة الصحة المصرية، أن عدد الضحايا يتجاوز عشرة آلاف قتيل، وثلاثين ألف جريح على أقل تقدير، وأرجعت المصادر ارتفاع أعداد الضحايا إلى الكثافة السكانية العالية في عشوائيات عزبة عين البقرة.

لا تتوافر تأكيدات لهذه التقديرات من مصادر مستقلة؛ لأن خبراء الأمم المتحدة لم يُسمح لهم بزيارة الموقع، لكن لأن منظمة «أطباء بلا حدود» تدعم بعض شبكات الرعاية الطبية في القاهرة منذ عامين تقريبًا، استطاع ممثلوها المشاركة في جهود الإحصاء والإسعاف، إنما ظلت مشاركتهم محدودة، وغير رسمية، في ظل تضييق الحكومة المصرية والقوات الأمريكية عليها في عملها.

fb/mashro3pdf

وقد قالت مديرة العمليات في المنظمة، ناتالي ديل باريو، إن التدفق الهائل للقتلى والمصابين في تلك الفترة القصيرة، يشير إلى ارتفاع عدد الضحايا عن الأرقام التي أوردتها التقارير الحكومية. وتابعت: لا نفهم لماذا تعمد الحكومة المصرية إلى إخفاء الأرقام الحقيقية، طالما أنها تلقي بمسؤولية الانفجار على الإرهابيين!

أكثر من خمسين ألف منزل تحولوا إلى رماد، فيما دُمِّرت البقية الباقية من المساحة المتضررة في عاصفة نارية هائلة، اضطرمت بعد الانفجار مباشرة، نتيجة ارتفاع درجة حرارة الهواء. اشتعلت المواقد والمصابيح، واتقدت النار في الأقمشة والخشب الجاف، وحوصر السكان في منازلهم، بلا أمل في الهروب. لم تسلم المصانع والمسابك والمطاحن الواقعة في قلب عزبة عين البقرة من الدمار والحريق، واضطرمت مخازن الوقود وأجولة المواد الخام وبراميل المواد الكيميائية سريعة الالتهاب، وانهارت الأسقف وانصهرت المنشآت المعدنية، ودفن العمال والآلات تحت أكوام من الأنقاض.

معتز العربي، أحد الخبراء في مجال الإسعاف والطوارئ وعضو مجلس إدارة هيئة الإسعاف المصرية، وصف الدمار الذي رآه عقب زيارته الميدانية لموقع الحادث قائلًا: المنظر كان مُروِّعًا. الجثث المتفحمة مُلقاة في كل مكان، وكثير من القتلى تدلوا من النوافذ برؤوس مفقودة.

جاءت جهود الإنقاذ الأولى من قبل المناطق المتاخمة للمنطقة المنكوبة. أتى التجار والعمال والحرفيون، والنساء والشيوخ والأطفال، زرافات ووحدانًا لانتشال الناجين وسحب الجثث. وما أن تحركت هذه الفرقة الأولى، واقتحمت أتون اللهب والدخان، حتى انضمت إليها قوافل غير رسمية من جنود الشرطة ورجال الإطفاء، وكانوا جميعًا من سكان المناطق المحيطة، الذين تحركوا لنجدة إخوانهم بالتزامن ودون تنسيق، ثم انضم إليهم كل من يملك مركبة يدفعها محرك، أو تجرها بهيمة الأنعام.

وختامًا، انتظمت جهود الإنقاذ، بعد أن أرسلت القوات المصرية المسلحة أولى وفودها، مع إمدادات من الإدارة العامة للحماية المدنية بالقاهرة، وهيئة الإسعاف المصرية. ورغم وجود عشر سيارات إطفاء في مكان الحادث، لم تُكلل محاولات السيطرة على ألسنة اللهب بالنجاح، كما اتسمت جهود الإخلاء بالتخبط، فاتشحت المنطقة بسواد اليأس والموت، وقنطت القلوب من الرحمة والأمل في الفَرَج. لم تحرز جهود إخماد

fb/mashro3pdf

الحريق تقدمًا ملموسًا، إلا بتدخل القوات الأمريكية بمعداتها وأفرادها، وذلك بعد مرور عدة ساعات على الأزمة.

أكد مصدر أمني مسؤول أن الانفجار وقع نتيجة حدوث ماس كهربائي في مخزن للمتفجرات، يقع في تجويف أرضي بمنطقة عزبة عين البقرة، وألقى بمسؤولية الكارثة على جبهة المقاومة الإسلامية، التي تتستر عن مخازن متعددة للذخائر والمتفجرات، تنتشر على طول القاهرة وعرضها. وأفشى المصدر خبرًا عن حملة أمنية ضخمة تشنها وزارة الداخلية المصرية، بالتعاون مع القوات المسلحة والقوات الأمريكية، للكشف عن مخازن الذخيرة المخبأة في أشد مناطق القاهرة فقرًا واكتظاظًا بالسكان. وقال أيضًا إن خبراء المفرقعات أشاروا إلى أن ظروف التخزين السيئة تجعل من هذه المخازن قنابل موقوتة شديدة الخطورة.

جاء في بيان أوّلي أصدرته وزارة الداخلية المصرية، أن مباحث مديرية أمن القاهرة الجنائية تعاين مكان الحادث لتبين ملابساته، وأن الوقت لم يأن بعد للمسؤولين أن يصلوا إلى أي استنتاجات. ثم سارعت وزارة الداخلية إلى تأكيد خبر الماس الكهربائي في بيان تالٍ، بعده أمر النائب العام المصري، المستشار سعيد الزيات، بفتح تحقيق عاجل، وكلف فريقًا من نيابة شرق القاهرة الكلية بالانتقال إلى مكان الواقعة، لإجراء المعاينة المبدئية وحصر التلفيات التي لحقت بالممتلكات، والاستماع إلى أقوال شهود العيان.

المحلل الأمني أحمد يوسف، قال إن مثل هذه الحوادث كانت متوقعة في ظل انفلات العناصر المتشددة في الشارع المصري، ودعا وزارة الداخلية المصرية إلى تطوير خططها والارتقاء بتسليحها، محذرًا من أن العمليات الأمنية ضد الإرهابيين قد تدفعهم إلى استهداف المدنيين على نحو مباشر. اللواء ناجي سويلم، المحلل العسكري والإستراتيجي، قال إن جبهة المقاومة الإسلامية تخطط لاغتيال شخصيات قيادية في أجهزة الدولة السيادية، بهدف إحداث الفوضى، وذكر أن الضربات التي استهدفت الجماعات الجهادية ستدفع عناصر منهم إلى توجيه ضربات إلى الداخل، ولم يستبعد قيامهم بعمليات انتحارية ضخمة في التجمعات السكنية الكثيفة، مستدلًا على كلامه بحادث التفجير الأخير، ومستبعدًا في الوقت ذاته أن يكون نتيجة ماس كهربائي. ثم قال إن جبهة المقاومة الإسلامية وغيرها من الجماعات المتشددة تعاني من حالة هستيريا، بعد

fb/mashro3pdf

تكثيف الحملات ضد قياداتها، ودعا وزارة الداخلية المصرية إلى توجيه ضربات قاصمة إلى عناصرها، ودعا القوات الأمريكية كذلك إلى القيام بواجبها ومسؤوليتها الأخلاقية، بما لها من أهلية ومكانة، في حفظ الأمن ومنع الفوضى عن الشارع المصري، منعًا لتضرر مصالحهم في المقام الأول.

الصحف المصرية والعربية تبارت في دعوة مؤسسات الدولة المصرية إلى أن ينهض الكل بمسؤوليته، من أجل الحفاظ على الدولة وحمايتها. وتحت عناوين مثل «حتى لا تنهار مصر»، و«اقطعوا رؤوس الشر»، و «من الدولة إلى اللا دولة»، استحث رؤساء تحرير الصحف وكبار صحفييها قوات الأمن على الضرب بيد من حديد على المخربين والغوغائيين. وتساءلوا بكثير من القلق فيما يبدو، عما يحدّق بالأمة من أخطار، بسبب سياسة التصعيد والمواجهة التي تنفذها التنظيمات الإرهابية، وقالوا إن هذا الوضع يُنذِر بدخول الدولة المصرية في مواجهة مع فئات من المجتمع لا تلتزم بالقانون.

أصدر القائد العام للقوات المسلحة، المشير محمد صادق، بيانًا مشتركًا مع شيخ الأزهر، وبابا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ورئيس المجلس الأعلى للقضاء، وشخصيات سياسية بارزة من داخل الحكومة وخارجها، قالوا فيه إن تفجير عين البقرة عمل إرهابي خسيس وجريمة كبرى، وأدانوا اتجاه الجماعات المتشددة إلى تخزين المتفجرات في أماكن مزدحمة بالسكان. وقالوا إن المجتمع المصري شهد اتساع فكر التكفير، كما أن الخطاب السلفي الذي تنتمي إليه تلك الجماعات المتشددة اتسم دومًا بالحرية والاستعلائية. وأكدوا أن تمسك الحركة الإسلامية بخيار المقاومة المسلحة لم يحقن الدماء، ولم يحرر الأرض، ولم تترتب عليه أي فائدة. وأشاروا إلى أن انتشار السلاح وسهولة الحصول عليه، بخاصة المتفجرات، يعد مسببًا رئيسيًا من مسببات الفوضى في مصر، وناشدوا رجال الأمن أن ينفذوا سياسة توسيع الاشتباه لحقن الدماء. وأخيرًا دعوا وزارة الداخلية والقوات المسلحة إلى تحمل أعباء الظرف التاريخي، ودعوا الشعب المصري إلى التعاون مع الجيش والقوى الأمنية على بسط الأمن والابتعاد عن الفوضى والفتن.

على جانب آخر، رفضت بعض رموز المعارضة البيان المشترك؛ لأنه لم يتصدّ للاحتلال الأمريكي، ولم يُرجِع أصل الأزمة المصرية إليه، ولو بكلمة. لكن مهما تباينت ردود الأفعال وتلون سياقها، ومهما اختلف المراقبون حول ما إن كان الحادث مدبرًا أو

fb/mashro3pdf

عرَضيًـا، فقـد اتفقـوا جميعًـا عـلى أن انفجـار عـين البقـرة هـو الأكـبر بـلا منـازع بعـد الضربـة الجويـة الأولى، مـن جهـة عـدد الضحايـا، وقـوة الانفجـار، وكميـة المـواد المتفجـرة، والقيمـة الإجماليـة للممتلـكات التالفـة، واتفقـوا أيضًـا عـلى أنـه يمثـل مقدمـة لموجـة إرهـاب محتملـة، سـتقابلها حتمًـا حملـة وقائيـة ضاربـة ضـد العنـاصر المتشـددة في مـصر، وجزمـوا أنـه لا يمثـل نهايـة بقـدر مـا يمثـل بدايـة، «كالوجـود يتشـكل مـن العـدم، والحيـاة تخـرج مـن المـوت، والحركـة تنبثـق مـن السـكون»، كمـا تقـول العـرب.

* يقوم الكاتبان الصحفيان شادي محمد ومايكل إبراهيم بإرسال مقالاتهما من القاهرة.

حقوق الطبع والنشر محفوظة لـ«يو إس إيه توداي».

جميـع الحقـوق محفوظـة. غـير مسـموح بنـشر هـذه المـواد، أو بثهـا، أو إعـادة صياغتهـا أو توزيعهـا.

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

السابع من سبتمبر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

أعـاد الرئيـس ماكالـوم قـراءة نـص خطابـه عـلى شاشـة حاسـوبه المحمـول، ولـم يبـال بالنقـاش المشـتد الفـوران بـين أعضـاء فريقـه الأربعـة، المحشـورين جميعًـا أمامـه وإلى جانبـه، عـلى كـراسي مقصـورة المروحيـة الرئاسـية التابعـة لقـوات مشـاة البحريـة الأمريكيـة. أزاح سـتائر النافـذة الزرقـاء، وألقـى نظـرة عـلى الحقـول المتراميـة بالأسـفل، والمقسـمة عـلى نحـو هنـدسي إلى قطـع أراضٍ مختلفـة الألـوان. كانـت الشـمس قـد أشرقـت منـذ مـا يقـرب مـن سـاعتين، وتجـلى ضياؤهـا في الغـلاف الجـوي، كمـا غمـرت بسـطوعها المقصـورة وشـاغليها.

عـلى الكـرسي المواجـه لماكالـوم مبـاشرة، جلسـت إيلينـا فيكسـلبرج في ثـوب ضيـق أنيـق، حالـك السـواد، امتـد ذيلـه إلى ركبتيهـا بالـكاد، وكانـت قـد انتهـت للتـو مـن قـراءة عـدة تقاريـر ومقـالات عـن انفجـار عزبـة عـين البقـرة، عـلى مواقـع «نيويـورك تايمـز» و«يـو إس إيـه تـوداي» و«واشـنطن بوسـت». إلى شـمالها جلـس الجـنرال جوزيـف بيرجـر، رئيـس هيئـة الأركان المشـتركة، في بزتـه العسـكرية السـوداء، وإلى جـواره جلـس سـتيفن تريمبـل، وزيـر الدفـاع الأشـيب، بـبزة مدنيـة أنيقـة. تبادلـوا وجهـات النظـر حـول نتائـج تفجـير عـين البقـرة، ولـم يكـد أي منهـم يصـدق حجـم الخسـائر المدنيـة المذهلـة، الـتي تأوهـت لهـا وسـائل الإعـلام الأمريكيـة لعـدة أسـابيع، ومـا تـزال. لـم يسـتطع أي منهـم التعويـل عـلى مصداقيـة الروايـة الرسـمية، الـتي حبـك خيوطهـا الجـنرال حسـام داوود، ولـم يبـد أن وسـائل الإعـلام الأمريكيـة تريـد أن تصدقهـا.

في صبيحـة يـوم التفجـير، أعلنهـا الجـنرال حسـام لإيلينـا ظافـرًا، أن مـا تحقـق ليـس إلا نـصر واضـح ولا غبـار عليـه إطلاقًـا. ضغـط بقـوة لأجـل إنفـاذ خطتـه، بعـد أن تذبـذب الأمريكيـون، وأخـذوا يتسـاءلون عـن جـدوى إضرام النـار في منطقـة كثيفـة السـكان، في تلـك الدقائـق الحرجة مـن العمليـة. لـم يكـد الجـنرال المـصري يصـدق مـا يـراه منهـم، وضحـك سـاخرًا في وجـه إيلينـا، مُذَكّـرًا إياهـا بفظائـع أخـرى لـم يـتردد رؤسـاؤها في ارتكابهـا. لـم تـرَه إيلينـا عـلى صـورة كمثـل الـتي رأتـه عليـه وقتئـذ. كان جبـارًا بغيضًـا، شرسًـا عنيفًـا، توّاقًـا متعصبًـا. قـال لهـا بهيـاج: «الآن وقـد جاءتهـم فرصـة القيـام بعمـل واحـد مجـدٍ، تقعـون في تلـك الحـيرة المخزيـة؟» ثـم طفـق يقـول لهـا راجيًـا بغضـب: «فقـط دعيـني أُحـدِّث الرئيـس ماكالـوم. دعيـني أحدثـه رجـاءً.

fb/mashro3pdf

لو أنه في مرية من أمره، أستطيع أن أوضح له الأمور كافة». في تلك اللحظات، ولدهشة إيلينا، وعلى نقيض صورته المعتادة المراوِغة، بدا لها الجنرال ثابتًا على المبدأ، عنيدًا مقدامًا. ثم عادت وقالت لنفسها: «بل إنه هو هو الجنرال داوود، المغتنم للفرص، المستغل لنقاط الضعف دون اعتبار للغير أو للمصلحة العامة»، وذلك في الوقت الذي شدد فيه حسام على أنه إنما ينحاز إلى جانب المصلحة العامة، بقطع النظر عن أي خسائر جانبية. ثم إذا به يقول لها محتدًا في نهاية الأمر: «أرجو أن تلتزموا بجانبكم في الاتفاق. تراجعكم الآن ليس إلا خطأ فادح، ستدفعون ثمنه في أقرب وقت.»

ثم كان ما كان.

لم يشغل ماكالوم نفسه بموضوع الحوار، ولم يرد أن يشارك فيه، كما لم ير بأسًا فيما حدث؛ لأن رجاله خرجوا جميعًا من العملية سالمين، وتحصلوا على كمية غير مسبوقة من الوثائق المهمة، وصادروا جثة زعيم جبهة المقاومة الإسلامية الأسطوري، التي تم نقلها بالفعل إلى الولايات المتحدة، وإيداعها في ثلاجة بقاعدة فورت كامبل العسكرية. ما أقلقه، وعكّر عليه صفو هذا الإنجاز، خبو فرصة إعلان النصر. كان قد أعمل عقله في المسألة بجهد ومشقة، ليصل إلى نتيجة أو حل أو قرار، ولم يستطع، وكان هو من فتح الموضوع مع فريقه لأجل أن يصلوا إلى وسيلة، يمكنهم بها الإعلان عن النصر، وإلا فات الإدارة فضل إنجاز لم يسبق له مثيل منذ اندلعت حرب استنزاف الموارد في مصر، فإذا بالكلام ينحرف إلى جدل لا طائل منه.

لم تشارك إيلينا زميليها في حرارة النقاش، ولم تعدّهما موجودين على كل حال في خندق واحد مع الإدارة؛ ذلك أن الأول، رئيس هيئة الأركان، هو رأس العسكر المتمردين أنفسهم، والثاني، وزير الدفاع، هو رجل البنتاجون الرخو، الذي يبدو عاجزًا عن السيطرة على وزارته، ويتبع مدير التنظيم والإدارة في البنتاجون في كل أموره. رودجر جونز، مدير التنظيم والإدارة في البنتاجون، الجمهوري الهوى، تحسبه إيلينا واحدًا من أهم المطبات التي تواجه الإدارة الجديدة. عجوز خبيث، يُعِد نفسه عمدة البنتاجون، وعميد البيروقراطية العسكرية، وأبًا روحيًا لثمانية وزراء دفاع سابقين. هذا الرجل تحديدًا، تتخذ له إيلينا تدبيرًا ماكرًا، كانت قد عكفت على صنعه لشهور متوالية، يتعلق بماضيه الأخلاقي الملطخ ببقع رمادية، ومزاعم أخرى تدور حول تورطه في قضايا فساد أثناء

fb/mashro3pdf

خدمتـه الطويلـة في البنتاجـون.

عـلى جانـب آخـر، لـم تـرَ إيلينـا في تبـنّي عمليـة الإغـارة عـلى مـنزل أبي زكريـا أي جـدوى، بخاصـة مـع حجـم الخسـائر المدنيـة الضخـم، كمـا أن قتـل أبي زكريـا ومـن معـه، وكان معـه عـدد مـن أهـم قيـادات الجبهـة، لـم يكـن سـوى بدايـة، تتبعهـا ترتيبـات أخـرى ضخمـة وذات طابـع دعـائي برّاق، تهـدف إلى القضـاء عـلى جبهـة المقاومـة الإسـلامية ذاتهـا، وتصفيـة المتنمـين إليهـا كافـة. كانـت قـد قالـت للرئيـس إن الفضـل في مقتـل أبي زكريـا، لا بـد أن يعـود إلى قـراره الأول بإرسـال حشـود عسـكرية ضخمـة، وإن النجـاح في القضـاء عـلى الشـيخ العليـل، لا بـد أن يُعلـن في بـدء العمليـات، بعـد اكتمـال الحشـد، لإسـكات الأصـوات المعارضـة، وبسـط سـيطرة الإدارة الجديـدة عـلى مفاصـل الدولـة كافـة.

وهكـذا تركـت إيلينـا زميليهـا ومحاجتهمـا العقيمـة، ونظـرت إلى ماكالـوم. وجدتـه اليـوم كئيبًـا منطويًـا عـلى نحـو يثـير الرثـاء، ولـم تكـن تستسـيغ نوباتـه المزاجيـة القاتمـة تلـك، حـتى وإن تزامنـت مـع اندماجـه في جـولات تمحيـص ذهنيـة عميقـة. القيـادة النافعـة في رأيهـا، تقـوم عـلى العصـف الذهـني مـع المستشـارين. ثـم عـادت والتمسـت لـه العـذر في اللحظـة التاليـة مباشرة، وهـي ترمـق هـؤلاء المستشـارين بـازدراء، وتسـاءلت في نفسـها عـن جـدوى العصـف الذهـني مـع هذيـن المستشـارَيْن تحديـدًا، واعترفـت لنفسـها صراحـة أن الظـروف قـد أجـبرت ماكالـوم عـلى إسـاءة الاختيـار. كان قـد اسـتقر رأي الرئيـس فـور أن تـولى منصبـه عـلى اختيـار بـول ميريـت، سـناتور ولايـة نبرسـكا القـوي، لـوزارة الدفـاع، وكان اختيـارًا موفقًـا في رأيهـا. بـول ميريـت كان في ظنهـا رجـلًا حديديًـا مشـاغبًا، قـادرًا بـلا شـك عـلى الإمسـاك بزمـام البنتاجـون، وليّ إرادة القائمـين عليـه، وفقًـا لسـلطة الرئيـس الجديـد الدسـتورية. غـير أن مجلـس الشـيوخ رفـض ترشـيحه، في تحـدٍ مذهـل لـلإدارة الجديـدة، وكانـت أهـم عوامـل قلـق المجلـس، كمـا قيـل، «تضـارب محتمـل للمصالـح»، و«حيـاة المرشـح الشـخصية المشـبوهة».

تتذكـر إيلينـا تصريـح ماكالـوم الرسـمي، الـذي أدلى بـه للصحفيـين فيمـا يتعلـق بهـذا الموضـوع، وكان آنـذاك في مدينـة نيويـورك، في زيـارة لوحـدة مكافحـة المخـدرات هنـاك، حيـث قـال: «مجلـس الشـيوخ أصر عـلى قـراره بعنـاد. أنـا أحـترم الـدور الـذي يقـوم بـه النـواب بـلا شـك، لكنـني لا أوافـق عـلى نتيجـة التصويـت. ومـع ذلـك أقـول إننـا مدينـون للشـعب الأمريـكي بـأن نعمـل معًـا، وأن نمـضي قدمًـا إلى الأمـام». إلى الآن لـم تسـتطع إيلينـا أن تقطـع في شـأن

fb/mashro3pdf

استجابة الرئيس إلى تحدي سلطاته على هذا النحو المهين، لكنها أملت في أن يتسم تصريحه بقدر أكبر من الحدة والغضب. كانت تتصور نفسها في مكانه، هي، ذات الطبيعة المتململة المستقلة المقاتلة، الرافضة لأدبيات الحياة النيابية المفرطة في الانتهازية والوصولية والحقارة.

التفتت إيلينا إلى رئيس هيئة الأركان ووزير الدفاع، وقالت لهما على نحو قاطع، إنها تحدثت مع الجنرال داوود في هذا الشأن، بصفته صاحب المبادرة الأولى، والأكثر علمًا بطبيعة مسرح العمليات، وقد أبدى الرجل قبولًا لفكرة التكتم على مقتل أبي زكريا، وتحمس لتأجيل الإعلان عن نجاح العملية لحين اكتمال الحشد العسكري الجديد، كما تعهد مشكورًا بتقديم كل التسهيلات اللازمة إلى القوات الجديدة، وذلك عندما «نوفي بجانبنا من الاتفاق»، وأوضحت للرجلين أن الاستجابة الإعلامية في مصر تناقض مثيلتها في الولايات المتحدة إلى أبعد حدود التناقض، بفضل اتصالات الجنرال داوود وتشعب علاقاته وتمكنه من أدواته.

وقبل أن يرد عليها الرجلان، التفت الرئيس ماكالوم جهتهما، وقال بهدوء: «نعم، هذا ما كنت أفكر فيه، وهذا ما أوافق عليه».

ولم تكد المروحية الرئاسية «مارين وان» تستقر على مهبطها، حتى انتهت إيلينا من إبلاغ الحاضرين بالجدول الزمني المبدئي للمراحل التالية من العملية، ريثما تُعد مذكرة تفصيلية لاجتماع مجلس الأمن القومي القادم.

غادر الرئيس ماكالوم الطائرة، ووجد في استقباله مايجور جنرال ديفيد تانيس، القائد العام لقاعدة فورت كامبل العسكرية، مع نائبيه وعدد من رجاله. في إثر الرئيس خرج وزير الدفاع من الطائرة، وخلفه مباشرة خرج رئيس هيئة الأركان، وتأخرت عنهما إيلينا كما تقتضي قواعد البروتوكول. في غضون ذلك تلقت إيلينا رسالة ذات أولوية على بريدها الإلكتروني، فأصدر حاسوبها المحمول نغمة خافتة لتنبيهها. اختلست إيلينا نظرة إلى شاشة الحاسوب، وفحصت قائمة الرسائل التي لم تُقرأ بعد، واسترعت انتباهها رسالتان.

الأولى كانت من الجنرال حسام داوود. استهل داوود كلامه بالتحية، وأتبع التحية رجاءً حارًا لإيلينا بأن توصل الرسالة إلى السيد الرئيس، ثم قال موردًا رسالته إلى ماكالوم على النحو التالي:

fb/mashro3pdf

«إلى صاحب الفخامة، السيد روبرت ماكالوم، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

عزيزي وصديقي العظيم/

إن ما حدث في هذا الشهر، يُعد حدثًا استثنائيًا في تاريخ أمتكم العظيمة. وأقصد بهذا، العملية التي قامت بها قواتكم المسلحة، والتي قُتل فيها المدعو عبد القادر عواد، المعروف بأبي زكريا، زعيم تنظيم جبهة المقاومة الإسلامية، والإرهابي المسؤول عن مقتل آلاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال.

تقبّل تهانيّ على عملكم الرائع، وأرجو أن تُبلغ تحياتي إلى كل الضباط والجنود.

إنني بلا شك فخور بكوني جزءًا من هذه العملية الناجحة، وإننا لا ننسى أبدًا قتلى القوات المسلحة الأمريكية والمصرية على السواء، ونشدّ على أيدي أسر الشهداء بكل حب، ونتمنى الشفاء العاجل لكل مصاب.

لم يكن لهذا النجاح أن يتم، لولا العمل الدؤوب والبطولي للعسكرية الأمريكية، وخبراء مكافحة الإرهاب، الذين حققوا خطوات كبيرة، وعطلوا العديد من الهجمات الإرهابية المستقبلية، وعززوا الأمن الوطني الأمريكي والمصري. وإنني من هنا، أريد أن أؤكد أنني أعلم، وأظنني أتكلم هنا بلسان الشعب المصري، أن الولايات المتحدة ليست -ولن تكون أبدًا- في حرب مع دين الإسلام، كما أؤكد أن المدعو عبد القادر عواد، المعروف بأبي زكريا، كان قاتلًا لجموع المسلمين. ولهذا أود أن أُعرب عن يقيني بأن خبر وفاته عندما يُعلن، سوف يُدخل البهجة والفرح على نفوس هؤلاء المؤمنين بالسلام والكرامة الإنسانية.

وإنني أتقدم بالشكر الجزيل للرجال الذين نفّذوا هذه العملية؛ لأنهم يجسدون قيم المهنية والوطنية؛ ولأنهم يتحلون بشجاعة لا مثيل لها؛ ولأنهم من الجيل الذي أُلقي على كاهله عبء تجاوز حادث فبراير الموت الأليم. وإنني لأزعم كذلك أنك -يا سيدي الرئيس- واحد من أبناء هذا الجيل، بل وزعيم من زعامته، بل وقائده الأوحد.

أشكرك. وليبارك الله لك، وليبارك الله الولايات المتحدة الأمريكية، وجمهورية مصر العربية».

تتبعت إيلينا كلمات الرسالة نظرًا، وكانت في عجلة من أمرها، ثم ابتسمت ساخرة مدهوشة بعد أن فرغت من قراءتها، وقالت وهي تهز رأسها بعجب: «من أجل المولى،

fb/mashro3pdf

يـا جـنرال!».

تخطـت عـلى سـلم طائـرة القصـير في الـنزول، وانفرجـت أسـاريرها عـن ضحكـة خفيفـة أنيقـة، قابلـت بهـا مسـتقبليها. وأثنـاء توجههـا إلى صالـة الاسـتقبال في كوكبـة مـن العسـكريين ورجـال الخدمـة السريـة، نقـرت عـلى شاشـة الحاسـوب لتفتـح الرسـالة الثانيـة.

وتلـك الرسـالة كانـت مغايـرة تمامًـا لمـا سبقها مـن رسـائل، في اللغـة والأسـلوب والموضـوع، وقـد جـاءت مـن قِبَـل مُرْسِـل، مـا كان ليخطـر عـلى بـال إيلينـا أن تحـزره، وبفحـوى لـم تكـن لتترقـب الاطـلاع عليهـا، ولـو عاشـت لألـف عـام.

*****

السيدة العزيزة إيلينا فيكسلبرج/

أنتهز هذه الفرصة لأتقدم بأصدق وأخلص المجاملات لك ولعائلتك.

اسمي بترا، وأنا عارضة أزياء مغمورة، أو هكذا أُعرِّف نفسي للناس.

منـذ بضعـة أسـابيع، التقيـت مـع ابنـك جايكـوب، في فنـدق «سيليسـتيال» بـلاس فيجـاس. قضينـا معًـا وقتًـا ممتعًـا، وكنـا إذ ذاك بصحبـة أخـتي فيليبـا، وهـي أيضًـا عارضـة أزيـاء مغمـورة، أو هكـذا تُعـرِّف نفسـها للنـاس. بعـد أن قـضى منـا جايكـوب وطـره، قمنـا بتخديـره، وسـلبه كل متعلقاتـه.

وهكـذا تكونـين قـد أدركـتِ بالفعـل، أننـا لسـنا حقًـا عارضـات أزيـاء، وأن مـا فعلنـاه بجايكـوب، هـو مـا نفعلـه عـادة مـن أجـل كسـب الـرزق. ابنـك جايكـوب كان لطيفًـا معنـا بـكل تأكيـد، فلـم يقـم بضربنـا أو إيذائنـا لفظيًـا أو بدنيًـا، وهكـذا يكـون الحـظ قـد حالفنـا في هـذه المهمـة، وحالفـه أيضًـا؛ لأننـا في مهنتنـا هـذه، قـد نضطـر إلى أن نـؤذي عملاءنـا، لـو لاقينـا منهـم متاعـب مـن أي نـوع.

وبفحـص متعلقـات جايكـوب، بعـد أن تركنـاه يغـط في سـلام، فوجئنـا بـأن الحاسـوب المحمـول الخـاص بـه مُحَصَّـن عـلى نحـو احـترافي، ولحـد يفـوق المعهـود مـن وسـائل الحمايـة. وزيـادة عـلى ذلـك، وجدنـا الغالبيـة العظمـى مـن الملفـات المحفوظـة عـلى شريحـة التخزيـن مُشـفَّرة، الأمـر الـذي أثـار فضولنـا، وشـوَّقنا إلى معرفـة المزيـد. ولأننـا محترفتـان، تمكنّـا مـن

fb/mashro3pdf

فـك الشـفرات كافـة، والاطّـلاع عـلى الملفـات. ولـم نكـن لنُخمِّـن مـا رأينـاه وسـمعناه عـلى حاسـوب ابنـك المحمـول، ولـو عصرنـا دماغينـا لمليـون عـام.

غُنّيَ حاسوب جايكوب بمواد، يمكن نعتها -على أقل تقدير- بالإباحية العنيفة.

إن ابنـك جايكـوب، فيمـا بـدا لنـا، ولـوع بمشـاهدة مـواد جنسـية صادمـة، ذات محتـوى، قـد يعـد مـن قبـل البـشر الأسـوياء دمويًـا مقيتًـا مقـززًا. أنـا وأخـتي لا نتبـنى بالـضرورة معتقـدًا يديـن الإباحيـة العنيفـة، ولا نبـالي إن اشـتهى ابنـك الممارسـات الخشـنة، لكنـه فيمـا بـدا لنـا يفضـل الأفـلام الـتي يوجـه العنـف فيهـا إلى القُـصَّر عـلى وجـه الحـصر.

وجدنـا كذلـك عـلى حاسـوب ابنـك عـدة ملفـات فيديـو، نظنهـا الأكـثر إثـارة للرعـب عـلى الإطـلاق، تظهـر جايكـوب بشـحمه ولحمـه، وهـو يرتكـب مـا قـد تُعِـده سـلطات تطبيـق القانـون في أي بلـد في العالـم الحـر، جريمـة بشـعة، وفظاعـة مـن فظائـع عصرنـا الحديـث. هـذه الملفـات الأخـيرة، تشـعر المـرء بالغثيـان مـن دون شـك، لكننـا، أنـا وأخـتي، شـعرنا أيضًـا إلى جانـب الغثيـان، بدهشـة بالغـة؛ لأننـا بعـد أن اطّلعنـا عـلى هويتـه الشـخصية، علمنـا أنـه ابـن مستشـارة الأمـن القومـي الأمريكيـة، وأنـه ينتمـي مـن ثـم إلى عائلـة سياسـية وماليـة ثريـة، طـار صيتهـا إلى كل مـكان.

لـم نكـن متحققتـين مـن أنـك عـلى بيّنـة مـن طبيعـة الأنشـطة الـتي يمارسـها ابنـك في الخفاء، لذلـك يمكننـا، إن راودك أي شـك فيمـا نقـول، أن نرسـل إليـك عينـات مـن ملفـات الفيديـو المرئيـة، الـتي يمـارس فيهـا جايكـوب أفاعيلـه، وذلـك كي نعـزز قضيتنـا، ونثبـت مصداقيتنـا، رغـم أننـا نؤمـن بأنـه مـن غـير الملائـم أن نخضعـك لهـذه التجربـة المرعبـة. وأعـني بذلـك أن تشـاهد أم ابنهـا وهـو يرتكـب أفعـالًا مشـينة، تناصـب القانـون والإنسـانية العـداء، ويصـوّر نفسـه كذلـك أثنـاء ممارسـاته تلـك. فأنـتِ رغـم انتمائـك إلى طبقـة الساسـة المتسـلطين، والأثريـاء المتفحشـين، أمر، ولا تسـتحقين مـن ثـم أن تشـاهدي مثـل هـذه المشـاهد.

نكتـب إليـك اليـوم، لنبـادل صمتنـا عـلى هـذه الجرائـم بمبلـغ مـن المـال، هكـذا ببسـاطة، ودون لـف أو دوران. إن لـم نتلـقَّ منكـم، آل فيكسـلبرج، مبلـغ مئـة مليـون دولار، قبـل نهايـة هـذا الأسـبوع، أي في غضـون سـتة أيـام، سـوف نرفـع المـواد المرئيـة كافـة عـلى شـبكة المعلومـات الدوليـة، وسـوف نرسـلها إلى وكالات الأخبـار، الأمـر الـذي قـد يـؤدي إلى فضيحـة عالميـة، سـوف تدمـر مسـتقبلك السياسي بـلا ريـب، وتلقـي بالابـن العزيـز جايكـوب في غياهـب

fb/mashro3pdf

السجون، وتدمّر مستقبل أبيه المالي المزدهر.

أؤكد لك أننا قمنا بفروضنا المنزلية، ونعلم من ثمّ علم اليقين أنكم آل فيكسلبرج تملكون من الإمكانات المالية ما يكفي للوفاء بالتزاماتكم في اتفاقنا، على نحو سهل ومريح تمامًا، وخلال المدة الزمنية المتقدم ذكرها.

برجاء الرد على هذه الرسالة في أسرع وقت، عن طريق عنوان البريد الإلكتروني هذا، المذكور أعلاه. سأقوم بتزويدكم بالمزيد من التفاصيل، بخاصة التفاصيل البنكية، فور أن أتلقى ردكم السريع. لا حاجةِ لي أن أذكّرك، يا سيدتي العزيزة، بأنني وأختي قد اتخذنا من التدابير ما يكفل لنا تأمين نفسينا، وأن أي محاولة من قِبَلكم لأن تمكروا بنا، أو أن تُدخلوا بيننا طرفًا ثالثًا، أو أن تتبعوا آثارنا، سواء الآن أو لاحقًا، لن نقابلها إلا بنشر المواد المذكورة أعلاه على الفور، وعلى أوسع نطاق.

تفضلوا بقبول فائق الاحترام

بترا

*****

على النقيض مما ترقب جايكوب، كان اليوم جيدًا، بل وكاد أن يكون بهيجًا. هبطت الطائرة العمودية «مارين وان» منذ عدة ساعات في قاعدة فورت كامبل العسكرية، الكائنة في ولاية كنتاكي، واجتمع جايكوب مع رجاله ها هنا، في انتظار السيد الرئيس. تناهى إلى سمعه ورجاله أن الرئيس طلب رؤية فريق «ديث ستوكرز»، فاقترح عليه الأدميرال جوزيف ديتوماس أن يقدم شكره كذلك إلى فريق الطيارين المركزين هنا، والمعروفين باسم «نايت ستوكرز»؛ لأن الاهتمام والأضواء يُسلّطان دومًا على فرق القوات الخاصة، فلا ينال الطيارون شيئًا مما يناله أقرانهم الآخرين من التميز والعرفان. قال ديتوماس للرئيس ماكالوم: «سنجلب لك جميع اللاعبين إلى فورت كامبل»، واقترح كذلك أن يلتقي الرئيس بالفرقة المئة وواحد المحمولة جوًّا، وتلك كانت قد عادت للتو إلى الوطن، بعد قضاء جولة قتالية طويلة ومرهقة في مصر. وهكذا وجد الرئيس ماكالوم في جدول أعماله اليوم أربع مناسبات مختلفة في قاعدة «فورت كامبل»، يتعين عليه أن يختمها بإلقاء

fb/mashro3pdf

خطاب حماسي أمام أكثر من ألفي جندي وضابط.

دخل الرئيس ماكالوم القاعة في صحبة مستشارة الأمن القومي، ووزير الدفاع، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، والقائد العام لقاعدة فورت كامبل، وثلة من رجال الخدمة السرية المتجهمين. وفور أن رآهم الرجال، بادروهم بموجة تصفيق هادئة، ووجوه مرحِّبة جادة. لم يُسمح لأي منهم بالتقاط الصور الفوتوغرافية، ولا بالتصفير أو الهتاف، ولم يكن جايكوب ولا رجاله من هذا النوع من الجند على كل حال، كما لم يحب ماكالوم نفسه المبالغة في الترحاب والتكلف فيه. أخذ ماكالوم يصفق بهدوء هو أيضًا، أثناء تقدمه إلى طاولة الدرس في مقدمة القاعة، وارتدى على وجهه ابتسامة واسعة ودودة، قلما يُرى بها في غير أوقات الظهور الإعلامي.

خُصصت لهذا اللقاء قاعة درس صغيرة، نُصب في مقدمتها أنموذج مصغر متقن لمنزل أبي زكريا. جلس الضيوف على كراسيهم الجلدية، وبدأ مايجور جنرال ديفيد تانيس فاعليات الندوة بخطاب سريع، قدم فيه الحاضرون فردًا فردًا، بادئًا بروبرت ماكالوم، خالعًا عليه لقب «القائد العام للقوات المسلحة». بعدها نهض الأدميرال جوزيف ديتوماس، وألقى هو أيضًا خطابًا جادًا قصيرًا، شكر فيه الرئيس على الحضور، وعرض بعد ذلك جانبًا من جهود الاستخبارات والتخطيط التي بُذلت قبل موافقة القيادة العليا على القيام بالعملية، ثم تطرّق إلى مراحل التدريبات السريعة والشاقة التي سبقت العملية. شرح للرئيس ومرافقيه ظروف العمل في العاصمة المصرية على نحو دقيق، ومواصفات مسرح العمليات وطبيعة العمران فيه، وطبيعة السكان أنفسهم، والاختلافات الجوهرية بين نمط عيش هؤلاء الواقعين في نطاق سيطرة الإسلاميين، وهؤلاء الساكنين خارج هذه الدوائر الموبوءة.

نظر جايكوب إلى الأدميرال ديتوماس، الجالس إلى جوار الرئيس بعزّة وعظمة، وجالت في رأسه أفكار عدة. إن هذا القائد الفخم، صاحب الصورة المنمقة المهذبة المبرأة من الشوائب، المعروف عنه المبالغة في التقيد بالأعراف العسكرية والتشدد في التزام المبادئ والمُثُل الخلقية، هذا الأدميرال العظيم، في واقع الأمر، حرش أجش، انتقادي متهكم، عياب لاذع اللسان. يظن جايكوب أن ديتوماس، شأنه شأن رجاله كافة، قد اطلع على جانب من الحياة معتم، لا يتفق أن يطلع عليه إلا من هم في مثل مهنتهم، وهكذا

fb/mashro3pdf

لـم يعـد يبـالي بـشيء، كمـا لـم يعـد يبـالي رجالـه أنفسـهم بـأي شيء، بخـلاف الخـروج مـن مهامهـم أحيـاء. ولـو كان أمـر ديتومـاس كذلـك في الخفـاء والعلـن، لأعجـب بـه جايكـوب أشـد الإعجـاب، ولعـده بديعًـا جديـرًا بالاتبـاع، لكـن العـادة كانـت قـد جـرت بالضابـط الشـاب عـلى ألا يثـق بأحـد، كمـا لـم يجـد في نفسـه وسـعًا لأن يضمـر الاحـترام أو المهابـة لأي شـخص، ولـم يكـن يخالـف عادتـه تلـك في اسـتصغار القـادة واحتقـار الساسـة، إلا في أضيـق الحـدود الـتي تقتضيهـا أوجـب واجبـات العسـكرية الأمريكيـة.

لخمسـة أعـوام متتاليـة، عمـل جايكـوب ومجموعتـه تحـت إمـرة الأدمـيرال، فور أن تـولى هذا الأخـير مسـؤولية إدارة برنامـج «نمسـيس» الغاشـم، الـذي أطلـق يـد فـرق القـوات الخاصـة في تتبـع وقتـل المئـات مـن عنـاصر المقاومـة المصريـة، تلـك المنتميـة إلى التيـارات الدينيـة والـلا دينيـة عـلى السـواء، وشـملت دائـرة نشـاطهم كذلـك، أكاديميـين وتقنيـين متخصصـين ورجـال ديـن ونشـطاء، اشـتُبه في اقترانهـم بالمقاومـة أو تعاونهـم مـع أجنحتهـا العسـكرية بشـكل أو آخـر. يسـتطيع جايكـوب أن يدّعـي أن الأدمـيرال لا يخالـف جنـده مـن حيـث كونـه آلـة قتـل حاذقـة، مجـردة عـن كل غايـة، خالصـة مـن الوعـي والإدراك والضمـير.

لمـا أحـاط جايكـوب بحقيقـة الأدمـيرال علمًا، امتـلأ سرورًا بـه، ووجد في تـدني إنسـانيته هدوءًا نفسـيًا وراحـة. ثـم أحـس نحـوه بالمزيـد مـن الغبطـة، عندمـا رآه يرتقـي المراتـب العسـكرية، الواحـدة تلـو الأخـرى، مـن دون أن يلـتزم بأخلاقيـات الارتقـاء العسـكري السياسـية، فلـم يُعـرف عنـه مثـلًا النفـاق أو التزلـف، إنمـا تحـلى بحسـن التعبـير والرصانـة واللباقـة، وتغلـب عـلى خصومـه بواقعيتـه، وببعـده عـن ادّعـاء المثاليـة والشـكوكية والذاتويـة، وتجنبـه الالتبـاس بمظاهـر الفخفخـة والتعاظـم الملازمـة لأقرانـه ممـن يمتطـون طبقـات المجتمـع العسـكري السـامية.

عـلى مـدار سـنوات عملـه، أخلـص الأدمـيرال ديتومـاس لقيمـة الجنديـة المحضـة، الملطخـة بالطـين والـدم، التواقـة إلى القتـال والقتـل مـع سـبق الإصرار والترصـد، المقتحمـة لعوالـم الحـرب المميتـة بعصـف وعنـف. يعلـم جايكـوب أن الأدمـيرال الأنيـق النحيـف هـذا، لـو وضـع مـع رجالـه في ظـروف القتـال المعيشـية القاسـية، لتغـوط في الأحـراش بارتيـاح، ولعـاش في القـذراة أيامًـا دون شـكاية، ولتحمـل مـن الصعوبـات مـا هـو كافيًـا لهـدم الإنسـان العـادي، بنفـس راضيـة سـاكنة. بهـذه الـروح ذاتهـا، الـتي تعتنـق العفـن وتلتحـم بالقسـوة وتـؤدي

fb/mashro3pdf

الأعمال المنفرة القبيحة بيسر، يوقع الأدميرال على قوائم الاغتيالات، ويشير إلى نقاط تقع على الخرائط المصمتة، كي يتم قصفها بالقنابل الحارقة، ويأمر بأسر النساء والأطفال ويرسل بهم إلى مراكز الاعتقال والتعذيب، وهكذا دواليك، من دون أن يناقش أو يجادل أوامر رؤسائه من الساسة المتغلبين؛ لأنه أعلم الناس بالكيفية التي بها تدور تروس هذا العالم، وفي أي اتجاه يجري. هذا لا يعني أنه مصاص للدماء أو سادي مفترس، وإن كان ثمة ما يسعده ويمتعه في الحياة الدنيا، فالضربات الدقيقة الناجحة، التي تنال من أهدافه مباشرة، بأقل قدر من الخسائر بين جنوده والمدنيين الأبرياء على حد سواء. لكنه على صعيد آخر، لم يكن يبالي بذهاب الاشياء كافة إلى الجحيم، ولم يكن يتردد في أن يسلك سُبلًا غاية في الوحشية والدناءة والإجرام، من أجل إنجاز مهامه على أتم وجه.

وإلى تلك الميزات جميعًا، ورغم صفاقته الغالبة وخشونته، لم يعدم الأدميرال فضيلة التبسط مع الرجال قبل خروجهم إلى مهامهم، فيشد على أيديهم، ويدخل الثقة والسكينة إلى نفوسهم قدر المستطاع، وقد يذهب إلى أبعد من ذلك من أجل الترفيه عنهم، فينفق عليهم من ماله الخاص، بما لا يخالف القانون والأعراف العسكرية. وعلى هذا النهج سار جايكوب، اقتداءً بقائده سلوكًا وخُلُقًا، وزاد عليه في الإنفاق بمقتضى غنى عائلته الفاحش، فاكتسب بذلك حب رجاله وولائهم.

بلا شك كان خطاب الأدميرال مضجرًا لجايكوب، وإلا لما ترك ذهنه يهيم كل هذا الهيام، حتى أن صوت الأدميرال لم يعد ينمو إلى سمعه، إلا لما تعهد إلى الرئيس بأن يصحبه أحد الرجال في جولة دقيقة حول أنموذج مسرح العمليات، وبأن يجيبه عن استفساراته كافة.

سأله الرئيس ماكالوم على الفور قائلًا:

- من من هؤلاء الرجال أطلق النار على أبي زكريا، وقتله؟

هز الأدميرال رأسه آسفًا، وقال:

- هذا سؤال لا أملك أن أجيب عليه يا سيدي الرئيس.

سأله ماكالوم عن السبب، فأجاب ديتوماس قائلًا:

- كنت قد تعهدت إلى الرجال بهذا، كي لا ينماز أحدهم ويبدو فضله على الآخرين، وجميعهم سواء في جهة التفاني وتأدية الواجب.

fb/mashro3pdf

قبل ماكالوم عذره، فأنهى ديتوماس خطابه، وعَرّف الرئيس بضابط الصف، لورانس كاسبر، قائد الطائرة «جوست كوبرا». تحدث الرجل بتحفّظ، ولم يكن رخي البال، بل اعتراه شيء من التوتر أمام هذا الجمع من القادة الكبار، بيد أنه شرح دور الطيران في العملية بمهارة وطلاقة. بعده تحدث الكابتن جوزيف أودونيل، قائد فريق «ديث ستوكرز»، وكان جادًا في حديثه إلى حد القسوة، كما كان على النقيض من الطيار تمامًا، هادئ البال مطمئنًا إلى الحديث أمام الحضور، بل بدا مستلذًا متحديًا إذ يتصدى للموضوع المنوط به شرحه. توجه أولًا بالشكر إلى طيار «الجوست كوبرا»، الذي مثّل بطائرته العمود الفقري للعملية، ثم أسهب في حديثه عن قدرات الرجال التي أُصقلت على مدار سنوات طوال، وأثنى كذلك كل الثناء على زملائهم الذين قُتِلوا في مهام سابقة.

اجتهد ماكالوم لأجل أن يتابع سيل المعلومات المنهمر على سمعه من كل جانب. كان ينظر بين الحين والآخر إلى مستشارة الأمن القومي، وكان قد انتبه إلى تغير وجهها عندما أدلى إليها بملاحظة ما، قبل عدة دقائق، ولم تكد تستجيب. التقطت عيناه ارتعاش أصابعها، وزيغان عينيها، ونما إلى سمعه الحساس تنسمها الثقيل. ثم ما لبث أن تغافل عنها وشغل نفسه بالنظر إلى وجوه رجال العمليات الخاصة. تعجب لما رآه فيهم من اعتيادية، وكانوا وسطًا بين كل شيء، وغير مثيرين للاهتمام بالمرة. أما وجوههم، فعكست توسط القيمة واعتدال الجودة أو ضآلتها، باستثناء واحد منهم أو اثنين على أقصى تقدير.

دُهش لتغابيه إلى هذا الحد البعيد عن السمات الشكلية لرجال العمليات الخاصة، وتساءل عن مدى التغير الذي اعتراه منذ ترك الخدمة وتنعم في رغد العيش السياسي وبطالته، حتى انطبعت في ذهنه عن رجال «ديث ستوكرز» صورة سينمائية عنصرية متضخمة. لم يكن قد رأى أحدًا منهم قبل اليوم، ذلك أن تاريخ إنشاء هذه الوحدة القتالية يعود إلى ما بعد تاريخ تركه الخدمة. نعم، بدوا جميعًا ممشوقي الأبدان، إنما على نحو اعتيادي، لا يختلف في التناسق وحسن الشكل عما قد يحوزه الشخص الرياضي العادي من العوام، وتراوحت أعمارهم كما بدا له بين نهاية العقد الثاني إلى بداية العقد الرابع، وكان منهم من وَخَط الشيب رأسه. لم يخامر الشك ماكالوم في أنه لو اتفق له أن يراهم في غير ملبسهم العسكري، لظنهم جماعة من المهنيين المتوسطي الذكاء، من المحاسبين والمصرفيين وموثقي التوكيلات. إن من أهم ما يميز هؤلاء الرجال،

fb/mashro3pdf

ليس القدرات البدنية فحسب، وهي وإن كانت مستترة، فهي واقعة بلا ريب، إنما خبراتهم الفذة وقدراتهم العقلية المتألقة، المتأتية من تعاطيهم القتال على الدوام. هكذا قال ماكالوم لنفسه، ثم انتبه في اللحظة التالية إلى واحد من أطول شباب المقاتلين وأحسنهم صورة، وقد انتصب واقفًا، وتصدى للكلام.

بصفته قائد فريق «العيون الحمراء»، وواحد ممن كانوا على الأرض، تحدّث جايكوب أخيرًا. لفت الشاب نظر الرئيس بقوة بنيته وحسن صورته، وعرفه فورًا من اسمه. أخذ جايكوب الرئيس في جولة حول الأنموذج الدقيق لمنزل أبي زكريا، وكشف له بعضًا من خفايا العملية، وأطال في الإيضاح لما وجه إليه الرئيس العديد من الأسئلة المستبينة. دُهش جايكوب من صغر سن ماكالوم، وكانت المرة الأولى التي يراه وجهًا لوجه، وبدا له أقصر مما يبدو على شاشات التلفاز، لكنه أثلج صبرًا أن تبسّط معه القائد العام للقوات المسلحة دون غيره، وخصّه بالاستفسار وراء الاستفسار. تناول جايكوب منجزات المهمة، التي قد تفوق في أهميتها -في رأيه- أهمية قتل أبي زكريا ذاته وأمرائه المقربين، مثل العثور على عشرات الكيلوجرامات من الوثائق والبيانات الورقية والرقمية، واكتشاف التجويف الأرضي وما فيه من متفجرات، وتلك أعطتهم صورة واضحة عن نوعيات المواد الخام التي يستخدمها تنظيم الجبهة الإسلامية، وما إلى ذلك. ثم عَبَّر عن شكره للرئيس على قواعد الاشتباك المرنة، التي أتاحت له ولرجاله إتمام المهمة على أفضل وجه، من دون وقوع خسائر في صفوفهم.

ولما اكتفى ماكالوم، عاد وجلس إلى منضدة الدرس، وقال بتقريرية محضة، ومن دون أن يطفو على وجهه أي تعبير، أنه إنما أعطى الضوء الأخضر لهذه العملية، وقد وضع في حساباته ما قد يترتب عليها من خسائر فادحة في أرواح المدنيين، وذلك لثقته التامة في كفاءة مقاتلي فريق «ديث ستوكرز»، وقال كذلك إنه أنفذ عزمه بتغيير قواعد الاشتباك، كي يضمن للرجال فرصتهم الكاملة في الفتك بعدوهم، من دون وقوع خسائر جانبية في أرواح جنود أمريكيين، يستحقون العودة إلى وطنهم سالمين. لم يغفل ماكالوم ذكر دوره في الأحداث، وقال: «خلال الأسابيع الماضية، اجتمعت مرارًا مع فريق الأمن القومي، ولم آمر بالتحرك إلا بعد التحقق من اكتمال المعلومات الاستخباراتية»، ثم عاد وأكد قائلًا: «وبتكليف مباشر مني، قمتم أنتم، الفريق الصغير من الشباب الأمريكي،

fb/mashro3pdf

بشجاعة واقتدار منقطعي النظير، باقتحام منزل الإرهابي الأكثر شهرة، ولم يُصَب أي منكم بضرر، بفضل الرب». ثم ذيّل خطابه بأن أطلق على الحضور وصف «أفضل مجموعة مقاتلة في العالم».

في نهاية الندوة، قلّد الرئيس مقاتلي «العيون الحمراء» وطياري «الجوست كوبرا» وسام الإشادة الرئاسي، الذي يعد أرفع وسام تمنحه الدولة لوحدات القوات المسلحة الأمريكية، ثم سلم بعد ذلك على الرجال يدًا بيد، وتجاذب أطراف الحديث معهم بود.

وإذ يقف جايكوب وسط الجمع منصتًا لكلام السيد الرئيس أحيانًا، وسارحًا بأفكاره بعيدًا في أحايين أخرى، استرعى انتباهه على حين غرة مستشارة الأمن القومي، إيلينا فيكسلبرج، أمه، وكانت تحدجه من بعيد، من وراء الجموع ومن بين الرؤوس، بنظرة حادة، من عينين لاهبتين مفعتين بالمقت.

*****

fb/mashro3pdf

بحساب الأسابيع والشهور، لم يعلم عمر كم مضى عليه من الوقت وهو رهن الاعتقال، لكنه علم محال اعتقاله، الواحد تلو الآخر؛ لأن سجّانيه لم يبخلوا عليه بذاك الخبر.

وبين مقار الأمن الوطني في القاهرة، وسجن أم العريط، ومعسكرات الاعتقال الأمريكية، ظل عمر يسأل نفسه دومًا عن السبب الذي يدفع إخوانه وزملاءه إلى توقيع ما يُملى عليهم من اعترافات، وانتهاؤهم من ثم إلى التدلي من أعواد المشانق. لم يكن ليطعن في النوايا، حاشاه، ولا ارتاب بهم ولا تشكك في حسن بلائهم، فهم جميعًا من الموالين لله ولرسوله وللمؤمنين، وهم جميعًا ممن تظهر مقتضيات الولاء والبراء على ألسنتهم وجوارحهم، وهم جميعًا من السائرين في ركب المقاومة، ومن المتبعين المخلصين لشيوخها. وكذلك كان عمر. لم يكن يسمح للشك بأن يراوده، ولو حدثته نفسه الأمارة بالسوء في هذا الأمر أو ذاك مما قد يصدر عن شيوخه من أفعال، وما قد يترتب على أحكامهم من خسائر، لا يزيد عن أن يدفع الأفكار كافة عن رأسه، أو أن يندها غضبًا، وذلك بأن يستحضر الله في قلبه، فيثني عليه ويحمده ويسبحه ويمجده.

قَسَّت سنوات الحرب المتصلة قلب عمر، وطهرته رويدًا رويدًا مما كان قد شابه في سالف الزمان من لين ورهافة، وتحت ضغوطها النفسية الشديدة عاش على الحافة، فإذا به يتآلف مع قرحه المعدية وفقدانه الشهية العصبي وصداعه النفسي من ناحية، ويتكيف من ناحية أخرى مع الدمار والموت إلى حد البلادة الذهنية، وهي بلادة لم تحرمه الذكاء والفطنة والمضاء في الأمور، إنما حرمته الاعتبار بآلام الضحايا من المدنيين وذويهم؛ لأن النزاعات الكبرى بين الأمم في ظنه، لا تقتضي الالتفات إلى تفاصيل جانبية دقيقة، إنما تفرض على المتواجهين معركة جمعية لا تُميز بين الدقائق والمكونات. وبالنتيجة، لم يجد عمر عذرًا لهؤلاء النفر من إخوانه، الذين أذعنوا للضغوط واستخذوا للجلادين، إما بالإدلاء بما لديهم من معلومات قد تؤذي القضية ككل، أو بالتسليم باعترافات كاذبة قد تؤدي إلى تلف النفس وإيذاء الغير، والضحايا في الحالتين يسقطون، وذوو القربى يُشَرَّدون، والأعراض تُنتهك، والدماء تُستَحَل. وهكذا أيضًا لم يجد غضاضة في أن يتلقى المرجفون من هذا الفصيل أو ذاك رصاصة في مؤخر الرأس، ولم يجد عيبًا في أن يُحَد الخونة

fb/mashro3pdf

والمذنبـون، ولا وجـد بأسًـا في أن يبتـدع شـيوخه في سـبيل ذلـك البـدع، مثـل الحـرق وقطـع الآذان والألسـنة، وبقـر البطـون وثقـب الأعـين، وعـد ذلـك مـن قبيـل فـقء الدمامـل لإخـراج مـا فيهـا مـن قيـح. وإن ذلـك بـلا شـك أفضـل مـن أن تشـتعل فتائـل الفـتن والاضطرابـات، أو أن يخـرج الجنـد عـن الإجمـاع أثنـاء معركـة مصيـر تخوضهـا الأمـة.

بهـذه الـروح الوثابـة المتحديـة، جابـه عمـر سـجانيه الأمريـكان، واسـتصغر أثنـاء ذلـك كل مـن خضـع مـن إخوانـه مـن المعتقلـين، ممـن ظـن بهـم التحـلي بالإخـلاص وشـدة العـزم. كان للمحققـين الأمريـكان أسـاليب خبيثـة، ينسـجون بهـا شـباكًا مـن الشـك حـول معتقليهـم، وذلـك مـن أجـل أن يتوهـم المجاهـدون المناضلـون، الصابـرون المحتسـبون، أن جهودهـم فاقـدة القيمـة، وأن مـا آمنـوا بـه قبـلًا لـم يكـن إلا بدعًـا وانحرافًـا، وأن قرباتهـم إلى اللـه ذهبـت هبـاءً، فـكأن إدراكهـم الداخـلي وإيمانهـم بخيريـة سـعيهم وسـمو رسـالتهم مُحيـا بالكليـة، وكأنهـم يتسـاءلون في حـيرة: مـن نحـن؟ مـاذا فعلنـا؟ ولأي هـدف؟ مـا أهميـة معاناتنـا؟ لأي شيء قتـل أهلونـا؟ ولأي شيء يمـوت النـاس؟ ومـا فائـدة هـذا العـذاب كلـه؟

رأى عمـر الرعـب في أعـين إخوانـه، واستشـعر الالتبـاس والارتيـاب والاضطـراب في نفوسـهم، ولـم يعذرهـم بهوانهـم عـلى النـاس، ولـم يعذرهـم بقلـة النـوم. حسـب المعتقلـون الحرمان مـن النـوم أشـد أنـواع البـلاء الـتي ينزلهـا المحققـون الأمريـكان بهـم، أمـا عمـر، فقـد تصلـد قلبـه ولـم تأخـذه بإخوانـه رحمـة لمـا رآهـم يضعفـون ويفرطـون؛ لأن الحرمـان مـن النـوم لـم يكـن لـه بمثابـة العـذاب الأليـم. كان الفـتى قـد طبـع منـذ صغـره عـلى قلـة النـوم، وحـب اليقظـة في الليـل والنهـار. عـلى النقيـض مـن ذلـك كان وقـع الحرمـان مـن النـوم عـلى إخوانـه مـن المعتقلـين. لـم يمـارس المحققـون الأمريـكان عملهـم إلا ليـلًا، ولـم يتركـوا ضحاياهـم إلا فجـرًا. وإذ يعـود الأسـير إلى زنزانتـه كليـلًا مسـتنزفًا، توّاقًـا إلى سـاعة أو سـاعتين مـن الراحـة، وذلـك قبيـل شروق الشـمس مباشرة، يـدق جـرس الاسـتيقاظ، ويقتحـم الجنـد العنابـر لإيقـاظ هـؤلاء الذيـن غلبهـم النعـاس للتـو. حظـر النـوم أثنـاء النهـار بطبيعـة الحـال، وكان الحـرس في هـذا الشـأن أجلافًـا جاسـئين عـلى نحـو أشـد، فلـم يعصـوا التعليمـات قيـد شـعرة، ولا قـصروا في ضرب أي معتقـل يغفـو في غـير أوقـات النـوم المعلومـة. كانـوا يأخذونهـم بالنـواصي، ويطلقـون عليهـم الـكلاب المتوحشـة، ويلقـون عـلى وجوههـم المـاء السـاخن، أو مـا هـو أسـوأ.

fb/mashro3pdf

يمـر النهـار عـلى الأسرى في هـذا العـذاب، ثـم يعقـب النهـار ظـلام فاحـم، تـأتي معـه الهمـوم والوسـاوس، ثـم يجـيء المحققـون، وتسـتمر الاسـتجوابات وفيهـا مـا فيها مـن ضغوط بدنيـة ونفسـية، لسـاعات وأيـام وأسـابيع وأشـهر، الأمـر الـذي يـورث المعتقلـين نـكالًا غليظًـا مسـتديمًا، يـكاد بمـا يبثـه مـن ألـم أن يكـون خارجًـا عـن مقولـة الزمـان، موجـود بـلا بـدء ولا نهايـة. وإن انتهـى أو تبعـه شيء، فـلا يكـون مـن بعـد ذلـك إلا غيمًـا سرمديًـا أغبـش، لا لـون لـه ولا رائحـة، يعمـي الأبصـار ويغـشي العقـول. يرتبـك الأسـير، ويتشـوّش ذهنـه ويتضبـب فكـره ويجثـم الإعيـاء عـلى صـدره. يضغـط عليـه النعـاس وينقـل روحـه، يثقـل أعصابـه ولحمـه، ويـكاد أن يلصـق كيانـه بـالأرض. يلـزم السـجين حفـرة النـار الضيقـة هـذه، ولا يغادرهـا أبـدًا.

رأى عمــر أحســن إخوانــه بــلاءً وأقســاهم قلبًــا، أولئــك مــن ظنهــم حازمــين راســخين صارمــين صامتــين، رأى هــؤلاء يُهدمــون ويُدحــرون، ولا يرومــون مــن دنياهــم إلا النــوم. رآهـم يسـتعطفون محققيهـم، يسـتجدونهم المعونـة، يطلبـون النـوم ولـو لسـاعة. رآهـم يســترحمون، يتوســلون إلى جلاديهــم، يطلبــون النــوم أو المــوت.

نقـم عليهـم عمـر واستسـخفهم وازدراهـم؛ لأنـه اسـتطاع بمضـاء العزيمـة وصحـة التـوكل والإخـلاص في طلـب المعونـة مـن اللـه أن يغلـب محققيـه في هـذا الشـأن، ولـم يكـن في الأمـر معجـزة. كان قـد ابتـدع لهـذه المشـكلة حـلًا، اسـتوحاه مـن معاشـه في الخنـادق، أيـام الحـرب الأولى، وكان آنـذاك يغفـو بعينـين مفتوحتـين. لـم يكـن يبـالي بالجـوع ولا بالعطـش، ولـم يكـن يـأكل إلا أقـل القليـل، وكان ينتفـع بأوقـات السـكون في الغفـو بعينـين مفتوحتـين. كان يعـزل وعيـه عـن محيطـه، ويفـك ارتباطـه العقـلي بالوقائـع، ويصـد دماغـه عـن معالجـة المدخـلات البصريـة، فـإذا بنفسـه تطفـو عـلى سـطح سـاكن، كمثـل المنـوَّم مغناطيسـيًا. ثـم إنـه، متكئًـا عـلى صمـوده هـذا، عامَـل محققيـه وفقًـا لشروطـه هـو، ورفـض مـن ثـم التوقيـع عـلى أي مسـتند، وحـاول قـدر المسـتطاع أن يضللهـم، وأن ينهكهـم بنقاشـات عقيمـة حـول أمـور وهميـة أو تافهـة، ووقائـع لـم تحـدث، وأخـرى لـم يكـن لـه بهـا علـم ولـم يتـورط فيهـا بـأي حـال. سـار عـلى المنـوال نفسـه مـا شـاء اللـه لـه أن يسـير، إلى أن جـاء إليـه «صديقـه كارتـر»، الـذي أوقـع بـه صنوفًـا جديـدة مـن العـذاب البـدني، صمـد لهـا مـا شـاء اللـه لـه أن يصمـد.

ثـم أوقعـه سـوء طالعـه في قبضـة اللـواء حسـام داوود.. الثعبـان الأقـرع.. أو لعلـه سـوء عملـه، أو سـوء ظنـه بإخوانـه.. فـإذا بـه الآن.. يعلـم اللـه وحـده مـا هـو فيـه.

fb/mashro3pdf

يحلو لعمر في أيامه الحالكة هذه، أن يذكر بمرارة «انتصاراته المجيدة» على الأمريكان، الذين مهما شطوا، يراعون حدًا أدنى من حقوق الإنسان، حتى وهم ينتهكون حقوق الإنسان. لم تنحرف طرائقهم قط إلى الإيذاء البدني الوحشي، من قبيل القطع والبتر والسلخ والحرق، ولا جرّبوا فيما أتيح له أن يعلم أساليب الضغط الجنسي الغليظ، من قبيل الزج بأشياء باردة وساخنة، إنسانية وصناعية، في القبل والدبر، وإلحاق الأذى من ثم بالأعضاء الداخلية. كان من حسن طالعه آنذاك أن جرى اعتقاله في ظل تغيير أساليب الضغط على المعتقلين، وهو التغيير الذي فرضته الإدارة الأمريكية الجديدة على محققي وكالة الاستخبارات المركزية، والذي من شأنه التخفيف من غلظة تقنيات الاستجواب المتطورة. دخل عمر المعتقل وقد بلغت شهرة قضايا التعذيب آفاق الدنيا، وصارت فضيحة دولية لطخت سمعة وكالة الاستخبارات المركزية والولايات المتحدة الأمريكية. كانت الوكالة قد عمدت إلى تزويد وزارة العدل الأمريكية بمعلومات تفتقد الدقة على نحو متكرر، وأعاقت كذلك اطّلاع مجلس الشيوخ على برامجها لاستجواب المعتقلين، ورفضت الخضوع لأي إشراف نيابي أو رئاسي، فإذا بها تفسد مهمات تتعلق بالأمن القومي، وتجشم دافعي الضرائب تكلفة مالية جسيمة، وتُورِّط موظفيها العاملين في مصر في قضايا فساد مالي. عرف عمر هذه الحقائق وأكثر، وأدرك من البداية أن الأساليب الوحشية القديمة التي سمع بها شباب المقاومة بعضهم من بعض، وتناقلوا خبرها بينهم برهبة، لن تُطَبَّق عليه في الأرجح، وكان مطمئنًا كذلك على ذويه؛ لأنه لم يتبق له رحم في مصر؛ ولأن هويته لم تكن معروفة، ولم يكن وقتذئذ إلا معتقلًا عاديًا من آلاف المعتقلين الآخرين، الذين يدورون بعشوائية بين مقار الأمن المصري وسجونه، ومقار وكالة الاستخبارات الأمريكية ومعتقلاتها.

تتشعب ذكريات عمر وتتفرع ويستدعي بعضها بعضًا، فإذا به يستحضر بشجن ما فعله به «كارتر» وأسلافه، مما عدوه «مستويات شديدة من الضغط»، مثل التعرية والإهانة والسفع والصفع باليد والعصا على الوجه وأماكن حساسة أخرى، والرش بالماء البارد، والحرمان من النوم. يتبسم عمر ببؤس وسخرية مريرة في أيامه هذه، عندما يتذكر تورم قدميه بعد أن أُجبِر على الوقوف منتصبًا ليومين متتالين. في اليوم الثالث أرسله «كارتر» إلى الأطباء للعلاج، وهؤلاء داووه بضمادات التجلط، ولم يبخلوا عليه

fb/mashro3pdf

بالعناية والمتابعة. يتذكر «رغد العيش» هذا، ويقارنه بما هو فيه الآن، في سجن أم العريط، تحت إدارة المصريين، الذين يمارسون عليه أساليب ضغط أشد قسوة، رغم تعاونه معهم. أشبعوه ضربًا وشتمًا وإغراقًا، وقهروه وحقّروه وأساؤوا النيل من كرامته إلى أن لعق التراب. لقد تعرض عمر إلى الإغراق خلال الأسابيع الفائتة ما يزيد عن المائتي مرة، وفي كل مرة ينتهي به الأمر إلى التشنجات والقيء وفقدان الوعي. ورغم معاناته وآلامه، لم يجد في نفسه طاقة لأن يوازن بين ما هو فيه، والمجزرة الجارية في الطابق السفلي للمعتقلين الآخرين وأسرهم.

لم يكتفِ سجانوه بإسماعه صرخات المعتقلين بالأسفل لإرهابه، إنما جاؤوا له ذات مرة برأس إنسان ملتحٍ في وعاء مُترَع بالدم، وجاؤوا له مرة أخرى بثدي امرأة بتر من أصله، ومرة ثالثة برأس طفل مغمض العينين على طبق من الصاج، ولم يكن قد تجاوز الخامسة من العمر فيما يبدو. منذ يومين أو ثلاثة عرضوا عليه فيلمًا قصيرًا، «أرسله إليهم مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي من الولايات المتحدة رأسًا، تحديدًا من جيرسي سيتي»، أو هكذا قالوا، وفيه يواقع أخوه الطبيب المصري المحترم امرأته الطبيبة المصرية المحصنة الغافلة، في فراش الزوجية. تحلق حول عمر ضابط الأمن الوطني وثلاثة من معاونيه، وتابعوا «الفيلم الجنسي» بشغف، وتبادلوا النكات الفاحشة والتعليقات البذيئة فيما بينهم، فيما يُجبِر معاون رابع عمر على فتح عينيه والنظر إلى المشاهد الفظيعة.

كيف استطاع أن يثبت، وأن يستمر متحملًا هذه الشدائد المحرقة؟ لا يطرح عمر هذا السؤال على نفسه قط؛ لأنه لم يثبت ولم يتحمّل. كل ما هنالك، أن المحققين المصريين لم يكافؤوه على حسن تعاونه معهم، بل تمادوا في إذلاله وأمعنوا في تعذيبه، وهو الأمر الذي لم يتمكن من فهمه أو الإحاطة بأسبابه على نحو واضح، وكان فوق ذلك بمثابة المخالفة الصريحة لتعهدات اللواء حسام داوود، وبمثابة الخرق الفاضح لشروط تعاقدهما. وإن كان ثمة شيء أعمل فيه عمر فكره، ففي الكيفية التي أدار بها تجربته الذاتية مع الاستجواب والحبس في المعتقل الأمريكي، مقارنة بتجربته الذاتية في المعتقل المصري. عد عمر تجربته الأولى تحديًا ذهنيًا، أو مباراة ذكاء، إلى جانب كونها صراع بقاء من دون شك. الآن يسأل نفسه وهو يذوق من العذاب ألوانًا، الليلة بعد الليلة،

fb/mashro3pdf

واليـوم بعـد اليـوم، ولأجـل غـير مسـمى، يسـأل نفسـه باختنـاق وذهـول: كيـف تعمـل هـذه المنظومـة؟ مـن يديـر هـذه الأنشـطة؟ ولأي هـدف؟ مـا الـذي يحـاول المحققـون الوصـول إليـه، بعـد أن أدلى إليهـم بالفعـل بـكل مـا يعلـم؟ هـل في المسـألة منطـق؟ هـل ثمـة قيـاس أو معيـار يُرجـع إليـه وقـت اللـزوم؟ هـل يحكـم تصرفـات الجلاديـن فلسـفة مـا أو لوائـح؟ هـل هنـاك حـد معـين، يتعـين عليهـم الوقـوف عنـده؟ هـل يديـر القائمـون عـلى هـذا الأمـر توحشـهم، أم أن كل الاحتمـالات والتجـارب مطروحـة عـلى طاولـة العمـل؟ هـل سـيأتي عـلى المحققـين لحظـة مـا، يقطعـون فيهـا بانتفـاء الجـدوى مـن بقائـه بـين أيديهـم؟ وهـل يملـك أن يأمـل في الحفـاظ عـلى سـلامته العقليـة؟ هـل يأمـل في أن يحافـظ عـلى احترامـه لذاتـه، ولأفـراد أسرتـه الذيـن رآهـم يتسـافدون تسـافد الحمـير؟ هـل يأمـل في أن يحافـظ عـلى تمسـكه بدينـه، وإيمانـه بربـه؟ أيـن العـدل في هـذا الكـون، وقـد أبـاح الخالـق لرذالـة خلقـه وشرارهـم أن يسـتبيحوا دمـاء وأعـراض عبـاده المؤمنـين؟ كيـف يسـمح الخالـق القديـر لهـذه الأعمـال، الموجهـة ضـده في جوهرهـا، بـأن تجـري عـلى قـدم وسـاق هكـذا، دون موانـع؟ لمـاذا يسـمح دومًـا للـشر بـأن يتغلـب، وللقبـح بـأن ينتـصر؟ هـل يأمـل عمـر في ألا يُمسـخ قـردًا أو خنزيـرًا، وقـد سـمح لهـذه الأفـكار بـأن تـراوده؟ هـل يأمـل في ألا يرتـد عـن الإسـلام، ويكفـر كفـرًا لا إيمـان بعـده؟

إن عمـر هـذا، العنيـد المتزمـت، الـذي وقـف أمـام محققيـه الكفـار وقفـة رجـل أبيّ، وواجههـم بتهذيـب وقـوة وتماسـك، وتكـبر عليهـم وألحـق بهـم الهزائـم المعنويـة، عمـر هـذا هـو نفسـه، لـم يعـد يعلـم الآن شـيئًا عـن قيمـة الأشـياء والبـشر والعقائـد. لـم تقتـصر جهـود محققيـه المصريـين عـلى ضربـه وازدرائـه، بـل غرسـوا في أعمـاق ذاتـه بـذور الكفـر. كانـوا يطرحـون عليـه السـؤال تلـو السـؤال، بجـد وأسـف وصـدق، في فواصـل الامتهـان والتعذيـب، وكانـوا يلقـون إليـه بالمـودة في أحلـك لحظـات اندحـاره، تلـك الـتي يتمعـر فيهـا وجهـه، وتدمـع عينـاه، ويتـوق فيهـا إلى التواصـل مـع أي أحـد، ولـو مـع إبليـس اللعـين. وعندئـذ يسـأل ويجيـب. هـل هـذا الوطـن الـذي يقاتـل لأجلـه يسـتحق؟ وهـل هـذا الديـن الـذي يُقتـل في سـبيله الرجـال والنسـاء والأطفـال، ويُجـزرون كمـا يُجـزر البقـر، ويُسـلخون كمـا تُسـلخ الشـياه، ويُخصـون كمـا تُخـصى الخـراف، هـو الديـن حـق؟ هـل هـو اخـتراع بـدوي، أم انحـراف قومـي؟ هـل هـذا الديـن الـذي تُسـال الدمـاء عـلى أعتابـه وتُقطـع الـرؤوس مـن أجـل أئمتـه، هـو أداة

fb/mashro3pdf

يعرف بها الإنسان نفسه وربه؟ أم وسيلة تخدم النزعة التسلطية العالمية، من أجل أن يتمكن أولو الأمر في هذا العالم مزيدًا من التمكين؟ هل تحليه بروح المقاومة، صفة غريزية ضرورية لتحرير الأرض؟ أم أنه بجرأته على الوقوف في المسار الطبيعي للتاريخ، إنما يمثل دور بطولة زائف، ويتوهم تصديه للدين الصليبي الصهيوني الغالب؟

«يا عمر» يقولون له بلهجة الناصح الأمين، «يا عمر» يقولون له وهم يميلون جهته، يقولون بحتمية المصارحة ومواجهة النفس. يقولون بحتمية تسمية الأشياء بمسمياتها الحقة. وإنه إذ يصارح نفسه ويواجهها، ينظر ويوازن بين معاملة الأمريكان الكفرة القتلة له، ومعاملة بني جلدته ودينه. مع الأمريكان، المتغلبين بالشوكة، مجرمي الحرب، أظهر عزة الجانب، واحتمى بالكرامة الوطنية والعنصرية الدينية، وجادل «صديقه كارتر» بالتي هي أحسن والتي هي أسوأ. أتاح له المحققون الأمريكان الكفرة الفجرة التعبير عن مكنونات نفسه، وسمحوا له بأن يصرح بأفكاره البالية المنتنة. أذنوا له بأن يطفو على السطح، وبأن يجاهد بلسانه، وبأن يحاج ويخاصم وينازع ويخادع، وبأن يباهي بعقيدته، وبأن يوجد. ولما سمحوا له بأن يوجد، وبأن يكون، سمحوا للأمل كذلك بأن يقر في قلبه. لم يفقد عمر الأمل في الخروج من محنته، وفي التحرر من قيوده، «مهما تكاثفت الغيوم واستحلك الليل». صَدَّق عمر وآمن، وعقد قلبه على حتيمة الخروج، وحتمية الانتصار، ولو طال زمن المحنة.

الآن.. في سجن أم العريط المكتظ بالنزلاء، التابع في جزء منه لجهاز الأمن الوطني، وجد عمر نفسه يعيش في ظروف معيشية بالغة القسوة، بين الإخوة، والمعارضين السياسيين من فصائل أخرى، والجنائيين. وهؤلاء الأواخر أُطلق عليهم اسم «كلاب الراعي»؛ لأنهم ثلة من المجرمين الخطرين، الذين جُلبوا إلى أم العريط لحفظ الأمن وقمع الآخرين، فضلًا عن دورهم العقابي والإرهابي داخل الزنازين، وتنفيذهم أحكام التعذيب والإعدام.

يبدأ يوم السجن في الساعة الخامسة صباحًا، وهو الوقت المتعين على المساجين فيه الاصطفاف في الهواء الطلق وهم عراة، والانتظار ساعتين في حراسة الجنائيين إلى أن يصل ضباط الأمن الوطني. وهؤلاء لما يأتون، يفطرون أمام المساجين، تحت مظلة حامية، وينهون الاصطباح بالمشروبات والسجائر، في الوقت الذي يتناول الجنائيون فطورهم هم أيضًا، إنما وقوفًا، إذ لا يسمح لهم قط بالانقطاع عن واجب إدارة المساجين وحراستهم،

fb/mashro3pdf

ولـو لساعة في النهـار أو الليـل. بعـد الإفطـار، تكـون شـمس الصحـراء المحرقـة قـد اسـتوت في كبـد السـماء، فيتخلـل الضبـاط الصفـوف، ويمعنـون النظـر في حـال كل سـجين، وملبسـه المطـوي عنـد قدميـه، ووعـاء طعامـه، كمـا يتـم إحصاؤهـم وإعـادة فرزهـم، وتسـجيل أسـماء مـن لقـيَ حتفـه الليلـة السـابقة في العنابـر. بصفـة يوميـة، يقـوم الجنائيـون تحـت إشراف الجنـد بجمـع جثـث أمـوات الليلـة السـابقة، وإلقائهـم في مكـبّ يقـع في الجهـة الشرقيـة مـن سـاحة السـجن، إلى أن تـأتي شـاحنة عسـكرية ظهـرًا، لتجمـع الجثـث وتذهـب بهـا إلى جهـة غـير معلومـة. لـم تكـن مهمـة رفـع الأمـوات شـاقة؛ لأن الجثـث لا تزيـد في معظـم الأحيـان عـن كونهـا كومـة مـن الجلـد والعظـم الخفيـف، وذلـك بفضـل سياسـة التجويـع العامـة.

فيمـا بعـد يتـم فصـل المسـاجين بنـاءً عـلى سـجلات الأمـن الوطـني، فيُقـاد البعـض منهـم إلى محـال أشـغالهم الشـاقة وهـم عـراة، في مرافقـة الجنائيـين المسـلحين بالعـصي، وجنـود الأمـن الوطـني المدججـين بالسـلاح. في مواقـع بنـاء نائيـة، يحفـر المسـاجين، ويحملـون الطـوب والأسـمنت وأسـياخ الحديـد، ولا يُسـمح لهـم بالراحـة خـلال اثنـتي عـشرة سـاعة عمـل متصلـة، ولا يُسـمح لهـم بتجـاوز حصصهـم المحـدودة مـن المـاء والخـبز، ولا يُقابـل أي إزعـاج أو مشـاغبة أو عصيـان للأوامـر مـن قِبَـل أحدهـم إلا بإطـلاق النـار عـلى مؤخـر الـرأس، أو الـضرب المفـضي إلى المـوت. وهـؤلاء هـم حسـنو الطالـع، ممـن تتخيرهـم الأقـدار الرحيمـة لقضـاء اليـوم خـارج أسـوار أم العريـط. أمـا الآخـرون، فيقتـادون إلى أقبيـة السـجن، لاسـتئناف التحقيقـات معهـم، وذاك عمـل مشـترك يقـوم بـه الضبـاط والمسـاجين يـدًا بيـد، كمـا يُنـاط بالجنائيـين غسـل غـرف التحقيـق وتنظيـف الجـدران والأرضيـات والأدوات ممـا يعلـق بهـا مـن دم، ورفـع الجثـث وسـحبها إلى المكـب.

يتلقّـى الـنزلاء السياسـيون شـايًا سـاخنًا في الصبـاح، وحسـاء خُـضَر خفيـف القـوام ظهـرًا، وفي المسـاء يحصلـون عـلى حصـة صغـيرة مـن الخـبز، ويضطـرون خـلال اليـوم إلى التكيـف مـع سـوء التغذيـة ومـا يترتـب عليهـا مـن أسـقام، ومـع سـوء المرافـق، وانتشـار القمـل والعقـارب السـامة وغـير ذلـك ممـا يصاحـب الحيـاة في فـلاة مميتـة. ومـا أن يجـن الليـل، حـتى ينحسـب المسـاجين إلى عنابرهـم الضيقـة، ويُحـشرون في مقصـورات لا تليـق بمعـاش الآدميـين، فيتكومـون بعضهـم عـلى بعـض وهـم نيـام كالخنازيـر، ويتجـردون إذ ذاك وهـم عـراة مـن كل كرامـة إنسـانية، ويدفعـون بعضهـم بعضًـا في محاولـة للحصـول عـلى بضـع بوصـات مـن

fb/mashro3pdf

أجـل استلقاءة أكـثر راحـة.

الطوابـق التحتيـة لسـجن أمر العريـط تُسـمى «السـلخانة»، وفيها يتـم استجواب المعتقلين، ولا تقتـصر الحيـاة فيهـا عـلى السـجناء فحسـب، إنمـا يـؤتى بالنسـاء والأطفـال أيضًـا مـن القاهـرة، ويسـتعملون للضغـط عـلى المسـتجوَبين بـكل السبل. تضـم السـلخانة أيضًا الزنازيـن العقابيـة، وتلـك فراغـات مقفلـة ضيقـة، لا تزيـد في مسـاحتها عـن المـتر ونصـف المـتر المربـع، منهـا مـا يكفـي بالـكاد لاستيعاب سـجين واحـد، ومـا يكفـي لحـشر أربعـة سـجناء بحـد أقـصى، وهـؤلاء يتركـون وقوفًـا طـوال سـاعات الليـل، ويضطـرون إلى العمـل خـلال النهـار أيضًـا، أو يتركـون للمـوت دون طعـام أو شراب.

في هـذا البـلاء عـاش عمـر، وأدرك أنـه لـن يـرَ نـور الشـمس خـارج هـذه الأسـوار أبـدًا، ولـن يشـم مـن الآن فصاعـدًا غـير صنـان العـرق والبـول والغائـط، ولـن يـذوق غـير العفـن والزهـم، ولـن يـشرب إلا المـاء المسـتنقع لـو وُجِـد. قـضى الوقـت بـين اسـتجوابات الليـل الداميـة، وصراعـات النهـار المسـتديمة مـن أجـل البقـاء، والسـجن الانفـرادي في «السـلخانة». لكـن إحقاقًا للحـق، لـم يـذُق عمـر مـن العـذاب كمثـل مـا وقـع عـلى غـيره مـن السـجناء، ولـم يلحـق بـه ضرر دمـوي ولـم تقـع بـه عاهـة جسـمية نهائيـة ولـم يُنتهـك عرضـه، إنمـا قـضى أيامًـا كثـيرة في السـجن الانفـرادي، الـذي عـده بالخصـوص جحيمًـا لا يطـاق.

سـتون سـاعة، سـبعون سـاعة، ثمانـون سـاعة، يقضيهـا عمـر في صنـدوق مـن الخرسـانة، مـزوّد بدكـة مـن الحديـد مثبتـة في الحائـط، يجلـس عليهـا مكرهًـا، بظهـر مسـتقيم، في مواجهـة حائـط خشـن الملمـس، لا يـرى لونـه في الظلمـة الدامسـة. تضغـط ركبتـاه عـلى الحائـط، وتركـز عينـاه النظـر إلى الأمـام في العـدم، ولا يتحـرك ولا ينـام، بـل يجـتر العـذاب بصمـت وحـذق وقسـوة. في صندوقـه المظلـم، أقلـع عـن مناجـاة ربـه، وشـغل نفسـه بتجـرع العقـاب قطـرة قطـرة، وامتصـاص مرارتـه عـلى مهـل، والاختنـاق بغصصـه عـن عمـد، والتشـبع بآلامـه إلى مشاشـه.

مـرت عليـه الأسـابيع في سـجن أمر العريـط، وورد عليـه المئـات، وذهـب المئـات. مـات الكثـيرون اختناقًـا واغتصابًـا وتسـممًا ورميًـا بالرصـاص وذبحًـا وضربًـا بالعـصي في سـاحات السـجن، بأيـدي الجنـد تـارة، وبأيـدي الجنائيـين تـارة أخـرى. اعـتزل عمـر النـاس ونـأى بجانبـه وتباعـد عـن الوقائـع، ولـزم ركنًـا هيـأه لـه سـجّانوه، ورفـع بينـه وبـين إخوانـه وزملائـه حواجـز

fb/mashro3pdf

صفيقة، وأعرض بوجهه ورفض التحدث إلى أيٍّ منهم، حتى من عرفه منهم، وهم كُثر، وزجر من تقرب إليه زجرًا، وكان يفعل ذلك مُصدِّرًا وجهًا شمعيًا باردًا، لا أثر عليه لعاطفة آدمية من أي نوع.

بات واضحًا لكل ذي بصر، أكثر من أي وقت مضى، أن عمر لم يقع عليه أثناء مقامه في أم العريط مكروه يُذكَر، بالمقارنة بما يقع بزملائه، ولا ألحق به الجنائيون أي أذى، سوى الأذى اللفظي والسكع العابر، ولا اعتدوا عليه ولا أبدوا نحوه ميلًا جنسيًا رغم ما يتحلى به من حسن رجولي لطيف. وهكذا أدرك عمر، وكذلك أدرك سائر النزلاء، أنه مصون معصوم من قِبَل إدارة السجن ذاتها، فتباعدوا هم أيضًا وقذّروه وأبغضوه كل البغض، والتزموا مع ذلك بمُقتضيات صك الحماية المتكهن به، فلم يتعرضوه ولم يتصدَّ له أحد منهم قط.

ترك عمر نفسه نهبًا لكل ما يحل به من نوازل، واحتسبها قضاءً نازلًا لا محيص منه، فلم يدفع عن نفسه، إذ لم يكن ثمة شيء يمكن أن يقوم به تجاه الدفع عن نفسه على كل حال، ثم إنه لم يضمر الخير لأي شيء، ولا أحسن الظن بما قد يأتي عليه من أيام ووقائع. بهدوء وحنكة، في عزلة محبسه، انخلع عن أي شعور بالإثم كان قد انتابه من قبل، ولم يلتمس لنفسه العذر رغم هذا في أي مما كان قد اقترف، ولم يقل بأن ذنبه قد خرج عن نطاق إرادته، ولم تخطر التوبة على باله أو ما يشابهها من أعراض الاعتراف والندم والإقلاع، فكأنه وليد جديد لم يأتِ في حياته بخير أو شر.

لم يطَّلِع زملاؤه في المعتقل على طبيعة جُرمه، ولكن حزروا ارتكابه لخيانة من نوع خاص؛ ذلك أن الحياة في السجن مغلقة، لا تدخلها أخبار، ولا تخرج منها أخبار، فلم يعلم أحد من النزلاء من ثَم شيئًا عن تطورات الأمور في عزبة عين البقرة، معقل الإسلاميين في القاهرة. رأى عمر في أعينهم سهامًا من نار ترشقه، وتخرق أنسجة دماغه، ورأى على وجوههم انعكاسًا لسوء عمله، ورأى في هؤلاء الراحين وأولائك الغادين، وهذه الأشلاء وتلك الدماء، أفرعًا لشجرة شيطانية غرس شتلتها بنفسه. تحاشى الحديث والسؤال، وتحاشى النظر في الوجوه الشائهة، وأطرق رأسه في غدوه ورواحه، وهيأ نفسه لتلقي طعنة في ظهره أو ضربة معول تفلق رأسه في أي لحظة. غير أن الجنائيين أحسنوا حمايته، والإحاطة به، والذود عنه لو طرأ طارئ. ثم طارت الأخبار بمقتل أبي زكريا،

fb/mashro3pdf

وجاءت على جناح السرعة مع المعتقلين المستجدين، فضرب الجنائيون حوله طوقًا منيعًا عزله عما حوله من بشر.

وكان هذا قبل أن يُنْقَل إلى «الغرفة البيضاء».

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

التاسع من سبتمبر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

«ناتاليا، الفتاة الشقية».

«عندما تلتقي ناتاليا، ستعرف على الفور أنها مصنوعة لعوالم عروض التعري. إنها تنتقل من نجاح إلى نجاح في كل مسابقات الجمال التي تخوضها في أوكرانيا، بلدها الأم، وتعرف على وجه التحديد، وباحتراف، كيف تعرض ساقيها الرائعتين، ومؤخرتها المتماسكة، وجسمها الفتي الخالي من الأوشام».

«تحب ناتاليا الكماليات الناعمة، المتناهية الفخامة، مثل السيارات السريعة، والمجوهرات، والأزياء الراقية؛ لأنها مرهفة الحس؛ ولأنها تهدف إلى أن تعيش نمط حياة مونتي كارلو. تعيش حياتها، لتحقق أكثر أحلام محبيها جُموحًا، ولتنال الثواب على ما تملك من أصول رائعة الجمال».

«ليس هناك ما يخرج عن حدود الإمكان مع ناتاليا، سواء أمام الكاميرات، أو وراء الكواليس».

«الاسم: ناتاليا

بلد المنشأ: أوكرانيا

الوزن: ٤٩ كجم

الطول: ١٧٥ سم

السن: ٢٤

المهنة: عارضة

التقييم: ثلاث نجوم من أصل خمسة».

تلك هي المعلومات المتوافرة على موقع «جنتلمانز ديلايت» الإلكتروني عن يانا، المعروفة مهنيًا باسم ناتاليا، وأحيانًا ناتالي. قد يلاحظ من يرتاد الموقع، إن كان له طاقة على الملاحظة والاستنباط، عمومية المعلومات وابتذالها، وذلك إن صح إطلاق مصطلح «معلومات» عليها، لكنها ترسم في عين الوقت لوحة انطباعية موجزة ومبهجة عن الشابة، وتعرض مفاتنها كذلك بتفصيل كاشف.

اسمها الحقيقي يانا أناتولييِّفنا رازوموفسكا، وقد تجاوزت عامها الثالث والثلاثين منذ

fb/mashro3pdf

بضعة أشهر. ولدت وترعرعت في جراند بريـاري بولاية تكساس، لأم وأب من أصل أوكراني. عدت يانا نفسها صاحبة قصة نجاح أمريكية صغيرة؛ ذلك أنها نالت درجة ماجستير إدارة الأعمال في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، رغم متاعب أبويها المالية، ثم فازت بوظيفة في مجموعة استشارية متخصصة في الاستشارات التشغيلية لشركات الإنتاج السينمائي. تزوجت في الثالثة والعشرين من عمرها بالمحلل المالي الناجح، الهندي الأصل، أديتيا بانسال، وأنجبت منه ابنتيها التوأم، أليانا، وأمالا.

لم تتأثر الأسرة بأحداث فبراير الموت على نحو مباشر، إنما ضربتهم موجات الانكماش الاقتصادي المتتالية في مقتل، ففقدت يانا وظيفتها، وعجزت عن العثور على أي عمل آخر رغم مؤهلاتها الدراسية الراقية، وفقد زوجها أيضًا منصبه التنفيذي المهم، وانتهت تعاملاته في سوق الأسهم إلى منعرج كارثي خسر فيه كل مدخراته، فانتحر شنقًا.

لم تستطع يانا أن تخفي خبر انتحار زوجها عن طفلتيها، وكانت تريد ابتداءً أن تنسج حول ظروف الوفاة قصة مغايرة، تخفف بها وقع الكارثة، لكن مع التغطية الصحفية الكثيفة لهذا الحادث، ضمن أحداث انتحار أخرى سُمع بها في أعقاب الأزمة الاقتصادية، لم يكن في وسعها إلا مكاشفة الأطفال، وكان من سوء طالعها أن تزامن خبر انتحار زوجها مع خبر انتحار المدير التنفيذي لشركة عقارات شهيرة، قتل نفسه بعد أن قتل أفراد أسرته جميعًا رميًا بالرصاص، في نفس الحي السكني الكائن في منطقة «بورتر رانش» بلوس أنجلوس.

موهبة يانا الوحيدة الباقية، هي الجمال الخلقي الأخّاذ، والقسمات الأنانية الجريئة، والبياض الناضر الشامل، التي تظهرها، بمساعدة ذكية من مساحيق التجميل، في سن لا تزيد عن الخامسة والعشرين عامًا. تلك هي الملكة التي واصلت بفضلها حياتها، وتمكنت بها من أن تعيل أسرتها، المتألفة في هذه الأيام من ابنتيْها وأمها وأختها وابنة أختها.

أمس كان يومًا لطيفًا، فقد دعت يانا الأسرة إلى الغداء، وأعدت لهم فطائر الريكوتا مع صلصة الطماطم وسلاطة الكوسة الصغيرة، واسباجيتي كاربونارا مع سجق الشوريزو الأندلسي، وغنت ورقصت مع الأطفال، وأقرضت أختها مبلغًا من المال، ثم اضطرت آسفة لأن تصرف الضيوف جميعًا، وذلك بعد أن قبلت ابنتيها وحازتهما إلى صدرها بحرارة.

اغتسلت وانطلقت إلى مكتب «جنتلمانز ديلايت»، الكائن في ٢٩٧٣ الشارع الصناعي بلاس

fb/mashro3pdf

فيجـاس، وهـو أحـد نقـاط التجمـع والانطـلاق المنتـشرة في مقاطعـة كلارك. هنـاك التقـت بسـائقها المفضـل، سـتيف مولسـلي، وهـو شـاب أشـقر جـذاب، هـادئ الطبـع، قليـل الـكلام. إلى جانبهـا جلسـت سـيلينا، صاحبتهـا الصغـيرة ورفيقـة مهنتهـا، وكانـت مهمومـة حزينـة. بعـد سـؤالين أو ثلاثـة، أفضـت سـيلينا إلى يانـا بمشـكلتها بصـوت خفيـض، ووجـدت الحـل عندهـا، كمـا كانـت تأمـل. وإذ تـدوّن سـيلينا عـلى هاتفهـا رقـم هاتـف خلـوي لشـخص مـا، قالـت لهـا يانـا بلهجـة الناصـح الأمـين: «سـتأتي امـرأة، وسـتعتني بـك. لـن تطـرح سـؤالًا واحـدًا، وسـتنصرف عـلى الفـور. إنهـا لا تتحـدث الإنجليزيـة عـلى كل حـال، وأظنهـا مهاجـرة غـير شرعيـة مـن إحـدى دول آسـيا. ليـس عليـك إلا أن تغتسـلي جيـدًا، وتبقـي إلى جـوار هاتـف. في حالـة حـدوث نزيـف أو أي شيء مـن هـذا القبيـل، عليـك أن تتصـلي برقـم الطـوارئ فـورًا».

أصرت سـيلينا عـلى أن تعطيهـا مـالًا، جـزاء قيامهـا بـدور الوسـيط، غـير أن يانـا رفضـت عـلى نحـو قاطـع؛ لأنهـا لا تتقـاضى نقـودًا مـن زملائهـا. عـلى الـدوام تُظهِـر يانـا حنـوًا ورحمـة تجـاه سـيلينا، وتعدهـا فتـاة طائشـة لطيفـة، وحمقـاء إلى حـد معقـول، لا يزيـد عـن حمـق سـائر النـاس في أغلـب الأحيـان، غـير أنهـا في التاسـعة عـشر مـن عمرهـا، وقـد بـدأت في تعاطـي الدعـارة وهـي بعـد في السـابعة عـشر مـن عمرهـا، ولذلـك تقـع في مختلـف أنـواع المشـكلات. أحيانًـا تبـكي سـيلينا، وتنعـي عـلى نفسـها بالفواحـش، فـلا تزيـد يانـا عـن أن تهـدئ مـن روعهـا، وتنصـح لهـا، وتكـون إذ ذاك كالأم الـرؤوم، الـتي تسـتخرج مـن كيسـها حلـولًا لـكل صنـوف الأزمـات، ولا غـرو، فقـد مـضى عليهـا في المهنـة خمـس سـنوات، وهـي الفـترة المعياريـة الـتي تحتاجهـا المـرأة كي تتمـرس بمهـام هـذه الوظيفـة المضنيـة وتتكيـف مـع شـدائدها.

لا يعـود دأب يانـا في معاونـة زميلاتهـا إلى ميـل جبـلّي في نفسـها إلى فعـل الخـير، فهـي عـلى بينـة مـن طبعهـا وخلقهـا، وتعلـم أنهـا في جوهرهـا إنسـانة أنانيـة، متعصبـة عـلى نحـو فطـري للمذهـب القائـل بـأن الفـرد ومصالحـه الذاتيـة أسـاس السـلوك كلـه. إلا أنهـا -والحـق يقـال- تحـب أن ترتـب الأمـور لزميلاتهـا البائسـات الضعيفـات، المغلوبـات عـلى أمرهـن، وأن تضمهـن إلى وصايتهـا، أو بتعبـير أدق، تضعهـن تحـت سـلطانها، وتبـذل غايـة وسـعها لأجلهـن، وذلـك كي تكـون القـوة المهيمنـة عليهـن، وهـو الأمـر الـذي تجـد فيـه لـذة واطمئنانًـا. ولعـل مـرد ذلـك أيضًـا اضطـرار الفتيـات إلى التعـاون والتضامـن والدفـاع المشـترك عـن النفـس في مواجهـة قواديهـن وزبائنهـن، رغـم مـا يجمـع بينهـن مـن غـيرة ومـرارة وحقـد، ومـا يسـتَعِر بينهـن مـن

fb/mashro3pdf

صراعات داخلية وحزازات شرسة، مثل التي تنشأ عادة بين النسوة في هذه الأوساط المنحطة.

مضت ليلتها على خير حال، بل لعلها كانت مضجرة ومثيرة للدهشة والإحباط في آن واحد؛ لأن نصف من التقتهم من الرجال، كانوا ثملين، وعانوا مصاعب مؤسفة. وقرب الفجر، وبعد انتهاء نوبة العمل، عاد السائق ستيف بيانا وسيلينا إلى مطعم «فرانكيز دوناتس»، حيث تناولوا إفطارًا خفيفًا مع مجموعة أخرى من السائقين والفتيات، في الوقت الذي أحصى إدواردو، مدير المنطقة، عوائد الليلة، ووزع على العاملات أجورهن.

لم تغادر يانا فراشها اليوم إلا في آخر النهار، ومع انتهائها من تدبير شؤون منزلها والدردشة على الهاتف مع ابنتيها ودفع فواتيرها، كانت الشمس قد دحضت عن كبد السماء بالفعل. اغتسلت جيدًا وزينت نفسها، وكانت معتدلة المزاج مبتهجة؛ لأنها لن تضطر إلى النزول. الثلاثاء هو يوم السيد المبجل دوايت إل. جيبسون، قاضي المحكمة الجزئية لدائرة المحكمة الجزئية الأولى في كارسن سيتي. المبجل دوايت رجل في أواخر العقد الخامس، رشيق، حسن الهيئة، أشيب الشعر، ثقيل الحاجبين. التقته يانا منذ شهر تقريبًا، ووجدته خجولًا سخيفًا، وعندما صرح لها بما يريده قبلت، لكنها حارت في كيفية إجابة طلبه؛ لأن غرف الفنادق الصغيرة المتناثرة على الطريق العام لا تحوي مغاطس، حسب علمها، وإن علمها في هذا الشأن نافذ. ولأنه بدا لها مهذبًا مسكينًا، وافقت على مضض على أن تخرم إحدى مبادئها المقدسة، وأن تصحبه إلى منزلها، وذلك بعد أن أراها صورته وتفاصيل مهنته وسبل الاتصال به على موقع مدينة كارسن سيتي الإلكتروني الحكومي الرسمي، وعرَّفها بنفسه ومنصبه الهام. لم تغفل يانا عن أن تُعلِم اثنتين من زميلاتها المقربات أنها تستضيف زبونًا في البيت، ووصّتهما بأن تُجرِيا بها اتصالًا في غضون عشر دقائق، وبأن تتصلا بالشرطة إن لم تجب الهاتف. سارت الأمور على ما يرام، وصارت يانا والمبجل جيبسون صديقين حميمين، لكنه عرفها باسمها الحركي، ناتاليا، واشترى منها يومًا واحدًا في الأسبوع، تخصصه له كاملًا، مقابل مبلغ مجزٍ.

كعادتهما، استقبلت يانا المبجل جيبسون في ثوب داخلي مثير، وقادته إلى المغطس. من المفارقات التي تجدها يانا مضحكة، أن هذا المغطس الذي هيأ لها زبونًا جيدًا مستديمًا مثل المبجل جيبوسن، كان قد اشتراه زوجها الراحل لابنتيهما، وكانت قد

fb/mashro3pdf

عارضته آنذاك أشد المعارضة؛ لأنها خافت على ابنتيها من الغرق، وكان المغطس كبيرًا عميقًا ويصلح تمامًا لاستعمال البالغين. لما انتقلت يانا إلى شقتها الصغيرة الحالية هذه، الكائنة في مدينة «سمرلين» السكنية سابقة التخطيط، دفعت الكثير من المال فقط كي تنقل المغطس، وعدته من مقتنيات زوجها الخاصة، ومن آثاره القليلة الباقية. الآن، يقف فيه عاريًا زبونها العجوز الأثير، بينما تجلس هي على ركبتيها في الماء بين رغاوي الصابون والفقاقيع، وتغسل جسده وتدعك سوءتاه دعكًا، إلى أن تأوه وتهالك في الماء من فرط الانتشاء.

ولمّا أفاق المبجل جيبسون من ترنحه، طفق يتحدث على دأبه وبلا توقف عن زوجته الراحلة، وعمله، وعن أشياء أخرى تفيض بالحكمة والفكاهة. أصغت إليه يانا بانتباه، وضحكت من قلبها على النكات والدعابات والغرائب، وأدلت بتعقيبات ساخرة لاذعة. كانت تعامله على وجه العموم كما تعامل والدتها العجوز التافهة، بحب وشفقة، وبشيء من الاستعلاء كذلك. تشعب بهما الحديث إلى شؤون شتى، فمرت عليهما ثلاث ساعات تناولا خلالها العشاء معًا، إلى أن ارتدى العجوز ملابسه، واستأذن في الانصراف. اتفقا على اللقاء في الأسبوع القادم في نفس الوقت، وتعهد إليها بأن يُحدّثها هاتفيًا إن لم يستطع المجيء لأي سبب، ثم عاد وقال عفو الخاطر إنه سيرسل إليها بأجرة الأسبوع القادم على كل حال، سواء استطاع المجيء أم لم يستطع، وذلك كي لا تضطر إلى العمل في هذا اليوم. شكرته يانا بامتنان، ولوحت له مودعة من نافذة شقتها. كانت تحبه، وتعده «جنتلمان» محترمًا ماتعًا، وألمعيًا دمثًا طيب القلب، ولم تكن تترقب أن يأتي عليها زمن تجد فيه من تثرثر معه وتقضي أوقاتًا طيبة بعد زوجها، وظنت نفسها محظوظة أن حظيت بزبون مثله.

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشر ليلًا، وكان عليها أن تغتسل، وأن تخلي المغطس مما فيه من ماء، وأن تنظفه. كانت منهكة، لكنها لم ترح بدنها إلا وقد أنهت واجباتها المنزلية. ارتدت منامة مريحة، وأعدت لنفسها حليب الموز، وأضافت إلى الخليط عسلًا وقرفة، ثم ذهبت واسترخت على أريكتها الكبيرة في غرفة المعيشة. مددت ساقيها، وتابعت بكسل ما يجري على شاشة التلفاز من ألوان وحركات، إلى أن أخذها الوسن. ثم أفاقت على رنين حاسوبها المحمول الصغير. نظرت إلى شاشته الشفافة، فإذا باسم

fb/mashro3pdf

إدواردو يومـض.

حدثتهـا نفسـها بـأن تتجاهـل المكالمـة، بيـد أنهـا تعلـم أن تجاهـل المكالمـة ليـس في الإمـكان، بخاصـة في سـاعات الـدوام.

قبلت المخابرة، وقالت بثقل في اللسان، كأنها أفاقت للتو من نوم عميق:

- نعم.

قرع أذنيها صوت إدواردو الجهوري، وهو يهتف من مكبر الصوت:

- ناتاليا، ارتدي ملابسك. زبون مهم طلبك بالاسم.

قالت بصوت فاتر كأنها تمضغ الدهن:

- أنا اليوم رهن الحجز، لزبون منتظم.. وأنت تعلم هذا.

- ألم يغادر المبجل جاندالف بعد؟

أخذ النعاس يذوي من دماغها شيئًا فشيئًا، فاعتدلت قائلة:

- غادر بالفعل، ونقدني ما يكفيني للتعطل فيما تبقى من الليل.

- لا أظـن ذلـك، أيتهـا الكعكـة الحلـوة المسـكرة. أظنـك تعملـين معنـا بـدوام كامـل، وليـس بالقطعـة. لـو طلبـك أحـد خـلال الـدوام، تذهبـين إليـه إلزامًـا. فكيـف إذن بزبـون مهـم مثـل هـذا؟

نفخ الشيطان في شدقيها، فقالت بحدة:

- تبًـا لزبونـك المهـم هـذا! اتفقنـا أن أتعطـل عـن العمـل، إذا أنـا حققـت المبيعـات المسـتهدفة. مـا فتئـت تُذكّرنـا بهـذا كل ليلـة. راجـع مـا دخـل في حسـابك اليـوم مـن مـال مـن جهـتي، ثـم اتركـني في سـلام.

قال إدواردو على الجهة الأخرى، وقد بدأ يحتد هو أيضًا:

- تبًـا لـك أنـتِ أيضًـا! لسـنا نعمـل في شركـة مبيعـات. عندمـا يطلبـك زبـون بالاسـم، تذهبـين إليـه، ولـو كنـتِ قـد حققـتِ قبلهـا هـدف مبيعـات سـنة.

قالت يانا متسائلة:

- ومن يكون زبونك المهم هذا؟

قال إدواردو مجيبًا بلهجة قاطعة:

- تعرفينه جيدًا. ارتدي ملابسك وانزلي الآن. أنا في انتظارك أمام المنزل.

fb/mashro3pdf

قالت بيأس، وقد أدركت أنها تعالج أمرًا لا طائل منه:

- ماذا تريدني أن أرتدي لزبونك المهم هذا؟

قال القواد ضاحكًا:

- ارتدي شيئًا ما طفوليًا.

- كن أكثر تحديدًا. «سايلر فوكو» لعين مثلًا؟!

بدل إدواردو لهجته على الفور، وقال مجيبًا بجدية:

- ناتاليا. الليلة تمضي، ولا وقت لديّ لهذيانك. ضعي عليك أي شيء بسيط، جينز وتي شيرت، وانزلي.

قالت يانا برجاء، بغرض أن تلج في المساومة:

- إدواردو.. أنا تجاوزت الثلاثين، ولديك من لم يتجاوزن السادسة عشر. اتركني أنام الليلة في سلام، وأرسل إلى زبونك هذا بأخرى. أرجوك.

- لا تكثري الجدال بلا طائل. أنا أمقت المماحكة. لو أستطيع أن أرسل إليه بأحد غيرك لفعلت، لكنه طلبك بالاسم، ولا أستطيع أن أئتمن أحدًا غيرك على الشطر الآخر من المهمة.

قوّست يانا ظهرها، ومالت إلى الأمام في جلستها على الأريكة، ثم قالت وقد قطبت:

- أي مهمة؟! لن أحمل أي مخدرات.

هتف القواد معنفًا في غضب وحدة:

- أيتها الفاسقة القذرة، عن أي مخدرات تتحدثين؟! حركي مؤخرتك يا عاهرة، أنا في انتظارك بالأسفل.

نفخت يانا بفمها تعبيرًا عن الغضب الغيظ، ونمى إليه صوت أنفاسها كأنه اللفح، فهتف بها:

- إنه جايك يا امرأة، جايك.

صمتت يانا لحظة، ثم قالت باستياء:

- أيها الغبي! ألا يمكنك أن تكون صريحًا مباشرًا في حديثك ولو مرة؟! لِمَ لمْ تقل من البداية، وتجنّب نفسك وتجنبني مشقة ثرثرة عديمة النفع؟

وأنصتت لهتافه وضحكه على الجانب الآخر، ثم قالت بإرهاق:

fb/mashro3pdf

- نعم.. تمام.. موافقة.. فقط اعطني بضع دقائق.

وأنهت المكالمة دون وداع أو تمهيد، ثم قالت وهي تتمتم:

- أيها اللواطي الدنيء!

نهضت وبدلت ملابسها على وجه السرعة، ثم غادرت شقتها. اجتازت بهو الاستقبال بخطوات سريعة، ورأت من وراء سور المجمع السكني الصغير، ومن بعد حوض السباحة والحديقة الأمامية، شاحنة إدواردو الصغيرة السوداء اللون من طراز شيفورليه سيلفرادو. احتلت المقعد المجاور له ولم تحيِّه أو تنبس بكلمة، إلى أن انحرف إلى طريق سمرلين السريع المشجر. بجبهته العريضة، وأنفه المعوّج، وعينيه الضيقتين، ورأسه الكبير المشابه في الشكل لثمرة الكمثرى، كانت تراه أقرب الناس شبهًا في الصورة للممثل الإيطالي الكوميدي روبيرتو بينيني، ولم تستطع من ثم أن تحمله محمل الجد كرئيس في العمل، بخاصة وهو يتغضب عليها الآن كأنها عملت عملًا شنيعًا، على أثر نقاش عقيم كانا قد انخرطا فيه منذ قليل، يخص «عدم رضاه عن سلوكها إزاءه».

انطلقت السيارة بنعومة ودون ضجة تقريبًا في أوتوستراد أوران كي، واكتفى إدواردو بتوجيهها بأطراف أصابع يده اليمني، ومال متكئًا باستهتار على مسند الساعد إلى جانبه.

كان قد ألزم نفسه بالتحلي بالهدوء والصبر إلى الآن، ثم قال أخيرًا من بين أسنانه، وهو يلحظ إلى يانا:

- لا أحب أن تهمل فتياتي عملهن، ولا أحب أن يتجرأن عليّ بالقول.

فكرت يانا قليلًا، وحثت نفسها على التكرم عليه بالسكوت. ثم لم تطق الصمت، ولم تكد تمضي عدة لحظات على تحذيره المخيف، حتى التفتت إليه وقالت باستخفاف:

- إدواردو يا حبيبي.. ليس هناك حاجة لأن تتقمص دور القاهر القادر عليّ؛ لأنني لست إحدى فتياتك المولدافيات المراهقات، اللاتي تجلبهن إلى هنا قسرًا في حاويات، ولأنني لو سئمت يومًا العمل معك، سأختفي ولن تعثر عليّ مرة أخرى. الولايات المتحدة لا تنقصها حانات الدعارة، وهكذا لن أموت جوعًا.

آذن النقاش بالاحتدام إلى أن اجتازت السيارة أوتوستراد أوران جراجسون، ثم انتهى بنتيجة صفرية لما بلغت أوتوستراد لاس فيجاس. مر الموقف دون تعقيدات إضافية؛ لأن إدواردو -بقطع النظر عن الأدوار التي يحب تقمُّصها- لا يحب إيذاء فتياته، ولا يحب

المشكلات عمومًا، كما أن يانا امرأة مطيعة وناضجة ومجتهدة، وتدرّ عليه رزقًا وفيرًا. لاذا خلال الدقائق التالية بالسكوت كالمتخاصمين، إلى أن انحرف إدواردو من سبيرنج ماونتن وقصد الجهة الجنوبية إلى جادة لاس فيجاس.

أوقف إدواردو السيارة أمام مدخل فندق «سيليستيال»، ثم شرح ليانا ما عليها أن تفعل باختصار، وناولها ظرفًا ورقيًا مقفلًا. تحدث بسرعة وصرامة، ثم قال أخيرًا، منبهًا ومخوفًا:

- الأمر جد خطير. حذارِ من عواقب إفساده.

هزت يانا رأسها مستخفة، وغادرت السيارة المكيفة إلى حر خانق مرهق. قصدت المدخل المضيء بخطوات عجلى، وغابت عن عيني إدواردو في بهو تشع منه الأنوار. انطلق إلى شأنه هادئ البال، أما يانا، فأقبلت دون تردد على إحدى موظفات الاستقبال، وأحست بالضيق لأن ملبسها البسيط تناقض من حيث الشكل والخامة مع فخامة المكان وتأنق مرتاديه وموظفيه، لكن القواد الإيطالي البليد لم يخبرها بوجهتهما. ظنت أنها ستلتقي الزبون في شقة أو غرفة بفندق تافه على الطريق، كما جرت بها وبزبونها العادة، وكانت قد بلغت من الغباء حدًا بعيدًا بحيث لم تسأل عن مكان اللقاء قبل أن تغادر مسكنها.

استقبلتها موظفة الاستقبال بابتسامة مبيعات ودودة واسعة، وبادرتها بأن قالت:

- مساء الخير. مرحبًا بكِ في «سيليستيال». ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلِك؟

- مساء الخير. اسمي ناتاليا. أنا هنا لأرى نزيل الغرفة ٦٠٠٦.

- مرحبًا بك يا سيدة ناتاليا. لو تفضلتِ وأخبرتني باسمك الكامل، واسم النزيل، أكون ممتنة.

قالت يانا بجفاء:

- ناتاليا فيدوري، واسم النزيل جايك.

نظرت الموظفة إلى الشاشة المخفية عن يانا، ثم قالت:

- لا أستطيع العثور على نزيل باسم جايك.

استندت يانا بمرفقيها وساعديها إلى الطاولة الرخامية المرتفعة، ومالت إلى جهة الموظفة، وقالت بتحدٍ لم يكن له داعٍ:

fb/mashro3pdf

- لم لا تهاتفين الغرفة المذكورة، وتقولين للنزيل المذكور أن ناتاليا تنتظره بالأسفل؟

نظرت إليها الموظفة وكأن الدهشة أخذتها، ثم قالت:

- أخشى أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك.

- ولم؟

- لأن الأمور لا تجري هنا بهذه الطريقة.

- حسنًا إذن. اعطني لحظة.

قالتها يانا بعجلة، ثم غادرت موقعها أمام طاولة الاستقبال لتفسح الطريق لمن خلفها، وأجرت اتصالًا من حاسوبها المحمول وهي ساخطة. لم تكد تصدق أنها لا تعرف اسم جايك الثاني، أو حتى اسمه الأول الكامل، رغم ما يعتمل بينهما من عاطفة تشبه المودة والاستلطاف. كانت قد التقت الشاب مرات عديدة من قبل، والتقت به العديد من زميلاتها، الصغيرات منهن خاصة، أولائك اللائي يدعرن تحت السن القانونية، واللائي لو وقعن في قبضة البوليس، لأُخِذ إدواردو بجرائرهن، ولوُجِّهَت إليه بسببهن تهم تسيير دائرة دعارة متخصصة في تشغيل القُصّر والأطفال، ولَحُكِم عليه بمشيئة الرب بالسجن لمدة عشرين عامًا.

ولما بلغت بتفكيرها تلك النقطة، كانت قد استشاطت على إدواردو بالفعل، لذا بادرته فور أن استقبل المخابرة الهاتفية بأن قالت بعنف:

- أنت لم تعطني اسم جايك الثاني.

سكتت بضع لحظات لتنصت إلى رد قوادها، ثم قالت بحدة:

- عاهرة الاستقبال لن تسمح لي بالصعود قبل أن أدلي ببينات الرجل كاملة.. لا أعرف اسمه الثاني.. فقط اعطني الـ... قله مرة أخرى.. فيكسبرج؟ فيكسلـ. برج.. فيكسلبرج.

أنهت المكالمة دون وداع أو تمهيد، وقصدت موظفة الاستقبال مباشرة. استقبلتها الشابة الهسبانية الأنيقة، فأخبرتها يانا باسم الزبون؛ تبسمت الموظفة وأبلغت الضيفة أن الاسم موجود بالفعل، ثم سألتها بأدب أن تريها أي نوع من تحقيق الشخصية. أبرزت كلاوديا رخصة قيادتها على مضض، فتفحصتها الموظفة بعينين خبيرتين، ثم أجرت اتصالًا قصيرًا بالنزيل في الغرفة المذكورة، وأبلغته بأن «يانا رازومـ... مـ... موفسكا تريد رؤيتك» فجاءتها الإجابة على غير ما تتوقع، بأن النزيل ينتظر ناتاليا، وليس يانا. وتذكرت فعلًا

fb/mashro3pdf

أن هـذه المـرأة عرفـت نفسـها باسـم ناتاليـا، فـإذا ببطاقـة الهويـة تحمـل اسـم يانـا. ارتابـت موظفـة الاسـتقبال في الموضـوع برمتـه، فضغطـت عـلى زر إنـذار صغـير بجابنهـا، ولـم تكـن قـد وضعـت سـماعة الهاتـف بعـد، فجـاء عـلى وجـه السرعـة وخـلال ثانيتـين فقـط أحـد رجـال أمـن الفنـدق المتأنقـين.

لاحظـت يانـا وقـوف شـخص ضخـم البـدن خلفهـا، وقـد صالـب كفيـه أمـام بطنـه، وبـدا عـلى أتـم الاسـتعداد للهجـوم عليهـا، فلمحـت إليـه باسـتنكار. ثـم عـادت وصوبـت بصرهـا إلى الموظفـة، الـتي كانـت تقـول سـاعتها في الهاتـف، وقـد عبسـت:

- أظـن أن في الموضـوع شـيئًا مـا مريبًـا، يـا سـيد جايكـوب.. أظـن أن عـليّ الاتصـال بالبوليس.. نعـم.. قالـت في البدايـة إن اسـمها ناتاليـا، ثـم قدمـت بطاقـة هويـة تحمـل اسـم يانا.

أحسـت يانـا بتوتـر شـديد، فـكأن درجـة حـرارة رأسـها ترتفـع بسرعـة، ونبـض قلبهـا بقـوة واطـراد، لكنهـا تمسـكت بالثبـات الخارجـي. زفـرت بنفـاد صـبر، وقالـت وكأن نفسـها تقـز عـن هـذه التعقيـدات:

- نعم، اسمي ناتاليا، وقد أخبرتك بهذا من قبل. هو يعرفني بهذا الاسم.

رفعـت الموظفـة سـبابتها بصرامـة، علامـة الأمـر بالانتظـار والسـكوت، وأنصتـت إلى مـا يقولـه النزيـل، ثـم قالـت بلهجـة قاطعـة:

- لا أوصي بذلك سيد جايكوب.. اسمح لي أن أخلي مسؤوليتي.

وضعـت موظفـة الاسـتقبال سـماعة الهاتـف، ونظـرت إلى موظـف الأمـن المتحفّـز، ثـم حولـت عينيهـا إلى يانـا. كان العـرق قـد بـدأ في التكـون، وتـلألأت قطراتـه الدقيقـة عـلى جبهتهـا، رغـم أن المبـنى مكيّـف بـأسره. قالـت لهـا الموظفـة عـلى نحـو رسـمي، ودون أن يبـدو عـلى وجههـا أي تعبـير:

- عليـكِ أن تسـتقلي هـذا المصعـد، إلى يمينـك، وتصعـدي إلى الطابـق السـتين. عندمـا تخرجـين مـن المصعـد، وبمجـرد أن تنعطفـي إلى الجهـة اليمـنى، سـترين رواقًـا ينتهـي ببـاب الجنـاح رقـم ٦٠٠٦.

- شكرًا جزيلًا.

- على الرحب والسعة.

بأعصـاب منقبضـة حثـت يانـا خطاهـا في اتجـاه المصعـد المعـين لهـا، وأحسـت بـأن الموقف

fb/mashro3pdf

يميل إلى مزيد من الشدة والتأزم. سبت نفسها بأقذع الألفاظ؛ لأنها لم ترفض المجيء من البدء، بخاصة أنها تحمل في حقيبتها الصغيرة ظرفًا يعلم الرب وحده محتوياته. تمثلت أمامها نذر الشؤم، وتنبأت بوقوع مكروه لا قِبَل لها به. لم تجرؤ على أن تنظر وتستبين إن كان موظف الأمن يتبعها، وإن كانت الموظفة تجري اتصالًا الآن بإدارة الفندق أو بالشرطة، ولم يكن في دماغها إلا فكرة متضخمة مرعبة، فيها تقضي سنوات عمرها المقبلة في سجن مشدد وإلى الأبد، وفيها تُشرَّد ابنتاها وتنتهيان إلى التضوّر جوعًا، وفيها ظرف يمتلئ بالكوكايين تطلع به الآن إلى زبون في فندق يغص برجال الأمن والشرطة.

ولما وصل المصعد، كادت أن تقفز إليه، وكان من حسن طالعها أن وجدت نفسها وحدها بداخله. بإصبع مرتعش ضغطت زر الطابق الستين، ثم فسخت زمام حقيبتها على عجل، واستخرجت الظرف البني لتفسخه أيضًا بلهوجة. لم يدْر في خلدها أن ثمة كاميرا ترصد ما يحدث داخل المصعد، ولم تكن لتخاطر بأن توصل المظروف فتطبق عليها الشرطة وعلى زبونها. أرادت أن تنصرف، وأن تتخلص من المظروف، وأن تخنق إدواردو المغفل الجبان اللعين، وذلك بعد أن تخنق جايك المستهتر الأخرق.

استخرجت من الظرف عدة ورقات مطويات، وفحصت أركان الظرف ذاته بتمعن وتدقيق، وتشممت أطرافه وتذوقت شريطه اللاصق بلسانها فلم تجد فيه ما يريب، فالتفتت إلى الأوراق ذاتها وفضتها، ونظرت إلى ما فيها. لم يكن الخوف قد زال من نفسها بالكلية، لكن الدهشة حلت محلًا رائدًا بلا ريب.

*****

فتح جايكوب باب فيلته الفندقية، واستقبل يانا بترحاب، ثم قادها إلى غرفة المعيشة الفسيحة. لم تلتفت يانا إلى فخامة المكان الزائدة عن الحد المعقول، رغم كونها المرة الأولى التي تراه، ولا إلى جايكوب نفسه، الذي أدخلها ولم يكن عليه إلا سروال تحتاني موجز، وكانت في حال من القلق والانفعال مثيرة للشفقة.

قالت بحدة:

- لقد أدركت اليوم، يا سيد جايكوب فيكسبرج، أنني لا أعرف اسمك، وكدت أوحل في

fb/mashro3pdf

ورطـة، وكاد شـعر رأسي أن ينتصـب. موظفـة الاسـتقبال أرادت أن تطلـب الشرطـة؛ لأنهـا لـم تـرني مـن قبـل، ولـم يكـن قـد سـبق لسـموّك أن دعوتـني إلى هـذا المـكان مـن قبـل.

جلس جايكوب على الأريكة، وأراح ظهره وبسط ذراعيه، ثم قال بتراخٍ:

- اسـمي جايكـوب فيكسـلبرج، وليـس «فيكسـبرج». ولـم أدعُـك إلى هـذا المـكان مـن قبـل؛ لأنـك لـم تدعِـني مـن قبـل إلى منزلـك، ومـع هـذا بـادرت، ودعوتـك عـلى كل حـال. أمـا عـن اسـمي.. ءأكـون قـد أذنبـت، كونـك لـم تسـتفسري عـن اسـمي الكامـل، طـوال السـنتين الفائتتـين؟ ثـم تعـالي هنـا.. كنـت أظنـك ناتاليـا، فـإذا بـك يانـا.

جلسـت يانـا عـلى الكـرسي المقابـل، ووضعـت حقيبتهـا الصغـيرة إلى جانبهـا، ثـم قالـت بوجـه منقبـض:

- لا تمـارس عـليّ الألاعيـب. أخبرتـك باسـمي مـرات عديـدة، وبأسـماء الأطفـال أيضًـا، وهـو مـا لا أفعلـه مـع أي شـخص، مهمـا يكـون. ليـس خطـئي أنـك تنـسى.

وصوّبتْ إليه سبابتها قائلة باندفاع، كأنها قد تذكرت للتو أمرًا مغيظًا:

- انتظـر.. بـل إن نسـيانك اسـمي، يـدل عـلى الاسـتخفاف والازدراء، وهـو الأمـر الـذي لا اسـتغربه عـلى كل حـال، كونـك تـصر عـلى أن تناديـني ناتـالي، كأنـني كلبتـك الأليفـة.

- أولست كلبتي الأليفة فعلًا؟!

- تبًا لك يا غبي!

ضحك جايكوب، وقال مهدئًا إياها وهو يبسط كفيه:

- أنـا آسـف! كنـت أغيظـك فحسـب. وأعتـذر أيضًـا عمـا حـدث لـك بالأسـفل. لقـد وقـع حـادث سرقـة مؤخـرًا في أحـد الأجنحـة المهمـة، وهـم يدققـون منـذ ذلـك الوقـت فصاعـدًا في هويـات الضيـوف وزائريهـم، ولا يسـمحون للزائريـن بالصعـود إلى الغـرف والأجنحـة، إلا بعـد الاطـلاع عـلى هوياتهـم.

استخرجت يانا الظرف الورقي من حقيبتها، وقالت بفتور:

- لا بأس. الآن أخبرني، ما قصة هذا الورق؟

عبس جايكوب فور أن رأى الظرف المفسوخ، وقال متعجبًا:

- هل فتحتِ الظرف؟ هكذا ببساطة؟! إدواردو سيقتلك لو علم، فيما أظن.

قبضـت يانـا عـلى الظـرف بقـوة، فانثنى بمحتوياتـه بـين أصابعهـا عـلى نحـو مؤسـف. ثـم

fb/mashro3pdf

قالـت بشراسـة:

- تبًـا لـك! وتبًـا لإدواردو! ولـكل مـن يعلوكمـا في المنزلـة! وصـولًا إلى مُـلَّاك شـبكة النخاسـة هـذه.

صمت جايكوب وهو يرمقها بدهشة، ثم قال متسائلًا:

- ماذا بك اليوم يا ناتالي؟!

قالت يانا على الفور، بصوت مرتفع أقرب إلى الهتاف، وهي تشير بسبابتها إلى الأسفل:

- مـاذا بي؟! كـدت أبـول عـلى نفـسي، وعاهـرة الاسـتقبال بالأسـفل تريـد أن تسـتدعي لي البوليـس، وأحـد موظفـي الأمـن، هـذا الـذي يشـبه قاطـع طريـق مكسـيكي، يقـف فـوق رأسي ويهـم بإلقـائي في الشـارع.. ولـن أسـمح لـك بعـد اليـوم بـأن تناديـني ناتـالي. نـادني يانـا مـن اليـوم فصاعـدًا.

قال جايكوب وهو يضحك:

- لا مانـع لـديّ، رغـم مـا أراه في طلبـك هـذا مـن غرابـة. أظـن أن علاقتنـا تعـود في بدئهـا إلى مـا يزيـد عـلى العامـين، فـإذا بي أناديـك اليـوم بيانـا. فليسـاعدني المـولى. يانـا، يانـا، يانـا.

ثم استطرد فجأة، مُعقِّبًا على شكايتها من استرابة موظفة الاستقبال بها، وقال:

- أنـا مدهـوش صدقًـا. كيـف تأتـين إلى «سيليسـتيال» بهـذه الأسـمال؟! هـذه الملابـس وحدهـا، كفيلـة بإثـارة كل أنـواع الشـكوك حـول شـخصك.

لـم تكـن يانـا امـرأة مبهرجـة، ولـم تكـن تبالـغ في زينتهـا فتنة وإغـراءً كغيرهـا من الموسـمات، بـل راعـت في ملبسـها الأناقـة والبسـاطة عـلى الـدوام. غـير أنهـا -عـلى خـلاف عادتهـا- ونتيجـة لتضليـل إدواردو إياهـا، كانـت في هـذه الليلـة عـلى صـورة تخالـف الطبيعـة الأخّـاذة المفرطـة في الـترف والرفاهيـة لفنـدق «سيليسـتيال». ارتـدت مريلـة قصـيرة نُسـجت مـن قمـاش الدنيـم القطـني، وأسـفل منهـا ارتـدت قميصًـا أبيـض قصـير الكمـين، وحـشرت قدميهـا في زوج حـذاء مطاطـي، ولـم تعـنَ حـتى بـأن تلبـس جوربًـا، ممـا فاقـم بـؤس مظهرهـا.

ورغم ما وجدته في نفسها من حرج، أو ربما لهذا السبب بالذات، سألته بحدة:

- ماذا تعني بـ«الأسمال»؟

هز كتفيه، وقال:

- لا أقصد الإساءة، لكنك تبدين كراعية خنازير في مزرعة نائية بكارولاينا الشمالية.

fb/mashro3pdf

- وما يدريك أنت بكارولاينا الشمالية؟ كنت أحسبك من ماساتشوستس.

زفر جايكوب، وقال:

- لا عليكِ. فقط أخبريني، لم فتحت الظرف؟ أم أن إدواردو سلمه إليك مفتوحًا؟

ربّعت يانا رجليها على الكرسي، وقالت:

- لا، كان مقفلًا بإحكام. لكني ذُعرت عندما هددتني العاهرة باستدعاء البوليس، وكنت أخشى أن يكون في الظرف شيء مخالف للقانون.

أشار جايكوب إلى حذائها، وقال بشيء من الاستخفاف:

- رجاءً اخلعي حذائك قبل أن ترفعي قدميك على الكرسي.

رفعت يانا حاجبيها باستنكار، لكنها خلعت الحذاء عن قدميها انصياعًا لأمره، وسمعته يستطرد متسائلًا:

- شيء مخالف للقانون مثل ماذا؟

قالت بتحدٍ:

- مثل المخدرات.. الكوكايين على وجه التحديد.

سألها جايكوب بانتباه:

- هل يتاجر إدواردو في الكوكايين؟

قالت بنفاد صبر:

- لا أدري. كيف لي أن أدري؟

- بل كيف لك ألا تدرين؟! لم فكرت في الكوكايين تحديدًا؟

- جايك، قلت لك: لا أدري. كان هذا أول ما فكرت فيه ابتداءً، وبدون أسباب.

تبسم جايكوب، وقال:

- لا عليكِ. نشكر المولى إذن على أنك لم تعثري في الظرف على ما يثير الشكوك.

ضحكت يانا بهزأ، وقالت وقد أمسكت بالظرف مرة أخرى، وأخذت تلوح به:

- هل تمازحني؟! أتظن أن هذه الأوراق لا تثير الشكوك؟

استوفز جايكوب على نحو مباغت، وقال بجدية:

- كل الشكر لك. يمكنك أن تتركي الأوراق. انتظري لحظة وسأحضر لك النقود.

أجالت يانا النظر في السقف بما يشبه السخط، ثم استخرجت الأوراق من المظروف،

fb/mashro3pdf

وانتقت منها ورقتين. أشارت إلى صورتي تحقيق شخصية احتلتا الجانب الأيمن لكل من الورقتين، وقالت متسائلة:

- جايك، من تكون هاتان؟

لم يغير جايكوب من هيئة الجلوس بظهر منتصب، فكأنه ينوي القيام الآن، إلا أنه سألها مغمغمًا الكلام:

- لم تسألين؟

قالت تجيبه بإصرار، وبصوت واضح:

- فقط؛ لأن! من هما؟

لم يجد في البداية ما يقوله. لم يكن قد باح بطبيعة مأزقه إلى أي أحد، سوى تشديده على إدارة الفندق بالانتباه إلى الداخلين والخارجين؛ لأن ثمة أغراض مهمة سُرِقت من غرفته. لم يَسمح لأحد بالتحقق من صحة ادّعائه أو بتقصي الحقائق في عين المكان، وكان قد عزم، من اللحظة التي أفاق فيها وأحاط بحجم ورطته علمًا، على أن يتولى علاجها وحده، بأساليبه الخاصة، بعيدًا عن إدارة الفندق والشرطة والأسرة. ولم تستطع الإدارة بطبيعة الحال إجباره على شيء. رفع الأمر إلى مدير الفندق، الذي رفعه بدوره إلى من هم أعلى منه، وجاءت التعليمات الجديدة بتشديد الرقابة على الدخول والخروج؛ لأن أماكن الفندق العامة، مثل حوض السباحة والمطاعم الخارجية والبارات وصالات القمار، أصبحت تعج بالفعل باللصوص والنشالين والمحتالين والمومسات. وبقي جايكوب وحده مع مصيبته الخاصة، كأنهما شريكان في زنزانة واحدة. صاحبته المصيبة في حله وترحاله، وسارعت إليه من كل صوب كلما حاول الإفلات من التفكير فيها، وألقت عليه بجشم ومشقة وضيق.

لم يكن هذا الشاب الجالس أمام يانا في سرواله الداخلي، هذا الدعي المنتصب، هو جايك الذي تعرفه. نعم، في ظاهر الأمر، لم يخالف دأبه في التحلي بهدوء النفس والتدرع باللا مبالاة أمامها، ولم يهجر كذلك التبسم الساخر في وجهها، ولا ابتعد عن الاستخفاف بمشاعرها، والتظاهر في حضرتها بما ليس فيه من أوصاف. نعم، علمتْ أن سلوكه الأخلاقي المستهتر هذا، يخفي وراءه كبتًا هائلًا، شأنه شأن العشرات ممن التقتهم من المداومين على استعمال المومسات، حتى عَدّت إدمان جايكوب على خدماتها

fb/mashro3pdf

وخدمات زميلاتها عرضًا أنموذجيًا، بل وحتميًا لمن هم مثله.

عندما امتهنت يانا الدعارة، اعتراها الخوف في بادئ الأمر، وظنت أن الرجال كافة وحوش مفترسة وضوارٍ جنسية منحرفة، ميّالة إلى التلطخ بالفواحش الشاذة والقبائح المهينة، ثم إذا بها تجدهم أزواجًا بؤساء، ومراهقين محرومين، ومعاتيه متدلهين. وهؤلاء الآخرون بالذات، هؤلاء المعاتيه المتدلهون، مهما أوسعوا لها العطاء، تقبل يانا التسكع معهم على مضض، فقط لأجل المال، وتقول لنفسها: «طالما يدفع هؤلاء جزاء صُحبتي بالدولار، فليس لدى يانا ما تشكو منه»، لكنها مع ذلك تشكو وتتوجع مما تجد فيهم من تبلُّد وغباوة وقذارة.

جايكوب هو الوحيد الذي لا يثقل عليها ولا يثير سخطها؛ لأنه خفيف الظل، مجامل، كريم، فطن، ويعاني من عقد نفسية غامضة، مثيرة للاهتمام. فلا غرو إذن من إشفاقها عليه، وإشمالها إياه بعنايتها كلما التقته، وإعارتها إياه سمعها كلما أفضى إليها بما يجد في نفسه من كرب، وهو الوحيد الذي سمحت لنفسها بأن تكثر من الشراب في صحبته، ولم تكن لتقدم عادة على الإسراف في معاقرة الخمرة إلا وحدها في البيت؛ لأنها تعلم إلى أي مدى يمكن أن يبلغ بها الشطط في التصرفات، إن هي ثملت.

وإن جايكوب، إلى كل ما سبق، ورغم عجزه الدائم عن أن يحسن البلاء معها، يحرص على أن يرضيها بأساليب أخرى، ويحسن إخفاء خيبته بنبل ورجولة. ولا غرو أيضًا في أن تجد يانا في قلبها نكتة سوداء دقيقة، تشبه الوسخ في المرآة، تشكلت من إحساس طفيف بالخوف من أن يأتي يوم لا يطلبها هذا الشاب الأثير لسأمه منها. كانت تعلم أنه يضاجع غيرها ممن تعرفهن وممن لا تعرفهن، وأنه صاحب مزاج منحرف، بيد أنها كانت تحبه، ولم تكن تريد أن تخسره. من ناحية أخرى، وبشيء من القسوة وعدم الاكتراث، كانت تحرص على أن تُذكّر نفسها بطبيعة العمل المتغيرة. هذا الزبون يموت، وغيره يُفلِس، وثالث يُسجن، ورابع يضجر، وهلم جرًا. على هذا المنوال تجري الأمور في الحياة، ولا ينكر ذلك إلا الأحمق.

نظرت إليه يانا نظرة الفاحص المدقق، فبدا لها اليوم بائسًا وحيدًا معزولًا أكثر مما كان في أي وقت مضى، فكأن بؤسه الذاتي غلبه على أمره، وكأن أسقامه وآلامه من الهموم والغموم حضرته كلها. حدثتها نفسها العقلانية بأنها مبالِغة في استشعار مكنونه، ومُغرِقة

fb/mashro3pdf

في الشاعرية، وكانت على حق أغلب الظن. ثم حدثتها نفسها الأخرى، التافهة تلك التي لا خير فيها، التي تتبع سليقة القلب وتلهث وراء الهوى، بأنها إن لم تشعر به الآن، وتسعى لأن تخفف عنه، فليس ثمة فائدة تُرجى من قوة الإبصار التي خلقها الرب لعينيها، وقوة السمع التي خلقها الرب لأذنيها، وقوة الكلام التي خلقها الرب للسانها.

ومن هذا المنطلق ألحّت في السؤال، وهي تشير إلى صورة الفتاتين في الأوراق، الأمر الذي أثار انتباه جايكوب، فسألها بدوره، وقد بدا القلق على وجهه:

- هل تعرَّفتِهما من الصورة؟ هل قابلتِهما في مكان ما؟

هزت رأسها يمنة ويسرة علامة النفي، وقالت كمن يذكر أمرًا بديهيًا:

- فيجاس كون قائم بذاته يا صغيري. فرصك في أن تتذكر شخصًا رأيته في يوم ما معدومة. لا أظن أني رأيت هذين الوجهين من قبل.

- نعم. ظننت ذلك أيضًا.

هكذا قال بهدوء، فسألته عما يعني. لوّح بيده بغير اكتراث، ونهض كي يأخذ منها الورق. أبعدت الورق عنه بحدة، وقالت تسأله بإصرار:

- من هاتان المرأتان يا جايك؟

أراح كفيه على جانبي وسطه، وفرج فخذيه قليلًا في وقوفه أمامها، وقال مميلًا رأسه، متهكمًا:

- أتغارين عليّ يا ناتالي؟

حدقت إلى هذا الانتفاخ الذكوري الصغير، البارز من وراء سرواله الضيق الموجز ومن بين ضئضئي فخذيه، وظهر لها من وراء الستر جراب خصيوي مكبوس. رفعت عينيها إلى بطنه المشدودة المتكسرة بحزم العضل، ثم إلى صدره العريض المصقول، المفترق بقسوة إلى فلقتين، ثم إلى رأسه الأشقر الجميل، ووجهه الإغريقي المنعم المتعالي، ذي العينين الصريحتين المضيئتين، والبسمة الماكرة الكريهة. لعنت برودتها وعجزها عن أن تستشف إلى أي رجل، ولعنت عجزه هو أيضًا عن أن يرغب فيها بشغف.

لوت شفتيها بشيء من الحسرة، وقالت:

- هذا التقرير، عن هاتين المرأتين، الذي كُلِّفت بأن أوصله إليكَ، صادر عن الإف بي آي، أليس كذلك؟

fb/mashro3pdf

- بادئ ذي بدء، أنت لم تُكلّفين بشيء. أنا سألت إدواردو أن يتكرم عليَّ بإرسالك إليَّ؛ لأنني اشتقت إليك.. وسألته أن يرسل الظرف معك، بما أنك قادمة على كل حال.

قالت بيأس:

- لماذا لا تهاتفني مباشرة يا جايك، وكنت سآتي لك على الفور؟ أخرج إدواردو اللعين هذا من بيننا.

أشار جايكوب بيده، وقال بصراحة:

- الأفضل أن نبقي الأمور فيما بيننا في إطارها المهني. لا أريد لإدواردو أو من فوقه أن يتذرع بي لإيذائك أو الضغط عليك.

قالت وهي ساخطة:

- في حال كنت لم تلاحظ، أنا آدمية، لها حقوق وحياة خاصة. أستطيع أن أرافق من أشاء.

عاد إلى الأريكة، فاستلقى متكاسلًا ثم قال:

- أخالفك الرأي. أنتِ آدمية، نعم، إنما جزء من منظومة تُسَخِّر الآدميين لتحقيق ربح، مثلي تمامًا.

وحَرَّك سبابته في دائرة صغيرة، مردفًا بما يشبه الأسف:

- أغمضي عينيك عن هذا الترف الزائف، وسترين أنني أنا أيضًا جزء من منظومة أخرى، تُسَخِّر الآدميين لتحقيق مكسب. ليست لي حياة خاصة، وليس لك حقوق، ولو أوهمني وأوهمك النظام بغير ذلك.

هزت يديها بالأوراق، وقالت:

- دعك من هذا الكلام العميق، وأخبرني عن هذا الورق.

- أخبريني أنتِ. كيف علمتِ أن هذا الورق قد صدر من قِبَل الإف بي آي؟

ألقت بالورق إلى جانبها، وقالت دون اكتراث:

- الغبي الذي أعد التقرير، حذف كل ما يمت إلى الإف بي آي بصلة، فيما يبدو، لكنه اتبع تنظيم التقرير عينه، الذي تتبعه الإف بي آي.

قال متسائلًا، باسمًا:

- ومن أطلعك يا ترى على الطريقة التي تتبعها الإف بي آي في تنظيم تقاريرها؟

fb/mashro3pdf

- أنا مدمنة على مشاهدة مسلسل «إف بي آي لايف».

أومأ جايكوب متفهمًا، ثم قال بجدية، وهو يمد يده إليها:

- لعل من كتب التقرير مدمن هو أيضًا على مشاهدة نفس المسلسل. هيا، ناوليني الورق من فضلك.

نهضت يانا استجابة لطلبه، وناولته الأوراق والمظروف. شكرها وابتسم في وجهها، ثم اعتدل جالسًا، وجعل يتبين ما في الأوراق، وينظر إلى البيانات والصور بإمعان.

تأملته يانا لدقيقة أو دقيقتين، ثم قالت وهي تصوب إليه نظرة منتبهة، متسائلة، فور أن رأت الدهشة تتجلى على وجهه:

- احكِ لي، يا جايك، ماذا حدث بينك وبين هاتين المرأتين؟

قال جايكوب وقد ساوره الضيق والاضطراب:

- إنها قصة طويلة.

قالت يانا وهي ترفع رجليها على كرسيها مرة أخرى، وتثنيهما وهي جالسة، مظهرة نيتها في المكوث:

- أنا مُتاحة، لنقل، لمدة خمس سنوات المقبلة! احكِ لي.

وضع جايكوب الأوراق إلى جانبه، والتزم الصمت لحظات كأنما ليفكر، ثم قال وهو يفرك كفيه:

- إنها ليست حقًا قصة طويلة. كل ما هنالك أنني التقيت هاتين الفتاتين هنا في الفندق، قبل عدة أسابيع. تعارفنا ودعوتهما إلى غرفتي هذه. مارسنا الجنس، ثم خدرتاني، وسرقتا كل شيء. أفقت بعد ساعات طويلة، لأجد نفسي في حال مزرية.. مزرية بمعنى الكلمة.. ولم أجد متعلقاتي.

- يا يسوع المسيح!

- نعم. كل ما أملكه سُرق.

هكذا قال جايكوب، ثم أردف وقد أخذ يعد على أصابعه:

- ساعتي، نقودي، محفظتي، أوراقي، بطائقي، سيارتي، وأهم شيء.. حاسوبي الشخصي.

سألته يانا، وهي تتفحصه بقلق:

- ما قيمة ما سُرق منك، تقريبًا؟

fb/mashro3pdf

قال جايكوب بضيق:

- لا يُقدر بقيمة مادية. أنا أحب أشيائي، ومنها ما له قيمة روحية خاصة جدًا، علاوة على كرامتي واحترامي لذاتي، اللذين أُهدرا إلى غير رجعة.

- لأجل المسيح، لا تُضخّم الأمور. أنت ميسور الحال، وتستطيع ببساطة أن تعوض ما سُرق. وبخصوص احترام الذات، لا تلقِ بالًا لهذا الشأن. هذه أمور تحدث اعتياديًا، وهي من مخاطر رفقة المومسات؛ نحمد الرب على أنك فقدت الأشياء فقط، ولم تُصب بأذى.

هكذا قالت بكلمات متدافعة، محاولة التخفيف عنه، فقال الشاب بكآبة:

- حصل الأذى بسرقة الأشياء، يا ناتالي.

قالت يانا متسائلة، بعينين لمع فيهما الذعر:

- أنت تقلقني. هل أوقفت خدمات الحاسوب؟

عض على شفتيه، وقال:

- لا، ولم أستطع حتى أن أتتبعه. العاهرتان متمرستان بالسرقة فيما يبدو، وبمعالجة الأجهزة. وقد استغرقتُ ساعات طويلة كي أفيق من غيبوبة المخدر، حتى استعدت عافيتي، وبدأت في الالتفات حولي لحصر الخسائر.

سارعت يانا في طرح سؤال تالٍ، فقالت:

- هل غيرت مفاتح الدخول لبياناتك البنكية، وحساباتك المختلفة؟

- نعم.. لكن بعد فوات الأوان. خسرت من أحد حساباتي البنكية مبلغًا كبيرًا من المال.

نظرت إليه يانا بسخط، وعلت الحمرة وجهها الحلو التقاطيع، ثم قالت وكأنها غاضبة:

- إنه مأزق حرج. لن أسألك عن كيفية تسللهما إلى الحاسوب، ولن أسألك عن سبب تركك لأحد حساباتك متاحًا على نحو تلقائي على متصفح الويب. أعوذ بالرب من بلاهتك! كلنا نفعل أشياءً غبية بين حين وآخر.

قال جايكوب بحدة، وقد بدأ الغضب يتسرب إلى دمه هو أيضًا:

- لم أترك أيًا من حساباتي مفتوحًا، لكنهما استطاعتا النفاذ إلى آخر حساب أجريت عليه تعاملات. أظنه أمر يتعلق بتاريخ التصفح، وترتيب مفتاح السر على لوحة الأزرار. الحاسوب كله كان مُؤمّنًا بإحكام. لو تمكنتا من النفاذ إلى نظام التشغيل، فلن يقف إذن

fb/mashro3pdf

في طريقهما شيء.

- هل أبلغت الشرطة؟

- لن تفيدني الشرطة في هذا الشأن.

- ولم لا؟ أنت شخص مهم، وعائلتك نافذة؛ لمن هم مثلك خُلقت الشرطة.

هز الشاب رأسه بأسف، فقالت محتدة وهي تشير إلى الأوراق الملقاة إلى جانبه:

- وهكذا عزمت على أن تحقق انتقامك الخاص، وتتبعت آثارهما بمساعدة عصابة من الحثالة. الآن ماذا؟

- ليت الأمر بسيطًا هكذا. لو اقتصر الأمر على النقود، لحزنت عدة أيام، ثم تناسيت. لكن الحاسوب يحوي أشياءً خطيرة.

- أشياء خطيرة من أي جهة؟

- خطيرة من جهة أنني لو أخبرتك، سأضطر إلى أن أقتلك.

قالت بريبة، وهي ترجع جذعها إلى الوراء:

- أنت تمازحني. أليس كذلك؟!

أجابها بيأس:

- لا على الإطلاق، لا.

قالت بصوت مرتفع، وهي تكاد أن تصيح به:

- تبًا لك أيها المغفل! ما هذا الشيء الخطير، الذي وضعته في حاسوبك؟

تحاشى جايكوب النظر إلى وجهها، وقال وقد احمرّت أذناه غضبًا:

- أشياء لها علاقة بالعمل.

- عملك العسكري تعني؟

- نعم. معلومات في غاية الحساسية.

- يا يسوع المسيح!

- نعم!

صمتت يانا، وتنفست بصوت مسموع لعدة لحظات، ثم خطر على قلبها أمر، فقالت:

- انتظر.. كيف يتفق لك أن تحتفظ ببيانات عسكرية، غاية في السرية، على حاسوبك الخاص؟ كما فهمت، سرقت هاتان المرأتان حاسوبك الشخصي.. صحيح؟ هل يسمحون

fb/mashro3pdf

لكم في الجيش بحفظ البيانات في الحواسيب الشخصية؟!

زم جايكوب شفتيه غيظًا، ثم قال ضاحكًا بمرارة:

- نعم، سرقت الفاسقتان حاسوبي الشخصي. ولا، لا يُسمح لنا بحفظ البيانات في الحواسيب الشخصية، ولا بنقلها أو تداولها بأي صورة. ولو عُرف ذلك عني، سأخضع لمحاكمة عسكرية. قد يصدر عليّ حكمًا بالسجن لما يقرب من مئة عام.

- مئة عام في السجن؟!

- ليس هذا فحسب، بل قد أدان بدرزينة جرائم أخرى، وفقًا لقانون التجسس الأمريكي، وقد يُحكم عليّ بالإعدام.

هكذا قال جايكوب بلهجة خشنة، فعجزت يانا عن الإدلاء بأي تعقيب. هنا قال الشاب وهو يفرك كفيه ويشد أصابعه:

- لست أدري في واقع الأمر، أيهما أفضل. أن أنال حكمًا بالسجن، أو بالإعدام.

نظرت إليه يانا بعتاب، ثم قالت:

- لست أدري ماذا أقول. تساؤلك في حد ذاته، مضحك بطريقة مأساوية.

عقب جايكوب على قولها بأن قال بإسهاب:

- لكن له ما يبرره. لو سُجنت، فلن يكون سجنًا عاديًا، ولا حتى سجنًا مشددًا مع المجرمين الخطرين، من هذا النوع الذي تشاهدينه في مسلسلات الدراما. بل سأحبس منفردًا في زنزانة ضيقة بلا نوافذ. لن يُسمح لي برؤية السماء إلا ساعة واحدة في اليوم، ولن يُسمح لي بالنوم إلا لساعات محددة. سأتناول وجباتي في الزنزانة، وأقابل زائريّ مُكبلًا بالأغلال، هذا إن زارني أحد. على هذا المنوال ستجري حياتي لمئة عام قادمة.

نظرت إليه يانا بعينين انطفأ فيهما بريق الأمل، وقالت:

- جيد جدًا.. لقد نجحت في أن تُشعرني بالبؤس التام. ماذا تنوي أن تفعل؟

- كنت قد بدأت أن أفعل على الفور.

- احكِ لي.

هز جايكوب رأسه رافضًا، وقال:

- ربما من الأفضل ألا أورطك في معرفة أشياء لن تفيدك، بل قد تسبب لك مشكلات.

عبست يانا، وقالت باندفاع وغضب:

fb/mashro3pdf

- لا تمازحني. أنت ورّطتني في هذا الأمر بكامل إرادتك، وأتيت بي إلى هنا بالأوراق؛ لأنك تريد أن تبوح إليّ بما عندك. لا أرى داعيًا إذن لأن تخادعني؛ هيا، أخبرني بكل شيء؛ أرح الحمل عن كاهلك، وأعدك بأن أضمك إلى صدري بعد ذلك. كلي آذان صاغية.

لم يسغرق جايكوب في التفكير العميق، بل سألها على الفور:

- هل تسمعين بشخص اسمه فيتريو برودي؟

نحت يانا بعضًا من خصل شعرها البني القاتم عن وجهها، وقالت بكدر:

- نعم، سمعت الاسم من قبل. أظنه «الزعيم الكبير»، كما أخبرني إدواردو.

ضيّق جايكوب عينيه، وقال متسائلًا:

- سمعت بالاسم؟! فقط؟!

- في العادة، لا أحب أن أحشر أنفي فيما لا يعنيني. حرصت دومًا على أن أحصر نفسي في دائرة إدواردو الضيقة. جنبتني هذه الإستراتيجية التورط في أي متاعب.

حك الشاب مؤخر رأسه وهو يقول آسفًا:

- هذا ما قصدت من البدء. لا داعي إذن لأن...

قالت يانا بصوت عالٍ ثابت:

- جايك، أرجوك. أنا فتاة كبيرة، وأستطيع أن أتخذ قراراتي بنفسي.

بعد لحظة صمت، قال جايكوب مستأنفًا حديثه:

- فيتريو برودي هذا، هو المالك والمدير التنفيذي لشركة «إمبيريال كلوب في آي بي»، وهي وكالة مرافقة، تعمل من الحسابات المصرفية لمجموعة «ساني سايد» الاستشارية. مجموعة «ساني سايد» هذه مملوكة لعائلة جرافانو، التي تدير شبكة مقامرة واسعة، من خلال ناديها الاجتماعي الشهير في لاس فيجاس. بالمناسبة، يقول خصوم أبي السباسيون، إن أبي يرتبط بعلاقات عمل مع عائلة جرافانو، ذات السجل الإجرامي العريق.

- وهل هذا صحيح؟

- لا أستطيع القطع. على كل حال، تملك عائلة جرافانو مؤسسات شرعية، تعمل على نحو قانوني تمامًا في نيفادا ونيويورك وفلوريدا. من جهة أخرى، أبي يُعد أحد كبار ممولي الحزب الديموقراطي، وله وأمي أيادٍ بيضاء على حملة ماكالوم، رئيسنا الشاب الجديد. وهكذا ترين أن الأسرة تصنع أعداءً لها في كل مكان، ومن ثم تطلق عليهم أفظع أنواع

fb/mashro3pdf

الشـائعات.

هزت يانا رأسها بأسف، وقالت:

- أنتم أيها الناس.. مثيرون للاشمئزاز.

أومأ جايكوب موافقًا، ثم أردف قائلًا:

- فيتريـو بـرودي هـذا، يديـر شـبكة بغـاء كبـيرة، تُوظـف مئـات الرجـال والنسـاء، وتمـارس عملهـا مـن وراء سـتار استثماري، يتألـف مـن مجموعـة مـن الـشركات المسـجلة بأسـماء مـن مثـال: «جنتلمانـز ديلايـت»، و«داي دريمـز»، و«بيرسـونال تاتـش». وجميعهـا تقـدم خدمـات مرافقـة قانونيـة، وتعمـل عـلى مـدار أربـع وعشريـن سـاعة. هـل يـدق مـا أقـول أي أجـراس في رأسـك؟

- نعم.

- جيـد جـدًا. أخبريـني إذن.. مـن يكـون مديـر مكتـب «جنتلمانـز ديلايـت»، الـذي تعملـين أنـت ضمـن فتياتـه؟

- إدواردو.

- نعم. واسمه الكامل إدواردو «سنيكرز» كاتسوبولي. أحزري، من يكون رؤساء إدواردو؟

- لا أعلم. أجد صعوبة في استحضار الأسماء الإيطالية.

أومأ جايكوب متفهمًا، وقال على مهل:

- يعمـل إدواردو تحـت إمـرة رجلـين اثـنين. لوريـنزو تـزولي، وأندريـا زانـوني، وهمـا المديـران المسـؤولان عـن إدارة العمليـات اليوميـة. ويسـاعدهما محامـي المؤسسـة، ماتيـو سـالفيني.

قالت يانا بتذمر:

- رأسي بدأت تدور بالفعل. ما علاقتك أنت بكل هؤلاء؟

أشار إليها جايكوب بيده، راجيًا إياها أن تصبر، وقال:

- لوريـنزو، وأندريـا، وماتيـو، أصدقـاء شراب، ويحبـون الـتردد عـلى «سيليسـتيال». وهـم بأوامـر مـن الإدارة العليـا هنـا، يأكلـون ويشربـون دومًـا في كل مطاعـم وبـارات «سيليسـتيال» مجانًـا.

أطرقت يانا وقد أخذت ملامح الصورة في التكشف أمامها، فقالت وهي تزفر:

- أنتم أيها الناس.. مثيرون للاشمئزاز.

fb/mashro3pdf

أومأ جايكوب موافقًا مرة أخرى، وقال:

- نعم. وهكذا ترين أنني بصفتي ابن مالك المكان، ومن زبائن شبكتكم المخلصين، أحظى بشرف صداقة هؤلاء جميعًا. على أنني فوق ذلك أدفع مقابل خدمات البغاء التي أطلبها، في حين أنكم، تأكلون وتشربون عندنا مجانًا.

هتفت به يانا على الفور، بعنف وفظاظة:

- أنت أيها المغفل اللعين، أياك أن تتجاسر وتخاطبني بصيغة الجمع هذه. أنا لا علاقة لي بهذه القذارة كلها.

ضحك جايكوب، وقال معتذرًا:

- لم أقصد إغضابك. إنما أتحدث بصيغة الجمع، لأنك تعملين في نفس المؤسسة. خطأ لغوي، لا أكثر.

تشجعت بهدوئه واعتذاره على أن تُفرِغ عليه غضبًا وإحباطًا، فقالت باندفاع وهي تشير إليه بسبابتها:

- لا أستبعد أن يكون أبوك أيضًا، هذا الوضيع المنتفخ، من أخلص زبائن شبكة النخاسة هذه. بل لعل ما تجد في نفسك من انحراف ودناءة، انتقل إليك منه، كأنه فيروس أو عطب جيني، أو شيء ما من هذا القبيل.

لم يبدُ على جايكوب أي أثر للغضب، ولا أبدى ما يمكن أن يُعد بأي حال اعتراضًا على إهانته وإهانة أبيه. على النقيض من ذلك، سطعت عيناه، فكأنه يستلذ بما يقال في حق أبيه (وكانت يانا تعلم عنه هذه الخصلة العجيبة)، وإذا به يقول بحماسة:

- نظرية جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار. أقول لك ما هو أدهى؟ ثمة شائعة، صغيرة للغاية عن أبي، لم تنتشر بعد.

قاطعته يانا قائلة بهلع، وهي تشير إليه بكف منبسطة علامة أن قف:

- أرجوك.. اعفني.. لا أجد في نفسي طاقة لأن أسمع عن صولاتكم في عوالم دعارة القُصَّر، يا معاتيه.

ضم جايكوب حاجبيه، وقال قاصدًا أن يستثيرها:

- لا تسمها دعارة قُصَّر بإطلاق هكذا. يُنظر إلى هذا الموضوع من زاوية مختلفة تمامًا، في دول ذات تراث ثقافي عريق، مثل الهند، ودول أخرى كثيرة ذات أغلبية مسلمة، ودول

fb/mashro3pdf

غربية متحضرة.. هل تعلمين مثلًا أن الزواج من الفتيات الصغيرات، قبل أن يبلغن حتى سن المراهقة، مسموح به في شريعة الإسلام؟ بل لم يُعين قانونهم الديني سنًا محددًا للزواج.

وسعت يانا عينيها، ورشقته بنظرة نارية وهي تقول:

- اذهب إذن واعتنق دين الإسلام، وصِر بدويًا شريرًا، واشرب بول الإبل، وانكح ما بدا لك من الأطفال!

ركز جايكوب نظره عليها هو أيضًا، وقال محتجًا:

- أربأ بك عن التعصب والرعونة. هل تعلمين أن المملكة المتحدة تسمح بالزواج في سن السادسة عشر، بإذن الوالدين؟ أسكتلندا تسمح به من دون إذن الوالدين. المكسيك تسمح به بدءًا من سن الرابعة عشر.

- أف! أنت تصيبني بالغثيان. تمام، أوافق، اذهب إذن وتزوج بطفلة في الرابعة عشر. لا أكاد أصدق ما تقول. تتحدث عن الزواج؟ وهل تريد الزواج يا جايك؟ هل يريد أبوك الزواج؟ الموضوع ببساطة يتلخص في رغبتكما المنحرفة في مواقعة القُصَّر، ليس إلا. قل لي إن هذا ليس صحيحًا.

ثم أردفت قائلة، وهي تنظر حواليها بسخط:

- أنا لا أفهم ما الذي أفعله هنا معك. يتعين عليَّ أن أذهب، وأن أتحدث إلى الشرطة بخصوصك.

- لا أظنك تفعلين هذا بجايك العزيز. أنتِ تعلمين أنني لست إلا فم كبير يقول ما لا يعلم، وما لا يفعل.

- أيًا ما كان، ارجع بنا إلى الموضوع الأصلي.

اضمحلت الابتسامة، وصار الابتهاج البادي على وجهه إلى العدم، فكأن الشاب المشاكس يعود إلى أرض الواقع إذ يقول:

- نعم. وهكذا وجدت نفسي أجلس منذ عدة أسابيع مع لورينزو تزولي، وأندريا زانوني، فشرحت لهما مسألتي.

قالها وصمت، فقالت يانا متسائلة، مستحثة إياه على الإيضاح:

- وماذا كانت مسألتك؟

fb/mashro3pdf

- فقط أخبرتهما أنني أريد العثور على امرأتين، قدمتا نفسيهما إليَّ باسمي بترا وفيليبا. أدليت لهما بأوصافهما، وأريتهما كذلك صورًا من بعض كاميرات المراقبة في الفندق. لم يطرحا أي سؤال، بل بدءا العمل على الفور.

قالت يانا متسائلة باستثارة:

- وهل عثرا عليهما؟

لوى جايكوب شفتيه معبرًا عن إحباطه، وقال:

- لم تؤدِ جهودهما إلى أي نتيجة، رغم أن أندريا بالذات، كان قد تعهد إلي بأن يُسخِّر كامل إمكانات الشبكة، وكل الفتيات العاملات في الشوارع، لتتبع آثار بترا وفيليبا. لكن الوقت يمر بسرعة. وجدت نفسي مضطرًا لأن أسافر في مهمة خارجية، فأرسلت إلى أندريا، قبل سفري مباشرة، بما استطعت رفعه من بصمات أيديهما.

- هل تركت الفاسقتان بصماتهما؟

- تركتا بصمات في كل مكان، على الفراش، وفي الحمام. قلت لك مارسنا الجنس، ولم نفعل ذلك في قفازات أو أزياء واقية.

سألته يانا بامتعاض:

- كيف استطعت رفع البصمات؟

أجابها جايكوب قائلًا، وهو ينظر إليها بشيء من القلق:

- منذ ما يزيد على نصف قرن تُباع معدات رفع البصمات في المتاجر وعلى الشبكة الدولية. أي طفل متخلف عقليًا يستطيع أن يرفع بصماته من على أي سطح، وأن يوضحها على الحاسوب.

- وماذا يفترض بأندريا أن يفعل بهذه البصمات؟ إنه لا يجلس على قاعدة بيانات رسمية، تتيح له الاطلاع على بصمات المواطنين.

قالتها يانا، وحانت لها أن تنظر إلى الورق، الذي كان قد وضعه جايكوب إلى جانبه منذ برهة، ثم قالت متسائلة بارتياب:

- أليس كذلك؟

هز جايكوب رأسه يمنة ويسرة علامة النفي، وقال:

- نعم، ليس كذلك. أود أن أوضح لكِ أنني لم أرسل البصمات إلى أندريا، كبير القوادين

fb/mashro3pdf

هـذا اعتباطًا.. ولـم أذكـر أنـه وزميلـه لوريـنزو مـن المغرمـين بالـشراب دون علـة. منـذ مـا يقـل قليـلًا عـن سـتة أشـهر، كنـا نجلـس معًـا، هنـا في «بيانسـت بـار»، وكانـا قـد أكـثرا مـن الـشراب إلى حـد السُـكْر البـيّن، فـإذا بهمـا يتحدثـان أمامـي عـن ترافيـس نايـت. هـل سـمعتِ بترافيـس نايـت مـن قبـل؟

- لا.. من يكون؟

طفـق يحـك إبطـه، ويستشـعر بأصابعـه بلـل العـرق ولزوجتـه. كان الحـر في الغرفـة قـد تهـم؛ لأنـه أوقـف عمـل التكييـف، وفتـح النوافـذ عـلى مصاريعهـا. زفـر ثـم قـال مجيبًا بتوسـع:

- ترافيـس هـو عميـل الإف بي آي الخـاص، المسـؤول عـن التحقيـق في أنشـطة عائلـة جرافانـو. هـذه التحقيقـات تشـمل المراقبـة، وتتبـع التحويـلات السريـة، واسـتخلاص المعلومـات مـن المخبريـن، واسـتعراض المحادثـات والوثائـق المسـجلة، والمشـاركة في الاعتقـالات، وهكـذا دواليـك.

وأضاف يقول وهو يتشمم رائحة العرق الواخزة، العالقة بأطراف أصابعه:

- وهـو، ترافيـس هـذا، بالإضافـة إلى واجباتـه الجليلـة هـذه، يتلقـى الرشـاوى مـن فيتريـو بـرودي.

قطّبت يانا، وقالت بلهجة توشك أن تكون حادة:

- عفوًا! هلا أعدت ما سبق وأن قلته عن فيتريو برودي هذا؟

قال جايكوب بصبر وبطء:

- فيتريـو بـرودي، هـذا الـذي قـال لـك عنـه إدواردو إنـه «الزعيـم الكبـير»، هـو المديـر التنفيـذي لشركـة «إمبريـال كلـوب»، الـتي تملـك وكالـة «جنتلمانـز ديلايـت»، الـتي تعملـين فيهـا أنـت. وهـو إلى ذلـك، واحـد مـن أعضـاء اللجنـة، العاملـين مبـاشرة تحـت إمـرة مارسـيلو جرافانـو، الرجـل الكبـير حاليًـا في عائلـة جرافانـو.

أطبقت يانا أسنانها، ثم قالت تسأله وهي تشعر بالغيظ والتخبط:

- ماذا تعني بـ«اللجنة»؟

- أعني الرؤساء من المرتبة الثانية.

صمتت يانا عدة لحظات، ثم هزت رأسها بغير تصديق وقالت:

- أنت تورط نفسك في حفرة خراء كبيرة.

fb/mashro3pdf

- ليس لديّ خيار آخر. كان عليّ أن أرسل البصمات إلى أندريا، الذي استأذن فيتريو في أن يتصل بالعميل الخاص ترافيس، كي يُجري مطابقة للبصمات على قاعدة بيانات الإف بي آي.

شبكت يانا ساعديها أمام صدرها، وقالت:

- ولأنك من المقربين، وافق الرجل الكبير، فأرسل أندريا البصمات إلى العميل الخاص المرتشي؟

قال جايكوب مُصححًا:

- ليس لأني من المقربين، بل لأني بذلت في سبيل ذلك ثروة صغيرة. أو لنقل ثروة كبيرة. كانوا قد حددوا لي سعرًا قاطعًا، دفعت نصفه قبل أن يبدأ ترافس في العمل، والنصف الآخر أدفعه الآن. ثم اتصل بي أدواردو اليوم مساءً، وأخبرني أن الأشياء جاهزة، فسألته إن كان في الإمكان أن يرسل الأشياء معك.

وأضاف وهو يشير إليها:

- ولأنك أكثر فتياته صدقًا وتحملًا للمسؤولية، رأيت أن ألقي عليك بعبء توصيل الورق، وها أنت ذا.

ركدت قسمات يانا، وانقطعت عن الكلام، ولم تحوّل بصرها عن الشاب. كانت تنظر إليه بضجر وضيق، وبشيء من التعالي والاستصغار أيضًا. انتابها شعور بالحزن واليأس والعجز، فكأنها أيقنت أن فتاها المدلل الأثير ضيَّع نفسه، وإنه سينتهي في أقرب وقت إما إلى السجن، وإما إلى القبر. وبهذا ستخسره هو أيضًا، كما خسرت من قبله من الزبائن المقربين، وستجد نفسها متروكة مهجورة، تجتر الضعيف والرديء من كل شيء. نظرت إلى عينيه الصافيتين الحادتين، اللتين تومضان منهما حمية الصبيان وحب الذات، ولا تخلوان مع هذا من الرقة والعذوبة.

ضغطت يانا رأسها بيديها، وقالت بصوت متقطع:

- كيف يمكنك أن تكون غبيًا إلى هذا الحد؟

ملأ جايكوب صدره بالهواء، ثم زفره بإحباط وقال:

- لا أدري.. الأشياءَ قُدِّر لها أن تحدث بهذه الطريقة. لم أملك أن أفعل شيئًا حيالها غير هذا الذي فعلت.

fb/mashro3pdf

- الآن وقد جاءتك المعلومات، ماذا تنوي أن تفعل بها؟

كان ينظر إلى الأوراق مرة أخرى بتمعُّن، وبدا لها شارد الذهن. ثم رفع عينيه إليها بعد برهة، وقال:

- لا أدري. المعلومات لا تشير إلى أي شيء ذي مغزى. يتعين عليّ أن أقرأها بتمعن.

ظنت أنها فهمت المغزى من وراء الجملة الأخيرة، فاستوفزت في كرسيها، وقالت بضيق:

- حسنًا إذن.. سأنصرف الآن وأدعك وشأنك.

توسعت عيناه جزعًا، وقال معتدلًا في جلسته:

- لا يا ناتالي، ابقِ أرجوك. لا طاقة لي الآن على القراءة.

جلست يانا على الفور وقد تملكتها فرحة آنية هادئة خفيفة؛ لأن الشاب أظهر حاجته إليها بعطف ورحمة، وأحست أيضًا بنفسها وكأنها تتشرب حيرته وتخبطه كالإسفنجة.

أما هو، فقال وهو يلقي بالأوراق إلى جانبه بفوضوية:

- بكل صراحة، أنا تائه تمامًا، وليس لديّ أدنى فكرة عما ينبغي عليّ أن أفعله. آخر مرة استطعت النوم فيها، كانت عندما خدرتني العاهرتان. ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز تمامًا عن النوم بعمق أو لفترات طويلة. أستلقي، وأنام بضع دقائق، كل بضع ساعات. أترقب نزول المصيبة بين لحظة وأخرى.

- مصيبة من أي نوع؟

قال بصوت متقطع، فكأنه يشعر بغصة:

- لا أستطيع القول تحديدًا. ربما أُباغَت غدًا بطفو محتويات الحاسوب على الشبكة الدولية. ربما أتلقى رسالة ابتزاز لا أقدر على تحمل تبعاتها المالية. لعل الشرطة العسكرية تطرق بابي الآن. أحلم بالزنزانة، وبالتعفن حتى الموت في السجن.

نظرت إليه يانا لبرهة، ثم قامت إليه وقد رأت أن الحوار قد آذن بأن تحرك مشاعرها تجاهه. قالت تمازحه: «يا طفلي المسكين، تعال إلى حضن مامي». وأجلست نفسها على فخذيه، فتلقى الشاب جسدها المشيق بتوق وتشهٍّ. لم تكد تحتضنه، حتى رجاها برفق أن تخلع ملابسها، كي يتهيأ له التنعم بملامستها دون حائل. استجابت له على الفور، وتجرّدت من ثوبها حتى لم يبقَ عليها إلا لباسها التحتي الرقيق، ثم عادت وحازته إلى صدرها. أدامت النظر في السماء الليلية وأضواء جادة فيجاس المتلألئة، ومسحت على

fb/mashro3pdf

شعره ورفهته ودللته بالضغط المتقن على عضلات عنقه ومنكبيه.

وردّت على بالها فكرة، وهي تتأمل تشكيلات الوشم الدقيقة الملونة على كتفيه وذراعيه وظهره، فقالت:

- أقول لك يا جايك، إن بشرتك ناعمة ونضرة، وتجعلني أتساءل.. كيف أمكنك أن تفسدها بهذه الأوشام الفظيعة؟

- الوشم ليس فظيعًا. الوشم فن، ويعبر عن معانٍ عميقة.

- نعم.. يعبر عن اضطراب عميق في الشخصية، وميل إلى العنف. أندهش أحيانًا من تناغمنا، أنا وأنت، رغم أننا نتحرك على أطوال موجية متباينة.

أغمض جايكوب عينيه، وقلب وجهه في صدرها، ثم قال بصوت خافت كأنه منهك:

- لا أدري.. ماذا تريدين مني أن أقول؟

طوقت رأسه وعنقه وظهره بذراعيها وساعديها ويديها، وقالت:

- لا عليك. لا تقل شيئًا.

استلذ الشاب ببشرتها النضرة الناعمة، واستروح بغضاضة ثدييها وطراوة بطنها، وبات بين يديها كالخروع لينًا واسترخاءً. أما هي، فأشبعت رأسه وجسده لمسًا، ثم قالت تمازحه:

- كيف يتفق لك أن تكون طويلًا قويًا كجذع شجرة، وأن تتحلى بصدغ ناعم كالبنات الصغيرات؟!

أجابها بتكاسل:

- لأنني كنت قد فرغت من حلاقة لحيتي، قبل مجيئك مباشرة.

أبعدت نفسها عنه على حين فجأة، ونظرت إلى وجهه مستطلعة كأنها فوجئت بالأمر، ثم هتفت به قائلة:

- نعم، أنت على حق. كنت أتساءل منذ دخلت إلى هنا، عن هذا الشاب الصغير الذي أظن أني أعرفه من قبل. تبدو لي أصغر سنًا بخمس سنوات على الأقل.

قال محاولًا أن يضمها إليه مرة أخرى، وقد لاح في عينيه الاعتراض على هذه المقاطعة المباغتة:

- نعم. أكره نفسي عندما أحلق اللحية؛ أحس أني مخنث.

fb/mashro3pdf

قاومت حركته، ولم يشتد هو عليها رغم البون الشاسع بين قوته العضلية، وضعفها وهشاشة بنيتها بالمقارنة. ثم قالت تسأله:

- لماذا تحلقها إذن؟

زفر بغم قائلًا:

- غدًا صباحًا، ألتقي بأمي.

سألته بقلق:

- بخصوص موضوع السرقة؟

- لا أظن هذا. على الأقل لا أتمنى هذا.

- و...؟

- لا أشعر بالراحة إن رأتني بلحية مغبرة.

قالت بدهشة:

- أنت غير ملزم بالحفاظ على لحيتك مغبرة. استحم وصففها قبل أن تلتقي بأمك.

هز رأسه يمنة ويسرة، وقال منكرًا:

- لا أستطيع أن ألقاها، لا بلحية مغبرة، ولا بلحية مصففة.

- لم؟

- لا أدري. فقط لأني لا أحب ذلك.

تبسمت يانا، وقالت وهي تداعبه:

- أنت ابن مامي الصغير إذن. لا تجرؤ على أن تريها نفسك وأنت رجل ناضج، ذو لحية مخيفة.

- اللحية تبدو لي.. لا أدري.. أن أدخل عليها بلحية، كأن أدخل عليها بامرأة في يدي.

- وما شأن أمك بهذا؟!

- هل تمزحين؟!

انتظرت منه أن يقول المزيد، فإذا به يسكت وكأنه قدم تفسيرًا شافيًا وافيًا، فعقبت هي باستغراب:

- تبدو لي.. أرجو ألا تؤاخذني عندما أقول لك، إن أمك تبدو لي ساحرة شريرة.

أحدّ جايكوب بصره إليها، ولم يبدُ على وجهه أي تعبير، كما لم يُدلِ بأي تعقيب،

fb/mashro3pdf

فأحسـت يانـا بالضيـق والحـرج، خوفًـا مـن أن تكـون قـد تفوهـت بإهانـة. لـم يكـن قولهـا بمثابـة الحماقـة المحضـة؛ لأن جايكـوب لـم يبـدُ لهـا مـن هـذا النـوع مـن الأشـخاص الملتهـبي المـزاج، الذيـن إذا مـا وُجِّهـت إليهـم وإلى آبائهـم الافـتراءات والمطاعـن، انفعلـوا وتشـنجوا وجنحـوا إلى الاعتـداء. بـل عـلى النقيـض مـن هـذا، كان قـد عَوَّدهـا عـلى التحقـير مـن شـأن أبيـه، وعـلى التشـكي المـر مـن أمـه. ثـم عـادت وتذكـرت أنـه رغـم مـا يبديـه مـن لذوعـة تجـاه والديـه، لـم يشـتم أمـه أمامهـا مـن قبـل، ولـم يلـقِ عليهـا بـأي صنـف مـن صنـوف القـذف، ولـم يخـرج في معـرض ذكـره إياهـا عـن مجـرد التشـكي العـام مـن سـلوكها التسـلطي وإدمانهـا عـلى الاسـتحواذ.

ومن هذا المنطلق، انبرت يانا على فخذيه، وقالت تفسر مقالتها السابقة:

- أعـني، أن يخـاف مـن هـو في مثـل مهنتـك وعمـرك مـن أمـه.. بربـك، لا بـد أن تكـون إذن امـرأة مهووسـة، متسـلطة.. بالمفهـوم الأسري أعـني، وليـس المفهـوم السـياسي طبعًـا.

ومـا أن تفوهـت بالعبـارة الأخـيرة، حـتى أدركـت أنهـا إنمـا أهانـت أمـه مزيـدًا مـن الإهانـة، ودون قصـد، فلعنـت طـول لسـانها بالسـوء. همّـت أن تعتـذر، غـير أنـه رد عليهـا بهـدوء، ومـن دون أن يبـدو عليـه أي أثـر لغضـب أو وجـوم:

- أظنها فعلًا متسلطة، على الصعيدين، الأسري والسياسي.

ضحكت باضطراب، وسألته:

- أهي جمهورية الهوى أيضًا؟

- مما يثير الدهشة أنها ليست جمهورية، بل ديموقراطية صميمة.

سـكتت يانـا عـن الـكلام مجـددًا، ودارت عيناهـا في حـيرة، فكأنهـا لا تـدري مـا يتعـين عليهـا أن تقـول الآن أو تفعـل، وسـكت جايكـوب أيضًـا.

وأخـيرًا نهضـت مـن عـلى فخذيـه لمـا شـعرت بذراعيـه يتراخيـان حولهـا، فكأنـه يفلتهـا عمـدًا، وأخـذت تجمـع ملابسـها. وقالـت لـه أثنـاء ذلـك، بـشيء مـن الحـرج:

- عـلى كل حـال.. أتـركك الآن في سـلام. أرجـو أن تسـتطيع حـل مشـكلتك مـع الفتيـات، وأن تجتـاز اختبـار مقابلـة الوالـدة غـدًا بنجـاح.. وهـو الأهـم فيمـا أظـن.

نظـر جايكـوب إلى عينيهـا مبـاشرة، فـرأت فيهمـا عاطفـة امتنـان، بـدت لهـا صادقـة، وسـمعته يقـول لهـا وقـد لبـس عـلى وجهـه ابتسـامة تـكاد أن تكـون حزينـة:

fb/mashro3pdf

- شكرًا لك. الدردشة معك تظل دومًا من الأشياء اللطيفة في حياتي.

بلعت ريقها، ومالت لتضرب بيده على صدغه قليلًا قليلًا، وقالت وهي تحاول أن تبتسم:

- تستحق قبلة على خدك أيها الولد الطيب، على مجاملتك الرقيقة هذه.

أتبعها بصره وهي تضع عليها ملابسها، ثم قال بعد برهة، برجاء مفاجئ:

- ناتالي. لم لا تبقين وقتًا أطول؟

التفتت إليه وقالت:

- لا أدري.. لأي غرض؟ عليّ أن أذهب باكرًا إلى مدرسة البنات.

- تعالي نمارس الحب، ونتعشى معًا. بعد ذلك أوصلك إلى منزلك. سوف أجزل لك في العطاء مرتين. مرة لإدواردو، ومبلغ محترم لك أنت أيضًا. سأدفع نقدًا، بحيث لا يشاركك أحد في الإكرامية.

هكذا قال ببعض الاندفاع والحماسة، وكان مكروبًا أيضًا وقلقًا بعض الشيء، فاكتفت يانا بما ارتدته من ملابس، ولم يكن عليها لحد الآن سوى القميص التحتي الأبيض قصير الكمين، وسروالها التحتي الرقيق. ثم قالت له بإشفاق:

- ليست مسألة نقود. أستطيع أن أبقى بكل سرور، لو أن في ذلك ما يُفرّج كربك. لكننا حاولنا مرارًا، ولم نصل إلي شيء بخصوص مسألة ممارسة الحب هذه.

تسارع تنفس الشاب وهو يقول:

- في ذهني تقنية جديدة، لم أجربها من قبل.

تململت يانا في وقفتها، وقالت وهي تحرص كل الحرص على أن تحقن كلماتها بالتعاطف والأسف:

- جايك.. بالنظر إلى ذائقتك، تجد أنني متقدمة في السن. دعني أقول لك شيئًا. سأبقى ونكمل الدردشة ونتعشى، ثم توصلني إلى المنزل. ما قولك؟ أقول لك شيئًا آخر؟ لعلك تكره هذه الغرفة، بما فيها من...

وأدارت رأسها ناظرة إلى أنحاء غرفة المعيشة، وهي تردف:

- ... كماليات فندقية مصطنعة ورخيصة.

ثم عادت وركزت النظر على عينيه الزرقاوين الحادتين، وأنفه المنمنم، وشفتيه

fb/mashro3pdf

الجميلتين، وقالت:

- تعال نذهب إلى منزلي. سأطبخ لك عشاءً منزليًا، ونشاهد التلفاز معًا. ويمكنك أن تبيت معي لو أردت، وننطلق من هناك إلى أمك. ما رأيك؟

نهض عن الأريكة، وقصدها قائلًا بتوسل:

- أرجوكِ، دعينا نحاول.

*****

fb/mashro3pdf

العاشر من سبتمبر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

على طريق ٩٥ الصحراوي السريع، انطلقت السيارة الرياضية متعددة الأغراض، هامر سميلودون، وكانت وهي تنهب الأرض، اسمًا على مسمى، ضاريًا متضخمًا مفترسًا، يرمح على الأسفلت كالبرق. انعكس ضوء الشمس على سطحها الفضي الانسيابي، ولمع لمعًا خفيفًا متقاربًا، فيما لم يصدر محركها القدير إلا فحيحًا خافتًا متصلًا.

في مقصورتها الداخلية الفسيحة، جلس جايكوب على كرسي القيادة، مرخيًا عضلاته، وممددًا ساقيه على الأرضية الخفيفة المبطنة، وقد أخذ بزمام توجيه السيارة عوضًا عن أن يترك المهمة لبرنامج التوجيه الذاتي. عرك أذنه بتلذذ وسرور، واستدعى إلى ذهنه صوت يانا المسكينة، إذ تصرخ بتضرع وذِلة بين يديه. إن ما فعله بها يُعدّ تاريخيًا بكل تأكيد، ولم يسبق أن تحقق مع امرأة «أكبر منه سنًا»، على هذا النحو المتقن. كانت ليلة جيدة، بدأت مثبطة، عديمة الجدوى، وانتهت بنصر وإشباع وهناء.

لم يكن متحققًا من قدرته على الأداء، رغم التقنية الجديدة، ولم تكن هي نفسها متحققة من ذلك؛ بالنظر إلى ما مرت به معه من تجارب ومناوشات لم تؤدِ إلى نتائج طيبة. ولمّا بيّن لها مراده، نظرت إليه بإشفاق، ولسان حالها يقول: «كنت أظنك أكثر إبداعًا». جايكوب الباسل الخطير، لم يزد في تخيلاته عما يأتي به غيره من العجائز المهلهلين والأزواج المثيرين للشفقة، الذين يستقون بدعهم من الروايات الرخيصة والأفلام الإباحية القذرة. لكن لأنها محترفة، لم تُبدِ اعتراضًا أو اندهاشًا أو تقززًا، ولا أظهرت تبلدًا أو امتهانًا. أطاعته فيما دعاها إليه على الفور، بطريقة طبيعية متأقلمة، وذلك دون أن تغفل الجانب الوجداني. ولم يكن في ذلك غرابة؛ لأنها معتادة على قضاء حاجات الزبائن، التي ما فتئت تزداد شذوذًا مع الوقت. أخبرته يانا، بعد أن طرح فكرته عليها بنوع من التردد، وذلك كي تطمئنه وتهدئ من روعه، أن الطلبات الفيتيشية والالتماسات اللا عقلانية تجعل المهنة أقل مللًا، بيد أنها أوضحت له بموضوعية وصراحة مهنية، أنها لا تضرب أحدًا، ولا تؤذي أحدًا، ولا تقبل أن تُضرب أو تُؤذى أو تُشتم، كي تحسم الأمر معه بصفة جذرية، وتقطع عليه أي محاولة لتطوير الجماع إلى شيء آخر لا تحبه لنفسها ولا ترضاه، هذا لو قُدِّر لهما الجماع ابتداءً.

دقائق طوال قضتها يانا جاثية، موجهة أفحش ألوان السباب إلى أير جايكوب، الذي جلس أمامها عاريًا على طرف الفراش، وقد طفح وجهه بالقلق والوجوم. قبحت يانا، وعصرت ذاكرتها واستخرجت ما انزوى في قريحتها من نِقَم وأحقاد، كي تأتي بتركيبات لفظية بذيئة، تعبّر عن تحقيرها وتشنيعها واستهانتها بعضوه الصغير، إلى أن جاوزت الحد في ذلك تلقائيًا، وطفقت توجه الإهانات إلى جايكوب شخصيًا، ثم إلى أمه على وجه الخصوص. جاءت في حقها بالمنكر وبكل ما هو سيء مستبشع، وفعلت ذلك بطيش وخفة، من دون اعتبار لما قد ينجم عن فعلها هذا من مشكلات.

لما أعاد جايكوب التفكير في المشهد، أدرك أن مومسته الأثيره لم ترتكب هذه الحماقة من باب الطيش أو الخفة، إنما طورت هجومها على نحو مدروس، استنادًا إلى مجموع تجاربها ومعارفها بالرجال، بخاصة من هم على شاكلته. لم يكن اقتراحه المبدئي قد أسفر عن نتائج سارة، ثم لما شرعت يانا، المرأة البغيّ بنت الهوى القذرة، في التعدي اللفظي على أمه «المصونة العرض» تحديدًا، استشاط غضبًا، ونهض إليها بوجه محمر وعضلات منقبضة وعينين يطق منهما الشرر، والأهم من ذلك كله، بأير نابض منتشر.

بلا شك ارتعبت يانا، وقد رأى جايكوب الرعب يطل من عينيها بوضوح، لكنها، وعلى نحو جدير بالإعجاب، لم تتراجع أمام قامته المتطاولة، وقوته الباطشة، بل خطت تجاهه بوجه محمر منتفخ، وشعر منتفش مبلل بالعرق، وشقت جيبها شقًا بليغًا كشفت به عن صدرها، وصرخت في وجهه بما أوشك أن يكون جنونًا: «إليك عني! اذهب وجامع نفسك! اذهب وجامع أمك!» وقتئذ أمسك بها جايكوب من كتفيها، وهدر قائلًا: «أيتها الفاسقة! أيتها الفاسقة القذرة!».

ما حدث بعد ذلك، يصفه جايكوب الآن بكونه «مضاجعة عظيمة»، وهو وصف يصعب على أمثاله بلا ريب تحديد أبعاده. الصورة الحسية للمضاجعة «العظيمة» تمثل لجايكوب حلمًا بعيدًا عن الواقع، ولا يعدو في معظم الأحيان كونه تأملًا خياليًا واسترسالًا في الرؤى أثناء اليقظة. ولكي يصل إلى ذروة الجماع الحقيقية، يتعين عليه التقيد بتدابير خاصة ومعقدة، وممتنعة التحقق قطعًا في ظل المنظومة الاجتماعية التي يعيش فيها. جرب كثيرًا، مع عشرات الفتيات والنسوة من مختلف الأعمار، وأخفق في معظم الأحيان. وإن أفلح، وهو الأمر النادر الحدوث، لا يعدو الجماع عندئذ كونه إفراغًا فسيولوجيًا

fb/mashro3pdf

بحثًا، يماثل في بوهيميته وبعده عن الأبهة التبول مثلًا. لا بد هنا أن يتذكر أيضًا، أن آخر مرة أبلى فيها بلاءً مقبولًا، مع بترا وفيليبا، شرِق بعدها ووقع في متاعب جمة، وأن تجربة الجماع الناجحة تلك، انتهت بفشل هو الأقطع في حياته.

أما الليلة الماضية، فكانت تاريخية، من حيث أنها كانت -إلى حد ما- طبيعية، ولم تنته بكارثة. لمرتين على التوالي ضاجع جايكوب يانا بعنفوان، وذهب إلى أبعد ما كان متوقعًا بصموده في مواجهة النازلة لخمس دقائق على الأقل، إلى أن بلغت يانا رعشة الجماع، بل وأقدمت على تقبيل شفتيه بقوة وعلى حين فجأة إذ تتأوه وتتلوى، فلم يستطع أن يشيح بوجهه لتجنُّب القبلة في الوقت الملائم. نعم، هذا ما حدث حقًا وصدقًا، وقد دُهش لذلك دهشة بالغة، إلى حد أنه سألها، ولم يكن قد التقط أنفاسه بعد، إن كانت قد بلغت بالفعل هزة الجماع، فأجابته هي أيضًا مدهوشة: «نعم. لم يحدث لي هذا منذ أكثر من عام»، ثم أردفت ضاحكة، وهي توغف كالكلب: «فليباركك الرب يا بني! كنت قد أقلعت عن الاستمتاع بالجماع». وقالت تضيف وقد عجزت عن أن تسكت: «كن فخورًا، لعل الذي رأيته مني يكون التشنج العضلي الوحيد الذي شعرت به منذ أنجبت أطفالي».

يعلم جايكوب أن العاهرات هن أكذب الناس، لكنه كان موقنًا، بما لا يدع مجالًا للشك، أن تشنجها العضلي هذا جاء على نحو لا إرادي، ولا يتفق أن يسري ما هو مثله في جسد آدمي، إلا في هزة الجماع. وهكذا وجد جايكوب نفسه يشكر العاهرة بإخلاص، فإذا بها تقول له بتهكم: «عليك أن تتقدم بالشكر إلى طفلتيّ؛ لولا حاجتي إلى إعالتهما، لما ضاجعت الرجال، ولما أجبت طلباتهم المنحرفة»، ثم أردفت تقول بعدم اكتراث، وهي تمط عضلاتها، وتشد ذراعيها إلى الوراء: «أنتم مقززون يا رجال.. مقززون. يمينًا بالرب، لو قُدِّر لي أن أترك هذه المهنة -وسأفعل يومًا- لن أمس رجلًا إلى أن يواريني التراب».

قالتها ونَحّته عنها، ثم نهضت لتحضر حاسوبها. شغلت تطبيق قراءة بصمات رقائق الدين والائتمان، ثم أخبرته ببرود عن المبلغ المطلوب لقاء الترفيه والخدمة، فدفعه عن طيب خاطر، وأضاف على ما طلبت إكرامية ألجمت لسانها، وأجبرتها على إجابة طلبه، وذلك بأن تعترف إليه بأن هزة الجماع باغتتها، وأخرجتها من وهدة الفتور دون سابق إنذار، وبأنها بلغت من الشغف وفيض العاطفة أنها قبّلته. لكنها عادت وقالت

fb/mashro3pdf

له ضاحكة: «أظن أن نموك العقلي لم يكمل بعد يا جايك، وهكذا تجدني أُقَبِّلك مثلما أُقَبِّل الأطفال المتخلفين عقليًا، فلا تعطي الموضوع أكبر من حجمه».

تبخرت الذكريات السعيدة من دماغه رويدًا رويدًا، وعاوده القلق لما سلك طريق إي جاليريا المباشر. كان قد انتابه شعور باطني، رغم إنكاره ذلك ليلة أمس، بأن أمه إنما طلبت لقاءه على جناح السرعة، لأمر يتعلق بسرقة أشيائه في «سيليستيال»، وإلا فلم؟ لم يكن قد كَوَّن تصورًا واضحًا عن أبعاد المعضلة التي توشك أن تنزل به، ولم يكن قد اهتدى بعد إلى الطريقة المثلى كي يصمد في وجه الوالدة، لكنه توقع حدوث الشر، وكان يتطير بأمه على كل حال. وعندما انعطفت السيارة شمالًا إلى طريق إي ليك ميد المشجر، هاجمه المغص، وتصاعدت قوته باطراد كلما تقدمت السيارة على الطريق، إلى أن تحول إلى وجع مؤلم وتقطيع في الأمعاء لما سلك طريق ليك لاس فيجاس. بعد دقائق عدة، انتهى إلى جادة جراند ميديتيرا، وأبصر الأشجار المحدقة به من جانبيه، فأبطأ من تقدمه، إلى أن أوقف السيارة أمام بوابة عقار رقم ٣٦، في طريق تيبيريوس.

انزاح مصراعا البوابة الفولاذية دون صوت، فتقدمت الهامر الفضية، واجتازت الحديقة الأمامية الفسيحة على مهل، إلى أن توقفت إلى جانب سيارة الوالدة السوداء الفاخرة، من طراز كاديلاك إسكاليد. لبث جايكوب في كرسيه بضع لحظات ليجمع متعلقاته، واستأنى في ذلك وهو يتلفت حوله بقلق. خرج أخيرًا من برد المقصورة إلى حر صحراء نيفادا الحارق، وقصد مدخل الفيلا الكائنة أمامه.

ارتدى اليوم قميصًا قطنيًا ذا لون كحلي، انطبق على بنيته العضلية والتصق بتكوراتها، وأحاط خصره بسروال جينز مريح، وانتعل حذاءً رياضيًا أنيقًا. حرص على أن يُدخل جميع أزرار القميص في عراها، بما في ذلك أزرار الياقة والكمين، مما أضفى على مظهره صبغة صبيانية، وأخفى أوشامه كافة. كان قد ترك يانا تغط في نومها، ومارس طشوشًا صباحية مطولة، كي يعد نفسه للقاء المرتقب، وانتقى كل قطعة من ملابسه بدقة.

صفف شعره الأشقر الناعم بعناية، وأرجعه إلى الوراء كله، ثم لما تفحص نفسه في مرآة الحمام، رأى أنه يشبه في الهيئة تلاميذ المدارس الداخلية المراهقين. لم يكن راضيًا عن نفسه، لكنه كان قد تأخر على كل حال. خرج من الحمام في هندامه، فوجد يانا مفيقة، محمرة العينين، مهلهلة الشعر، وكانت قد بدأت بالفعل في البحث ملابسها.

fb/mashro3pdf

استأذنته في أن تستعير منه أحد قمصانه، عوضًا عن هذا الذي تمزق ليلة أمس، فأذن لها، ولم تكد تمضي عدة دقائق حتى كانا في طريقهما إلى «سمرلين» حيث تسكن. وقبل أن تغادر يانا السيارة إلى مسكنها، التفتت إلى جايكوب وتبسمت في وجهه، وتمنت له حظًا سعيدًا، ثم قالت: «تبدو رائعًا. وسيم جدًا وطيب الرائحة. لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام. اتصل بي».

وها هو ذا، بعد نصف ساعة تقريبًا، يقف أمام فيلا «مايمونوديز»، أو فيلا «بن ميمون» كما تصر أمه على تسميتها، تيمنًا بشخص لا يعرف عنه شيئًا، سوى أنه عاش في العصور الوسطى. تتوسط الفيلا قطعة أرض صحراوية واسعة، تطل على بحيرة لاس فيجاس، وتحوطها حدائق استوائية خلابة، وهي إحدى العقارات العديدة المملوكة للعائلة في نيفادا.

تقول أمه إن هذه الفيلا مثبتة في منحدر الصخور، وكأنها شريحة صغيرة من الجنة. لا يدري جايكوب شيئًا عن مفهوم أمه عن نعيم ما بعد الموت، أو تصورها عن الدار الآخرة، لكنه لا يشاركها في نظرتها الروحانية للمكان، إلا لو كانت الجنة في حقيقة الأمر، بافتراض وجودها في عالم الواقع، تبدو من الداخل مثل متحف الهولكوست التذكاري في واشنطن العاصمة. عاودته الوحشة وهو ينظر إلى التكوين الحاد للفيلا، المتألف من جدران خرسانية باهتة، ومساحات واسعة من الزجاج. نخر الوجع أمعاءه وهو يطأ الأرضيات الخشبية الغامقة، وتلك المصنوعة من قوارير شفافة يجري من تحتها الماء.

وقف جايكوب أمام باب غرفة المعيشة الزجاجي المنزلق، وأبصر وحدات الجلوس الجلدية الوثيرة في الداخل، وأطر الصور الصغيرة، الموزعة بنظام دقيق على الجدران، ولم يكن قد قرر بعد ما يتعين عليه أن يفعل؛ لأن المكان بدا له خاليًا من أي أحد. ثم أعفته السيدة من الحيرة، حينما رآها تنزل إليه من سطح الفيلا، حيث تقع الحديقة العلوية وحوض السباحة المعلق. نظر إليها جايكوب وهي تنزل السلم درجة درجة دون أن تعجل، بقدمين حافيتين. بدت وكأنها قد خرجت توًا من الماء؛ لأن خصلات شعرها تبللت وتكتلت وتلاصقت بجبهتها وعنقها، كما تبللت بلوزتها القصيرة الشفافة بعض الشيء، والتصقت ببطنها المشدودة، ولم تحجب من ثم البيكيني أسفل منها. قدر جايكوب بالتخمين أن الوالدة كانت قد فرغت للحين من ذرع حوض السباحة طولًا

fb/mashro3pdf

وعرضًا، ولم يكن سعيدًا البتة بأن تطل عليه بالأذى من قبل حتى أن يتبادلا التحية. كان يرى في تخففها أمامه أذى، ولو أن به جرأة، لأشاح بوجهه، ولسألها وهو مُعرِض أن تستر نفسها كما يليق بالأم أن تستر نفسها أمام ابن شاب، وكان هذا الشعور في حد ذاته يقع في نفسه محل دهشة، بالنظر إلى طبيعته المتفلتة، وميله إلى التحلل.

لم تتبسم إيلينا فيكسلبرج في وجه ابنها بعد أن اجتازت السلم الخرساني نزولًا، بل قصدته بوجه خالٍ من المشاعر، وعانقته بذراع واحدة كعادتها، من دون أن تتبس. مال جايكوب ولمس ظهرها بكفه مرة واحدة، وكان قد عزم على أن يقبلها على صدغها، لكن شعوره بأنه إنما يعانق كتلة من معدن بارد ردّته عن عزمه، فأفلتها من قبل حتى أن تفلته.

تأملت إيلينا وجهه الجميل، ودققت النظر فيه من أعلاه إلى أسفله، ثم قالت:

- تأخرت كالمعتاد. كان ينبغي أن تكون هنا أمس ظهرًا. تعالَ معي.

سار جايكوب في عقبها، وصعد على السلم الخرساني ذاته خلفها، إلى أن انتهيا إلى الحديقة العلوية، المطلة على حوض السباحة. قادته إلى وحدة الجلوس الوحيدة الكائنة في ظل كابول خرساني ناتئ، ودعته لأن يجلس، ثم جلست هي أيضًا إلى مائدة زجاجية منخفضة، كانت قد جهّزتها من قبل بدورق عصير وكوبين بلوريين. جلس جايكوب، ولم يرخِ عضلاته ولم تبدُ عليه الراحة، بل تصببت جبهته عرقًا، وتلطخ قماش القميص أدنى إبطيه بالبلل. أراحت هي ظهرها في بطانة كرسي الشاطئ اللينة، وخلعت منظارها الشمسي الكبير، فرأى جايكوب عينيها الزرقاوين القاسيتين لأول مرة منذ زمن.

قالت تسأله:

- لم تأخرت؟ قلت لك إن الأمر جد مُلحّ.

- لا تؤاخذيني؛ كان عليّ أن أنهي بعض الأمور المستعجلة قبل المجيء.

- وماذا تكون تلك الأمور المستعجلة يا ترى؟

- بعض الأمور الشخصية.

- وكيف تجري الأمور معك؟

أجابها جايكوب قائلًا، ولم يكن قد خلع منظاره الشمسي اللامع بعد:

- بطيئة وثابتة. لا شيء خارج عن المألوف.

fb/mashro3pdf

- هل قرأت كتابي؟

- لا، ليس بعد. كما تعلمين، لا صبر لي على القراءة الطويلة.

قالت إيلينا وهي تحول عنه بصرها إلى السماء الصحوة:

- سيعجبك، فيما أظن. سيدهشك. بعض الفصول تعرض جانبًا من حياتنا الأسرية، واسمك ظهر فيها أكثر من مرة.

- أنا سعيد لأن اسمي ذُكر في كتابك.. على شرط أن يكون قد ذُكر في ضوء إيجابي.

- نعم، ستُدهش من رؤيتي لطفولتك السعيدة، آنذئذ.

- نعم.

قالها جايكوب، وسكت عن الكلام. لفه وإيلينا صمت غير مريح، إلى أن قطعه هو قائلًا وهو يضرب بيده على فخذه ضربًا خفيفًا:

- إذن، ما الأمر؟

رشقته إيلينا بالعبارة التالية، التي اقتحمت بها موضوع المقابلة مباشرة:

- يتعين عليك أن تخبرني بما حدث لك في «سيليستيال»، منذ عدة أسابيع.

تغير وجه جايكوب بغتة، كالسحاب إذا ما اسودَّ وتراكم بعضه على بعض. خلع منظاره الداكن، وحدج أمه بنظرة ثابتة قاسية، فكأن لسان حاله يقول: «كيف جرؤتِ على أن تطرحي عليَّ هذا السؤال؟!».

بادلته إيلينا النظر، بل ووسعت عينيها قليلًا بتحدٍ، ولم تنبس. وسرعان ما سألها جايكوب، قائلًا ببطء:

- وما الذي ماذا حدث لي في «سيليستيال»؟

أجابته إيلينا قائلة، وهي تضع ساقًا على ساق:

- إدارة الفندق أبلغت أباك بوقوع سرقة في غرفتك، وبأنك طالبت بتشديد الإجراءات الأمنية، ثم طلبت صور المراقبة لمنطقة «ديفاين جاردنز»، ورواق الطابق الستين المؤدي إلى غرفتك.

استجمع جايكوب قواه، وبذل في سبيل ألا يختلس النظر إلى فخذها الجهد الشاق، وكان ثوبها القصير قد انحسر عن أعضائها مزيدًا من الانحسار. ثم قال بلسان ثقيل:

- أُفضِّل ألا أتحدث في هذا الموضوع. موقف محرج، انتهى بأن سُرِقَت مني بعض

fb/mashro3pdf

الأشـياء. هـذا كل مـا هنالـك.

انتظرت إيلينا قليلًا، ثمر سألته وهي تميل رأسها:

- لمر طلبت صور المراقبة إذن؟

تصنع جايكوب الهدوء والثبات، وقال يجيبها وكأنه يذكر أمرًا بديهيًا:

- أردت البحـث عمـن سرقـني عـلى شـبكة المعلومـات. كنـت أظـن أن الصـور قـد تسـاعدني كمرجـع عـلى أن أبحـث عمـن سرقـني في شـبكات التواصـل الاجتماعـي.

- وهل نجحت يا ترى؟

ضمر جايكوب شفتيه، وقال:

- لا، على الإطلاق. فرصي كانت شبه معدومة من البداية.

سألته إيلينا، قائلة بلهجة تكاد أن تكون ساخرة:

- وهكذا قررت أن تتناسى الأمر، وأن تُفرّط في مقتنياتك؟

- نعمر، هذا ما حدث فعلًا.

التزمـت إيلينـا الصمـت لبرهـة، ثـمر قالـت بلهجـة هادئـة ثابتـة، وكأنهـا ألقـت كل مـا قيـل مـن قبـل وراء ظهرهـا، وعزمـت عـلى أن تبـدأ مـن جديـد:

- لا بأس. حدثني بتفصيل أكثر عن طبيعة السرقة. كيف حدثت؟ ومن سرقك؟

قال جايكوب كارهًا:

- لا أحب أن أتلقى العديد من الأسئلة في آن واحد.

قالت إيلينا وهي تشير إليه باستياء:

- كنـت قـد قلـت إنـك لا تفضّـل أن تتحـدث في الموضـوع. في مقـدوري إذن أن أطـرح عليـك مـا أشـاء مـن أسـئلة، وفي مقـدورك ألا تجيـب.

- نعمر، أفضل ألا أتحدث في هذا الموضوع.

هكـذا قـال جايكـوب ناقمًـا، بعـد أن ضـمر شـفتيه وقبـض عضـلات وجهـه. لـمر يـدرِ كيـف يتـصرف. تسـارع نبـض قلبـه، وتـراءت لـه أخيلـة وحشـية، تدفـق لهـا الـدم إلى رأسـه وأذنيـه خاصـة.

مسح شفتيه بلسانه، ثمر قال بصوت منهك، فيه بحة:

- إن هـذا لأمـر غـير مقبـول عـلى الإطـلاق، هـذا الـذي تفعلينـه بي. هـل أتيـت بي إلى هنـا،

fb/mashro3pdf

كي تطرحين عليّ هذه الأسئلة؟ أليس لي الحق في أن أتمتع ببعض الخصوصية؟ فقط هذه القطعة الصغيرة من الخصوصية.

هزت إيلينا رأسها وهي ترفض، وقالت بصوت هادئ:

- ليس الآن. لا، لا يحق لك في هذا الموقف بالذات.

فَرَد جايكوب أصابعه كلها، وعاد فقبضها، ثم قال بعدائية:

- ما حدث لي يمس خصوصياتي الأكثر حميمية. أنا فقط.. لا أريد أن أتحدث.. لا أرغب في مشاركتك في هذه التفاصيل.

قالت إيلينا على الفور بتقزز:

- يا بني، أنا لا أبالي البتة بحياتك الخاصة. هذا الموضوع له أبعاد مختلفة تمامًا.

بدت على جايكوب دلائل الهياج المرئية، فكأنه يدبر أمرًا ما، إلى أن نهض على حين غفلة، وقد عزم على أن ينصرف. حدجته أمه بنظرة طويلة متوعدة، والتوت شفتاها بغضب ملتهب، وبما أوشك أن يكون كراهية.

سرت في عمود جايكوب الفقري رعدة خفية، وقال لأمه بصوت جاهد كل الجهد من أجل أن يخرجه جامدًا، حازمًا، اعتياديًا:

- ألا يمكنك أن تتركيني لحالي، فقط في أيام العطلة القليلة هذه؟ ألا تسمحين لي بأن أتمتع بالنصر الذي أحرزناه في مصر؟ أنا.. فقط أريد أن.. أجني ثمرة مجهودي، و... أتراني أطلب الكثير؟

هزت إيلينا رأسها يمنة ويسرة، وقالت بلا انفعال:

- رجالك ما يزالون هناك، في «فورت كامبل»، يؤدون واجبهم في الإدلاء بشهادتهم بشأن مهتهم في مصر. وعُطلتك القصيرة هذه، ما كان لك أن تتمتع بها، لولا وساطتي. وما كنت لأتوسط لك لولا حاجاتي إلى أن أراك اليوم، كي أتقصّى حقائق ما حدث لك في «سيليستيال».

لم يُعَقِّب جايكوب، ولم يعد إلى كرسيه، ولم ينصرف كذلك، فقالت له إيلينا بهدوء نفس :

- اجلس يا بني. أرجوك.

- فقط اسمحي لي بأن أنصرف، وانسي الموضوع الآن. فقط دعينا لا نسبب ضجة. دعيها

fb/mashro3pdf

تمر، واسمحي لي بأن أدبر أموري بنفسي.

- اجلس يا جايكوب. الأمر جد خطير. دعني أشرح لك.

لم يطعها الشاب، بل أخذ ينظر حواليه بنفاد صبر. سال عرقه غزيرًا حتى التمع وجهه، وتبللت أجزاء أخرى من قميصه، فأراد أن يحل أزرار الياقة والأكمام، فقط لكي يدخل دفقة هواء إلى بدنه، غير أن أوشامه منعته.

تركته إيلينا ينعم بلحظات تقرير المصير القصيرة هذه، ثم قالت بنبرة آمرة، وهي تشير بكفها إلى كرسيه:

- اجلس يا بني.

عاد جايكوب إلى الكرسي، فصبت له أمه من الدورق بعضًا من عصير الأناناس، المخلوط بمكعبات ثلج صغيرة، إلى أن امتلأ الكوب إلى ثلثه الثاني. دعته لأن يشرب إن أراد، وصبت بعض العصير لنفسها أيضًا.

تذوقت إيلينا العصير قليلًا قليلًا، ثم قالت تسأله وهي تضع الكوب على المنضدة بحرص:

- هل عدت إلى تعاطي المخدرات؟

توتر جايكوب، وبدا له السؤال غبيًا سخيفًا إلى أبعد حدود الغباء والسخف، إنما أوجس قلبه المكروه، فقال بحدة:

- عليكِ أن تفهمي يا أمي، أنني جاد جدًا في تدبير أمور حياتي.. ربما أكون قد تعاطيت المخدرات من قبل، لكني كنت طائشًا آنذاك.. كنت طفلًا.

ورفع كتفيه باستنكار مضيفًا:

- تركت هذه الأشياء منذ زمن بعيد. أنا الآن شخص منضبط تمامًا، بحكم عملي. يمكنك أن تعامليني على النحو الذي يروق لك. الأمر متروك لكِ تمامًا.. لكن.. لا تلومي إلا نفسك.. لو ساءت الأمور بيننا.

تجاهلت إيلينا مقالته الأخيرة هذه، فكأنها لم تكن، وقالت بوضوح:

- نما إلى علمي أنك استضفت امرأتين في فيلتك الفندقية بـ«سيليستيال»، دون سابق معرفة. صور كاميرات المراقبة تظهر دخولهما بحقيبتين فارغتين، وخروجهما بهما مكتظتين بالأشياء. أريد أن أعلم المزيد عن الخسارة التي تكبدتها في هذه السرقة.

fb/mashro3pdf

- أرى أنكِ قد أتممتِ فروضك المنزلية. أهنئك! الآن ماذا؟

تلقت إيلينا هذا الرد الفوري، واستغربت من نبرته المتحدية المتكبرة. وإنه لمشهد غريب حقًا، أن يجلس على كرسيه جامدًا، وأن يحدق إليها بانتباه وتجهم، فعلمت أن قلبه يكاد أن يتصدع من فرط التشاؤم. لم تُسَرّ على الإطلاق، بل وقع في خاطرها أن وراء الأمر مصيبة فادحة، وأن فحوى الرسالة المشؤومة يخبر بالحقيقة على الأرجح. إلى وقت قريب كانت ما تزال في فسحة من الأمل، غير أنها أدركت أن التحلي بالتفاؤل لا يزيد في هذا الزمان عن كونه حماقة. اعتراها اشمئزاز شديد، وأخذت تحدث نفسها وتكرر: «كان عليّ أن أدرك هذا الأمر سلفًا».

كانت وهي تفكر لا تنظر إليه، بل إلى الأراضي المترامية الأطراف من خلفه، المفروشة بالرمل والحصى وتكوينات الرغل الخشنة. لم ترَ في الأفق البعيد إلا بعض نُطُق التلال باهتة اللون، ومن ورائها سماء زرقاء خالية من السحب. بعث انقطاع المكان في نفسها كآبة، وتحالف مع تكوينات الفيلا الخرسانية المصمتة في تكريس شعور اليأس في نفسها. وجدت نفسها، ولأول مرة، تنفر من فيلتها الأثيرة، التي هي معبدها ومعتكفها ومكمن السلام في دنياها، ووجدت نفسها تمقت صحراء موهافي القاسية.

عادت إيلينا فصوّبت إلى جايكوب بصرها، وقالت آمرة:

- أريدك أن تخبرني بالمزيد.

رد عليها جايكوب قائلًا بلهجة حادة، شابها بعض التشوش:

- اسمعي.. أنا لست من هذا النوع من الأشخاص.. الذي... أنا لا أعيش حياتي ملتزمًا بأوامر الآخرين.. لا أحب أن أتلقى أوامر من الآخرين.. لا أحب أن أُبرمَج، بحيث توافق أفعالي ما يراه الآخرون ملائمًا.. هناك أناس يمضون حياتهم كلها على النمط نفسه، وهم ليسوا في واقع الأمر أحرارًا.. وأنا لست من هؤلاء.. هل تفهمين ما أقول يا إيلينا؟ هل تفهمين؟

أعاد تساؤله الأخير مستنكرًا، ومرددًا اسمها المجرد دون خشية، وضاغطًا على أحرفه بطريقة هجومية فظة، قاصدًا إزعاجها وإثارتها.

حركت إيلينا يدها اليمنى لتدفع عنها ذبابة عنيدة، وتتبعتها في طيرانها الخاطف كي تردها عن السقوط في العصير، ثم قالت تسأله بتدقيق:

fb/mashro3pdf

- دعك من هذا الكلام كله، واهدأ قليلًا.. أخبرني.. هل سعيت أنت إلى هاتين المرأتين، أم عاجلتاك بالمبادرة؟

- هما.. جاءتا.. لا.. أنا الذي بادرتهما بالكلام.

- وكيف انتهى بكم الأمر إلى غرفتك؟ حسب التسلسل الزمني الظاهر في الصور، لم تستغرقوا الوقت الطويل لتغادروا حوض السباحة إلى غرفتك.

تحركت حدقتا جايكوب في اتجاهات مختلفة، وتحاشى بذلك النظر المباشر إلى أمه وهو يجيب قائلًا:

- نعم.. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.. تعارفنا، فإذا بهما تدعوان نفسيهما إلى غرفتي.

ضمت إيلينا حاجبيها قليلًا، وقالت تسأله:

- هل حدث من قبل، أن دعت امرأة نفسها إلى فراشك، بهذه السرعة؟

- نعم.. ولا.. حدث أن دعت امرأة نفسها إلى فراشي.. إنما بهذه السرعة.. يقينًا لا.. إلا لو كُنّ مأجورات.

ضحكت إيلينا بهزأ ومرارة في إثر سمعها لكلمة «مأجورات»، وهي الكلمة التي لم تشذّ كثيرًا عن سياق الحديث على كل حال. لم تلح من بعد ذلك في السؤال المباشر، بل ألقت إليه باستفسارات ذكية دقيقة، إذ ينبعث من عينيها وهج أزرق بارد، مشابه لوهج شعلة لحام الغاز. ورويدًا رويدًا، أطلعها جايكوب على بعض ما استغلق عليها فهمه، ولم يفتقد المراوغة مع هذا، وذلك بأن قال بامتلاء ذاكرة حاسوبه المسروق بما زنته طن من الأفلام الإباحية التي يُجرّمها القانون، والتي يُستعمل فيها الأطفال استعمالات تنافي مبادئ حقوق الإنسان. مس جايكوب باعترافه هذا قشرة الحقيقة فحسب، ولم ينفذ إلى جوهرها، وظن أنه بملاعبتها ومراوغتها إنما أبهم عليها الموضوع.

أخفت إيلينا غضبها المحرق ونفاد صبرها، وألجمت رغبتها في الانفجار الثوري في وجه هذا التافه الضال. ذَكّرت نفسها بأنها مُخَطّطَة، وبأن فقدان الأعصاب لن يجدي نفعًا الآن. لم تبدِ انفعالًا زائدًا، ولم تحرك أوصالها كثيرًا، ولم تتكلم إلا وقد علمت الهدف الذي تريد تحقيقه على وجه التحديد. تكلمت بهدوء، وأظهرت ثقة كاملة بنفسها، رغم ما تجلى في اعترافات الشاب من دلائل مستبشعة، تشير إلى عمق المشكلة وتشعبها.

وأخيرًا قالت متسائلة:

fb/mashro3pdf

- ألم يدُر في خلدك، ولو للحظة، أن هاتين المرأتين، اللتين راودتاك عن نفسك هكذا، دون سبب واضح.. ألم يخطر بقلبك للحظة، احتمال كونهما نصابتين؟!

كز جايكوب على أسنانه غيظًا وقال باضطراب:

- أنت لا تريدين أن تفهمي ما أقول.. أنا شاب حسن الهيئة، وثري.. أنفق الوقت الطويل على مظهري ولياقتي البدنية إلى حد الإسراف.. وتلك لم تكن المرة الأولى التي تراودني فيها إحداهن عن نفسي.

أدار رأسه يمينًا وشمالًا باحثًا عن كلمات ملائمة مهذبة، ولم يجد، فقال بصراحة:

- أعني.. أنا أقضي معظم وقت فراغي مع الفتيات.. إنه لأمر في غاية البساطة، أن أعثر على امرأة لقضاء وطري.. وإن لم أستطع لسبب أو لآخر، أستأجر المومسات، وأفعل ذلك باستمرار.. وأرى أثناء ذلك من النساء ألوانًا وأطيافًا لا يمكن عدها.. وهكذا لم يعد هناك ما يدهشني.. وهكذا لم تربني تصرفات هاتين الفاسقتين السارقتين إطلاقًا.. لا.. ربما رأيت منهما ما أرابني فعلًا.. من حيث كونهما امرأتين، في آن واحد، ومن حيث إلقائهما بثقلهما عليّ على نحو فيه اصطناع.. وهو الأمر الذي... قلت لك، لم يكن قد حدث لي من قبل.

وثبت نظره على عينيها الزرقاوين مستطلعًا، وقال ببطء، وبشيء من التلذذ والقسوة:

- لا أدري يا أمي إن كنت تعلمين الكثير عن الرجال في هذا الشأن.. الرجل إن تمكن منه الشبق يصاب بالعمى.. هناك مرحلة محددة.. مرحلة خاصة جدًا.. يفقد الرجل عندها قدرته على الإبصار.. يتوقف عقله عن التفكير، وتتحرك أعضاؤه من تلقاء نفسها.. وقتئذ يفعل الرجل أي شيء، أي شيء، فقط لكي يفرغ توتره الفيزيائي.

ثم مال إلى الأمام، مركزًا بصره عليها مزيدًا من التركيز، وقائلًا فيما يشبه الشماتة:

- هل لاحظت أنني تحريت في حديثي هذا أرق الكلمات.. وأكثرها أدبًا.. مراعاةً لمشاعرك المحافظة؟! إنما لو كنت قد عجزتِ عن الفهم، أستطيع أن أوضّح لكِ.. بلغة دارجة سهلة.

التمعت عينا إيلينا بالازدراء، وأدركت أنها قطعت شوطًا بعيدًا جدًا في أرض وعرة. وبفضل الاعوجاج المفاجئ في سلوك الغلام معها، إذ هو ينقنق في وجهها كضفدعة منتفخة، ويتكلم في أمور مؤسفة، بصوت يفصل بينه مد وترجيع، إمعانًا في الإهانة،

fb/mashro3pdf

بفضل هـذا كلـه، لـم تجـد إيلينـا غضاضـة في أن تريـه الرسـالة الآن. بـل عـلى النقيـض مـن ذلـك، نظـرت إليـه هـي أيضًـا بتلـذذ وقسـوة، ومالـت كي تلتقـط حاسـوبها المحمـول الرقيـق مـن عـلى المنضـدة. احتوتـه في كفهـا، ولمسـت سـطحه الأملـس الزلـق، فتولـدت عـلى شاشـته صـور الترحيـب المتحركـة الناعمـة، الخاصـة بنظـام التشـغيل. استخرجت مـن صنـدوق البريـد الإلكـتروني رسـالة النحـس والشـؤم، وكبّرتهـا عـلى شاشـة العـرض الهولوجرامـي، كي يسـتطيع جايكـوب أن يقرأهـا مـن موقعـه. أدارت الشاشـة، وتبسـمت بسـخرية وتعـالٍ، وهـي تومئ إليـه أن اقـرأ، مـن دون أن تنبـس.

عبس وجه جايكوب، ومال في جلسته إلى الأمام، مرتكزًا بمرفقيه على فخذه، وأخذ يقرأ.

*****

صمـدت فيـلا «مايمونوديـز» لدفـق النـور المُنصـبّ عليهـا مـن السـماء صبًّـا، وبرقـت ألواحهـا الزجاجيـة في سـطوع حـر الشـمس، في الوقـت الـذي خفتـت حـدة الأصـوات حولهـا إلى حـد السـكون. وهنـاك، إلى جـوار حـوض السـباحة، في هـذا الركـن الظليـل، جلـس الابـن مـع أمـه في سـلام ظاهـري.

كانـت هزيمـة ماحقـة مزلزلـة، تلـك الـتي لحقـت بجايكـوب، وهـو يقـرأ رسـالة النحـس والشـقاء. ارتجفـت شـفتاه، ورَفّـت عينـاه وتأججـت فيهمـا نـار الغضـب والارتيـاع. لـم تتولـد في ذهنـه أفـكارًا مفهومـة ولا انطباعـات محـددة تجـاه أي شيء أو أي أحـد، بـل تولـدت عوضًـا عـن ذلـك أعاصـير محرقـة، أشـعلت النـار في نهايـات الأعصـاب، وقذفـت بالشـظايا والحمـم داخـل تلافيـف الدمـاغ. ولمـا فـرغ مـن القـراءة، رفـع إلى أمـه عينيـه، وكان فيهمـا غضـب هائـل مسـعور، وعـداوة لا حـدود لهـا، ودلالات فقـدان سـيطرة تامـة.

رصـدت إيلينـا ارتجافـات الشـاب باسـتطلاع وفضـول، وسـاورها بعـض القلـق مـن أن يخـرج عـن طـوره؛ لأنهـا لـم تكـن قـد رأتـه عـلى مثـل هـذه الهيئـة مـن قبـل، ولا حـتى وهـو غـلام صغـير. . تمنـت مـن سـويداء قلبهـا ألا يكـون قـد حَمَّلهـا بحمقـه إصر انفضـاح فعلتـه، أيًّـا كانـت، وأن يكـون قـد فهـم، أو أن يفهـم في مرحلـة لاحقـة، أن هـذه الطاقـة الهدامـة الـتي تشـع منـه، ينبغـي أن تُوجّـه إلى المعتديـن عـلى بيضتـه، وليـس إليهـا هـي، وأملـت كذلـك في ألا

fb/mashro3pdf

يكون قد ضمها بنزقه إلى لائحة الأعداء.

ورغم أن رعدة خفيفة سرت في فريصتيها، حرصت على أن تُظهر الهدوء والثبات، وعلى ألا تبدي أي اكتراث بالتغيرات الظاهرية المباغتة التي اعترت وجهه وجسده. بلمسة من يدها أطفأت شاشة الحاسوب، فاختفت الرسالة على الفور.

أحاطت رسغها الأيسر بسوار الحاسوب الذهبي، كي تبعده عن متناول يد الابن الغاضب، والتزمت الصمت بضع لحظات، ثم قالت ببطء وحرص، كأنها تزن كل كلمة تخرج من فيها:

- جايكوب.. أريدك الآن أن تفكر جيدًا، قبل أن تدلي بتعقيبك على هذه الرسالة.. خذ وقتك، وحدد اتجاهك.. هل تريد أن تنكر.. أو تكذب.. أو تراوغ؟ هل تريد أن تعرض المشكلة على وجهها الحقيقي وأن تبحث لها عن حل؟ هل تريد أن تواجه مشكلتك وحدك، أم تريدني معك؟ إجابات هذه الأسئلة المهمة، تعتمد تمامًا على رد فعلك الآتي.

شدد جايكوب النظر إلى هذه المرأة، ذات القوة القاهرة، التي أرهبته دومًا بجبروتها وتسلطها ومكرها السيئ، فإذا به يمقتها أشد المقت، وإذا به يمقت نفسه، ويمقت الفاسقتين العاهرتين السارقتين، بترا وفيليبا. أما كفاهما ما سلبتاه منه من مال وحُليّ؟ أليس في هذا العالم ولو مسحة من يسر؟

بلغ من شدة الكد والكبد أنه احتوى وجهه بين كفيه، وطفق يدعك بشرته بقوة، ويمرر أظافره على فروة رأسه وبين خصلات شعره الأشقر المشبع بالعرق. أما بدنه الذي كان قبل دقائق مضمخًا بالطيب، فقد صنّ من شدة التعرق. تشمم صنانه هذا إلى أن تهيجت أغشية أنفه وفمه المخاطية، وأصابته بإحساس حرق شديد، في الوقت الذي جلست المرأة أمامه بلا اكتراث، وحدجته بنظرة فيها إصرار وارتياب وتطفل.

على الجهة المقابلة من المنضدة، تأملت إيلينا وجه ابنها الوسيم، وتقاطيعه المنحوتة الدقيقة، التي تدرعت في هذه اللحظات بالمقت والغضب. في زيه العسكري المزرر الأنيق، رأته دومًا كريمًا نبيلًا، بل ورأت فيه انعكاسًا لصورته لما كان بعد طفلًا في الرابعة أو الخامسة من عمره، ولم تكن الشوائب قد شابته بعد، ولم يكن طينه قد عُجن بالنجاسة. واجهة ذهبية قشيبة، تثير العجب والفخار وحسد الأغيار. أما الآن، ففي جلسته هذه، وبفزعه هذا، وفي تحرّيه الحشمة وحسن المظهر في اللبس إلى حد

fb/mashro3pdf

المبالغـة، بـدا لهـا أنموذجًـا للغلمـان الأثريـاء وممثـلًا عـن سـلالتهم، وواحـدًا مـن هـؤلاء الأغبيـاء المدللـين، الذيـن يرتكبـون الحماقـات بعـد الحماقـات لا يلـوون عـلى شيء، والذيـن لا يتورعـون عـلى ارتـكاب أبشـع الجرائـم فقـط عـلى سـبيل التسـلي، وتمثـل لهـا تجسـيدًا حيًـا للحكمـة القديمـة: «ومـن بعـدي فلتـأكل النـيران الأرض».

امتـلأت نفسـها نقمـةً وكرهًـا، ونعتتـه في نفسـها بالإجـرام والوضاعـة والاسـتهتار. إن هـذا الفـتى ليـس إلا مقامـر مسـتخف، وفـرع عـلى أبيـه في كل آثامـه وعيوبـه ومناقصـه. هـذا الضـال المقـزز، ينتمـي بـلا شـك إلى منزلتهـا، الـتي وصلـت إليهـا بشـق النفـس، وبالعنـاء والجهـد والمحنـة، وبالحفـر في الصخـر، أمـا هـو، فوطأهـا بالوراثـة فقـط، ثـم لـم يقـم مـن بعـد ذلـك بمـا يتعـين عليـه القيـام بـه للحفـاظ عـلى مكانتـه في التقسـيم الطبقـي، ولاسـتحقاق مـا يلحـق بهـذه المكانـة مـن امتيـازات. لقـد دأب عـلى مـر السـنون عـلى أن يكـون مصـدرًا للحـرج الاجتماعـي، وبـات عقبـة خطـيرة أمـام حياتهـا ومسـتقبلها. إن هـذا الجـرذ الطفيـلي، هـو الوجـه القبيـح للامتيـاز، والنتـاج المعيـب لاصطخـاب أبنـاء الطبقـة الرأسـمالية الثريـة، المتألفـة مـن حفنـة حقـيرة مـن الساسـة الشرهـين، والأغنيـاء المتوحشـين، والمديريـن التنفيذيـين الجشـعين. هـؤلاء جميعًـا يحسـبون أنفسـهم فـوق النـاس، بمـا يقتضيـه انتماؤهـم إلى سـلالات فـوق بشريـة سـامية، متعجرفـة شـامخة الـرأس، متفـردة بالعظمـة والكبريـاء، متعاليـة عـن صفـات العـوام. هـؤلاء جميعًـا يحسـبون أنفسـهم آلهـة لا يـزول سـلطانها، ولا يجـري في ملكهـا إلا مـا تريـد.. لكنهـم في واقـع الأمـر، يتعيّشـون كالبراغيـث مـن عصـارة عـرق ودم الآخريـن.. هـؤلاء جميعًـا يتمثلـون لهـا الآن في صـورة جايكـوب، ابنهـا، فلـذة كبدهـا.

كانـت قـد قضـت سـاعات عسـيرة خـلال اليومـين الفائتـين، بعـد أن اسـتقبلت الرسـالة الإلكترونيـة، وأحسـت بأنهـا إنمـا أُلقيـت عـلى حـين غفلـة بـين سـمع الأرض وبصرهـا. تسـاءلت طويـلًا عـن الأسـباب الـتي أدت إلى إخفاقهـا في تنشـئة هـذا الابـن، وانتهائهمـا هـي وهـو إلى هـذا المنعطـف الغريـب. لـم تكـن قـد كوّنـت تصـورًا دقيقًـا عـن حجـم الجـرم الـذي ارتكبـه، ولـم تكـن متحققـة كذلـك مـن رغبتهـا في أن تعـرف المزيـد، ولـو لـم يكـن في الأمـر مـا يمسـها مبـاشرة، لمـا عنـت بـه ابتـداءً، ولتركـت هـذا الفاسـق يجـني ثمـار مـا جنـت يديـه، أيًـا مـا يكـون.

في سـاعات وحدتهـا الوجـيزة هنـا في صحـراء موهـافي، بـين السـباحة والـشراب والتأمـل العميـق، لـم تصـل إلى إجابـة شـافية، ولا قـر عزمهـا عـلى أن تفعـل أي شيء بخصـوص الأزمـة.

fb/mashro3pdf

جل ما نجحت في إنجازه هو أن تفلت زمام مشاعرها تجاه الشاب. حقدت عليه وكرهته بمرارة شديدة، واستسلمت لحالة اختلاط وتشوّش شاملة، صاحبها اضطراب في الفكر، فكأنها في مناجاتها لنفسها تتعتع وتتحير، وكأنها تسوخ في الرمال وترتطم.

لا بد أن حرارة الجو اليوم قد تعدت المئة درجة فهرنهايت بعشر درجات أو أكثر؛ لأن وجه جايكوب احمرّ احمرارًا شديدًا؛ ولأنه أخذ يمرر سبابته بين ياقة قميصه ورقبته، محاولًا إدخال بعض الهواء إلى جسمه المتعرق المحموم. كان قد أعمل فكره في الأمر قدر المستطاع، ووجد أن خير ما يمكن أن يفعله، هو أن يتجاوز الحديث عن السرقة ذاتها وما أدى إليها من أسباب، وأن يقفز كذلك متجاوزًا طبيعة المواد الفيلمية المُخزّنة على الحاسوب، ثم أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة، وذلك بأن يعترف بعمق الأزمة، وبأن يطلب العون، في ظل ما ألمحت إليه أمه باستعدادها للمعاونة، وهو الأمر الذي هدّأ من روعه ولطّف من حرارة غضبه قليلًا قليلًا. ولا غرو، فقد ساخت قدما الوالدة في الطين مثلما ساخت قدماه وأكثر، وإن لها في الدنيا أضعاف ما له من زينة ومال وجاه. لعل تدابير القدر تكون خيرًا، ولعل ترتيباته تُهيئ لإخراجه من ورطته سالمًا.

وهكذا اكتسب جايكوب ثقة طفيفة وأملًا باهتًا في النجاة من الفضيحة والهلاك، ورأى في قتامة الموقف ما يمكن أن يستغله لصالحه. رفع رأسه إلى أمه، ونظر إليها بعينين محمرتين، وقال متسائلًا بصوت مبحوح:

- ماذا تقترحين أن نفعل؟

لم يُشتبه على إيلينا غرضه، فكأن دماغه تتمثل لعينيها كرة شفافة، ترى ما يحتدم فيها من أفكار ونوايا. بل إن استفساره الأخير هذا، هو نفسه الذي كانت قد سعت إلى استخلاصه منذ جلسا معًا، وهو نقطة الانطلاق المثالية لبدء التفاوض. رغم ذلك، كادت مرارة إيلينا أن تنشق غيظًا. أرادت أن تغرس أظافرها في لحم ذراعيه، وأن تحركه بعنف، وأن تصرخ في وجهه قائلة: «اذهب إلى الشيطان! عالج مصابك بنفسك أيها الفاشل اللعين! ما لي أنا ومصائبك يا ذا الأير الطائش!».

لكن إيلينا العملية، الواقعية، لم تبس، بل عالجت نفسها الثائرة التواقة إلى الصراخ بالحكمة والتروي، وتصنعت التفكير العميق.

تردد جايكوب في عي، ثم نطق متسائلًا:

fb/mashro3pdf

- فيم تفكرين، يا أماه؟

«لا تقل لي أماه، أيها الجشع الملعون. أيها البائس الغادر!».

تأملته إيلينا بكُرْه وحنق، ولم تجبه. نبشت في ذاكرتها، فإذا بها تجد جايكوب الصغير وهو يعبر أعتاب مراهقته المبكرة، وقد ساءت أحواله وانحطت أخلاقه إلى أحط الحضيض، إبان أيام السقوط التي تلت فبراير الموت. كان غلامًا بشعًا نحيلًا.. نحيلًا بشكل مرعب.. وكان سيئ الرائحة.. بيد أنهم جميعًا كانوا على تلكم الهيئة المنفّرة.. لكن جايكوب بالذات، كان يُذَكِّرها بالجرذان السوداء النحيلة، هذه التي تستوطن قباء المنازل المهجورة، وتعيش في فرائها البراغيث، وتنقل الأمراض والأوبئة. وكان معتادًا على أن يحدق النظر في البشر أمامه، فكأنهم العدم. عيناه فارغتان جافتان، على نحو لا يكاد يُصدّق. تمامًا كهاتين العينين اللتين تحدقان إليها الآن. لقد أنجبت إيلينا دانيال شيطانًا لا روح له، ويتعين عليها، بصفتها صاحبة الرحم الذي دفع هذا الشر وهذا النقص وهذا التشوّه إلى الدنيا، أن تتحمل تبعات هذه الولادة البائسة.

ثم قالت أخيرًا، بعد لحظات صمت طويلة:

- لا أدري إن كانت ما تزال لديّ القدرة على التفكير في أي شيء. عقلي متحجر في الوقت الحالي.

وأضافت تقول ببطء، وهي تبتسم ابتسامة غريبة:

- العقل المتحجر والقلب المتحجر، هما عنصران لازمان من أجل البقاء على قيد الحياة في هذه الأيام.. هكذا أتمكن من البقاء.. هكذا أتمكن من أن أحدثك الآن، بلغة واضحة.

لم يجد جايكوب ما يفعله خيرًا من أن ينصت إليها، وأن يحدق إليها بانتباه وثبات، وأن ينتظر. قالت إيلينا وقد بدا عليها شرود الذهن، فكأنها تفكر في الأمر مزيدًا من التفكير:

- أنا متأثرة.. بالأحرى مرعوبة من هذا الموقف، ومن تداعياته المحتملة علينا. لم أفاتح أبيك بعد، ولا أريد أن أفاتحه. أبوك نذل كبير.. في أسوأ الأحوال، لو عمّت الفضيحة، وحُبست أنت في السجن، ووجدت نفسي في الشارع.. لن يزيد في ردة فِعله عن أن يعقد مؤتمرًا صحفيًا، يعلن فيه تبرؤه مني ومنك.. ولن تتأثر أعماله كثيرًا فيما أظن.

fb/mashro3pdf

ثم قالت وهي تحدث نفسها بأكثر مما تحدث هذا الذي يجلس قبالتها:

- المبلغ المطلوب في حوزتي، وهو.. يمثل كل مدخراتي.. هو في حوزتي، ولكن.. لا أستطيع، وأنا موظفة في الحكومة، أن.. أجري تحويلًا بهذا الحجم.. أنا.. لا أجد نفسي على استعداد لاتخاذ إجراءات من أي نوع بخصوص هذا الشأن.. ولا أريد ذلك.

لم تحتمل الجلوس، فنهضت وتمطت، وهزت شعرها بقوة. وقفت بقامة مشدودة، ووجه غاضب جريء، وقالت:

- لا يعني هذا أنني لا أهتم؛ المشكلة تمسني شخصيًا.. بل إن الضرر المترقب وقوعه، سيصيب حياتي ويطلخها بأكثر مما قد يلطخ حياتك وحياة أبيك.. لكن.. ليس في وسعي حقًا أن أفعل أي شيء.. ليس هناك ضمان واحد أستطيع أن أستند إليه وأنا أبدد مدخراتي كلها.. لا يمكنني أن أضمن بأي حال من الأحوال ألا ينقلب الموقف علينا، سواء في المستقبل القريب أو البعيد.

وأخذت تدور حول كرسي ابنها، وتخرج من الظل إلى الحرور، ثم تعود إلى الظل مرة أخرى وهي تقول وتكرر:

- لا أريد أن أعلم أباك بالأزمة.. رغم أنه الوحيد المؤهل تمامًا لدفع مثل هذا المبلغ، من دون أن يتكبد خسارة كبيرة.. بل وكما قلت من قبل.. أشك في أن تؤثر هذه الأزمة على أبيك بأي شكل، سواء طلبنا عونه أم لم نطلب.. سواء عليه دفع أم لم يدفع.. على العكس.. قد يجد في المشاركة في هذا الأمر ما يثير الشبهات ويلطخ السمعة.. بأكثر مما هي ملطخة ابتداءً.. لن يتأثر.. لكن.. أن نفشي نحن أيضًا السر.. أن نُخرج المشكلة من دائرتنا الخاصة.. حتى ولو لأبيك.. هذا لو سلمنا جدلًا بأنه سيقبل أن يدفع مبلغًا كهذا.

وقالت تضيف، وهي تحدج ابنها بنظرة حادة:

- وأظنه يفضّل أن تُدفن أو تُحاكم، أو أن تخضع لأي إجراء يناسب الجريمة التي اقترفتها.. على أن يبدد أمواله على مغامرات شاب تافه مثلك.

وقع هذا الكلام من نفس جايكوب موقعًا مخيفًا. لم يأبه كثيرًا بالكلام عن أبيه، إنما أوجس قلبه تهيؤ الوالدة بهذا الحديث للتملص من المسؤولية. ثم سمعها تقول بحنق من وراء ظهره، إذ تقف مغلفة بضوء الشمس الباهر:

- أنا أمرّ الآن بموقف صعب جدًا.. أتحدث عن نفسي؛ لأنني لا أعرف وجهة نظرك في

fb/mashro3pdf

الموضوع. لعلنا حينما نستعيد الأحداث في المستقبل، نجدها أوضح من ذي قبل، أما الآن فالموقف ملتبس. لا أريد أن أتورط بعمق في هذه الحفرة.. لكن كيف؟

حقنت كلماتها عمدًا بما بدا وكأنه التذبذب والضعف؛ لأنها كانت قد عزمت على أن تُحَمِّل الشاب عبء التصدي لهذه المشكلة وحده، نظرًا لطبيعتها الإجرامية المباشرة، التي لا يصح التورط فيها تحت أي ظرف. وإذ هي تفكر في هذا، وضعت نصب عينيها البون الشاسع بين اضطرارها إلى الاستقالة والتنحي عن سائر أنحاء الحياة السياسية حال انفضاح أمره، وانتهائها معه إلى السجن بتهمة المشاركة في جريمة أو تسهيلها أو الحض عليها حال انفضاح أمرهما. وإن الانفضاح في الحالتين، أمر عدته سيناريو مستقبليًا معتبرًا ووارد التحقق. ثم عادت وقالت لنفسها إنها باستدعائها الابن اليوم، وبانخراطها في هذه المحادثة، وبحضّها إياه على أن يتصدى للمشكلة وأن يصفّي أسبابها، قد ورطت نفسها بالفعل، وقالت لنفسها أيضًا إن ما سيأتي بعد ذلك -بلا ريب- سيغرسها إلى عنقها في سبخة مميتة.

انتظرت إيلينا قليلًا تحت الشمس، حتى تصبب وجهها واخضلت منابت شعرها بالعرق، ثم عادت إلى كرسيها وجلست. قالت وقد استولى عليها سخط شديد:

- اسمع يا جايكوب.. أريدك أن تفهم، أنني وأنا أجلس معك هنا لست أمك، ولا تربطني بك الآن أي علاقة خارج المصلحة المشتركة.. والمصلحة المشتركة تفرض عليّ أن أجد حلًا لمشكلتك، التي لا أعرف أبعادها على وجه التحديد، ولا أريد أن أعرف أبعادها، كي أكون صادقة.

حدجها جايكوب بصمت ويأس، وتسارع تنفسه فكأنه يلهث كالجرو، ولسان حاله يقول: «هل من مزيد؟» وقد جاء المزيد. قالت له أمه بقسوة، وهي تشير إليه بكفها إشارة حازمة:

- إليك ما سنفعله. بادئ ذي بدء. أنا أدرك أنك أقدمت على ارتكاب جرم بشع، في سياق حياتك العسكرية في الشرق الأوسط، والحرب الوحشية الدائرة هناك. أدرك أيضًا أن جريمتك هذه، التي وصفتها العاهرة بأنها فظاعة من فظائع الزمن، تتعلق على نحو أو آخر بذائقتك الشهوانية المنحرفة. أنا أُلِم بنوعك جيدًا يا جايكوب فيكسلبرج، وأعرف الكثير عن سلالتك الحقيرة الشريرة، وليس في إمكاني أن أفعل شيئًا حيالك. فليتغمد

fb/mashro3pdf

المـولى ضحايـاك برحمتـه، إن كانـوا مـن المؤمنـين.

تدافعـت الكلمـات مـن بـين شـفتيها، وحُمِّلـت بالحقـد والضغينـة، ثـم إنهـا واصلـت خطابهـا القـارع بـأن قالت:

- ومـن هـذا المنطلـق، أود أن أعلمـك بأنـني لا أريـد أن أعـرف شـيئًا البتـة عمـا كنـت تخزنـه في حاسـوبك، وسـأتناسى عـلى كل حـال أي ذكـر لجريمـة أو فعـل يخالـف القانـون. كل مـا هنالـك، أنـني أنصحـك -لأجـلي إن لـم يكـن لأجلـك أنـت- إن كنـت تحمـل بـين أضلعـك قلبًـا ينبـض بحـب أو عاطفـة تجـاه أي أحـد، أنصـح لـك، بـل أرجـوك، أن تزيـل أي مـواد مرئيـة أو مسـموعة أو مقـروءة تكـون في حوزتـك، في أي صـورة كانـت، رقميـة أو ورقيـة.. قبـل أن نسـتأنف حديثنـا عـن سبل حـل الأزمـة، أريـد أن أسـمعك وأنـت تأخـذ العهـد عـلى نفسـك، بـأن تزيـل أي أثـر لهـذه المـواد، ثـم أن تنـسى أن هـذه المحادثـة قـد جـرت بيننـا، بعـد أن ينتهـي الأمـر.

أومأ جايكوب، وقال على الفور بصوت متقطع:

- أعاهدك يا أمي.. أعاهدك.

تنفسـت إيلينـا بمشـقة، وتأملـت ملامـح ابنهـا وكأنهـا لا تعرفـه. وَقَـر في قلبهـا تضلعـه مـن هـذه الجريمـة، وهـذه "الفظاعـة مـن فظائـع الزمـن"، بعـد العهـد الفـوري الـذي قطعـه عـلى نفسـه بـكل بسـاطة، والـذي يُعـد في حـد ذاتـه دليـلًا دامغًـا، مُدينًـا إيـاه بمـا صنـع. اصفـرّ وجههـا وامتقـع، إلى حـد أن جايكـوب كاد أن يلاحـظ التغـير الطـارئ عليهـا، عـلى أمـه الحديديـة، مـن شـدة الـروع. أرادت إلى اللحظـة الأخـيرة أن تتوسـم فيـه ولـو مقـدار حبـة خـردل مـن إنـكار، لكنـه إذ اعـترف بجرمـه هكـذا دون تحـرز ولا خجـل، وتَفَـرَّس في وجههـا مسـتطلعًا، منتظـرًا هطـول المـنن والأفضـال، تمثـل لهـا في صـورة أخـرى قبيحـة، ممسـوخة، ملطخـة بالـدم والنجاسـة.

لـم تكـن تعلـم في هـذه اللحظـات الحرجـة إن كانـت مـا تـزال تحبـه، لكنهـا علمـت أنـه لهـا اليـوم كالطفـح الجلـدي للبـشرة. ولـو أن الأمـر بيدهـا، لأزالـت مـا يخـرج بجلدهـا مـن قـروح وتجمعـات صديديـة، ولـو بالـكَيّ، وإلا اسـتشرت العـدوى وأفـرزت سـمومًا خطـيرة، قـد تـؤدي إلى مـوت الأعضـاء. بيـد أنهـا تعـرف ابنهـا حـق المعرفـة، وتعلـم مـن واقـع خبرتهـا أن نـصره في ظُلمِـه ضرورة حتميـة، وأن عواقـب الحَيْـد عـن إعانتـه وبيلـة، عـلى المسـتوى المهـني، بـل عـلى مسـتوى السـلامة الشـخصية. إن هـذا الدعـي النصـاب، هـذا المعتـل المتلاعـب، هـذا

fb/mashro3pdf

المتخبط المستغل الكذاب، لن يدعها تمضي هكذا في حياتها بيسر وبساطة، إن لم تنتشله مما هو فيه.

جالت هذه الخواطر المخيفة في ذهنها، ثم إذا بها تطأطئ رأسها بما يشبه الإذعان، وإذا بها تحمحم بمذلة، فكأنها تشكو ألمًا، وتهمهم لنفسها قائلة بسخرية مريرة: «كم هي رائعة يا رب، أعمال يديك!».

كان كلامها خفيًا، يُسمع ولا يُفهم مغزاه، لكنه أقلق بال جايكوب، وجلب على نفسه غمًا على غم. هُيِّئ إليه أن الصوت يتردد في صدر أمه همًا وحزنًا على نحو لم يره من قبل، مما أفزعه، فمال إليها قائلًا بصوت خافت، متكلف، متخوف:

- أمي.. أنتِ.. لن تتركيني إذن.. أليس كذلك؟

انهمكت إيلينا في تفكير عميق قصير مُركز، وكانت قد عادت تحدق إلى جايكوب بعينين ساهمتين، ووجه ضامر مهموم. طفقت تجرع العصير، الذي كان قد خف تركيزه وبهت لونه وفتر طعمه بذوبان مكعبات الثلج فيه.

روديًا رويدًا تخضّب وجهها بالحمرة، وسرعان ما اعتدلت في كرسيها وقد اعتراها الكبرياء والقسوة مرة ثانية. هذا الوجه يعرفه جايكوب جيدًا. هنا تبسم تبسمًا شاحبًا، فكأنه كان ضالًا ثم هُدي سواء السبيل، وأنصت إلى أمه إذ تقول:

- لا بد أنك قد بدأت بالفعل في البحث عن حلول. أليس كذلك؟

بسط جايكوب كفيه، وقال كاليائس:

- من أين لي بالوقت الكافي لعمل أي شيء؟ لم أكد أفيق من صدمة السرقة، حتى أُرسلت إلى مصر، ولم أكد أعود من مصر، حتى مُنعنا من أن نغادر «فورت كامبل» إلى أن يتم ماكالوم زيارته لنا. ولما خرجت من «فورت كامبل» وجدتك في انتظاري.

قالت إيلينا بلا انفعال:

- لا بد أن أعتذر إليك إذن عن أي إزعاج أكون قد سببته لك، باستدعائك إلى هنا على وجه السرعة يا سيد جايكوب. الآن أخبرني ما الذي توصلت إليه حتى الآن؟ أرجوك أخبرني أنك بدأت الحركة. لا تشعرني بأنني فشلت، بأنني تدنيت إلى حد إنجاب إنسان مثير للرثاء، وعاجز عن عمل أي شيء. أرجوك قل لي.. أي شيء.

- لا شيء مهم في ظني. نعم، تحركت وحصلت على بعض المعلومات، لكن لم تتح

fb/mashro3pdf

لي الفرصة لفحصها بعد. لم أكن أعلم بأمر الرسالة، ولهذا لم أتحرك بالسرعة اللازمة.

- أي معلومات؟

استوفز جايكوب في كرسيه، وذلك كي يستخرج حافظته الشخصية من جيب سرواله الخلفي. أخرج من الحافظة كتلة من الورق ملفوفة بعضها فوق بعض ومكبوسة ومبللة بالرطوبة، وناولها إلى أمه. فضت إيلينا طية الورق بحرص، وطالعت ما فيه.

احتلت الركن الأعلى صورة شابة جميلة، بريئة الملامح، في أوائل العقد الثاني من العمر. قَدَّرَت إيلينا بالتخمين السريع أنها تنتمي إلى الجماعة الفينية الأوجرية، وكذلك قدرت لصورة الشابة الثانية، التي طابقتها في الملامح تقريبًا إلى حد التوأمة، وصورة الشاب الآخر، الذي شابههما أيضًا في الصورة العامة، إنما بدا أكبر سنًا، وعلى قدر من الاعتلال النفسي. اشتملت الأوراق على لمحة موجزة من حياة الشبان الثلاثة، وهم فيولا وألفيرا ولازار تاريان، توأم وأخ من أصل مجري، جاؤوا إلى الولايات المتحدة كمهاجرين قبل سنتين. تخرجوا جميعًا في جامعة «إتوفوش لوراند» المجرية، في دفعتين متعاقبتين. حصل الشاب على بكالوريوس علوم الحاسوب، وكان يعمل حتى أسابيع مضت في مجال تقنية المعلومات، في شركة تسمى «إن لاين»، تقع في طريق دين مارتن بلاس فيجاس، وحصلت أختاه التوأم على بكالوريوس الدراسات الإنجليزية والأمريكية، وكانتا تعملان حتى أسابيع مضت بدوام جزئي في وكالة لعارضات الأزياء تسمى «جرايس»، تقع في جادة دبليو ليك ميد، بلاس فيجاس أيضًا.

جرت عينا إيلينا على سائر المعلومات المتوافرة عن الشبان الثلاثة، من قبيل تواريخ الميلاد، وبيانات بطائق الإقامة والهوية، وعنوان الإقامة الرسمي في الولايات المتحدة، وأخيرًا، تواريخ دخولهم وخروجهم من الأراضي الأمريكية خلال العامين الفائتين، وتلك لم تتعدَّ أربعة تواريخ، وكلها كانت فيما يبدو زيارات للجمهورية المجرية. لفت انتباه إيلينا تاريخان اثنان، عدّتهما خيطًا مهمًا، بل انفراجة مباغتة، حتى أن فيضًا من الراحة غمر قلبها، وهما تاريخ مغادرة الولايات المتحدة إلى المجر، الخاص بوثيقتي سفر التوأم، فيولا وألفيرا، منذ عشرة أيام على وجه التحديد، وتاريخ مغادرة أخيهما لازار في اليوم التالي مباشرة، إلى المجر أيضًا. وعند هذا الحد، تصل المعلومات المتوافرة إلى نهايتها، ولا غرو، فالشبان الثلاثة لم تشبهم شبهة جنائية، ومن ثم جاءت المعلومات

fb/mashro3pdf

أوليـة للغايـة، إنمـا مفيـدة بـكل تأكيـد.

علمـت إيلينـا أن ابنهـا لـم يفحـص مـا توافـر تحـت يديـه مـن معلومـات ثمينـة، وإلا مـا نظـر إليهـا هكـذا بترقـب، ولمـا ارتعشـت شـفتاه هكـذا باضطـراب، كأنـه يريـد اسـتنطاقها ولا يسـتطيع صبرًا. لـم تسـتطع مـع هـذا أن تقطـع بتشـتت فكـره وغلبـة الغفلـة عليـه، ولـم تسـتبعد جـواز ادّعائـه ذلـك كلـه أمامهـا، كي يـدر عطفهـا ويلـوذ بجانبهـا ويورطهـا في مأزقـه هـذا مزيـدًا مـن التوريـط. إن جايكـوب الـذي تظـن أنهـا تعرفـه، نفعـي متلاعـب، متلـذذ بإلحـاق الأذى بالآخريـن، متمركـز حـول ذاتـه، وهـو أيضًـا فقـير الاسـتبصار، ضعيـف الـرأي، عاجـز عـن اتبـاع مخطـط حيـاتي محـدد، ويمثـل النقيـض مـن كل خـير وصـدق وإخـلاص.

سألته باحتقار، وهي ترفع الأوراق وتهزها هزًا:

- من أين أتيت بهذه المعلومات؟

تراجع جايكوب بظهره، كأن السؤال ساءه أو صدمه في وجهه مباشرة، وقال بقلق وتردد:

- لا أدري.. إن كان من اللائق أن...

قاطعته إيلينا قائلة بسرعة وحدة:

- لا بأس.. لا أريد أن أعرف.. هل فحصت هذه الأوراق؟ هل نظرت فيها؟

- لا، ليس بعد. حصلت عليها البارحة، ولم تتح لي فرصة النظر فيها.

- لعلـك إذن شُـغِلت الليـل كلـه. مـاذا كنـت تفعـل ليلـة أمـس يـا تُـرى، والمشـكلة الـتي تسـببت فيهـا أنـت، تحـدق بنـا وتنذرنـا بالهـلاك المحقـق؟!

خفـض جايكـوب رأسـه بمزيـج مـن السـخط والذلـة ونفـاد الصـبر، ودعـك جبهتـه بقـوة هـو يقول:

- يـا أمـي.. أرجـوكِ.. أسـتطيع أن أقـدم لـك كل الحجـج الـتي أعتـذر بهـا، فقـط كي ترفعـي عـني اللـوم والذنـب.. لـو أن هـذا يرضيـك.. فقـط.. أخبريـني عـن...

ولـم يجـد مـا يُتـم بـه عبارتـه، فأغفلتـه إيلينـا ولـم تعطِـه اهتمامًـا في اللحظـات التاليـة. طرحـت الأوراق جانبًـا بـلا مبـالاة، وأراحـت رسـغها عـلى فخذهـا، تلـك المحاطـة بحاسـوبها الصغـير. بحثـت بأطـراف أناملهـا عـلى شـبكة المعلومـات الدوليـة عـن رحـلات الطـيران الموافقـة لتواريـخ مغـادرة الشـبان الثلاثـة ومواقيتهـا المحـددة، ووجدتهـا كمـا توقعـت، تـنزل جميعًـا في بودابسـت، العاصمـة المجريـة. بحثـت كذلـك عـن رحـلات الطـيران المتجهـة اليـوم

fb/mashro3pdf

وغدًا إلى بودابست، ثم لم تعد تر شيئًا في الشاشة. تظاهرت بالنظر إليها وهي تُعمِل فكرها في الموضوع وتتأمله، وعادت بذاكرتها إلى بنت بلدها ورفيقة الطريق القديم، ماريا سنيجوفيا، وعقدت عليها الآمال العريضة في تجاوز المرحلة القادمة بسلام.

رفعت رأسها إلى ابنها، وقالت تسأله وقد وقع في روعها أمر مفاجئ:

- من هذا الرجل الآخر، الأخ، لازار؟ ظننت أن الأمر ينحصر في هاتين الفتاتين فقط، فإذا بي أباغت بأخيهما معهما؟!

قال جايكوب على الفور:

- لا علم لي بدوره في الموضوع، ولم ألقه من قبل. كنت قد طلبت البيانات المتوافرة عن المرأتين، فإذا بي أتلقى بياناته هو أيضًا. لم أتفحص المعلومات بدقة بعد.

- الظن عندي أنهم الثلاثة متضلعون من هذا الفن، وأقصد بذلك سرقة الشباب الميسور الحال الغافل من أمثالك. وهو، لازار هذا، مشتغل بتقنية المعلومات، الأمر الذي يفسر نجاحهم في النفاد إلى ملفات حاسوبك المشفرة، كما أشاروا في الرسالة.

عبس جايكوب، غير أنه لم ينبس، بل أصغى بانتباه إلى أمه وهي تقول:

- الشوط الذي قطعتَه أنت في القضية، على عكس ما تظنه أنت، جيد. حصولك على هذه البيانات يختصر في رأيي نصف المسافة إلى حل الأزمة. يشير هذا الورق إلى مغادرة الثُلاثي البلاد منذ عشرة أيام.

وأضافت قائلة وهي تشير إلى صدرها:

- السؤال الذي ينبغي أن نسأل أنفسنا إياه الآن. هل يوجدون حاليًا في المجر؟ أم اتخذوا المجر نقطة انطلاق إلى أي دولة من دول أوروبا الشرقية أو الغربية، أو إلى أي بلد آخر؟

سألها جايكوب بكآبة:

- وكيف نعرف هذا؟

- في واقع الأمر، لا تتوافر بين أيدينا الوسائل اللازمة لتتبع جوازات السفر، أو بطائق الدين أو الائتمان.

وأشارت إليه وقالت:

- من جهتك، لا أظن أن التحصل على بيانات جديدة من مصادرك، أيًا كانت، أمر

fb/mashro3pdf

محتمل؛ لأنهم غادروا البلاد بالفعل، وما من داعٍ جنائي أو استخباراتي لتتبعهم في بلاد أجنبية؛ لأنهم -مهما يكن من أمر- ليسوا إلا نكرات لا يأبه لأمرهم أحد. ومن جهتي، لن يمكنني الزج باسمي على نحو رسمي في هذا الأمر، ولا حتى على نحو غير رسمي.. ولا يوجد أمامنا متسع من الوقت على كل حال.

- نعم.

هكذا أومأ جايكوب موافقًا، فقالت إيلينا وهي تسند ظهرها إلى كرسيها، وتضع ساقًا على ساق:

- وهكذا نعود إلى السؤال الجدلي الأول. تحت أيدينا معلومة ثابتة البرهان، وهي مغادرة الثلاثي الولايات المتحدة من لاس فيجاس عبر شيكاجو، على متن طائرة شركة الطيران الألمانية لوفتهانزا، إلى مطار «بودابست فرانز ليست» الدولي، ونعلم أن طائرتهم قد نزلت بالفعل في بودابست. عند هذه النقطة تنقطع الأخبار، ويتعين علينا أن نحزر مكانهم.

- ليس تمامًا. لدينا أيضًا عنوان في بودابست.

هكذا قال وهو يبتسم ابتسامة مرة، فقالت إيلينا موافقة:

- نعم. لدينا عنوان رسمي، مقيد في بطائق الهوية للشبان الثلاثة. لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أن العنوان المذكور لا يزيد عن كونه سطرًا في بطائق الهوية، وأنهم يقيمون في مكان آخر، في بودابست أو خارجها، في المجر أو خارجها.

- نعم.

قالت إيلينا مستطلعة:

- وماذا ترى؟

قال جايكوب وهو مغموم:

- أرى أن جميع الاحتمالات متساوية.. لو سعينا إلى الحصول على مزيد من المعلومات، قد نصل إلى شيء، وقد لا نصل إلى أي شيء. نحتاج عمليًا إلى فريق استخباراتي على الأرض لتتبع آثارهم بعد نزولهم في مطار بودابست، وهو أمر ممتنع التحقق قطعًا.

أومأت إيلينا موافقة، وقالت تسأله:

- وهكذا...؟

fb/mashro3pdf

رفع جايكوب عينيه إليها، وقال كمن يذكر أمرًا بديهيًا:

- وهكذا لا بديل أمامنا الآن إلا أن نبدأ من حيث انتهى الخيط.. في مسكنهم في بودابست.

كانت نبرة إيلينا رتيبة وسطحية إلى أبعد مدى، خلال خطابها السابق، وكانت هيئتها في هذه اللحظات لا تشير إلى ما يحتدم في نفسها من مخاوف. وبنفس اللهجة قالت وهي تأمره:

- نعم. سيتعين عليك أن تذهب إليهم في المجر، إلى العنوان المذكور في بودابست، وتبدأ من هناك.

قال جايكوب متسائلًا بكمد:

- أنا؟!

وجهت إليه إيلينا نظرة ازدراء، وقالت:

- لو تحب أن تتقدم باقتراح آخر، أكون سعيدة بسماعه.

هز جايكوب رأسه يمنة ويسرة، وقال وقد بلغ به اليأس مبلغًا بعيدًا:

- لا أظن أن لديّ اقتراحًا آخر.

مالت إيلينا إلى الأمام، وقالت بصوت واضح مميز:

- ستذهب وحدك يا جايكوب، من هنا إلى شيكاجو، ومن شيكاجو إلى فيينا. قبل ذهابك، سأكون قد أجريت بعض الاتصالات، ودبرت لك وثيقة سفر بديلة، خارج القنوات الرسمية، ستتسلمها في شيكاجو، من أحد أصدقائي القدامى. أريدك أن تعلم يا بني، أنني بإقدامي على ارتكاب هذه الفعلة، إنما أضع مستقبلي في خطر جسيم. لا أتحدث عن مستقبلي المهني.. فليذهب إلى الجحيم المستقبل المهني.. أتحدث عن مستقبلي كمواطنة حرة. هل تفهم؟

أومأ جايكوب برأسه متفهمًا، وقال:

- نعم.

أضافت إيلينا تقول بحسم:

- ليس هذا فحسب، بل أضع كذلك رهن الخروج من هذا المأزق الخطير قسمًا كبيرًا من مدخراتي، التي جمعتها بعد عناء وجهد، على مدار سنوات شاقة طويلة. لعلك تعلم أنني لم أقضِ سنوات حياتي كلها في غرفة مكتب مترفة.

fb/mashro3pdf

أومأ جايكوب بإقرار، وقال:

- نعم.

- والآن، أنا أضع كل ما أملك رهن إشارتك، من أجل أن تنجز هذه المهمة. لا أريدك أن تحسب المال عائقًا. هل تفهم؟ أي تمويل قد تجد نفسك في حاجة إليه، ستجده تحت قدميك. الغاية العليا هي اجتياز هذه الأزمة.

أومأ جايكوب، وقال موافقًا:

- نعم.

سكتت إيلينا عن الكلام لبرهة، ثم قالت بلهجة فيها وعيد:

- والآن أخبرني يا جايكوب، لو عثرت عليهم.. لو عثرت على الثلاثي.. فيولا.. ألفيرا.. لازار.. ماذا تنوي أن تفعل بهم؟ أخبرني.

قال جايكوب على الفور، محاولًا أن يجعل إجابته قاطعة قدر المستطاع:

- سوف أجهز عليهم.

هزت إيلينا رأسها برفض، ثم قالت وهي توسع عينيها:

- لا.. هذا لا يكفي.. يجب أن تتحقق، بما لا يدع مجالًا للشك، أنهم لم يرسلوا الأشياء الخاصة بك إلى طرف ثالث.. يجب أن تتحقق من عدم وجود شركاء آخرين.. يجب أن تتحقق من أنهم لم يتحدثوا إلى أي أحد، فيما يتعلق بهذا الشأن.

- نعم.

قالت إيلينا بتشدد:

- سوف تضغط عليهم بدنيًا ونفسيًا، خلال نافذة زمنية ضيقة، وبلا ضجة. لن تعثر عليهم في فلاة مُقفرة، فيما أظن، بل في منطقة سكنية، وبين جيران. يجب عليك أن تشق طريقك إليهم من دون أن تثير الانتباه، وأن تنهي عملك معهم من دون أن يسمع بك أو يراك أحد. هل تفهم؟

سألها جايكوب بثبات:

- ماذا لو.. مثلًا.. أقروا بإرسال محتويات الحاسوب إلى طرف ثالث؟ أعني.. لقد أقروا بهذا بالفعل في الرسالة.. قالوا إنهم اتبعوا كل السبل لتأمين أنفسهم، وكشف المواد على الملأ لو.. تتبعناهم أو.. آذيناهم.

fb/mashro3pdf

قالت إيلينا ترد عليه بوضوح:

- فرصنا متساوية. علينا أن نأخذ بعين الاعتبار صحة الادّعاء من جهة، وكذبه من جهة أخرى. لا أستطيع أن أفكر في أي شخص يمكنهم اللجوء إليه، وإيداع هذه المواد عنده، وتوريطه من ثَمّ في قضية خطيرة كهذه، إلا لو كان مجرمًا عتيدًا هو أيضًا. لكي أكون صادقة معك، لا أعلق الآمال على العثور عليهم ابتداءً. فرصنا في جميع الأحوال متساوية، وضئيلة. وبالنتيجة، تجد أن علينا أن نضع في حساباتنا كل الخيارات.

- ولو اعترفوا لي بتورط أطراف أخرى في هذا الشأن؟

قالت إيلينا بذات اللهجة، كي تفيده عما سأل بمنتهى الصراحة والدقة:

- لن يكون لهم مهرب وقتئذ من أن يدلّوك على هذه الأطراف. سيتحتم عليك أن تنتزع منهم قسرًا أسماء المتورطين كافة، وشؤونهم، وما يقومون به. سيتحتم عليك بعد ذلك أن تجدّ في طلب هؤلاء الآخرين، وأن تتحقق من انقطاع خيوط القضية عندهم. سيتحتم عليك يا جايكوب أن تتبع خيوط هذه القضية من شخص إلى آخر، بلا رحمة، بلا كلل، وأن تمحي آثارها كافة، الواحدة تلو الأخرى. هل تفهم؟

- نعم.

استمرت إيلينا تقول، وهي تحدق إلى ابنها بعينين براقتين:

- سيتحتم عليك أن تتحرك بسرعة وفاعلية، وألا تترك خلفك أثرًا يرشد إليك. أي شخص يُشتبه في اقترانه بهذا الشأن على نحو أو آخر.. كل من ألقى نظرة أو سمع كلمة، سيتحتم عليك أن تتعامل معه. لا ينبغي أن أقول هذه الأشياء، ولكن يجب أن أكون واضحة معك.

- نعم.

هكذا قال جايكوب مذعنًا، فقالت إيلينا وهي تشير بسبابتها إلى الأرض بقوة:

- هذا الأمر جد خطير، ولا يحتمل اللَّبس. وجودنا، بقاؤنا على هذه الأرض، نمط حياتنا، حريتنا، يعتمدون عليك خلال الساعات القادمة. لا شك عندي في أنك تستطيع أن تنهي هذا الأمر على خير وجه. ليس هذا فحسب، بل إنك يا جايكوب، ستُسَخِّر نفسك لهذا الأمر، من اليوم فصاعدًا، ولو أدى هذا بك إلى أن تترك عملك، كي تلاحق ثمار آثامك وحماقتك.

- نعم.

fb/mashro3pdf

كانت إيلينا قد شدت ظهرها على استقامة، وتحدثت باندفاع وحمية بمقتضى تداعي أفكارها، وما فتئت تقول بحسم باتر:

- من ناحية ثانية.. لو انتهت جهود العثور عليهم إلى الفشل.. لا أدري ماذا سأفعل عندئذ.

تلفتت بتوتر، ثم أردفت تقول:

- قد أدبّر لك أنا المبلغ المطلوب.. وأرتب معهم من خلالك، لتوصيل المبلغ بطريقة لا تثير الشبهات.. ربما أفعل.. وسيتحتم عليك آنذاك أن تترك عملك أيضًا، وأن تتبع آثارهم، إلى أن تعيد إليّ نقودي.. هل تفهم؟

- نعم.

سكتت إيلينا مرة ثانية، ولم تحوّل بصرها عن ابنها لحظة. تفرست في ملامحه، واجتهدت في إدراك حقيقة باطنه، ثم رفعت رسغها الأيسر، المحاط بالحاسوب، واستخرجت من صندوق بريدها الإلكتروني الرسالة مرة أخرى، وأعادت توجيهها إلى بريده الإلكتروني.

صمتت للحظة، ثم قالت:

- سوف أبعث إليك برسالتهم، وسوف ترد عليها بما أمليه عليك الآن من بريدك الإلكتروني، ثم تغادر على الفور. أريدك في بودابست في أسرع وقت ممكن؛ أمامنا أربعة أيام، وقد أضعنا بالفعل يومًا أو يومين، بسبب زيارة ماكالوم اللعينة، ثم بسبب تأخرك، وقد كان يتعين عليك أن تأتي أمس.

قال جايكوب معارضًا:

- وصلت أمس يا أمي، و.. كان علي أن أنتظر في الفندق، كي أحصل على...

رفعت إيلينا كفها لكي تسكته، وقاطعته قائلة بتكبر:

- لا أريد أن أعرف، ولا أبالي. إننا نشهد على الأرجح آخر أيامنا في الحرية. افحص بريدك الوارد، وأخبرني إن كانت الرسالة قد وصلتك.

أذعن جايكوب إليها، وفحص صندوق بريده الإلكتروني في حاسوبه المحمول الجديد، ثم قال:

- نعم.. وصلت الرسالة.

fb/mashro3pdf

- الآن اكتب ردًا على رسالتهم.

ونهضت عن كرسيها، وشرعت تدور سيرًا حول المجلس، وهي تنظر إلى الصحراء من حولها، وتقول في عين الوقت مملية عليه الرسالة، كلمة كلمة، ببطء وعناية:

- «العزيزة بترا.. يكتب إليك جايكوب فيكسلبرج.. أشكرك على رسالتك، وأتمنى أن تكوني وأختك في خير حال.. من الآن فصاعدًا، سيتعين عليكما التعامل معي.. وذلك لأن السيدة إيلينا فيكسلبرج، لا علاقة لها بهذا الموضوع.. سوف أرسل إليكما المبلغ المطلوب.. خلال المهلة المحددة.. لكن ليس عن طريق تحويل بنكي.. التعامل مع مبلغ ضخم كهذا الذي حددتماه.. يجب أن يتم بحرص، وإلا تثار بنقله الشبهات.. آمل أن تتفهما مخاوفي.. في حال قبولكما.. برجاء الرد على وجه السرعة.. وذلك كي ندبّر نقل المبلغ إلى حوزتكما عن طريق أكثر أمانًا.. المخلص جايكوب».

ثم جاءته من خلفه، وقالت بلهجة آمرة وهي تمد إليه يدها:

- أرني الرسالة.

التفت إليها جايكوب، وناولها حاسوبه الصغير. قرأت إيلينا الرسالة ببطء وحرص، وأولت عناية عامة لكل كلمة كعادتها، وراعت خلوّها التام من الخطأ. استبدلت بضع الكلمات بكلمات أخرى رأتها تؤدي المعنى على نحو أفضل، وما أن اطمأنت إلى ترتيب الرسالة وتركيزها، حتى أرسلتها بنفسها من دون أن تعود إلى ابنها.

عادت وجلست حياله، وأطلعته بإيجاز على أسلوب الدفع الأفضل الذي توصلت إليه إلى الآن، وذلك في حال اضطرارها لأن تدفع الفدية المطلوبة. توسعت معه في حديث لاحق عن تفاصيل السفر، وكيفية التصرف في مواجهة الاحتمالات المختلفة، وركزت على حتمية إطلاعها على خطواته في الخارج. شددت على حتمية تركه حاسوبه قبل المغادرة، واستعمال الحاسوب المؤمّن الآخر، الذي سيُهيَّأ له في شيكاجو، مع هوية السفر البديلة. لم تسكت إلا وقد تحققت من حسن فهمه للأمر، وقدرته على التصرف إزاء المتغيرات المتوقعة وغير المتوقعة.

مرت عليهما دقائق طويلة عسيرة، رأى فيها جايكوب سلوكها السيكوباتي الملحاح يتجلى عليه في أقبح صورة وهي تبالغ في تلقينه، فكأنه طفل صغير أحمق. كاد يتطير شتًا، ووجد نفسه يقول مقاطعًا، غاضبًا:

fb/mashro3pdf

- يا أمي.. رجاءً.. أريدك أن تتكلي عليّ.. أريدك أن تدركي أنه ليس ثمّ موقف أفقد فيه السيطرة.. على الإطلاق.. أنا جندي مدرب.. أنا، دومًا.. دومًا.. أشعر أنني أنتمي إلى أي موقف حاضر.. ما دمت موجودًا فيه؛ لأنني ببساطة ينبغي أن أكون موجودًا فيه.. في تلكم اللحظة بالذات، وهكذا.. لا أفقد السيطرة أبدًا.. مهما كان وضعي، ومهما استحكم مأزقي.. أنا أسيطر على الأمور دومًا، أقسم لك.

لم تحسن إيلينا فهم كلماته على وجه الدقة، إنما حزرت المعنى العام. رفعت ذراعيها لتسوي شعرها، فلم يقدر جايكوب على أن يمنع نفسه من أن يتأمل إبطيها المبللين، واستمالته الأهواء إذ يضيق عينيه ويحد البصر إلى هذا الزغب الأشقر الخفيف، المنتشر على مساحة محدودة من إبطيها، والذي يكاد من خفته ألا يُرى.

رآها جايكوب تميل رأسها وهي تنظر إليه بما يشبه.. الإغواء.. وسمعها تقول له بتساؤل.. بطيء.. رفيق:

- هل تشعر بأنك تحكم السيطرة على مجلسنا هذا.. أيها السيد «المسيطر على الأمور دومًا»؟!

رفع عينيه إلى عينيها، وقال ولسانه يتحرك في حلقه بتثاقل:

- أنا هنا.. لأنني أقبل بوجودي هنا.. ليس ثمّ شيء يرغمني على أن أصحبك في جلستك ها هنا.. في وسعي أن أنصرف الآن.. إن أنا أردت ذلك.

ضحكت إيلينا، وتقبضت قسمات وجهها الدقيقة المتناسقة، فكأن تجد على لسانها طعمًا أجاجًا، وقالت:

- كيف اتفق لك إذن، أيها الرجل الكبير، أن تقع، وأن توقعني معك، في هذه الورطة الفظيعة؟

تلقّى جايكوب السؤال ولم ينبس. صوّب إليها نظرة ثابتة ثاقبة، وهو يدير الأمر في رأسه على جميع الأوجه. أدرك أن عبء إصلاح الموقف يقع عليه هو وحده، رغم كل ما قالته عن الدعم والتمويل والتخطيط. في النهاية، يتحتم عليه أن يجوب القارة الأوروبية وحده، وأن يعثر على الطرائد وحده، من بين عشرات الملايين من البشر، ثم أن يُنهي الأمر كله وحده على أفضل وجه، من دون أن يترك وراءه أثرًا يدل عليه. لم يغضب جايكوب من هذه الخاطرة البتة؛ لأن الحق وطبيعة الأشياء يلزمانه بتحمل تبعات أعماله

fb/mashro3pdf

وحده، على الأقل في الوقت الحالي، وإلى أن يستنفد محاولاته الأولى، وكفى بأمه ما تكبدته بالفعل من عناء وفزع وألم، من دون أن يكون لها يد فيما حدث، على الأقل بطريقة مباشرة.

يعلم جايكوب أن الرضوخ لإرادة هذه المرأة ليس منه مفر؛ لأن لها عليه سلطة زمنية ذات شعبتين:

الشعبة الأولى تقليدية، تستمد شرعيتها بحكم العرف والعادة، فهي أمه، التي لفظته إلى الحياة، والتي دأب على أن يظهر لها احترامًا وطاعة تصل في مداها إلى التسليم المحض، فكأنه في حضرتها يعمل على ألا يكون له وجود مستقل أو حرية أو وعي، وكأنه لا يقدر على أن يحزم أمرًا يخص حياته إلا بوجودها ومشورتها. كان يعلم أن انقياده لإرادتها، إنما هو فرع على حبها الأول له، الذي افتقر السياسة بالحكمة والحزم، ومال كل الميل إلى الإذلال والابتذال، والعسف والقسوة، والقدح والذم والمهاترة. إن هذه المرأة الشقراء الجميلة، التي لا تكاد تكبره في السن كبرًا يوافق الفارق المعقول بين الأم وابنها، لم تسعَ فيما بدا له لأن تنشئ في ابنها الوحيد شخصية إنسانية صحيحة قوية، بل خلقت بالأحرى نتوءًا في الحياة تابعًا لها في كل حال.

الشعبة الثانية عقلانية، بمقتضاها يعلم جايكوب أنه لا أمل له في أن يستمر في نمط حياته المسرف هذا، من دون أن يتكئ على أمه، التي تزوده بأسباب البقاء، وتعينه على نوائب الدهر، وتدبر له أموره إن زلت قدمه وإن ارتكب حماقة مزرية. وهي فوق ذلك كله، تشفع له عند أبيه، وتمد بينهما جسورًا قسرية، يعبر عليها المال والامتيازات المعيشية. وإن جايكوب، في أدائه لواجبات هذه الشعبة، إنما يلتزم بموقف عملي يهدف إلى تحقيق المنفعة، بقطع النظر عن المبادئ والمقولات والضرورات المفترضة. إنه يعلم علم اليقين أن الحياة بدون أمه ليست إلا مسارب معطلة وأبواب مقفلة، وإنه في هذا السياق نفسه لا يستطيع أن يسترجع في ذهنه المرة الأخيرة التي حادث فيها أباه وجهًا لوجه، أو حتى في مخابرة هاتفية. ولا غرو، فالسيد ماكس فيكسلبرج، القطب المالي الكبير، الذي يجمع بين الجشع والشح، والذي لا يمتنع عن اكتساب المال من كل ما يتراءى له من مصادر، هذا السيد الثري النبيه، لا يكترث في الوقت ذاته لرَحِمِه، ولا يجد بأسًا في أن ينحط ذويه إلى قاع البؤس والجوع والفاقة، سواء كانوا من صلبه، أو كن من عشيقاته

fb/mashro3pdf

أو جارياته.

على صعيد آخر بعيد تمامًا عن أبيه، كانت إيلينا على الدوام، شكلت لجايكوب معضلة ملغزة، وأثارت في نفسه تساؤلات عديدة. إنها ما تزال تأسره فور أن يراها أمامه، بملكاتها المثيرة، وطاقاتها الفوراة، وذكائها اللماع، وذاكرتها الخارقة للمألوف، وإنها ما تزال تتجلى عليه في معظم الأحيان بجاذبيتها القاسية وحضورها الطاغي. أما الحديث عن طموحها وشغفها بالنفاذ إلى أصل كل مشكلة وصميم كل مأزق، فلا ينقطع، فكأن لها قدرة على العناية بشؤون الدنيا كلها، مهما جسمت أو دقت. لم يحمل لها يومًا مشاعر إلا الاتباع والمهابة، الموسخة بالنقمة والمقت، وهو النتاج الطبيعي لتاريخهما الطويل، المفعم بالإساءة والالتباس. كانت دومًا وستظل سلطة فوق عادية، ومنبعًا لسحر غريب، يكاد أن يكون محركًا للشهوة، ويكاد أن يثير في نفسه الاهتزاز والروع.

وصل الحديث بالأم وابنها إلى ختامه، أو إلى نهاية مباغتة مسدودة، خيم من بعدها صمت مقلق مضجر، أحس جايكوب بوطأة كل لحظة تمر فيه. تململ في مجلسه، ثم نهض أخيرًا متحاشيًا النظر إلى أمه. جمع متعلقاته، واستأذن في الانصراف. وجَّهت إليه إيلينا نظرات متصلة مُركّزة، ولم تودّعه ولو بكلمة، ولم تنهض له، بل في اللحظة التي همّ فيها أن يغيب عن نظرها، وهي ذات اللحظة التي أمكنه فيها أن يلقي عليها نظرة أخيرة، والتي أراد فيها أن يسألها بلسان متعثر أن تتمنى له حظًا سعيدًا، أو أن تقول له كلمة طيبة، في ذات تلك اللحظة، أشاحت عنه إيلينا وجهها، بطريقة طبيعية تمامًا، ومتعمَّدة تمامًا، وحوَّلت بصرها إلى شاشة حاسوبها الصغير.

أنصتت إلى خفق نعل الشاب وهو يبتعد رويدًا رويدًا، ثم رفعت رأسها أخيرًا، بعد أن نما إلى سمعها خشخشة احتكاك إطارات سيارته بالحصى الصغير. من موقعها العليّ، حدقت النظر في السيارة الفضية إذ تغادر ويخفت ضجيجها، وحدقت ببصر عقلها إلى المستقبل، فلم ترَ فيه إلا سوءًا، ولم تتوقع إلا مكروهًا، ثم لاحت لها نهايتها من بعيد، كالسراب يترقرق في أفق الصحراء.

*****

fb/mashro3pdf

الحادي عشر من سبتمبر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الغرفة البيضاء، المعروفة في اللغة الدارجة باسم «الأوضة البيضا»، هي مطمع كل سجين في أم العريط، رغم ما يلحق بكل من ينزل بها من عار وشنار، وتشنيع وتقبيح؛ ذلك أنها تعد من قِبَل العارفين مكافأة للمرجفين على إرجافهم، وثوابًا للخونة على خيانتهم. وإن الداخل إلى الغرفة البيضاء لا يخرج منها قط، إلا إلى الحرية أو إلى القبر؛ لأنه لو خرج إلى النزلاء بخزيه وسوء سمعته، لن يبقى على قيد الحياة يومًا واحدًا. وقد دأبت إدارة السجن على نقل السجناء المتعاونين طوعًا على رؤوس الأشهاد إلى الغرفة البيضاء، وذلك تمهيدًا لعلفهم وإصلاح أبدانهم، قبل إطلاقهم.

استثنت الإدارة عمر من هذا الإجراء، حفاظًا على سلامته وحرصًا على سمعته، وإذعانًا لتوصية جاءت من خارج السجن، من قِبَل شخصية أمنية كبيرة. وهكذا اختفى عمر من بين نزلاء سجن أم العريط فجأة، وأُعلن في ظهر يوم شديد القيظ نبأ وفاته بهبوط في الدورة الدموية، أثناء أحد الاستجوابات الليلية. لم يصدق أي من السجناء هذا الادعاء؛ لأن الإدارة تقتل منهم الآحاد والعشرات بصفة يومية، ولم يسبق لها أن أعلنت من قبل عن موت هذا الإنسان أو ذلك، فضلًا عما اكتسبه الهبوط في الدورة الدموية من سمعة أمنية سيئة على مدار العقود السالفة. ورغم تشككهم في خبر وفاته، لم يلبث أن تناسى السواد الأعظم من المساجين عمر، أو ذهلوا عنه بتعبير أدق، وشُغِلوا بما هم فيه من بلاء.

الغرفة البيضاء هي في واقع الأمر زنزانة أنموذجية، بيضاء الإضاءة والطلاء والفرش، لا يزيد طولها عن المترين ونصف المتر، ويقل عرضها قليلًا عن المترين. على الحائط المقابل لباب الزنزانة الفولاذي، تسمَّر فراش معدني، ووُضِعَت عليه مرتبة مريحة ووسادة ولحاف. إلى الحائط المتعامد على الفراش، ثُبِّتت منضدة صغيرة، يستطيع السجين أن يجلس إليها لتناول طعامه. وإلى يمين المنضدة، ثُبتت وحدتيّ حمام من الألومينيوم، إحداهما مرحاض مزوّد بنضّاحة، والأخرى حوض تجري فيه مياه باردة نقية. وفوق ما سبق من نعم ووسائل الترف، كانت نافذة ضيقة أطلت على فناء الإدارة المُشجَّر، الذي يقصده الضباط لتناول الطعام. لا يستطيع السجين رؤية أي شيء عبر النافذة؛ لأن

fb/mashro3pdf

زجاجها سميك مصنفر أكمد اللون، لكنه يُنفِذ قليلًا من ضوء الشمس، ويولد في النفس إحساسًا بالسعة.

إلى هنا نُقل عمر، بعد أن غُسل بدنه وأُزيل ما علق به من درن، وضُمدت جراحه وحُلق بعض رأسه وكُسي بزي أبيض نظيف، ملائم لاستعمال الآدميين. يتلقى عمر كل يوم ثلاث وجبات تشتمل على مقدار معتدل من السعرات الحرارية. بفضل ما في طعامه من لحم وخبز وخضر، وشاي ولبن وعسل، استوت بطنه مع صدره خلال برهة قصيرة، بعد أن كانت غائرة، واستدار وجهه وحَسُن، بعد أن كان مسودًا غائر الجبهة بارز الأسنان. أبلغ عمر بإمكانية حصوله على كميات محددة من قوالب الشوكولاتة والحلاوة الطحينية، ورقائق البطاطس المقلية، فقط لو تقدم بطلب إلى حُرّاسه، ولم يفعل ذلك قط بطبيعة الحال، إنما أكل من وجباته اليومية بانتظام، ولم يأتِ عليها ولا مرة، بل حرص على أن يطعم على وجه متوسط مقبول.

إلى هذه اللحظة، لم يعلم عمر بحساب الأيام والشهور المدة من الزمن التي قضاها في السجن أو في الزنزانة البيضاء، ولم يشغل نفسه بهذا الأمر على كل حال، إنما شغل نفسه بقياس المدة الزمنية التي امتنع خلالها عن التدخين. تلك بلا شك يبلغ مداها أكثر من ثلاثة عشر سنة، لم يقلع خلالها عن التدخين في خياله. بلغت به قوة التفكير في الدخان والنيكوتين في هذه الأيام حد الإحساس بنكهته المُرة في جوف فمه، وباحتكاكه المحبب في قصبته الهوائية بصفة شبه دائمة. وقد جعله هذا التوق يشعر وكأنه مربوط في أفعوانية مرتفعة عن الأرض، ملتوية صعودًا وهبوطًا، أو كما يقول الأمريكان، وكان يرغب في أن «يغادر هذه الركوبة»، وأن يهجر مدينة الملاهي كلها. كان قد دأب على أن يسترجع في ذهنه مشاهد التدخين المفرط مع الأصحاب في المقاهي ودور السينما والمراكز التجارية، وعلى أن يسترجع عفوًا المعاني الذهنية المقترنة بالتدخين، مثل الحرية والانطلاق والأمل في الحياة، والشوق إلى السفر، ونزوع النفس إلى صحبة النساء، وما إلى ذلك من زوائل الدنيا. بل لقد بلغ من الرفاهية والتنعم في زنزانته الصغيرة هذه، أن طفق يفكر غصبًا في الشهوة، وما يلحق بها من تصورات محرمة.

على خلاف تجربته أثناء مقامه في زنازين وعنابر سجن أم العريط الأخرى، وما صاحبها من مثيرات بالغة الشدة، كانت تجربته هنا. العزلة، الخصوصية، الرغبة في اللا شيء،

fb/mashro3pdf

الكُمون في الفراش المريح، استرجاع مشاهد الأيام الخوالي، قبل المقاومة، وقبل الحرب، ونسيان العالم بأسره. إنه هنا وحده، في خلوة آمنة كريمة، وقد أعجبه ذلك، إلى حد أن نفسه حدّثته برغبته في أن يعيش في هذه الحفرة البيضاء، وحيدًا إلى الأبد. آه لو يسمحون له بالتدخين! هل يطلب إلى الحراس تمرير سيجارة مع كل وجبة طعام، بدلًا من الحلوى؟! والله الذي لا إله إلا هو، إنه على أتم الاستعداد لأن يُجْمل في الطلب، وأن يعالج مسألته بالأدب، وأن يتلطف بسجانيه وجلاديه، لو ضمن فقط السلامة من العبء المادي للرفض. لم يكن ليحتمل رفضًا من هؤلاء الوحوش بالخارج، أو إهانة أو استهزاءً، في سبيل رغبة رخيصة تافهة، مذمومة على الصعيد الأخلاقي، مثل طلب سيجارة.

اليوم.. استيقظ عمر كعادته قبل الفجر بقليل، وكان قد أوى إلى فراشه البارحة بعد العشاء بقليل. جلس على فراشه متربعًا، ونظف فمه وأسنانه بأصابعه كأنه يستاك، وهو يذكر الله. قام إلى المرحاض، فبال وتخلص فأحسن التخلص، وتحول بوجهه إلى الحوض فغسل وجهه جيدًا بالصابون، وغسل أسنانه بعناية مستعملًا الفرشاة والمعجون، ثم توضأ فأحسن الوضوء. صلى ركعتين خفيفتين لم يحدِّث فيهما نفسه كي يغفر الله له ما تقدم من ذنبه، ثم جلس برهة، قبل أن يقوم إلى صلاة الصبح بعد قليل، وقرأ القرآن بطوال المفصل إلى أن أتم ثمانين آية، ثم ركع وسجد وسلم. اشتغل بعد انتهاء الصلاة بالأذكار الواردة بعدها، جالسًا في مصلاه، ذاكرًا الله تعالى بأنواع الأذكار حتى طلوع الشمس وارتفاعها قيد رمح.

وبعد ثلث ساعة تقريبًا، سمع ضجة انزياح مزلاج باب الزنازنة الفولاذي، وكان موليًا ظهره لمدخل الزنزانة. سمع خشخشة أقدام عديدة، لكنه لم يلتفت، وأحس بدخول عدة أشخاص الغرفة، لكنه لم يبالِ. طأطأ رأسه وصَوَّب نظره إلى موضع سجوده من الأرضية الباردة الصقيلة. ثم نما إلى سمعه صوتًا مألوفًا إذ يُقال له من خلفه: «صباح الخير يا شيخ عمر».

قام عمر والتفت، فإذا باللواء حسام داوود أمامه، رافلًا في النعمة، متضمخًا بالعطر، مكسوًّا ببدلة فاخرة مفصلة على بدنه تفصيلًا، كعادته. خلفه، بحذاء باب الزنزانة، وقف رجلان من حرسه، وكانا فيما يبدو على أهبة الاستعداد لعمل شيء ما.

لم يبدُ على عمر أي انفعال ولا دهشة، بل أومأ برأسه، وقال يرد التحية:

fb/mashro3pdf

- صباح النور يا فندم.

أجال حسام عينيه في أنحاء الزنزانة، ثم تبسم برضا. أشار إلى المنضدة الجانبية الصغيرة، المثبتة في الحائط، ليلفت نظر عمر إلى صينية الطعام البسيطة الموضوعة عليها. تزاحمت عليها أطباق صغيرة من الصاج، ازدانت بأصناف عدة عالية الجودة، مصرية الطابع، مثل الفول المدمس المغمور في الزيت الحار، وأقراص الطعمية المحمرة، والباذنجان المقلي مع الجرجير الأخضر، وشرائح البيض المسلوق، والسلاطة الخضراء. انتصبت إلى جوار ذلك كله تلة متألفة من الخبز المصري السميك، وكوبين طويلين متعرين بالشاي الساخن المركز.

جلس اللواء إلى المنضدة، على كرسي بلاستيكي جُلب له من الخارج، وحاول أن يجد مكانًا على المنضدة لحافظة ورق جلدية كان يحملها منذ دخل، ولم ينجح، فوضعها على الأرض بحرص أسفل الكرسي. تابع عمر حركاته بشيء من التسلي، ثم لما أومأ له اللواء أن اجلس، أذعن لطلبه على الفور، وجلس قبالته.

اقتطع حسام لقمة، وقال آمرًا وهو يغمسها في الفول:

- كل معايا.

اقتطع عمر لنفسه لقمة هو أيضًا، وطفق يأكل كما هو ديدنه، ببطء وتوسط حسن. أما حسام، فبشهية كبيرة تناول اللقمة وراء اللقمة، واكتظت لقيماته جميعًا بمختلف الأنواع، وتشبعت بالزيت وماء السلطة. لم يك مع هذا متهافتًا أو سوقيًا، بل متبسطًا تلقائيًا. سأل عمر بانتباه ومراعاة عن أحواله في الزنزانة الجديدة، فحمد الشاب الله، ولم يزد على ذلك كلمة.

قال له اللواء منبهًا، وهو يمد يده ويستل من بين شرائح البيض المسلوق شريحة متماسكة:

- خلي بالك يا شيخ.. أنا قيدتلك حراسة مخصوصة من بعض الجنائيين.. دول تقدر تعتبرهم إخوة أقربلك من أشقاء الدم؛ لأنهم حموك ممن تعتبرهم إخوانك في الدين والمقاومة.. لولا حراسة الجنائيين، كان إخوانك المجاهدين فرتكوك.

لم يبدُ عمر استجابة محددة، ولم يبدُ عليه أنه سمع، رغم أنه حدج اللواء بنظرة منتبهة. قال حسام مواصلًا حديثه، وهو يمضغ البيض على مهل:

fb/mashro3pdf

- وتقـدر تشـكرني؛ لأني في نفـس الوقـت حشـت الجنائيـين عنـك.. ودول لعلمـك الاغتصـاب عندهـم رياضـة مفضلـة.

قال عمر متمتمًا، وهو يمضغ الخبز:

- الحمد لله على كل حال.

أومـأ اللـواء موافقًـا، والـتزم الصمـت إلى أن أنهـى طعامـه. سـأل عمـر إن كان قـد شـبع، فحمـد الشـاب اللـه ولـم يـزد. أمـر اللـواء أحـد حارسـيه برفـع الطعـام، ولـم تمـضِ عـدة دقائـق حـتى خلـت المنضـدة إلا مـن كـوبي الشـاي، والتمعـت بالنظافـة، وفاحـت مـن سـطحها رائحـة طيبـة. مـال اللـواء ليرفـع حافظـة الأوراق الجلديـة، ووضعهـا أمامـه عـلى المنضـدة، ثـم بسـط يـده المغلفـة بقفـاز جلـدي رقيـق أنيـق، وميّـل رأسـه قليـلًا، متفرّسًـا في ملامـح عمـر.

ثم قال باسمًا على حين فجأة، وهو ينقر الحافظة الجلدية بأصابعه:

- أوراق الإفراج وصلت يا شيخ.

لـم يعقـب عمـر، وحـرص مـع هـذا عـلى ألا يظهـر عـلى وجهـه مـا يـدل عـلى التجاهـل أو التحـدي، بـل كسـا تعابـيره بالسـكينة أو مـا يشـبه الحـيرة والتوهـان.

شعر اللواء حسام بالحاجة إلى أن قول المزيد، فقال بهدوء:

- الفـترة الـلي فاتـت يـا شـيخ عمـر، بالنسـبة لي، كانـت حافلـة، بشـكل لا تتخيلـه. والفضـل في ده يعـود في جـزء كبـير منـه لـك.

نطق الأسير قائلًا بلا تكلف:

- أشكرك يا فندم.

تبسم اللواء مدهوشًا، ثم لم يجد مفرًا من أن يقول موضحًا:

- بفضـل تعاونـك معنـا، وقـع بـين أيدينـا كميـات مـن الوثائـق في بيـت أبـو زكريـا، لا تُقـدّر بثمـن.

لـم يقـرع القـول قلـب عمـر كمـا أمـل اللـواء، ولا راكـم فيـه عواطـف مركبـة مـن أي نـوع، غـير ضيـق بـدائي، مماثـل لهـذا الضيـق البـارد الرتيـب، الـذي تبديـه الـدواب الوحشـية إزاء تكالـب الذبـاب عـلى أجفانهـا وشـفاها، والـذي تسـتجيب لـه بـأن تهـز رؤوسـها ببـطء، وأن تـضرب قوائمهـا في الأرض مـرة أو مرتـين بهـدوء. هـذا هـو الضيـق نفسـه الـذي أحـس بـه عمـر، إزاء رغبـة اللـواء الواضحـة في أن يتحـدث عـن منجزاتـه الأمنيـة الحاصلـة خـلال الفـترة القصـيرة

fb/mashro3pdf

الماضيـة، وعـن دوره المهـم فيهـا.

لـم يكـن يريـد أن يسـمع. نعـم، كانـت قـد خطـرت عـلى قلبـه أسـئلة لا حـصر لهـا، لكنـه لـم يجـد في نفسـه طاقـة لأن يطرحهـا ولا إرادة، ولـم يجـد كذلـك في قلبـه رغبـة في أن يعلـم. العالـم الخارجـي مـكان فظيـع، لـم يعـد لـه فيـه مسـاحة للعيـش. لـم يعـد يطمـح إلى أي شيء في هـذه الحيـاة غـير الهجـرة إلى مـكان خيـالي بعيـد، آمِـن، سـاكن. لكنـه كان عـلى يقـين عـلى كل حـال، مـن أن اللـواء إنمـا جـاء ليطلعـه عـلى نتـاج مكـره السـيئ، وأعـد نفسـه لتحمُّـل هـذا العـبء النفسـي. لـم يكـن ينـوي أن يهلـك نفسـه حزنًـا عـلى الضحايـا، ولا أن يذهـب نفسـه عـلى المبتلـين حـسرات؛ لأنـه واحـد منهـم؛ ولأنـه لـم يغـدر مـن تلقـاء نفسـه، ولا خـان العهـد طوعًـا بمحـض إرادتـه، ولا أراد أن ينفـذ مشـيئة شريـرة، ولـم يـزد عـن الانكسـار أمـام الضغـوط الخارجـة عـن إطـار تحمـل البـشر، مثلمـا انكـسر المئـات قبلـه ممـن كانـوا إخوانـه، وممـن كانـوا مـلء السـمع والبـصر بالمهابـة والإخـلاص وبـذل النفـس في سـبيل الديـن. كل مـا هنالـك أنـه اختـصر المسـافة، وحفـظ دمـاء أهلـه الأبريـاء وأعراضهـم مـن أن تسـفح وتسـتباح، وكان سـيذعن في نهايـة الأمـر ويخضـع، حتمًـا ولا بـد.

ولعـل شـيطان نفسـه تجـرأ مـن قبـل، وقـال بـأن المبـادئ الدينيـة والفكـر البطـولي المثـالي يعارضـان خيانتـه الآثمـة، غـير أن عمـر تصـدى لمواجهـة هـذا الشـيطان بـكل حسـم، وبسـط أمامـه الحجـج المفحمـة، وذلـك بـأن دعـاه بهـزأ لأن يتجسـد في دنيـا الواقـع، ولأن يرقـد عـلى منضـدة التشريـح حيًـا، ويتهيـأ لأن تُبقـر بطنـه بمخالـب الجلاديـن وأنصالهـم. ثـم دعـاه لأن يجلـس هكـذا عـلى كـرسي الاعـتراف بهامـة مرفوعـة، وأن يراقـب الجلاديـن وهـم يبقـرون بطـون ذوي رحمـه، ويحشـون فـروج وأدبـار النسـاء والأطفـال مـن أهلـه. ثـم رجـاه الجلـوس إليـه بعـد أن يجتـاز هـذه «التجربـة الكاشـفة» بنجـاح، وسـأله أن يحدثـه بعـد ذلـك عـن «اليقينيـة الدينيـة الجازمـة»، المناديـة بـكل مـا هـو «خـير نبيـل مطلـق في خيريتـه ونبلـه».

هكـذا كان يجابـه عمـر شـيطانه المريـد العنيـد، مسـتعينًا في ذلـك بـازدراء الفكـر والنظـر، وإنـكار التصـورات والمقـولات والقيـم، وتغليـب الوقائـع ومـا يترتـب عليهـا مـن آثـار ونتائـج، فينـدحـر شـيطانه ولا يطيـق جوابًـا، وينقطـع صوتـه وتتقلـص نفسـه حـتى يصـير إلى العـدم.

عـلى خـلاف اللقـاء السـابق، لـم يدخـن اللـواء سـيجاره السـميك، إنمـا أشـعل سـيجارة طويلـة، ونفـخ في وجـه عمـر مـن دخانهـا. حدجـه عمـر بنظـرة بـاردة، لمعـت في عينيـه

fb/mashro3pdf

الخضراويـن كمـا تلمـع حبـات الزيتـون، وحدثـتـه نفسـه أن يطلـب واحـدة لنفسـه، وكاد أن يفعـل لـولا قليـل مـن فطنـة وبقيـة مـن حسـن تـصرف.

قال اللواء مفصلًا مزيدًا من التفصيل:

- خـلال يومـين أو تلاتـة فقـط مـن الغـارة عـلى أبـو زكريـا، اعتقلنـا ميـة خمسـة وتلاتـين شـخص، منهـم ميـة وتسـعين مصريـين، وسـتة وعشريـن مـن جنسـيات مختلفـة، كلهـم تلقـوا التدريـب عـلى الأسـلحة والأعمـال الإرهابيـة. بعدهـا بأيـام اتسـعت دايـرة المعتقلـين، وشـملت خمسـمية شـخص عـلى الأقـل. مؤكـد إنـت ملاحـظ زيـادة الـوارد هنـا.

أومأ عمر، فقال حسام وهو يفتش في ملامح الشاب الجالس حياله:

- الفـترة الـلي فاتـت، تقـدر تقـول عليهـا إنهـا كانـت كاشـفة ومفاجئـة بالنسـبة لي. زي مـا الأمريـكان يقولـوا: «فاتحـة للعينـين».

- إزاي؟

- خـلال الأسـابيع الـلي فاتـت، حـاورت عـدد كبـير مـن قـادة الجبهـة الإسـلامية، وعرفـت أشـياء عـن الاحتـكاكات الداخليـة، أعـترف إني مكنتـش متصـور مداهـا قبـل كـده.. وده يخليـني أسـألك.. والإجابـة مـش اختياريـة.. اعتـبره تحقيـق رسـمي، وأرجـو إنـك تجيـب بأكـبر قـدر مـن الأمانـة والموضوعيـة.. إيـه رأيـك في ظـروف نشـأة التنظيـم؟

قـال عمـر وهـو يلـوي شـفتيه، ويرمـي ببـصره إلى تموجـات الدخـان البيضـاء، الصاعـدة إلى السـقف:

- طالمـا الإجابـة مـش اختياريـة.. قُـل لي مبـاشرة الإجابـة النموذجيـة الـلي تحـب تسـمعها.. وأنـا أتعهـد بتكرارهـا عليـك، منعًـا لتضييـع الوقـت.

مسح اللواء على شاربه المشذب، وقال ضاحكًا:

- إنـت فهمتـني غلـط، أو أنـا لـم أحسـن التعبـير. قصـدت بقـولي «الإجابـة مـش اختياريـة»، إنـك لازم تجيـب عـن السـؤال، لكـن بمـا تـراه أنـت وتؤمـن بـه.

فـرد عمـر أصابعـه عـلى سـطح المنضـدة الخُبيـبي، وتفكـر قليـلًا في الإجابـة، ثـم قـال متسـائلًا:

- رأيي يهم في إيه؟

- مهـم بالنسـبة لي. أعتقـد إن نظرتـك للأمـور هتفتحـلي طاقـة لفهـم تنظيمكـم بشـكل

fb/mashro3pdf

أفضـل. إنـت العنـصر الوحيـد المتعـاون، والـلي ممكـن أثـق في كلمتـه.

هز عمر رأسه بما يشبه عدم الاقتناع، وقال:

- العناصر المتعاونة مفيش أكتر منها. ليه رأيي أنا بالذات، في مسألة جدلية، يهم؟

- سؤالي عن ظروف نشأة التنظيم معلوماتي مش جدلي. أنا أسألك عن وقائع.

- ظـروف النشـأة مـش وقائـع، لكـن وجهـات نظـر. لـو أجبـت عـلى سـؤالك، هعددلـك أسـباب النشـأة، مـن وجهـة نظـري.. مـن واقـع خـبرتي أنـا بـس.

- ده اللي أنا عايزه تحديدًا.

قالها حسام، ثم أردف يقول بلهجة صارمة، كي يضع حدًا لنقاش لا فائدة منه:

- سـؤالي واضـح يـا شـيخ، وأنتظـر منـك إجابـة واضحـة. مـش عايـزك تـرد عـلى سـؤالي بسـؤال. تفضـل. أنا أسـمعك.

أومأ عمر متفهمًا، وقـد بـدت عـلى وجهـه علامـات التوتـر. الـتزم الصمـت لبرهـة، ثـم قـال بإيجـاز وعـلى نحـو رتيـب، كأنـه يـسرد ديباجـة محفوظـة:

- التنظيـم نشـأ كإفـراز حتمـي، لضمـان اسـتمرار المقاومـة وترشـيدها.. عـلى الأقـل دي قناعـتي، أو كانـت قناعـتي لحـد وقـت قريـب.. إن في وقـت مـن الأوقـات، المقاومـة العلمانيـة كانـت بتفشـل، وقـوات الاحتـلال كانـت بتحقـق تقـدم عسـكري وبتـضرب أرتـال المقاومـة، وتحـاصر المـدن والمعسـكرات.

وسكت عن الكلام لحظة، كأنه يستجمع أفكاره، ثم قال مضيفًا، وهو ينتقي كلماته:

- خـلال تـلات سـنين، المجتمـع تدهـور.. وافتقـد أي نـوع مـن القيـادة.. الفِـرَق تحولـت لقـوات خاصـة، لهـا دعمهـا الجـوي الخـاص.. حـركات المعارضـة السياسـية ضربـت المقاومـة بالغـدر، وشـوّهت قضيتهـا.. المصريـين عاشـوا ظـروف حـرب وإبـادة جماعيـة، وظلـم وقهـر وتجويـع.

هز حسام رأسه بعدم رضا، وقال مُخطِّئًا رأي أسيره:

- الـلي قلتـه ممكـن يخلـق فصائـل مقاومـة جديـدة.. إنمـا ظهـور تنظيـم زي تنظيمكـم، يهـدف إلى إقامـة دولـة سـلطانية، ويتديـن بالتكفـير والغُلـو، أمـر مـش مفهـوم بالنسـبة لي.. إلا إذا كنتـم صُنِعتُـم صناعـة.

رفع عمر عينيه إلى خصمه، وسأله:

fb/mashro3pdf

- تقصد إيه بقولك «صُنِعتُم صناعة»؟

- أقصد أن أطراف معينة استغلت المواد الأولية المتوافرة على الأرض، لزارعتكم زرعًا، بهدف ضرب المقاومة ذاتها.

كاد عمر أن يبتسم، وقال:

- المقاومة كانت متهالكة، وعلى وشك التداعي الكامل، من قبل ما إحنا نخرج للوجود كجبهة مسلحة مستقلة.. وتقصد إيه بقولك «المواد الأولية»؟

أجابه اللواء على الفور قائلًا:

- أقصد بالمواد الأولية: الإبادة، التجويع، التشريد، التهجير، القصف، الهدم، الحصار... إلى آخره. هذه الأشياء تخلق كيانات مشبوهة من أمثالكم.

منع عمر نفسه من أن يضحك بيأس، وقال عوضًا عن ذلك:

- تعترف بوجود إبادة وتجويع وتهجير.. ومع ذلك تقول إننا كيان مشبوه، و«مصنوع صناعة»؟!

ثم سارع إلى التخفيف مما قد يحدثه رأيه هذا من أثر، وذلك بأن قال:

- على العموم هذا رأيك.. أنت حر فيه.

أراح حسام ظهره على ظهر كرسيه، وشبك ذراعيه، وتفحص عمر من أعلاه إلى أسفله. كان يرفع يده ليمتص من السيجارة نفسًا، ثم يعيدها إلى موضعها مرة ثانية، إلى أن أتى عليها ودعسها بقدمه.

وما لبث أن قال فجأة، وكأنه وضع يده على فكرة نيِّرة، بعد طول تمحيص:

- تعالى معايا يا شيخ ننظر إلى طبقات تنظيمكم وروافده.

رفع عمر يديه بالتزامن، وقال بلهجة فيها ضعف:

- اذهب أنت، رجاءً، وابحث وحدك في طبقاته وروافده.. أنا لا طاقة لي بهذا الكلام.

انفرجت شفتا حسام عن ثناياه إذ يبتسم بسخرية، وقال:

- أنا غرضي أنورك يا شيخ عمر. إنت عشت سنوات نضالك النبيل تحت جناح أبو زكريا، وجماعته من المقربين. لكن لم تتح لك فرصة النظر بعمق في هيكل التنظيم اللي كنت تضحي بحياتك لأجله.

مطّ عمر شفتيه، وقال بلهجة تخلو من أي اندفاع أو تأزم:

fb/mashro3pdf

- أنا كنت أضحي بحياتي في سبيل ربي.. ثم وطني.

ألقى اللواء يده إلى الأمام في حركة محدودة، توحي بالاستهتار، وقال:

- مفهوم طبعًا. لكن لا أعتقد أنك في خِضم تضحياتك النبيلة في سبيل ربك ثم وطنك، اطَّلعت بشكل دقيق على تركيبة تنظيمكم.

وأشار إلى صدره بسبابته، وواصل قائلًا:

- أنا، التقيت مؤخرًا بالعديد من قادتكم، من مختلف الطبقات، وفهمت إزاي التروس بتدور في ميدان العمل. غرضي إني أعرض عليك وجهة نظري، وأعرف رأيك فيها إيه، كعنصر مهم في التنظيم.

دعك عمر جبهته مظهرًا بعض الانزعاج، وقال:

- من فضلك يا سيادة اللواء.. أنا غير مهتم بسماع هذا الكلام.

هز حسام رأسه هزًا رتيبًا ثقيلًا، كعادته كلما عزم على البدء في خطاب طويل، ثم قال بصوت قوي، ثابت الشدة:

- هل تعلم يا شيخ عمر، أن الصف الثاني والثالث من القيادات الميدانية، كان يشغلهم ضباط أمن وقوات مسلحة ومخابرات عسكرية سابقين؟ هل تعلم أن هؤلاء الناس اعتنقوا المذهب السلفي ادّعاءً؟ أرخوا لحاهم ودخلوا في تركيبة التنظيم.

هز عمر رأسه يمنة ويسرة بيأس، ثم قال وهو يزفر زفرة المُكْرَه الذي لا أمل له:

- ثم ماذا؟

أجابه حسام على الفور، بتمهل وتركيز:

- من تلات أيام تحديدًا، قابلت شخص اسمه أشرف رفاعي، وهو معروف في التنظيم باسم أبو أيوب أشرف العطاشي. تسمع عنه؟

أومأ عمر بالإيجاب، فتابع حسام كلامه قائلًا:

- أبو أيوب، صار مؤخرًا من أبرز عناصر الصف الثاني، لدرجة انتشار أخبار بأن أبو زكريا كان بيفكر جديًا في ضمه لمجلس شورى المجاهدين. الشيخ أبو أيوب، هو في الواقع من ضباط الأمن الوطني، وكان برتبة مقدم قبل دخول الأمريكان القاهرة.

أومأ عمر مرة ثانية، وقال:

- أنا أعرف الشيخ أبو أيوب معرفة سطحية، وكنت أحسبه على خير.. هو كان مسؤول

fb/mashro3pdf

-على حد علمي- عن تدريب الشباب في مخيم «حصن روطة»، ناحية وصلة الصحراوي وطريق الواحات القديم. أنا سمعت كلام من الإخوة هنا إن المخيم اتضرب بالقنابل مؤخرًا.

لم تطرب مداخلة عمر مسامع اللواء، فعزم على أن ينفذ إلى غرضه مزيدًا من النفاذ، وذلك بأن قال بهدوء:

- أنا اجتمعت مع أبو أيوب ساعات طويلة، ومكنتش محتاج أوجّهله سؤال واحد. هو فرط أسراره لوحده أول ما عرف أنا مين. الراجل ده، اللي مكروه من شريحة عريضة من الناس؛ لأنه «متشدد» ولأنه من غلاة التكفيرين؛ ولأنه لا يتورع عن سفك دماء المسلمين في سبيل إنجاح عملياته.. الراجل ده، اللي يرى القتل بالظن والشبهة، واللي المفترض إنه كبّد الأمريكان خسائر كبيرة في عملياته...

قاطعه عمر قائلًا، من دون أن ينظر إليه نظرًا مباشرًا:

- أظن موضوع تكبيد الأمريكان خسائر فادحة.. ممكن يكون فيه مبالغة شوية؟

وَسّع حسام عينيه بوعيد، وقال وقد علت نبرته:

- الراجل ده.. قالي صراحةً إنه على قوائم مُرتّبات السي آي إيه.. كده على المكشوف.. وقالي إنه على علاقة بالإخوة في محطة السي آي إيه في القاهرة.. وقالي إنه قابل جيمس باكلي أكتر من مرة.

- من جيمس باكلي؟

- مدير محطة السي آي إيه في القاهرة.

- وهل كونه متعاون مع مخابرات قوات الاحتلال، في رأيك، يجعله خائن؟ إيه تصنيفه عندك؟

أدرك حسام القصد من وراء السؤال، فتبسم ساخرًا وقال:

- تصنيفه عندي هو نفس تصنيفك يا شيخ عمر. تحب تحط نفسك في أي تصنيف؟

تبسّم عمر بما يوشك أن يكون مرارة، وقال بصوت هادئ خالٍ من المشاعر تقريبًا، إلا مسحة باهتة لا تكاد تُحس من هزأ:

- أحط نفسي في تصنيف «إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان».

هز حسام رأسه بوقار، وقال باسمًا، موافقًا:

fb/mashro3pdf

- وهـو كمـان «أكـره وقلبـه مطمـئن بالإيمـان».. أو لعلـه رجـل صاحـب مبـدأ، وخاطـر بحياتـه عشـان يخـدم قضيتـه مـن المكان الـلي شـافه مناسـب أكـتر مـن غـيره.

- مع السي آي إيه؟! تفسير غريب، لكن يمشي.. ماشي الكلام.

- تحب تسمع أكتر عن الشيخ أبو أيوب؟

- أنا تحت أمرك يا فندم. لو تحب تُسمعني، فكلي آذان صاغية.

قال حسام مراعيًا الدقة في كلماته:

- أخونـا الشـيخ أبـو أيـوب، قـام بإجـراء تحقيقـات حساسـة ودوريـة لحسـاب الـسي آي إيـه، بهـدف تحديـد مـكان أبـو زكريـا. وفشـل في مهمتـه الأساسية رغـم مكانـه المهـم في التنظيـم؛ لأن شـيخك كانـت أولويتـه تأمـين نفسـه والدايـرة المحيطـة بـه، فـوق أي اعتبـارات أخـرى، ومـن ثـم عَـزَل نفسـه عـن بـاقي دوائـر وكـوادر الجبهـة، مهمـا بـدت مهمـة أو مخلصـة. لكـن أبـو أيـوب نجـح مـن جهـة أخـرى في جمـع معلومـات قيّمـة عـن أنشـطة الجبهـة الإسـلامية وطريقـة عملهـا، سـاعدتنا في النهايـة إلى حـد مـا. في جلسـاتي معـه، قـدر يعطيـني صـورة دقيقـة عـن حجـم الانتهـاكات والمشـاكل الفكريـة وسـوء الإدارة في التنظيـم. ده غـير الفسـاد المـالي والتعسـف في اسـتعمال السـلطة الدينيـة، مـن خـلال تطبيـق أحـكام وحـدود وحشـية في حـق معارضـين للتنظيـم.

- أنـا لا علـم لي بمسـألة عمالتـه للـسي آي إيـه.. هـذا الـكلام عـلى عهدتـك، وأنـت مسـؤول عنـه.. لكـن إن كان فعـلًا قـال بتفـشي الفسـاد والتعسـف في الجبهـة، فأظـن كلامـه فيـه شيء مـن الغلـوّ، والافتئـات عـلى النـاس بالباطـل. لـو أن لي أن أنصـح لـك، لقلـت إن الرجـل يحـاول أن ينجـو مـن ورطـة الوقـوع بـين أيديكـم بالافتئـات عـلى النـاس بالباطـل.. ولقلـت إن كلامـه لا يصـح أن يُحمـل عـلى محمـل الجـد. تـصرُّف حقـير وخيانـة دنيئـة مـن دافـع الخـوف، لا أكـثر.

أومأ حسام موافقًا، وقال:

- احتمـال وارد طبعًـا. أنـا لـم آخـذ كلامـه كحقائـق مُسـلّم بهـا عمومًـا، وأقـوم بالتنسـيق مـع مكتـب الـسي آي إيـه في مـصر، للتحقيـق في صحـة معلوماتـه.

ورفع سبابته، وقال ناصحًا:

- بـس لازم تنتبـه يـا شـيخ عمـر لقضيـة مهمـة.. كلامـه، وإن بـدا مجـرد محاولـة منـه إنـه يفلـت مـن ورطتـه، يوافـق تمامًـا أحـوال التنظيمـات الإسـلامية عمومًـا. التنظيمـات الإسـلامية،

fb/mashro3pdf

السياسية والعسكرية، هي المرادف للغلو والتكفير، مهما اختلف ظرف الزمان والمكان. أنا لا أعتبركم كغلاة وخوارج اختراع جديد. سوابقكم لا حصر لها، في سوريا، في العراق، الصومال، أفغانستان، اليمن، ليبيا، الجزائر.

لم يجد عمر في نفسه رغبة في أن يُخَطِّئ خصمه بالحُجة والبرهان، ولم يجد نفسه كذلك في موضع يؤهله لتقديم الحُجة والبرهان ابتداءً، بل عدّ نفسه في هذه اللحظات العسيرة دليلًا دامغًا على الفشل والتدني الشخصي، وربما على فشل المعتقد بأسره، فأحس من ثم بأن تصديه للمدافعة والمحاجة قد يبدو مضحكًا، ومثيرًا للرثاء.

لكنه رغم ذلك كله، أحس بوجوب قول شيء ما إزاء ما يدّعيه خصمه، فقال وقد بدت عليه دلائل عدم الاكتراث، أو بالأحرى حرص على أن يظهر بمظهر المتجرد المنسلخ عن الشخصانية، بكل ما تقتضيه من أصالة التفكير، ورهافة الشعور، وقوة التعبير:

- في رأيي الشخصي.. الجبهة الإسلامية كانت تمثل القوة الوحيدة على الأرض، القادرة على مقاومة الاحتلال.

هز حسام رأسه رافضًا ما ادّعاه أسيره، ثم قال بلهجة المعلم المُلقِّن:

- الحقيقة أنتم هجمتم على ما تبقى من المقاومة وقضيتم عليها. بعدها حاصرتم مناطق واسعة من القاهرة، وأقمتم فيها الدولة. الناس مشافتش منكم بعدها إلا قطع الرؤوس وبتر الأطراف والرجم والجلد. يا ريتكم كنتم خوارج قولًا واحدًا. الحلقة الأمنية المسؤولة عن القرار العسكري والأمني الميداني في التنظيم، المُكوّنة من ضباط سابقين في الجيش والمخابرات والشرطة، كانت مُخترقة لأبعد مدى من أطراف كثيرة، محلية، إقليمية، دولية.. من مجرمين، ومتربّحين، وتجار حرب.

ضم عمر شفتيه ضمًا خفيفًا، بما يدل على الأسف، ثم قال:

- دي مش معلومة جديدة.. أمر طبيعي إن بعد تفكيك الدولة ينضم العديد من ضباطها إلى المقاومة العلمانية، وبعدها إلى المقاومة الإسلامية، أو أي مقاومة أيًا كانت.. دي اسمها «العاطفة الوطنية»، ودي في أوقات الأزمات تعلو على الانتماءات الفكرية والسياسية.. هؤلاء الضباط، أصحاب الخبرات العسكرية القديرة، بيكونوا العقل المخطط والمدبر لعمليات المقاومة أيًا كان انتماءها، على الأقل أثناء مرحلة التكوين.. طعنك في نواياهم وجهة نظر شخصية تمامًا.

fb/mashro3pdf

- أنت يا بني لا تفهم شيء، وده لأنك كنت ترس في ماكينة فاسدة ومُفسدة. وبالتالي قدرتك على الاستيعاب والاستنباط محدودة بمعارفك وأفكارك القديمة في التنظيم. أنا حضرت جلسات استجواب العديد من قيادتكم، ومنهم ضباط أمن وجيش متمرسين، لهم أجندات مركبة، وانتماءاتهم غير محددة.

هز عمر رأسه يمنة ورأسه، وقال وهو يغض بصره:

- كل هذا الكلام سمعي.. وغير موثق.. ولا دليل عليه.. كلها ادّعاءات ظنية لا أساس لها.. عداءك لهؤلاء الضباط -من وجهة نظري- طبيعي جدًا.. لأنك ومن يعملون معك لستم إلا إفراز لإعادة بناء وتشكيل أجهزة الحكومة والجيش والشرطة بعد الاحتلال.

ركز اللواء النظر إلى أسيره يرقبه، ولم يبدُ عليه غضب أو استياء، سوى هذا الاستياء الطفيف الناضح به وجهه على الدوام. تابع من دون التفات إلى تعقيب أسيره الأخير، قائلًا:

- خليني أحكيلك عن رؤيتي لتركيبة تنظيمكم، من واقع مقابلاتي خلال الأيام اللي فاتت. إيه رأيك؟

هز عمر رأسه، ولم يقصد بهذا أي دلالة، فقال حسام مُفصِّلًا:

- طبقة الضباط هذه، اللي هي في الطليعة، تعمل معها بالتوازي وأسفل منها طبقة غُلاة التكفيريين. الغلاة بعض منهم ضباط سابقين هم أيضًا، شرطة وجيش، والبعض الآخر مصنوعين صناعة في السجون البلدية ومعسكرات الاعتقال الأمريكية. عندك مثلًا، الشيخ محمد أسامة، المعروف باسم أبو أنس المهاجري. تسمع عنه؟

أومأ عمر برأسه مجيبًا بالإيجاب، فقال حسام:

- هذا الرجل، صنعته السي آي إيه، بالتعاون مع جهاز الأمن الوطني في معسكر الخصوص، وشرّبته السلفية الجهادية بالمعلقة.

وسكت عن الكلام ليرى تأثير الكلمة على أسيره. لم يغيّر عمر ما في قسماته من تهدُّل، فلم يستطع حسام من ثَم أن يفصل في أمره. هل ما يبديه الشاب، يُعد من علامات اللا مبالاة المقترنة باليأس، أم الخنوع المقترن بالانهزام التام؟

لم يجد اللواء جوابًا شافيًا لسؤاله، ولم يجد بونًا شاسعًا بين شِقّي السؤال على كل حال، فاستأنف الكلام قائلًا:

fb/mashro3pdf

- لـو إنـت مركـز معايـا، هتـلاقي إن خطـر غـلاة التكفيريـين، مـن أمثـال أبـو أنـس، كان عـلى التنظيـم وعـلى النـاس عمومًـا، أكـبر مـن خطـر الاختراقـات. بمراجعـة ملفـه، تبـين لي إنـه مسـؤول عـن جرائـم كبـيرة في حـق المجتمـع، أغلبهـا تفجـيرات انتحاريـة اسـتهدفت مدنيـين، مسـلمين وأقبـاط، في الأسـواق، في الشـوارع، في المسـاجد والكنائـس، اسـتهدفت موظفـين، عمـال، اسـتهدفت خمّـارات، مواخـير، مرافـق للدولـة، لكنهـا أبـدًا لـم تمـس الأمريـكان.

هكـذا قـال حسـام جملتـه الأخـيرة وهـو يرفـع سـبابته ويهزهـا هـزًا، وقـد بـدت عليـه عظمـة التبـصر بالحقائـق، ورواء العالمـين ببواطـن الأمـور. ثـم أردف:

- مـن المفارقـات، إن الشـيخ صفـوت عبـد الماجـد، وابنـه عمـار، سـاعدوا أبـو أنـس عـلى الانضمـام والانتسـاب رسـميًا للجبهـة. وقدمـوه لأبـو زكريـا في أول الأمـر باعتبـاره عنـصر مخلص ومتحمـس وصاحـب خـبرة. لكـن عيبـه إنـه مندفـع ويحتـاج شـوية تفقـه وتهذيـب.

هـل يعـض الشـاب شـفتيه أم يرطبهمـا بلسـانه؟ هـل يغـض البـصر مـن شـدة الكـرب أم مـن شـدة الضجـر والكسـل؟ ألقـى عليـه حسـام نظـرات متتابعـة فيهـا اسـتطلاع، بـل بـدا وكأنه يهـم بتشـممه، وهـو يميـل برأسـه هكـذا، يمنـة ويـسرة.

ثم قال وهو يرفع صوته رويدًا رويدًا، نظرًا لأهمية النقطة التالية في كلامه:

- الطبقـة الثالثـة في تركيبـة التنظيـم، بعـد الضبـاط، وغـلاة التكفيريـين.. تتكـون مـن الشـباب المُغـرر بـه.. مـن أمثالـك كـده يـا شـيخ عمـر.. هـم البسـطاء، حدثـاء الأسـنان، اللـي شـافوا رايـات التوحيـد خفّاقـة عـلى أرتـال الجبهـة.. واللـي درسـوا في أدبيـات المسـاجد معنـى الجهـاد والحتميـة التاريخيـة لقيـام الخلافـة.. اللـي شربـوا الكُـره والخرافـة مـن عـلى المنابـر.. الشـباب اللـي صـدق إن تنظيمكـم هـو الأمـل القـادم، هـو الوعـد الحـق.. اللـي صـدق إن واجبـه هـو الالتحـاق بأبـو زكريـا هجـرةً إليـه.

قالها حسام، وسكت عن الكلام برهة قصيرة، ثم زفر وهو يبتسم باحتقار، وقال:

- هـذا الشـباب التافـه، لـم ينظـر لحقيقـة واضحـة لأي إنسـان متوسـط الـذكاء.. وهـي أن دولتكـم كلهـا ونفوذكـم، تأسـس في مناطـق كانـت تحـت سـيطرة المقاومـة العلمانيـة.. كلهـا كانـت مناطـق محـررة بأيـدي فصائـل المقاومـة المدنيـة، وضعتـم أنتـم أيديكـم عليهـا.

ومال حسام إلى الأمام برأسه الأصلع اللامع، وقال يسأل أسيره متحديًا:

- مـن واقـع خبرتـك يـا شـيخ، عايـزك تـشرح لي إنجازاتكـم بعـد التمكـين. وَضّحْـلي مـدى

fb/mashro3pdf

نجاحكم في تحرير مناطق جديدة من قبضة النظام المصري العميل والأمريكان.

وتراجع مرة ثانية من دون أن ينتظر إجابة، وقال بعدم اكتراث:

- ده بخلاف طبعًا فتوحاتكم المبينة بقتلكم لكل من لم يبايع، وبخلاف تصفيتكم لكل قادة فصائل المقاومة العلمانيين، باعتبارهم مرتدين.

هنا رفع عمر رأسه، وقال متسائلًا مستوضحًا:

- من تقصد بالمرتدين؟

- القاعدة الفقهية تقول: «قتال المرتد أولى من قتال الكافر الأصلي». وفصائل المقاومة طائفة رِدّة. قتالهم أولى من قتال جيوش الأمريكان، الكفرة الأصليين.

هز عمر رأسه يمنة ويسرة رافضًا ادّعاء خصمه، وقال هو يكاد أن يبتسم هَزِئًا:

- هذا كلام غير صحيح.. لم يحدث وأن كَفَّر الشيخ أبو زكريا أحد، ولا أفتى بجواز قتل المسلمين لأنهم أهل ردة.. وأعمال الجبهة الإسلامية في الأمريكان تتحدث عن نفسها.. إنكارها ومحاولة إقناعي بإنكارها تصرف عجيب.. وإلا.. طالما الجبهة سَخَّرت قواها لقتال عناصر المقاومة العلمانية باعتبارهم مرتدين، لِمَ تم اعتقالي إذن؟ لم يُعتقل ويُقتل كل من ينتمي للجبهة؟ إنه لخليق بنا إذن أن نتلقى الدعم والتسليح من الأمريكان.

ثم أردف الشاب وهو يخفض صوته فجأة، ويخفف من حدة نبرته إن كان قد احتدّ من دون قصد:

- الجبهة كانت شوكة المقاومة الوحيدة الباقية في البلاد.. الجبهة كانت تقتل الأمريكان كل يوم.. الجبهة كانت من الموضوعات الرئيسية التي بنى الرئيس الأمريكي الجديد حملته الانتخابية عليها.. الجبهة هي من يحشد لها الأمريكان الآن قضهم وقضيضهم.

أومأ حسام موافقًا بعض الموافقة، وقال:

- لا أقول إنكم لم تضربوا الأمريكان. ضرب الأمريكان كان ضرورة لاكتساب شرعية الوجود. لكن الأذى الأكبر، حصل للمدنيين.. حصل للمصريين.

هزّ عمر رأسه رافضًا مرة أخرى، وقال:

- الخسائر المدنية أمر حتمي في الحروب.. الحرب تدور في مناطق مكتظة بالمدنيين، والضرب بيحصل في مناطق آهلة بالسكان.. إحنا كنا على علم إن هناك فصائل أخرى، تدَّعي إنها إسلامية، تدَّعي الانتساب للجبهة، تقتل المدنيين، وتفجر الأسواق، وتقطع

fb/mashro3pdf

الطريق على الناس.. كنا نعلم أن هذه الفصائل في أصلها إجرامية، وإنها مدعومة منكم، ويديرها ضباطكم ومخبرينكم وبلطجيتكم.. مصر مرتع لأجهزة المخابرات من كل الجهات، والقتل الجماعي الناتج عن الفوضى أمر طبيعي.

قال حسام بلهجة عنيدة، قوية، متعالية:

- كلامك يناقض نفسه. من ناحية أنت تبرر الخسائر المدنية، وتقلل من أثرها، أو تستخف بها. ومن ناحية ثانية، تلقي باللوم كله على...

وأردف قائلًا وهو يبرز مخارج الألفاظ ويضغط عليها:

- ... فصائل.. إسلامية.. مندسة.. يديرها.. ضباط.. ومخبرين.. ومجرمين.

وضرب بكفه المبسوطة على المنضدة ضربًا خفيفًا متزامنًا، قائلًا بهدوء، وهو يوشك أن يضحك ساخرًا:

- إنت الظاهر عليك مُغيَّب يا شيخ عمر. إنت عشت أيامك في الجبهة الإسلامية وإنت مُغيَّب عن الواقع. أبو زكريا خدك معاه لبرجه العالي، واهتم بتأمين نفسه وأهله، أكثر من اهتمامه بالعمل الميداني.

وتبسم اللواء فعلًا الآن بسخرية، وقال مبرقًا بصره:

- زيّك تمامًا يا شيخ عمر. لما جد الجد، إنت كمان اهتميت بتأمين نفسك وأهلك، أكتر من اهتمامك بالقضية والجهاد والإخوة. ليه بترجع دلوقت عن الذكاء والبراجماتية وحب البقاء؟

لا بد أن عمر يبذل الآن جهدًا خارقًا كي يحافظ على تماسكه الظاهري. لا بد أنه يعاني ألمًا هائلًا. لا بد أن احمرار وجهه الشديد هذا، وطأطأة رأسه الدائمة تلك، ليسا إلا دليل دامغ على احتدام صدره غيظًا وقهرًا. بيد أن اللواء حسام لم يرضَ كل الرضا عن رد فعل عمر المبتسر هذا، الذي لم يُشِر في ظاهر الأمر إلى شيء. ربما طفا على وجهه ما يوشك أن يكون تأثرًا، أو انزعاجًا، لكن ليس إلى حد اعتباره اضطرابًا أو زعزعة. ولو بلغ اللواء من المبالغة في تقدير التغييرات البادية على أسيره هذا الحد، فهذا بكل تأكيد يُعد من قبيل خداع النفس أو التمادي في هذيان التصور.

خيم الصمت على الغرفة البيضاء لبرهة من الزمن، دهش خلالها حسام من اعتدال حرارة الغرفة، قياسًا على اشتداد الحر بالخارج. عدَّ هذا من قبيل المبالغة في تهيئة

fb/mashro3pdf

أسباب الراحة في الزنزانة، فعزم من ثم على أن يصدر أوامره بإنزال مستوى الرفاهية إلى حد معقول.

وقال أخيرًا برصانة:

- ظهرلنا إننا كنا مقدرين التنظيم بأكتر مما يستحق، وكشفتلنا الأيام اللي فاتت إنه كان بيتآكل من داخله، بمعزل عن الجيب اللي اختبأ فيه أبو زكريا ومقربوه. نغمة التشدد طغت على أي نغمة أخرى، ودائرة التكفير والتكفير المضاد اتسعت واتعقدت، وقاتلت بها الفصائل بعضها. السنة دي فقط، سبعمية شخص من التنظيم، من مراتب مختلفة، تم إعدامهم، واتعلقت رؤوس بعضهم في الأسواق.

أشعل حسام سيجارة أخرى، الأمر الذي شد انتباه عمر، فنظر إلى الدخان المتصاعد بحسد واستطلاع قوي، فكأن بصره جذب إلى الدخان جذبًا، وكأنه لم ير دخان تبغ في حياته من قبل. دُهش حسام له مرة أخرى، وأقر لنفسه، على سبيل الأمانة المهنية، بعجزه عن قراءة هذا الإنسان على نحو دقيق، ثم قدّر بالظن أن الأسير يمر بحالة اختلال آنٍ، فصلته عاطفيًا عن الوسط المحيط، وعن نفسه أيضًا، فكأنه لم يعد هو نفسه، وكأنه عاجز في الوقت الحالي عن استبطان مشاعره، وكأنه مجرد مراقب لذاته من بعيد. شعور بالغربة، وتكلس في المشاعر، وردود أفعال تبدو وكأنها آلية. تلك في جوهرها -كما يعلم اللواء- تُعدّ آلية من آليات التلاؤم، ودفاعًا من الدفاعات النفسية التي قد يلجأ إليها العقل البشري، من أجل السيطرة على الكروب والتوترات، أو التقليل منها، أو تحملها على أقل تقدير.

حدّثته نفسه بأن ينصرف، وبأنه ما من فائدة تُرجى من الحديث معه، لكن حدسه الخاص أوحى إليه بأن أمر هذا الشاب يتخطى الاستنباطات النفسية البسيطة، وأن استجاباته تلك هي في حقيقة الأمر أعقد مما تراه الأعين.

وهكذا وضع اللواء ساقًا على ساق، وواصل التدخين وهو يتفحص عمر، ثم قال مستأنفًا كلامه:

- ولا ننسى في حديثنا عن طبقات التنظيم، أن نذكر جيوش المنتفعين والقشاشين، الملتحقين بلوائكم يا شيخ.. وما أكثر هؤلاء! تجار السلاح، تجار الأراضي، تجار مواد البناء، سماسرة أوراق الهوية، سماسرة وثائق الملكية، سماسرة تهريب المهاجرين للخارج،

fb/mashro3pdf

سماسرة تهريب المجاهدين الأجانب للداخل.. ودول بالذات.. عندك علم وصّلوا تسعيرة تهريب النفر المجاهد لكام؟

هز عمر رأسه نافيًا علمه، فقال اللواء حسام، تاركًا السيجارة تتدلى من طرفي شفتيه، وباسطًا أصابع يده الخمسة أمام وجه عمر:

- خمسين ألف دولار على الراس، واسطة نقل.

ثم مال إلى الأمام قائلًا وهو يتفرّس في أسيره:

- لعلمك.. جميع هؤلاء المقاتلين الأجانب، تتم تصفيتهم هذه الأيام. لن نبقي منهم أحد. وعشان أكون صريح معاك. خطتنا قائمة على تصفية تنظيم الجبهة الإسلامية قدر المستطاع، عشان نرتاح من أي وجع دماغ مستقبلي.

ثم أردف يقول مُضيّقًا عينيه:

- إنتم أحفاد ابن ملجم يا شيخ، ولا يأتي من ورائكم إلا الخراب يا شيخ عمر.. خلال فترة حكمكم الرشيد، استبحتم الدم والعرض والمال في كل المناطق الخاضعة لسيطرتكم، بدعوى إنهم مرتدون أو سارقون أو زناة، أو خارجون على الإمام أو الإجماع، أو خونة.

قالها حسام، وسكت عن الكلام برهة. إن عينيه في نشاطهما، والتماعهما، كمثل سابر الأعماق. آلة مجهزة بأضواء كاشفة قوية، تبدد ظلمات الأغوار. وقد بلغتا من قوة النفاذ أن عمر تحاشى قدر الإمكان النظر إلى وجهه، وكأنه يحرص كل الحرص على أن يخفي ما بداخله. غير أن نظرات حسام، من جهة مقابلة، كانت قد بلغت من شدة التوغل وعمق النفاذ وحِدّة الاستفزاز أن عمر لم يقدر على أن يواصل التحصن بالصمت، فقال بصوت خافت، يكاد أن يكون كئيبًا:

- يمكنك يا سيادة اللواء أن تدّعي ما شئت، لكن تظل الحقيقة هي هي.

- وما هي؟

- مناطق الجبهة الإسلامية كانت آمنة.. وكانت مستقرة.. وكانت تسير فيها شؤون العباد ويساس فيها الناس بما يرضي الله تعالى.

رفع اللواء حسام ذراعيه على حين بغتة، وهتف ساخرًا فكأنه فرح بما قاله عمر:

- استقرار.. أمان.. سياسة.. حدود.. الله أكبر.. الله أكبر!

fb/mashro3pdf

ثم عاد فأردف بجدية مفاجئة، وبما يوشك أن يكون غضبًا:

- همشي معاك في كلامك يا شيخ، وهقول إنكم فعلًا فرضتم النظام بقوة القهر. لكن إنت تعلم إن التنظيمات المتطرفة مثل تنظيمكم تحتاج إلى حاضنة شعبية، وتحتاج إلى تصدير صورة معينة إلى العالم الخارجي.. وإلى تصدير فكرة محددة إلى الشباب المسلم في كل العالم.. تجسد خبرته.. تجسد خبريته.. تتحدث عن منجزاته.. تدل على قدرته على إدارة دولة.. تشير إلى صموده.

وأضاف قائلًا بحقد، وهو يدعس سيجارته في بلاط الأرضية إلى جوار سابقتها:

- همشي معاك، وأقول إنكم فعلًا نفّذتم أحكام عرفية في حق مجرمين، وأوقفتم فوضى القتل والجريمة، وفرضتم بقوة السلاح نوع من الأمن.. هسمح لنفسي إني أبالغ وأقول إنكم قاتلتم الأمريكان، وقتلتم وأسرتم منهم.. مرة هجوم على معسكر هنا.. مرة استيلاء على مستودع ذخيرة هناك.. لكن أي طاغوت من الطواغيت يفرض الأمن هو الآخر بالقوة والسيطرة الأمنية، ويورط نفسه في قتال، معركة، يكتسب بها الشرعية أمام شعبه.. ومن ناحية تانية، خليني أذكر لك جانب من جرائمكم في حقوق رعاياكم، حسب تقارير «هيومان رايتس ووتش»، اللي إنتم مغرمين بيها، وتستندوا إليها في إدانة الأمريكان والنظام المصري.

هز عمر رأسه بمشقة رافضًا كارهًا، أو هكذا خُيّل إلى خصمه، ثم قال باحتقار، عدّه هو نفسه في اللحظة التالية مباشرة اندفاعًا غبيًا:

- منظمات حقوق الإنسان أغلبها مُسيَّس ومزدوج المعايير.

ضجّ حسام بالضحك وقد سرّه التبدُّل غير المرتقب الذي اعترى أسيره أخيرًا، فكأنه يشعر بنشاط وخفة مفاجئين، وبنشوة وارتياح ومرح. ضحك بقوة وشراسة، ثم قال وقد سمح عمدًا لفورة الغضب أن تستبد به:

- دلوقت مزدوجة المعايير؟! يا منافقين يا صراصير؟! اسمع.. لجان التحقيق الدولية.. منظمات حقوق الخرا.. كلهم اتفقوا على إن تنظيمكم القذر سيطر على مظاهر الحياة والخدمات الأساسية بالإرهاب.. كلهم قالوا إنكم تعمدتم إخفاء الإرهابيين وسط المدنيين.. كلهم اتفقوا على إنكم كنتم بتحشدوا المدنيين في مناطق عسكرية تابعة لكم لو وصلتكم أخبار عن غارات جوية على وشك الحدوث، عشان ترفعوا أعداد

fb/mashro3pdf

الضحايا المدنيين، وتظهروا على شاشات الفضائيات بمظهر الضحية.. كلهم اتفقوا على إنكم جندتم الأطفال الصغار لاستعمال السلاح والقتل.. اتفقوا على إنكم أبحتم الرق واستعبدتم القُصَّر جنسيًا.. جبروتكم وصل لدرجة منع وصول المساعدات الغذائية والطبية لآلاف المدنيين المحاصرين تحت سيطرتكم.

جثم على الغرفة ثقل شديد، وسرى التوتر في أنحائها. تحفز حارسا اللواء، وبدت عليهما دلائل الاستعداد للهجوم على السجين، وإشباعه ضربًا وسحق عظامه ودق عنقه لو لزم الأمر. زاغت عينا عمر، وأدرك أنه ارتكب خطأ فادحًا بدخوله إلى نقاش تافه عقيم كمثل هذا النقاش، وندم على ما بدر منه أشد الندم. حدثته نفسه بأن يرد بمرارة، بأن يصرخ قائلًا: «هذا كذب.. هذا دجل». أراد أن يصرخ.. أراد أن يقول إنهم هم من حاصروا المدنيين، وهم من ضغطوا على العوام بالتجويع.. أراد أن يُذَكِّر خصمه بآلاف الشهداء، الذين قضوا نحبهم في سبيل فتح طريق أو حفر نفق لتهريب غذاء أو دواء.. أراد أن يُذَكِّره بأرتال النظام ومجنزرات الأمريكان، التي لم تدعهم ينعمون بيوم لا تُحفر فيه القبور.. أراد أن يُذَكِّره بغارات الطيران وقصف المدفعية والحصار والتجويع وتسريب السلال الغذائية المسممة.. أراد أن يُذَكِّره بملايين الجرحى والمعاقين والمشردين واللاجئين.. أراد أن يُذَكِّره بفناء العباد ونهاية الإسلام في البلاد.. أراد أن يقول هذا وأكثر، غير أنه لاذ بالصمت.. تشددت عضلات وجهه، وتصلبت قسماته، وانحطت ثورة الانفعال في نفسه إلى حضيض بارد مظلم.

خفض عمر بصره، وحط رأسه، بيد أن اللواء لم يكن ليدع تلك الفرصة تمر، فَوَاصَل هجومه قائلًا بضراوة:

- إنتم مخلوقات مشوّهة، تَدِينون بدين شيطان.. أدبياتكم في جوهرها ليست إلا تحريض على الذبح والكراهية.. إنتم أولاد سفاح، أبناء مخيمات، أبناء عشوائيات.. بتقول مقاومة؟! المُحصلة إيه؟! خدوا إيه الناس من المقاومة؟ خلقتم جحيم دائم عاش فيه المصريين سنين، بدون أمل في الخروج أو الحياة بصورة طبيعية.

أمسك عمر عن الكلام، في الوقت الذي جوَّلت الأفكار في دماغه. علّه أراد أن يقول: «أنا لا أتعجب من أن يأتي إنسان مثلك بمثل هذه المعاني». علّه أراد أن يُذَكِّره بتصاعد عمليات التفتيش في جميع الأنحاء لتجريد المصريين من السلاح، وبهدم البيوت وقتل

fb/mashro3pdf

الناس بالاشتباه. علّه أراد أن يقول إن الأمريكان كانوا يداهمون المنازل، ويعرّون النساء، ويخرّبون المؤن، ويخلطون المواد الغذائية لإفسادها. علّه أراد أن يقول إن الحكومة المصرية تركت الناس تموت جوعًا، وشيدت معسكرات الاعتقال الجماعي لمئات الآلاف، وشنت الغارات على المناطق السكنية كل يوم. ضربات جوية «ذكية». تفجيرات بمركبات ملغمة. مذابح جماعية بالأسلحة البيضاء. علّه أراد أن يُذَكّره وأن يُذَكّر نفسه بالمُصبحات والمُمسيات.. غارات القتل في آخر الليل، ومطلع الفجر.

علّه أراد أن يُعبّر عن هذه المعاني. لكن مهما يكن من أمر، لم يفتح فمه، ولا سيما واللواء يقول مُعنّفًا، محاولًا تمطيط الحديث بكل سبيل وحيلة:

- الفساد طال القيادة العامة المقدسة للجبهة الإسلامية يا شيخ. كلمني كده عن قادتكم الميدانيين اللي «فروا في الزحف»، واللي تعاونوا مع الأمن. من تظن -يا شيخ عمر- ساعد الأمريكان في جمع معلومات عن كل حي في القاهرة، عن كل بيت وشقة وعائلة، عن نوعيات الأراضي، عن أملاك السكان، عن الميول السياسية؟ ليه في رأيك أبو زكريا عاش سنوات حياته الأخيرة وهو خايف، مختبئ، معزول، متشكك حتى في أقرب الناس له؟

وضم أطراف أصابعه بعضها إلى بعض، ثم قال مهدئًا من شدة لهجته على نحو مفاجئ:

- يا ابني.. كل قادتكم، بلا استثناء، قُتلوا بمعلومات من الداخل.. وأنت خير دليل على هذا.. الأسوأ من حالات التعاون، اللي ممكن أسمحلك بإنك تقول إنها تمت تحت التهديد أو التعذيب.. الأسوأ من ده، إنكم تحالفتم مع الأمريكان، بقصد أو بدون قصد.. إن كانوا همّ حاصروا مناطقكم وجوعوا الناس، فإنتم ضيقتم على الناس وأثقلتم حياتهم بالتشديد والبطش، لحد ما هزمتوهم معنويًا.. ما عادش فيهم قدرة على الاستمرار في دعمكم، أو تحمل عبء معاشكم وسطهم. في النهاية، أصبحتم طرداء منبوذين في قلب مناطق نفوذكم، وأصبح كل اللي حواليكم، مخبرين محتملين.

أعمل عمر فكره فيما يُقال، وانتهى إلى أن الله قد أعطى هذا الرجل من الاحتيال والخفاء والخفة ما قرّب صفاته إلى صفات شياطين الجن. إنه يخبر بوقائع ملفقة فكأنها حقائق اطّلع عليها في بعض نواحي السماء، أو استمع إليها مستخفيًا كما يسترق الجن

fb/mashro3pdf

السمع. إن هذا الكذاب الأشر، هذا المتجبر الأفّاك الدجال، يختلق الرواية ويدعي القول ويفتري الخبر، ويُتِم خلق الكذبة وإبداعها وطرحها على لسانه من دون أن يختلج جفنه، فكأن الكذب عمل انعكاسيّ إيقاعي طبيعي لعضو من أعضاء جسمه، كنبض القلب ورفّ العين. إنه يُلبِس الحق بالباطل ويكتم الحق، ويصرف الألفاظ عن ظاهرها، ويزيف الأحداث ويلوي الحقائق، ويزيد مع كل كلمة مئة كذبة.

تحرك عمر فيما بدا لحسام وكأنه يريد أن يقول شيئًا، وخُيِّل إليه أن شيئًا من الألم قد اعترى وجهه، فسكت مُتيحًا فرصة التعقيب لأسيره. بيد أن الأسير لم يُعقِّب. حرك حسام يده جيئة وذهابًا، وقال مستحثًا إياه على التعبير عن رأيه:

- اتكلم يا شيخ يا عمر. أنا مهتم جدًا أعرف وجهة نظرك.

مضت لحظات صمت أليمة، قال بعدها عمر بلهجة جافة:

- لا رأي لي في هذا الموضوع.

أطلّ الغضب من عيني اللواء جليًا، وهتف بأسيره بصوت جَهوري متوعِّد غليظ:

- اتكلم يا بني. مش عايز أسمع أنا كلام من نوع «مليش رأي». سمَّعني رأيك بصراحة، حتى لو تعتقد إن فيه وقاحة. عارضني ولا يهمك، بس اتكلم، بدل ما أطلق عليك الرجالة يعجنوك.

ضم عمر شفتيه بكرب، ونظر عن يمينه وعن شماله من دون أن يرفع بصره عن المنضدة، أو يرفع رأسه إلى خصمه. ثم قال أخيرًا، بصوت منهك ونبرة رتيبة تخلو من الانفعال:

- رأيي، إنك إنت وسدنتك، خرجتم عن الفطرة السوية لمخلوقات الله تعالى.

- إزاي؟

قال عمر ببطء:

- كل أمّة.. سواء مُتحضِّرة أو بدائية.. سواء إنسانية أو حيوانية.. تؤمن بأن أرضها هي وطنها.. منطقة نفوذها.. مستودع مواردها.. وتكون بالمحصلة مستعدة لأن تحارب، لأن يموت أفرادها، كي تبقى مهيمنة على هذا الوطن. لا يمكن تقبل بوجود سيد غريب، ولا حتى بشريك غريب.. كل أمة في ظروف الحرب والكوارث، ينسى فيها الفرقاء الخلاف.. ينظمون الصفوف، ويقاتلون إلى أن يستردوا الأرض.. مهما طال عليهم الأمد.

fb/mashro3pdf

قال حسام يرد على أسيره، وقد بدا عليه بوضوح الشعور بالارتياح والرضا:

- كلامك يا شيخ تنقصه الدقة والواقعية. مليان مُثُل صِبيانية وتعميمات ساذجة، لا وجود لها في الأخلاقيات المعاصرة. أنت تريد الموت، وتشغل وقتك ومجهودك بالتفكير في الدار الآخرة، ولو فنت الأرض وما عليها.. لكن أنا مسؤول، راعي، ومسؤوليتي تحتم عليَّ النظر إلى الحياة الدنيا بشكل واقعي، وتفرض عليَّ التكيف.

ووجّه إلى أسيره سبابته متحديًا، وقال بلهجة تنم عن الاستعلاء:

- إنت عايز تحقق هدفين في نفس الوقت.. تحرير أرضك، وبناء دولتك، في نفس الوقت، وحالًا.. وتدّعي إنك ترفض أي خيار آخر، بما في ذلك التفاوض، ولو على سبيل التكتيك. إنت تعمل لتحقيق آمال عظيمة جدًا، بوسائل تدور حول التضحية والشهادة، في حين إن الواقع غير كده.

لم يرد عمر على الفور، لكنه أحس أن اللواء ينظر إليه مستطلعًا منتظرًا، فقال محركًا لسانه بثِقَل، غاضًا طرفه، وقد ظن أن أسلم السبل هو طرح الأسئلة، عِوَضًا عن التعبير عن وجهات النظر:

- إيه هو الواقع في رأيك؟

رد حسام عليه قائلًا بهدوء وتريث:

- الواقع إن مصر كانت انهارت.. انتهت.. من اليوم اللي دخلنا فيه الحرب.. مصيرنا كان اتحدد.. ما تبع ذلك كله كان تحصيل حاصل.

قال عمر معيدًا القول الأخير مرة أخرى، متسائلًا بشرود ذهن:

- تحصيل حاصل؟

- مسؤوليتي الحالية، هي شد عَصَب الدولة.. لملمة ما تبقى منها.. إنتم لو عايزين تروحوا الجنة روحوا لوحدكم، متاخدوش البلد كلها معاكم؛ فيه ناس عاوزة تعيش.. كل الناس عاوزة تعيش.

هكذا قال حسام بصوت هادئ، خالٍ من الغضب. صمت مفكرًا لبرهة، ثم قال مستطردًا، وهو يهز رأسه ببطء:

- بص يا بني.. لو عندك قوة، تقدر تفرض واقع جديد على عدوك.. لكن لو لا تملك القوة، يبقى لازم تكيف.. معندكش قوة، مفيش قتال.. دي حقائق الموقف البسيطة.

fb/mashro3pdf

خيّم الصمت على الغرفة من جديد، فيما أخذ قلب عمر يخفق بقوة. لاح في فكره من جديد أمر بلغ من الأهمية أن تضاءل إلى جانبه كل ما عداه من أمور نظرية عديمة النفع وذرائع غير ذات غناء. أمر بلا ريب خسيس، سوّلت له به نفسه، فكأنه يسمع في أذنيه كلامًا خفيًا مختلطًا لم يبينه، إنما فهم معانيه فهمًا وافيًا دقيقًا. وجود اللواء هنا معه، وجلوسه إليه دون حائل، هما بكل تأكيد مصادفة ماهرة في توقيتها، ولا يصح أن يُضيّعها من بين يديه. لكن هل يتجاسر على السؤال، مع إدراكه ما قد ينطوي عليه ذلك من صد وعدم قبول؟ بالإضافة إلى خرم المروءة، وضياع الكرامة، وما يتبع ذلك من تحقير وإذلال. خس فعلك وقولك يا عمر. تعست وانتكست وإذا شكت فلا انتقشت. كساك الله والعري كان خيرًا لك، وأطعمك والجوع كان خيرًا لك، وأعطاك الحياة والموت كان خيرًا لك. ما لك أنت والكرامة؟! ما لك أنت والمروءة؟!

كانت الغصة ما تزال في حلقه، مع حزن وغم شديديْن متواصليْن، حرص على أن يفرشهما على صفحة وجهه بأكبر قدر من الصدق والعفوية، فلم يكن طوال الجلسة إنسانيًا كمثل ما كان في هذه اللحظة التي رفع فيها رأسه، وقال لخصمه بصوت متغيّر فيه خشونة:

- أنا متفهم تمامًا يا سيادة اللواء حضرتك جاي ليه النهارده.

مال حسام إلى الأمام، وأسند ذقنه إلى قبضة يده، مصغيًا بانتباه إلى عمر. قال الشاب وقد باشر النظر إلى وجه خصمه على نحو مباشر، لأول مرة منذ بدأ الحوار:

- إنت جاي عشان تعلن الغلبة عليَّ، وعلى أي فكرة ممكن أكون مثلتها في يوم من الأيام.. جاي تقولّي إن التمن اللي الدولة هتدفعه بالإفراج عني، لا يقارن بحجم المكسب اللي حققتوه مني.. جاي عشان تثبت إني غلط.. إني مش بس أجرمت في سبيل قضية خسرانة.. لأ، أنا أجرمت في سبيل لا شيء.. إني أسوأ من المرتزقة الإنجليز والآيرلنديين والرومانيين.

لاحت على وجه عمر اختلاجات تشنجية، بخاصة أعلى الوجنة اليسرى، كأن ثمة خللًا أصاب ما دون أضراسه من أعصاب. قال بحقد واضح لا لبس فيه:

- إنت جاي عشان توضحلي إن المنهج كله غلط والعقيدة فاسدة.. كل ده الكلام أنا فاهمه، ويستوي عندي الآن.. معادش شيء يهم.. لو تحب تسمع اعتراف مني بصحة

fb/mashro3pdf

كلامك، لو تحب أكتبلك إقرار وأذيّله بتوقيعي، موافق. ميهمنيش إني أثبت أي فكرة أو عكسها، ولم أعد أبالي بشيء. أنا أتفه بكتير جدًا من إنك تجيلي بنفسك، وتحاول تثبت أي شيء قدامي.

أسند اللواء ظهره إلى ظهر مقعده، وقال لأسيره باحتقار:

- ميبقاش عقلك خفيف كده يا شيخ. أنا أحسبك إنسان ذكي، مخلص، سليم النوايا. أحسبك إنسان مثقف، فطن، صلب الإرادة. أحسبك إنسان طموح. ويُحزنّي إن ولد زيك ينتهي إلى هذا المصير.. يقاتل في سبيل قضية ميؤوس منها، مشكوك في جدواها، يقاتل تحت قيادة ناس مشبوهة، فاسدة.

وخفف من حدة لهجته قليلًا قليلًا، وهو يواصل كلامه قائلًا، وقد آن له أن يفتح حافظة الأوراق أمامه، وأن يعبث في مجموعة الأوراق الرسمية المُثبّتة في كعب الحافظة:

- صدق أو لا تصدق.. أنا أضمر لك عاطفة أبوية صادقة، وأكره رؤية شاب طيب مثلك يعتنق أفكار شاذة.. أنا أعتقد.. أحب أن أعتقد إنك تعاونت معنا من دافع وطني بحت.. فعلًا.. البلد كلها.. كلها.

سكت عن الكلام لحظات وكأنه يفكر، ثم قال مردفًا:

- البلد كلها بتتغير.. الأمريكان بيحشدوا قوات مهولة.. بيخططوا لغزو جديد.. مئات الآلاف من الجنود والسلاح الثقيل والطائرات في طريقهم إلى مصر.. أي تمرد، أي مقاومة، أي مناطق معزولة أو مقفلة أمام القوات، سيتم حصارها وقصفها واجتياحها.. أي صورة من صور المقاومة سيتم استئصالها تمامًا.. المصريين مقبلين على محنة جديدة.

أمال عمر رأسه إلى صدره مجددًا وأمسك عن الكلام. أرخى عينيه إلى الأرض بيأس مكتمل، فيما ينمو إليه صوت حسام وهو يقول ببطء:

- لكن بعد المحنة، الحرب هتنتهي.. البلد هتشم نَفَسها.. البلد هتتغير بإذن الله.. وإنت مش إنسان سافل ولا ضايع.. أنا أراهن عليك.. أراهن إن ممكن يكون لك مكان برة الزنزانة دي.

لم يبدُ على عمر أنه سمع ما قيل له. شرد بصره إذ يطوف النظر في الأشياء من دون أن يراها لانشغال خاطره. الأرضية الزرقاء، إطار باب الزنزانة الفولاذي، أحذية حارسي اللواء. ثم آن له أن يرفع رأسه إلى خصمه وأن يسأله فجأة، وعلى نحو مباشر:

fb/mashro3pdf

- عملتلي إيه في موضوع السفر؟

حملق إليه اللواء، وقد دهش لهذا التعجل الأقرب إلى الانفلات أو التداعي المباغت، لكنه استجاب دون إبطاء، وقال متسائلًا وهو يقطب جبينه:

- إنت عايز تسافر لمين؟

- لأهلي.. إنت عارف.. إخواتي هناك.

مسح حسام على ذقنه الناعمة، وقال متسائلًا، مُضيِّقًا عينيه:

- وتفتكر.. هيحبوا يستقبلوك هناك؟ ولو معندهمش مانع.. إنت ترضى تفسد حياتهم بوجودك؟

- أنا مش هكون عالة على حد.. أنا عشت واشتغلت قبل كده في أمريكا، وأعرف أدبر أموري وحدي هناك.

هز حسام رأسه يمنة ويسرة بما يشبه الشفقة، وقال موضحًا:

- مش بقصد الشغل أو الفلوس. إنت نلت عفو شامل بالفعل، لكن ده لا يعفيك من الشبهة. هتكون طول الوقت تحت عيون الأمن.

وجم عمر، وحار في أمره واضطرب. لم يعد يدري ما ينبغي فعله أو قوله، وكان توتره جليًا إلى حد أن حسام رآه بوضوح تام، فقال وهو ينظر إليه نظرًا شديدًا:

- أنا مش عايز أخدعك بأمل كاذب. أنا اتكلمت في الموضوع بالفعل، وقوبلت بالرفض.

هاجت نفس الشاب، لكنه تمادى في التشبث بالأمل. قال وشفتاه ترتعشان ارتعاشًا خفيفًا لا يكاد يُرى، بلهجة تكاد تكون راجية:

- يعني إنت كلمتهم؟ نقلتلهم طلبي؟ ضغطت عليهم؟

أومأ حسام، وقال بتوكيد:

- بالفعل بذلت قصارى جهدي. لكن الرفض كان قاطع. تهمك خطيرة يا شيخ عمر، والعفو لا يرفع عن إيديك الدم. همّ لن يتحملوا مسؤولية إصدار تأشيرة دخول أو إقامة. استحالة يسيبوك تدخل الأراضي الأمريكية وتتجول وتشتغل بحرية.

مرت عدة دقائق على هذا القول الأخير، التمعت فيها عينا عمر الخضراوين بالدمع. نظر حواليه ببطء وعجز، ثم لم يلبث أن عوج شفتيه وهو يبتسم ابتسامة مسمومة بائسة شامتة متهكمة ذليلة، كل في آن واحد. أشعّ وجهه الحسن نارًا، وانبعثت من روحه

fb/mashro3pdf

غير المرئية مقت قاتم محسوس. بيد أنه أحس في الوقت ذاته بالانزياح التدريجي لحِمل كان قد جثم على صدره وأثقل عليه طوال الأسابيع الماضية. حِمل مؤلم، مُشِلّ، له ضغطة غاشمة وأخذة شديدة. حِمل كان قد سماه «الأمل»، وقد نجح الآن في أن يتخلص منه إلى غير رجعة.

*****

fb/mashro3pdf

كانت نيفين أندرو صبري في العاشرة من عمرها، وكانت خائفة. لم تكن أمها، السيدة رانيا سمير، تقل عنها خوفًا وتوجُّسًا، غير أنها لم تحبس خوفها في نفسها، إنما صرّحت به إلى جيرانها مرارًا وتكرارًا. كانت نيفين طفلة مصرية جميلة، غير أن نعمة الجمال هذه، قضت عليها وعلى أهلها مضاجعهم، وأذاقتها فيما بعد وأهلها وبال أمرها. جذبت الطفلة عن غير عمد انتباه جماعة من الجنود الأمريكيين، الذين يحرسون نقطة تفتيش تمر بها بصورة شبه يومية، في طريقها من مدرستها إلى قريتها المجاورة لمدينة العبور.

على مدار الأيام الأخيرة، أخبرت نيفين أمها بأن الجنود يتعرَّضون لها ويعترضون طريقها باستمرار، وأطلعتها على تفاصيل هذا الموقف وذاك، وكانت كلها باعثة على القلق. استبدّت بأمها المخاوف، وأكثرت من الشكاية إلى جارتها السيدة شيرين، المرة بعد المرة، إلى أن طلبت إليها شيرين أن تبيت الفتاة معها، خوفًا من أن يُقدِم الجنود الأمريكان على حماقة مفاجئة أثناء الليل. تعهدت الأم بأن تتحدث إلى زوجها في هذا الشأن، وبأن تبذل قصارى جهدها كي تجيبها إلى طلبها هذا، لكن الأب رفض أن تبيت ابنته في بيت غريب. أطلعت الأم زوجها على أبعاد الموضوع، وعَرّفته مخاوفها، فلم يزد عن أن يطمئنها، وأن يبذل غاية وسعه لإزالة مخاوفها.

الأب هو أندرو صبري، طبيب أسنان سابق، وعامل بناء حالي، يقضي معظم يومه كادًّا في قيظ حارق، ويعود بعد أن تحمرّ الشمس، فيسقط مهدمًا على حصيرته، وينام إلى طلوع شمس اليوم التالي. لم يكن مُلِمًّا على نحو واضح بأخلاقيات الجنود الأمريكيين، القائمين على حراسة نقطة التفتيش القريبة. واحد منهم على وجه التحديد كان يهدد المارة ويسبهم، ويقول لهم علنًا إنه إنما جاء إلى مصر كي يقتل الناس. هو الرقيب شون جاريت فوجل، من غرب تكساس، ويبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا. شهد زملاء له فيما بعد بأنه اعتاد على التحديق إلى النسوة والبنات المصريات، والتحدث جهرًا وبغير اكتراث عن القتل كرياضة خفيفة مفضلة.

كتب المراسل الحربي الشهير ماثيو بريكمان عن الرقيب شون في جريدة الواشنطن بوست، وقال إنه التقاه خلال مأدبة عشاء أعياد الميلاد في شهر يناير، وكانوا آنئذ في قاعدة عسكرية صغيرة، تبعد نحو عشرين ميلًا عن وسط القاهرة. قال له شون: «ليس

fb/mashro3pdf

قاعدة عسكرية صغيرة، تبعد نحو عشرين ميلًا عن وسط القاهرة. قال له شون: «ليس القتل صادمًا مثلما كنت أظن. كنت أظن أن قتل أي شخص سوف يمثل تجربة فاصلة. وإذا بي أجد نفسي أقول بعد مقتل أي أحد: حسنًا، أيًا كان». بحسب رواية ماثيو بريكمان، هز شون كتفيه مستهجنًا، وأضاف: «منذ يومين اثنين، أطلقت النار على شخص رفض أن يوقف سيارته عند نقطة تفتيش مرورية، وإذا بي أشعر بأن الأمر وكأنه لا شيء. قتل البشر هنا مثل دعس النمل. يمكنك أن تقتل شخصًا ما لأي سبب كان، ثم تطلب بعض البيتزا، هكذا ببساطة».

قال ماثيو إنه عد كلام الرقيب شون عندئذ مثالًا صارخًا على الصدق والصراحة، وكان قد مضى عليه في مصر زهاء ستة أشهر، أنفق جل وقته فيها مع «خنازير برية منفلتة» من أمثال شون -على حد قوله- وكانوا جميعًا فتيانًا ينقصهم النضج، جاؤوا من بلدان صغير منعزلة في الريف الأمريكي، أو من أحياء فقيرة متدنية الخدمات في المدن الأمريكية الكبرى، بحثًا عن الإثارة والمغامرة والنقود. لم يُدهش المراسل الحربي من كلام شون، بل احتسبه نوعًا من المزاح الثقيل، المخلوط بالاستخفاف بالموت، وهما عَرَضان ملازمان للجنود العاملين في مناطق الحرب.

بعد عدة أشهر، رأى ماثيو بريكمان الرقيب شون على الصفحة الأولى من جريدة «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» وغيرهما، وهو يقف خارج مبنى المحكمة الفيدرالية في ولاية كارولينا الشمالية، حيث أقر بأنه غير مذنب، وكان قد اتُّهم رسميًا بالاغتصاب والقتل الوحشي لطفلة مصرية تبلغ من العمر عشرة أعوام، اسمها نيفين أندرو صبري، وبالقتل العمد لأبويها، رانيا جورج سمير، وأندرو صبري، وأخويها، هاني وسمير.

بعدها بأربع سنوات، أدانت المحكمة الاتحادية في ولاية كنتاكي الرقيب السابق شون جاريت فوجل، بتهمة الاغتصاب والقتل العمد المتعدد. سعى المدعون إلى إنزال عقوبة الإعدام به، غير أن المحلّفين فشلوا في الوصول إلى اتفاق إجماعي بشأن إعدامه. حُكم على شون بالسجن مدى الحياة، واحْتُجِز في سجن الولايات المتحدة الفيدرالي المشدد، في ولاية أريزونا، وأُعلنت وفاته في الصحف، بعد يوم واحد من انتحاره شنقًا في زنزانته.

*****

fb/mashro3pdf

أراح جايكوب جبهته بين راحتيه، وقلص عضلات وجهه حتى حفرت التجاعيد في بشرته النضرة أخاديد مؤقتة. تألقت شاشة حاسوبه المحمول بتقارير متعددة، ركزت الضوء على حادثة مقتل الأسرة المصرية، التي وقعت في القاهرة قبل أربع سنوات. لم تثِر المذبحة الصغيرة آنئذ ضجة تُذكر؛ لأنها وقعت قرب مدينة العبور، بل لم يُعترَف بها كجريمة ولم يطِر خبرها على نطاق واسع في خضم انتشار العنف في القاهرة في ذلك الوقت، وبخاصة حول مدينة العبور، التي عُدَّت من قِبَل القوات الأمريكية «خندقًا للموت».
أُلصِقَت التهمة في البداية بمتشددين سلفيين، واستجاب المتشددون السلفيون بأن نفوا التهمة عن أنفسهم على الفور، وأدانوا الجريمة علنًا، ثم شنّوا سلسلة هجمات على دوريات ونقاط تفتيش أمريكية. أسفرت الهجمات عن مقتل عشرات الجنود واختطاف عشرات آخرين، وهؤلاء المختَطَفون أُحرقوا أحياءً على الملأ في أقفاص حديدية، وصُوِّرت مشاهد الإعدام بالحرق وسُرِّبت إلى الجماهير على شبكة المعلومات الدولية، في صورة سلسة أفلام قصيرة رهيبة، سُميت «ولكم في القصاص حياة». أثناء ذلك، أعلن تنظيم مصري اسمه «جيش المسيح» مسؤوليته عن إسقاط مروحية هجوم عالية التسليح من طراز «أباتشي»، انتقامًا للطفلة نيفين، وأتبعوا عمليتهم تلك بسلسلة هجمات على مقار الشرطة العسكرية الأمريكية ونقاط التفتيش، أسفرت عن مقتل سبعين شخصًا، وإصابة ما يزيد عن المائتين.

أجبرت تلك الضغوط الحكومة الأمريكية على فتح تحقيق موسّع بشأن مقتل الطفلة نيفين من جهة، وعلى شن هجمات انتقامية غاشمة ردًا على التفجيرات والإعدامات من جهة أخرى. وسرعان ما أُلقي القبض على الرقيب شون جاريت فوجل، وكان في طريقه إلى منزله في مقاطعة أرلنجتون، بولاية فيرجينيا، أثناء إجازته في أرض الوطن، حيث حوكم وأدين وسُجن ومات.

سرح خاطر جايكوب، ولم ينتبه إلا مع وصول تقرير تليفزيون «بي بي سي» القديم عن الحادثة إلى تتمته، على موقع التسجيلات المرئية والبث الحي الإلكتروني «لايف ليك». بلمسة من أنمله أطفأ الشاشة، وجوّل بنظره في كل الأنحاء من حوله. تساءل في نفسه إن كان قد شرد عن الطريق السريع الرابع. تأكد يقينًا من توهانه في بُنَيّات الطريق

fb/mashro3pdf

المجهولة تلك، وسط مساحات منبسطة مظلمة، تفترش بمزروعات حقول الذرة والقمح. كان قد راجع خط سيره البارحة، المرة تلو المرة، في طريقه من العاصمة النمساوية فيينا، إلى العاصمة الهنجارية بودابست. ساعتين بالتمام، قضاهما على طريقي «إيه ٤» و«إم ١» السريعين، ووصل إلى مقصده دون عوائق قبل منتصف الليل بقليل. لم يكن العنوان المسجل في بطائق الهوية الخاصة بخصومه المجريين، بترا وفيليبا وأخيهما، أو ألفيرا وفيولا ولازار، سوى شقة خالية، كائنة في مبنى سكني عتيق بشارع «كالاتي كاروي» في المقاطعة الثانية، على الضفة الغربية من نهر الدانوب. قام بتفتيش المكان، وبحث في كل غرفه بدقة، فلم يعثر إلا على بضع صور فوتوغرافية عائلية قديمة، رأى فيها الشبان الثلاثة في مراحل مبكرة من العمر، وعثر كذلك على كومة من الخطابات القديمة، المكتوبة باللغة المجرية. استعان بحاسوبه لشرح مفردات الخطابات، وتتبع العناوين، وجذب انتباهه خطاب أعيد توجيهه من قرية تسمى «إيجريتس»، تبعد عن وسط بودابست مئة وثلاثين ميلًا تقريبًا.

مشى جايكوب في الشقة على غير هُدى، قبل أن يبعث إلى أمه برسالة محبطة، تنبئها بما عرف، وقرب الثانية صباحًا غادر الشقة، وانطلق بسيارته الألمانية من طراز فولكس فاجن توران، خارجًا من بودابست إلى الطريق السريع الرابع، وسلك سبيله إلى قرية «إيجريتس». بمعاونة تطبيق الملاحة العالمي، استطاع أن يتجنب الطريق السريع الرئيسي، بعد أن قطع عليه ما يقرب من مئة ميل، وانحرف إلى طريق جانبي مهجور، سيئ التعبيد. نظر إلى شاشة حاسوبه، فإذا بأرقام الساعة تشير إلى ما بعد الثالثة صباحًا، فازداد يأسًا على يأس، وعلم أن أمامه ساعتين فقط قبل شروق الشمس.

أوقف جايكوب سيارته إلى جانب الطريق، وأوقف تشغيل محركها وأطفأ أنوارها جميعًا، على ما في ذلك من خطورة، لكنه خلال نصف الساعة السالفة، لم يرَ سيارة واحدة ولا نورًا منبعثًا من أي جسم ثابت أو متحرك على مدى أميال من حرم الطريق الجانبي. مال إلى الأمام وهو يقبض على عجلة القيادة بكلتا يديه، وأسند جبهته إليها، وأغمض عينيه. ترك النعاس يسري إلى جفونه، وترك نفسه تنساب إلى عوالم أخرى، ليست واقعية تمامًا، وليست خيالية تمامًا، إنما جمعت بين الواقع والخيال في تركيبة منسقة متناغمة الأجزاء، تصاعد في خلفيتها صرير صراصير الغيط المحيطة بالسيارة من كل جهة.

fb/mashro3pdf

في هـذه اللحظـات الهادئـة، انجبسـت في ذهـن جايكـوب خارطـة طريـق جديـدة لحياتـه، لـم تكـن متوقعـة عـلى أي نحـو مـن الأنحـاء. إنهـا آفـاق جديـدة تلـك الـتي تتمـدد أمامـه، ويـا لهـا مـن آفـاق! وحريـة جديـدة تلـك الـتي تلـوح لـه، ويـا لهـا مـن حريـة! نبـض قلبـه بقـوة، وهـو يسـتعيد المشـاهد في ذهنـه، بحـزن، بفـرح، ثـم طفـق ينهـل مـن تفاصيلهـا ويسـتلذ بدقائقهـا ويسـتعيد أصواتهـا ويهـز رأسـه أثنـاء ذلـك طَرَبًـا لهـا. نبـض قلبـه باضطـراب المسـتثار المهتـاج، الموشـك عـلى اجـتراع لـذة شـائكة مُحرّمـة. لـم يجـد في نفسـه غضبًـا، ولا في حلقـه أثـرًا لغصـص الغيـظ الـتي كان قـد تجرعهـا مكرهًـا عـلى مـدار السـاعات الماضيـة.

ثم التوت شفتاه في ظلمة السحر، وابتسم ابتسامة خفيفة.

كان الليل قد تأخر كمثل تأخره اليوم، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا.

كانـت غرفـة النـوم ضيقـة كل الضيـق، وقـد بلغـت مـن الضيـق والصغـر أن رجـلًا مثـل هـذا المُلثـم قـوي البنيـة لـم يكـن يقـدر عـلى دخولهـا منتصبًـا، بـل تحتّـم عليـه أن ينحـني، إن أراد أن يدْخـل. التقطـت الكامـيرا الدقيقـة المثبتـة في منظـار الرؤيـة الليليـة الخـاص بـه المشـاهد، وسـجلتها في حاسـوب العمليـات الصغـير، المثبـت عـلى سـاعده. عـلى الفـراش القذر اسـتلقت الطفلـة نيفـين، إلى جـوار أخويهـا الأصغـر سـنًا، هـاني وسـمير. عـلى الأرضيـة الخشـبية المهترئـة، استلقى الأبـوان، أنـدرو ورانيـا، ولـم يتخـذا إلا غطـاءً بسـيطًا للفـراش. رغـم اشـتداد حـر الغرفـة وتكاثـف رطوبتهـا إلى حـد لا يـكاد يطيقـه إنسـان، ألصقـت الزوجـة جسـدها بجسـد زوجهـا، وأحاطتـه بذراعيهـا بقـوة. وقـف الملثـم ينظـر إلى الأسرة، ووضـع مخططًـا سريعًـا للحركـة، يضمـن بـه سـيطرته عـلى سـاكني الغرفـة جميعًـا في آن واحـد.

كان قـد وطـأ الأرضيـة بحذائـه المطاطـي السـميك، ومسدسـه مُشـهَر بالفعـل. لـم يكـن مسدسـه عاديًـا، بـل سـلاحًا صامتًـا خاصًـا مـن طـراز «سـميث آنـد ويسـون جامـا»، مصنـوع مـن البوليمـر، ومصمَّـم لكبـت ضجـة ووميـض إطـلاق النـار وفـوارغ الطلقـات. سـدد سـلاحه، وفي ظلمـات الغرفـة أطلـق النـار مرتـين، ثـم التفـت بوجهـه يمنـة والسـلاح بـين قبضتيـه، وأطلـق النـار أربـع مـرات متتاليـة، بسرعـة وحنكـة. اخترقـت الطلقتـان الأولى والثانيـة جانـب رأس الـزوج في موضعـين متجاوريـن، وقتلتـاه عـلى الفـور. وفي ذات اللحظـة الـتي انتفضـت فيهـا الزوجـة من سباتها، وانفلتـت مـن بـين شـفتيها شـهقة مباغتـة، اخترقـت الطلقتـان الثالثـة والرابعـة مقدمـة رأس هـاني، واخترقـت الخامسـة جانـب سـمير وهتّكـت كليتـه، ومالـت السادسـة وانحرفـت عـن

fb/mashro3pdf

هدفها لتخترق بطانة الفراش. لم يتهيأ لرانيا الوقت الكافي لأن تدرك ما يحدث، فضلًا عن أن تستجيب له؛ لأن المهاجم الملثم ضربها في وجهها بحذائها ضربة عاتية، صدمت رأسها برأس زوجها الميت. في أثناء ذلك وجّه الملثم سلاحه إلى جهة سمير، الذي كاد أن يتأوه تعبيرًا عن توجعه من ألم الحرق العميق، وأطلق عليه النار مرتين إضافيتين. عبرت الطلقتان الصامتتان الفراغ في جزء ضئيل من ألف جزء من الثانية، وثقبتا جمجمة الطفل.

أراد الملثم أن يضرب المرأة ضربًا يفضي إلى الموت، لكنه خشي من أن يفضح الصراخ أمره، فاكتفى بأن يُخرِس المرأة بطلقتين متجاورتين في الدماغ. تمددت أربع جثث في مواضع نومها المعتادة في الغرفة، ولم يكن ثمة صوت مسموع، إلا صوت المعتدي الملثم، وهو يقول لنفسه هامسًا مغمغمًا لاهثًا: «قتلتهم.. قتلتهم جميعًا.. كلهم أموات».

لم تكن نيفين ذات الأعوام العشرة قد أفاقت من سباتها بعد، ولم تكن قد رأت أو أدركت بعد؛ لأن العتمة في الداخل كانت شديدة السواد، ولم يكن قد اتّفق لأي من الضحايا أن يصرخ أو يُصدر صوتًا أو ضجيجًا من أي نوع. لم تشعر بأي شيء إلا لما وضع المعتدي يده عليها وكممها، ثم كشف سوءتيها. لم يكن عليها إلا ثوب نوم بالٍ، ولباس داخلي رقيق اهترأ من شدة الاستعمال وتراكُم الوساخات، وهكذا سهل على المعتدي تعريتها.

لم يتيسر لها الصراخ أو الاستغاثة؛ لأن المعتدي طرحها على فراشها، إلى جوار جثتي أخويها، ودفن وجهها في وسادتها، فأخمد بذلك أي ضجة كانت قد صدرت منها، ثم إنها شعرت بألم حارق في فرجها ومهبلها. ألم دافق غليظ، لم يتهيأ لها الشعور به من قبل، حتى عندما اخترقت شظية ساخنة كتفها منذ عدة سنوات، وشلت ذراعها اليمنى. ثم دهمتها أنواع أخرى أشد حِدّة من الألم، في كل جزء من أجزاء جسمها النحيل الصغير.

في هذه الأثناء، تغلب المعتدي على ضحيته بقوته الغاشمة، وأبطل مفعول مقاومتها، وكان يلهث بعنفوان وغلظة، ويردد الزمجرة في صدره. وإذ هو يفعل ذلك، زنى بها رغمًا عنها بشراهة ووحشية، ولم يبالِ بالدم الذي دحض فيه أيره؛ وذلك أنه في أثناء عدوانه هذا، أخذ يطعنها في أنحاء جسدها بسكين ميدان مشرشر، نفذ نصله إلى لحمها ومزّق أعضاءها. فارقت نيفين الحياة قبل دقيقة أو دقيقتين من بلوغ المعتدي رعشة الجماع.

fb/mashro3pdf

لـم يبـالِ بتغير طبيعـة اللحـم الـذي يخـوض فيـه، وفقدانـه التماسـك، فكأنـه تمـزّق أو اهـترأ، إنمـا جعـل ينظـر حواليـه بجنـون، ثـم لمّـا أبـصر عـن يمينـه لـوح مـرآة عاكـس، ورأى نفسـه مـع ضحيتـه، بلـغ هياجـه المـدى، فـإذا بـه ينتفـض مـن وطـأة اللـذة ويـكاد أن يُصرع صرعًـا.

تلطـخ المعتـدي بالـدم مـن رأسـه إلى حذائـه، وكان قـد وقـف يعايـن نفسـه أمـام المـرآة، في الظلمـة الدامسـة، بعـد أن أفـاق مـن غشـية اللـذة. كان عـلى وشـك أن يوقـف عمـل كامـيرا الرؤيـة الليلـة، وأن يكتفـي بهـذا القـدر مـن الفيديـو المسـجل، لكنـه عـدل عـن رأيـه في اللحظـة الأخـيرة، وأتـم مخططـه تحـت سـمع الكامـيرا وبصرهـا. نـزع لثامـه وبَـزَق بوجهـه، واقـترب مـن المـرآة وتبسـم لنفسـه باضطـراب مُظهـرًا أسـنانه، وذلـك قبـل أن يـترك موضعـه هـذا ويصـب المـادة الحارقـة عـلى الجثـث مـن وعـاء كان قـد أحـضره معـه لهـذا الهـدف تحديـدًا، ثـم أضرم النـار في القتـلى والغرفـة، وفـر.

في هـذا التوقيـت، منـذ أربـع سـنوات، ونظـرًا لفنـاء الأدلـة الماديـة بعـد الحريـق وتفـشي أعمـال العنـف الانتقاميـة، بـدا الرقيـب شـون جاريـت فوجـل متهمًـا مثاليًـا. في منطقـة تتلظـى فيهـا أعمـال العنـف الوحشـية، وينشـط التمـرد في أفظـع صـوره، كان مـن الطبيعـي أن يصـاب شـون وأمثالـه باضطرابـات القتـال والكربـات التاليـة للصدمـات. وبالنظـر إلى سـلوكه الشـخصي المنفلـت، وتحرشـه المسـتمر بالضحايـا، ومـع الأخـذ في الاعتبـار تاريخـه المشـبوه أيضًـا، الملـوث بتعاطـي المخـدرات والإدمـان عـلى الكحوليـات والانخـراط في أعمـال إجراميـة الطابـع مثـل السرقـة والاعتـداء عـلى الممتلـكات، أحاطـت الشـبهات بالرقيـب شـون، واختـص وحـده بالنصيـب الأكـبر مـن الأدلـة المبـاشرة الـتي تمـس الواقعـة رأسًـا.

وتمـضي سـنوات أربعـة، يُحاكـم خلالهـا شـون، ويُـدان ويُسـجن ويمـوت، دون أن يعـترف بجرمـه. أقـر بارتكابـه جرائـم أخـرى في حـق مدنيـين أبريـاء، وأقـر أيضًـا بتحرشـه اللفظـي بالطفلـة نيفـين وأمهـا، لكنـه أبى أن يُـلام عـلى تلـك الجريمـة، وتنصـل منهـا تنصُّـلًا لـم يلـن يومًـا، إلى أن أقـدم عـلى الانتحـار.

تمسـك الرقيـب شـون جاريـت فوجـل بإنـكار الجريمـة، والتـبرؤ ممـا نسـب إليـه منهـا؛ لأنـه لـم يمـس نيفـين قـط ولا أمهـا، ولا دخـل منزلهمـا في تلـك الليلـة ولا في أي ليلـة أخـرى. لكـن لأنـه قـضى ليلتـه تلـك خـارج المعسـكر، في صحبـة مومـس محليـة كان قـد اعتـاد عـلى الـتردد عـلى منزلهـا بصفـة أسـبوعية في منطقـة فرسـيس، لـم يسـتطع أن يقـدِّم حُجـة غيـاب مقبولـة،

fb/mashro3pdf

ولـم تسـتطع جهـات التحقيـق العثـور عـلى المومـس المذكـورة، ولا اسـتطاع هـو أن يثبـت وجـوده في مـكان آخـر عنـد وقـوع الجريمـة.

يعلـم جايكـوب بينجامـين فيكسـلبرج، أنـه هـو، وهـو وحـده، الـذي كان موجـودًا في تلـك الليلـة في مـنزل العائلـة المنكوبـة، وأنـه هـو وليـس أحـدًا غـيره، الـذي ارتكـب جرائـم اقتحـام وقتـل عمـد واغتصـاب، مـع سـبق الإصرار والترصـد، وأنـه هـو، بشـحمه ولحمـه، الـذي قـام بتسـجيل الجريمـة صوتًـا وصـورة، وحفظهـا عـلى حاسـوبه الشـخصي، مـع غيرهـا مـن الجرائـم الـتي كان قـد ارتكبهـا قبـل هـذه الجريمـة وبعدهـا.

كمـا يعلـم جايكـوب يقينًـا، أن عهـده بالقتـل لـم ينتـه بعـد، وأن أفعالـه تلـك حتميـة لا مفـر منهـا، وأنهـا تحـدث بقـوة الجبلـة الذاتيـة، وليـس لهـا دافـع يدفعهـا عنـه، بـل وتجـب عليـه وجوبًـا لا يمكـن إسـقاطه، فكأنهـا وُلـدت ضمـن مـا وُلـد معـه مـن صفـات، كمـا يـدرك عـلى نحـو مبهـم أنهـا بثقلهـا وشـدة جذبتهـا تـكاد أن تكـون كالحقائـق اللدنيـة المبـاشرة، تلـك الـتي تتخلـل الـروح وتمكـث في سـويداء القلـب.

*****

fb/mashro3pdf

الخامس من أكتوبر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

•

نُقِلَ عمر من مؤسسة أم العريط العقابية إلى أحد مقار الأمن الوطني، وذلك لإتمام إجراءات الإفراج. سبعة أيام مرت عليه، حُبس فيها انفراديًا، إلى أن ضوى جسمه من شدة الحر وندرة الطعام، وتغير وجهه واسودّ لونه. رضي بحاله في زنزانته الجديدة، بعيدًا عن الأبالسة الآخرين، سجناء ومساجين. معظم أيامه ولياليه قضاها مستلقيًا على الأرضي الخرسانية، مستحجرًا في أديم الأرض، تحدق به القذارة والنتن، وتدور به وتسعى بين أوصاله الجرذان والصراصير. لم يكن يتحرك إلا للنظر إلى الطعام الذي يُلقى إليه، والذي كاد أن يماثل في بشاعته طعام أم العريط، أو لقضاء حاجته في وعاء بلاستيكي، ترسبت في قعره بركة راكدة متفطرة.

أمضى الشاب جل وقته ناعسًا، ولم يعد يُحدّث نفسه أو يناجي ربه كما جرت به العادة في العزلة، بل انقطع عن الصلاة، محتجًا بنجاسة الغرفة ونجاسته الشخصية. سَلَّم بدنه فريسة سائغة للقمل والقيء وسيولة البراز. تنزَّهت عذاباته عن تقلبات الليل والنهار، واستدامت حتى فقدت معناها، فإذا بروحه التي بين جنبيه تقع في فتور أشبه ما يكون بالموت.

وكان هذا قبل أن يُطلق سراحه إلى عالم قائظ، مدمَّر، مخيف.

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

العاشر من ديسمبر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في أوج فصل الشتاء، وبالتزامن مع موجة برودة وصقيع اجتاحت البلاد بدءًا من مساء العاشر من ديسمبر، هبطت الطائرة العمودية «وايت هوك إكس ٢٠» على مهبط كبار الزوار، في قاعدة ديكنسون العسكرية، وعلى متنها اللواء حسام داوود، في أول ظهور علني له منذ ما يزيد على عامين، وكان قد تجاوز عامه الرابع بعد الخمسين.

على بُعدٍ مناسب، تراصت ثلة من المسؤولين المصريين، العسكريين والمدنيين، وانتظموا في وقوفهم تبعًا لأصول وقواعد الاستقبال الرسمية، المُتَّبعة في الشؤون الدبلوماسية. كان من جملة المستقبلين رئيس الوزراء المصري، ومجموعة من رفاقه العسكريين والشرطيين الكبار، ممن يسوسون البلاد ويعنون بأمور الاستخبارات والحرب، وقد جاؤوا إلى هنا لاستقباله في هذه الأحوال الجوية شديدة القسوة، قسرًا وبقوة السلاح الأمريكي.

كانوا يعدون اللواء حسام رمزًا رديئًا فانيًا لا أهمية له، ولم يتصور أي منهم أن هذا الرجل المنهك المعاق، الذي أتى ليمضي فضلة عمره على التراب الوطني، سيقوم بتصفية معظمهم في غضون عام واحد.. لأنهم لم يكونوا قد أدركوا بعد كُنْه اللواء حسام داوود، وحقيقته.

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الثلاثون من ديسمبر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

بمقتضى شريعة الإسلام، غُسِّل جثمان أبي زكريا، وكُفن في ثلاث لفائف بيض، ثم نُقل على متن مروحية نقل عمودية سريعة التحليق من قاعدة ديكينسون العسكرية إلى حاملة الطائرات «يو إس إس إنتربرايز سي في إن - ٨٠»، المُبْحِرة في البحر المتوسط ضمن قطع الأسطول السادس الأمريكي.

كانت وزارة الخارجية الأمريكية قد تواصلت مع الحكومة المصرية بصفة رسمية، التزامًا بالمظاهر، وعرضت تسليم جثمان أبي زكريا كي يُدفن في وطنه. غير أن الحكومة المصرية أوضحت، على نحو رسمي أيضًا، أن أبا زكريا غير مرغوب فيه على أرض مصر، حيًا أو ميتًا. كشفت وزارة الخارجية الأمريكية للمسؤولين المصريين بجلاء عن المصير الذي ينتظر الجثة، إن هي ظلّت في حوزتهم، فلم يزِد رد رئيس الوزراء المصري عن أن قال للسفير الأمريكي بالقاهرة، في اتصال تليفوني: «تبدو لي خطة جيدة؛ امضوا فيها قدمًا».

وفي يوم إثنين مشمس لطيف النسيم، على ظهر حاملة الطائرات «يو إس إس إنتربرايز»، أقيمت مراسم دفن إسلامية بسيطة، في حضور عدد من الضباط والبحارة، منهم بحار أمريكي مسلم وحيد، قرأ ما تيسر من آيات الذكر الحكيم، وتعتع فيها وقد وجد مشقة في إتقان التلاوة.

تقدم إلى حافة ظهر حاملة الطائرات الكابتن مايكل جوين، الضابط التنفيذي، وقد أمسك بيديه صندوقًا متوسط الحجم من الألومينيوم، حوى كيلوجرامين ونصف الكيلوجرام من الرماد وطحين العظام الباهت الخشن، هما كل ما تبقى من جثمان أبي زكريا بعد حرقه.

رفع الكابتن مايكل جوين غطاء الصندوق، وأفرغه في الهواء، فانتثر الرماد وتساقط معظمه في ماء البحر، وذرت الريح ما فضل منه وفرقته تفريقًا وتبديدًا إلى جهة الجنوب، فلم يعد له أثر يرى.

*****

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في عام ٢٠١٢، صدرت رواية «النمروذ» لأحمد صلاح سابق، وخلال ثلاثة أعوام من تاريخ صدورها، صارت علامة بارزة من علامات أدب الجريمة العربي المعاصر.

في عام ٢٠١٤، شاركت النمروذ في الدورة الثامنة للجائزة العالمية للرواية العربية «البوكر»، حيث قام أعضاء لجنة تحكيم دورة ٢٠١٤، وأعضاء مجلس أمناء الجائزة، بترشيح اسم الكاتب ضمن عدد من أسماء الكتاب الواعدين، على مستوى الوطن العربي.

وفي نفس العام، شارك أحمد صلاح سابق بقسمٍ من رواية «وادي الرماد» في ندوة الجائزة العالمية للرواية العربية المرموقة، التي تُقام سنويًا في أبو ظبي، وكانت الرواية آنذاك قيد الكتابة. ناقش الرواية كل من الروائي المصري بهاء طاهر، والروائية والناقدة المغربية زهور كرّام، والروائي والشاعر الأردني الفلسطيني إبراهيم نصر الله، بحضور عددٍ من شباب الروائيين والشعراء والنقاد العرب، من مصر، والمغرب، والسعودية، والإمارات، وعمان.

وُلِد أحمد صلاح سابق في القاهرة عام ١٩٨١، وتخرج في كلية الهندسة، جامعة القاهرة، عام ٢٠٠٣. هو روائي، ورسام، ومصمم. عَمِل في عددٍ من ستوديوهات التصميم المصرية والعالمية، في القاهرة، وبودابست، ولندن، ويدير حاليًا عمله الخاص في المملكة المتحدة، حيث يعيش وأسرته.

fb/mashro3pdf

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كـل إنتـاج إبداعـي، جـودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسـالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنـا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **٠٢٣٥٦٨٨٦٧٨ - ٠٢٣٥٦٨٨٦٧٠**

هاتف محمول: **٠١٠٠١٨٧٢٢٩٠ / ٠١٠٠٥٢٤٨٧٩٤ / ٠١٠٠٠٤٠٥٤٥٠**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing

fb/mashro3pdf

وجوه

من وادي الرماد

©أحمد صلاح سابق ٢٠١٥

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

بلال
محمد السعيد

الفريسة

fb/mashro3pdf

"كارتر"
أوين أوبراين

الصديق

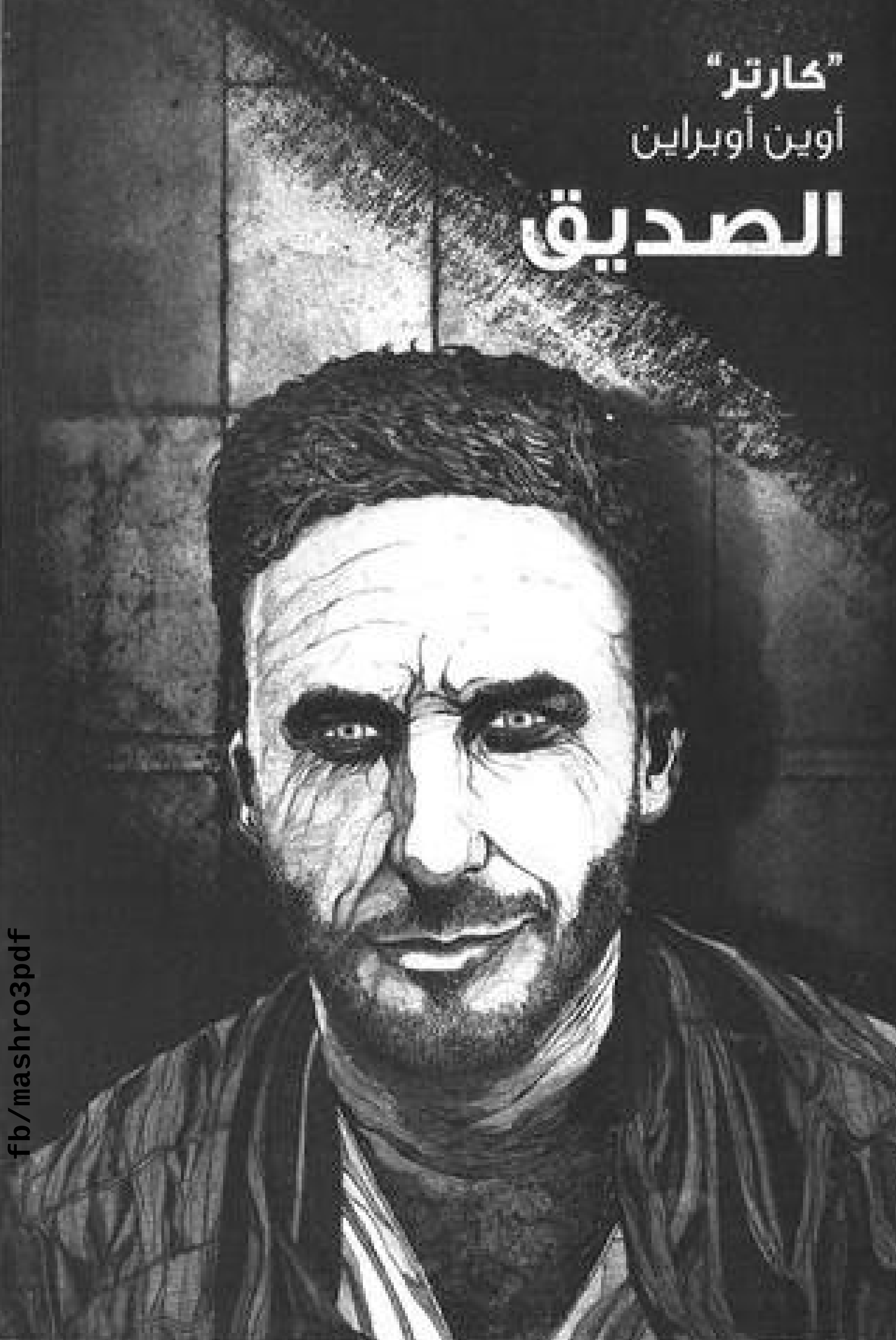

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إدواردو
كاتسوبولي

القواد

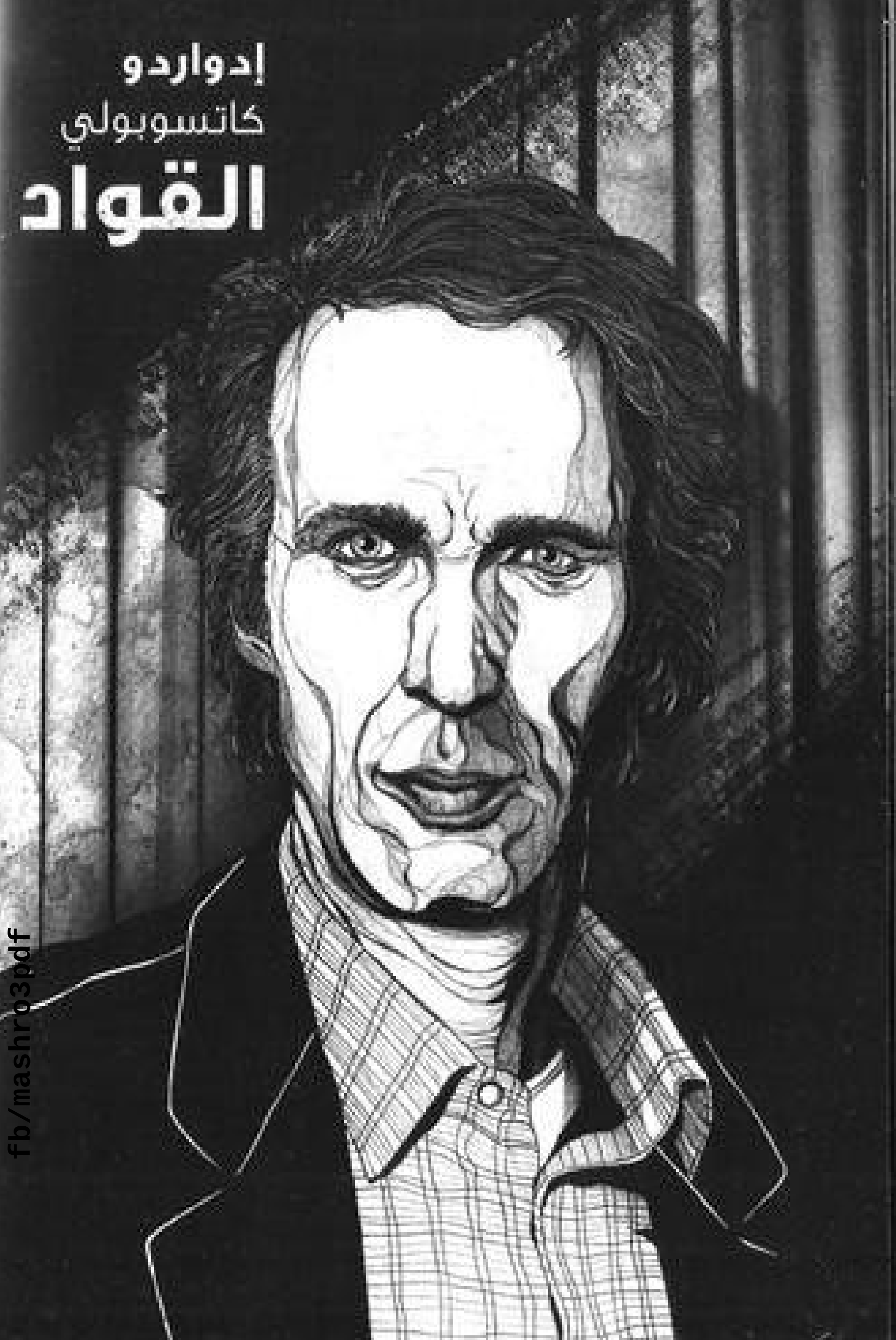

fb/mashro3pdf

"ناتاليا"

يانا رازوموفسكا

البغي

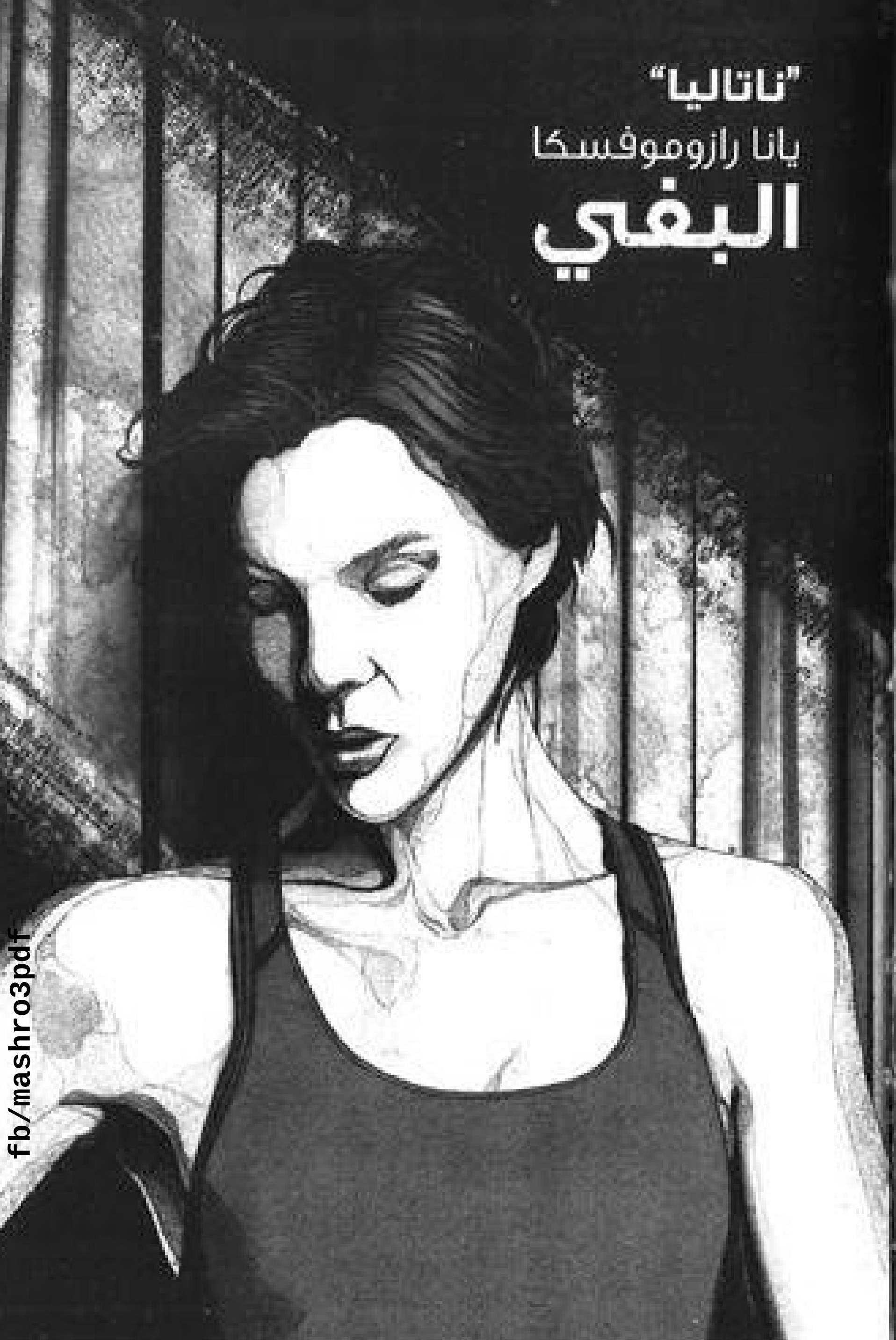

fb/mashro3pdf

جوزيف

ديتوماس

القائد

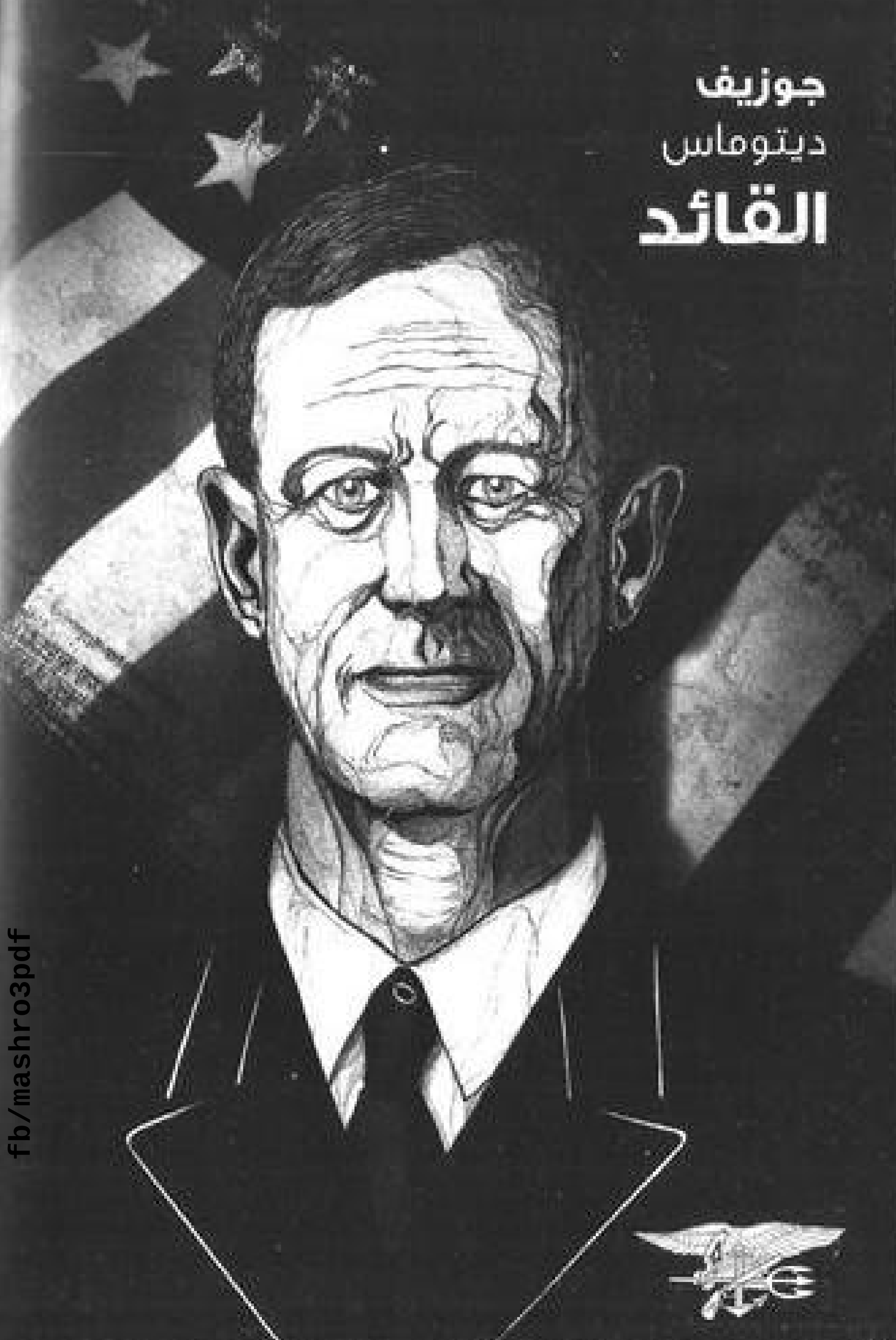

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

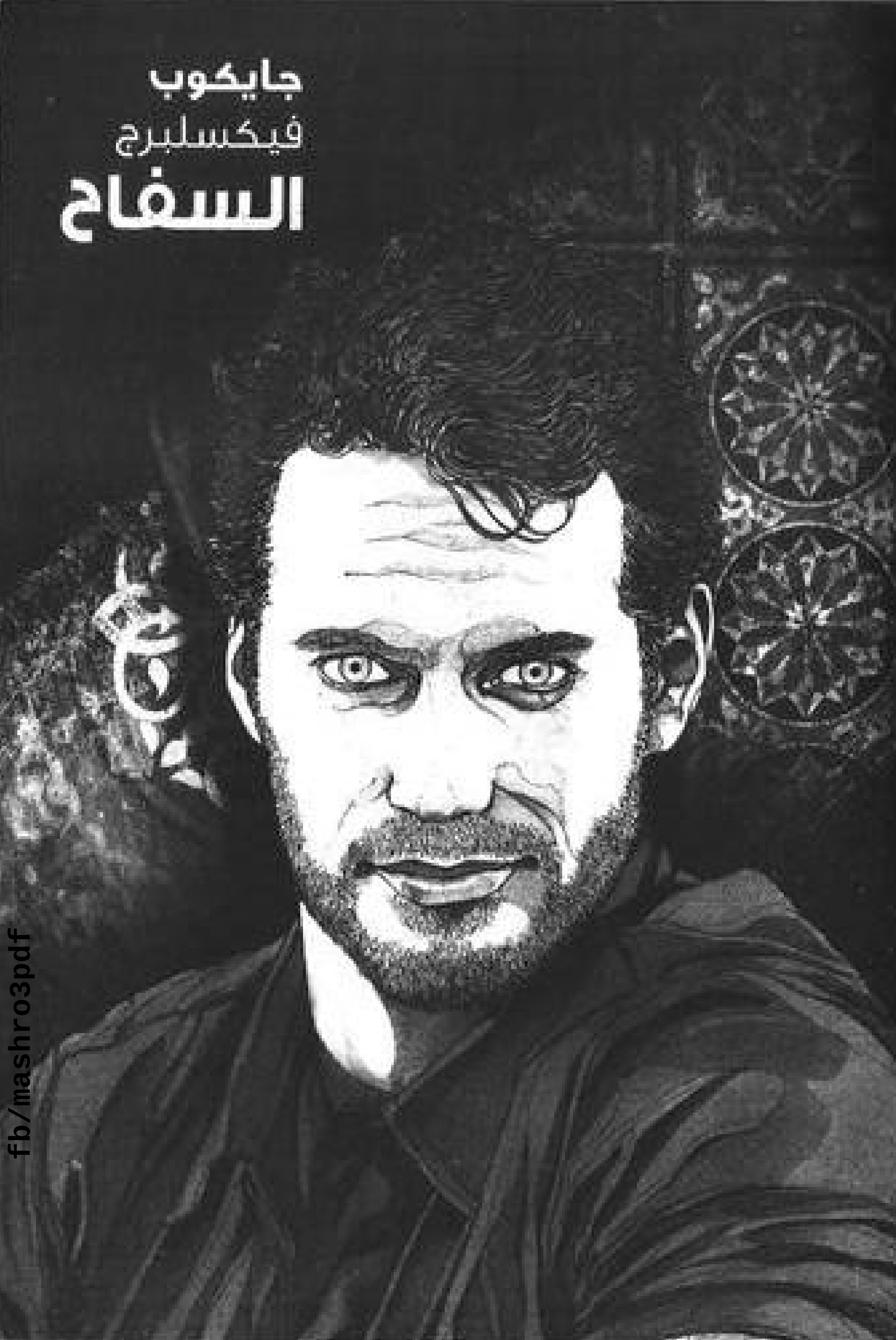

fb/mashro3pdf

عمّار

صفوت عبد الماجد

ابن الشهيد

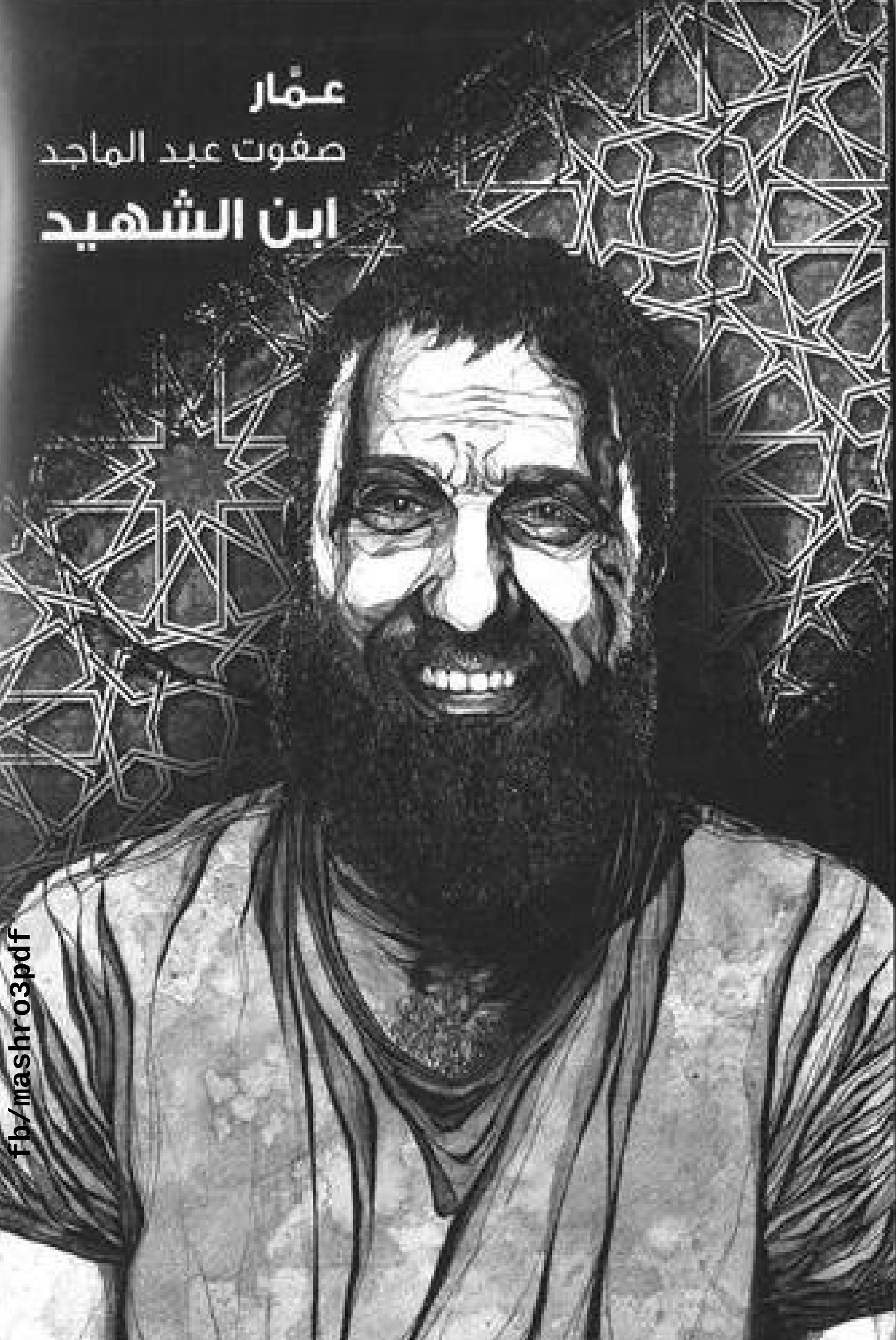

fb/mashro3pdf

"أبو زكريا"

عبد القادر بن عواد

الإمام

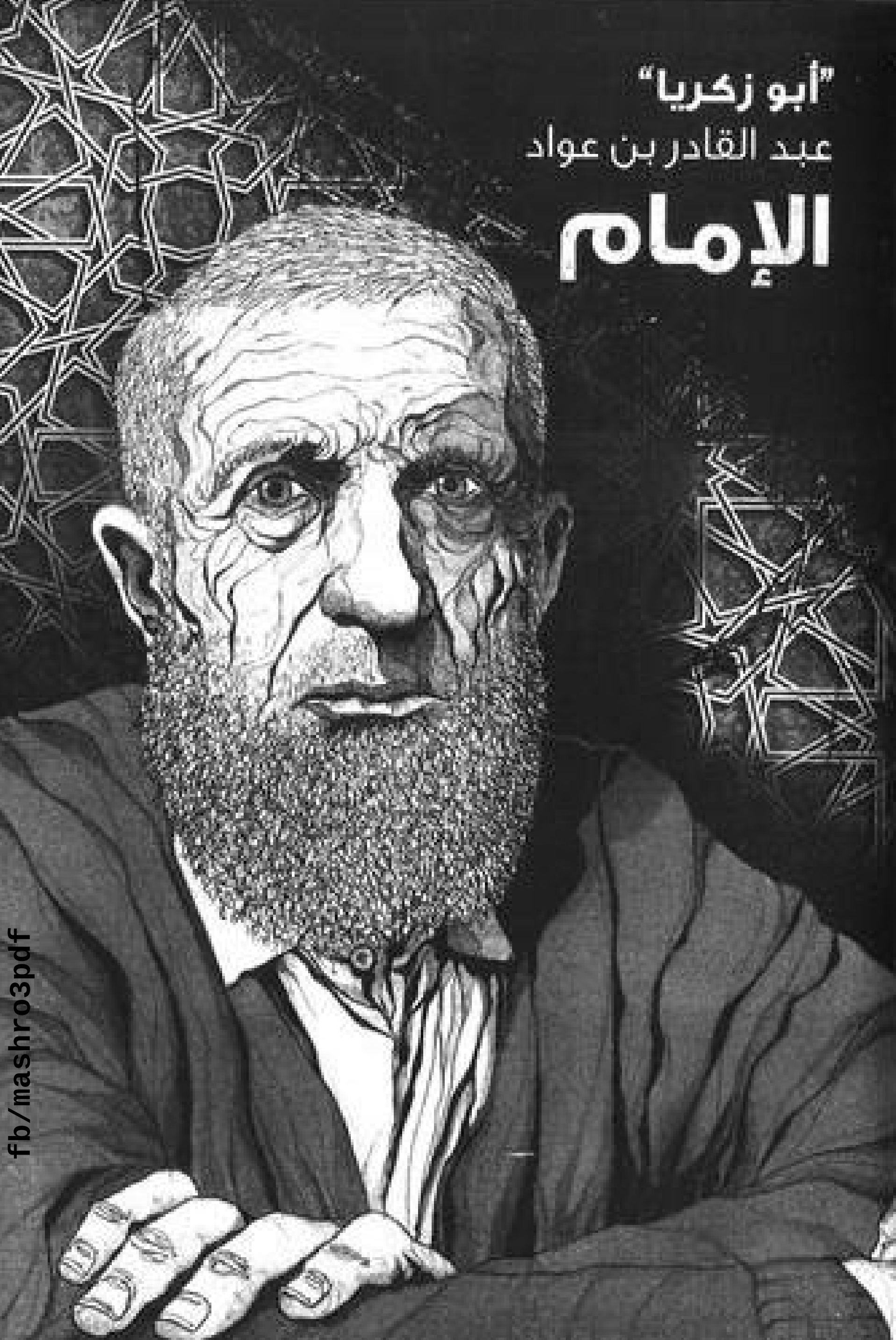

fb/mashro3pdf

حسام
الدين داوود

اللواء

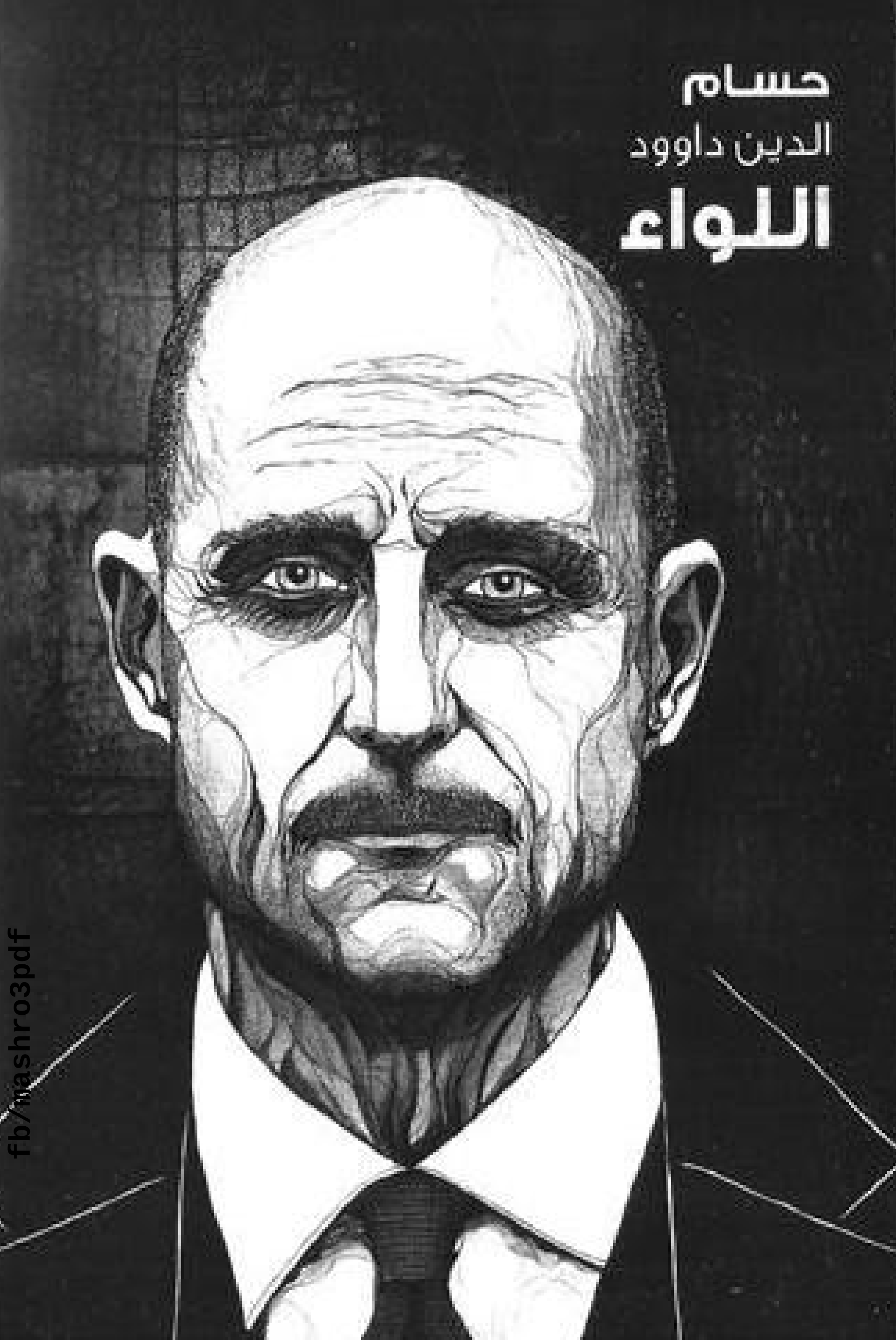

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

وتستمر المحنة
في الحلقة الثانية...

رواية

وادي الرماد

في صبيحة الخامس والعشرين من مارس، وبعد مرور شهر واحد على أحداث «فبراير الموت»، شنت الطائرات الحربية الأمريكية حملة مكثفة وواسعة النطاق على مصر.

....

خلال خمسين يومًا، وجَّهت القوات الجوية الأمريكية أكثر من مائة ألف هجوم جوي، ألقيت خلالهم على المدن والصحاري المصرية قرابة المائة ألف طن من المتفجرات.

....

قبل انتهاء الأسبوع السابع من الحملة الجوية، بدأت القوات البرية الغازية توغلها في الأراضي المصرية، ومالت على المدن والقرى فدمرتها تدميرًا. استوعبت العمليات القتالية الرئيسية تسعين يومًا بالتمام، وكانت في حقيقتها، ورغم كثافتها وضراوتها، عمليات قتالية تقليدية، فرقت شمل المقاومين وفَرَطَت تدبيرهم وأهلكتهم، وجعلت البلاد بأسرها دَكًّا.

....

أُطلِق على الغزو الاسم الرمزي «عملية صواعق الرعب»، وكان اسمًا على مسمى. على مدار الأعوام التالية، لم تنقطع صواعق الويل والهلاك عن العصف بأنحاء وادي النيل وأهله، فتبدَّلت الأرض، ومُسِخَت صور الخلائق، وادهامت دنيا الناس مدى الدهر.

....

لم يكن الغزو نهاية مبرمة، بقدر ما كان بداية خلَّاقة، غيرت وجه الحياة في الوادي، وأوجدت واقعًا غريبًا، مشحونًا، وأرضًا جدباء، قاسية، لم ير المصريون مثلها من قبل.

الغلاف رسوم وتصميم
أحمد صلاح سابق
©أحمد صلاح سابق ٢٠١٥

9 789776 376335

كيان
KAYAN PUBLISHING

fb/mashro3pdf